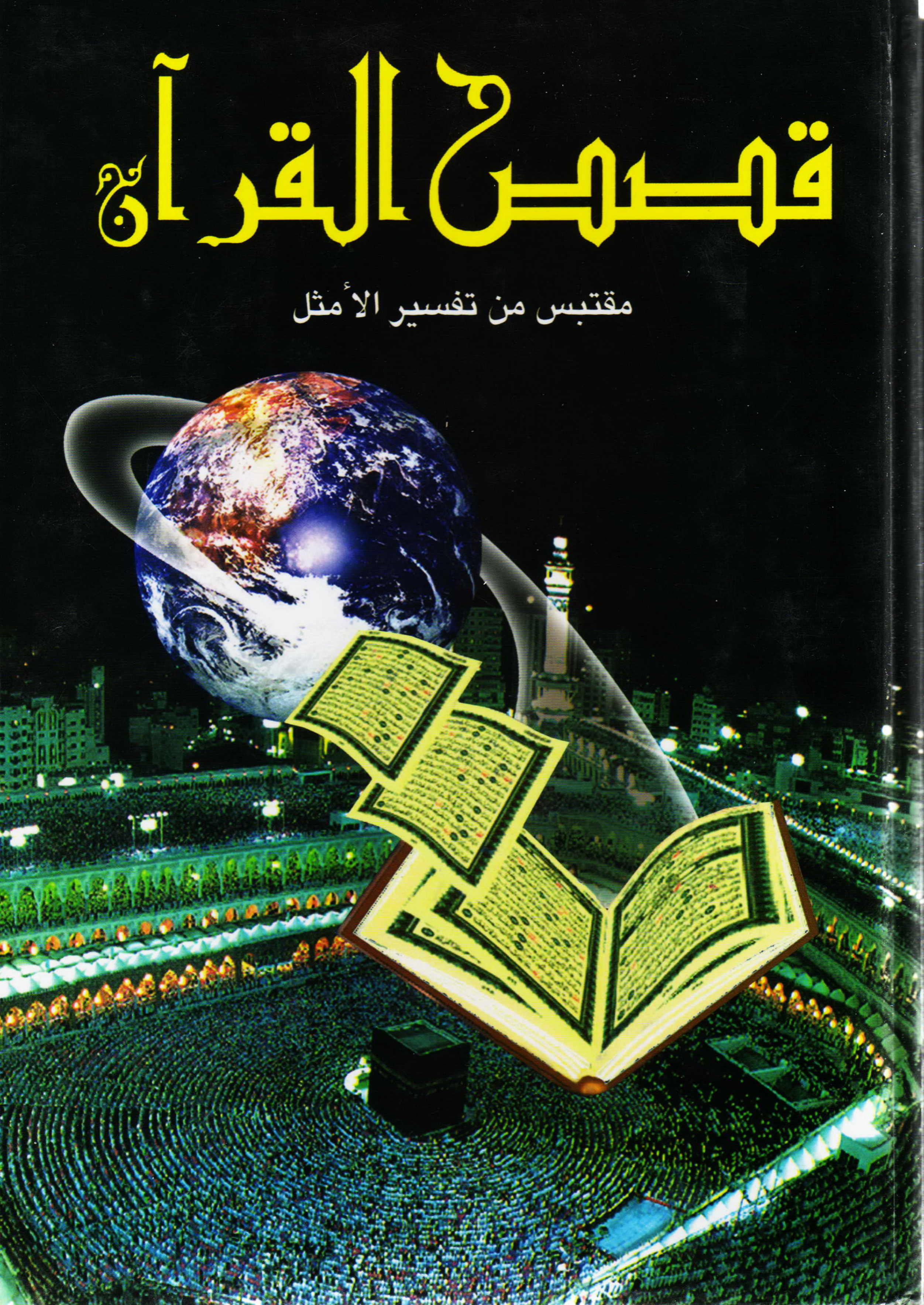

قصص القرآن
مقتبس من تفسير الأمثل

آية الله العظمى ناصر مكارم الشيرازي

قصص القرآن

مقتبس من تفسير الأمثل

مع مشاركة العلماء و الفضلاء

محمد رضا آشتياني/ محمد جعفر الامامي/ عبد الرسول الحسني/ حسن الشجاعي

نور الله الطباطبائي/محمود عبداللهي/محسن القرائتي/ محمد محمدي الاشتهاردي



اعداد و تنظيم

السيّد حسين الحسيني

الفهرس

تقديم آية الله العظمىٰ الشيخ مكارم الشيرازي

بسم‌الله‌الرحمن‌الرحيم

ليس القرآن المجيد كتاب تاريخ أو قصص أو علوم طبيعيّة أو بيان أسرار السماوات والأرض، وإنّما هو «كتاب هداية للبشر».

وبما أنّ أفضل الدروس و العبر تكمن في تاريخ الماضين لاسيّما الانبياء العظام والامم والشعوب الّتي كانت تحكم مساحات كبيرة من الأرض ثمّ انقرضت، كما تتجلّىٰ أعظم دروس التوحيد ومعرفة الله في أسرار خلقة العالم، فقد تعرّض القرآن لهذه الامور وفق اسلوب خاص، ليقدّم نماذج ومُثل لها أكبر تأثير في هداية الإنسان.

و من البديع أنّ القرآن في وقع آياته ومنهجه في كشف هذه القضايا لم يحافظ على جدته و حداثته وحسب، بل يقدّم علىٰ مرور الزمن مفاهيم أكثر جدة وعبرة، بحيث يحصد الشيخ والشاب والعالم و العامي ـ كلٌّ حسب حاله ـ سنابل من حصاد نور الهداية.

وليست هذه دعوىٰ مجرّدة، فإنّ بامكانكم أن تقتربوا من القرآن لتستجلوا هذه الحقيقة؛ وهذا الكتاب الذي بين يديك يمثّل نموذجاً حيّاً لذلك، فقد اشتمل على قصص الانبياء الكرام والماضين من الامم والاقوام، أعدّه العالم الفاضل حجّة الإسلام السيّد حسين الحسيني باذلاً قصارىٰ جهده، معتمداً حسن الذوق والسليقة مستفيداً من «تفسير الامثل». وهو بحقّ يعرّج بالقاريء نحو دنيا ملئها الهدىٰ والنور، ويرسم له منهج حياة تزخر بالسعادة والخير.

وأنا بدوري اشكر مساعيه، وأوصي الجميع بمطالعة هذا الاثر النافع، تقبّل الله منه ومنّا جميعاً.

قم ـ الحوزة العلميّة

ناصر مكارم الشيرازي

المدخل

لقد ألّف أعاظم علماء الشيعة تفاسير عديدة للقرآن المجيد علىٰ طول التاريخ كان بعضها ولا يزال محطّة لتزوّد العلماء والحوزات العلميّة وعشّاق القرآن، ولكن كان هناك فراغ علىٰ مستوىٰ تفسير يتّسم بخصائص «تفسير الامثل» وبخاصّة في هذا الزمن الذي يتزايد فيه التوجّه لفهم القرآن من قبل جميع الطبقات والمستويات. وقد لبّىٰ سماحة آية الله العظمىٰ مكارم الشيرازي مع ثلّة من الفضلاء، هذه الحاجة الملحّة وقدّموا للقرآن المجيد خدمة جليلة. وهنا نشير إلىٰ بعض خصائص هذا التفسير والّتي منحته شموليّة وجذّابيّة:

١ ـ رغم أنّ هذا التفسير يفتح الآفاق لعامّة من يتطلّعون إلى درك القرآن ولكنّه لم يغفل عن الجانب العلمي والبحثي مما يجعل الفائدة تعمّ أهل الفضل والعلم أيضاً.

٢ ـ أكّد هذا التفسير علىٰ قضايا حياتيّة تعدّ من صميم واقع الإنسان الاجتماعي والفردي معرضاً عن الخوض في غير الضروري.

٣ ـ تطرّق بما يتناسب والعناوين الموجودة في الآيات إلىٰ أبحاث مختصرة ومستقلّة، تغني القاريء من خلال مطالعة اجماليّة عن الرجوع إلىٰ الكتب الاخرىٰ.

٤ ـ تجنّب الاصطلاحات العلميّة المعقّدة ولكنّه في نفس الوقت تضمّن حسب الضرورة في الهوامش توضيحات ينتفع بها العلماء والمفكّرون فضلاً عن غيرهم.

٥ ـ إنّ احدىٰ الميزات المهمة لهذا التفسير تناوله قصص القرآن بقلم واضح جداً وشيّق، بعيداً عن كلّ خرافة.

لقد كانت هذه الخصائص سبباً لاستئذان سماحة الاستاذ لجمع القصص القرآنيّة في التفسير علىٰ حدة، لتكون في متناول الجميع فقوبل الطلب لحسن الحظّ بموافقة سماحته

فتمّت مطالعة دورة تفسير الأمثل بدقّة واستخرجت جميع المواد، فاعدّ هذا الكتاب، وينبغي التأكيد على نكات ضروريّة:

١ ـ قد ترد القصّة في عدّة مواضع من التفسير، فعلىٰ سبيل المثال قصّة النّبي موسىٰ عليه السلام فقد ذكرت أكثر من مائة وثلاثين مرة في ما يزيد على ثلاثين سورة فجمعت في مكان واحد بعد تنسيقها وربطها بطريقة خاصّة. وهذا ما استدعىٰ الوقت الكثير للقيام بهذه المراحل سواء مطالعة التفسير أو استخراج قصصه وتنظيمه وتبويبه وإن تراىٰ عملاً سهلاً وبسيطاً.

٢ ـ بما أنّ هذه القصص جاءت منسجمة مع القرآن من خلال ذكر السورة ورقم الآية (في الهامش) في تمام هذه المجموعة، وهذه من خصائص هذا الكتاب المهمّة من هنا يمكنكم العثور ببساطة على موضوعات و مصادر هذا الكتاب، في تفسير الامثل ولذا تمّ الاحتراز عن ذكر العناوين.

٣ ـ لقد ذكر القرآن الكريم بالاضافة إلىٰ مجموعة من القصص، أسماء ستّة وعشرين نبيّاً بصراحة وهم: آدم، ادريس، نوح، هود، صالح، ابراهيم، اسماعيل، اسحاق، لوط، يوسف، يعقوب، شعيب، موسىٰ، هارون، داود، سليمان، ايوب، يونس، الياس، اليسع، ذاالكفل، عزير، زكريا، يحيىٰ، عيسىٰ و محمد صلى الله عليه وآله.

وأمّا النّبي اشموئيل من انبياء الله، فقد تعرّض القرآن إلىٰ قصّته وإن لم يشر إلىٰ اسمه وعلى هذا الاساس فإنّ هذا الكتاب يتكوّن من ثلاثة اقسام.

القسم الاوّل: قصّة الانبياء في القرآن.

القسم الثاني: قصص قرآنيّة اخرىٰ.

القسم الثالث: قصّة نبي الإسلام صلى الله عليه وآله في القرآن.

واجد لزاماً ان اشكر الاخ العزيز ثقةالإسلام الشيخ محمود الغفاري و الاخ أحمد فاضل السعيدى والاخ السيد على‌رضا الحسيني على تعاونهم الصادق معي، وفي الخاتمة نذكّر بأنّنا وفّقنا في العام الماضي لاعداد «مائة وثمانين سؤالاً وجواباً» تمّ استخراجها من تفسير الامثل بمساعدة الاصدقاء الاعزّاء وقد لاقت استقبالاً وسيعاً لا سيّما من قبل جيل الشباب والمتعلّمين نأمل أن يكون هذا العمل القليل موضع قبول بقيّة الله ارواحنا فداه.

قم ـ السيّد حسين الحسيني

أثر القصّة في حياة الناس

مع ملاحظة أنّ القسم المهمّ من القرآن قد جاء على صورة تأريخ للأُمم السابقة وقصص الماضين، فقد يتساءل البعض: لِمَ يحملُ هذا الكتاب التربوي كل هذا «التأريخ» والقصص؟!

وتتضح العلة الحقيقية للموضوع بملاحظة عدّة نقاط:

١ ـ إنّ التاريخ مختبر لنشاطات البشرية المختلفة، وما رسمه الإنسان في ذهنه من الأفكار والتصورات يجده بصورة عينية على صفحات التاريخ. وبملاحظة أنّ أكثر المعلومات البشرية توافقاً مع الواقع والحقيقة هي التي تحمل جانباً حسيّاً، فإنّ دور التاريخ في إظهار الواقعيّات الحياتية يمكن دركه جيداً.

فالإنسان يرى بأُم عينيه الهزيمة المُردية ـ لأمّةٍ ما ـ نتيجة اختلافها وتفرقها، كما يرى النجاح المشرق في قوم آخرين في ظل اتّحادهم وتوافقهم. فالتاريخ يتحدّث بلغة ـ من دون لسان ـ عن النتائج القطعية وغير القابلة للإنكار للتطبيقات العملية للمذاهب والخطط والبرامج عند كل قوم.

وقصص الماضين مجموعة من أكثر التجارب قيمة. ونعرف أنّ خلاصة الحياة ومحصولها ليس شيئاً سوى التجربة.

والتاريخ مرآة تنعكس عليها جميع ما للمجتمعات الإنسانية من محاسن ومساوىء ورقي وانحطاط والعوامل لكلّ منها.

وعلى هذا فإنّ مطالعة تاريخ الماضين تجعل عمر الإنسان طويلاً بقدر أعمارهم حقّاً، لأنّها تضع مجموعة تجاربهم خلال أعمارهم تحت تصرفه واختياره.

ولهذا يقول الإمام علي عليه السلام في حديثه التاريخي خلال وصاياه لولده الحسن المجتبىٰ في هذا الصدد: «**أي بني إني وإن لم أكن عمّرت عُمْرَ من كان قبلي، فقد نظرت في أعمالهم، وفكّرت في أخبارهم، وسرت في آثارهم، حتى عُدت كأحدهم، بل كأنّي بما إنتهى إلي من أُمورهم قد عمرت من أوّلهم الى آخرهم**»[1].

والتاريخ الذي نتحدث عنه طبعاً هو التاريخ الخالي من الخرافات والأكاذيب والتملّقات والتحريفات والمسوخات.

ولكن ـ وللأسف ـ مثل هذا النوع من التاريخ قليل جداً.

ولا ينبغي أن نبعد عن النظر ما للقرآن من أثر في بيان «نماذج» من التاريخ الأصيل وإراءتها.

التاريخ الذي ينبغي أن يكون كالمرآة الصافية لا المقعّرة.

التاريخ الذي لا يتحدث عن الوقائع فحسب، بل يصل الى الجذور ويسترشف النتائج.

فمع هذه الحال لِمَ لا يستند القرآن ـ الذي هو كتاب تربوي عالٍ في فصوله ـ على التاريخ ويأتي بالشواهد والأمثال من قصص الماضين؟!

٢ ـ ثمّ بعد هذا فإنّ للتاريخ والقصّة جاذبية خاصّة، والإنسان واقع تحت هذا التأثير الخارق للعادة في جميع أدوار حياته من سنّ الطفولة حتى الشيخوخة.

ولذلك فإنّ التاريخ والقصّة يشكلان القسم الأكبر من آداب العالم وآثار الكتّاب. وأحسن الآثار التي خلّفها الشعراء والكتاب الكبار سواء كانوا من بلاد العرب أو من فارس أو من بلاد أُخرىٰ هي قصصهم.

فأنت تلاحظ «الكلستان» ـ لسعدي و«الشاهنامة» لفردوسي و«الخمسة» للنظامي وكذلك آثار «فيجتور هيجو» الفرنسي و«شكسبير» الإنجليزي و«غوتِه» الألماني جميعها كتبت على هيئة قصص جذابة».

والقصّة سواء كُتبت نثراً أو شعراً، أو عُرضت على شاشة المسرح أو بواسطة الفيلم السينمائي، فإنّها تترك أثراً في المشاهد والمستمع دونها أثر الاستدلالات العقلية في مثل هذا التأثير.

١ ـ نهج البلاغة، من كتاب له عليه السلام لولده الحسن المجتبى عليه السلام.

والعلّة في ذلك قد تكون أنّ الإنسان حسي بالطبع قبل أن يكون عقلياً ويتخبط في المسائل المادية قبل أن يتعمق في المسائل الفكرية.

وكلما ابتعد الانسان عن ميدان الحسّ في نفسها جانباً عقلياً، كانت هذه المسائل أثقل على الذهن وأبطأ هضماً.

ومن هنا نلاحظ أنّه لأجل بيان الإستدلال العقلي يستمد المفكرين في المسائل الاجتماعية والحياتية المختلفة وتوغل في البعد العقلي من الأمثلة الحسيّة، وأحياناً يكون للمثال المناسب والمؤثر في الإستدلال قيمة مضاعفة، ولذلك فإنّ العلماء الناجحين هم أُولئك الذين لهم هيمنة على انتخاب أحسن الأمثلة.

ولم لا يكون الأمر كذلك، والإستدلالات العقلية هي حصيلة المسائل الحسّية والعينيّة والتجريبيّة؟!

٣ ـ القصّة والتاريخ مفهومان عند كل أحد، على خلاف الإستدلالات العقلية، فإنّ الناس في فهمها ليسوا سواسية ... وعلى هذا فإنّ الكتاب الشامل الذي يريد أن يستفيد منه البدوي الأمّي والمتوحش ... إلى الفيلسوف والمفكر الكبير، يجب أن يكون معتمداً على التاريخ والقصص والأمثلة.

ومجموعة هذه الجهات تبيّن أنّ القرآن خطا أحسن الخطوات في بيان التواريخ والقصص في سبيل التعليم والتربية، ولا سيّما إذ التفتنا الى هذه النقطة، وهي أنّ القرآن لا يذكر الوقائع التاريخية في أيّ مجال بشكلٍ عارٍ من الفائدة، بل يذكر معطياتها بشكل يُنتفع بها تربوياً.

القسم الاوّل

قصص الأنبياء

النّبي آدم عليه السلام

شاء الله أن يخلق علىٰ ظهر الأرض موجوداً، يكون فيها خليفته، ويحمل أشعة من صفاته، وتسمو مكانته علىٰ مكانة الملائكة، وشاء سبحانه أن تكون الأرض ونعمها وما فيها من كنوز ومعادن وإمكانات تحت تصرف هذا الإنسان.

مثل هذا الموجود بحاجة إلى قسط وافر من العقل والشعور والإدراك والكفاءة الخاصة، كي يستطيع أن يتولى قيادة الموجودات الأرضية.

وبهذه المناسبة يقول القرآن الكريم: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[1].

الإمام جعفر بن محمّد الصّادق عليه السلام يشير أيضاً إلى هذا المعنى وهو أنّ الملائكة لمّا وَقَفُوا عَلَىٰ عَظِيمِ مَنْزِلَةَ آدم و اولاده عِنْدَ اللهِ عَزَّ ذِكْرُهُ عَلِمُوا أَنَّهُمْ أَحَقُّ بِأَنْ يَكُونوا خُلَفَاءَ اللهِ في أرْضِهِ وَحُجَجهِ عَلىٰ بَرِيَّتِهِ

سؤال الملائكة

يذكر القرآن الكريم سؤال الملائكة الذي وجّهوه لربّ العالمين مستفسرين لا معترضين:

﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾؟

---

١ ـ البقرة، ٣٠.

الله سبحانه أجاب الملائكة جواباً مغلقاً اتضح في المراحل التالية: ﴿**قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ**﴾[١].

الملائكة كانوا عالمين ـ كما يبدو من تساؤلهم ـ أن هذا الإنسان موجود يفسد في الأرض ويسفك الدماء، فكيف عرفوا ذلك؟!

قيل إن الله سبحانه أوضح للملائكة من قبل علىٰ وجه الإجمال مستقبل الإنسان، وقيل إن الملائكة فهموا ذلك من خلال عبارة «في الأرض»، لأنهم علموا أن هذا الإنسان يخلق من التراب، والمادة لمحدوديتها هي حتماً مركز للتنافس والنزاع. وهذا العالم المحدود المادي لا يستطيع أن يشبع طبيعة الحرص في الإنسان. وهذه الدنيا لو وضعت بأجمعها في فم الإنسان فقد لا تشبعه. وهذا الوضع ـ إن لم يقترن بالإلتزام والشعور بالمسؤولية ـ يؤدي إلى الفساد وسفك الدماء.

بعض آخر ذهب إلى أنّ تنبؤ الملائكة يعود إلى تجربتهم السابقة مع مخلوقات سبقت آدم، وهذه المخلوقات تنازعت وسفكت الدماء وخلفت في الملائكة انطباعاً مرّاً عن موجودات الارض.

الملائكة يعلمون أن الهدف من الخلقة هو العبودية والطاعة، وكانوا يرون في أنفسهم مصداقاً كاملاً لذلك، فهم في العبادة غارقون. ولذلك فهم ـ أكثر من غيرهم ـ للخلافة لائقون، غير عالمين أن بين عبادة الإنسان المليء بألوان الشهوات، والمحاط بأشكال الوساوس الشيطانية والمغريات الدنيوية وبين عبادتهم، ـ وهم خالون من كل هذه المؤثرات ـ بون شاسع. فأين عبادة هذا الموجود الغارق وسط الأمواج العاتية، من عبادة تلك الموجودات التي تعيش علىٰ ساحل آمن؟!

ماذا تعرف الملائكة من ابناء آدم أمثال محمّدﷺ وابراهيم ونوح وموسىٰ وعيسىٰ والأئمّة من أهل البيتعليهم السلام وعباد الله الصالحين والشهداء والمضحّون من الرجال والنساء الذين قدّموا وجودهم علىٰ مذبح العشق الإلهي، والذين تساوي ساعة من تفكّرهم سنوات متمادية من عبادة الملائكة. الجدير بالذكر، إن الملائكة ركنوا في بيان فضلهم إلى ثلاثة أُمور: التسبيح والحمد، والتقديس.

---

١ ـ البقرة، ٣٠.

وفي الحقيقة أن مرادهم هو القول بأن الهدف اذا كان هو الطاعة والعبودية فنحن علىٰ أتمّ الاستعداد. ولو كان هو العبادة فنحن في هذه الحالة دائماً، واذا كان المقصود هو تطهير النفس أو تطهير الارض فسوف ننفذ هذا الامر. في حين أن الانسان المادي مضافاً إلى فساده. فانه يفسد الارض.

ومن أجل أن تتضح الحقيقة للملائكة أقدم الله سبحانه علىٰ هذه التجربة ليعلموا الفرق الشاسع بينهم وبين آدمعليه‌السلام.

الملائكة في بودقة الاختبار

كان آدم يملك ـ بفضل الله ـ قابلية خارقة لفهم الحقائق. وشاء الله أن ينقل هذه القابلية من مرحلة القوّة إلى مرحلة الفعل، وهذا ما عبر عنه القرآن بقوله: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾[1].

﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ: أَنْبِؤُنِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ...﴾ وأمام هذا الاختبار تراجع الملائكة لأنهم لم يملكوا هذه القدرة العلمية التي منحها الله لآدم، ﴿قَالُوا: سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾.

وهكذا أدركت الملائكة تلك القدرة التي يحملها آدم، التي تجعله لائقاً لخلافة الله علىٰ الأرض. وفهمت مكانة هذا الكائن في الوجود.

---

١ ـ اختلف المفسرون في تفسير «تعليم الأسماء»، ومن المؤكد أن المقصود من ذلك ليس هو تعليم الأسماء دون المعاني. فذلك لا يكسب آدم فخراً. بل المقصود هو معاني الأسماء والمفاهيم والمسميات.

هذا العلم بالكون وبأسرار الموجودات وخواصها، كان مفخرة كبيرة لآدم طبعاً.

عن أبي العباس قَال: سألت الإمام الصادقعليه‌السلام عن قولِ الله: وَعلّمَ آدَمَ الأَسماءَ كلها، ماذا علّمه؟ قال: «الأَرَضِينَ وَالجبال والشعابَ والأوديةَ ثم نظر إلى بساط تحته فقال: وهذا البساط ممّا علّمهُ».

علم الأسماء إذن لم يكن يشبه «علم المفردات»، بل كان يرتبط بفلسفة الأسماء وأسرارها وكيفياتها وخواصها. والله سبحانه منح آدم هذا العلم ليستطيع أن يستثمر المواهب المادية والمعنوية في الكون علىٰ طريق تكامله.

كما منح الله آدم قابلية التسمية، ليستطيع أن يضع للأشياء أسماء، وبذلك يتحدث عن هذه الأشياء بذكر اسمها لا بإحضار عينها. وهذه نعمة كبرى، نفهمها لو عرفنا أن علوم البشرية تنقل عن طريق الكتب والمدوّنات. وما كان هذا التدوين مقدوراً لولا وضع الأسماء للأشياء وخواصها.

وحان الدور لآدم كي يشرح أسماء الموجودات وأسرارها أمام الملائكة: ﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾[١].

وهنا اتضح للملائكة أن هذا الموجود هو وحده اللائق لاستخلاف الأرض.

آدم عليه السلام في الجنّة

ينتقل القرآن إلى فصل آخر من موضوع عظمة الإنسان، ويقول: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ، وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾[٢].

الآية المذكورة تقرير قرآني واضح صريح لشرف الإنسان وعظمة مكانته. فكل الملائكة يؤمرون بالسجود له بعد اكتمال خلقته.

حقاً، إن هذا الموجود، اللائق لخلافة الله علىٰ الأرض، والمؤهل لهذا الشوط الكبير من التكامل وتربية أبناء عظام كالأنبياء وخاصة النّبي الخاتم صلى الله عليه وآله، يستحق كل احترام.

لماذا أبىٰ إبليس؟

وإبليس ـ كما صرح القرآن ـ ما كان من جنس الملائكة وإن كان في صفوفهم، بل كان من طائفة الجن، وهي مخلوقات مادية[٣].

باعثه علىٰ الإمتناع عن السجود كبر وغرور وتعصب خاص استولى عليه حيث اعتقد أنه أفضل من آدم، ولا ينبغي أن يصدر له أمر بالسجود لآدم، بل ينبغي أن يؤمر آدم بالسجود له.

ثمّ إنّ الله تعالىٰ أخذ إبليس على عصيانه وطغيانه، و﴿قال ما منعك أن لا تسجد إذ أمرتك﴾. فتعذر ـ في مقام الجواب ـ بعذر غير وجيه إذ: ﴿قال أنا خيرٌ منه خلقتني من نار وخلقته من طين﴾[٤].

وكأن إبليس كان يتصوّر أنّ النّار أفضل من التراب، وهذه هي أكبر غلطاته وأخطائه، ولعلّه

---

١ ـ البقرة، ٣٣ ـ ٣١.

٢ ـ البقرة، ٣٤.

٣ ـ قال تعالى: ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الجِنِّ﴾ (الكهف، ٥٠).

٤ ـ الاعراف، ١٢.

لم يقل ذلك عن خطأ والتباس، بل كذب عن وعي وفهم.

ولكن قصّة الشيطان لم تنته إلى هذا الحدّ، فهو عندما عرف بأنه صار مطروداً من حضرة ذي الجلال زاد من طغيانه ولجاجته، وبدل أن يتوب ويثوب إلى الله ويعترف بخطئه فإنّ الشيء الوحيد الذي طلبه من الله تعالى هو أن يمهله ويؤجّل موته إلى يوم القيامة: **﴿قال انظرني إلى يوم يُبعثون﴾**.

ولقد استجاب الله لهذا الطلب، ف**﴿قال إنّك من المنظَرين﴾** [١].

إنّ القرآن الكريم وان لم يصرّح بالمقدار الذي استجيب من طلب الشيطان من حيث الزمن، إلّا أنه تعالى قال له: **﴿إنّك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم﴾** [٢] وهذا يعني أن مطلب الشيطان لم يستجب له بتمامه وكماله، بل استجيب إلى الوقت الذي يعلمه الله تعالى.

غير أنّ الشيطان لم يبغ من مطلبه هذا (أي الإمهال الطويل) الحصول على فرصة لجبران مافات منه أو ليعمّر طويلاً، إنّما كان هدَفه من ذلك هو إغواء بني البشر **﴿وقال فبما أغويتني لأقعدنّ لهم صراطك المستقيم﴾** [٣] أي لأغوينهم كما غويتُ، ولأُضِلنّهم كما ضللتُ.

ثمّ إنّ الشيطان أضاف ـ تأكيداً لقوله ـ بأنّه لن يكتفي بالقعود بالمرصاد لهم، بل سيأتيهم من كل حدب وصوب، ويسدّ عليهم الطريق من كل جانب **﴿ثمّ لآتينّهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين﴾** [٤].[٥]

ولهذا صدر الأمر بخروجه فقط، ولكن عندما أضاف معصية أكبر إلى معصيته بالعزم على إضلال الآخرين جاء الأمر المشدَّد: **﴿قال أُخرج منها مذءوماً مدحوراً﴾**.

---

١ ـ الاعراف، ١٥ ـ ١٤.

٢ ـ الحجر، ٣٨ ـ ٣٧.

٣ ـ الاعراف، ١٦ .

٤ ـ الاعراف، ١٧ .

٥ ـ ويمكن أن يكون هذا التعبير كناية عن أنّ الشيطان يحاصر الإنسان من كل الجهات ويتوسل إلى إغوائه بكل وسيلة ممكنة، ويسعى في إضلاله، وهذا التعبير دارج في المحاورات اليومية أيضاً، فنقول: فلان حاصرته الديون أو الأمراض من الجهات الأربع.
وعدم ذكر الفوق والتحت إنّما هو لأجل أنّ الإنسان يتحرك عادة في الجهات الأربع المذكورة، ويكون له نشاط في هذه الأنحاء غالباً.

ثمّ حلف على أن يملأ جهنم منه ومن اتباعه ﴿لمن تبعك منهم لأملأنّ جهنم منكم أجمعين﴾ [١][٢].

الاستقرار في الجنّة

بعد هذا المشهد ومشهد اختبار الملائكة، أُمر آدم وزوجه أن يسكنا الجنّة ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوجُكَ الجَنَّةَ، وَكُلاَ مِنْهَا رَغداً حَيْثُ شِئْتما وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ [٣].

يستفاد من آيات القرآن أن آدم خُلق للعيش علىٰ هذه الأرض. لكنّ الله شاء أن يسكنه قبل ذلك الجنّة، وهي روضة خضراء موفورة النعمة في هذا العالم، وخالية من كل ما يزعج آدم.

لعل مرحلة مكوث آدم في الجنّة كانت مرحلة تحضيرية لعدم ممارسة آدم للحياة علىٰ الارض وصعوبة تحمّل المشاكل الدنيوية بدون مقدمة، ومن أجل تأهيل آدم لتحمل مسؤوليات المستقبل، ولتفهيمه أهمية حمل هذه المسؤوليات والتكاليف الإلهية في تحقيق سعادته، ولإعطائه صورة عن الشقاء الذي يستتبع إهمال هذه التكاليف، ولتنبيهه بالمحظورات التي سيواجهها علىٰ ظهر الأرض.

وكان من الضروري أيضاً أن يعلم آدم بإمكان العودة إلى الله بعد المعصية. فمعصية الله ـ لا تسدّ إلى الأبد ـ أبواب السعادة أمامه، بل يستطيع أن يرجع ويعاهد الله أن لا يعود لمثلها، وعند ذاك يعود إلى النعم الإلهية.

ينبغي أن ينضج آدمعليه السلام في هذا الجوّ إلى حدٍ معيّن، وأن يعرف أصدقاءه وأعداءه، ويتعلم

---

١ ـ الاعراف، ١٨.

٢ ـ هل كان السّجود لله أم لآدمعليه السلام؟

لا شك أن السجود يعني «العبادة» لله، إذ لا معبود غير الله، وتوحيد العبادة يعني أن لا نعبد إلّا الله. من هنا فإن الملائكة لم يؤدوا لآدم يعني «سجدة عبادة» قطعاً. بل كان السجود لله من أجل خلق هذا الموجود العجيب. أو كان سجود الملائكة لآدم سجود «خضوع» لا عبادة.

جاء في «عيون الأخبار» عن الإمام علي بن موسى الرضاعليه السلام: «كَانَ سُجُودُهُمْ للهِ تَعَالىٰ عُبُودِيَّةً، وَلآدَمَ إكْراماً وَطَاعَةً، لِكَونِنَا فِي صُلْبِهِ».

٣ ـ البقرة، ٣٥.

كيف يعيش علىٰ ظهر الأرض. نعم، كانت هذه مجموعة من التعاليم الضرورية التي تؤهله للحياة علىٰ ظهر الأرض.

كانت هذه مقدمات تأهيلية يحتاجها آدم وأبناء آدم في حياتهم الجديدة. ولعل الفترة التي قضاها آدم في الجنّة أن ينهض بمسؤولية الخلافة علىٰ الأرض كانت تدريبية أو تمرينية.

وسوسة الشيطان

وهنا رأى «آدم» نفسه أمام أمر إلهي يقضي بعدم الاقتراب من الشجرة، لكن الشيطان أبىٰ إلّا أن ينفذ بقسمه في إغواء آدم وذريته، فطفق يوسوس لآدم ويعده وزوجه.

وللوصول إلى هذا الهدف رأى أنّ أفضل طريق هو أن يستغلّ حبّ الإنسان ورغبته الذاتية في التكامل والرقي والحياة الخالدة، وليوفّر لهما عذراً يعتذران ويتوسلان به لتبرير مخالفتهما لأمر الله ونهيه، ولهذا قال لآدم وزوجته: **﴿ما نهاكما ربّكما عن هذه الشجرة إلّا أن تكونا مَلَكَين أو تكونا من الخالدين﴾**.

وبهذه الطريقة صَوَّرَ الأمر الآلهي في نظرهما بشكل آخر، وصوّر المسألة وكأنَّ الأكل من «الشجرة الممنوعة» ليس غير مضرّ فحسب، بل يورث عمراً خالداً أو نيل درجة الملائكة.

والشاهد على هذا الكلام هو العبارة التي قالها إبليس **﴿يا آدم هل أدلّك على شجرة الخلد ومُلكٍ لا يبلى﴾** [1].

فقد جاء في رواية عن الإمام الصادقعليه السلام، وعن الإمام علي بن موسى الرضاعليه السلام: **فجاء إبليس فقال: «إنّكما إن أكلتما من هذه الشجرة التي نهاكما الله عنها صرتما ملكين، وبقيتما في الجنّة أبداً، وإن لم تأكلا منها أخرجكما الله من الجنّة»**.

ولما سمع آدم هذا الكلام غرق في التفكير، ولكنّ الشيطان ـ من أجل أن يحكم قبضته ويعمّق وسوسته في روح آدم وحواء ـ تَوَسَّلَ بالأيمان المغلَّظة للتدليل على أنه يريد لهما الخير! **﴿وقاسمهما إنّي لكما لمن الناصحين﴾** [2].

---

١ ـ طه، ١٢٠.

٢ ـ الاعراف، ٢١ .

آدم على أمل الحياة الخالدة

لم يكن آدم يمتلك تجربة كافية عن الحياة، ولم يكن قد وقع في حبائل الشيطان وخدعه بعد، ولم يعرف بكذبه وتضليله قبل هذا، كما أنّه لم يكن في مقدوره أن يصدّق بأن يأتي بمثل هذه الايمان المغلَّظة كذباً، وينشر مثل هذا الحبائل والشباك على طريقه.

ولهذا وقع في حبال الشيطان، وانخدع بوسوسته في المآل، ونزل بحبل خداعه المهترىء في بئر الوساوس الشيطانية للحصول على ماء الحياة الخالدة والملك الذي لا يبلى، ولكنّه ليس فقط لم يظفر بماء الحياة كما ظنّ، بل سقط في ورطة المخالفة والعصيان للأوامر الإلٓهية، كما يعبّر القرآن عن ذلك ويلخصه في عبارة موجزة إذ يقول: **﴿فدلّاهما بغرور﴾**.

ومع أن آدم ـ نظراً لسابقة عداء الشيطان له، ومع علمه بحكمة الله ورحمته الواسعة، ومحبته ولطفه ـ كان من اللازم أن يبدّد كل الوساوس ويقاومها، ولا يسلّم للشيطان، إلّا أنه قد وقع ما وقع على كل حال.

وبمجرّد أن ذاق آدم وزوجته من تلك الشجرة الممنوعة تساقط عنهما ما كان عليهما من لباس وانكشفت سوءاتهما **﴿فلمّا ذاقا الشجرة بدت لهما سوآتهما﴾**[1].

ويستفاد من العبارة أعلاه أنّهما بمجرّد أن ذاقا من ثمرة الشجرة الممنوعة أُصيبا بهذه العاقبة المشؤومة، وفي الحقيقة جُرِّدا من لباس الجنّة الذي هو لباس الكرامة الإلٓهية لهما.

ويستفاد من هذه جيداً أنّهما قبل ارتكابهما لهذه المخالفة لم يكونا عاريين، بل كانا مستورين بلباس لم يرد في القرآن ذكر عن حقيقة ذلك اللباس وكيفيته، ولكنّه على ايّ حال كان يعدّ علامة لشخصية آدم وحواء ومكانتهما واحترامهما، وقد تساقط عنهما بمخالفتهما لأمر الله، وتجاهلهما لنهيه.

على حين تقول التّوراة المحرفة: إنّ آدم وحواء كانا في ذلك الوقت عاريين بالكامل، ولكنّهما لم يكونا يدركان قبح العري، وعندما ذاقا وأكلا من الشجرة الممنوعة التي كانت شجرة العلم والمعرفة، انفتحت أبصار عقولهما، فرأيا عريهما، وعرفا بقبح هذه الحالة.

إنّ آدم الذي تصفه التّوراة لم يكن في الواقع إنساناً، بل كان بعيداً من العلم والمعرفة جداً،

---

١ ـ الاعراف، ٢٠ ـ ٢٢.

إلى درجة أنّه لم يكن يعرف حتى عريه.

ولكن آدم الذي يصفه القرآن الكريم، لم يكن عارفاً بوضعه فحسب، بل كان واقفاً على أسرار الخلقة أيضاً (عِلم الأسماء)، وكان يُعَدّ معلّم الملائكة، وإذا ما استطاع الشيطان أن ينفذ فيه فإنّ ذلك لم يكن بسبب جهله، بل استغلّ الشيطان صفاء نيّته، وطيب نفسه.

ويشهد بهذا القول الآية التي تقول: ﴿**يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أَخرج أبوَيكم من الجنّة ينزع عنهما لباسهما**﴾[1].

وما كتبه بعض الكّتاب المسلمين من أن آدم كان عارياً منذ البداية، فهو خطأ بيّن نشأ ممّا ورد في التّوراة المحرفة.

وعلى كل حال فإنّ القرآن يقول: إن آدم وحواء لمّا وجدا نفسيهما عاريين عمدا فوراً إلى ستر نفسيهما بأوراق الجنّة: ﴿**وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنّة**﴾.

وفي هذا الوقت بالذات جاءهما نداء من الله يقول: ألم أُحذّركما من الاقتراب والأكل من هذه الشجرة؟ ألم أقل لكما: إنّ الشيطان عدوٌّ لكما؟ فلماذا تناسيتم أمري ووقعتم في مثل هذه الأزمة: ﴿**وناداهما ربّهما ألم أنهكما عن تلكما الشّجرة وأقل لكما إنّ الشّيطان لكما عدوّ مبين**﴾[2].

ماذا كانت الشّجرة الممنوعة؟

جاءت الإشارة إلى الشجرة الممنوعة في ست مواضع من القرآن الكريم، من دون أن يجري حديث عن طبيعة أو كيفية أو اسم هذه الشجرة، وأنها ماذا كانت؟ وماذا كان ثمرها؟ بيد أنّه ورد في المصادر الإسلامية تفسيران لها، أحدهما «**ماديّ**» وهو أنّها كانت «**الحنطة**» كما هو المعروف في الرّوايات.

ويجب الإنتباه إلى نقطة، وهي أن العرب تطلق لفظة «الشجرة» حتى على النبتة، ولهذا أطلقت ـ في القرآن الكريم ـ لفظة الشجرة على نبتة اليقطين[3].

والتّفسير الآخر «**معنوي**» وهو أنّ المقصود من تلك الشجرة ـ كما في الرّوايات ـ هو ما

---

١ ـ الاعراف، ٢٧.

٢ ـ الاعراف، ٢٢.

٣ ـ إذ قال سبحانه: ﴿**وانبتنا عليه شجرة من يقطين**﴾ الصافات، ١٤٦.

عبّر عنها بـ «شجرة الحسد» لأنّ آدم طبقاً لهذه الرّوايات ـ بعد ملاحظة مكانته ومقامه ـ تصوّر أنّه لا يوجد فوق مقامه مقام، ولا فوق مكانته مكانة، ولكن الله تعال أطلعه على مقام ثلة من الأولياء من ذريته وأبنائه (رسول الإسلام وأهل بيته)، فحصل عنده ما يشبه الحسد، وكانت هذه هي الشجرة الممنوعة التي أُمر آدم بأن لا يقربها.

وفي الحقيقة تناول آدم ـ طبقاً لهذه الرّوايات ـ من شجرتين، كانت إحداهما أقلّ منه مرتبةً وأدنى منه منزلة، وقد قادته إلى العالم المادي، وكانت هي «الحنطة». والأُخرىٰ هي الشجرة المعنوية التي كانت تمثل مقام ثلة من أولياء الله، والذي كان أعلى وأسمى من مقامه ومرتبته، وحيث أنه تعدّى حدّه في كلا الصعيدين ابتلي بذلك المصير المؤلم.

ولكن يجب أن نعلم أن هذا الحسد لم يكن من النوع الحرام منه، بل كان مجرّد إحساس نفساني من دون أن تتبعه أية خطوة عملية على طبقه.

وحيث إنّ للآيات القرآنية معانٍ متعدّدة، فلا مانع من أن يكون كلا المعنيين مرادين من الآية.

ومن حسن الإتفاق أنّ كلمة «الشجرة» قد استعملت في القرآن الكريم في كلا المعنيين، فحيناً استعملت في المعنى المادي التعارف للشجرة[1]، وتارة استعملت في الشجرة المعنوية[2].

ولكن النقطة التي يجب أن نذكِّرَ بها هنا، هي أنه وصفت الشجرة الممنوعة في التّوراة المختلقة ـ المعترف بها اليوم من قِبَل جميع مسيحيي العالم ويهودييه ـ بشجرة العلم والمعرفة وشجرة الحياة[3] تقول التّوراة: إن آدم لم يكن عالماً ولا عارفاً قبل أكله من شجرة العلم والمعرفة، حتى أنّه لا يعرف ولم يميّز عريه، وعندما أكل من تلك الشجرة، وصار إنساناً بمعنى الكلمة طرد من الجنّة خشية أن يأكل من شجرة الحياة أيضاً فيخلد كما الآلهة.

وهذا من أوضح القرائن الشاهدة على أنّ التّوراة الرائجة ليست كتاباً سماوياً، بل هي من

---

١ ـ مثل: ﴿وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن﴾ (المؤمنون، ٢٠) التي هي إشارة إلى شجرة الزيتون.

٢ ـ مثل ﴿والشجرة الملعونة في القرآن﴾ (الاسراء، ٦٠) التي يكون المراد منها إمّا طائفة من المشركين، أو اليهود، أو الأقوام الطاغية الأخرى مثل بني أُمية.

٣ ـ التّوراة، سفر التكوين الإصحاح الثاني الفقرة رقم ١٧.

نسيج العقل البشري القاصر المحدود، الذي يعتبر العلم والمعرفة عيباً وشيناً للإنسان، ويعتبر آدم بسبب ارتكابه معصية تحصيل العلم والمعرفة مستحقاً للطرد من جنة الله، وكأنّ الجنّة لم تكن مكان العقلاء الفاهمين ومنزل العلماء العارفين!![1]

الإخراج من الجنّة

يقول القرآن الكريم بعد ذلك: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾.

نعم. أُخرجا من الجنة حيث الراحة والهدوء وعدم الألم والتعب والعناء، علىٰ أثر وسوسة الشيطان.

وصدر لهما الأمر الإلهي بالهبوط ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ، وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾[2].

وهنا، فهم آدم أنه ظلم نفسه، وأخرج من الجوّ الهادئ الملئ بنعم الجنّة بسبب استسلامه لوسوسة الشيطان. وهبط في جوّ مفعم بالتعب والمشقة والعناء. مع أن آدم كان نبيّاً ومعصوماً، فإن الله يؤاخذ الانبياء بترك الأولىٰ ـ كما سنرى ـ كما يؤاخذ باقي الأفراد علىٰ ذنوبهم. وهو عقاب شديد تلقاه آدم جرّاء عصيانه.

---

١ ـ والملفت للنظر أنّ الدّكتور «ويليم ميلر» الذي يُعَدّ من مفسري الإنجيل القديرين والبارزين بل من مفسّري العهدين (التّوراة والإنجيل معاً) يقول في كتابه المسمىٰ «ما هي المسيحية»: «إنّ الشيطان تسلّل إلى الجنّة في صورة حيّة، وأقنع حواء بأن تأكل من ثمرة تلك الشجرة، ثمّ أعطت حواء من تلك الثمرة إلى آدم، فأكل منها آدم أيضاً، ولم يكن فعل أبوينا الأُوليين مجرّد خطأ عادي، أو غلطة ناشئة من عدم التفكير، بل كان معصية متعمّدة ضدّ الخالق، وبعبارة أُخرىٰ: إنّ آدم وحواء كانا يريدان بهذا الصنيع أن يصيرا آلهة، إنّهما لم يرغبا في أن يطيعا الله، بل كانا يريدان أن يعملا وفق رغباتهما وميولهما الشخصية، فماذا كانت النتيجة؟ لقد وبّخهما اللهُ تعالى بشدّة، وأخرجهما من الجنّة، ليعيشا في عالمٍ مليء بالعذاب والألم والمحنة».

لقد أراد مفسّر التّوراة والإنجيل هذا أن يبرر شجرة التّوراة الممنوعة، ولكنّه نسب أعظم الذنوب وهو مضادة الله ومحاربته ـ إلى آدم ... أمّا كان من الأفضل أن يعترف ـ بدل إعطاء مثل هذه التّفسيرات ـ بتطرّق التحريف والتلاعب إلى هذه الكتب المسماة بالكتب المقدّسة؟!

٢ ـ البقرة، ٣٦.

ما هي جنّة آدمعليه السلام؟

يبدو أن الجنّة التي مكث فيها آدم قبل هبوطه إلى الأرض، لم تكن الجنّة التي وُعد بها المتقون. بل كانت من جنان الدنيا، وصقعاً منعّماً خلّاباً من أصقاع الأرض. ودليلنا علىٰ ذلك:

أوّلاً: الجنّة الموعودة في القيامة نعمة خالدة، والقرآن ذكر مراراً خلودها، فلا يمكن إذن الخروج منها.

ثانياً: إبليس الملعون ليس له طريق للجنّة، وليس لوسوسته مكان هناك.

ثالثاً: وردت عن أهل البيتعليهم السلام روايات تصرّح بذلك.

منها ما روي عن الإمام جعفر بن محمّد الصّادقعليه السلام أنه سئل عن جنّة آدم، فقال: «**جَنَّةٌ مِنْ جَنَّاتِ الدُّنْيَا، يَطْلَعُ فِيهَا. الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ، وَلَوْ كَانَ مِنْ جِنَانِ الْآخِرَةِ مَا خَرَجَ مِنْهَا أَبَداً**».

من هذا يتضح أن هبوط آدم ونزوله إلى الأرض لم يكن مكانياً بل مقامياً. أي أنه هبط من مكانته السامية ومن تلك الجنّة المزدانة.

من المحتمل أيضاً أن تكون هذه الجنّة غير الخالدة في إحدى الكواكب السماوية، وفي بعض الرّوايات الإسلامية إشارة إلى أن هذه الجنّة في السماء. غير أنّ من الممكن أن يكون المقصود بالسماء في هذه الرّوايات «المقام الرفيع» لا «المكان المرتفع».

علىٰ كل حال، توجد شواهد كثيرة علىٰ أن هذه الجنّة هي غير جنّة الخلد الموعودة. لأن جنّة آدم بداية مسير الإنسان وجنّة الخلد نهايتها. وهذه مقدمة لأعمال الإنسان ومراحل حياته، وتلك نتيجة أعمال الإنسان ومسيرته[1].

---

١ ـ ما هو ذنب آدم؟

المكانة التي ذكرها القرآن لآدم سامية ورفيعة، فهو خليفة الله في الأرض ومعلم الملائكة، وعلىٰ درجة كبيرة من التقوى والمعرفة، وهو الذي سجدت له ملائكة الله المقربين. ومن المؤكد أن آدم هذا لا يصدر عنه ذنب، إضافة إلى أنه كان نبيّاً، والنّبي معصوم.

من هنا يطرح سؤال عن نوع العمل الذي صدر عن آدم. وتوجد لذلك ثلاثة تفسيرات يكمل بعضها الآخر.

١ ـ ما ارتكبه آدم كان «تركاً للأولى» أو بعبارة أُخرىٰ كان «ذنباً نسبياً»، ولم يكن «ذنباً مطلقاً».

الذنب المطلق، وهو الذنب الذي يستحق مرتكبه العقاب أياً كان، مثل الشرك والكفر والظلم

رجوع آدم إلى الله وتوبته

بعد حادثة وسوسة إبليس، وصدور الأمر الإلهي لآدم بالخروج من الجنّة، فهم آدم أنه ظلم نفسه، وأنه أُخرج من ذلك الجوّ الهاديء المنعّم علىٰ أثر إغواء الشيطان، ليعيش في جوّ جديد مليء بالتعب والنصب. وهنا أخذ آدم يفكر في تلافي خطئه، فاتجه بكل وجوده إلى بارئه وهو نادم أشدّ الندم.

وأدركته رحمة الله في هذه اللحظات كما تقول الآية ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ، إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[1].

صحيح أن آدم لم يرتكب محرّماً، ولكن ترك الأَولىٰ يعتبر معصية منه. ولذلك سرعان ما تدارك الموقف، وعاد إلى خالقه.

علىٰ أيّ حال، لقد حدث ما لا ينبغي أن يحدث ـ أو ما ينبغي أن يحدث ـ وقُبلت توبة آدم. لكن الأثر الوضعي للهبوط في الأرض لم يتغير.

الكلمات التي تلقاها آدم

تعددت الآراء في تفسير «الكلمات»، التي تلقاها آدم عليه السلام من ربّه.

المعروف أنها الكلمات المذكورة في الآية ٢٣ من سورة الأعراف: ﴿قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا

والعدوان. والذنب النسبي هو الذي لا يليق بمرتكبه أن يفعله لعلوّ منزلة ذلك الشخص، وإن كان إرتكابه مباحاً، بل مستحباً أحياناً من قبل الأفراد العاديين. علىٰ سبيل المثال، نحن نؤدي الصلاة بحضور القلب تارة، وبعدم حضور القلب تارة أُخرىٰ. وهذه الصلاة تتناسب وشأننا، لكن مثل هذه الصلاة لا تليق بأفراد عظام مثل رسول الله صلى الله عليه وآله. صلاة الرّسول ينبغي أن تكون بأجمعها اتصالاً عميقاً بالله تعالى، وإن فعل الرّسول غير ذلك فلا يعني أنه ارتكب محرّماً، بل يعني أنه ترك الأُولىٰ.

وآدم كان يليق به أن لا يأكل من تلك الشجرة، وإن كان الأكل منها غير محرّم بل «مكروهاً».

٢ ـ نهي الله لآدم إرشادي، مثل قول الطبيب: لا تأكل الطعام الفلاني فتمرض. والله سبحانه قال لآدم: لا تقرب هذه الشجرة فتخرج من الجنّة. وآدم في أكله من الشجرة خالف نهياً إرشادياً.

٣ ـ الجنّة التي مكث فيها آدم لم تكن محلاً للتكليف، بل كانت دورة إختبارية وتمهيدية لآدم كي يهبط بعدها إلى الأرض. وكان النهي ذا طابع إختياري.

١ ـ البقرة، ٣٧.

وَإِنْ لَم تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

وفي روايات وردت عن طرق أهل البيت عليهم السلام أن المقصود من «الكلمات» أسماء أفضل مخلوقات الله وهم: محمّد وعليّ وفاطمة والحسن والحسين ـ عليهم أفضل الصلاة والسلام ـ وآدم توسل بهذه الكلمات ليطلب العفو من ربّ العالمين فعفا عنه[1].

قصّة آدم ومستقبل هذا العالم

إن بعض الذين تأثروا بموجة الأفكار الغربية الإلحادية عادة، حاولوا أن يضفوا على قصّة آدم وحواء من بدايتها إلى نهايتها طابع التشبيه والكناية والمجازية، أو ما يسمّى الآن بالرمزية، ويحملوا جميع الألفاظ المتعلقة بهذه الحادثة ـ على خلاف الظاهر ـ على الكناية عن المسائل المعنوية.

ولكن الذي لا شك فيه أن ظاهر هذه الآيات يحكي عن حادثة واقعية عينية وقعت لأبينا وأُمنا الأوّلين: آدم وحواء، وحيث أن هذه القصّة لا تتضمن أية نكتة غير قابلة للتفسير حسب الظاهر، كما ليس فيها ما يخالف الموازين العقلية (ليكون قرينة على حملها على المعنى الكنائي) لهذا ليس هناك أي دليل على أن نعرض عن ظاهر الآيات، ولا نحملها على معناها الحقيقي.

ولكن مع ذلك يمكن أن تحمل هذه الحادثة الواقعية الحسية إشارات إلى حياة النوع البشري في مستقبل هذا العالم.[2]

---

١ ـ هذه التفاسير الثلاثة لا تتعارض بعضها مع بعض، ولعلّ آدم تلقى من ربّه كل هذه الكلمات، كي يحدث فيه تغيير روحي تام بعد أن يعي حقيقة هذه الكلمات، وليشمله بعد ذلك لطف الله ورحمته.

٢ ـ يعني أنّ الإنسان المركب من قوّة «العقل» ومن «الغرائز الجامحة» والتي تجرّه كل واحدة منهما إلى جهة وناحية يواجه في خضم هذه الحياة الصاخبة دعاة كذّابين أصحاب سوابق سيئة مثل الشيطان، يحاولون بوساوسهم المتواصلة إلقاء الستار والحجاب على عقله بغية عزله عنه، وبغية خداعه وإضلاله وتركه حائراً في متاهات الحياة يبحث عن سراب.

إنّ أوّل نتيجة للإستسلام أمام الوساوس هو إنهيار حاجز التقوى، وسقوط لباسه، وانكشاف مساوئه وسوءاته.

والأُخرى هي الابتعاد عن مقام القرب إلى الله، وسقوط الإنسان عن مقام الإنسانية الكريم،

أوّل حادثة قتل على الأرض

إن القرآن الكريم لم يذكر أي اسم لأبناء آدمعليه السلام: لكن الروايات الإسلامية تدل على أن ولدي آدم المذكورين في هذه الآية كان اسم أحدهما «هابيل» والآخر «قابيل» وقد ورد في سفر التكوين من التوراة في الباب الرابع أنّ ولدي آدم المذكورين اسمهما «قائن» و«هابيل».

وقد ذكر المفسّر المعروف «أبو الفتوح الرازي» أن هذين الإسمين قد وردا بألفاظ مختلفة، فالاسم الأوّل جاء فيه «هابيل» و«هابل» و«هابن»، «أما الاسم الثّاني فجاء فيه «قابيل» و«قابين» و«قابل» و«قابن» أو «قبن»، وعلى أي صورة كان الاسم فإنّ الإختلاف بين الروايات الإسلامية ونص التوراة بخصوص اسم «قابيل» نابع عن الإختلاف اللغوي، ولا يشكل أمراً مهماً في هذا المجال[1].

والقرآن الكريم يقول في هذا المجال لنبيّ الله أن يتلو على قومه قصّة ولدي آدم: **﴿واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق إذ قرّبا قرباناً فتقبّل من احدهما ولم يتقبّل من الآخر﴾**[2].

والإخراج من جنة الأمن والطمأنينة، والوقوع في دوامة الحياة المادية المضنية.

وفي هذه الحالة يمكن لقوّة العقل ـ أيضاً ـ أن تساعد الإنسان وتعينه على النهوض من كبوته، فيفكر فوراً في تلافي ما فاته، وجبران ما بدر منه، فيبعثه العقل والتفكير إلى أن يعود إلى الله كي يعترف بكل شجاعة وصراحة بذنوبه، اعترافاً بناءاً واعياً مفيداً يعدُّ منعطفاً في حياته.

وفي هذا الوقت تمتد إليه يد الرحمة الإلّهية مرّة أُخرىٰ، وتنقذه وتخلصه من السقوط الأبديّ، وإن كان لا يستطيع مع ذلك التخلص من آثار معصيته الوضعية ونتائجها الطبيعية مهما كانت قليلة ومحدودة. ولكن هذه الحادثة ستكون له درساً وعبرة، وسيمكنه ذلك من أن يتخذ من هذه الهزيمة قاعدة صلبة لا نتصاره في مستقبل الحياة، ويستفيد من هذا الضرر نفعاً كبيراً في المراحل القادمة من حياته.

١ ـ والغريب في الأمر أنّ أحد الكتاب المسيحيين قد أورد الإختلاف المذكور دليلاً اعترض به على القرآن، فقال: إنّ القرآن أورد لفظة «قابيل» بدل «قائن»!

والجواب هو أنّ مثل هذا الإختلاف اللغوي أمر شائع وبالأخص في مجال الأسماء ـ فمثلاً كلمة «إبراهيم» الواردة في القرآن قد وردت في التوراة على شكل «أبراهام»، كما أنّ القرآن الكريم لم يأت مطلقاً باسم «هابيل» و«قابيل» وقد ورد هذان الإسمان في الروايات الإسلامية فقط.

٢ ـ المائدة، ٢٧.

لكن القرآن الكريم لم يذكر شيئاً عن ماهية القربان الذي قدمه ولدا آدم، بينما نقلت الروايات الإسلامية ـ والتوراة في سفر التكوين، الباب الرابع ـ أن «هابيل» كان يمتلك ماشية فاختار أفضل أغنامه ومنتوجاتها للقربان المذكور، وأن «قابيل» الذي كان صاحب زرع، قد اختار لقربانه أردأ الأنواع من زرعه.

لم يرد في القرآن أي توضيح عن الأسلوب الذي عرف به ابنا آدم قبول قربان أحدهما ورفض قربان الآخر عند الله ـ والذي ورد في هذا المجال هو ما نقلته بعض الروايات الإسلامية من أنّ هذين الشخصين كانا قد وضعا قربانهما على قمة جبل، فنزلت صاعقة فاحرقت قربان هابيل دلالة على قبوله، وبقي قربان قابيل على حاله لم يمسه شيء، وكانت لهذه العلامة سابقة معروفة أيضاً.

لكن بعض، يعتقدون أنّ قبول ورفض القربانين إنّما أعلنا عن طريق الوحي لآدمعليه السلام، وما كان سبب ذلك غير أنّ هابيل كان إنساناً ذا سريرةنقية يحبّ التضحية والعفو في سبيل الله فتقبل الله لذلك قربانه، بينما كان قابيل رجلاً ملوث القلب حسوداً معانداً فرفض الله قربانه، والآيات التالية توضح حقيقة ما جبلت عليه نفسا هذين الأخوين من خير وشر.

وقد أدت هذه الواقعة إلى أن يهدد الأخ ـ الذي لم يتقبل الله القربان منه ـ أخاه بالقتل ويقسم أنّه قاتله لا محالة، **﴿قال لأقتلنّك﴾** أما الأخ الآخر فقد نصح أخاه مشيراً إلى أن عدم قبول القربان منه إنّما نتج عن علّة في عمله، وأنّه ليس لأخيه أي ذنب في رفض القربان، مؤكداً أنّ الله يقبل أعمال المتقين فقط **﴿قال إنّما يتقبل الله من المتقين﴾**.

وأكد له أنّه لو نفذ تهديده وعمد إلى قتله، فإنه ـ أي الأخ الذي تقبل الله منه القربان ـ لن يمد يده لقتل أخيه، فهو يخاف الله ويخشاه، ولن يرتكب أو يلوث يده بمثل هذا الإثم حيث تقول الآية: **﴿لئن بسطت إلى يدك لتقتلني ما أَنا بباسط يدي لأقتلك إنّي أخاف الله رب العالمين﴾**.

تواصل هاتان الآيتان بقية الواقعة التي حصلت بين إبني آدمعليه السلام، فتبيّن الآية الأُولىٰ منهما أن نفسى قابيل هي التي دفعته إلىٰ قتل أخيه فقتله، حيث تقول: **﴿فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله﴾** [1].

١ ـ مائدة، ٢٧ ـ ٢٩.

يستدل من هذه العبارة على أن قلب «قابيل» بعد أن تقبل الله قربان أخيه هابيل أخذت تعصف به الأحاسيس والمشاعر المتناقضة، فمن جانب استعرت فيه نار الحسد وكانت تدفعه إلى الإنتقام من أخيه «هابيل» ومن جانب آخر كانت عواطفه الإنسانية وشعوره الفطري يقبح الذنب والظلم والجور وقتل النفس، يحولان دون قيامه بارتكاب الجريمة، لكن نفسه الأمارة بالسوء تغلبت رويداً رويداً على مشاعره الرادعة فطوعت ضميره الحي وكبلته بقيودها واعدته لتقل أخيه.

التّستر على الجريمة

إن قابيل حين قتل أخاه ترك جثته في العراء حائراً لا يدري ما يفعل بها، فلم يمض وقت حتى حملت الوحوش المفترسة على جثة «هابيل» فاضطر «قابيل» (ربّما نتيجة لضغط وجداني شديد) إلى حمل جثة أخيه مدة من الزمن لإنقاذها من فتك الوحوش، لكن الطيور الجارحة أحاطت به وهي تنتظر أن يضعها على الأرض للهجوم عليها ثانية وفي تلك الأثناء بعث الله غراباً فأخذ يحفر الأرض ويزيح التراب ليدفن جسد غراب ميت آخر، أو ليخفي جزءاً من طعامه ـ كما هي عادة الغربان ـ وليدل بذلك «قابيل» كيف يدفن جثة أخيه، حيث تقول الآية الكريمة، ﴿**فبعث الله غراباً يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سوءة أخيه**﴾[١].

ولا غرابة في أن يتعلم إنسان شيئاً من طير من الطيور، فالتاريخ والتجربة يدلان على أنّ للكثير من الحيوانات مجموعة من المعلومات الغريزية تعلمها منها البشر على طول التاريخ، مكملاً بذلك معلوماته ومعارفه، وحتى بعض الكتب الطبيّة تذكر أنّ الإنسان مدين في جزء من معلوماته الطبية للحيوانات!

يا ويلتي

ثمّ يشير القرآن الكريم إلى أنّ قابيل استاء من غفلته وجهله، فأخذ يؤنب نفسه كيف أصبح أضعف من الغراب فلا يستطيع دفن أخيه مثله، فتقول الآية: ﴿**قال يا ويلتي أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوءة أخي ...**﴾.

---

١ ـ المائدة، ٣١.

وكانت العاقبة أن ندم قابيل على فعلته الشنيعة كما تقول الآية: ﴿فأصبح من النادمين﴾[١].

فهل كان ندمه على جريمته، خوفاً من افتضاح أمره أمام أبويه؟ أو ربّما أخوته الآخرين الّذين كانوا سيلومونه على فعلته؟ أم أنّ ندمه كان إشفاقاً على نفسه، لأنه حمل جسد أخيه القتيل لفترة دون أن يعلم ماذا يفعل به أو كيف يدفنه؟ أم كان سبب الندم هو ما يشعر به الإنسان ـ عادة ـ من قلق واستياء بعد إرتكاب كل عمل قبيح؟

مهما كانت أسباب الندم ودوافعه لدى «قابيل» فذلك لا يعني أنّه تاب من فعلته وجريمته التي ارتكبها، فالتوبة معناها أن لا يعاود الإنسان المذنب تكرار الذنب، خوفاً من الله واستقباحاً للذنب، ولم يشر القرآن الكريم إلى صدور مثل هذه التوبة عن «قابيل»، وقد تكون الآية التالية إشارة إلى عدم صدور التوبة عنه.

ورد في حديث عن النّبيﷺ قوله: «**لا تقتل نفس ظلماً إلّا كان على ابن آدم الأوّل كفل من دمها لأنّه كان أوّل من سن القتل**».

ممّا لا ريب فيه أنّ قصّة ولدي آدمعليه السلام قصّة حقيقية، يثبتها ظاهر الآيات القرآنية الأخيرة والروايات الإسلامية، كما أنّ عبارة «**بالحق**» الواردة في هذه القصّة القرآنية تعتبر شاهداً على هذا الأمر، وعلى هذا الأساس فإنّ الأقوال التي افترضت لهذه القصّة طابعاً رمزياً من قبيل التشبيه أو الكناية أو القصّة المفترضة لا أساس لها مطلقاً[٢].

---

١ ـ المائدة، ٣١.

٢ ـ ولا مانع من أن تكون هذه القصّة الحقيقية مثالاً من الصراع الدائم الذي يطغى على المجتمعات البشرية، حيث يقف في أحد جانبيه أناس جبلوا على الطهارة والصفاء والإيمان والعمل الصالح المقبول عند الله، وفي الجانب الآخر يقف أفراد تدنسوا بالإنحراف وجبلوا على الحقد والحسد والضغينة والبغضاء والعمل الشرير.

وكم هو العدد الكبير من أُولئك الإبرار الأخيار الذين ذاقوا حلاوة الشهادة على أيدي هؤلاء الأشرار الذين سيدركون ـ في النهاية ـ فظاعة الأعمال الآثمة التي ارتكبوها، وسيسعون إلى إخفائها والتستر عليها، فتظهر لهم في مثل هذه اللحظات آمالهم السوداء الشبيهة بالغراب فتحثّهم وتدفعهم إلى إخفاء جرائمهم، لكنّهم سوف لا يجنون في النهاية غير الخيبة والخسران.

النّبي إدريس عليه السلام

طبقاً لنقل كثير من المفسّرين، فإنّ إدريس جدّ سيدنا نوح عليه السلام واسمه في التوراة (أخنوخ) وفي العربية (إدريس)، وذهب البعض أنّه من مادة (درس) لأنّه أوّل من كتب بالقلم، فقد كان إضافة إلىٰ النّبوة عالماً بالنجوم والحساب والهيئة، وكان أوّل من علم البشر خياطة الملابس.

لقد تحدث القرآن عن هذا النّبي الكبير مرّتين فقط، وبإشارة خاطفة: إحداهما هنا في هذه الآيات، والأُخرىٰ في سورة الأنبياء الآية ٨٥ ـ ٨٦، وقد ذكرت حياته بصورة مفصلة في روايات مختلفة نشك في صحة أكثرها، ولهذا السبب اكتفينا بالإشارة أعلاه.

النّبي نوح عليه السلام

نوح عليه السلام أوّل أنبياء أُولي العزم

ذكر نوح عليه السلام في كثير من الآيات القرآنية، ومجموع السور التي ذكر فيها عليه السلام (٢٩) سورة، وأمّا اسمه عليه السلام فقد ورد ٤٣ مرّة.

وقد شرح القرآن المجيد أقساماً مختلفة من حياته عليه السلام شرحاً مفصلاً، وتتعلق أكثرها بالجوانب التعليمية والتربوية والمواعظ.

اسمه كان «عبد الغفار» أو «عبد الملك» أو «عبد الأعلىٰ»، ولقب بـ«نوح» لأنّه كان كثير النياحة على نفسه أو على قومه، وكان اسم أبيه «لمك» أو «لامك»، وفي مدّة عمره عليه السلام اختلاف، فقال البعض: ١٤٩٠ عاماً، وجاء في بعض الرّوايات أنّ عمره ٢٥٠٠ عام، وأمّا عن أعمار قومه الطويلة فقد قالوا ٣٠٠ عام، والمشهور هو أن عمره كان طويلاً، وصرح القرآن بمدّة مكثه في قومه وهي ٩٥٠ عاماً، وهي مدّة التبليغ في قومه.

كان لنوح عليه السلام ثلاثة أولاد، وهم (حام) (سام) (يافث) ويعتقد المؤرخون بأنّ انتساب البشر يرجع إلى هؤلاء الثلاثة، فمن ينتسب إلى حام يقطن في القارة الإفريقية، والمنتسبون لسام يقطنون الأوسط والأقصىٰ، وأمّا المنتسبون إلى يافث فهم يقطنون الصين.

سبعة مؤمنين بعد ٩٥٠ عاماً

قيل إنّ المدّة التي عاشها بعد الطوفان ٥٠ عاماً، وقيل ٦٠ عاماً[1].

---

١ ـ وورد بحث مفصل عن حياة نوح عليه السلام في التوراة المتواجد حالياً، إلّا أنّ هناك اختلافاً كبيراً بينه

وكان لنوح عليه السلام ابن آخر يدعىٰ (كنعان) وكان مخالفاً لأبيه، إذ رفض الإلتحاق به في السفينة ففقد بقعوده هذا الشرف الإنتساب إلى بيت النبوّة، وكانت عاقبته الغرق في الطوفان كبقية الكفّار.

وأمّا عن عدد المؤمنين الذين آمنوا به وركبوا السفينة معه فقد قيل ٧٠ نفراً، وقيل ٧ أنفار، ولقد انعكست آثار كثيرة من قصّة نوح عليه السلام في لأدب العربي وأكثرها قد حكت عن الطوفان وسفينة النجاة.[١]

كان نوح عليه السلام أُسطورة للصبر والمقاومة، وقيل هو أوّل من استعان بالعقل والإستدلال المنطقي في هداية البشر، بالإضافة الى منطق الوحي وبهذا الدليل يستحق التعظيم من قبل جميع الناس.

قصّة نوح المثيرة مع قومه

ولا شك أنّ قصّة جهاد نوح عليه السلام المتواصل للمستكبرين في عصره، وعاقبتهم الوخيمة، واحدة من العبر العظيمة في تاريخ البشرية، والتي تتضمن دروساً هامّة في كل واقعة منها..

والقرآن الكريم يبيّن بدايه هذه الدعوة العظيمة فيقول: ﴿**ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه إنّي لكم نذير مبين**﴾.

ثمّ يُلخّص محتوى رسالته في جملة واحدة ويقول: رسالتي هي ﴿**ألّا تعبدوا إلّا الله**﴾ ثمّ يعقب دون فاصلة بالإنذار والتحذير مرّة أُخرىٰ ﴿**إنّي أخاف عليكم عذاب يوم أليم**﴾.

في الحقيقة إن مسألة التوحيد والعبودية لله الواحد الأحد هي أساس دعوة الانبياء جميعاً.

فلننظر الآن أوّل ردّ فعلٍ من قبل الطواغيت واتباع الهوىٰ والمترفين وامثالهم إزاء إنذار الأنبياء، كيف كان وماذا كان؟!

لاشك أنّه لم يكن سوى حفنةً من الأعذار الواهية والحجج الباطلة والأدلة الزائفة التي تعتبر ديدن جميع الجبابرة في كل عصر وزمان، فقد أجاب أُولئك دعوة نوح بثلاثة إشكالات:

الأوّل: إنّ الإشراف والمترفين من قوم نوح عليه السلام قالوا له أنت مثلنا ولا فرق بيننا وبينك:

وبين القرآن المجيد، وهذا الإختلاف يدل على تحريف التوراة.

١ ـ بحار الأنوار، ج ١١.

﴿فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلّا بشراً مثلنا﴾ [١] زعماً منهم أن الرسالة الإلهية ينبغي أن تحملها الملائكة إلى البشر لا أن البشر يحملها إلى البشر! وظنّاً منهم أنّ مقام الإنسان أدنىٰ من مقام الملائكة، أو أنّ الملائكة تعرف حاجات الإنسان أكثر منه.

الوليّ يعرف من زوّاره

والإشكال الثّاني: إنّهم قالوا: يانوح؛ لا نرى متبعيك ومن حولك إلّا حفنةً من الأراذل وغير الناضجين الذين لم يسبروا مسائل الحياة ﴿وما نراك اتّبعك إلّا الذين هم أراذلنا بادي الرأي﴾.

إن قيمة الزعيم ينبغي أن تعرف ممن حوله من الأتباع، وبعبارة أخرى «إن الولي يعرف من زوّاره ـ كما يقال» فحين نلاحظ قومك يا نوح، نجدهم حفنةً من الأراذل والفقراء والحفاة والكسبة الضعاف، قد داروا حولك، فكيف تتوقع أن يتبعك الاثرياء الأغنياء الشرفاء والوجهاء ويخضعوا لك؟!

وصحيح أنّهم كانوا صادقين ومصيبين في أنّ الزعيم يُعرف عن طريق أتباعه، إلّا أن خطأهم الكبير هو عدم معرفتهم مفهوم الشخصية ومعيارها... إذ كانوا يرون معيار القِيَم في المال والثروة والألبسة والبيوت والمراكب الغالية والجميلة، وكانوا غافلين عن النقاء والصفاء والتقوى والطهارة وطلب الحق، والصفات العليا للإنسانية الموجودة في الطبقات الفقيرة والقلّة من الاشراف.

إن روح الطبقية كانت حاكمة على أفكارهم في أسوأ أشكالها، ولذلك كانوا يسمّون الفقراء الحفاة بالأراذل.

ولو كانوا يتحررون من قيود المجتمع الطبقي، لأدركوا جيداً أن إيمان هذه الطائفة نفسها دليل على حقانية دعوة النّبي وأصالتها!

وإنّما سمّوهم بـ«بادي الرأي» أي الذين يعتمدون على الظواهر من دون مطالعة ويعشقون الشيء بنظرة واحدة، ففي الحقيقة كان ذلك بسبب أنّ اللجاجة والتعصب لم يكن لها طريق الى قلوب هؤلاء الذين التفوا حول نوح عليه السلام لأنّ معظمهم من الشباب المطهرة قلوبهم

---

١ ـ هود، ٢٧.

الذين يحسون بضياء الحقيقة في قلوبهم، ويدركون بعقولهم الباحثة عن الحق دلائل الصدق في أقوال الأنبياء عليهم السلام وأعمالهم.

الإشكال الثّالث: الذي أوردوه على نوح عليه السلام أنهم قالوا: بالاضافة الى أنّك إنسان ولست ملكاً، وأن الذين آمنوا بك والتفوا حولك هم من الأراذل، فإنّنا لا نرى لكم علينا فضلاً **﴿وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنّكم كاذبين﴾**[1].

جواب نوح عليه السلام

القرآن الكريم يبيّن رد نوح عليه السلام وإجاباته المنطقية على هؤلاء حيث يقول: **﴿قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بيّنة من ربّي وآتاني رحمة من عنده فعميت عليكم﴾**.

مع التدبر في الآية يتّضح أنّ هذا الجواب يمكن أن يكون جواباً للإشكالات الثلاثة بأسرها.

لأنّ أوّل إشكال أوردوه على نوح هو: لِمَ كنت إنساناً مثلنا ولم تكن ملكاً؟ فكان جوابه لهم: صحيح أنني بشر مثلكم، ولكن الله آتاني رحمة وبيّنة ودليلاً واضحاً من عنده، فلا تمنع بشريتي هذه من اداء هذه الرسالة العظيمة، ولا ضرورة لأن أكون ملكاً.

والإشكال الثّاني هو: إنّ أتباع نوح مخدوعون بالظواهر. فيردّهم بالقول: إنّكم أحق بهذا الإتهام، لأنّكم أنكرتم هذه الحقيقة المشرقة، وعندي أدلّة كافية ومقنعة لكلّ من يطلب الحقيقة، إلّا أنّها خفيت عليكم لغروركم وتكبركم وأنانيتكم!

وإشكال الثّالث: أنّهم قالوا: **﴿وما نرى لكم علينا من فضل﴾** فكان جواب نوح عليه السلام: أي فضل أعظم من أن يشملني الله برحمته، وأن يجعل الدلائل الواضحة بين يدي، فعلى هذا لا دليل لكم على اتهامي بالكذب، فدلائل الصدق عندي واضحة وجليّة!..

وفي الختام يقول النّبي نوح عليه السلام لهم: هل أستطيع أن ألزمكم الإستجابة لدعوتي وأنتم غير مستعدّين لها وكارهون لها **﴿أنلزمكموها وأنتم لها كارهون﴾**.

---

١ ـ هود، ٢٧ ـ ٢٥.

ما أنا بطارد الذين آمنوا

وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ.

وهذا يوضح بصورة جيدة وبجلاء أنّني لا أبتغي هدفاً مادياً من منهجي هذا، ولا أفكر بغير الأجر المعنوي من الله سبحانه، ولا يستطيع مُدّعٍ كاذب أن يتحمل الآلام والمخاطر دون أن يفكر بالربح والنفع.

وهذا معيارٌ وميزان لمعرفة القادة الصادقين من غيرهم الذين يتحينون الفرص ويهدفون الى تأمين المنافع المادية في كل خطوة يخطونها سواء كان بشكل مباشر أو غير مباشر.

ويعقب نوح عليه السلام بعد ذلك في ردّه على مقولة طرد المؤمنين به من الفقراء والشباب فيقول بصورة قاطعة: **﴿وما أنا بطارد الذين آمنوا﴾** لأنّهم سيلاقون ربّهم ويخاصمونني في الدار الآخرة **﴿إنّهم ملاقو ربّهم﴾**.

ثمّ يختم كلامه لقومه بأنّكم جاهلون **﴿ولكنّي أراكم قوماً تجهلون﴾**.

وأي جهل وعدم معرفة أعظم من أن تضيعوا مقياس الفضيلة وتبحثون عنها في الثروة والمال الكثير والجاه والمقام الظاهري،وتزعمون أنّ هؤلاء المؤمنين العُفاة الحفاة بعيدون عن الله وساحة قدسه!

هذا خطؤكم الكبير وعدم معرفتكم ودليل جهلكم.

ثمّ أنتم تتصورون ـ بجهلكم ـ أن يكون النّبي من الملائكة، في حين ينبغي أن يكون قائد الناس من جنسهم ليحسّ بحاجاتهم ويعرف مشاكلهم وآلامهم.

ثمّ يقول لهم موضحاً: إنّني لو طردت من حولي فمن ينصرني من عدل الله يوم القيامة وحتى في هذه الدنيا **﴿ويا قوم من ينصرني من الله إن طردتهم﴾**.

فطرد المؤمنين الصالحين ليس بالأمر الهيّن، إذ سيكونون خصومي يوم القيامة بطردي لهم، ولا أحدَ هناك يستطيع أن يدافع عنّي ويخلصني من عدل الله، ولربّما أصابتني عقوبة الله في هذه الدنيا، أم أنّكم لا تفكرون في أن ما أقوله هو الحقيقة عينها **﴿أفلا تذكّرون﴾**[١].

---

١ ـ هود، ٣٠ ـ ٢٨.

ولا أقول لكم عندي خزائن الله

وآخر ما يجيب به نوح قومه ويرِدّ على إشكالاتهم الواهية .. إنّكم إذا كنتم تتصورون أن لي امتيازاً آخر غير الإعجاز الذي لديّ عن طريق الوحي فذلك خطأ، وأقول لكم بصراحة: ﴿لا أقول لكم عندي خزائن الله﴾ ولا أستطيع أن أحقق كل شيءٍ أريده وكل عمل أطلبه، حيث تحكي الآية عن لسانه ﴿ولا أقول لكم عندي خزائن الله﴾ ولا أقول لكم إنّني مطلع على الغيب ﴿ولا أعلم الغيب﴾ ولا أدعي أنّني غيركم كأنْ أكون من الملائكة مثلاً ﴿ولا أقول إنّي ملك﴾.

فهذه الإدّعاءات الفارغة والكاذبة يتذرع بها المدّعون الكذَبَة، وهيهات أن يتذرع بها الأنبياء الصادقون، لأنّ خزائن الله وعلم الغيب من خصوصيات ذات الله القُدسيّة وحدها، ولا ينسجم المَلَك مع هذه الأحاسيس البشرية أيضاً ..

فكل من يدعي واحداً من هذه الأُمور الثلاثة المتقدمة ـ أو جميعها ـ فهو كاذب.

وفي الختام يكرر التأكيد على المؤمنين المستضعفين بالقول: ﴿ولا أقول للذين تزدري أعينكم لن يؤتيهم الله خيراً ..﴾.

بل على العكس تماماً، فخير هذه الدنيا وخير الآخرة لهم وإن كانوا عُفاةٍ لخلّو أيديهم من المال والثروة .. فأنتم الذين تحسبون الخير منحصراً في المال والمقام والسن وتجهلون الحقيقة ومعناها تماماً.

وعلى فرض صحة مُدّعاكم أراذل و«أوباش» فـ ﴿الله أعلم بما في أنفسهم﴾.

أنا الذي لا أرى منهم شيئاً سوى الصدق والإيمان يجب عليَّ قبولهم، لأنّي مأمور بالظاهر، والعارف باسرار العباد هو الله سبحانه، فإن عملت غير عملي هذا كنت آثماً ﴿إنّي إذاً لمن الظالمين﴾[1].

كفانا الكلام فأينَ ما تعدنا به؟!

القرآن الكريم يتحدث عن قوم نوح عليه السلام أنّهم: ﴿قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا﴾

---

١ ـ هود، ٣١.

فأين ما تعدنا به من عذاب الله ﴿فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين﴾[1] وهذا الأمر يشبه تماماً عندما ندخل في جدال مع شخص أو أشخاص ونسمع منهم تهديداً ضمنياً حين المجادلة فنقول: كفىٰ هذا الكلام الكثير!! إذهبوا وافعلوا ما شئتم ولا تتأخروا، فمثل هذا الكلام يشير إلىٰ أنّنا لا نكترث بكلامهم ولا نخاف من تهديدهم، ولسنا مستعدين أن نسمع منهم كلاماً أكثر.

فاختيار هذه الطريقة إزاء كل ذلك اللطف وتلك المحبّة من قبل أنبياء الله ونصائحهم التي تجري كالماء الزلال على القلوب، إنّما تحكي عن مدىٰ اللجاجة والتعصب الأعمىٰ لدى تلك الأقوام.

في الوقت ذاته يشعرنا كلام نوح عليه السلام بأنّه سعىٰ مدّة طويلة لهداية قومه، ولم يترك فرصةً للوصول إلى الهدف إلّا انتهزها لإرشادهم، ولكن قومه الضالين أظهروا جزعهم من أقواله وإرشاداته. وهذه المعادلة تتجلىٰ جيداً في سائر الآيات التي تتحدث عن نوح عليه السلام وقومه في القرآن، ففي سورة نوح عليه السلام بيان لهذه الظاهرة بشكلٍ وافٍ ـ أيضاً ـ حيث نقرأ فيها: ﴿قال ربِّ إنّي دعوت قومي ليلاً ونهاراً فلم يزدهم دعائي إلّا فراراً وإنّي كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكباراً ثمّ إنّي دعوتهم جهاراً ثمّ إنّي أعلنت لهم وأسررت لهم إسراراً﴾[2].

لقد أجاب نوح عليه السلام بجملة قصيرة على هذه اللجاجة والحماقة وعدم الإعتناء بقوله: ﴿إنّما يأتيكم به الله إن شاء﴾ فذلك خارج من يدي على كل حال وليس باختياري، إنّما أنا رسوله ومطيع لأمره، فلا تطلبوا منّي العذاب والعقاب! .. ولكن حين يحل عذابه فاعلموا أنّكم لا تقدرون أن تفرّوا من يد قدرته أو تلجأوا إلى مأمنٍ آخر ﴿وما أنتم بمعجزين﴾[3].

بداية النّهاية

إنّ قصّة نوح عليه السلام الواردة في القرآن الكريم، بُيّنت بعدّة عبارات وجمل، كل جملة مرتبطة بالأُخرىٰ، وكل منها يمثل سلسلة من مواجهة نوح عليه السلام في قبال المستكبرين، ففي الآيات

---

١ ـ هود، ٣٢.

٢ ـ نوح، ١٣ ـ ٥.

٣ ـ هود، ٣٣.

السابقة بيان لمرحلة دعوة نوحعليه السلام المستمرة والتي كانت في غـاية الجـدية، وبـالإستعانة بجميع الوسائل المتاحة حيث استمرت سنوات طوالاً ـ آمنت به جماعة قليلة .. قليلة من حيث العدد وكثيرة من حيث الكيفية والإستقامة.

وهنا إشارة إلى المرحلة الثّالثة من هذه المواجهة، وهي مرحلة انتهاء دورة التبليغ والتهيؤ للتصفية الإلهية.

ففي البداية نقرأ ما معناه: يا نوح، إنّك لن تجد من يستجيب لدعوتك ويؤمن بـالله غـير هؤلاء: **﴿وأوحي إلى نوح أنّه لن يؤمن من قومك إلّا من قد آمن﴾**.

وهي إشارة إلى أنّ الصفوف قد إمتازت بشكل تام، والدعوة للإيـمان والإصـلاح غـير مجدية، فلابدّ إذاً من الإستعداد لتصفية والتحول النهائي.

وفي النهاية تسلية لقلب نوحعليه السلام أن لا تحزن على قومك حين تجدهم يصنعون مثل هذه الأعمال **﴿فلا تبتئس بما كانوا يفعلون﴾**[1].

وعلى كل حال لابدّ من انزال العقاب بهؤلاء العصاة اللجوجين ليطهر العالم من التلوّث بوجودهم، وليكون المؤمنون في منأى عن مخالبهم، وهكذا صدر الامر بإغراقهم، ولكن لابدّ لكل شيء من سبب، فعلىٰ نوح أن يصنع السفينة المناسبة لنجاة المؤمنين الصادقين لينشط المؤمنون في مسيرهم أكثر فأكثر، ولتتم الحجّة على غيرهم بالمقدار الكافي أيضاً.

سفينة نُوح

وجاء الأمر لنوح أن **﴿... اصنع الفلك بأعيننا ووحينا﴾**.

يستفاد من كلمة «وحينا» أيضاً أن صنع السفينة كان بتعليم الله، وينبغي أن يكون كذلك، لأنّ نوحاًعليه السلام لم يكن بذاته ليعرف مدىٰ الطوفان الذي سيحدث في المستقبل ليصنع السفينة بما يتناسب معه، وإنّما هو وحي الله الذي يعينه في انتخاب أحسن الكيفيات.

وفي النهاية ينذر الله نوحاً أن لا يشفع في قومه الظالمين، لأنّهم محكوم عليهم بالعذاب وإن الغرق قد كتب عليهم حتماً **﴿ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون﴾**[2].

---

١ ـ هود، ٣٦.

٢ ـ هود، ٣٧.

هذه السفينة! فأين البحر؟

أمّا عن قوم نوح فكان عليهم أن يفكروا بجد ـ ولو لحظة واحدة ـ في دعوة النّبي نوح عليه السلام ويحتملوا على الأقل أن هذا الإصرار وهذه الدعوات المكررة كلها من «وحي الله» فتكون مسأله العذاب والطوفان حتمية !! إلّا أنّهم واصلوا استهزاءهم وسخريتهم مرّة أُخرىٰ وهي عادة الأفراد المستكبرين والمغرورين ﴿ويصنع الفلك وكلّما مرّ عليه ملأ من قومه سخروا منه قال إن تسخروا منّا فإنا نسخر منكم كما تسخرون﴾.

يقال إن الملأ من قوم نوح والأشراف كانوا جماعات، وكل جماعة تختار نوعاً من السخرية والإستهزاء بنوح ليضحكوا ويفرحوا بذلك الإستهزاء!

فمنهم من يقول: يا نوح، يبدو أن دعوىٰ النبوة لم تنفع وصرت نجاراً آخر الأمر!

ومنهم من يقول: حسناً تصنع السفينة، فينبغي أن تصنع لها بحراً، أرأيت إنساناً عاقلاً يصنع السفينة على اليابسة. ومنهم من يقول: واهاً لهذه السفينة العظيمة، كان بإمكانك أن تصنع أصغر منها ليمكنك سحبها إلى البحر.

كانوا يقولون مثل ذلك ويقهقهون عالياً، وكان هذا الموضوع مثار حديثهم وبحثهم في البيوت وأماكن عملهم، حيث يتحدثون عن نوح واصحابه وقلّة عقلهم: تأملوا الرجل العجوز وتفرّجوا عليه كيف انتهىٰ به الأمر، الآن ندرك أن الحق معنا حيث لم نؤمن بكلامه، فهو لا يملك عقلاً صحيحاً!!

ولكن نوحاً كان يواصل عمله بجدية فائقة وأناة واستقامة منقطعة النظير لأنّها وليدة الإيمان، وكان لا يكترث بكلمات هؤلاء الذين رضوا عن أنفسهم وعميت قلوبهم، وإنّما يواصل عمله ليكمله بسرعة. ويوماً بعد يوم كان هيكل السفينة يتكامل ويتهيأ لذلك اليوم العظيم، وكان نوح عليه السلام أحياناً يرفع رأسه ويقول لقومه الذين يسخرون منه هذه الجملة القصيرة ﴿قال إن تسخروا منّا فإنّا نسخر منكم كما تسخرون﴾.

ذلك اليوم الذي يطغىٰ فيه الطوفان فلا تعرفون ماتصنعون، ولا ملجأ لكم، وتصرخون معولين بين الأمواج تطلبون النجاة.. ذلك اليوم يسخر منكم المؤمنين ومن غفلتكم وجهلكم وعدم معرفتكم ويضحكون عليكم.

﴿فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم﴾[١].

لا شكّ أنّ سفينة نوح لَم تكنْ سفينة عاديَّة ولم تنتهِ بسهولة مع وسائل ذلك الزمان آلاته، إذْ كانت سفينة كبيرة تحمل بالإضافة إلى المؤمنين الصادقين زوجين اثنين من كل نوع من الحيوانات، وتحمل متاعاً وطعاماً كثيراً يكفي للمدّة التي يعيشها المؤمنون والحيوانات في السفينة حال الطوفان، ومثل هذه السفينة بهذا الحجم وقدرة الاستيعاب لم يسبق لها مثيل في ذلك الزمان. فهذه السفينة ستجري في بحرٍ بسعة العالم، وينبغي أن تمرَّ سالمةً عبر أمواج كالجبال فلا تتحطم بها.

لذلك تقول بعض الروايات: إنّ طول السفينة كان ألفاً ومئتي ذراع، وعرضها كان ستمائة ذراع «كل ذراع يعادل نصف متر تقريباً».

ونقرأ في بعض الرّوايات أنّ النساء ابتلين قبل الطوفان بأربعين عاماً بالعقم وعدم الإنجاب، وكان ذلك مقدمةً لعذابهم وعقابهم.

شروع الطّوفان

رأينا سابقاً كيف صنع نوح عليه السلام وجماعته المؤمنون سفينة النجاة بصدق. وواجهوا جميع المشاكل واستهزاء الأكثرية من غير المؤمنين، وهيأوا أنفسهم للطوفان، ذلك الطوفان الذي طهّر سطح الأرض من لوث المستكبرين الكفرة.

والآن يتعرض القرآن الكريم لموضوع ثالث، وهو كيف كانت النهاية؟

وكيف تحقق نزول العذاب على القوم المستكبرين، فيبيّنه بهذا التعبير ﴿حتى إذا جاء أمرنا وفار التنّور﴾

لكن ما مناسبة فوران الماء في التنور واقتراب الطوفان؟

ويبدو أنّ احتمال أن يكون التنور قد استعمل بمعناه الحقيقي المعروف أقوى، والمراد بالتنّور ليس تنّوراً خاصّاً، بل المقصود بيان هذه المسألة الدقيقة، وهي أن حين فار التنّور بالماء ـ وهو محل النّار عادةً ـ التفت نوح عليه السلام وأصحابه إلى أن الأوضاع بدأت تتبدل بسرعة وأنّه حدثت المفاجأة، فأين «الماء من النّار»؟!

---

١ ـ هود، ٣٩ ـ ٣٨.

وبتعبير آخر: حين رأوا أنّ سطح الماء ارتفع من تحت الأرض وأخذ يفور من داخل التنور الذي يُصنع في مكان يابس ومحفوظ، من الرطوبة علموا أن أمراً مهمّاً قد حدث وأنّه قد ظهر في التكوين أمر خطير، وكان ذلك علامة لنوحعليه السلام وأصحابه أن ينهضوا ويتهيأوا.

ولَعَلّ قوم نوح الغافلين رأوا هذه الآية. وهي فوران التنور بالماء في بيوتهم ولكن غضوا أجفانهم وصمّوا آذانهم كعادتهم عند مثل العلائم الكبيرة حتى أنّهم لم يسمحوا لأنفسهم بالتفكير في هذا الأمر وأن إنذارات نوح حقيقية.

في هذه الحالة بلغ الأمر الإلهي نوحاً ﴿**وقلنا أحمل فيها من كلّ زوجين اثنين وأهلك إلّا من سبق عليه القول ومن آمن**﴾.

لكنْ كم هم الذين آمنوا معه؟ ﴿**وما آمن معه إلّا قليل**﴾[1].

إبن نوح و رفاق السوء

القرآن الكريم يشير من جهة إلى امرأة نوح وابنه كنعان ـ اللذين ستأتي قصتهما في الآيات المقبلة ـ وقد قطعا علاقتهما بنوح على أثر انحرافهما وتآمرهما مع المجرمين، فلم يكن لهما حق في ركوب السفينة ليكونا من الناجين، لأنّ الشرط الأوّل للركوب كان هو الإيمان.

ويشير من جهة أُخرىٰ إلى أنّ ثمرة جهاد نوحعليه السلام بعد هذه السنين الطوال والسعي الحثيث المتواصل في التبليغ لدعوته، لم يكن سوى هذا النفر المؤمن القليل!

بعض الرّوايات تقول أنّه استجاب لنوح خلال هذه الفترة الطويلة ثمانون شخصاً فقط، وتشير بعض الرّوايات الأُخرىٰ إلى عدد أقل من ذلك، وهذا الأمر يدل على ما كان عليه هذا النّبي العظيم نوحعليه السلام من الصبر والإستقامة «في درجة قصوى بحيث كان معدل ما يبذله من جهد لهداية شخص واحد عشر سنوات تقريباً، هذا التعب الذي لا يبذله الناس حتى لأولادهم!.

---

١ ـ هود، ٤٠.

إركبوا بسم الله

جمع نوح عليه السلام ذويه وأصحابه المؤمنين بسرعة، وحين أزف الوعد واقترب الطوفان وأوشك أن يحل عذاب الله أمرهم أن يركبوا في السفينة ﴿**وقال اركبوا فيه بسم الله مجراها ومرساها**﴾[1].

وأخيراً حانت اللحظة الحاسمة، إذ صدر الأمر الإلهي فتلبدت السماء بالغيوم كأنّها قطع الليل المظلم، وتراكم بعضها على بعض بشكل لم يسبق له مثيل، وتتابعت أصوات الرعد وومضات البرق في السماء كلها تخبر عن حادثة «مهولة ومرعبة جدّاً».

شرعَ المطر وتوالى مسرعاً منهمراً أكثر فأكثر، وكما يصفه القرآن ﴿**ففتحنا أبواب السماء بماءٍ منهمر وفجّرنا الأرضَ عيوناً فالتقى الماءُ على أمرٍ قد قدر**﴾[2].

ومن جهة أُخرىٰ إرتفعت المياه الجوفية بصورة رهيبة بحيث تفجرت عيون الماء من كل مكان. وهكذا إتصلت مياه الأرض بمياه السماء، فلم يبق جبل ولا وادٍ ولا تلعة ولا نجد إلّا استوعبه الماء وصار بحراً محيطاً خضمّاً .. أمّا الأمواج فكانت على أثر الرياح الشديدة تتلاطم وتغدو كالجبال. وسفينة نوح ومن معه تمضي في هذا البحر ﴿**وهي تجري بهم في موج كالجبال**﴾[3].

حادثة ابن نوح المؤلمة

﴿**ونادىٰ نوح ابنه وكان في معزل يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين**﴾[4] فإنّ مصيرك الىٰ الفناء إذا لم تركب معنا.

لم يكن نوح هذا النّبي العظيم أباً فحسب، بل كان مربيّاً لا يعرف التعب والنصب، ومتفائلاً بالأمل الكبير بحيث لم ييأس من ابنه القاسي القلب، فناداه عسىٰ أن يستجيب له، ولكن ـ للأسف ـ كان أثر المحيط السيء عليه أكبر من تأثير قلب أبيه المتحرّق عليه.

---

١ ـ المجرى والمرسىٰ: اسما زمان، ويعني الأوّل وقت التحرك، والثّاني وقت التوقف.

٢ ـ القمر، ١١.

٣ ـ هود، ٤٢ ـ ٤١.

٤ ـ هود، ٤٢.

لذلك فإنّ هذا الولد اللجوج الاحمق، وظنّاً منه أن ينجو من غضب الله أجاب والده نوحاً و﴿قال سآوي إلى جبل يعصمني من الماء﴾ ولكنّ نوحاً لم ييأس مرّة أُخرىٰ فنصحه أن يترك غروره ويركب معه و﴿قال لا عاصم اليوم من أمر الله﴾ ولا ينجو من هذا الغرق إلّا من شمله لطف الله ﴿إلّا من رحم﴾.

الجبل أمره سهل وهين، وكرة الأرض أمرها هين كذلك .. الشمس والمجموعة الشمسية بما فيها من عظمة مذهلة لا تعدل ذرّة إزاء قدرة الله الأزليّة.

وفي هذه الحالة التي كان ينادي نوح إبنه ولا يستجيب الابن له ارتفعت موجة عظيمة والتهمت كنعان بن نوح وفصل الموج بين نوح وولده ﴿وحال بينهما الموج فكان من المغرقين﴾[1].

يا نوح انّه ليس من أهلك

حين رأىٰ نوح إبنه تتقاذفه الأمواج ثارت فيه عاطفة الأبوّة وتذكر وعد الله في نجاة أهله فالتفت إلى ساحة الله منادياً ﴿فقال ربّ إنّ ابني من أهلي وإنّ وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين﴾.

وهذا الوعد هو ما أشير إليه في سورة هود حيث يقول سبحانه: ﴿قلنا احمل فيها من كلّ زوجين اثنين وأهلك إلّا من سبق عليه القول﴾[2].

فكان أن تصوّر نوح أن قوله تعالى: ﴿إلّا من سبق عليه القول﴾ خاص بزوجته المشركة التي لم تؤمن به دون ابنه كنعان، ولذلك خاطب نوح ربّ العزّة بهذا الكلام.

ولكنّه سمع الجواب مباشرة .. جواب يهزّ هزاً كما أنّه يكشف عن حقيقة كبيرة .. حقيقة أنّ الرّباط الديني أسمىٰ من رباط النسب والقرابة .. ﴿قال يا نوح إنّه ليس من أهلك إنّه عملٌ غير صالح﴾.

فهو فرد غير لائق، حيث لا أثر لرباط القرابة بعد أن قطع رباط الدين. ﴿فلا تسألن ما ليس لك به علم إنّي أعظك أن تكون من الجاهلين﴾.

---

١ ـ هود، ٤٣.

٢ ـ هود، ٤٠.

فأحسّ نوح أنّ طلبه هذا من ساحة رحمة الله لم يكن صحيحاً، ولا ينبغي أن يتصور نجاة ولده ممّا وَعَد الله به في نجاة أهله، لذلك توجه إلى الله معتذراً مستغفراً و﴿قال ربّ إنّي أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم وإلّا تغفر لي وترحمني أكُنْ من الخاسرين﴾ [١].

نهاية الحادث

الأمواج المتلاطمة الصاخبة من الماء أغرقت كل مكان حيث تصاعد منسوب الماء تدريجاً، أمّا المجرمون الجهلة فظناً منهم أنّه طوفان عادي فصعدوا إلى أعالي القمم والمرتفعات، لكن الماء تجاوز تلك المرتفعات أيضاً وخفي تحت الماء كل شيء، وأخذت تلوح للعيون أجساد الطغاة الموتىٰ وما بقي من البيوت ووسائل المعاش في ثنايا الأمواج على سطح الماء.

وكان نوح عليه السلام قد أودع زمام السفينة بيد الله سبحانه، وكانت الأمواج تتقاذف السفينة في كل صوب، وفي روايات استمرت هذه الحال ستة أشهر تماماً (من بداية شهر رجب حتىٰ نهاية شهر ذي الحجة) وعلى رواية (من عاشر شهر رجب حتىٰ عاشر محرم) وطافت السفينة نقاطاً متعددة من الأرض، وطبقاً لما جاء في بعض الرّوايات أنّها سارت على أرض مكّة وحول الكعبة. وأخيراً صدر الأمر الإلهي بانتهاء العقاب وأن ترجع الأرض إلى حالتها الطبيعية، والقرآن يبيّن هذا الأمر وجزئياته ونتيجته في عبارات وجيزة جدّاً، وفي الوقت ذاته بليغة وأخّاذة، في جمل ست:

١ ـ ﴿وقيل يا أرض ابلعي ماءك﴾ صدر الأمر للأرض أن تبلع الماء.

٢ ـ ﴿ويا سماء اقلعي﴾ وصدر الأمر للسماء أن لا تمطري.

٣ ـ ﴿وغيض الماء﴾ ونزل الماء في جوف الأرض.

٤ ـ ﴿وقضي الأمر﴾ انتهىٰ حكم الله.

٥ ـ ﴿واستوت على الجودي﴾ واستقرت السفينة على طرف جبل الجودي.

٦ ـ ﴿وقيل بعداً للقوم الظالمين﴾ [٢] عندئذٍ لُعن المجرمون بالدعاء عليهم أن يبتعدوا من رحمة الله.

---

١ ـ نوح، ٤٧ ـ ٤٦.

٢ ـ هود، ٤٤.

كم هي رائعة هذه التعابير وهي في الوقت ذاته وجيزة وتفور بالحياة والجمال الاخّاذ بحيث قال فيها طائفة من علماء العرب: إن هذه الآية تعدُّ أفصح آيات القرآن وأبلغها وإن كانت آياته جميعاً في غاية البلاغة والفصاحة[1].

أين يقع الجودي؟

ذهب كثير من المفسّرين أنّ الجودي الذي استقرت عليه السفينة جبل معروف قرب الموصل وقال آخرون: هو جبل في حدود الشام أو شمال العراق أو قرب «آمد»

وفي كتاب الراغب الأصفهاني (المفردات) أنّه جبل بين الموصل والجزيرة، وهي (جزيرة ابن عمر في شمال الموصل).

ولا يبعد أن تكون جميعها بمعنىٰ واحد، «فالموصل» و«الجزيرة» و«آمد» جميعها في الجزء الشمالي من العراق وقرب الشام.

وقال آخرون: يحتمل أن يكون المقصود من الجودي كل جبل صلب أو أرض صلبة وقوية، والمَعنىٰ أن السفينة استقرت على أرض صلبة غير رخوة لينزل ركابها على الأرض، ولكن المشهور والمعروف هو المعنى الأوّل.

هبوط نوح بسلامٍ

﴿قيل يا نوح اهبط بسلام منّا وبركات عليك وعلى أُمم ممن معك﴾[2].

لا شك أنّ الطوفان كان قد دمر كل آثار الحياة .. فالأراضي العامرة والمراتع الخُضر والغابات النضرة كلّها أُبيدت ، فالحالة كانت تنذر بأزمة خانقة لنوح وأصحابه بالنسبة

---

١ ـ الشاهد علىٰ هذا الكلام هو أنّنا نقرأ في روايات التاريخ الإسلامي أنّ جماعة من كفار قريش نهضوا لمواجهة القرآن وليأتوا بمثل آياته، فهيأ مريدوهم الطعام والشراب لهم لفترة أربعين يوماً، مثل لب الحنطة الخالص والخمر المعتق ولحم الغنم ـ لينسجوا براحة البال على منوال آيات القرآن شبيهاً لها، ولكنّهم حين بلغوا هذه الآية ـ محل البعث ـ هزتهم بحيث نظر بعضهم إلى بعض وقال كل للآخر: هذا كلام لا يشبهه كلام آخر، وهو أساساً لا يشبه كلام المخلوقين، قالوا ذلك وانصرفوا عمّا اجتمعوا له من محاكاة القرآن آيسين.

٢ ـ هود، ٤٨ .

للمعاش والغذاء ، لكن الله سبحانه طمأن هذه الجماعة المؤمنة إزاء البركات الإلهية والسلامة وأن كل ذلك سيكون مهيّأً وموفّراً لهم فلا ينبغي الحزن على شيء ..

مضافاً إلى ذلك فقد يأتي الحزن والخوف من شيء آخر وهو الخوف على السلامة والصحة بسبب المستنقعات والمياه الآسنة الباقية من آثار الطوفان التي تهدد حياتهم بالخطر ، فالله سبحانه يطمئن نوحاً وأصحابه أيضاً أنّه لا خطر يهددهم، وأن الذي أرسل الطوفان لهلاك الطغاة قادر على أن يوفر محيطاً سالماً مليئاً بالخيرات والبركات للمؤمنين كذلك .

فيتّضح بهذا أنّ نوحاً وأصحابه هبطوا إلى الأرض بسلام ليجدوا بركات الله وليطمئنوا بالحياة الهانئة ، كذلك الحال بالنسبة إلى الحيوانات التي كانت معهم في السفينة وهبطت إلى الأرض ، فإنّ لطف الله شملها جميعاً كذلك.

هل كان طوفان نوح مستوعباً للعالم؟!

من خلال ظاهر الآيات يبدو لنا أنّ الطوفان لم يكن لمنطقة من الأرض دون أُخرىٰ، بل غطىٰ كل سطح الأرض ، لأنّ كلمة «الأرض» ذكرت بصورة مطلقة **﴿ربِّ لا تذر على الأرض من الكافرين ديّاراً﴾**[١] ، **﴿وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء اقلعي﴾**[٢] وهكذا ذكر كثير من المؤرخين ـ أيضاً ـ أنّ طوفان نوح كان عالمياً، ولذلك يرجع نسل جميع البشر اليوم إلى واحد من أبناء نوح الثلاثة «حام وسام ويافث» الذين بقوا بعده مدةً!

وفي التاريخ الطبيعي نعثر على فترةٍ تدعىٰ فترة الأمطار ذات السيول، فلو لم تكن هذه الفترة الزمنية قبل تولّد الحيوانات، فهي تنطبق على طوفان نوح[٣].

---

١ ـ سورة نوح، ٢٦ .

٢ ـ سورة هود، ٤٤ .

٣ ـ وهذه النظرية موجودة أيضاً في التاريخ الطبيعي للأرض، وهي أن محور الكرة الأرضية يتغير تدريجاً، بحيث يكون القطبان الشمالي والجنوبي مكان خط الإستواء ، ويحلّ خط الإستواء محلّهما، وواضح أنّ الحرارة التي تكون في أعلى درجاتها تذيب الثلوج القطبية فترتفع مياه البحار حتى تستوعب كثيراً من اليابسة، ومع النفوذ في ثنايا الأرض وطياتها تحدث العيون المتفجرة، وكل ذلك يبعث على كثرة السحب و الأمطار.

كما أنّ مسألة اختيار نوح عليه السلام من كل نوع من الحيوانات زوجين وحملها معه على السفينه يؤيد كون

لم كان العقاب بالطوفان؟!

صحيح أن قوماً أو أُمّة كانوا فاسدين وينبغي زوالهم ومهما تكن وسائل إزالتهم فالنتيجة واحدة، ولكن بالتدقيق في الآيات القرآنيّة نستفيد أنّ هناك تناسباً بين الذنوب وعقاب الله دائماً وأبداً.

كان فرعون يرىٰ قدرته وعظمته تتجلىٰ في «نهر النيل» ومياهه كثير البركات، لكن الطريف أنّ هلاك فرعون ونهايته كان في النيل.

وكان نمرود يعتمد على «جيشه» العظيم، لكننا نعلم أنّ جيشاً ـ لا يعتد به ـ من الحشرات هزمه وجنوده أجمعين.

وكان قوم نوح أهل زراعة «وأنعام» وكانوا يجدون كل خيراتهم في «حبات المطر» لكن نهايتهم كانت بالمطر أيضاً ..

امرأة نوح

القرآن الكريم يذكر بالعاقبة السيّئة لزوجتين غير تقيتين من زوجات نبيين عظيمين من

الطوفان عالميّاً أيضاً، وإذا عرفنا أنّ نوحاً كان يسكن الكوفة ـ كما تقول الرّوايات ـ وأن طرف الطوفان وحافته ـ طبقاً للرّوايات الأُخرىٰ ـ كان في مكّة وبيت الله الحرام، فهذا نفسه أيضاً مؤيد «لعالميّة الطوفان».

ولكن مع هذه الحال، فلا يبعد أن يكون الطوفان في منطقة معينة من الأرض، لأنّ إطلاق الأرض على المنطقة الواسعة من العالم تكرر في عدد من آيات القرآن، كما نقرأ في قصّة بني إسرائيل ﴿وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها﴾ الأعراف، ١٢٧.

وحمل الحيوانات في السفينة ربّما كان لئلا ينقطع نسلها في ذلك القسم من الأرض، خصوصاً أن نقل الحيوانات وانتقالها في ذلك اليوم لم يكن أمراً هيّناً «فتدبر»!

وهناك قرائن أُخرىٰ تقدم ذكرها يمكن أن يستفاد منها أنّ الطوفان لم يستوعب الكرة الأرضية كلّها.

وهناك مسألة تسترعي الإنتباه ـ أيضاً ـ وهي أنّ طوفان نوح كان بمثابة العقاب لقومه، وليس لنا دليل على أن دعوة نوح شملت الأرض كلها، وعادةً فإنّ وصول دعوة نوح في مثل زمانه إلى جميع نقاط الأرض أمر بعيد .. ولكن على كل حال فالهدف القرآني من بيان هذه القصّة للعبرة وبيان المسائل التي تربي الآخرين، سواءً كان الطوفان عالمياً أو غير عالمي.

أنبياء الله، حيث يقول: **﴿ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما﴾**.

ذكر بعض إنّ زوجة نوح كانت تدعى «والهة» وزوجة لوط «والعة» بينما ذكر آخرون عكس ذلك أي إنّ زوجة لوط اسمها (والهة) وزوجة نوح اسمها (والعة)[1].

وعلى أيّة حال فإنّ هاتين المرأتين خانتا نبيّين عظيمين من أنبياء الله. والخيانة هنا لا تعني الإنحراف عن جادّة العفّة والنجابة، لأنّهما زوجتا نبيّين ولا يمكن أن تخون زوجة نبي بهذا المعنى للخيانة، فقد جاء عن الرّسولﷺ: **«ما بغت امرأة نبي قطّ»**.

كانت خيانة زوجة لوط هي أن أفشت أسرار هذا النبي العظيم إلى أعدائه، وكذلك كانت زوجة نوحعليه السلام.

جاء في نهاية الآية: **﴿فلم يغنينا عنهما من الله شيئاً وقيل ادخلا النار مع الداخلين﴾**[2].

---

١ ـ وقيل إنّ اسم امرأة نوح «واغلة» أو «والغة».

٢ ـ التحريم، ١٠.

النّبي هود عليه السلام

«عاد»: هم قوم نبي اللّه هود عليه السلام، ويذكر المؤرخون أنّ اسم «عاد» يطلق على قبيلتين.. قبيلة كانت في الزمن الغابر البعيد، ويسميها القرآن الكريم بـ«عاد الأُولى»[1]، (ويحتمل أنّها كانت قبل التاريخ).

ويحددون تاريخ القبيلة الثّانية بحدود (٧٠٠) سنة قبل الميلاد، وكانت تعيش في أرض الأحقاف أو اليمن.

وكان أهل عاد أقوياء البنية، طوال القامة، لذا كانوا يعتبرون من المقاتلين الأشداد، هذا بالإضافة إلى ما كانوا يتمتعون به من تقدّم مدني، وكانت مدنهم عامرة وقصورهم عالية وأراضيهم يعمها الخضار.

وقيل: إنّ «عاد» هو اسم جدّ تلك القبيلة، وكانت تسمىٰ القبيلة بـ(عادة).

إرم و جنّة شداد

وقد ذكر البعض قصّة اكتشاف مدينة «إرم» العظيمة في صحاري شبه الجزيرة العربية وصحاري عدن، وتحدثوا بتفصيل عن رونقها وبنائها العجيب، ولكنّ القصّة أقرب للخيال منها للواقع.

وعلى أيّة حال، فقوم «عاد» كانوا من أقوى القبائل في حينها، ومدنهم من أرقىٰ المدن من

---

١ ـ كما في الآية (٥٠) من سورة النجم.

الناحية المدنية، وكما أشار إليها القرآن الكريم: **﴿التي لم يخلق مثلها في البلاد﴾** [1].

وثمّة قصص كثيرة عن «جنّة شداد بن عاد» في كتب التاريخ، حتى أنّها أصبحت مضرباً للأمثال لما شاع عنها بين النّاس وعلى مرّ العصور، إلّا أنّ ما ورد بين متون كتب التاريخ لا يخرج عن إطار الأساطير التي لا واقع لها.

هودٌ أخو عاد

يقول سبحانه في هذه القصّة.. **﴿وإلى عادٍ أخاهم هوداً﴾** [2] ونلاحظ في الآية أنّها وصفت هوداً بكونه «**أخاهم**».

وهذا التعبير جارٍ في لغة العرب. حيث يطلقون كلمة أخ على جميع أفراد القبيلة لانتسابهم إلى أصل واحد..

فمثلاً يقولون في الأسدي «أخو أسد» وفي الرجل من قبيلة مذحج «**أخو مذحج**».

أو أنّ هذا التعبير يشير إلى أنّ معاملة هود لهم كانت أخوية بالرغم من كونه نبيّاً، وهذه الحالة هي صفة الأنبياء جميعاً، فهم لا يعاملون الناس من منطق الزعامة والقيادة أو معاملة أب لأبنائه، بل من منطلق أنّهم إخوة لهم.. معاملة خالية من أية شائبة واي امتياز أو استعلاء.

منطق هود القوي

كان أوّل دعوة هود ـ كما هو الحال في دعوة الأنبياء جميعاً ـ توحيد الله ونفي الشرك عنه **﴿قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إن أنتم إلّا مفترون﴾**.

فهذه الأصنام ليست شركاءه، ولا منشأ الخير أو الشرّ، ولا يصدر منها أي عمل، وأي افتراء أعظم وأكبر من نسبتكم كل هذا المقام والتقدير لهذه الموجودات «الأصنام» التي لا قيمة لها إطلاقاً.

ثمّ يضيف هود قائلاً لقومه: لا تتصوروا أن دعوتي لكم من أجل المادة، فأنا لا أُريد منكم أي أجر **﴿يا قوم لا أسألكم عليه أجراً﴾** فأجري وحده على من فطرني ووهبني الروح وأنا

---

١ ـ الفجر، ٨.

٢ ـ هود، ٥٠.

مدين له بكل شيء، فهو الخالق والرازق ﴿إن أجري إلّا على الله﴾.

ثمّ شرع هود ببيان الأجر المادي للإيمان لغرض التشويق والإستفادة من جميع الوسائل الممكنة لإيقاظ روح الحق في قومه الظالين فبيّن أن هذا الأجر المادي مشروط بالايمان فيقول: ﴿ويا قوم استغفروا ربّكم ثمّ توبوا إليه﴾ فإذا فعلتم ذلك فإنّه ﴿يرسل السماء عليكم مدراراً﴾ لئلا تصاب مزارعكم بقلة الماء أو القحط، بل تظل خضراء مثمرة دائماً، وزيادة على ذلك فإنّ الله بسبب تقواكم وابتعادكم عن الذنوب والتوجه إليه يرعاكم ﴿ويزدكم قوّة إلى قوتكم﴾[1].

فلا تتصوروا أنّ الإيمان والتقوى يضعفان من قوتكم أبداً، بل إنّ قواكم الجسميّة ستزداد بالإستفادة من القوّة المعنوية .. وبهذا الدعم المهم ستقدرون على عمارة المجتمع وبناء حضارة كبيرة وأُمّة مقتدرة تتمتع باقتصاد قوي وشعب حر مستقل،

اعتراك بعض آلهتنا بسوء

والآن لننظر ماذا كان ردّ فعل القوم المعاندين والمغرورين ـ قوم عاد ـ مقابل نصائح أخيهم هود وتوجيهاته إليهم: ﴿قالوا يا هودُ ما جئتنا ببيّنة﴾ أي لم تأتِنا بدليل مقنع لنا ﴿وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك﴾ الذي تدعونا به إلى عبادة الله وترك الأوثان ﴿وما نحن لك بمؤمنين﴾.

وأضافوا إلى هذه الجمل الثّلاث غير المنطقية، أنّك يا هودُ مجنون و﴿إن نقول إلّا اعتراك بعض الٰهتنا بسوء﴾[2] ولا شكّ أنّ هوداً ـ كأي نبي من الأنبياء ـ أدّى دوره ووظيفته وأظهر المعجز أو المعجزات لقومه للتدليل على حقانيته، ولكنّهم لغرورهم ـ مثل سائر الأقوام ـ أنكروا معاجزه وعدوّها سحراً وعبارة عن سلسلة من المصادفات والحوادث الإتفاقية التي لايمكن أن تكون دليلاً على المطلوب.

هذه الجملة ﴿إنّ نقولُ إلّا اعتراك بعض آلهتنا بسوء﴾ فإنّهم يتهمونه بالجنون على أثر غضب آلهتهم! فإنّ هذا الكلام منهم دليل على خرافة منطقهم، وخرافة عبادة الأصنام!

---

١ ـ هود، ٥٢ – ٥٠.

٢ ـ هود، ٥٤ – ٥٣.

فالحجارة والأخشاب التي ليس فيها روح ولا شعور والتي تحتاج إلى حماية من الانسان نفسه، كيف تستطيع أن تسلب العقل والشعور من الإنسان العاقل؟!

أضف إلى ذلك، ما دليلهم على جنون هود إلّا أنّه كسر طوق «السنة المتبعة عندهم» وكان معارضاً للسنن والآداب الخرافية في محيطه، فإذا كان هذا هو الجنون فينبغي أن نعدّ جميع المصلحين والثائرين على الأساليب الخاطئة مجانين.

لماذا لا تهلكني أصنامكم

على كل حال، فإنّ على هود أن يردّ على هؤلاء الضالّين اللجوجين رداً مقروناً بالمنطق، من منطلق القوّة أيضاً .. يقول القرآن في جواب هود لهم **﴿قال إنّي أشهد الله واشهدوا أنّي بريءٌ ممّا تشركون﴾**.

يشير بذلك إلى أنّ الأصنام إذا كانت لها القدرة فاطلبوا منها هلاكي وموتي لمحاربتي لها علناً فعلام تسكت هذه الأصنام؟ وماذا تنتظر بي؟

ثمّ يضيف أنّه ليست الأصنام وحدها لا تقدر على شيء، فأنتم مع هذا العدد الهائل لا تقدرون على شيء، فإذا كنتم قادرين **﴿فكيدوني جميعاً ثمّ لا تُنظرون﴾**.

فأنا لا تردعني كثرتكم ولا أعدها شيئاً، ولا أكترث بقوتكم وقدرتكم أبداً، وأنتم المتعطشون لدمي ولديكم مختلف القدرات، إلّا أنني واثق بقدرة فوق كل القدرات، و **﴿إنّي توكلت على الله ربّي وربّكم﴾**[1].

وهذا دليل على أنّني لا أقول إلّا الحق والصدق، وأن قلبي مرتبط بعالم آخر، فلو فكرتم جيداً لكان هذا وحده معجزاً حيث ينهض إنسان مفرد وحيد بوجه الخرافات والعقائد الفاسدة في مجتمع قوي ومتعصب، لكنّه في الوقت ذاته لا يشعر في نفسه بالخوف منهم، ولا يستطيع الأعداء أن يقفوا بوجهه!

ثمّ إنّ هود قال لقومه في آخر كلامه معهم **﴿فإنّ تولّوا فقد بلغتكم ما أُرسلت به إليكم﴾**.

إشارة إلى أن لايتصوروا أنّ هوداً سيتراجع إن لم يستجيبوا لدعوته، فإنّه أدى واجبه ووظيفته، وأداء الواجب انتصار بحدّ ذاته حتىٰ لو لم تقبل دعوته.

---

١ ـ هود، ٥٤ ـ ٥٦.

وكما هدد القوم هوداً، فإنّه هددهم بأشد من تهديدهم، وقال: إن لم تستجيبوا لدعوتي فإنّ الله سيبيدكم في القريب العاجل **﴿ويستخلف ربّي قوماً غيركم إنّ ربّي على كل شيء حفيظ﴾** [١].

فلا تفوته الفرصة، ولا يهمل أنبياءه ومحبيه، ولا يعزب عنه مثقال ذرة من حساب الآخرين بل هو عالم بكل شيء وقادر على كل شيء.

اللعنة الابديّة على القوم الظّالمين

القرآن الكريم يتحدث عن قصّة قوم عاد ونبيّهم هود إشارة إلى العقاب الأليم للمعاندين، فيقول: **﴿ولما جاء أمرنا نجّينا هوداً والذين آمنوا معه﴾** ويوكّد أيضاً نجاة المؤمنين **﴿ونجّيناهم من عذاب غليظ﴾** [٢].

الطريف هنا أنّ الآيات قبل أن تذكر عقاب الظلمة والكافرين ومجازاتهم، بيّنت نجاة المؤمنين وخلاصهم، لئلا يُتصور أنّ العذاب الإلهي إذا نزل يحرق الأخضر واليابس معاً لأنّ الله عادل وحكيم وحاشاه أن يعذب ولو رجلاً مؤمناً بين جماعة كفرة يستحقون العذاب والعقاب.

لكن رحمة الله تنقل هؤلاء الأشخاص قبل نزول العذاب إلى محل آمن كما رأينا من قبل في قصّة نوح أنّه قبل شروع الطوفان كانت سفينة النجاة قد أُعدّت للمؤمنين، وقبل أن ينزل العذاب على قوم لوط ويدمر مدنهم خرج لوط وعدد معدود من أصحابه من المدينة ليلاً بأمر الله.

وهناك تناسب ينبغي ملاحظته أيضاً، وهو أن قوم عاد ورد ذكرهم في سورة القمر. والحاقة، وكانوا قوماً ذوي أبدان طوال خشنين، فشبّهت أجسامهم بالنخل، ولهذا السبب كانت لديهم عمارات عالية عظيمة، بحيث نقرأ في تاريخ ما قبل الإسلام أن العرب كانوا يَنسبون البناءات الضخمة والعالية إلى عاد ويقولون مثلاً: «هذا البناء عاديٌّ» لذلك كان عذابهم مناسباً لهم لا في العالم الآخر بل في هذه الدنيا كان عذابهم خشناً وعقابهم صارماً.

---

١ ـ هود، ٥٧ .

٢ ـ هود، ٥٨ .

العذاب الإلهي في يوم نحس

يقول القرآن الكريم في بيان كيفيّة نزول العذاب علىٰ هؤلاء القوم.

﴿إنّا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في يوم نحس مستمر﴾[١].

ثمّ يستعرض سبحانه وصف الريح بقوله: ﴿تنزع الناس كأنّهم أعجاز نخل منقعر﴾.

إنّ قوم عاد حاولوا التخلّص من العذاب الذي باغتهم وذلك بأن التجأوا إلى حفر عميقة وملاجيء تحت الأرض لحفظ أنفسهم، ولكن دون جدوى حيث أنّ الريح كانت من القوّة بحيث قلعتهم من أعماق تلك الحفر وقذفت بهم من جهة إلى أُخرى، حتّى قيل إنّها كانت تدحرجهم وتجعل أعلى كلّ منهم أسفله وتفصل رؤوسهم عن أجسادهم.

إنّ شدّة الريح قطّعت أيديهم ورؤوسهم ودفعتها باتّجاهها، وبقيت أجسادهم المقطّعة الرؤوس والأطراف كالنخيل المقطّعة الرؤوس، ثمّ قُلعت أجسادهم من الأرض وكانت الريح تتقاذفها.

ثمّ يتناول القرآن عاقبة هؤلاء القوم فيقول: ﴿وفي عادٍ إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم﴾[٢].

وكون الريح عقيماً هو عندما تأتي الريح غير حاملة معها السحب المطرة، ولا تلقح النباتات ولا تكون فيها أيّة فائدة ولا بركة وليس معها إلّا الدمار والهلاك!.

ثمّ يذكر القرآن سرعة الريح المسلّطة على عاد فيقول: ﴿ما تذر من شيء أتت عليه إلّا جعلته كالرميم﴾.

وهذا التعبير يدلّ على أنّ سرعة الريح المسلّطة على قوم عاد لم تكن سرعة طبيعيّة، بل إضافةً إلى تخريبها البيوت وهدمها المنازل، فهي محرقة وذات سموم ممّا جعلت كلّ شيء رميماً.

أجل، هذه قدرة الله التي تدمّر القوم الجبّارين بسرعة الريح المذهلة فلا تبقي منهم ومن ضجيجهم وصخبهم وغرورهم إلّا أجساداً تحوّلت رميماً.

---

١ ـ القمر، ١٩.

٢ ـ الذاريات، ٤١.

هل ترىٰ لهم من باقية

ثمّ تبيّن الآية التالية وصفاً آخر لهذه الرياح المدمّرة، حيث يقول تعالى: ﴿سخّرها عليهم سبع ليال وثمانية أيّام حسوماً﴾.

لقد حطّمت وأفنت هذه الريح المدمّرة في الليالي السبع والأيّام الثمانية جميع معالم حياة هؤلاء القوم، والتي كانت تتميّز بالأُبّهة والجمال، واستأصلتهم من الجذور.

ويصوّر لنا القرآن الكريم مآل هؤلاء المعاندين بقوله تعالى: ﴿فترى القوم فيها صرعى كأنّهم أعجاز نخل خاوية﴾[1].

إنّه لتشبيه رائع يصوّر لنا ضخامة قامتهم التي إقتلعت من الجذور، بالإضافة إلى خواء نفوسهم، حيث أنّ العذاب الإلهي جعل الريح تتقاذف أجسادهم من جهة إلى أُخرى.

ويضيف في الآية التالية: ﴿فهل ترى لهم من باقية﴾[2].

نعم لم يبق اليوم أي أثر لقوم عاد، بل حتّى مدنهم العامرة، وعماراتهم الشامخة ومزارعهم النضرة لم يبق منها شيء يذكر أبداً.

---

١ ـ الحاقّة، ٧.

٢ ـ الحاقة، ٨.

النّبي صالح عليه السلام

القرآن يحكي قصّة «ثمود» الموجزة القصيرة، ونبيّهم «صالح» الذين كانوا يقطنون في «وادي القُرىٰ» بين المدينة والشام، وكانت حياتهم مترفة مرفهة... إلّا أنّهم لطغيانهم وعنادهم أُبيدوا وأبيروا حتى لم يبق منهم ديّار ولم تترك لهم آثار...

يقول سبحانه: ﴿كذبت ثمود المرسلين﴾...

لأنّ دعوة المرسلين جميعاً دعوة واحدة، فتكذيب ثمود نبيّهم صالحاً تكذيب للمرسلين أيضاً...

وبعد ذكر هذا الإجمال يفصّل القرآن ما كان بين صالح وقومه، فيقول: ﴿إذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون﴾ ...

لقد كان النّبي صالح هادياً ودليلاً لقومه مشفقاً عليهم، فهو بمثابه «الأخ» لهم، ولم يكن لديه نظرة استعلائية ولا منافع ماديّة، ولذلك فقد عبّر القرآن عنه بكلمة «أخوهم»... وقد بدأ دعوته إيّاهم كسائر الأنبياء بتقوى الله والإحساس بالمسؤولية!...

ثمّ يقول لهم معرفاً نفسه: ﴿إنّي لكم رسول أمين﴾ وسوابقي معكم شاهد مبين على هذا الامر ﴿فاتقوا الله وأطيعون﴾ إذْ لا أريد إلّا رضا الله والخير والسعادة لكم...

ولذلك فأنا لا أطلب عوضاً منكم في تبليغي إيّاكم... ﴿وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلّا على رب العالمين﴾[١] فأنا أدعوكم له، وأرجو الثواب منه سبحانه...

---

١ ـ الشعراء، ١٤٥ ـ ١٤١.

كان هذا أوّل قسم من سيرة صالح التي تلخصت في دعوته قومه وبيان رسالته إليهم...

ثمّ يضع «صالح» اصبعه على نقاط حساسة من حياتهم، فيتناولها بالنقد ويحاكمهم محاكمة وجدانية، فيقول: ﴿أتتركون فيما ها هنا آمنين﴾.

وتتصورون أن هذه الحياة المادية التي تستغفل الإنسان دائمة له وهو خالد فيها! فلذلك تأمنون من الجزاء، وأن يد الموت لا تنوشكم؟!

وبالأسلوب المتين، أُسلوب الإجمال والتفصيل... يشرح النّبي صالح لقومه تلك الجملة المغلقة والمجملة بقوله: وتحسبون أنّكم مخلّدون ﴿في جنات وعيون وزروع ونخل طلعها هضيم﴾.

ثمّ ينتقدهم على بيوتهم المرفهة المُحكمة فيقول: ﴿وتنحتون من الجبال بيوتاً فارهين﴾ [1].

إنّ ثمود «قوم صالح» كانوا أسرىٰ بطونهم والحياة المرفهة»... ويهتمون أكبر اهتمامهم بالتنعم.

ولا تطيعوا أمر المسرفين

وبعد ذكر هذه الإنتقادات يتحدث النّبي صالح عليه السلام في القسم الثّالث من كلامه مع قومه، فيقول: ﴿فاتقوا الله وأطيعون ولا تطيعوا أمر المسرفين الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون﴾ [2].

﴿واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوّأكم في الأرض﴾ أي من جانب لا تنسوا نعم الله الكثيرة، ومن جانب آخر انتبهوا إلى أنّه قد سبقكم أقوام (مثل قوم عاد) طغوا فحاق بهم عذاب الله بذنوبهم وهلكوا.

ثمّ ركز على بعض النعم الإلٰهية كالأرض فقال: ﴿تتخذون من سهولها قصوراً، وتنحتون الجبال بيوتاً﴾، فالأرض قد خُلِقَت بنحوٍ تكون سهولها المستوية والمزودة بالتربة الصالحة لإقامة القصور الفخمة، كما تكون جبالها صالحة لأن تنحت فيها البيوت القوية المحصنة لفصل الشتاء والظروف الجوية القاسية.

---

١ ـ الشعراء، ١٤٦ ـ ١٤٩.

٢ ـ الشعراء، ١٥٠ ـ ١٥٢.

ويبدو للنظر من هذا التعبير هو أنّهم كانوا يغيرون مكان سكناهم في الصيف والشتاء، ففي فصل الربيع والصيف كانوا يعمدون إلى الزراعة والرعي في السهول الواسعة والخصبة، ولهذا كانت عندهم قصور جميلة في السهول، وعند حلول فصل البرد والإنتهاء من الحصاد يسكنون في بيوت قوية منحوتة في قلب الصخور، وفي أماكن آمنة تحفظهم من خطر السيول والعواصف والاخطار.

وفي الختام يقول تعالى: ﴿فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾[1].

عناد قوم صالح ولجاجتهم

لقد استمعتم إلى منطق صالح المتين والمحب للخير، مع قومه المضلين والآن لنستمع إلى جواب قومه.

إنهم واجهوه بكلام خشنٍ و ﴿قالوا إنّما أنت من المسحّرين﴾[2] فلذلك فقدت عقلك وتتكلم بكلمات غير موزونة ولا معقولة.

إذ كانوا يعتقدون أن السحرة كانوا عن طريق السحر يعطلون عمل العقل، وهذا القول لم يتّهم به النبيّ صالحاً فحسب، بل اتهم به كثير من الأنبياء، حتى إن المشركين اتّهموا نبيّنا محمّداً صلى الله عليه وآله به. أجَلْ، إنّهم كانوا يرون معيار العقل أن يكون الإنسان متوفقاً مع البيئة والمحيط، فيأكل الخبز ـ مثلاً ـ بسعر يومه، ويطبّق نفسه على جميع المفاسد... فلو أن رجلاً مصلحاً إلهيّاً دعا الناس للقيام والنهوض بوجه العقائد الفاسدة وإصلاحها، عَدُّوهُ ـ بحسب منطقهم ـ مجنوناً «مسحّراً».

يقول القرآن: ﴿وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذّبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم في الحياة الدنيا ما هذا إلّا بشر مثلكم يأكل ممّا تأكلون منه ويشرب ممّا تشربون﴾.

أجل إنّ القوم الذين عاشوا في رفاه مطلق دعاهم القرآن باسم الملأ (ترى ظاهرهم يملأ العين، إلّا أنّ باطنهم خاوٍ من النور).

وبما أنّهم كانوا يرون في دعوة نبي الله خلافاً لأهوائهم ومنافسةً لمصالحهم العدوانية

---

١ ـ الاعراف، ٧٤.

٢ ـ الشعراء، ١٥٣.

وتسلّطهم الذي لا مبرّر له، وقد أترفوا فبعدوا عن ذكر الله، وأنكروا الآخرة، فجادلوا نبيّهم بنفس منطق المعاندين من قوم نوح، فقد رأوا في بشرية القادة الربانيّين وتناولهم الطعام كباقي الناس دليلاً على بطلان نبوّة هؤلاء، في حين أنّ هذا الأمر بحدّ ذاته مؤيّد على كون هؤلاء الرجال العظام حملة رسالة من الله إلى الناس، ولأنّهم نهضوا من بين جماهير الناس بعد أن شعروا بآلامهم وعملوا بما يحتاجونه بشكل جيّد.

ثمّ قال بعضهم للبعض الآخر: **﴿ولئن أطعتم بشراً مثلكم إنّكم إذاً لخاسرون﴾**[1].

هؤلاء الحمقى لم يلتفتوا إلى هذه الحقيقة، وهي انّهم يريدون من الناس بهذه الوساوس الشيطانية أن ينقادوا له في محاربة الأنبياء، في الوقت الذي يعيبون فيه على الذين يتّبعون من كان يستمدّ العون من مركز الوحي وقد مليء قلبه نوراً وعلماً إلهيّاً. ويرون في هذا العمل تقييد لحريّة الإنسان.

هيهات لما توعدون

إنّ قوم صالح أنكروا المعاد، الذي كان دوماً سدّاً منيعاً لاتّباع الشهوات وأرباب اللذّات، وقالوا: **﴿أيعدكم أنّكم إذا متّم وكنتم تراباً وعظاماً أنّكم مخرجون﴾** لتعيشون حياة جديدة **﴿هيهات هيهات لما توعدون﴾** فقد تساءل الكفّار: هل يمكن البعث والناس قد أصبحوا تراباً وتبعثرت ذرّاتهم هنا وهناك؟ إنّ ذلك مستحيل!!

وبهذا الكلام ازدادوا إصراراً على إنكار المعاد قائلين: إنّنا نشاهد باستمرار موت مجموعة وولادة مجموعة أُخرىٰ لتحلّ محلّهم، ولا حياة بعد الموت **﴿إن هي إلّا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين﴾**.

وأخيراً لخّصوا التّهم التي وجّهوها إلى نبيّهم فقالوا: **﴿إن هو إلّا رجل افترى على الله كذباً وما نحن بمؤمنين﴾**[2] فلا رسالة إلهيّة، ولا بعث، ولا برنامج سماوي، وعليه لا يتسنّى لعاقل الإيمان به.

---

١ ـ المؤمنون، ٣٣ ـ ٣٤.

٢ ـ المؤمنون، ٣٨ ـ ٣٥.

قد كنت فينا مرجوّاً يا صالح

قوم صالح استفادوا من عامل نفسي للتأثير على النّبي «صالح» أو على الأقل للمحاولة في عدم تأثير كلامه على المستمعين له من جمهور الناس ، وبالتعبير العاميّ الدارج: أرادوا أن يضعوا البطيخ تحت إبطه ، فقالوا : **﴿يا صالح قد كنت فينا مرجوّاً قبل هذا﴾** وكنّا نتوجه إليك لحل مشاكلنا ونستشيرك في أُمورنا ونعتقد بعقلك وذكائك ودرايتك ، ولم نشك في إشفاقك واهتمامك بنا ، لكن رجاءنا فيك ذهب ادراج الرياح ، حيث خالفت ما كان يعبد آباؤنا من الأوثان وهو منهج اسلافنا ومفخرة قومنا ، فأبديت عدم احترامك للأوثان وللكبار وسخرت من عقولنا **﴿اتنهانا عمّا كان يعبد آباؤنا﴾** والحقيقة أننا نشكُّ في دعوتك للواحد الأحد **﴿وإننا لفي شكٍ ممّا تدعونا إليه مريب﴾** [1].

يا لك من مشؤوم الطلعة!

وعلى كل حال، فإنّ هؤلاء القوم المعاندين بدلاً من أن يصغوا لنصيحة نبيّهم ويستجيبوا له، واجهوه باستنتاجات واهية وكلمات باطلة!... منها أنّهم **﴿قالوا اطيرنا بك وبمن معك﴾** ولعل تلك السنة كانت سنة قحط وجدب، فقالوا: إنّ هذا البلاء والمشاكل والعقبات كلّها بسبب قدوم هذا النّبي وأصحابه... فهم مشؤومون جلبوا الشقاء لمجتمعنا!!

فكانوا يحاولون مواجهة دعوة نبيّهم صالح ومنطقه المتين بحربة التطير، التي هي حربة المعاندين الخرافيين.

لكنّه ردّ عليهم و **﴿قال طائركم عند الله﴾** فهو الذي يبتليكم بسبب أعمالكم بهذه المصائب التي ادت إلى هذه العقوبات.

في الحقيقة إن ذلك اختبار وإمتحان إلهي كبير لكم، أجل **﴿بل أنتم قوم تفتنون﴾** [2].

هذه امتحانات وفتن إلهية... هذه إنذارات وتنبيهات لينتبه ـ من فيهم اللياقة من غفلتهم، ويصلحوا انحرافهم ويتجهوا نحو الله!.

---

١ ـ هود، ٦٢.

٢ ـ النمل، ٤٧.

ناقة صالح

النّبي صالح من أجل البرهان على صدق دعوته ، وبيان المعاجز الإلهية التي دونها قدرة الإنسان جاءهم بالناقة التي هي آية من آيات الله وقال : ﴿ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية﴾ فاتركوها وذروها تأكل في أرض الله ﴿ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم﴾ [1].

«النّاقة» في اللغة هي أُنثى الجمل ، وهي الآية الآنفة في آيات أُخرىٰ أُضيفت إلى لفظ الجلالة «الله» [2] وهذه الإضافة تدل على أنّ هذه الناقة لها خصائص معينة، ومع الإلتفات إلى ما عبّر عنها في الآية المتقدمة بأنّها «آية» وعلامة إلٰهية ودليل على الحقانيّة ، يتّضح أنّها لم تكن ناقة عادية ، بل كانت خارقة للعادة من جهة أو جهات متعددة !.

ولكن لم ترد في القرآن خصائص هذه الناقة بشكل مفصّل ، غاية ما في الأمر أننا نعرف بأنّها لم تكن ناقة عادية كالنوق الأُخريات ، والشيء الوحيد المذكور عنها في القرآن ـ وفي موردين فحسب ـ أن صالحاً أخبر قومه أن يتقاسموا ماءهم سهمين: سهم لهم وسهم للناقة ، فلهم شرب يوم منه ولها شرب يوم آخر [3].

ولكن لم يتّضح كيف كان تقسيم الماء خارقاً للعادة ؟

هناك احتمالان :

الأوّل : إنّ الناقة كانت تشرب ماءً كثيراً بحيث تأتي على ماء «النبع» كله .

والثاني: إنّه حين كانت ترد الماء لا تجرؤ الحيوانات الأُخرىٰ على الورود إلى الماء معها .

---

١ ـ هود، ٦٤.

٢ ـ مثل هذه الإضافة يقال لها في المصطلح الأدبي إضافة تشريفية . بمعنى أنّها إضافة تدل على شرف الشيء وأهميته ، وفي الآية المتقدمة يلاحظ نموذجان من هذا النوع ١ ـ ناقة الله . ٢ ـ أرض الله . وقد ورد في موارد أُخرىٰ غير هذه الكلمات .

٣ ـ ﴿قال هذه ناقة الله لها شرب ولكم شرب يوم معلوم﴾ الشعراء، ١٥٥.

كما جاء في سورة القمر أيضاً ﴿ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر﴾ القمر، ٢٨ .

وفي سورة الشمس إشارة مختصرة إليها أيضاً ، حيث يقول سبحانه : ﴿فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها﴾ الشمس، ١٣.

أمّا كيف كانت هذه الناقة تستفيد من جميع الماء؟ فيوجه هذا الإحتمال بأنّ ماء القرية كان قليلاً كماء القرى التي ليس فيها أكثر من عين ماء واحدة ، وأهل القرية مجبورون على أن يدخروا الماء تمام اليوم في حفرة خاصّة ليجتمع الماء في العين مرّة أُخرىٰ .

ولكن في جزء آخر من سورة الشعراء يتجلّى لنا أنّ ثمود لم يعيشوا في منطقة قليلة الماء ، بل كانت لهم غابات وعيون ونخيل ومزارع حيث تقول الآيات : **﴿أتتركون في ما هٰهنا آمنين، في جنات وعيون، وزروع ونخل طلعها هضيم﴾**.[1]

وعلى كل حال فإنّ القرآن ذكر قصّة ناقة صالح بشكل مجمل غير أنّنا نقرأ في روايات كثيرة عن مصادر الشيعة وأهل السنة أيضاً ، أنّ هذه الناقة خرجت من قلب الجبل ، ولها خصائص أُخرىٰ ليس هنا مجال سردها .

وعلى كل حال . فمع جميع ما أكّده نبيّهم العظيم «صالح» في شأن الناقة ، فقد صمّموا أخيراً على القضاء عليها ، لأنّ وجودها مع مافيها من خوارق مدعاة لتيقظ الناس والتفافهم حول النّبي صالح ، لذلك فإنّ جماعة من المعاندين لصالح من قومه الذين كانوا يجدون في دعوة صالح خطراً على مصالحهم ، ولا يرغبون أن يستفيق الناس من غفلتهم فتتعرض دعائم استعمارهم للتقويض والانهيار ، فتآمروا للقضاء على الناقة وهيأوا جماعة لهذا الغرض ، وأخيراً أقدم أحدهم على مهاجمتها وضربها بالسكين فهوت إلى الأرض **﴿فعقروها﴾** .

إئتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين

إنّ قوم صالح تمسكوا بعنادهم وطلبوا منه باصرار أن إذا كنت نبيّاً فليحل بنا عذاب الله **﴿فقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين﴾**[2] .

إلّا أن صالحاً أجابهم محذراً و **﴿قال يا قوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة﴾**.

فلِمَ تفكرون بعذاب الله دائماً وتستعجلونه؟ ألا تعلمون أن عذاب الله إذا حلّ بساحتكم ختم حياتكم ولا يبقى مجال للايمان؟

---

١ ـ الشعراء، الآية ١٤٨ـ ١٤٦.

٢ ـ الاعراف، ٧٧.

تعالوا واختبروا صدق دعوتي في البعد الايجابي والأمل في رحمة الله في ظل الإيمان به ﴿لولا تستغفرون الله لعلكم تُرحمون﴾![1].

علام تسألون عن نزول العذاب وتصرون على السيئات؟! ولم هذا العناد وهذه الحماقة؟!

وهذا أمر عجيب حقّاً أن يريد الإنسان اختبار صدق دعوة نبيّه عن طريق العقاب المهلك، لا عن طريق طلب الرحمة! مع أنّهم يعلمون يقيناً احتمال صدق دعوة هؤلاء الأنبياء «يعلمون ذلك في قلوبهم وإن أنكروه بلسانهم».

وهذا الأمر يشبه حالة ما لو أدعى رجل بأنّه طبيب، فيقول: هذا ا الدواء ناجع شافٍ، وذلك الدواء ضار مهلك. و نحن من أجل أن نختبر صدقه نستعمل الدواء المهلك!!

فهذا منتهى الجهل والتعصب... ولمرض الجهل الكثير من هذه الافرازات.

نهاية ثمود «قوم صالح»

القرآن الكريم يبيّن كيف نزل العذاب على قوم صالح المعاندين بعد أن أمهلهم وقال لهم : ﴿تمتعوا في داركم ثلاثة أيّام﴾ فيقول: ﴿فلما جاء أمرنا نجّينا صالحاً والذين آمنوا معه برحمة منّا﴾ لا من العذاب الجسماني والمادي فحسب ، بل ﴿ومن خزي يومئذ﴾.

لأنّ الله قوي وقادر على كل شيء ، وله السلطة على كل أمر ، ولا يصعب عليه أي شيء ولا قدرة فوق قدرته ﴿إنّ ربّك هو القوي العزيز﴾.

وعلى هذا فإنّ نجاة جماعة من المؤمنين من بين جماعة كثيرة تبتلى بعذاب الله ليس بالأمر المشكل بالنسبة لقدرة الله تعالى .

إنّ رحمة الله تستوجب ألّا يحترق الأبرياء بنار الأشقياء المذنبين ، وألّا يؤاخذ المؤمنون بجريرة غير المؤمنين ﴿وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين﴾ وهكذا هلكوا وصاروا «شذر مذر» ومضت آثارهم مع الريح ﴿كأن لم يغنوا فيها إلّا أن ثمود كفروا بربّهم ألا بعداً لثمود﴾[2] عن لطف الله ورحمته.

---

١ ـ النمل، ٤٦ .

٢ ـ هود، ٦٨ ـ ٦٥.

ما المراد من الصيحة ؟

الصيحة في اللغة معناها الصوت العظيم الذي يصدر من فم الإنسان أو الحيوان عـادة .. ولكن لا تختصّ بهذا المعنى ، بل تشمل كل صوت عظيم .. نقرأ في القرآن الكريم أن عـدّة أقوام آثمين أخذتهم الصيحة من السماء عقاباً لهم على ذنوبهم، «ثمود» الذين نتحدث عنهم «وقوم لوط»[١] «وقوم شعيب»[٢] .

ويستفاد من بعض الآيات الأُخرىٰ من القرآن أنّ قوم صالح «ثموداً» عوقبوا بالصاعقة[٣] ومن هنا يتبيّن أنّ المراد من الصيحة هو صوت الصاعقة الموحش!

سؤال : هل يستطيع صوت الصاعقة الموحش أن يبيد قوماً أو جماعة بأسرهم؟!

والجواب: نعم ، حتماً ! .. لأنّنا نعرف أن الأمواج الصوتية إذا تجاوزت حدّاً معيناً تستطيع أن تكسّر الزجاج ، وقد تتهدم على أثرها عمارات ، وقد تشل أعضاء البدن الداخلية .

الطائرات حين تخترق الجدار الصوتي وتكون سرعتها أكثر من سرعة أمـواج الصـوت يسقط بعض الأفراد فاقدو الوعي ، أو تُسقط الحامل جنينها بسبب ذلك وقد يتكسر جميع الزّجاج في عمارات المنطقة التي تمرّ عليها هذه الطائرات .

وطبيعي أنّه إذا كانت شدّة الأمواج الصوتية أكثر ممّا ذكرنا ، فمن السـهولة أن تـحدث اختلالاً قاتلاً في شبكات الاعصاب الدماغ وحركات القلب وتسبب موت الإنسان! :

ومن الثابت ـ طبقاً لما في القرآن ـ أنّ نهاية هذا العالم تكون بصيحة عامّة أيضاً .. ، كما أنّ يوم القيامة يبدأ بصيحة موقظة أيضاً.

الناجون مع صالح

إن أصحاب صالح الذين نجوا معه كانوا أربعة آلاف رجل، وقد خـرجـوا بأمـر الله مـن المنطقة الموبوءة بالفساد إلى حضر موت».

١ ـ كما نقرأ في سورة الحجر الآية (٧٣) .

٢ ـ كما ذُكروا في سورة هود الآية (٩٤) .

٣ ـ ﴿فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقةً مثل صاعقة عاد وثمود﴾ فصلت، الآية ١٣.

تآمر تسعة رهط في وادي القُرىٰ

نقرأ هنا قسماً آخر من قصّة «صالح» وقومه، وهو ما يتعلق بالتآمر على قتل «صالح» من قِبل تسعة «رهط» من المنافقين والكفار، وفشل هذا التآمر! في وادي القرى منطقة «النّبي صالح وقومه».

يقول القرآن في هذا الشأن **﴿وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الارض ولا يصلحون﴾**.

فإنّه يتّضح أن كلّا من المجموعات الصغيرة التسع كان لها منهج خاص، وقد اجتمعوا على أمر واحد، وهو الإفساد في الأرض والاخلال بالمجتمع (ونظامه الإجتماعي) ومبادىء العقيدة والأخلاق فيه.

ولا ريب أن ظهور «صالح» بمبادئه السامية قد ضيّق الخناق عليهم، ولذلك تقول الآية التالية في حقّهم: **﴿قالوا تقاسموا بالله لنبيتنّه وأهله ثمّ لنقولنّ لوليّه ما شهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون﴾**[1].

الطريف أنّ أُولئك كانوا يقسمون بالله، ويعني هذا أنّهم كانوا يعتقدون بالله، مع أنّهم يعبدون الأصنام، وكانوا يبدأون باسمه في المسائل المهمّة.. كما يدل هذا الأمر على أنّهم كانوا في منتهى الغرور و«السكر» بحيث يقومون بهذه الجناية الكبرى على اسم الله وذكره!! فكأنّهم يريدون أن يقوموا بعبادةٍ أو خدمةٍ مقبولةٍ... إلّا أنّ هذا نهج الغافلين المغرورين الذين لا يعرفون الله والضالين عن الحق.

إنّهم كانوا يخافون من جماعة صالح وأتباعه، ويستوحشون من قومه.. لذلك ومن أجل أن يحققوا هدفهم ولا يكونوا في الوقت ذاته مثار غضب أتباع صالح، اضطروا إلى أن يبيتوا الأمر، واتفقوا أن لو سألوهم عن مهلك النّبي ـ لأنّهم كانوا معروفين بمخالفته من قبل ـ حلفوا بأن لا علاقة لهم بذلك الأمر، ولم يشهدوا الحادثة أبداً.

إن المؤامرة كانت بهذه الصورة، وهي أن جبلاً كان في طرف المدينة وكان فيه غار يتعبّد فيه صالح، وكان يأتيه ليلاً بعض الأحيان يعبد الله فيه ويتضرع إليه، فصمّموا على أن يكمنوا

---

١ ـ النمل، ٤٩ ـ ٤٨.

له هناك ليقتلوه عند مجيئه في الليل، ويحملوا على بيته بعد استشهاده ثمّ يعودوا إلى بيوتهم، وإذا سئلوا أظهروا جهلهم وعدم معرفتهم بالحادث.

فتلك بيوتهم خاوية

فلمّا كمنوا في زاوية واختبأوا في ناحية من الجبل انثالت صخور من الجبل تـهوي إلى الأرض، فهوت عليهم صخرة عظيمة فأهلكتهم في الحال!

ثمّ يعبّر القرآن عن كيفية هلاكهم وعاقبة أمرهم فيقول: ﴿**فتلك بيوتهم خاويةً بما ظلموا**﴾.

فلا صوتَ يُسمع منها

ولا حركة تتردد

ولا أثر من تلك الزخارف والزبارج والنعم والمجالس الموبوءة بالذنوب والخطايا.

أجل، لقد أذهبهم ريح عتوّهم وظلمهم، واحترقوا بنار ذنوبهم فهلكوا جميعاً ﴿**إن في ذلك لآية لقوم يعلمون**﴾.

إلّا أن الأخضر لم يحترق باليابس، والأبرياء لم يؤخذوا بجرم الأشقياء... بل سلم المتقون ﴿**وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون**﴾[1].

ما لا شك فيه أن عقاب ثمود «قوم صالح» كان بعد أن عقروا الناقة «قتلوها».

فبناءً على هذه الآيات لم ينزل العذاب مباشرة بعد المؤامرة على قتل صالح، بل الإحتمال القوي أن الجماعة الذين تآمروا على قتله أهلكوا فحسب، ثمّ أمهل اللّه الباقين، فلمّا قتلوا الناقة أهلك الله جميع الظالمين والآثمين الكافرين.

---

١ ـ النمل، ٥٣ ـ ٥٢ .

النّبي ابراهيم و اسماعيل و اسحاق عليهم السلام

ورد اسم إبراهيم عليه السلام في ٦٩ موضعاً من القرآن الكريم، تحدثت عنه آيات تتوزع بين خمس وعشرين سورة. والقرآن يثني كثيراً علىٰ هذا النّبي الكريم ويذكره بصفات جليلة عظيمة.

إنه قدوة وأسوة في كل المجالات، ونموذج للإنسان الكامل.

مكانته في سُلّم معرفة الله ... و منطقه الصريح أمام عبدة الأوثان ... ونضاله المرير ضد الجبابرة ... وتضحياته علىٰ طريق الله، وصموده الغريب أمام عواصف الحوادث والإختبارات الصعبة ... كل واحدة من هذه الصفات تشكل النموذج الأعلىٰ للسائرين علىٰ طريق التوحيد.

إبراهيم كما يصفه القرآن من ﴿المحْسِنِينَ﴾ [1]، ومن ﴿ٱلصَّالِحِينَ﴾ [2]، ومن ﴿القانتين﴾ [3]، ومن ﴿الصدّيقين﴾ [4]، و﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [5]، و﴿وَإِبْراهَيمَ الّذي وَفَّىٰ﴾ [6]، ذو سخاء عظيم وشجاعة منقطعة النظير.

---

١ ـ الصافات، ١٠٥.

٢ ـ النحل، ١٢٢.

٣ ـ النحل، ١٢٠.

٤ ـ مريم، ٤١.

٥ ـ التوبة، ١١٤.

٦ ـ النجم، ٣٧.

حياة إبراهيم المليئة بالاحداث

ونستطيع أن نقسّم مراحل حياته الشريفة إلى ثلاث فترات:

١ ـ فترة ما قبل النبوّة.

٢ ـ فترة نبوّته ومحاربته للأصنام في بابل.

٣ ـ فترة الهجرة من بابل وتجواله في أرض مصر وفلسطين ومكّة.

ولادته وطفولته

ولد إبراهيم عليه السلام في أرض «بابل» التي كانت من بلدان العالم المهمّة، وتحكّمها حكومة قويّة وجائرة، وفتح عينيه على العالم في الوقت الذي كان نمرود بن كنعان الملك الجبّار الظالم يحكم أرض بابل ويعتبر نفسه الربّ الأعلى[١].

بالطبع لم يكن للناس في ذلك الوقت هذا الصنم فقط، بل كانت لهم أصنام مختلفة يعبدونها ويتقرّبون إليها.

والدولة في ذلك الوقت كانت تدافع بقوّة عن الأصنام، لأنّها الوسيلة المؤثّرة في تخدير وتسخيف المجتمع، بحيث لو صدرت أي إهانة من أحد تجاهها يعتبرونها خيانة عظمى.

وقد نقل المؤرّخون قصّة عجيبة حول ولادة إبراهيم عليه السلام وخلاصتها هي: توقّع المنجّمون أنّه سوف يولد شخص ويحارب نمرود بكلّ قوّة، ولذلك فقد سعى جاهداً لأن يوقف ولادة هذا الشخص أو أن يقتله حين ولادته، إلّا أنّه لم يتمكّن من ذلك وولد المولود.

وإستطاعت أُمّه أن تحفظه عبر تربيته في زوايا الغار القريب من مولده، بالشكل الذي أمضى ثلاثة عشر عاماً هناك.

وفي النهاية وبعد أن ترعرع في مخفاه بعيداً عن أنظار شرطة نمرود، ووصل إلى سنّ الشباب، صمّم على الخروج منه والنّزول إلى المجتمع ليشرح لهم دروس التوحيد التي إستلهمها من دخيلة نفسه وتأمّلاته الفكرية.

---

١ ـ ذكر بعض المؤرّخين أنّ ولادته عليه السلام ـ في مدينة (أور) التابعة لدولة بابل.

نبوّة إبراهيم عليه السلام

ليس عندنا دليل واضح على عمر إبراهيم عليه السلام حينما تقلّد مقام النبوّة، ولكن نستفيد من سورة مريم، أنّه أثناء محاورته لعمّه كان من الأنبياء، حيث يقول تعالى: ﴿واذكر في الكتاب إبراهيم إنّه كان صدّيقاً نبيّاً إذ قال لأبيه ياأبت لِمَ تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً﴾[1].

ونعلم أنّ هذه الحادثة كانت قبل إلقائه في النار، وإذا ما أخذنا بنظر الإعتبار ما قاله بعض المؤرّخين من أنّ عمره أثناء القائه في النّار كان ١٦ عاماً سوف يثبت لدينا أنّه تحمّل أعباء الرسالة منذ صباه.

خمس صفات بارزة

يتحدث القرآن الكريم عن مصداق كامل للعبد الشكور لله، ألا وهو «إبراهيم» بطل التوحيد.

ويشير إلىٰ خمسٍ من الصفات الحميدة التي كان يتحلىٰ بها إبراهيم عليه السلام.

١ ـ ﴿إن إبراهيم كان أُمّة﴾.

وقد ذكروا أسباباً كثيرة للتعبير عن إبراهيم عليه السلام بأنّه «أُمّة» وأهمها أربع:

الأوّل: كان لإبراهيم شخصية متكاملة جعلته أن يكون أُمّة بذاته، وشعاع شخصية الإنسان في بعض الأحيان يزداد حتىٰ ليتعدىٰ الفرد والفردين والمجموعة فتصبح شخصيته تعادل شخصية أُمّة بكاملها.

الثّاني: كان إبراهيم عليه السلام قائداً وقدوة حسنة ومعلماً كبيراً للإنسانية، ولذلك أطلق عليه ﴿أُمّة﴾ لأنّ «أُمّة» اسم مفعول يطلق علىٰ الذي تقتدي به الناس وتنصاع له.

الثّالث: كان إبراهيم عليه السلام موحداً في محيط خالٍ من أيِّ موحد، فالجميع كانوا يخوضون في وحل الشرك وعبادة الأصنام، فهو والحال هذه «أُمّة» في قبال أمّة المشركين (الذين حوله).

الرّابع: كان إبراهيم عليه السلام منبعاً لوجود أُمّة، ولهذا أطلق القرآن عليه كلمة «أُمّة».

---

١ ـ مريم، ٤٢ ـ ٤١.

نعم فقد كان إبراهيم أمّة وكان إماماً عظيماً، وكان رجلاً صانع أُمّة، وكان منادياً بالتوحيد وسط بيئة إجتماعية خالية من أيّ موحد.

٢ ـ صفته الثّانية: أنّه كان ﴿قانتاً لله﴾.

٣ ـ وكان دائماً علىٰ الصراط المستقيم سائراً علىٰ طريق اللّه، طريق الحق ﴿حنيفاً﴾.

٤ ـ ﴿ولم يكُ من المشركين﴾ بل كان نور اللّه يملأكل حياته وفكره، ويشغل كل زوايا قلبه.

٥ ـ وبعد كل هذه الصفات، فقد كان ﴿شاكراً لأنعمه﴾.

وبعد عرض الصفات الخمسة يبيّن القرآن الكريم النتائج المهمّة لها، فيقول:

١ ـ ﴿اجتباه﴾ للنّبوة وإبلاغ دعوته.

٢ ـ ﴿وهداه إلىٰ صراط مستقيم﴾ وحفظه من كل انحراف، لأنّ الهداية لا تأتي لأحد عبثاً، بل لابدّ من توفر الإستعداد والأهلية لذلك.

٣ ـ ﴿وآتيناه في الدنيا حسنة﴾.

«الحسنة» في معناها العام كل خير وإحسان، من قبيل منح مقام النّبوة مروراً بالنعم المادية حتىٰ نعمة الأولاد وما شابهها.

٤ ـ ﴿وإنّه في الآخرة لمن الصالحين﴾.

٥ ـ وختمت عطايا اللّه عزَّ وجلّ لإبراهيمعليه‌السلام لما ظهر منه من صفات متكاملة بأن جعل دينه عاماً وشاملاً لكل ما سيأتي بعده من زمان ـ وخصوصاً للمسلمين ـ ولم يجعل دينه مختصاً بعصر أهل زمانه، فقال اللّه عزّوجلّ: ﴿ثمّ أوحينا إليك أن اتبع ملّة إبراهيم حنيفاً﴾ [١].

أُسوة للجميع

إنّ منهج القرآن (من أجل التأكيد على تعاليمه القيّمة) يعتمد في كثير من الموارد طريقة الإستشهاد بنماذج أساسية في عالم الإنسانية والحياة، وبعد التشديد السابق الذي مرّ بنا في تجنّب عقد الولاء لأعداء الله، يتحدّث القرآن الكريم عن إبراهيمعليه‌السلام ومنهجه القدوة كنموذج.

---

١ ـ النحل، ١٢٢ ـ ١٢٠.

رائد يحظى باحترام جميع الأقوام وخصوصاً العرب منهم.

قال تعالى: ﴿قد كانت لكم أُسوة حسنة في إبراهيم والذين معه﴾ [1].

إنّ حياة إبراهيم عليه السلام الذي هو كبير الأنبياء، تلهمنا دروس العبودية لله، والطاعة والجهاد في سبيله، والوله والحبّ لذاته المقدّسة، إنّ هذا النبي العظيم الذي كانت الأُمّة الإسلامية من بركة دعائه، وهي معتزّة بالتسمية التي أطلقها عليهم، هو لكم أُسوة حسنة في هذا المجال.

والمراد من تعبير ﴿الذين معه﴾ هم المؤمنون الذين ساروا برفقته في هذا الطريق بالرغم من قلّة عددهم.

وجاء في التواريخ أيضاً أنّ جماعة في «بابل» آمنوا بإبراهيم عليه السلام بعد مشاهدة المعاجز التي ظهرت على يديه، وصاحبوه في الهجرة.

ذريّة صالحة

القرآن الكريم يشير إلى النعم التي اسبغها الله على إبراهيم، وهي تتمثل في أبناء صالحين وذرية لائقة، وهي من النعم الإلهية العظيمة.

يقول سبحانه: ﴿ووهبنا له إسحاق ويعقوب﴾ ولم تذكر الآية ابن إبراهيم الآخر إسماعيل، بل ورد اسمه خلال حديث آية تالية، ولعل السبب يعود إلى أنّ ولادة إسحاق من (سارة) العقيم العجوز تعتبر نعمة عجيبة وغير متوقعة.

ثمّ يبيّن أنّ مكانة هذين لم تكن لمجرّد كونهما ولدي نبي، بل لإشعاع نور الهداية في قلبيهما نتيجة التفكير السليم والعمل الصالح: ﴿كلاً هدينا﴾.

ثمّ لكيلا يتصور أحد أنه لم يكن هناك من يحمل لواء التوحيد قبل إبراهيم، وأنّ التوحيد بدأ بإبراهيم، يقول: ﴿ونوحاً هدينا من قبل﴾.

إنّنا نعلم أن نوحاً هو أوّل أُولي العزم من الأنبياء الذين جاؤوا بدين وبشريعة.

فالإشارة إلى مكانة نوح، وهو من أجداد إبراهيم، والإشارة إلى فريق من الأنبياء من أبنائه وقبيلته، إنّما هي توكيد لمكانة إبراهيم المتميزة من حيث «الوراثة والأصل» و«الذّرية».

---

١ ـ الممتحنة، ٤.

وعلى أثر ذلك ترد أسماء عدد من الأنبياء من أُسرة إبراهيم: ﴿ومن ذريّته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى والياس كل من الصالحين﴾[١].

الحوار مع آزر

ثمّ يتطرق القرآن الكريم إلىٰ شرح محاورته مع أبيه آزر ـ والأب هنا إشارة إلىٰ العم، فإنّ كلمة الأب، كما قلنا سابقاً، ترد أحياناً في لغة العرب بمعنىٰ الأب، وأحياناً بمعنىٰ العم ـ فيقول: ﴿إذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً﴾.

إنّ هذا البيان القصير القاطع من أحسن أدلة نفي الشرك وعبادة الأوثان، لأنّ أحد بواعث الإنسان في معرفة الرب هو باعث الربح والخسارة، والضر والنفع، والذي يعبر عنه علماء العقائد بمسألة (دفع الضرر المحتمل). فهو يقول: لماذا تتجه إلىٰ معبود ليس عاجزاً عن حل مشكلة من مشاكلك وحسب، بل إنّه لا يملك أصلاً القدرة علىٰ السمع والبصر. وبتعبير آخر: إن العبادة يجب أن تكون لمن له القدرة علىٰ حل المشاكل، ويدرك عباده وحاجاتهم، سميع بصير، إلّا أنّ هذه الأصنام فاقدة لكل ذلك.

إن إبراهيم يبدأ في دعوته العامّة بأبية، وذلك لأنّ النفوذ في الأقربين أهم وأولىٰ، كما أن نبي الإسلام صلى الله عليه وآله قد أمر أولاً بدعوة عشيرته الأقربين.

بعد ذلك دعاه ـ عن طريق المنطق الواضح ـ إلىٰ اتباعه، فقال: ﴿يا أبت إنّي قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطاً سوياً﴾[٢] فإنّي قد وعيت أُموراً كثيرة عن طريق الوحي، وأستطيع أن أقول باطمئنان: إنّي سوف لا أسلك طريق الضلال والخطأ، ولا أدعوك أبداً إلىٰ هذا الطريق المعوج، فإنّي أريد سعادتك وفلاحك، فاقبل منّي لتنجو وتخلص من العذاب وتصل بطيّك هذا الصراط المستقيم إلىٰ المحل المقصود.

ثمّ يعطف نظره إلىٰ الجانب السلبي من القضية بعدما ذكر بعدها الايجابي ويشير إلىٰ الآثار التي تترتب على مخالفة هذه الدعوة، فيقول: ﴿يا أبت لا تعبد الشيطان إنّ الشيطان كان للرحمن عصياً﴾.

---

١ ـ الانعام، ٨٥ ـ ٨٤.

٢ ـ مريم، ٤٣ ـ ٤٢.

من الواضح أنّ العبادة هنا لا تعني السجود والصلاة والصوم للشيطان، بل بمعنى الطاعة واتباع الأوامر، وهذا بنفسه يعتبر نوعاً من العبادة.

ثمّ يذكره وينبه مرّة أُخرىٰ بعواقب الشرك وعبادة الأصنام المشؤومة، ويقول: **﴿يا أبت إنّي أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان ولياً﴾**[1].

لأرجمنّك يا إبراهيم

مرّت كلمات إبراهيم﵇ التي كانت ممتزجة باللطف والمحبّة في طريق الهدايـة، والآن جاء دور ذكر أجوبة آزر، لكي تتضح الحقيقة والواقع من خلال مقارنة الكلامين مع بعضهما.

يقول القرآن الكريم: إنّ حرص وتحرّق إبراهيم، وبيانه الغني العميق لم ينفذ إلىٰ قلب آزر، بل إنّه غضب لدى سماعه هذا الكلام، و **﴿قال أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجمنك واهجرني ملياً﴾**[2].

الملفت للنظر، أنّ آزر لم يكن راغباً حتى في أن يُـجري إنكـار الأصـنام أو مـخالفتها وتحقيرها علىٰ لسانه، بل إنّه قال: أراغب أنت عن هذه الآلهة؟ حتىٰ لا تهان الأصنام! هذا أولاً.

ثانياً: إنّه عندما هدد إبراهيم، هدده بالرجم، ذلك التهديد المؤكّد الذي يستفاد من لام ونون التوكيد الثقيلة في «لأرجمنَّك» ومن المعلوم أن الرجم من أشد وأسوء أنواع القتل.

ثالثاً: إنّه لم يكتف بهذا التهديد المشروط، بل إنّه اعتبر إبراهيم في تلك الحال وجوداً لا يُحتمل، وقال له **﴿اهجرني ملياً﴾** أي ابتعد عني دائماً، وإلىٰ الأبد.

وهذا التعبير المحقِّر جدّاً لا يستعمله إلّا الاشخاص الاجلاف والقساة ضد مخالفيهم.

لكن، ورغم كل ذلك، فقد سيطر إبراهيم علىٰ أعصابه، كبقية الأنبياء والقـادة الإلهـيين، ومقابل هذه الغلظة والحدّة وقف بكل سمو وعظمة، و **﴿قال سلام عليك﴾**[3].

إنّ هذا السلام يمكن أن يكون سلام التوديع، وأن إبراهيم بقوله: **﴿سلام عيك﴾** وما يأتي بعده من كلام يقصد ترك آزر. ويمكن أن يكون سلاماً يقال لفض النزاع، كما نقرأ ذلك فـي

---

١ ـ مريم، ٤٥ ـ ٤٤.

٢ ـ مريم، ٤٦.

٣ ـ مريم، ٤٧.

سورة القصص: ﴿لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين﴾[١].

ثمّ أضاف: ﴿سأستغفر لك ربّي إنّه كان بي حفياً﴾. إن إبراهيم في الواقع قابل خشونة وتهديد آزر بالعكس، ووعده بالإستغفار وطلب مغفرة الله له.

ثمّ يقول: ﴿وأعتزلكم وما تدعون من دون الله﴾ أي الأصنام ﴿وأدعو ربّي عسىٰ أن لا أكون بدعاء ربّي شقياً﴾[٢].

تبيّن هذه الآية من جهة أدب إبراهيم في مقابل آزر الذي قال: «اهجرني» فقبل إبراهيم ذلك. ومن جهة أُخرىٰ فإنّها تبيّن حزمه في عقيدته، فإنّ ابتعادي هذا عنك لم يكن من أجل حيادي عن اعتقادي الراسخ بالتوحيد، بل لأنّك لا تملك الأهلية لتقبل الحق، ولذلك فإني سأثبت علىٰ اعتقادي.

ويقول بصورة ضمنية بأنّي إذا دعوت ربّي فإنّه سيجيب دعوتي، أمّا أنتم المساكين الذين تدعون من هو أكثر مسكنة منكم، فلا يستجاب دعاؤكم مطلقاً، بل ولا يسمع كلامكم أبداً.

لقد وفىٰ إبراهيم بقوله، وثبت علىٰ عقيدته بكل صلابة وصمود، وكان دائماً ينادي بالتوحيد، بالرغم من أن كل ذلك المجتمع الفاسد في ذلك اليوم قد وقف ضده وثار عليه، إلّا أنّه لم يبق وحده في النهاية، فقد وجد أتباعاً كثيرين على مر القرون والأعصار، بحيث أنّ كل الموحدين وعباد الله في العالم يفتخرون بوجوده.[٣]

---

١ ـ الآية (٥٥).

٢ ـ مريم، ٤٨ ـ ٤٧.

٣ – هل كان آزر أبا إبراهيم؟

تطلق كلمة «الأب» في العربية على الوالد غالباً، ولكنّها قد تطلق أيضاً على الجد من جهة الأُمّ وعلى العم، وكذلك على المربي والمعلم والذين يساهمون بشكل ما في تربية الإنسان، ولكنّها إذا جاءت مطلقة فانّها تعني الوالد ما لم تكن هناك قرينة تدلّ على غير ذلك.

فهل الرجل الذي تشير إليه الآية (آزر) هو والد إبراهيم؟ أيجوز أن يكون عابد الأصنام وصانعها والد نبي من أُولي العزم؟ ألا يكون للوراثة من هذا الوالد تأثير سيء في أبنائه؟

بعض مفسّري أهل السنّة يجيب بالإيجاب على السؤال الأوّل، ويعتبر آزر والد إبراهيم الحقيقي، أمّا المفسّرون الشيعة فيجمعون على أن آزر ليس والد إبراهيم، بل قال بعضهم: إنّه كان جدّه لأُمّه، وقال أكثرهم: إنّه كان عمه، وهم في ذلك يستندون إلى القرائن التّالية:

١ ـ لم يرد في كتب التّأريخ أنّ أبا إبراهيم هو آزر، بل يقول التّأريخ إنّ اسم أبيه هو «تارخ»

وهذا ما ورد أيضاً في العهدين القديم والجديد، والذين يعتبرون آزر والد إبراهيم يستندون إلى تعليلات لا يمكن قبولها من ذلك أنّهم يقولون: إنّ اسم والد إبراهيم هو تارخ ولقبه آزر، وهذا القول لا تسنده الوثائق التّأريخية.

أو يقولون: إنّ «آزر» اسم صنم كان أبو إبراهيم يعبده، وهذا القول لا يأتلف مع هذه الآية التي تقول أن أباه كان آزر، إلّا إذا قدرنا جملة أو كلمة، وهذا أيضاً خلاف الظاهر.

٢ - يقول القرآن: ﴿ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أُولي قربى...﴾ ثمّ لكيلا يتخذ أحد من استغفار إبراهيم لآزر حجّة يقول: ﴿وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلّا عن موعدة وعدها إياه فلمّا تبيّن أنّه عدو لله تبرأ منه﴾ (التوبه، ١١٣ و ١١٤) وذلك لأنّ إبراهيم كان قد وعد آزر أن يستغفر له: ﴿سأستغفر لك ربّي﴾ (مريم، ٤٧). بأمل رجوعه عن عبادة الأصنام، ولكنّه عندما رآه مصمماً على عبادة الأصنام ومعانداً، ترك الإستغفار له.

يتّضح من هذه الآية بجلاء أن إبراهيم بعد أن يئس من آزر، لم يعد يطلب له المغفرة ولم يكن يليق به أن يفعل.

كل القرائن تدل على أنّ هذه الحوادث وقعت عندما كان إبراهيم شاباً، يعيش في بابل ويحارب عبدة الأصنام.

ولكن آيات أُخرىٰ في القرآن تشير إلى أن إبراهيم في أواخر عمره، وبعد الإنتهاء من بناء الكعبة، طلب المغفرة لأبيه (في هذه الآيات ـ كما سيأتي ـ لم تستعمل كلمة «أب» بل استعملت كلمة «والد» الصريحة في المعنى) حيث يقول: ﴿الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق إنّ ربّي لسميع الدعاء ... ربّنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب﴾ (إبراهيم، الآيتان ٣٩ و ٤١).

إذا جمعنا هذه الآية مع آية سورة التوبة التي تنهي المسلمين عن الاستغفار للمشركين وتنفي ذلك عن إبراهيم، إلّا لفترة محدودة ولهدف مقدس، تبيّن لنا بجلاء أنّ المقصود من «أب» في الآية المذكورة ليس «الوالد»، بل هو العم أو الجد من جانب الأُمّ أو ما إلى ذلك، وبعبارة أُخرىٰ: إنّ «والد» تعطي معنى الأُبوة المباشرة، بينما «أب» لا تفيد ذلك.

وقد وردت في القرآن كلمة «أب» بمعنى العم، كما في الآية (١٣٣) من سورة البقرة: ﴿قالوا نعبد الهك وإله أبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهاً واحداً﴾ والضمير في «قالوا» يعود على أبناء يعقوب، وكان إسماعيل عم يعقوب، لا أباه.

٣ ـ وهناك روايات إسلامية مختلفة تؤكّد هذا الأمر، فقد جاء في حديث معروف عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «لم يزل ينقلني الله من أصلاب الطاهرين إلى أرحام المطهرات حتى أخرجني في عالمكم هذا لم يدنسني بدنس الجاهلية».

أدلة التوحيد في السموات

على أثر الكرة الذي كان يحمله إبراهيم للأوثان وطلبه من آزر أن يترك عبادة الأصنام، يشير سبحانه إلى نضال إبراهيم المنطقي مع مختلف عبدة الأصنام، ويبيّن كيفية توصله إلى أصل التوحيد عن طريق الاستدلال العقلي الواضح.

يبيّن أولاً أنّ الله كما عرّف إبراهيم على أضرار عبادة الأصنام عرّفه على مالكية الله وسلطته المطلقة على السموات والأرض: **﴿وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين﴾**.

لا شك أنّ إبراهيم كان موقناً يقيناً استدلالياً وفطرياً بواحدانية الله، ولكنّه بدراسة أسرار الخلق بلغ يقينه حد الكمال، كما أنّه كان مؤمناً بالمعاد ويوم القيامة، ولكنّه بمشاهدة الطيور المذبوحة التي عادت إليها الحياة بلغ إيمانه مرحلة «**عين اليقين**».

الآيات التّالية تشرح هذا المعنىٰ، وتبيّن استدلال إبراهيم من أُفول الكواكب والشمس على عدم الوهيتها، فعندما غطى ستار الليل المظلم العالم كلّه، ظهر أمام بصره كوكب لامع،

ولا شك أن أقبح أدناس الجاهلية هو الشرك وعبادة الأوثان، أما القائلون أنّ أقبحها هو الزنا فلا يقوم على قولهم دليل. خاصّة وانّ القرآن يقول: **﴿إنّما المشركون نَجس﴾**. التوبة، ٢٨

الطبري، وهو من علماء أهل السنة، ينقل في تفسيره «جامع البيان» عن المفسّر المعروف «مجاهد» أنّه قال: لم يكن آزر والد إبراهيم.

الآلوسي في «روح المعاني» يؤكّد عند تفسير هذه الآية أنّ الشيعة ليسوا وحدهم الذين يعتقدون أن آزر لم يكن والد إبراهيم، بل إن كثيراً من علماء المذاهب الأُخرى يرون أن آزر اسم عم إبراهيم.

والسيوطي العالم السني المعروف، نقل في كتابه «مسالك الحنفاء» عن أسرار التنزيل للفخر الرازي أن والدي رسول الله ﷺ وأجداده لم يكونوا مشركين أبداً. مستدلاً على ذلك بالحديث الذي نقلنا آنفاً، ثمّ يستند السيوطي نفسه إلى مجموعتين من الرّوايات.

الأُولى: تقول إنّ آباء رسول الله ﷺ وأجداده حتى آدم كان كل واحد منهم أفضل أهل زمانه (وينقل أمثال هذه الرّوايات عن «صحيح البخاري» و«دلائل النبوة» للبيهقي وغيرهما من المصادر).

والثّانية: هي التي تقول: إنّه في كل عصر وزمان كان هناك أُناس من الموحدين الذين يعبدون الله، ثمّ يجمع بين هاتين المجموعتين من الرّوايات ويستنتج أنّ أجداد رسول الله ﷺ، بما فيهم والد إبراهيم، كانوا حتماً من الموحدين.

فنادى إبراهيم: هذا ربّي! ولكنّه إذ رآه يغرب، قال: لا أحبّ الذين يغربون: **﴿فلما جن الليل رأى كوكباً قال هذا ربّي فلمّا أفل قال لا أُحبّ الأفلين﴾**.

ومرّة أُخرىٰ رفع عينيه إلى السماء فلاح له قرص القمر الفضي ذو الإشعاع واللمعان الجذاب على أديم السماء، فصاح ثانية: هذا ربّي: ولكنّ مصير القمر لم يكن بأفضل من مصير الكوكب قبله، فقد أخفى وجهه خلف طيات الأُفق.

هنا قال إبراهيم: إذا لم يرشدني ربّي إلى الطريق الموصل إليه فسأكون في عداد التائهين **﴿فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربّي فلمّا أفل قال لئن لم يهدني ربّي لأكونن من القوم الضالين﴾**.

عند ذاك كان الليل قد انقضى، وراح يجمع أطراف أستاره المظلمة هارباً من كبد السماء، بينما راحت الشمس تطل من المشرق وتلقي بأشعتها الجميلة كنسيج ذهبي تنشره على الجبل والوادي والصحراء، وما أن وقعت عين إبراهيم الباحث عن الحقيقة على قرص الشمس الساطع صاح: هذا ربّي فإنّه أكبر وأقوى ضوءاً، ولكنّه إذ رآها كذلك تغرب وتختفي في جوف الليل البهيم أعلن إبراهيم قراره النهائي قائلاً: يا قوم! لقد سئمت كل هذه المعبودات المصطنعة التي تجعلونها شريكة لله: **﴿فلمّا رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلمّا أفلت قال يا قوم إنّي بريء ممّا تشركون﴾**.

الآن بعد أن عرفت أنّ وراء هذه المخلوقات المتغيرة المحدودة الخاضعة لقوانين الطبيعة إلهاً قادراً وحاكماً على نظام الكائنات، فاني أتجه إلى الذي خلق السموات والأرض، وفي إيماني هذا لن أشرك به أحداً، فاني موحد ولست مشركاً: **﴿إنّي وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين﴾**[1].[2]

---

١ ـ الانعام، ٧٩ ـ ٧٥.

٢ ـ للمفسّرين كلام كثير في تفسير هذه الآية والآيات التّالية بشأن ما دفع بإبراهيم الموحد العابد لله الواحد، أن يشير إلى كوكب في السماء ويقول: هذا ربّي؟ ومن بين آراء المفسّرين الكثيرة نقف عند تفسير واحد من هذه التفاسير وهو:

أن إبراهيم كان يقول هذا الكلام أثناء مخاطبته عبدة النجوم والشمس، ويحتمل أن يكون ذلك بعد مخاصماته الشديدة في بابل مع عبدة الأوثان وخروجه منها إلى الشام، حيث التقى بهؤلاء الأقوام، وإبراهيم الذي كان قد خبر عناد الأقوام الجاهلة في بابل وخطأ تفكيرهم، أراد أن يجلب إليه إنتباه

وبشأن تعيين الكوكب الذي رآه إبراهيم، مذاهب شتى، غير أنّ المعظم يراه «الزهرة» أو «المشتري» ويذكر التّأريخ أنّ القدامى كانوا يعبدون هذين الكوكبين من بين آلهتهم، أمّا الحديث المنقول عن الإمام الرضاعليه‌السلام فيقول: إنّ ذلك الكوكب كان «الزهرة»، وهذا ما جاء أيضاً في تفسير علي بن إبراهيم عن الإمام الصادقعليه‌السلام.

الدعوة للتوحيد

﴿وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون﴾.

ثمّ يذكر إبراهيمعليه‌السلام أدلة بطلان عبادة الأصنام والأوثان، ويبيّن في تعابير مختلفة يتضمّن كل منها دليلاً على فساد مذهبهم وبطلانه فيقول أوّلاً: **﴿إنّما تعبدون من دون الله أوثاناً﴾**.

هذه الأوثان هي الأصنام الخالية من الروح.. الأصنام التي ليس لها إرادة، ولا عقل، وهي فاقدة لكل شيء، بحيث أن شكلها بنفسه هو دليل على بطلان عقيدة «عبادة الأوثان»

ثمّ يتوسع في حديثه ويمضي إلى مدى أبعد فيقول: ليست هذه الأوثان بهيئتها تدل على أنّها لا تستحق العبادة فحسب، بل أنتم تعلمون بأنّكم تكذبون وتضعون اسم الآلهة على هذه الأوثان: **﴿وتخلقون إفكا﴾**.

فأي دليل لديكم على هذا الكذب سوى حَفنةٍ من الأوهام والخرافات الباطلة.

ثمّ يبيّن الدليل الثّالث وهو أن عبادتكم لهذه الأوثان إمّا لأجل المنافع المادية، أو لعاقبتكم في «الأُخرىٰ» وكلا الهدفين باطل... وذلك: **﴿إنّ الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً﴾**.

وأنتم تعتقدون بأنّ هذه الأصنام لم تكن خلقتكم، بل الخالق هو الله، فالذي يتكفل بالرزق هو الله **﴿فابتغوا عند الله الرزق﴾**.

عبدة الكواكب والشمس والقمر، فأظهر في البداية أنّه معهم وقال لهم: إنكم تقولون: إنّ كوكب الزهرة هذا هو ربّي، حسناً، فلنر ما يحصل لهذا الإعتقاد في النهاية، ولم يمض وقت طويل حتى أختفى وجه الكوكب النير خلف ستار الأُفق المظلم، عندئذ إتّخذ إبراهيم من هذا الأُفول سلاحاً يواجههم به فقال: أنا لا يمكنني أن أتقبل معبوداً كهذا.

وعليه، فإنّ عبارة ﴿هذا ربي﴾ تعني: هذا ما تعتقدون أنّه ربّي، أو أنّه قالها بلهجة الإستفهام: «هذا ربّي؟».

ولأنّه هو الذي يرزقكم فتوجهوا إليه ﴿واعبدوه واشكروا له﴾.

وبتعبير آخر، فإن واحداً من أسباب العبادة وبواعثها هو الإحساس بالشكر للمنعم الحقيقي، وتعرفون أن المنعم الحقيقي هو الله، فالشكر والعبادة يختصان ـ أيضاً ـ بذاته المقدسة. وإذ كنتم تبتغون الدار الأُخرىٰ فإنّه ﴿إليه ترجعون﴾.

فالأصنام لا تصنع شيئاً هنا ولا هناك!.

وبهذا الأدلّة الموجزة والواضحة ألجم منطقهم الواهي وأفحمهم.

ثمّ يلتفت إبراهيم عليه السلام مهدّداً لهم ومبدياً عدم اكتراثه بهم قائلاً: ﴿وإن تكذبوا فقد كذب أُمم من قبلكم﴾ كذبوا أنبياءهم فنالوا الخزي بتكذيبهم والعاقبة الوخيمة ﴿وما على الرّسول إلّا البلاغ المبين﴾ [1] سواءً استجاب له قومه، أم لم يستجيبوا له دعوته وبلاغه!

وجدنا آبائنا كذلك يفعلون

فأجابوه مباشرةً ﴿قالوا نعبدُ أصناماً فنظلُّ لها عاكفين﴾! وهذا التعبير يدلّ على أنّهم يحسّوا بالخجل من عملهم هذا، بل يفتخرون به، إذا كان كافياً أن يجيبوه: نعبد أصناماً، إلّا أنّهم أضافوا هذه العبارة: ﴿فنظل لها عاكفين﴾!

وعلى كل حال، فإنّ إبراهيم لما سمع كلامَهم رشقهم بنبال الإشكال والإعتراض بشدّة، وقمعهم بجملتين حاسمتين جعلهم في طريق مغلق، فـ﴿قال هل يسمعونكم إذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون﴾؟!

إلّا أن عبدة الأصنام الجهلة المتعصبين واجهوا سؤال إبراهيم بجوابهم القديم الذي يكررونه دائماً، فـ﴿قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون﴾ [2].

وهذا الجواب الذي يكشف عن تقليدهم الأعمى لأسلافهم الجهلة هو الجواب الوحيد الذي استطاعوا أن يردّوا به على إبراهيم عليه السلام، وهو جواب دليلُ بطلانه كامنٌ فيه، وليس أي عاقل يجيز لنفسه أن يقفَو أثرَ غيره ويصم أُذنيه ويغمضُ عينيه، ولا سيما أن تجارب الخلف أكثر من السلف عادة، ولا يوجد دليل على تقليدهم الأعمى!...

---

١ ـ العنكبوت، ١٨ ـ ١٦.

٢ ـ الشعراء، ٧٤ ـ ٧١.

مخطط ابراهيم الرائع

يتحدّث القرآن عن قصّة تحطيم إبراهيم للأصنام، والموقف الشديد الذي اتّخذه عبدة الأصنام تجاه إبراهيم.[١]

ومن أجل أن يثبت إبراهيم جديّة هذه المسألة، وأنّه ثابت على عقيدته إلى أبعد الحدود، وأنّه يتقبّل كلّ ما يترتّب على ذلك بكلّ وجوده، أضاف: **﴿وتالله لأكيدنّ أصنامكم بعد أن تولّوا مدبرين﴾**[٢].

وكان مراده أن يفهمهم بصراحة بأنّني سأستغلّ في النهاية فرصة مناسبة وأُحطّم هذه الأصنام!

إلّا أنّ عظمة وهيبة الأصنام في نفوسهم ربّما كانت قد بلغت حدّاً لم يأخذوا معه كلام إبراهيم مأخذ الجدّ، ولم يظهروا ردّ فعل تجاهه، وربّما ظنّوا بأنّ أي إنسان لا يسمح لنفسه أن يهزأ ويسخر من مقدّسات قوم تدعم حكومتهم تلك المقدّسات تماماً، بأيّة جرأة؟ وبأيّة قوّة؟!

ومن هنا يتّضح أنّ ما قاله بعض من أنّ هذه الجملة قد قالها إبراهيم سرّاً في نفسه، أو بيّنها لبعض بصورة خاصّة لا داعي له، خاصّةً وأنّه مخالف تماماً لظاهر القرآن. إضافةً إلى أنّنا سنقرأ بعد أنّ عبّاد الأصنام قد تذكّروا قول إبراهيم، وقالوا: سمعنا فتى كان يتحدّث عن مؤامرة ضدّ الأصنام.

---

١ ـ القرآن الكريم ربط بين قصّة إبراهيم وقصّة نوح بهذه الصورة ﴿وإنّ من شيعته لإبراهيم﴾ (الصافات، ٨٣).

أي إنّ إبراهيم كان سائراً على خطى نوحعليه‌السلام في التوحيد والعدل والتقوى والإخلاص، حيث أنّ الأنبياء يبلغون لفكر واحد، وهم أساتذة جامعة واحدة، وكلّ واحد منهم يواصل تنفيذ برامج الآخر لإكمالها.

كم هي جميلة هذه العبارة؟ إبراهيم من شيعة نوح، رغم أنّ الفاصل الزمني بينهما كان كبيراً (قال بعض: إنّ الفاصل الزمني بينهما يقدر بـ ٢٦٠٠ سنة)، إذ أنّ العلاقات الإيمانية ـ كما هو معروف ـ لا يؤثّر عليها الفاصل الزمني أدنى تأثير.

٢ ـ الانبياء، ٥٧ .

على كلّ حال، فإنّ إبراهيم نفّذ خطّته في يوم كان معبد الأوثان خالياً من الناس ولم يكن أحد من الوثنيين حاضراً.

إنّ عبدة الأوثان كانوا قد اتّخذوا يوماً خاصّاً من كلّ سنة عيداً لأصنامهم، وكانوا يحضرون الأطعمة عند أصنامهم في المعبد في ذلك اليوم، ثمّ يخرجون من المدينة أفواجاً، وكانوا يرجعون في آخر النهار، فيأتون إلى المعبد ليأكلوا من ذلك الطعام الذي نالته البركة في إعتقادهم.

وبذلك خلت المدينة من سكّانها، فاستغلّ إبراهيم عليه السلام هذه الفرصة الجيّدة لتحطيم الأصنام، الفرصة التي كان إبراهيم عليه السلام ينتظرها منذ فترة طويلة، ولم يكن راغباً في إضاعتها.

وحين دعاه قومه ليلاً للمشاركة في مراسمهم نظر إلى النجوم ﴿**فنظر نظرةً في النجوم * فقال إنّي سقيم**﴾.

وبهذا الشكل إعتذر عن مشاركتهم.

بعد إعتذاره تركوه وأسرعوا لتأدية مراسمهم ﴿**فتولّوا عنه مدبرين**﴾.[١، ٢]

---

١ ـ الصّافات، ٩٠ ـ ٨٨.

٢ ـ وهنا يطرح سؤالان:

الأوّل: لماذا نظر إبراهيم عليه السلام في النجوم، وما هو هدفه من هذه النظرة؟

والثاني: هل أنّه كان مريضاً حقّاً حينما قال: إنّني مريض؟ وما هو مرضه؟

جواب السؤال الأوّل، مع أخذ إعتقادات أهل بابل وعاداتهم بنظر الإعتبار، يتّضح أنّهم كانوا يستقرئون النجوم، وحتّى أنّهم كانوا يقولون بأنّ أصنامهم كانت هياكل النجوم على الأرض، ولهذا السبب فإنّهم يكنّون لها الإحترام لكونها تمثّل النجوم.

وبالطبع فإلى جانب إستقرائهم للنجوم، كانت هناك خرافات كثيرة في هذا المجال شائعة في أوساطهم، منها أنّهم كانوا يعتبرون النجوم تؤثّر على حظوظهم، وكانوا يطلبون منها الخير والبركة، كما كانوا يستدلّون بها على الحوادث المستقبلية.

ولكي يوهمهم إبراهيم عليه السلام بأنّه يقول بمثل قولهم، نظر إلى السماء وقال حينذاك: إنّي سقيم، فتركوه ظنّاً منهم أنّ نجمه يدلّ على سقمه.

أمّا بعض كبار المفسّرين، فقد احتملوا أنّه كان يريد من حركة النجوم تعيين الوقت الدقيق لمرضه، لأنّه كان مصاباً بحمى تعتريه في أوقات معيّنة، ولكن الإحتمال الأوّل يعدّ مناسباً أكثر، مع الأخذ بنظر الإعتبار معتقدات أهل بابل السائدة آنذاك.

ألا تأكلون؟

وبهذه الطريقة بقي إبراهيمعليه السلام وحده في المدينة بعد أن تركها عبدة الأصنام متّوجهين إلى خارجها، فنظر إبراهيم حوله ونور الإشتياق لتحطيم الأصنام ظاهر في عينيه، إذ قربت اللحظات التي كان ينتظرها، وعليه أن يتحرّك لمحاربة الأصنام وإلحاق ضربة عنيفة بها، ضربة تهزّ العقول التافهة لعبدتها وتوقظهم.

فذهب إلى معبد الأصنام، ونظر إلى صحون وأواني الطعام المنتشرة في المعبد، ثمّ نظر إلى الأصنام وصاح بها مستهزئاً، ألا تأكلون من هذا الطعام الذي جلبه لكم عبدتكم، إنّه غذاء دسم ولذيذ ومتنوّع، ما لكم لا تأكلون؟ **﴿فراغ إلى آلهتهم فقال ألا تأكلون﴾**.

ثمّ أضاف، لِمَ لا تتكلّمون؟ لِمَ تعجز ألسنتكم عن النطق؟ **﴿ما لكم لا تنطقون﴾**.

وبهذا استهزء إبراهيمعليه السلام بكلّ معتقداتهم الخرافية، ومن دون أي شكّ فإنّه كان يعرف أنّها لا تأكل ولا تتحدّث، وأنّها جماد. وأراد من وراء ذلك عرض حادثة تحطيم الأصنام بصورة جميلة ولطيفة.

بعد ذلك شمر عن ساعديه، فأمسك الفأس وانقضّ على تلك الأصنام بالضرب بكلّ ما لديه من قوّة **﴿فراغ عليهم ضرباً باليمين﴾**[1].

على أيّة حال، فإنّ إنقضاض إبراهيمعليه السلام على الأصنام، حوّل معبد الأصنام المنظّم إلى خربة موحشة، حيث لم يبق صنم على حالته الأُولى، فالأيدي والأرجل المحطّمة تفرّقت هنا وهناك داخل المعبد، وكم كان منظر المعبد بالنسبة لعبدة الأصنام مؤثّراً ومؤسفاً ومؤلماً في نفس الوقت.

فيما احتمل البعض الآخر أنّ نظره إلى السماء هو التفكّر في أسرار الخلق، رغم أنّهم كانوا يتصوّرون أنّ نظراته إلى السماء هي نظرات منجم يريد من خلال حركة النجوم توقّع الحوادث القادمة.

أمّا بخصوص السؤال الثاني فقد ذكروا أجوبة متعدّدة:

منها: أنّه كان مريضاً حقّاً، وحتّى إن لم يكن مريضاً فإنّه لن يشارك في مراسم عيدهم، فمرضه كان عذراً جيّداً لعدم مشاركته في تلك المراسم وفي نفس الوقت فرصة ذهبية لتحطيم الأصنام، ولا نمتلك دليلاً يمكننا من القول بأنّه إستخدم التورية، كما أنّ إستخدام التورية من قبل الأنبياء يعدّ عملاً غير مناسب.

۱ ـ الصّافات، ۹۳ ـ ۹۱.

وبعد إنتهائه من تحطيم الأصنام، غادر إبراهيم ـ بكلّ هدوء وإطمئنان ـ معبد الأصنام عائداً إلى بيته ليعدّ نفسه للحوادث المقبلة، لأنّه كان يعلم أنّ عمله كان بمثابة إنفجار هائل سيهزّ المدينة برمّتها ومملكة بابل بأجمعها، وسيحدث موجة من الغضب العارم، الموجة التي سيكون إبراهيمعليه السلام وحيداً في وسطها. إلّا أنّ له ربّاً يحميه، وهذا يكفيه.

ابراهيم في محكمة النمروديين

وأخيراً إنتهى يوم العيد، ورجع عبدة الأصنام فرحين إلى المدينة، فأتوا إلى المعبد مباشرةً، حتّى يظهروا ولاءهم للأصنام، وليأكلوا من الأطعمة التي تبرّكت ـ بزعمهم ـ بمجاورة الأصنام. فما أن دخلوا المعبد حتّى واجهوا منظراً أطار عقولهم من رؤوسهم، فقد وجدوا تلّاً من الأيادي والأرجل المكسّرة المتراكمة بعضها على البعض الآخر في ذلك المعبد المعمور، فصاحوا و ﴿**قالوا من فعل هذا بآلهتنا**﴾؟! ولا ريب أنّ من فعل ذلك فـ﴿**إنّه لمن الظالمين**﴾ فقد ظلم آلهتنا ومجتمعنا ونفسه! لأنّه عرض نفسه للهلاك بهذا العمل.

إلّا أنّ جماعة منهم تذكّروا ما سمعوه من إبراهيمعليه السلام وإزدرائه بالأصنام وتهديده لها وطريقة تعامله السلبي لهذه الآلهة المزعومة! ﴿**قالوا سمعنا فتىً يذكرهم يقال له إبراهيم**﴾.

صحيح أنّ إبراهيم كان شاباً، وربّما لم يكن سنّه يتجاوز (١٦) عاماً، وصحيح أنّ كلّ خصائص الرجولة من الشجاعة والشهامة والصراحة والحزم قد جمعت فيه، إلّا أنّ من المسلّم به أنّ مراد عبّاد الأصنام لم يكن سوى التحقير، فبدل أن يقولوا: إنّ إبراهيم قد فعل هذا الفعل، قالوا: إنّ فتى يقال له إبراهيم كان يقول كذا ... أي إنّه فرد مجهول تماماً، ولا شخصيّة له في نظرهم.

إنّ المألوف ـ عادةً ـ عندما تقع جريمة في مكان ما، فإنّه ومن أجل كشف الشخص الذي قام بهذا العمل، تبحث علاقات الخصومة والعداء، ومن البديهي أنّه لم يكن هناك شخص في تلك البيئة من يعادي الأصنام غير إبراهيم، ولذلك توجّهت إليه أفكار الجميع، و ﴿**قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلّهم يشهدون**﴾[1] عليه بالجريمة.

---

١ ـ الانبياء، ٦١ ـ ٥٩.

فنادى المنادون في نواحي المدينة: «ليحضر كلّ من يعلم بعداء إبراهيم وإهانته للأصنام»، فإجتمع كلّ الذين كانوا يعلمون بالموضوع، وكذلك سائر الناس ليروا أين ستصل عاقبة عمل هذا المتّهم؟

لقد حدثت ضجّة وهمهمة عجيبة بين الناس، لأنّ هذا العمل كان في نظرهم جريمة لم يسبق لها نظير من قبل شابّ مثير للفتن والمتاعب، وكانت قد هزّت البناء الديني للناس.

حجّة ابراهيم الدامغة

وأخيراً تشكّلت المحكمة، وكان زعماء القوم قد إجتمعوا هناك، يقال: إنّ نمرود نفسه كان مشرفاً على هذه المحاكمة، وأوّل سؤال وجّهوه إلى إبراهيمعليه السلام هو أن: ﴿**قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا ياإبراهيم**﴾؟

هؤلاء لم يكونوا مستعدّين حتّى للقول: أأنت حطّمت آلهتنا وجعلتها قطعاً متناثرة؟ بل قالوا فقط: أأنت فعلت بآلهتنا ذلك؟

فأجابهم إبراهيم جواباً أفحمهم، وجعلهم في حيرة لم يجدوا منها مخرجاً ﴿**قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون**﴾[1].

إنّ من أُسس علم معرفة الجرائم أن يكون المتّهم بادية عليه آثار الجريمة، والملاحظ هنا أنّ آثار الجريمة كانت باديةً على يد الصنم الكبير، [وفقاً للرواية المعروفة: إنّ إبراهيم جعل الفأس على رقبة الصنم الكبير].

لماذا تأتون إليّ؟ ولماذا لا تتّهمون إلهكم الكبير؟ ألا تحتملون أنّه غضب على الآلهة الصغيرة، أو إنّه إعتبرهم منافسيه في المستقبل فعاقبهم؟

إنّ إبراهيمعليه السلام قد نسب العمل إلى كبير الأصنام قطعاً، إلّا أنّ كلّ القرائن تشهد أنّه لم يكن جادّاً في قصده، بل كان يريد أن يزعزع عقائد الوثنيين الخرافية الواهية، ويفنّدها أمامهم، ويُفهم هؤلاء أنّ هذه الأحجار والأخشاب التي لا حياة فيها ذليلة وعاجزة إلى الحدّ الذي لا تستطيع أن تتكلّم بجملة واحدة تستنجد بعبّادها، فكيف يريدون منها أن تحلّ معضلاتهم؟!

ونظير هذا التعبير كثير في محادثاتنا اليوميّة، فنحن إذا أردنا إبطال أقوال الطرف المقابل

---

١ ـ الانبياء، ٦٣ ـ ٦٢.

نضعِ أمامه مسلّماته على هيئة الأمر أو الإخبار أو الإستفهام، وهذا ليس كذباً أبداً، بل الكذب هو القول الذي لا يمتلك القرينة معه.

وفي رواية عن الإمام الصادقعليه السلام في كتاب الكافي: «**إنّما قال: بل فعله كـبيرهم، إرادة الإصلاح، ودلالة على أنّهم لا يفعلون**» ثمّ قال: «**والله ما فعلوه وما كذّب**».

يقضة سرعان ما تزول

لقد هزّت كلمات إبراهيم الوثنيين وأيقظت ضمائرهم النائمة الغافلة، وأزاح الرماد عـن شعلة النّار فأضاءها، وأنار فطرتهم التوحيديّة من خلف حجب التعصّب والجهل.

في لحظة سريعة إستيقظوا من هذا النوم العميق ورجعوا إلى فطرتهم ووجدانهم، كما يقول القرآن: ﴿فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنّكم أنتم الظالمون﴾[1] فقد ظلمتم أنفسكم ومجتمعكم الذي تنتمون إليه، وكذلك ساحة الله واهب النعم المقدّسة.

والطريف في الأمر أنّنا قرأنا سابقاً أنّهم اتّهموا إبراهيم بكونه ظالماً، وهنا قبلوا وإعترفوا في أنفسهم بأنّ الظالم الأصلي والحقيقي هو أنفسهم. وفي الواقع فإنّ كلّ مراد إبراهيم من تحطيم الأصنام تحطيم فكر الوثنية وروح الصنمية، لا تحطيم الأصـنام ذاتـها، إذ لا جـدوى مـن تحطيمها إذا صنع الوثنيّون العنودون أصناماً أكبر منها وجعلوها مكانها، وتوجد أمثلة كثيرة لهذه المسألة في تأريخ الأقوام الجاهلين المتعصّبين.

إلى الآن إستطاع إبراهيم أن يجتاز بنجاح مرحلة حسّاسة جداً من طريق تبليغه الرسالة، وهي إيقاظ الضمائر عن طريق إيجاد موجة نفسيّة هائجة.

ما هؤلاء ينطقون

وللأسف لم تستمر هذه اليقظة الروحية المقدّسة، وثارت في ضمائرهم الملوّثة المظلمة قوى الشيطان والجهل ضدّ نور التوحيد هذا، ورجع كلّ شيء إلى حالته الأُولىٰ، وكم هو لطيف تعبير القرآن حيث يقول: ﴿ثمّ نكسوا على رؤوسهم﴾ ومن أجل أن يأتوا بعذر نيابة عن الآلهة البُكْم قالوا: ﴿لقد علمت ما هؤلاء ينطقون﴾ فإنّهم دائـماً صـامتون، ولا يـحطّمون حـاجز

---

١ ـ الانبياء، ٦٤.

الصمت. وأرادوا بهذا العذر الواهي أن يخفوا ضعف وذلّة الأصنام.

وهنا فُتح أمام إبراهيم الميدان والمجال للإستدلال المنطقي ليوجّه لهم أشدّ هجماته، وليرمي عقولهم بوابل من التوبيخ واللوم المنطقي الواعي: **﴿قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضرّكم﴾**؟ فماذا تنفع هذه الآلهة المزعومة الخياليّة التي لا قدرة لها على الكلام، وليس لها شعور وإدراك، ولا تقدر أن تدافع عن نفسها، ولا تستطيع أن تحمي عبّادها، ولا يصدر عنها أي عمل؟

إنّ عبادة معبود ما إنّما يكون لأهليّته للعبادة، ومثل هذا الأمر لا معنى له في شأن الأصنام الميتة، أو يعبد رجاء فائدة ونفع تعود عليهم من قبله، أو الخوف من خسارتهم، إلّا أنّ إقدامي على تحطيم الأصنام أوضح أنّها لا تملك أدنى حركة، ومع هذا الحال ألا يعتبر عملكم هذا حمقاً وجهالة؟!

ووسّع معلّم التوحيد دائرة الكلام، وإنهال بسياط التقريع على روحهم التي فقدت الإحساس، فقال: **﴿أُف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون﴾**[1]؟ إلّا أنّه لم يلحّ في توبيخهم وتقريعهم لئلّا يلجّوا في عنادهم.

في الحقيقة، كان إبراهيم يتابع خطّته بدقّة متناهية، فأوّل شيء قام به عند دعوتهم إلى التوحيد هو أن ناداهم قائلاً: ما هذه التماثيل التي تعبدونها؟ وهي لا تحسّ ولا تتكلّم وإذا كنتم تقولون: إنّها سنّة آبائكم، فقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين.

وفي المرحلة الثّانية أقدم على خطّة عملية ليبيّن أنّ هذه الأصنام ليست لها تلك القدرة على إهلاك كلّ من ينظر إليها نظرة إحتقار، خاصة وأنّه ذهب إليها مع سابق إنذار وحطّمها تماماً، وليوضّح أنّ تلك الأوهام التي حاكوها مجتمعين لا فائدة ولا ثمر فيها.

وفي المرحلة الثّالثة أوصلهم في تلك المحكمة التاريخيّة إلى طريق مسدود، فمرّة دخل إليهم عن طريق فطرتهم، وتارةً خاطب عقولهم، وأُخرىٰ وعّظهم، وأحياناً وبّخهم ولامهم.

والخلاصة، فإنّ هذا المعلّم الكبير قد دخل من كلّ الأبواب، وإستخدم كلّ طاقته، إلّا أنّ من المسلّم أنّ القابلية شرط في التأثير، وكان هذا قليل الوجود بين أُولئك القوم للأسف.

ولكن لا شكّ أنّ كلمات إبراهيم عليه السلام وأفعالِهِ بقيت كأرضيّة للتوحيد، أو على الأقل بقيت

---

١ ـ الانبياء، ٦٧ ـ ٦٥.

كعلامات إستفهام في أذهان أُولئك، وأصبحت مقدّمة ليقظة ووعي أوسع في المستقبل. ويستفاد من التواريخ أنّ جماعة آمنوا به، وهم وإن قلّوا عدداً، إلّا أنّهم كانوا من الأهميّة بمكان، إذ هيّأوا الإستعداد النسبي لفئة أُخرىٰ.

حرّقوه

مع أنّ عبدة الأوثان أُسقط ما في أيديهم نتيجة إستدلالات إبراهيم العمليّة والمنطقيّة، وإعترفوا في أنفسهم بهذه الهزيمة، إلّا أنّ عنادهم وتعصّبهم الشديد منعهم من قبول الحقّ، ولذلك فلا عجب من أن يتّخذوا قراراً صارماً وخطيراً في شأن إبراهيم، وهو قتل إبراهيم بأبشع صورة، أي حرقه وجعله رماداً!

هناك علاقة عكسية بين القوّة والمنطق عادةً، فكلّ من إشتدّت قوّته ضعف منطقه، إلّا رجال الحقّ فإنّهم كلّما زادت قوتهم يصبحون أكثر تواضعاً ومنطقاً.

وعندما لا يحقّق المتعصّبون شيئاً عن طريق المنطق، فسوف يتوسّلون بالقوّة فوراً، وقد طبّقت هذه الخطّة في حقّ إبراهيم تماماً كما يقول القرآن الكريم: **﴿قالوا حرّقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين﴾**[١].

إنّ المتسلّطين المتعنّتين يستغلّون نقاط الضعف النفسيّة لدى الغوغاء من الناس لتحريكهم ـ عادةً ـ لمعرفتهم بالنفسيات ومهارتهم في عملهم! وكذلك فعلوا في هذه الحادثة، وأطلقوا شعارات تثير حفيظتهم، فقالوا: إنّ آلهتكم ومقدّساتكم مهدّدة بالخطر، وقد سُحقت سنّة آبائكم وأجدادكم، فأين غيرتكم وحميّتكم؟! لماذا أنتم ضعفاء أذلّاء؟ لماذا لا تنصرون آلهتكم؟ احرقوا إبراهيم وانصروا آلهتكم ـ إذا كنتم لا تقدرون على أي عمل ـ ما دام فيكم عرق ينبض، ولكم قوّة وقدرة.

أُنظروا إلى كلّ الناس يدافعون عن مقدّساتهم، فما بالكم وقد أحدق الخطر بكلّ مقدّساتكم؟!

والخلاصة، فقد قالوا الكثير من أمثال هذه الخزعبلات وأثاروا الناس ضدّ إبراهيم بحيث أنّهم لم يكتفوا بعدّة حزم من الحطب تكفي لإحراق عدّة أشخاص، بل أتوا بآلاف الحزم

---

١ ـ الانبياء، ٦٨.

وألقوها حتّى صارت جبلاً من الحطب ثمّ أشعلوه فاتّقدت منه نار مهولة كأنّها البحر المتلاطم والدخان يتصاعد إلى عنان السّماء لينتقموا من إبراهيم أوّلاً، وليحفظوا مهابة أصنامهم المزعومة التي حطّمتها خِطّته وأسقطت اُبّهتها!!

لقد كتب المؤرّخون هنا مطالب كثيرة، لا يبدو أي منها بعيداً

ضجيج الملائكة

إنّ الناس سعوا أربعين يوماً لجمع الحطب، فجمعوا منه الكثير من كلّ مكان، وقد وصل الأمر إلى أنّ النساء اللاتي كان عملهنّ الحياكة في البيوت، خرجن وأضفن تلّاً من الحطب إلى ذلك الحطب، ووصّى المرضى المشرفون على الموت بمبلغ من أموالهم لشراء الحطب، وكان المحتاجون ينذرون بأنّهم يضيفون مقداراً من الحطب إذا قضيت حوائجهم، ولذلك عندما أشعلوا النّار في الحطب من كلّ جانب إشتعلت نار عظيمة بحيث لا تستطيع الطيور أن تمرّ فوقها.

من البديهي أنّ ناراً بهذه العظمة لا يمكن الإقتراب منها، فكيف يريدون أن يلقوا إبراهيم فيها، ومن هنا اضطروا إلى الإستعانة بالمنجنيق، فوضعوا إبراهيم عليه وألقوه في تلك النّار المترامية الأطراف بحركة سريعة.

عندما وضعوا إبراهيم على المنجنيق، وأرادوا أن يلقوه في النّار، ضجّت السّماء والأرض والملائكة، وسألت الله سبحانه أن يحفظ هذا الموحّد البطل وزعيم الرجال الأحرار.

إنّ جبرئيل جاء للقاء إبراهيم، وقال له: **ألك حاجة؟** فأجابه إبراهيم بعبارة موجزة: «**أمّا إليك فلا**» إنّي أحتاج إلى من هو غني عن الجميع، ورءوف بالجميع.

وهنا إقترح عليه جبرئيل فقال: فاسأل ربّك، فأجابه: «**حسبي مِن سؤالي علمه بحالي**».

ناجئ إبراهيم ربّه في تلك الساعة: «**ياأحد ياأحد، ياصمد ياصمد، يامن لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، توكّلت على الله**».

النّار حديقة غنّاء

وعلى كلّ حال، فقد اُلقي إبراهيم في النّار وسط زغاريد الناس وسرورهم وصراخهم، وقد أطلقوا أصوات الفرح ظانّين أنّ محطّم الأصنام قد فني إلى الأبد وأصبح تراباً ورماداً.

لكنّ الله الذي بيده كلّ شيء حتّى النّار لا تحرق إلّا بإذنه، شاء أن يبقى هذا العبد المؤمن المخلص سالماً من لهب تلك النّار الموقدة ليضيف وثيقة فخر جديدة إلى سجل إفتخاراته، وكما يقول القرآن الكريم: ﴿قلنا يانار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم﴾ [١].

والمعروف أنّ النّار قد بردت برداً شديداً إصطكّت أسنان إبراهيم منه، وحسب قول بعض: إنّ الله سبحانه لو لم يقل: سلاماً، لمات إبراهيم من شدّة البرد. وكذلك نقرأ في رواية مشهورة أنّ نار النمرود قد تحوّلت إلى حديقة غناء. حتّى قال بعض إنّ تلك اللحظات التي كان فيها إبراهيم في النّار، كانت أهدأ وأفضل وأجمل أيّام عمره.[٢]

لا يخفى أنّ الوضع قد إختلف تماماً ببقاء إبراهيم سالماً، وخمدت أصوات الفرح، وبقيت الأفواه فاغرة من العجب، وكان جماعة يتهامسون علناً فيما بينهم حول هذه الظاهرة العجيبة، وأصبحت الألسن تلهج بعظمة إبراهيم وربّه، وأحدق الخطر بوجود نمرود وحكومته، غير أنّ العناد ظلّ مانعاً من قبول الحقّ، وإن كان أصحاب القلوب الواعية قد إستفادوا من هذه الواقعة، وزاد إيمانهم مع قلّتهم.

الفتى الشّجاع

إنّ إبراهيم لمّا أُلقي في النّار لم يكن عمره يتجاوز ست عشرة سنة وذكر البعض أنّ عمره عند ذاك كان (٢٦) سنة.

وعلى كلّ حال فإنّه كان في عمر الشباب، ومع أنّه لم يكن معه أحد يعينه، فإنّه رمى بسهم المواجهة في وجه طاغوت زمانه الكبير الذي كان حامياً للطواغيت الآخرين، وهبّ بمفرده لمقارعة الجهل والخرافات والشرك، واستهزأ بكلّ مقدّسات المجتمع الخيالية الواهـية، ولم يدع للخوف من غضب وإنتقام الناس أدنى سبيل إلى نفسه، لأنّ قلبه كان مغموراً بعشق الله، وكان إعتماده وتوكّله على الذات المقدّسة فحسب.

---

١ ـ الانبياء، ٦٩.

٢ ـ فهناك إختلاف في كيفية عدم إحراق النّار لإبراهيم، إلّا أنّ مجمل الكلام أنّه في فلسفة التوحيد لا يصدر أي مسبّب عن أي سبب إلّا بأمر الله، فيقول يوماً للسكّين التي في يد إبراهيم: لا تقطعي، ويقول يوماً آخر للنار: لا تحرقي، ويوماً آخر يأمر الماء الذي هو أساس الحياة أن يغرق فرعون والفراعنة!

أجل .. هكذا هو الايمان، أينما وجد وجدت الشهامة، وكلّ من حلّ فيه فلا يـمكن أن يُقهر!

إبراهيم ونمرود

عندما ألقوا إبراهيم في النّار، كان نمرود على يقين من أنّ إبراهيم قد أصبح رمـاداً، أمّـا عندما دقّق النظر ووجده حيّاً، قال لمن حوله: إنّي أرى إبراهيم حيّاً، لعلّي يخيّل إليّ! فصعد على مرتفع ورأى حاله جيداً فصاح نمرود: ياإبراهيم إنّ ربّك عظيم، وقد أوجد بقدرته حائلاً بينك وبين النّار! ولذلك فإنّي أُريد أن أُقدّم قرباناً له، وأحضر أربعة آلاف قربان لذلك، فأعاد إبراهيم القول عليه بأنّ أي قربان ـ وأي عمل ـ لا يتقبّل منك إلّا أن تؤمن أوّلاً. غير أنّ نمرود قال في الجواب: فسيذهب سلطاني وملكي سُدىً إذن، وليس بإمكاني أن أتحمّل ذلك!

على كلّ حال، فإنّ هذه الحوادث صارت سبباً لإيمان جماعة من ذوي القلوب الواعية بربّ إبراهيمعليه السلام، أو يزدادوا إيماناً، وربّما كان هذا هو السبب في عدم إظهار نمرود ردّ فعل قوي ضدّ إبراهيم، بل إكتفى بإبعاده عن أرض بابل.

محاجة إبراهيم مع طاغوت زمانه

القرآن لا يذكر اسم هذا الشخص الذي حاجَّ إبراهيم، ويشير إليـه بـقوله: **﴿أن آتـاه الله الملك﴾** أي أنّه لغروره بحكمه قام بمحاجحة إبراهيم.

نقل عن أميرالمؤمنين عليعليه السلام رواية تذكر أنّه «**النمرود بن كنعان**» وكتب التاريخ تذكر هذا الإسم أيضاً.

على الرغم من عدم تعرّض القرآن لذكر وقت هذا الحوار، فالقرائن تدلّ على أنّه وقع بعد قيام إبراهيم بتحطيم الأصنام ونجاته من النار، إذ من الواضح أنّه قبل إلقائه في النار لم تكن لتجري أمثال هذه المجادلات، لأنّ عبدة الأصنام ما كانوا يسمحون له بالكلام وهم يعتبرونه مجرماً ينبغي أن ينال بأسرع وقت جزاءه على فعلته الشنيعة بتحطيم آلهتهم المقدّسة!

على كلّ حال، إنّ ذلك الجبّار تملّكه الغرور والكبر وأسكره الملك، سأل إبراهيم عن ربّه: من هو الإله الذي تدعوني إليه؟ **﴿إذ قال إبراهيم ربّ الذي يحيي ويميت﴾**.

الواقع أنّ أعظم قضيّة في العالم هي قضيّة الخلقة، يعني قانون الحياة والموت الذي هو أوضح آية علىٰ علم الله وقدرته.

ولكن نمرود الجبّار إتّخذ طريق المجادلة والسفسطة وتزييف الحقائق لإغفال الناس والملأ من حوله فقال: إنّ قانون الحياة والموت بيدي **﴿قال أنا أحيي وأُميت﴾**.

ومن أجل إثبات هذه الدعوىٰ الكاذبة استخدم حيلة حيث أمر بإحضار سجينين أطلق سراح أحدهما وأمر بقتل الآخر، ثمّ قال لإبراهيم والحضّار: أرأيتم كيف أحيي وأُميت.

ولكنّ إبراهيم قدّم دليلاً آخر لإحباط هذه الحيله وكشف زيف المدّعي بحيث لا يمكنه بعد ذلك من إغفال النّاس فقال: **﴿قال إبراهيم فإنّ الله يأتي بالشمس من المشرق فأتِ بها من المغرب﴾** وهنا ألقم هذا المعاند حجراً **﴿فبهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين﴾**[١].

وبهذا أُسقط في يدي العدوّ المغرور، وعجز عن الكلام أمام منطق إبراهيم الحيّ، وهذا أفضل طريق لاسكات كلّ عدوّ عنيد.

يستدلّ من القرآن بصورة واضحة أنّ جبّار ذلك الزمان كان يدعي الألوهيّة، لا ليعبدوه فحسب، بل ليؤمنوا به خالقاً لهذا العالم أيضاً، أي أنّه كان يرى نفسه معبوداً وخالقاً.

هجرة إبراهيم من أرض الوثنيين

لقد هزّت قصّة حريق إبراهيمعليه السلام ونجاته الإعجازية من هذه المرحلة الخطيرة أركان حكومة نمرود، بحيث فقد نمرود معنوياته تماماً، لأنّه لم يعد قادراً على أن يُظهر إبراهيم بمظهر الشاب المنافق والمثير للمشاكل. فقد عُرف بين الناس بأنّه مرشد إلهي وبطل شجاع يقدر على مواجهة جبّار ظالم ـ بكلّ إمكانياته وقدرته ـ بمفرده، وأنّه لو بقي في تلك المدينة والبلاد على هذا الحال، ومع ذلك اللسان المتكلّم والمنطق القوي، والشهامة والشجاعة التي لا نظير لها، فمن المحتّم أنّه سيكون خطراً على تلك الحكومة الجبّارة الغاشمة، فلابدّ أن يخرج من تلك الأرض على أي حال.

ومن جهة أُخرىٰ، فإنّ إبراهيم كان قد أدّى رسالته في الواقع ـ في تلك البلاد، ووجّه ضربات ماحقة إلى هيكل وبنيان الشرك، وبذر بذور الإيمان والوعي في تلك البلاد، وبقيت

---

١ ـ البقرة، ٢٥٨.

المسألة مسألة وقت لتنمو هذه البذور وتبدي ثمارها، وتقلع جذور الأصنام وعبادتها، وتسحب البساط من تحتها.

فلابدّ من الهجرة إلى موطن آخر لإيجاد أرضية لرسالته هناك، ولذلك صمّم على الهجرة إلى الشام بصحبة لوط ـ وكان ابن أخ إبراهيم ـ وزوجته سارة، وربّما كان معهم جمع قليل من المؤمنين، كما يقول القرآن الكريم: ﴿ونجّيناه ولوطاً إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين﴾[1].

وبالرغم من أنّ اسم هذه الأرض لم يرد صريحاً في القرآن، إلّا أنّه بملاحظة الآية الأُولىٰ من سورة الإسراء، يتّضح أنّ هذه الأرض هي أرض الشام ذاتها، التي كانت من الناحية الظاهرية أرضاً غنيّة مباركة خضراء، ومن الجهة المعنوية كانت معهداً لرعاية الأنبياء.

وقد وردت بحوث مختلفة في الرّوايات في أنّ إبراهيم عليه السلام هاجر تلقائياً، أم أبعدته سلطات نمرود، أم أنّ الإثنين إشتركا، والجمع بينها جميعاً هو أنّ نمرود ومن حوله كانوا يرون في إبراهيم خطراً كبيراً عليهم، فأجبروه على الخروج من تلك البلاد، هذا من جهة، ومن جهة أُخرىٰ، فإنّ إبراهيم كان يرى أنّ رسالته ومهمّته في تلك الأرض قد إنتهت، وكان يبحث عن منطقة أُخرىٰ للعمل على توسيع دعوة التوحيد فيها، خاصةً وأنّ البقاء في بابل قد يشكّل خطراً على حياته فتبقى دعوته العالمية ناقصة.

إنّ نمرود أمر أن ينفوا إبراهيم من بلاده، وأن يمنعوه من الخروج بماشيته وماله، فحاجّهم إبراهيم عند ذلك فقال: إن أخذتم ماشيتي ومالي فحقّي عليكم أن تردّوا عليّ ما ذهب من عمري في بلادكم، فاختصموا إلى قاضي نمرود، وقضى على إبراهيم أن يسلّم إليهم جميع ما أصاب في بلادهم، وقضىٰ على أصحاب نمرود أن يردّوا على إبراهيم ما ذهب من عمره في بلادهم، فأخبر بذلك نمرود، فأمرهم أن يخلّوا سبيله وسبيل ماشيته وماله، وأن يخرجوه، وقال: «إنّه إن بقي في بلادكم أفسد دينكم وأضرّ بآلهتكم».

كيف تحيي الموتىٰ؟

مرّ إبراهيم عليه السلام يوماً علىٰ ساحل البحر فرأىٰ جيفة مرميّة على الساحل نصفها في الماء ونصفها على الأرض تأكل منها الطيور والحيوانات البرّ والبحر من الجانبين وتتنازع أحياناً

---

١ ـ الانبياء، ٧١.

فيما بينها علىٰ الجيفة، عند رؤية إبراهيم عليه السلام هذا المشهد خطرت في ذهنه مسألة يودّ الجميع لو عرفوا جوابها بالتفصيل، وهي كيفيّة عودة الأموات إلى الحياة مرّة أُخرىٰ، ففكّر وتأمّل في نفسه أنّه لو حصل مثل هذا الحادث لبدن الإنسان وأصبح طعاماً لحيوانات كثيرة، وكان بالتالي جزءً من بدن تلك الحيوانات، فكيف يحصل البعث ويعود ذلك الجسد الإنساني نفسه إلى الحياة؟ فخاطب إبراهيم عليه السلام ربّه وقال: ربّ أرني كيف تحيي الموتىٰ.

فأجابه الله تعالى: أوَلم تؤمن بالمعاد؟ فقال عليه السلام: بلىٰ ولكن ليطمئّن قلبي.

فأمره الله أن يأخذ أربعة طيور ويذبحها ويخلط لحمها، ثمّ يقسّمها عدّة أقسام ويضع علىٰ كلّ جبلٍ قسماً منها، ثمّ يدعو الطيور إليه، وعندئذٍ سوف يرىٰ مشهد يوم البعث، فامتثل إبراهيم للأمر واستولت عليه الدهشة لرؤيته أجزاء الطيور تتجمّع وتأتيه من مختلف النقاط وقد عادت إليها الحياة.

يقول القرآن الكريم في هذا المجال: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءاً ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ[1]﴾.

نكات

١ ـ لاشكّ أنّ الطيور الأربعة كانت من أربعة أنواع مختلفة، وإلّا فإنّ هدف إبراهيم عليه السلام من عودة كلّ جزء إلى أصله لا يتحقق. وفي بعض الروايات أنّ هذه الطيور كانت طاووساً وديكاً وحمامةً وغراباً، فكان الإختلاف بينها كبيراً، ويرى بعض أنّها مظهر للصفات والخصال المختلفة في البشر. فالطاووس يمثّل العجب والخيلاء والتكبّر، والديك يمثّل الرغبات الجنسية الشديدة، والحمامة تمثّل اللهو واللعب، والغراب يمثّل الآمال والمطامح البعيدة.

٢ ـ لم يرد في القرآن ذكر عدد الجبال التي وضع عليها إبراهيم أجزاء الطيور، ولكن الأحاديث التي وصلتنا عن أهل البيت عليهم السلام تقول أنّها عشرة.

٣ ـ هل وقعت عندما كان إبراهيم في بابل، أم بعد نزوله بالشام؟ يظهر أنّ ذلك قد حدث في الشام، لأنّ منطقة بابل خالية من الجبال.

---

١ ـ البقره، ٢٥٩.

الأمر بانتقال اسماعيل وهاجر

قد مرّت أعوام طوال وإبراهيم في لهفة وإنتظار للولد الصالح، و كان يقول: ﴿ربِّ هب لي من الصالحين﴾. وأخيراً إستجاب له ربّه، فوهبه إسماعيل أوّلاً، ومن بعد إسحاق، وكان كلّ منهما نبيّاً عظيم الشخصيّة.

وقد أدّى حسد سارة زوجته الأُولىٰ لهاجر التي كانت جارية وإختارها زوجة له وولدت له إسماعيل .. أدّى إلى أن يأتي بها من فلسطين بأمر الله إلى مكّة ويتركها وإبنها بين الصحاري والجبال اليابسة، بدون مأوى ولا قطرة ماء، ويعود ثانية إلى فلسطين.

إنّ ظهور عين زمزم ومجيء قبيلة جرهم والسّماح لها بالسكن كلّ ذلك أدّى لأن تعمّر هذه الأرض.

ومن الطريف أن يقول بعض المؤرّخين: حينما وضع إبراهيم زوجته هاجر وإبنه الرضيع إسماعيل في مكّة وأراد الرجوع، نادته: ياإبراهيم، من أمرك أن تضعنا في أرض قاحلة لا نبات فيها ولا ماء ولا إنسان؟ فأجابها بجملة قصيرة: ربّي أمرني بذلك، قالت: ما دام كذلك فإنّ الله لا يتركنا.

على اي حال، امتثل إبراهيم أمر ربه، وذهب بهما إلى صحراء مكة وأسكنهما في تلك الأرض، وهمّ بالرجوع، فضجّت زوجته بالبكاء، إذ كيف تستطيع أن تعيش امرأة وحيدة مع طفل رضيع في مثل هذه الأرض؟!

بكاء هاجر ومعه بكاء الطفل الرضيع هزّ إبراهيم من الأعماق، لكنه لم يزد علىٰ أن ناجى ربّه قائلاً: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾[1]، ثم ودّع زوجه وطفله بحزن وألم عميقين.

لم يمض وقت طويل حتى نفذ طعام الأمّ وماؤها، وجفّ لبنها. بكاء الطفل أضرم في نفس الأم ناراً، ودفعها لأن تبحث بقلق واضطراب عن الماء. اتجهت أولاً إلى جبل «الصفا» فلم تجد للماء أثراً، لَفت نظرها بريق ماء عند جبل «المروة» فأسرعت إليه فوجدته سراباً، ثم

---

١ ـ إبراهيم، ٣٧.

رأت عند المروة بريقاً لدى الصفا أسرعت إليه فما وجدت شيئاً، وهكذا جالت سبع مرات بين الصفا والمروة بحثاً عن الماء. وفي النهاية، وبعد أن أشرف الطفل علىٰ الموت، انفجرت عند رجله فجأة عين زمزم، فشرب الطفل وأمه ونجيا من الموت المحقق.

الماء، رمز الحياة، وانفجار العين جرّ الطيور من الآفاق نحو هذه الأرض، والقوافل شاهدت حركة الطيور، فاتجهت هي أيضاً نحو الماء وببركة هذه العائلة تحولت أرض مكة إلى مركز حضاري عظيم.

ويقع جوار الكعبة حجر إسماعيل حيث مدفن تلك المرأة وابنها، وعلىٰ الحاج أن يضمه إلى البيت في طوافه، أي يجب علىٰ الحجاج أن يطوفوا خارج هذه الحجر وكأنه جزء من الكعبة.

اسماعيل في المذبح

إنّ عمر إسماعيل كان (١٣) عاماً حينما رأى إبراهيم ذلك المنام العجيب المحير، والذي يدلّ على بدء إمتحان عسير آخر لهذا النّبي ذي الشأن العظيم، إذ رأى في المنام أنّ الله يأمره بذبح إبنه الوحيد وقطع رأسه. فنهض من نومه مرعوباً، لأنّه يعلم أنّ ما يراه الأنبياء في نومهم هو حقيقة وليس من وساوس الشياطين، وقد تكرّرت رؤيته هذه ليلتين اُخريين، فكان هذا بمثابة تأكيد على ضرورة تنفيذ هذا الأمر فوراً.

وقيل: إنّ أوّل رؤيا له كانت في ليلة التروية، أي ليلة الثامن من شهر ذي الحجّة، كما شاهد نفس الرؤيا في ليلة عرفة، وليلة عيد الأضحى، وبهذا لم يبق عنده أدنى شكّ في أنّ هذا الأمر هو من الله سبحانه وتعالى.

إمتحان شاقّ آخر يمرّ على إبراهيم الآن، إبراهيم الذي نجح في كافّة الإمتحانات الصعبة السابقة وخرج منها مرفوع الرأس، الإمتحان الذي يفرض عليه وضع عواطف الأُبوّة جانباً والإمتثال لأوامر الله بذبح إبنه الذي كان ينتظره لفترة طويلة، وهو الآن غلام يافع قوي.

ولكن قبل كلّ شيء، فكّر إبراهيم عليه السلام في إعداد إبنه لهذا الأمر، حيث ﴿قال يابني إنّي أرى في المنام أنّي أذبحك فانظر ماذا ترى﴾.

الولد الذي كان نسخة طبق الأصل من والده، والذي تعلم خلال فترة عمره القصيرة الصبر والثبات والإيمان في مدرسة والده، رحّب بالأمر الإلهي بصدر واسع وطيبة نفس، وبصراحة واضحة قال لوالده: ﴿قال ياأبت افعل ما تؤمر﴾.

ولا تفكّر في أمري، فانّك ﴿ستجدني إن شاء الله من الصابرين﴾[1].

فما أعظم كلمات الأب والإبن وكم تخفي في بواطنها من الأُمور الدقيقة والمعاني العميقة؟!

فمن جهة، الأب يصارح ولده البالغ من العمر (١٣) عاماً بقضيّة الذبح، ويطلب منه إعطاء رأيه فيها، حيث جعله هنا شخصيّة مستقلّة حرّة الإرادة.

فإبراهيم لم يقصد أبداً خداع ولده، ودعوته إلى ساحة الإمتحان العسير بصورة عمياء، بل رغب بإشراكه في هذا الجهاد الكبير ضدّ النفس، وجعله يستشعر حلاوة لذّة التسليم لأمر الله والرضى به، كما إستشعر حلاوتها هو.

ومن جهة أُخرى، عمد الإبن إلى ترسيخ عزم وتصميم والده في تنفيذ ما أمر به، إذ لم يقل له: إذبحني، وإنّما قال له: افعل ما أنت مأمور به، فإنّني مستسلم لهذا الأمر، وخاصّة أنّه خاطب أباه بكلمة ﴿ياأبت﴾ كي يوضّح أنّ هذه القضيّة لا تقلّل من عاطفة الابن تجاه أبيه ولو بمقدار ذرّة، وأنّ أمر الله هو فوق كلّ شيء.

ومن جهة ثالثة، أظهر أدباً رفيعاً اتّجاه الله سبحانه وتعالى، وأن لا يعتمد أحد على إيمانه وإرادته وتصميمه فقط، وإنّما يعتمد على إرادة ومشيئة الله، وبعبارة أُخرى: أن يطلب توفيق الإستعانة والإستقامة من الله.

وبهذا الشكل يجتاز الأب وإبنه المرحلة الأُولى من هذا الإمتحان الصعب بإنتصار كامل.

وسوسة الشيطان

فقد عمد الشيطان إلى تكريس كلّ طاقاته لعمل شيء ما يحول دون خروج إبراهيم منتصراً من الإمتحان.

فأحياناً كان يذهب إلى زوجته (هاجر) ويقول لها: أتعلمين بماذا يفكّر إبراهيم؟ إنّه يفكّر بذبح ولده إسماعيل اليوم!

فكانت تجيبه هاجر: إذهب ولا تتحدّث بأمر محال، فإنّه أرحم من أن يقتل ولده، فهل يمكن العثور في هذه الدنيا على إنسان يذبح ولده بيده؟

---

١ ـ الصافات، ١٠٢.

الشيطان هنا يواصل وساوسه، ويقول: إنّه يزعم بأنّ الله أمره بذلك.

فتجيبه هاجر: إذا كان الله قد أمره بذلك فعليه أن يطيع أوامر الله، وليس هناك طريق آخر سوى الرضى والتسليم لأمر الله.

وأحياناً كان يذهب صوب (الولد) ليوسوس في قلبه، لكنّه فشل أيضاً إذ لم يحصل على أيّة نتيجة لأنّ إسماعيل كان كلّه قطعة من الرضى والتسليم لذلك الأمر.

وأخيراً اتّجه نحو الأب، وقال له: ياإبراهيم إنّ المنام الذي رأيته هو منام شيطاني! لا تطع الشيطان!

فعرفه إبراهيم الذي كان يسطع بنور الإيمان والنبوّة، وصاح به: إبتعد من هنا ياعدوّ الله.

وورد في حديث آخر أنّ إبراهيم جاء في البداية إلى (المشعر الحرام) ليذبح إبنه هناك، ولكن الشيطان تبعه، فترك المحلّ وذهب إلى مكان (الجمرة الأُولى) فتبعه الشيطان أيضاً، فرماه إبراهيم بسبع قطع من الحجارة، وعند وصوله إلى (الجمرة الثانية) شاهد الشيطان أمامه أيضاً فرماه بسبع قطع أُخرى من الحجارة، وحالما وصل إلى جمرة العقبة وشاهد الشيطان ثالثة رماه بسبع أُخرى، وبهذا جعل الشيطان ييأس منه إلى الأبد.

أبلغ سلامي إلىٰ أمّي

ماذا يدور في هذا الوسط؟ القرآن الكريم لم يفصل مجريات الحدث، وركّز فقط على النقاط الحسّاسة في هذه القصّة العجيبة.

كتب البعض: إنّ إسماعيل ساعد والده في تنفيذ هذا الأمر الإلهي، وعمل على تقليل ألم وحزن والدته، فعندما أخذه والده للذبح وسط الجبال الجرداء والحارقة في أرض (منى) قال إسماعيل لوالده:

ياأبت، أحكم من شدّ الحبل كي لا تتحرّك يدي ورجلي أثناء تنفيذك الأمر الإلهي، أخاف أن يقلّل ذلك من مقدار الجزاء الذي سأناله.

والدي العزيز اشحذ السكّين جيّداً، وامرره بسرعة على رقبتي كي يكون تحمّل ألم الذبح سهلاً بالنسبة لي ولك.

والدي قبل ذبحي اخلع ثوبي من على جسدي كي لا يتلوّث بالدم، لأنّي أخاف أن تراه والدتي وتفقد عنان صبرها.

ثمّ أضاف: أوصل سلامي إلى والدتي، وإن لم يكن هناك مانع أوصل ثوبي إليها كي يسلّي خواطرها ويهدّىء من آلامها، لأنّها ستشمّ رائحة إبنها منه، وكلّما أحسّت بضيق القلب، تضعه على صدرها ليخفّف الحرقة الموجودة في أعماقها.

دموع الوداع

قربت اللحظات الحسّاسة، فالأمر الإلهي يجب أن ينفّذ، فعندما رأى إبراهيمعليه السلام درجة إستسلام ولده للأمر الالهي إحتضنه وقبّل وجهه، وفي هذه اللحظة بكى الإثنان، البكاء الذي يبرز العواطف الإنسانية ومقدّمة الشوق للقاء الله.

القرآن الكريم يوضّح هذا الأمر في جملة قصيرة ولكنّها مليئة بالمعاني، فيقول تعالى: ﴿فلمّا أسلما وتلّه للجبين﴾.

مرّة أُخرى تطرّق القرآن هنا بإختصار، كي يسمح للقاريء متابعة هذه القصّة بإنشداد كبير.

قال البعض: إنّ المراد من عبارة ﴿تلّه للجبين﴾ هو أنّه وضع جبين ولده ـ طبقاً لإقتراحه ـ على الأرض، حتّى لا تقع عيناه على وجه إبنه فتهيج عنده عاطفة الأُبوّة وتمنعه من تنفيذ الأمر الإلهي.

على أيّة حال كبّ إبراهيمعليه السلام إبنه على جبينه، ومرّر السكّين بسرعة وقوّة على رقبة إبنه، وروحه تعيش حالة الهيجان، وحبّ الله كان الشيء الوحيد الذي يدفعه إلى تنفيذ الأمر ومن دون أي تردّد.

إلّا أنّ السكّين الحادّة لم تترك أدنى أثر على رقبة إسماعيل اللطيفة.

وهنا غرق إبراهيم في حيرته، ومرّر السكّين مرّة أُخرى على رقبة ولده، ولكنّها لم تؤثّر بشيء كالمرّة السابقة.

نعم، فإبراهيم الخليل يقول للسكّين: إذبحي، لكنّ الله الجليل يعطي أوامره للسكّين أن لا تذبحي، والسكّين لا تستجيب سوى لأوامر الباري عزّوجلّ.

وهنا ينهي القرآن كلّ حالات الإنتظار وبعبارة قصيرة مليئة بالمعاني العميقة ﴿وناديناه أن ياإبراهيم قد صدّقت الرؤيا إنّا كذلك نجزي المحسنين﴾.

إذ نمنحهم توفيق النجاح في الإمتحان، ونحفظ لهم ولدهم العزيز، نعم فالذي يستسلم

تماماً وبكلّ وجوده للأمر الإلهي ويصل إلى أقصى درجات الإحسان، لا يمكن مكافأته بأقلّ من هذا. ثمّ يضيف القرآن الكريم ﴿إنّ هذا لهو البلاء المبين﴾ [1].

عمليّة ذبح الإبن البارّ المطيع على يد أبيه، لا تعدّ عمليّة سهلة وبسيطة بالنسبة لأب إنتظر فترة طويلة كي يرزقه الله بهذا الإبن، فكيف يمكن إماتة قلبه تجاه ولده؟ والأكثر من ذلك إستسلامه ورضاه المطلق ـ من دون أي إنزعاج ـ لتنفيذ هذا الأمر، وتنفيذه كافّة مراحل العملية من بدايتها إلى نهايتها، بصورة لا يغفل فيها عن أي شيء من الإستعداد لعملية الذبح نفسياً وعمليّاً.

والذي يثير العجب أكثر هو التسليم المطلق لهذا الغلام أمام أمر الله، إذ استقبل أمر الذبح بصدر مفتوح وإطمئنان يحفّه اللطف الإلهي، وإستسلام في مقابل هذا الأمر.

تكبير جبرئيل

إنّ جبرئيل هتف «الله أكبر» «الله أكبر» أثناء عمليّة الذبح لتعجّبه.

فيما هتف إسماعيل «لا إله إلّا الله، والله أكبر».

ثمّ قال إبراهيم «الله أكبر ولله الحمد».

وهذه العبارات تشبه التكبيرات التي نردّدها في يوم عيد الأضحى.

وكما هو معروف فإنّ من الأعمال الواردة في الروايات الإسلامية بشأن عيد الأضحى، هي التكبيرات الخاصّة التي يردّدها المسلمون بعد الصلاة، سواء كانوا من المشاركين في مراسم الحجّ بمنىٰ، أو ممّن لم يشارك فيها من المسلمين في سائر بقاع الأرض.

وكيفيّة هذه التكبيرات هي: (**الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلّا الله، والله أكبر، الله أكبر، ولله الحمد، الله أكبر على ما هدانا**). فعندما نقارن بين هذا الأمر والحديث الذي ذكرناه سابقاً، تتّضح حقيقة هذه التكبيرات، وهي أنّها مجموع تكبيرات جبرئيل وإسماعيل ووالده إبراهيم، وشيء أُضيف إليه.

وبعبارة أُخرى فإنّ هذه العبارات تحيي في الأذهان خاطرة إنتصار إبراهيم وإبنه إسماعيل في الإمتحان الكبير، وتعطي العبر لكلّ المسلمين، سواء كانوا في منىٰ أو في غيرها.

---

١ ـ الصافات، ١٠٦ ـ ١٠٣.

ذبح عظيم

ولكي لا يبقى برنامج إبراهيم ناقصاً، وتتحقّق أُمنية إبراهيم في تقديم القربان لله، بعث الله كبشاً كبيراً إلى إبراهيم ليذبحه بدلاً عن إبنه إسماعيل، ولتصير سنّة للأجيال القادمة التي تشارك في مراسم الحجّ وتأتي إلى أرض (منىٰ) ﴿**وفديناه بذبح عظيم**﴾.[1]

وإحدى دلائل عظمة هذا الذبح، هو إتّساع نطاق هذه العملية سنة بعد سنة بمرور الزمن، وحالياً يذبح في كلّ عام أكثر من مليون أُضحية تيمّناً بذلك الذبح العظيم وإحياءً لذلك العمل العظيم.

وبشأن كيفية وصول الكبش العظيم إلى إبراهيم عليه السلام، أعرب الكثير عن إعتقادهم في أنّ جبرئيل أنزله، فيما قال البعض الآخر: إنّه هبط عليه من أطراف جبال (منىٰ)، ومهما كان فإنّ وصوله إلى إبراهيم كان بأمر من الله.

النجاح الذي حقّقه إبراهيم عليه السلام في الإمتحان الصعب، لم يمدحه الله فقط ذلك اليوم، وإنّما جعله خالداً على مدى الأجيال ﴿**وتركنا عليه في الآخرين**﴾.

إذ غدا إبراهيم عليه السلام «أُسوة حسنة» لكلّ الأجيال، و «قدوة» لكلّ الطاهرين، وأضحت أعماله سنّة في الحجّ، وستبقى خالدة حتّى تقوم القيامة، إنّه أبو الأنبياء الكبار، وإنّه أبو هذه الأُمّة الإسلامية ورسولها الأكرم محمّد بن عبدالله صلى الله عليه وآله.

ولمّا إمتاز به إبراهيم عليه السلام من صفات حميدة، خصّه الباري عزّوجلّ بالسلام ﴿**سلام على إبراهيم**﴾.

نعم، إنّا كذلك نجزي ونثيب المحسنين ﴿**كذلك نجزي المحسنين**﴾[2] جزاء يعادل عظمة الدنيا، جزاء خالد على مدى الزمان، جزاء يجعل من إبراهيم أهلاً لسلام الله عزّوجلّ عليه.

---

١ ـ ما المراد بالذبح العظيم؟ هل أنّه يقصد منه الجانب الجسمي والظاهري؟ أو لأنّه كان فداء عن إسماعيل؟ أو لأنّه كان لله وفي سبيل الله؟ أو لأنّ هذه الأُضحية بعثها الله تعالى إلى إبراهيم؟ المفسّرون قالوا الكثير بشأنها، ولكن لا يوجد أي مانع يحول دون جمع كلّ ما هو مقصود أعلاه.

٢ ـ الصافات، ١١٠ ـ ١٠٧.

من هو ذبيح الله؟

اختلف بشأن الولد الذي أُمر إبراهيم بذبحه، هل كان (إسماعيل أم إسحاق) الذي لقّب بذبيح الله؟ فمجموعة تقول: إنّ (إسحاق) هو (ذبيح الله) فيما تعتبر مجموعة أُخرى (إسماعيل) هو الذبيح، التّفسير الأوّل أكّد عليه الكثير من مفسّري أهل السنّة، فيما أكّد مفسّرو الشيعة على أنّ إسماعيل هو الذبيح.

وظاهر القرآن الكريم تؤكّد على أنّ إسماعيل هو ذبيح الله.

البشارة بإسحاق

ومن لطيف البيان القرآني شروع الآيات بذكر قصة ضيف إبراهيم (وهم الملائكة الذين جاؤوا بهيئة البشر وبشروه بولد جليل الشأن، ومن ثمّ أخبروه عن أمر عذاب قوم لوط).

فتقول أوّلاً: ﴿ونبئهم عن ضيف إبراهيم﴾.

وهؤلاء الضيوف هم الملائكة الذين دخلوا علىٰ إبراهيم عليه السلام بوجوه خالية من الإبتسامة، فابتدأوه بالسلام ﴿إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً﴾.

فقام إبراهيم عليه السلام بوظيفته (إكرام الضيف)، فهيأ لهم طعاماً ووضعه أمامهم، إلّا أنّهم لم يدنوا إليه، فاستغرب من موقف الضيوف الغرباء، فعبّر عمّا جال في خاطره ﴿قال إنّا منكم وجلون﴾[1].

وكان مصدر خوف إبراهيم عليه السلام ممّا كان عليه متعارفاً في مسألة رد الطعام أو عدم التقرب منه، فهو عندهم إشارة إلىٰ وجود نيّة سوء أو علامة عداء.

ولكن الملائكة لم يتركوا ابراهيم في هذا الحال حتىٰ: ﴿قالوا لا توجل إنّا نبشرك بغلام عليم﴾.

مَنْ هو المقصود بالغلام العليم؟

يبدو من خلال متابعة الآيات القرآنية أنّ المقصود هو (إسحاق)، حيث نقرأ أن امرأة

---

١ ـ إنّ الآيات مورد البحث لم تذكر هذا التفصيل في تهيئة الطعام وعدم مد أيديهم إليه، إلّا أنَّ ذلك ورد في الآية (٦٩) و(٧٠) من سورة هود فليراجع.

إبراهيم كانت واقفة بقربه عندما بشرته الملائكة، ويظهر كذلك أنّها كانت امرأة عاقراً فبشروها أيضاً[١].

وكما هو معروف فإنّ سارة، هي أم إسحاق، ولإبراهيم عليه السلام ولد آخر أكبر من إسحاق واسمه (إسماعيل) من (هاجر) ـ الأمَة التي تزوجها إبراهيم.

كان إبراهيم يعلم جيداً أنّه من المستبعد أن يحصل له ولد ضمن الموازين الطبيعية، (ومع أن كل شيء مقدوراً للّه عزَّ وجلّ)، ولهذا أجابهم بصيغة التعجب: ﴿قال أبشرتموني علىٰ أن مسني الكبر فبم تبشرون﴾.. هل البشارة منكم أم من اللّه عزّوجلّ وبأمره، أجيبوني كي أزداد اطمئناناً؟

إنّ تعبير «مسّني الكبر» إشارة الىٰ ما كان يجده من بياض في شعره وتجاعيد في وجهه وبقية آثار الكبر فيه.

ويمكن لأحد أن يشكل: بأنّ إبراهيم عليه السلام قد سبق بحالة مشابهة حينما ولد له إسماعيل عليه السلام وهو في الكبر.. فَلِمَ التعجب من تكرار ذلك؟

والجواب: أوّلاً: كان بين ولادة إسماعيل وإسحاق أكثر من عشر سنوات، وبذلك يكون تكرار الولادة مع مضي هذه المدّة ضعيف الإحتمال.

وثانياً: إنّ حدوث ووقوع حالة مخالفة للموازين الطبيعية مدعاة للتعجب، وإذا ما تكررت فلا يمنع من التعجب لحدوثها وتكرارها مرّة أُخرىٰ.

فولادة مولود جديد في هكذا سن أمر غير متوقع، وإذا ما وقع فهو غريب وعجيب في كل الأحوال.

يذكر البعض أن عمر إبراهيم عليه السلام عند ولادة ابنه إسماعيل كان (٩٩) عاماً، وعند ولادة إسحاق كان عمره (١١٢) عاماً.

وعلىٰ أية حال.. لم يدع الملائكة مجالاً لشك أو تعجب إبراهيم حيث ﴿قالوا بشرناك بالحق﴾ فهي بشارة من اللّه وبأمره، فهي حقٌّ مُسَلَّمٌ به.

وتأكيداً للأمر ودفعاً لأي احتمال في غلبة اليأس علىٰ إبراهيم، قالت الملائكة: ﴿فلا تكن من القانطين﴾.

---

١ ـ ﴿وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحاق﴾ هود، ٧١.

لكنّ إبراهيم عليه السلام طمأنهم بعدم دخول اليأس من رحمة اللّه إليه، وإنّما هو في أمر تلك القدرة التي تجعل من اختراق النواميس الطبيعية أمر حاصل وبدون الخلل في الموازنة، ﴿قال ومن يقنط من رحمة ربّه إلّا الضّالون﴾[١].

إنّ الضالين هم الذين لا يعرفون اللّه وقدرته المطلقة، اللّه الذي خلق الانسان ببناءه العجيب المحير من ذرة تراب ومن نطفة حقيرة ليخرجه ولداً سوياً، اللّه الذي حوّل نخلة يابسة الىٰ حاملة للثمر بإذنه، اللّه الذي جعل النّار برداً وسلاماً.. هل من شك بأنّه سبحانه قادر علىٰ كل شيء، بل وهل يصح ممن آمن به وعرفه حق معرفته أن ييأس من رحمته!؟!

إبراهيم يبني الكعبة

نفهم بوضوح من خلال آيات الذكر الحكيم أن بيت الكعبة كان موجوداً قبل إبراهيم، وكان قائماً منذ زمن آدم. تتحدث سورة إبراهيم عن لسان إبراهيم تقول: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾[٢].

وهذه الآية تدل علىٰ أن بيت الكعبة كان له نوع من الوجود حين جاء إبراهيم مع زوجه وابنه الرضيع إلى مكة.

وفي سورة آل عمران: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً﴾[٣]. ومن المؤكد أن عبادة الله وإقامة أماكن العبادة لم تبدأ في زمن إبراهيم، بل كانتا منذ أن خلق الإنسان علىٰ ظهر هذه الأرض.

هكذا يقول القرآن الكريم: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[٤].

فإبراهيم وإسماعيل قد رفعا قواعد البيت التي كانت موجودة.

وفي خطبة للإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام في نهج البلاغة، وهي المسماة بالقاصعة، يقول: «أَلَا تَرَوْنَ أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ إِخْتَبَرَ الْأَوَّلِينَ مِنْ لَدُنْ آدَمَ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ إِلَى الْآخِرِينَ مِنْ

---

١ ـ الحجر، ٥٦ ـ ٥١.

٢ ـ ابراهيم، ٣٧.

٣ ـ الآية، ٩٦.

٤ ـ البقرة، ١٢٧.

هٰذَا الْعَالَمِ بِأَحْجَارٍ ... فَجَعَلَهَا بَيْتَهُ الْحَرَامَ ... ثُمَّ أَمَرَ آدَمَ عليه السلام وَوَلَدَهُ أَنْ يَثْنُوا أَعْطَافَهُمْ نَحْوَهُ[١] ...»[٢].

القرائن القرآنية والروائية تؤيد أن الكعبة بنيت أوّلاً بيد آدم، ثم انهدمت في طوفان نوح، ثم أُعيد بناؤها علىٰ يد إبراهيم وإسماعيل.

الإمامة جزاء ابراهيم

القرآن الكريم يشير إلى الإختبارات المتتالية التي اجتازها إبراهيم عليه السلام بنجاح، وتبين من خلالها مكانة إبراهيم وعظمته وشخصيته. ﴿وَإِذِ ابْتَلىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾.

وبعد أن اجتاز هذه الإختبارات بنجاح استحق أن يمنحه الله الوسام الكبير ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً﴾.

وهنا تمنّىٰ إبراهيم عليه السلام أن يستمر خط الإمامة من بعده، وأن لا يبقى محصوراً بشخصه ﴿قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾.

لكن الله أجابه: ﴿قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾[٣].

وقد استجيب طلب إبراهيم عليه السلام في استمرار خط الإمامة في ذريّته، لكن هذا المقام لا يناله إلّا الطاهرون المعصومون من ذريّته لا غيرهم.

وسائل اختبار ابراهيم

من دراسة آيات القرآن الكريم بشأن إبراهيم عليه السلام، و ما أدّاه هذا النّبي العظيم من أعمال جسيمة استحق ثناء الله، نفهم أن المقصود من الكلمات هو مجموعة المسؤوليات والمهام الثقيلة الصعبة التي وضعها الله علىٰ عاتق إبراهيم عليه السلام، فحملها وأحسن حملها، وأدّى ما عليه خير أداء، وهي عبارة عن:

أخذ ولده إلى المذبح والإستعداد التام لذبحه، إطاعة لأمر الله سبحانه.

إسكان الزوج والولد في واد غير ذي زرع بمكة، حيث لم يسكن فيه إنسان.

---

١ ـ أي أن يطوفوا حولَه.

٢ ـ نهج البلاغة، صبحي صالح، ص ٢٩٢ ـ (الخطبة القاصعة).

٣ ـ البقرة، ١٢٤ .

النهوض بوجه عَبَدة الأصنام وتحطيم الأصنام، والوقوف ببطولة في تلك المحاكمة التاريخية، ثم إلقاؤه في وسط النيران. وثباته ورباطة جأشه في كل هذه المراحل.

الهجرة من أرض عبدة الأصنام والإبتعاد عن الوطن، والإتجاه نحو أصقاع نائية لأداء رسالته ... وأمثالها.

كان كل واحد من هذه الإختبارات ثقيلاً وصعباً حقّاً، لكنه بقوة إيمانه نجح فيها جميعاً، وأثبت لياقته لمقام «الإمامة».

من هو الامام؟

القرائن الواضحة تشير إلى أن منزلة الإمامة الممنوحة لإبراهيمعليه السلام بعد الإمتحانات العسيرة، واجتياز مراحل اليقين والشجاعة والإستقامة، هي غير منزلة البشارة والإبلاغ والإنذار.

هذا الحقيقة يوضحها بإجمال حديث عميق المعنى روي عن الإمام جعفر بن محمّد الصادقعليه السلام يقول:

«إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ عَبْداً قَبْلَ أَنْ يَتخِذَهُ نَبِيّاً، وإِنَّ اللهَ اتَّخَذَهُ نَبِيّاً قَبْلَ أَنْ يَتَّخِذَهُ رَسُولاً، وَإِنَّ اللهَ اتَّخَذَهُ رَسُولاً قَبْلَ أَنْ يَتَّخِذَهُ خَلِيلاً، وَإِنَّ اللهَ اتَّخَذَهُ خَلِيلاً قَبْلَ أَنْ يَجْعَلَهُ إِمَاماً، فَلَمَّا جَمَعَ لَهُ الْأَشْيَاءَ، قَالَ: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً﴾ قَالَ: فَمِنْ عِظَمِهَا فِي عَيْنِ إِبْرَاهِيمَ قَالَ: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ قَالَ: لاَ يَكُونُ السَّفِيهُ إِمامَ التَّقِيِّ».

النّبي لوط عليه السلام

لقد كان لوط من الأنبياء العظام وكان معاصراً لإبراهيم. وكانت له مع إبراهيم علاقة قربى «يقال إنّه كان ابن أخت ابراهيم عليه السلام».

إنّ إبراهيم الخليل جاء إلى الشام بعد أن هاجر من العراق و «بابل» ويقال إنّ لوطاً كـان يقطن معه إلّا أنّه بعد فترة توجّه نحو «سدوم» ليدعو إلى التوحيد ويكافح الفساد.

و «سدوم» واحدة من مدن قوم لوط وأحيائهم التي كانت من بلاد الأردن على مقربة من البحر الميّت .. وكانت أرضها خصبة كثيرة الأشجار، إلّا أنّ هذه الأرض بعد نزول العـذاب الإلهي على هؤلاء الظالمين من قوم لوط قلب عـاليها سـافلها وتـهدّمت مـدنها وسـمّين بالمؤتفكات «أي المقلوبات».

وذهب بعضهم أنّ آثار هذه المدن الخربة غرقت في الماء ويزعمون أنّهم رأوا في زاوية من البحر الميّت أعمدتها وآثارها وخرائبها الأُخرى.

في حين أنّ بعضهم يعتقد أنّ مدن لوط لم تغرق بعدُ وما تزال على مقربة من البحر الميّت منطقة مغطّاة بالصخور السود ويحتمل أن تكون هي محلّ مدن قوم لوط!

وقيل إنّ مركز إبراهيم كان في مدينة «حبرون» على فاصلة غير بعيدة من «سدوم» وحين نزل العذاب والصاعقة من السماء أو الزلزلة في الأرض واحترقت «سدوم» كان إبراهيم واقفاً قريباً من حبرون وشاهد دخان تلك المنطقة المتصاعد في الفضاء بأُمّ عينيه!.

ومن مجموع هذه الكلمات تتّضح الحدود التقريبية لهذه المدن وإن كانت جزئياتها مـا تزال وراء ستار الإبهام باقية.

الانحرافات الاخلاقيّة

يقول القرآن أوّلاً في بيان قصّة هذا النّبي العظيم وقومه: ﴿كذبت قوم لوط المرسلين﴾.

ورود «المرسلين» بصيغة الجمع، إمّا لأنّ دعوة الأنبياء عليهم السلام واحدة، فتكذيب الواحد منهم تكذيب للجميع، أو أن قوم لوط لم يؤمنوا بأيّ نبي قبل لوط واقعاً وحقيقة...

ثمّ يشير القرآن الكريم إلى دعوة لوط التي تنسجم مع دعوة الأنبياء الآخرين الماضين، فيقول: ﴿إذ قال لهم أخوهم لوط ألا تتقون﴾.

ولحن كلماته وقلبه المتحرق لهم، العميق في تودّه إليهم، يدل على أنّه بمثابة «الأخ» لهم.

ثمّ أضاف لوط قائلاً: ﴿إنّي لكم رسول أمين﴾ فلم تعرفوا عنّي خيانة حتى الآن... وسأرعى الأمانة في إيصال رسالة الله إليكم أبداً... ﴿فاتقوا الله وأطيعون﴾ فأنا زعيمكم إلى السعادة والنجاة.

ولا تتصوروا أنّ هذه الدعوة وسيلة اتخذها للحياة والعيش، وأنّ وراءها هدفاً مادّياً، كلاّ: ﴿وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلّا على رب العالمين﴾.

ثمّ يتناول بنقد أعمالهم القبيحة، وقسماً من انحرافاتهم الأخلاقية... وحيث أنّ أهم نقطة في انحرافاتهم... هي مسألة الإنحراف الجنسي، لذلك فإنّه ركّز عليها وقال: ﴿أتأتون الذكران من العالمين﴾. فتختارون الذكور من بين الناس لاشباع شهواتكم!!

أي، إنّكم على الرغم ممّا خلق الله لكم من الجنس المخالف «النساء» حيث تستطيعون أن تعيشوا معهن بالزواج المشروع عيشاً طاهراً هادئاً، إلّا أنّكم تركتم نعمة الله هذه وراءكم، ولوّثتم أنفسكم بمثل هذا العمل القبيح المخزي...

ثمّ أضاف قائلاً: ﴿وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون﴾[1].

فالحاجة والغريزة الطبيعية، سواءً كانت روحية أم جسمية لم تجرّكم إلى هذا العمل الإنحرافي الشنيع ابداً، وإنّما جرّكم الطغيان والتجاوز، فتلوثتم وخزيتم به...

إن ما تقومون به يشبه من يترك الثمر الطيب والنافع والسالم، ويمضي نحو الغذاء المسموم الملوّث المميت... فهذا الفعل ليس حاجة طبيعية... بل هو التجاوز والطغيان!

---

١ ـ الشعراء، ١٦٦ ـ ١٦٠.

عندما يكون الطّهر عيباً!

إن قوم لوط الغارقين بالغرور والمتمادية بهم رياح الشهوة، بدلاً من أن يذعنوا لنصائح هذا القائد الإلهي، فتدخل مواعظه في قلوبهم ويخلصوا من تلك الأمواج الرهيبة، فإنهم نهضوا لمواجهتِهِ و ﴿قالوا لئن لم تنتهِ يا لوط لتكونن من المخرجين﴾...[1]

إن كلامك يُبلبل أفكارنا، ويسلب اطمئناننا وهدوءنا، فنحن غير مستعدين حتى للإصغاء إلى كلامك... وإذا واصلت هذا الأُسلوب ولم تنته منه، فإنّ أقل ما تجزى به هو الإبعاد والإخراج من هذه الأرض...

إنّ هذه الجماعة الفاسدة كانوا قد أخرجوا أُناساً طاهرين من حيّهم فهدّدوا لوطاً بهذا الأمر أيضاً، وهو أنه إذا لم تنته فستنال ما ناله سواك من الإبعاد والإخراج...

وقد صُرّح في بعض التفاسير أنّهم كانوا يُخرجون المتطهرين من القرية بأسوأ الحال...

يقول القرآن: ﴿فما كان جواب قومه إلّا أن قالوا اخرجوا آل لوط من قريتكم إنّهم أناس يتطهرون﴾.

فجوابهم كاشف عن انحطاطهم الفكري والسقوط الأخلاقي البعيد!.

أجل.. إنّ الطهارة تعدّ عيباً ونقصاً في المحيط الموبوء، وينبغي أن يلقى أمثال يوسف المتعفف في السجن، وأن يطرد آل لوط نبيّ الله العظيم ويبعدوا ـ لأنّهم يتطهرون ـ خارج المدينة، وأن يبقى أمثال «زليخا» أحراراً أولي مقام... كما ينبغي أن يتمتع قوم لوط في مدينتهم دون حرج!.

ويحتمل في جملة ﴿إنّهم أناس يتطهرون﴾ أن قوم لوط لإنحرافهم وغرقهم في الفساد، وتطبعهم وتعودهم على التلوّث، كانوا يقولون مثل هذا الكلام من باب السخرية والإستهزاء.. أي إنّهم يتصورون أن أعمالنا قبيحة وغير طاهرة! وأن تقواهم من التطهر، فما أعجب هذا الكلام! إنه لمهزلة!.

وليس هذا غريباً أن يتبدل إحساس الإنسان ـ نتيجة تطبعه بعمل قبيح ـ فيتغير سلوكه ونظرته.. فقد سمعنا بقصّة الدباغ المعروفة، إذ ورد أن رجلاً كان يدبغ الجلود المتعفنة دائماً،

---

١ ـ الشعراء، ١٦٧.

وتطبعت «شامّته» برائحة الجلود «العفنة» فمرّ ذات يوم في سوق العطارين، فاضطرب حاله وأُغمي عليه، لأنّ العطور لا تناسب «شامّته» فأمر رجل حكيم أن يؤخذ إلى سوق الدباغين لانقاذه من الموت... فهذا مثال حسيّ طريف لهذا الموضوع المنطقي.

ثلاثون عاماً من المحاولة

إن لوطاً كان يبلغ قومه حوالي ثلاثين عاماً وينصحهم، إلّا أنّه لم يؤمن به إلّا أسرته وأهله باستثناء زوجته فإنّها كانت من المشركين وعلى عقيدتهم.

إلّا أنّ لوطاً لم يكترث بتهديدهم، وواصل نصحه لهم و **﴿قال إنّي لعملكم من القالين﴾**.

إنّه يريد أن يقول: سأواصل انتقادي إيّاكم... فافعلوا ما شئتم... فأنا لا أترك مواجهة هذه الأعمال القبيحة بالإعتراض والنقد!...

إن جماعة كانوا مثل النّبي لوط يرفضون هذه الأعمال ويعترضون عليها... رغم أن المنحرفين أخرجوهم من قريتهم آخر الأمر.

والذي يسترعي النظر أن لوطاً يقول: إنّي لعملكم من القالين. أي إنّني لاأعاديكم بأشخاصكم، بل أعادي أعمالكم المخزية، فلو ابتعدتم عن هذا العمل الشنيع فأنا محبٌ لكم وغير قال لكم.

وأخيراً لم تؤثر مواعظ لوط ونصائحه في قومه، فبدّل الفساد مجتمعهم كلّه إلى مستنقع عفن... وتمّت الحجة عليهم بمقدار كافٍ، وبلغت رسالة لوط مرحلتها النهائية... فعليه أن يغادر هذه المنطقة العفنة، وأن ينجّي من معه ممن استجاب دعوته، لينزل عذاب الله على القوم الفاسقين فيهلكهم، فسأل لوط ربّه أن يخلّصه من قومه، فقال: **﴿رب نجني وأهلي ممّا كانوا يعملون﴾**[١].

وهذه هي عاقبة المنحرفين

لقد أستجيب دعاءُ لوط أخيراً، وصدر الأمر من الله تعالى بالعقاب الصارم والشديد لهؤلاء القوم المنحرفين والمفسدين، فمرّ الملائكة المأمورون بعذاب قوم لوط بالأرض التي فيها

---

١ ـ الشعراء، ١٦٩ ـ ١٦٨.

إبراهيمعليه السلام لأداء رسالة أُخرىٰ قبل أن ينزلوا العقاب بقوم لوط، وهذه الرسالة التي سبقت العذاب، هي بشارتهم لإبراهيمعليه السلام بالوَلد: «بشروه بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب».

توضيح ذلك .. إنّ إبراهيم بعد ما أُبعد إلى الشام .. واصل دعوة الناس إلى الله ومواجهته لكلّ أنواع الشرك وعبادة الأصنام .. وقد عاصر إبراهيم الخليل «لوط» أحد الأنبياء العظام ويُحتمل أنّه كان مأموراً من قبله بتبليغ الناس وهداية الضالّين، فسافر إلى بعض مناطق الشام «أي مدن سدوم» فحلّ في قوم مجرمين ملوّثين بالشرك والمعاصي الكثيرة، وكان أقبحها تورّطهم في الإنحراف الجنسي واللواط، وأخيراً فقد أمر رهط من الملائكة بعذابهم وهلاكهم إلّا أنّهم مرّوا بإبراهيم قبل إهلاكهم.

وقد عرف إبراهيم من حال الضيف (الملائكة) أنّهم ماضون لأمر مهمّ، ولم يكن هدفهم الوحيد البشرى بتولّد إسحاق، لأنّ واحداً منهم كان كافياً لمهمّة «البشارة». أو لأنّهم كانوا عَجِلين فأحسّ بأنّ لديهم «مأمورية» مهمّة.

القرآن الكريم يذكر أوّلاً قصّة مرورهم بإبراهيمعليه السلام فيقول: **﴿ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا إنا مهلكوا أهل هذه القرية إن أهلها كانوا ظالمين﴾**.

والتعبيربـ«هذه القرية» يدل على أن مُدن قوم لوط كانت قريبة من أرض إبراهيمعليه السلام.

والتعبير بالظالمين هو لأجل كونهم يظلمون أنفسهم باتخاذهم سبيل الشرك والفساد الأخلاقي وعدم العفة، وظلمهم الآخرين حتى شمل العابرين والقوافل التي كانت تمرّ على طريقهم.

فلمّا سمع «إبراهيم» هذا النبأ حزن على لوط النّبي العظيم و**﴿قال إنّ فيها لوطاً﴾**.

فما عسى أن تكون عاقبته؟!

إلّا أنّهم أجابوه على الفور، **﴿قالوا نحن أعلم بمن فيها﴾** فلا تحزن عليه، لأننا لا نحرق «الأخضر واليابس» معاً، وخطتنا دقيقة ومحسوبة تماماً... ثمّ أضافوا **﴿لننجينه وأهله إلّا امرأته كانت من الغابرين﴾**[1].

---

١ ـ العنكبوت، ٣٢ ـ ٣١.

اسرة مؤمنة فقط

ويستفاد من القرآن جيداً أنّ أسرة واحدة فقط في جميع تلك المدن والقرى كانت مؤمنة وغير مدنّسة، وقد نجاها الله في ذلك الحين أيضاً... كما نقرأ ﴿فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين﴾[1] ومع ذلك فإنّ امرأة لوط كانت خارجة عن جماعة المؤمنين، فشملها العذاب.

فالمرأة التي كانت في عائلة النبوّة لا ينبغي لها أن تنفصل عن المؤمنين والمسلمين... غير أنّ الكفر والشرك وعبادة الأوثان ـ كل ذلك ـ دعاها إلى الإنفصال!.

ويتّضح من هنا أن انحرافها كان من جهة العقيدة، ولا يبعد أن يكون هذا الإنحراف متأثراً بسبب محيطها... وكانت في بداية الأمر مؤمنة موحدة، وبهذا فلن يرد أي إشكال على لوط عليه السلام في أنّه لم تزوّج بمثل هذه المرأة؟!

وإذا كان جماعة من المؤمنين الآخرين قد آمنوا بلوط، فمن المؤكّد أنّهم كانوا قد هاجروا عن تلك الأرض المدنّسة قبل هذا الحادث، ما عدا لوطاً وأهله، فإنّه كان عليه أن يبقى إلى آخر ساعة هناك، لاحتمال تأثير تبليغه وإنذاره.

انتهى كلام الملائكة مع إبراهيم هنا، وتوجهوا إلى ديار لوط عليه السلام وقومه.

لوط يضيق ذرعاً بالضيوف

يبيّن القرآن الكريم في هذا الصدد أوّلاً ... أنّه لما جاءت رسلنا لوطاً طار هلعاً وضاق بهم ذرعاً وأحاط به الهمّ من كل جانب ﴿ولما جاءت رسلنا لوطاً سيىء بهم وضاق بهم ذرعاً﴾.

إنّ لوطاً كان في مزرعَته حيث فوجىء بعدد من الشباب الوسيمين الصِباح الوجوه قادمون نحوه وراغبون في النّزول عنده ولرغبته باستضافتهم من جهة، ولعلمه بالواقع المرير الذي سيشهده في مدينته الملوّثة بالإنحراف الجنسي من جهة أُخرىٰ، كل ذلك أوجب له الهم ...

ومرّت هذه المسائل على شكل أفكار وصور مرهقة في فكره، وتحدث مع نفسه ﴿وقال هذا يوم عصيب﴾[2].

---

١ ـ الذاريات، ٣٦.

٢ ـ هود، ٧٧.

وعلى كل حال، فإنّ لوطاً لم يجد بدّاً من أن يأتي بضيوفه إلى البيت ويقوم بواجب الضيافة ولكنّه حدّثهم في الطريق ـ عدة مرّات ـ أنّ أهل هذه المدينة منحرفون وأشرار ليكونوا على حذر منهم.

إنّ الله سبحانه أمر ملائكته أن لا يعذبوا قوم لوط حتى يعترف لوط عليهم ثلاث مرّات، ومعنى ذلك أنّه حتى في تنفيذ حكم الله بالنسبة لقوم ظالمين لابدّ من تحقق موازين عادلة في المحاكمة، وقد سمع رسل الله شهادة لوط في قومه ثلاث مرّات أثناء الطريق.

إنّ لوطاً أخّر ضيوفه كثيراً حتى حلول الليل، فلعله يستطيع أن يحفظ ماء وجهه من شرور قومه، ويقوم بواجب الضيافة دون أن يُساء إلى أضيافه. ولكن ما عسىٰ أن يفعل الإنسان إذا كان عدوه داخل بيته، وكانت امرأة لوط امرأة كافرة وتساعد قومه الظالمين، وقد اطلعت على ورود هؤلاء الأضياف إلى بيتها، فصعدت إلى أعلى السطح وصفقت بيديها أوّلاً، ثمّ بإشعال النّار وتصاعد الدخان أعلمت جماعة من هؤلاء القوم بأنّ طعمة دسمة قد وقعت في «الشِباك»[1].

أهل المدينة نحو بيت لوط

﴿وجاء أهل المدينة يستبشرون﴾ أي إنّهم قد ظنوا بحصول لقمة جديدة سائغة عن طريق ضيوف لوط!

إنّ تعبير ﴿أهل المدينة﴾ ليوحي إلىٰ أن الذين تحركوا صوب منزل لوطعليه السلام كانوا جمعاً كبيراً، وهو ما يوضح بجلاء تلك الوقاحة والقبح والجسارة التي كانوا عليها، وخصوصاً قوله ﴿يستبشرون﴾ التي تحكي عمق تلوثهم بذلك الدرك السافل، مع أنّ مثل هذا الفعل القبيح ربّما لا يشاهد حتى بين الحيوانات، وإذا ما ابتلي به إنسان (والعياذ باللّه) فإنّه سوف يحاول كتمه وإخفاءه، حيث أن الإتيان به مدعاة للتحقير والإزدراء من قبل الآخرين.. أمّا قوم لوط، فكانوا مستبشرين بذلك الصيد الجديد وكل يهنيء الآخر علىٰ ما سيصيبه من نصيب!!

وحينما سمع لوط أصواتهم وضجيجهم إغتم غمّاً شديداً لأجل ضيوفه، لأنّه ما كان يدري

---

١ ـ الميزان، ج ١٠، ص ٣٦٢.

أنّهم ملائكة العذاب الى ذلك الوقت ولهذا ﴿قال إنّ هؤلاء ضيفي فلا تفضحون﴾.

أي.. إن كنتم لا تؤمنون بالله ولا تصدقون بالنّبي ولا تعتقدون بثواب وعقاب، فراعوا حق الضيافة التي هي من السنن المتعارف عليها عند كل المجتمعات سواء كانت مؤمنة أم كافرة، أيٍّ بشر أنتم؟ لا تفهمون أبسط المسائل الإنسانية، فإنْ لم يكن لكم دين فكونوا أحراراً في دنياكم!

ثمّ أضاف قائلاً: ﴿واتقوا اللّه ولا تخزون﴾ أمام ضيفي.

ولكنّهم من الوقاحة والإصرار علىٰ الإنحراف بحيث صاروا لا يشعرون بالخجل من أنفسهم، بل راحوا يحاججون لوطاً ويحاسبونه، وكأنّه ارتكب جرماً في استضافته لهؤلاء القوم ﴿قالوا أوَ لم ننهك عن العالمين﴾ [١]، باستضافتهم! فلماذا خالفت أمرنا؟!

وكان قوم لوط من البخل بحيث أنّهم لا يحبون الضيافة، وكانت مدينتهم علىٰ طريق القوافل، ويبررون فعلهم القبيح ببعض الواردين لأجل أن لاينزل عندهم أحد من القوافل المارة، وتعارفوا علىٰ ذلك حتىٰ أصبح عندهم عادة.

وكما يبدو أنّ لوطاً كان حينما يسمع بأحد الغرباء يدخل المدينة يسرع لاستضافته خوفاً عليه من عمل قومه الخبيث، ولما علم أهل المدينة بذلك جاؤوا إليه غاضبين ونهوه عن أن يستضيف أحداً مستقبلاً.

لو أنّ لي بكم قوّة

وعندما رآهم لوط علىٰ تلك الحال من الوقاحة والجسارة، أتاهم من طريق آخر لعلهم يستفيقون من غفلتهم وسكر انحرافهم، فقال لهم: إن كنتم تريدون إشباع غرائزكم فلماذا تسلكون سبيل الإنحراف ولا تسلكون الطريق الصحيح (الزواج) ﴿قال هؤلاء بناتي إن كنتم فاعلين﴾ [٢].

ممّا لا شك فيه أنّ بنات لوط لا يكفين لذلك العدد الهائل من المتحجرين حول داره،

---

١ ـ الحجر، ٧٠ ـ ٦٧.

٢ ـ الحجر، ٧١.

ولكن لوطاً الذي كان يهدف إلىٰ إلقاء الحجّة عليهم أراد أن يقول لهم: انني مستعد الى هذه الدرجة للتضحية من أجل الضيف، وكذلك لأجل إنقاذكم من الفساد ونجاتهم من الإنحراف.

وليس نجافٍ أنّ لوطاً ما كان ليزوج بناته من أُولئك المشركين الضالين، ولكـنّه أراد أن يقول لهم: تعالوا آمنوا لأزوجكم بناتي.

لكنّ الويل، كل الويل من سكرات الشهوة، الإنحراف الغرور والعناد.. التي مسحت عنهم كل قيم الأخلاق الإنسانية وأفرغتهم من العواطف البشرية، والتي بـها يـحسون بـالخجل والحياء أمام منطق لوطعليه السلام، أو أن يتركوا بيت لوط وينسحبوا عن موقفهم، ولكنّ أنّى لهـم ذلك، والأكثرية بسبب عدم تأثرهم بحديث لوط استمروا في غيهم وأرادوا أن يمدوا أيديهم إلىٰ الضيوف.

ولكن هؤلاء القوم المفسدين أجابوا لوطاً بكل وقاحة وعدم حياء و﴿**قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حق وإنّك لتعلم ما نريد**﴾.

وهنا وجد لوط هذا النّبي العظيم نفسه محاصراً في هذه الحادثة المريرة فنادي و﴿**قال لو أنّ لي بكم قوةً**﴾ أو سند من العشيرة والأتباع والمعاهدين الأقوياء حتى اتغلّب عليكم ﴿**أو آوي إلى ركن شديد**﴾[1].

لا تقلق يا لوط!

وأخيراً حين شاهد الملائكة ﴿رسل الله﴾ الأضياف ما عليه لوط من العذاب النفس كشفوا «ستاراً» عن أسرار عملهم و﴿**قالوا يا لوط إنّا رسل ربّك لن يصلوا إليك**﴾.

نقرأ في سورة القمر﴿**ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم**﴾[2] وهذه الآية تدل على أن هؤلاء الجماعة الذين أرادوا السوء بأضياف لوط، فقدوا بصرهم بإذن الله، فـلم يسـتطيعوا الهجوم عليهم. ونقرأ في بعض الرّوايات ـ أيضاً ـ أنّ أحد الملائكة غشّىٰ وجوههم بحفنة من التراب فعموا جميعاً.

---

١ ـ هود، ٨٠ ـ ٧٩.

٢ ـ الآية، (٣٧).

وعلى كل حال، فاطلاع لوطعليه السلام على حال أضيافه ومأموريتهم نزل كالماء البارد على قلبه المحترق وأحسّ بلحظة واحدة أن ثقلاً كبيراً من الغمّ والحيرة قد أُزيل عن قلبه، وأشرقت عيناه بالسرور والبهجة، وعلم أنّ مرحلة الغم والحيرة اشرفت على الإنتهاء، ودنا زمن السرور والنجاة من مخالب هؤلاء القوم المنحرفين المتوحشين.

ثمّ أمر الأضيافُ لوطاً ـ مباشرة ـ أن يرحل هو وأهله من هذه البلدة وقالوا: ﴿فأسر بأهلك بقطع من الليل﴾.

ولكن كونوا على حذر ﴿ولا يلتفت منكم أحد﴾ [١] إلى الوراء ﴿إلّا امرأتك فإنّه مصيبها ما أصابهم﴾ [٢] لتخلّفها عن أمر الله وعصيانهم مع العُصَاة الظَلَمَة.

أليس الصبح بقريب

وخلاصة الأمر فإنّ آخر ما قاله رسل الله ـ أي الملائكة ـ للوطعليه السلام: إنّ العذاب سينزل قومه صباحاً. ومع أوّل شعاع للشمس سيحين غروب حياة هؤلاء: ﴿إنّ موعدهم الصبح﴾.

إنّ الملائكة حين وعدوا لوطاً بنزول العذاب صباحاً، سأل لوط الملائكة لشدة ما لقيه من قومه ممّا ساءَه، وجرح قلبه وملأه همّاً وغمّاً أن يعجلوا عليهم بالعذاب في الحال فإنّ الأفضل الإسراع، ولكن الملائكة طمأنوه وسرّوا عنه بقولهم: ﴿أليس الصبح بقريب﴾.

وأخيراً دنت لحظة العذاب وتصرّمت ساعات انتظار لوط النّبيعليه السلام، وكما يقول القرآن

١ ـ وفي قوله تعالى: ﴿لا يلتفت منكم أحد﴾ عند المفسّرين احتمالات عديدة.

الأوّل: لا ينظر أحد إلى ورائه مديراً وجهه إلى الخلف.

الثّاني: لا تفكروا بما تركتم خلفكم من الأموال ووسائل المعاش، إنّما عليكم أن تنجوا أنفسكم من الهلاك.

الثّالث: لا يتخلف منكم أحد عن هذه القافلة الصغيرة.

الرّابع: إنّ الأرض ستضطرب حال خروجكم وستبدأ مقدمات العذاب فاهربوا بسرعة ولا تلتفتوا إلى الوراء ...

ولكن لا مانع من الجمع بين هذه الإحتمالات كلها في الآية.

٢ ـ هود، ٨١.

الكريم ﴿فلمّا جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود﴾.

إنّ هذا المطر كان متتابعاً سريعاً إلى درجة حتى كأنّ هذه الأحجار تتراكب بعضها فوق بعض فتكون «منضودة».

ولا تتصوروا أنّ هذه الأحجار مخصوصة بقوم لوط، بل ﴿وما هي من الظالمين ببعيد﴾[1].

هؤلاء القوم المنحرفون ظلموا أنفسهم وظلموا مجتمعهم، لعبوا بمصير أُمتهم كما هـزئوا بالإيمان والأخلاق الإنسانيّة، وكلّما نصحهم نبيّهم باخلاص وحـرقة قـلب لم يسـمعوا له وسخروا منه، وبلغت صلافتهم وعدم حيائهم حدّاً أنّهم أرادوا الاعتداء على ضيوف زعيمهم ويهتكوا حرمتهم.

هؤلاء الذين كانوا قد قلبوا كل شيء يجب أن تنقلب مدينتهم عليهم، ولا يكفي أن يغدو عليها سافلها، بل ليُمطروا بوابلٍ من الأحجار تدمّر كل شيء من «معالم الحياة» هـناك ولا يبقى منهم سوى صحراء موحشة وقبور مظلمة تحت ركام الأحجار الصغيرة.

وهل إنّ الذين ينبغي معاقبتهم هم قوم لوط فحسب؟ قطعاً لا. فكل جماعة منحرفة وأُمّة ظالمة ينتظرها مثل هذا المصير، فتارة تكون تحت وابل الأحجار، وأُخرىٰ تحت ضـربات القنابل المحرقة، وحيناً تحت ضغط الإختلافات الإجتماعية القاتلة، وأخيراً فإنّ لكلٍّ شكلاً من العذاب وصورة معينة.

لِمَ كان العذاب صباحاً؟

لِمَ لم ينزل العذاب في قلب الليل البهيم؟!

ترى هل كان ذلك لأنّ الجماعة الذين هجموا على دار لوط فعموا وعـادوا إلى قـومهم وحدثوهم بما جرى لهم، فحينئذٍ فكر أُولئك بما حدث! وإنّ الله أمهلهم إلى الصـباح لعـلهم ينتبهون ويتوبون؟

أو أنّ الله لم يرد الاغارة عليهم في الليل، ولذلك فقد أمر الملائكة أن ينتظروا حتى يحين الصباح؟! ما ذكرناه آنفاً احتمالات تستحق المطالعة.

---

١ ـ هود، ٨٣ ـ ٨١.

لِمَ قلب الله عاليها سافلها؟

إنّ العذاب ينبغي أن يتناسب مع الإثم، وحيث أنّ هؤلاء القوم قلبوا كل شيء عن طريق الإنحراف الجنسي فإنّ الله جعل مدنهم عاليها سافلها أيضاً، وحيث كانوا دائماً يتقاذفون بالكلمات البذيئة فيما بينهم، فإنّ الله امطرهم بحجارة لتتهاوى على رؤوسهم أيضاً.

وآخر ما ينبغي التذكير به هنا من المسائل الدقيقة، أن جرّ الأفراد إلى مثل هذا الإنحراف الجنسي له أسباب وعلل مختلفة، حتى من ضمنها أحياناً طريقة التعامل والمعاشرة من قبل الوالدين مع أبنائهما، أو الغفلة عنهم وعدم مراقبة من معهم من بني جنسهم، وطريقة معاشرتهم ومنامهم معاً في بيت واحد، كل ذلك له أثره الفاعل في هذا التلوّث والإنحراف.

نحن نقرأ في أحوال قوم لوط أنّ سبب انحرافهم وتلوثهم بهذا الذنب أنّهم كانوا قوماً بخلاء، ولمّا كانت مدنهم على قارعة الطريق التي تمرّ بها قوافل الشام ولم يكونوا ليرغبوا في استضافة العابرين من المسافرين، كانوا يوحون إليهم بداية الأمر أنّهم يريدون أن يعتدوا عليهم جنسياً ليفرّ منهم الضيوف والمسافرون، ولكنّ هذا العمل أصبح بالتدريج مألوفاً عندهم ونما عندهم الإنحراف الجنسي وبلغ عملهم حدّاً أنّهم تلوّثوا بالآثام من قرنهم إلى قدمهم.

أخلاق قوم لوط

ونقرأ في الرّوايات أعمالاً سيئة كانت عند قوم لوط سوى الإنحراف الجنسي المشار إليه، ومن هذه الأعمال مايلي: ... **قيل كانت مجالسهم، تشتمل على أنواع المناكير مثل الشتم والسخف والصفع والقمار وضرب المخراق وخذف الأحجار على من مرّ بهم، وضرب المعازف والمزامير وكشف العورات.**

وواضح أنّ الإنحراف في مثل هذه البيئة وأعمال السوء تأخذ أبعاداً جديدة كل يوم، وبغض النظر عن قبح الأعمال السيئة ـ أساساً ـ تبلغ الحال درجةً لا يُرى عندها أي عمل في نظر تلك البيئة سيّئاً أو منكراً.

ويوجد في عصر تقدم العلوم من هم أشقى من قوم لوط حيث يسلكون نفس ذلك السبيل وقد تصل أعمال هؤلاء المخزية إلى درجة ننسى عندها أعمال قوم لوط ....

إمرأة لوط مَثَلٌ للكافرين

القرآن الكريم يقول: **﴿ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كـانتا تـحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما، فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً وقيل ادخلا النـار مـع الداخلين﴾** [1].

إنّ زوجة نوح كانت تدعى «والهة» وزوجة لوط «والعة» بينما ذكر آخرون عكس ذلك أي أنّ زوجة لوط اسمها (والهة) وزوجة نوح اسمها (والعة).

وعلى أيّة حال فإنّ هاتين المرأتين خانتا نبيّين عظيمين من أنبياء الله. والخيانة هـنا لا تعني الإنحراف عن جادّة العفّة والنجابة، لأنّهما زوجتا نبيّين ولا يمكن أن تخون زوجة نبي بهذا المعنى للخيانة، فقد جاء عن الرّسول صلى الله عليه وآله: «**ما بغت امرأة نبي قطّ**».

كانت خيانة زوجة لوط هي أن أفشت أسرار هذا النبي العظيم إلى أعدائه، وكذلك كانت زوجة نوح عليه السلام.

---

١ ـ التحريم، ١٠.

النّبي يوسف و النّبي يعقوب عليهما السلام

رواية حبّ، أم أعظم درس في التقوىٰ؟

قبل الدخول في قصّة يوسف ينبغي ذكر عدّة أمور:

١ ـ وبالرغم من أنّ القصّاصين غير الهادفين، أو من لهم اغراض رخيصة سعوا الى أن يحوّلوا هذه القصّة المهذّبة الى قصّة عشق يحرك أهل الهوىٰ والشهوة!! وأن يمسخوا الوجه الواقعي ليوسف عليه السلام بحيث بلغت الحال أن يصوروا «فيلماً سينمائياً» وينشروه بصورة مبتذلة ... إلّا أنّ القرآن ـ وكلّ ما فيه أسوة وعبرة ـ عكس في ثنايا هذه القصّة أسمى دروس العفة وضبط النفس والتقوى والإيمان، حتى لو أنّ إنساناً قرأها عدة مرات فإنّه يتأثر ـ بدون اختيار ـ بأسلوبها الجذّاب في كل مرّة.

ولذا فقد عبّر القرآن عنها بـ﴿أحسن القصص﴾ وجعل فيها العبر للمعتبرين ﴿أولي الألباب﴾.

بطل العفاف

٢ ـ إنّ التدقيق في هذه القصّة يكشف هذه الحقيقة للإنسان، وهي أنّ القرآن معجز في جميع أبعاده، لأنّ الأبطال الذين يقدمهم في قصصه أبطال حقيقيّون لا خياليّون، وكل واحد في نفسه منهم منعدم النظير:

فإبراهيم عليه السلام: البطل الذي حطّم الأصنام بروحه العالية التي لا تقبل المساومة مع الطغاة.

ونوح عليه السلام: بطل الصبر والإستقامه والشفقة والقلب المحترق في ذلك العمر الطويل المبارك.

وموسىعليه السلام: البطل المربّي لقومه اللجوجين، والذي وقف بوجه فرعون المتكبر الطاغي.
ويوسفعليه السلام: بطل الورع والتقوى والطهارة ... أمام امرأة محتالة جميلة عاشقة.
بعد هذا كلّه تتجلّى القدرة البيانية للوحي القرآني بصورةٍ تحيّر الإنسان، لأنّ هذه القصّة ـ كما نعرف ـ تنتهي في بعض مواردها الى مسائل العشق ودون أن يمسخها القرآن أو يتجاوزها يتعرض الى الأحداث في مسرحها بدقة بحيث لا يحس السامع شيء غير مطلوب فيها. ويذكر القضايا بأجمعها في المتن، ولكن تحفّها أشعة قوية من التقوى والطهارة.

يوسف في القرآن و التوراة

٣ ـ لا شكّ أنّ قصّة يوسف كانت مشهورة ومعروفة بين الناس قبل الإسلام، لأنّها مذكورة في (١٤) فصلاً من [سفر التكوين] في التوراة بين [الفصل ٣٧ ـ ٥٠] ذكراً مفصلاً.
وبطبيعة الحال فإنّ المطالعة الدقيقة في هذه الفصول الأربعة عشر تكشف مدى الإختلاف بين ما جاء في التوراة وما جاء في القرآن.
وبالمقارنة بين نصّ التوراة ونصّ القرآن نجد أنّ نصّ القصّة في القرآن في غاية الصدق وتخلو من أي خرافة.
ويظهر من التوراة أنّ يعقوبعليه السلام لما رأى قميص يوسف ملطخاً بالدم قال: هذا قميص ولدي وقد أكله الحيوان المفترس، فيوسف ممزّق الأحشاء ثمّ خرّق يعقوب ثوبه وشدّ الحزام على ظهره وجلَسَ أيّاماً للبكاء والنواح على يوسف، وقد عزّاه جميع أبنائه ذكوراً وإناثاً إلّا أنه امتنع أن يقبل تعزيتهم وقال: سأُدفن في القبر حزناً على ولدي.
بيد أنّ القرآن يبيّن: أنّ يعقوب لم يصدّق ما قاله أولاده، ولم يفزع ولم يجزع لمصيبة ولده يوسف، بل أدّى ما عليه من سنّة الأنبياء من الصبر والتوكل على الله، وقال لأبنائه: **﴿بل سوّلت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون﴾** وإن كان قلبه يحترق على فراق ولده وعيناه تدمعان من أجله حتى ابيضتا وعميتا، ولكن ـ وكما يعبر القرآن ـ لم يقم بأي عمل من قبيل تخريق الثوب والنواح وشدّ الحزام على ظهره ـ والذي كان علامة للمصيبة و«العزاء» ـ وإنّما قال: **«صبر جميل»** وكتم حزنه **«فهو كظيم»**.
وعلى كل حال فإنّ هذه القصّة ـ بعد الإسلام ـ تناقلتها أقلام مؤرخي الشرق والغرب ... وأحياناً مع أغصان وأوراق إضافية.

أحسن القصص

ثمّ يقول سبحانه: **﴿نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين﴾** [1].

ولم لا تكون هذه القصّة أحسن القصص، مع أنّها ترسم في فصولها المثيرة أسمىٰ دروس الحياة؟!

فنحن نشاهد حاكمية إرادة الله على كل شيء في هذه القصّة، وننظر بأعيننا المصير الأسود الذي انتهى إليه الحُسّاد وما رقموه على الماء من خِطط.

كما تتجسم من خلال سطورها الذلةُ في الإبتذال وعدم العفة، والعظمة في التقوى ومنظر الصبيّ وهو وحيد في قعر الجبّ، وفي مشهد آخر نراه يقضي الليالي والأيّام دون ذنب في حفرة السجن المظلم، ثمّ انبثاق نور الأمل من خلف حجب اليأس والظّلمات، ثمّ نشاهد بعد ذلك حكومته العظيمة الواسعة نتيجة دراسته وأمانته. كل هذه المشاهد تتجلّىٰ للقارىء لهذه القصّة بشكل رتيب.

لحظات وبسبب رؤيا يتحول مصير أُمّة ... إنقاذ أُمّة ومجتمع بشري من الهلكة على يد قائد إلٰهي متيقظ ... وعشرات الدروس الأُخرىٰ ـ الكبيرة ـ التي تلوح في هذه القصّة، فلم لا تكون هذه القصّة أحسن القصص؟!

غاية ما في الأمر أنّه لا تكفي أن تكون قصّة يوسف وحدها هي أحسن القصص، بل المهم أن تكون فينا الجدارة لأن نفهم هذا الدرس العظيم وأن نعرف مكانه من نفوسنا.

فكثيرٌ مِنَ الناس لا يزال ينظر الى قصّة يوسف‏عليه السلام على أنها حادثة عشق طريف، ومثله كمثل الدابّة التي يلوح لها البستان النضر المليء بالأزهار، إلّا أنّها تراه حفنة من «العلف» تسدُّ جوعها:

وما يزال الكثير من الناس يضفي على القصّة افرازات خيالية كاذبة ليحرّف القصّة عن واقعها ... وهذا من عدم اللياقة. وفقدان الجدارة وعدم قابلية المحل، وإلّا فإنّ أصل القصّة جمع كل أنواع القيم الإنسانية العليا في نفسه.

---

١ ـ يوسف، ٣.

وسنرىٰ في المستقبل ـ بإذن الله ـ أنّه لا يمكن تجاوز فصول هذه القصّة الجامعة والجميلة وكما يقول الشاعر في هذه القصّة:

يَسكرُ من عطر الزهور الفتى حــتى يُـرى مـفتقداً ثـوبه!

بارقة الأمل وبداية المشاكل

بدأ القرآن بذكر قصّة يوسف من رؤياه العجيبة ذات المعنى الكبير، لأنّ هذه الرؤيا في الواقع تعدّ أوّل فصل من فصول حياة يوسف المتلاطمة.

جاء يوسف في أحد الأيّام صباحاً الى أبيه وهو في غاية الشوق ليحدثه عن رؤياه، وليكشف ستاراً عن حادثة جديدة لم تكن ذات أهمية في الظاهر، ولكنّها كانت إرهاصاً لبداية فصل جديد من حياته ﴿**إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إنّي رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين**﴾.

ولكن كم كان ليوسف من العمر حين رأى رؤياه؟!

هناك من يقول: كان ابن تسع سنوات، ومن يقول: ابن سبع، ومنهم من يقول: ابن اثنتي عشرة سنة، والقدر المسلم به أنّه كان صبيّاً.

إن هذه الرؤيا المثيرة ذات المغزىٰ تركت يعقوب النّبي غارقاً في التفكير ... فالقمر والشمس والكواكب، وأي الكواكب! إنّها أحد عشر يسجدون جميعاً لولدي يوسف، كم هي رؤيا ذات مغزى! لا شك أنّ الشمس والقمر «أنا وأُمه أو خالته» والكواكب الأحد عشر إخوته، هكذا يرتفع قدر ولدي حتى تسجد له الشمس والقمر وكواكب السّماء.

إن ولدي «يوسف» عزيز عند الله إذا رأى هذه الرؤيا المثيرة!

لذلك توجه الى يوسف بلهجة يشوبها الإضطراب والخوف المقرون «بالفَرحة» و﴿**قال يا بني لا تقصص رؤياك على إخواتك فيكيدوا لك كيداً**﴾ وأنا أعرف ﴿**إنّ الشيطان للإنسان عدو مبين**﴾ وهو منتظر الفرصة ليوسوس لهم ويثير نار الفتنة والحسد وليجعل الإخوة يقتتلون فيما بينهم.

ولكن هذه الرؤيا لم تكن دليلاً على عظمة يوسف في المستقبل من الوجهة الظاهرية والمادية فحسب، بل تدل على مقام النبوّة التي سيصل إليها يوسف في المستقبل.

ولذلك فقد أضاف يعقوب ـ لولده يوسف ـ قائلاً: ﴿**وكذلك يجتبيك ربّك ويعلمك من**

تأويل الأحاديث ويتمّ نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمّها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق﴾. أجل فإنّ الله على كل شيء قدير و﴿**إنّ ربّك عليم حكيم**﴾[1].

المؤامرة

من هنا تبدأ قصّة مواجهة إخوة يوسف واشتباكهم معه:

ففي القرآن الكريم إشارة الى الدروس التربوية الكثيرة التي توحيها القصّة، إذ يقول: ﴿**لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين**﴾.

وأيّ درس أعظم من أن يجتمع عدّة أفراد لإهلاك فرد ضعيف ووحيد ـ في الظاهر ـ وبخطط أعدّها الحسدُ، ويبذلون أقصى جهودهم لهذا الأمر، ولكن نفس هذا العمل ـ ودون شعور وارادة منهم ـ بات سبباً في تربّعه على سرير الملك وصيرورته آمراً على البلد الكبير «مصر» ثمّ يأتي إخوته في النهاية ليطأطئوا برؤوسهم إعظاماً له، وهذا يدلّ على أن الله إذا أراد أمراً فهو قادر على أن يجريه حتى على أيدي من يخالفون ذلك الأمر، ليتجلّى أن الإنسان المؤمن الطاهر ليس وحيداً في هذا العالم، فلو سعى جميع أفراد هذا العالَم الى إزهاق روحه والله لا يريد ذلك، فانهم لا يستطيعون أن يسلبوا منه شعرة واحدة.

كان ليعقوب اثنا عشر ولداً، واثنان منهم: يوسف وبنيامين وهما من أُم واحدة اسمها راحيل، وكان يعقوب يولي هذين الولدين محبّة خاصّة، لا سيما يوسف.

لأنّهما أوّلاً: أصغر أولاده، وبالطبع فهما يحتاجان الى العناية والرعاية والمحبة.

وثانياً: لأنّ أُمّهما ارتحلت من الدنيا ـ طبقاً لبعض الرّوايات ـ وبعد هذا كلّه كانت بوادر النبوغ والذكاء والحادّ ترتسم على يوسف، وهذه الأُمور أدّت الى أن يولي يعقوب ابنه هذا عناية أكثر.

إلّا أن الإخوة الحساد ـ دون أن يلتفتوا الى هذه الجهات ـ تألّموا من حبّ أبيهم ليوسف وأخيه، وخاصّة بعد اختلافهم في الأم والمنافسة الطبيعية المترتبة على هذا الأمر. لهذا اجتمعوا فيما بينهم وتدارسوا الأمر وصمموا على المؤامرة ﴿**إذ قالوا ليوسف وأخوه أحبّ إلى**

---

١ ـ يوسف، ٦ ـ ٤.

أبينا منّا ونحن عصبة﴾[١].

وحكموا على أبيهم من جانب واحد بقولهم: ﴿إن أبانا لفي ضلال مبين﴾[٢].

إن نار الحسد والحقد لم تدعهم ليفكروا في جميع جوانب الأمر ليكتشفوا دلائل علاقة الحبّ التي تربط يعقوب بولديه يوسف وبنيامين، لأنّ المنافع الخاصّة لكل فرد تجعل بينه وبين عقله حجاباً فيقضي من جانب واحد لتكون النتيجة «الضلال عن جادة الحق والعدل» وبالطبع فإنّ اتهامهم لأبيهم بالضلالة، لم يكن المقصود منها الضلالة الدينية، لأنّ القرآن يكشف عن اعتقادهم بنبوّة أبيهم، وإنما استنكروا طريقة معاشرته فحسب.

أقتلوا يوسف

ثمّ أدّى بهم الحسد الى أن يخططوا لهذا الأمر، فاجتمعوا وقدموا مقترحين وقالوا: ﴿اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً ـ أرسلوه الى منطقة بعيدة ـ يخل لكم وجه أبيكم﴾.

ومن الحق أن تشعروا بالذنب والخجل في وجدانكم لأنّكم تقدمون على هذه الجناية في حق أخيكم الصغير، ولكن يمكن أن تتوبوا وتغسلوا الذنب ﴿وتكونوا من بعده قوماً صالحين﴾.

ولكن كان من بين الأُخوة من هو أكثر ذكاءً وأرق عاطفة ووجداناً، لأنّه لم يرض بقتل يوسف أو إرساله الى البقاع البعيدة التي يُخشي عليه من الهلاك فيها ... فاقترح عليهم اقتراحاً ثالثاً، وهو أن يلقى في البئر (بشكل لا يصيبه مكروه) لتمرّ قافلة فتأخذه معها، ويغيب عن وجه أبيه ووجوههم، حيث يقول القرآن في هذا الصدد ﴿قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابة الجبّ يلتقطه بعض السيّارة إن كنتم فاعلين ...﴾[٣].

المؤامرة المشؤومة!

بعد أن صوّب إخوة يوسف إقتراحَ أخيهم في عدم قتل يوسف، وإلقائه في الجبّ، أخذوا

---

١ ـ «العصبة» معناها الجماعة المتفقون على الأمر، وهذه الكلمة معناها الجمع إلّا لا مفرد لها من جنسها.

٢ ـ يوسف، ٩ ـ ٧.

٣ ـ يوسف، ١٠ ـ ٩.

يفكرون في كيفية فصل يوسف عن أبيه لذلك أقدموا على تخطيط آخر، فجاؤوا الى أبيهم بلسان ليّن يدعو إلى الترحم، وفي شكل يتظاهرون به أنهم مخلصون له وحدثوا أباهم و﴿قالوا يا أبانا ما لك لا تأمنّا على يوسف وإنا له لناصحون﴾.

تعال يا أبانا وارفع اليد عن اتهامنا، فإنّه أخونا وما يزال صبياً وبحاجة الى اللهو واللعب، وليس من الصحيح حبسه عندك في البيت، فخلّ سبيله ﴿أرسله معنا غداً يرتع ويلعب﴾.

وإذا كنت تخشىٰ عليه من سوء فنحن نواظب على حمايته ﴿وإنا له لحافظون﴾[1].

وبهذا الأسلوب خططوا لفصل أخيهم عن أبيه بمهارة، ولعلّهم قالوا هذا الكلام أمام يوسف ليطلب من أبيه إرساله معهم.

وهذه الخطة تركت الأب ـ من جانب ـ أمام طريق مسدود، فإذا لم يرسل يوسف مع إخوته فهو تأكيد على اتهامه إيّاهم، وحرضت ـ من جانبٍ آخر ـ يوسف على أن يطلب من أبيه الذهاب معهم ليتنزّه كما يتنزه إخوته، ويستفيد من هذه الفرصة لاستنشاق الهواء الطلق خارج المدينة.

ذئاب صحراء كنعان

ولكن يعقوب ـ دون أن يتهم إخوة يوسف بسوء القصد ـ أظهر تردّده في إرسال يوسف لأمرين:

الأوّل: أنه سيبتعد عنه فيحزن عليه، والثاني: ربّما يوجد خارج المدينة بعض الذئاب المفترسة فتأكله، فاعتذر إليهم و﴿قال إني ليحزنني أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون﴾.

وهذه المسألة طبيعية، حيث قد يبتعد إخوة يوسف عنه فيغفلون عن أمره، فيأتي إليه الذئب فيأكله.

وبديهي أنّ الإخوة لم يكن لهم جواب بالنسبة للأمر الأوّل الذي أشار إليه أبوهم يعقوب، لأنّ الحزن والإغتمام على فراق يوسف لم يكن شيئاً عاديّاً حتى يعوّض عنه، وربّما كان هذا التعبير مثيراً لنار الحسَد في إخوة يوسف أكثر.

---

١ ـ يوسف، ١٢ ـ ١١.

ومن جهة أُخرىٰ فإن هذا الموضوع الذي أشار إليه يعقوب، وهو حزنه على ابتعاد يوسف عنه يمكن ردّه، وهو لا يحتاج الى بيان، لأنّ الولد لابدّ له من الإبتعاد عن أبيه من أجل أن ينمو ويرشد، وإذا أريد له أن يكون كنبات «النّورس» بحيث يبقى تحت ظل شجرة «وجود الأب» فإنّه سوف يبقىٰ عالة عليه فلابدّ من هذا الإبتعاد والإنفصال حتى يتكامل ولده، فاليوم تنزّه وغداً اجتهاد ومثابرة لتحصيل العلم، وبعد غد عمل وسعي للحياة، وأخيراً فإنّ الإنفصال لابدّ منه.

لذلك فإنّهم لم يجيبوه عن الشقّ الأوّل من كلامه، بل أجابوه عن الشقّ الثّاني لأنّه كان مهماً وأساسياً بالنسبة لهم إذ **﴿قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذاً لخاسرون﴾** [١].

أي: أترانا موتى فلا ندافع عن أخينا، بل نتفرج على الذئب كيف يأكله! ثـمّ إضـافةً الى علاقة الأخوة التي تدفعنا للحفاظ على أخينا، ما عسى أن نقول للناس عنّا؟ هل ننتظر ليقال عنّا: إنّ جماعة أقوياء وفتية أشداء جلسوا وتفرجوا على الذئب وهو يفترس أخاهم! فـهل نستطيع العيش بعد هذا مع الناس؟![٢]

وعلى كل حال فقد استطاع إخوة يوسف بما أوتوا من الحيل، وبتحريك أحاسيس يوسف النقيّة وترغيبه الى التنزه خارج المدينة، وربّما كان الأوّل مرّة يتاح ليوسف أن يحصل على مثل هذه الفرصة استطاعوا أن يأخذوا يوسف معهم وأن يستسلم الأب لهذا الأمر فيوافق على طلبهم.

---

١ ـ يوسف، ١٤ ـ ١٣.

٢ ـ ويبرز هنا سؤال مهم ... وهو: لماذا أشار يعقوب الى خطر الذئب من دون الأخطار الأُخرىٰ؟!
قال البعض: إن صحراء كنعان ـ كانت ـ «صحراء مذئبة» ومن هنا كان الخوف من الذئب أكثر من غيره.
وقال البعض الآخر: كان ذلك للرؤيا التي رآها يعقوب من قبل وهي أن ذئاباً هـجمت عـلى ولده يوسف.
وهناك احتمال آخر هو أن يعقوب أجابهم بلسان الكناية، والمقصود من الذئاب في كلامه هم الأناس المتصفون بصفة الذئب إخوة يوسف.

يوسف والوداع الحزين

وأخيراً إنتصر إخوة يوسف وأقنعوا أباهم أن يرسل معهم أخاهم يوسف، فباتوا ليلتهم مطمئني البال بانتظار الصبح لتنفيذ خطتهم وإزاحة أخاهم الذي يقف عائقاً في طريقهم وكان قلقهم الوحيد أن يندم أبوهم ويسحب كلامه ووعده بإرسال يوسف معهم.

فجاؤوا صباحاً الى أبيهم فأمرهم بالمحافظة على يوسف، وكرر توصياته في شأنه، فأظهر الأبناء طاعتهم لأبيهم وأبدوا احترامهم الفائق ومحبتهم العميقة، وتحركوا الى خارج المدينة.

يقال: إنّ أباهم ودعهم الى بوابة المدينة ثمّ أخذ منهم يوسف وضمّه الى صدره ودمعت عيناه، ثمّ أودع يوسف عندهم وفارقهم، ولكن يعقوب كان يودعهم بنظراته، وكان إخوة يوسف لا يقصرون عن مدارة أخيهم يوسف وإظهار عنايتهم به ومحبتهم له طالما كانت تلاحظهم عينا أبيهم، ولكن ما أن غاب عنهم أبوهم واطمأنوا الى أنّه لا يراهم، حتى انفجرت عقدتهم وصبوا «جام غضبهم» وحقدهم وحسدهم المتراكم لعدّة سنوات على رأس يوسف، فالتفّوا حوله يضربونه بأيديهم ويلتجيء من واحد لآخر ويستجير بهم فلا يجيرهُ أحد منهم.

يوسف بين البكاء والضحك

إنّ يوسف كان يبكي تحت وابل اللكمات والضربات القاسيّة، ولكن حين أرادوا أن يلقوه في الجبّ شرع بالضحك فجأة ... فتعجب إخوته كثيراً وحسبوا أن أخاهم يظنّ الأمر لا يعدو كونه مزاحاً ... ولكنّه رفع الستار عن ضحكه وعلّمهم درساً كبيراً إذ قال: ـ لا أنسى أنني نظرت ـ أيها الإخوة ـ الى عضلات أيديكم القويّة وقواكم الجسدية الخارقة، فسررت وقلت في نفسي: ما عسى أن يخشى ويخاف من الحوادث والملمّات من كان عنده مثل هؤلاء الإخوة، فاعتمدت عليكم وربطت قلبى بقواكم، والآن وقد أصبحت أسيراً بين أيديكم وأستجير بكم من واحد للآخر فلا أُجار، وقد سلطكم الله عليّ لأتعلم هذا الدرس، وهو ألّا أعتمد وأتوكّل على أحدٍ سواه ... حتى ولو كانوا إخوتي.

وعلى كل حال فالقرآن الكريم يقول في هذا الصدد: **﴿فلمّا ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب﴾**.

ثمّ تبيّن الآية أنّ الله أوحى الى يوسف وهدأ روعه وألهمه ألّا يحزن فالعاقبة له، إذ تقول:

﴿وأوحينا إليه لتنبئتهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون﴾[1].

ذلك اليوم الذي تجلس فيه على العرش وأنت القوي الأمين، فيأتي إخوتك ليمدّوا أيدي الحاجة إليك، ويكونوا كالظامئين الى النبع العذب في الصحراء اللاهبة ويسرعون إليك في منتهى التواضع، ولكنّك في حال من العظمة بحيث لا يصدّقون أنك أخوهم، وستقول لهم في ذلك اليوم: ألستم الذين فعلتم مع أخيكم الصغير يوسف كذا وكذا ... وكم سيكونون خجلين من فعلهم هذه في ذلك اليوم[2]!

جملة ﴿وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجبّ﴾ تدلّ على أنّهم لم يرموه في البئر، بل أنزلوه على مكان يشبه الرصيف لمن يريد النّزول الى سطح الماء، وقد شدوه بحبل حتى إذا نزل ووصل الى غيابة الجبّ تركوه وحده.

يوسف عار في البئر

حين رمىٰ يوسفَ إخوتُهُ في الجبّ خلعوا عنه قيمصه وتركوه عارياً، فنادىٰ: اتركوا لي قميصي ـ على الأقل ـ لأغطي به بدني إذا بقيت حياً، ويكون كفني إذا متّ. فقال له إخوته: اطلبه من الشمس والقمر والكواكب الأحد عشر الذين رأيتهم في منامك، ليكونوا مؤنسيك في هذه البئر، ويكسوك ويُلبسوك ثوباً على بدنك ...

لقد نفّذ إخوة يوسف خطتهم كما أردوا، ولكن ينبغي أن يفكروا عند العودة ماذا كيف كي يصدّق أبوهم أن يوسف إنتهى بصورة طبيعية لا عن مكيدة ليضمنوا عواطف أبيهم نحوهم.

وكانت الفكرة التي أوصلتهم الى هذا الهدف هي ما تخوّف أبوهم منه، فأقنعوه ـ ظاهراً ـ عن هذا الطريق مدّعين بأنّ الذئب قد أكل يوسف وجاؤوا إليه بدلائل مزيّفة!!

كذب مفضوح

يقول القرآن الكريم: ﴿وجاءُوا أباهم عشاءً يبكون﴾ بكاءً كاذباً، وهذا يدلّ على أنّ البكاء

---

١ ـ يوسف، ١٥.

٢ ـ وهذا الوحي الإلهي لم يكن وحي النبوة، بقرينة الآية (٢٢) من السورة ذاتها، بل كان إلهاماً لقلب يوسف ليعلم أنه ليس وحيداً، بل له حافظ ورقيب، وهذا الوحي بثّ في قلب يوسف نور الأمل وأزال عن روحه ظلمات اليأس والحيرة.

الكاذب ممكن .. ولا يمكن أن يُخدع ببكاء العين وحدها.

أمّا الأب الذي كان ينتظر مجيىء ولده (يوسف) بفارغ الصبر، فقد اهتز وارتجف حين رأى الجمع وليس بينهم يوسف، وسأل عنه مستفسراً، فأجابوه و﴿قالوا إنّا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا﴾ لصغر سنه ولأنّه لا يعرف التسابق، وانشغلنا عنه ﴿فأكله الذئب وما أنت بمؤمن لنا ولو كنّا صادقين﴾.

لأنك أخبرتنا من قبلُ بهذا الإحتمال، وستظن أن ادّعاءنا مجرّد احتيال.

لقد كان كلام إخوة يوسف مدروساً بشكل دقيق، وذلك ـ أوّلاً ـ لأنّهم خاطبوا يعقوب بقولهم بكلمة «يا أبانا» وفيها ما فيها من الإستعطاف.

وثانياً: لأنّ من الطبيعي أن ينشغل هؤلاء الإخوة الأقوياء بالتسابق، ويتركوا أخاهم الصغير رقيباً على متاعهم، وبعد ذلك كله فقد جاؤوا أباهم يبكون لتمرير خطتهم، وقالوا له: ﴿وما أنت بمؤمن لنا ولو كنّا صادقين﴾.

ومن أجل أن يبرهنوا على صحة كلامهم فقد ﴿جاءُوا على قميصه بدم كذب﴾ إذ لطخوا الثوب بدم الغزال أو الخروف أو التيس ...

ولكن حيث أنّ الكاذب لا يمتلك حافظة قويّة، وحيث أن أية حقيقة فيها علائق مختلفة وكيفيات ومسائل يقل أن تجتمع منظّمة في الكذب، فقد غفل إخوة يوسف عن هذه المسألة الدقيقة ... وهي ـ على الأقل ـ أن يخرقوا قميص يوسف الملطخ بالدم ليدل على هجوم الذئب ... فقد قدّموا القميص سالماً غير مخرق فأحس الأب بمؤامرتهم، فما إن وقعت عيناه على القميص حتى فهم كل شيء و﴿قال بل سولت لكم أنفسكم أمراً﴾[1].

يا له من ذئب رحيم

إنّ يعقوب أخذ قميص يوسف وهو يقلّبه ويقول: «ما أرى أثر ناب ولا ظفر إنّ هذا السبع رحيم»، وفي رواية أنّه أخذ القميص وألقاه على وجهه وبكىٰ حتىٰ خضب وجهه بدم القميص، وقال: تاللّه ما رأيت كاليوم ذئباً أحلم من هذا أكل إبني ولم يمزق على قميصه، وجاء أنّه بكىٰ وصاح وخرّ مغشيّاً عليه فأفاضوا عليه الماء فلم يتحرك ونادوه فلم يجب

---

١ ـ يوسف، ١٨ ـ ١٦.

ووضع يهوذا يده على مخارج نفسه فلم يحس بنفس ولا تحرك له عرق، فقال: ويل لنا من ديان يوم الدين ضيعنا أخانا وقتلنا أبانا فلم يفق إلّا ببرد السحر.

وبالرغم من احتراق قلبه ولهيب روحه لم يجر على لسانه ما يدل على عدم الشكر أو اليأس أو الفزع أو الجزع، بل قال: ﴿**فصبر جميل**﴾ ثمّ قال: ﴿**والله المستعان على ما تصفون**﴾[١] وأسأله أن يبدل مرارة الصبر في فمي الى «حلاوة» ويرزقني القوة والقدرة على التحمّل أكثر أمام هذا الطوفان العظيم، لئلا أفقد زمامي ويجري على لساني كلام غير لائق.

ولم يقل: أسأله أن يعطيني الصبر على موت يوسف، لأنّه كان يعلم أن يوسف لم يُقتل ... بل قال: أطلب الصبر على مفارقتي ولدي يوسف ... وعلى ما تصفون.

حول الترك «الأولىٰ»

ينقل أبو حمزة الثمالي عن الإمام السجاد فيقول: كنت يوم الجمعة في المدينة وصليت الغداة مع الإمام السجادعليه‌السلام فلمّا فرغ من صلاته وتسبيحه نهض الى منزله وأنا معه، فدعا مولاة له تُسمى سكينة فقال لها: «لا يعبر على بابي سائل إلّا أطعمتموه فإنّ اليوم يوم الجمعة».

يقول أبو حمزة: فقلت له: ليس كل من يطلب العَونَ مستحقاً له، فقال: يا أبا ثابت، أخاف أن يكون بعض من يسألنا محقّاً فلا نُطعمه ونردّه فينزل بنا ـ أهل البيت ـ ما نزل بيعقوب وآله. أطعِمُوهم إنّ يعقوب كان يذبح كل يوم كبشاً فيتصدق منه ويأكل هو وعياله منه، وإنّ سائلاً مؤمناً صوّاماً محقّاً له عندالله منزلة، وكان مجتازاً غريباً اعترَّ على باب يعقوب عشية جمعة عند أوان إفطاره يهتف على بابه: أطعموا السائل المجتاز الغريب الجائع من فضل طعامكم، يهتف بذلك على بابه مراراً وهم يسمعونه، قد جهلوا حقّه ولم يصدقوا قوله: فلما أيس أن يطعموه وغشيه الليل استرجع واستعبر وشكا جوعه الى الله بات جائعاً وطاوياً، وأصبح صائماً جائعاً صابراً حامداً لله، وبات يعقوب وآل يعقوب شباعاً بطاناً وأصبحوا وعندهم من فضل طعامهم.

قال: فأوحى الله عزّو جلّ الى يعقوب في صبيحة تلك الليلة: لقد أذللت ـ يا يعقوب ـ عبدي ذلة استجررت بها غضبي، واستوجبت بها أدبي، ونزول عقوبتي وبلواي عليك وعلى

---

١ ـ يوسف، ١٨.

ولدك يا يعقوب، إن أحبّ أنبيائي إليّ وأكرمهم عليّ من رحم مساكين عبادي وقرّبهم اليه وأطعمهم وكان لهم مأوى وملجأ يا يعقوب، ما رحمت «ذميال» عبدي المجتهد في عبادته، القانع باليسير من ظاهر الدنيا عشاء أمس لمّا عبر ببابك عند أوان افطاره ويهتف بكم: أطعموا السائل الغريب المجتاز القانع، فلم تطعموه شيئاً. فاسترجع واستعبر وشكا ما به إليّ وبات جائعاً وطاوياً حامداً، أصبح لي صائماً، وأنت ـ يا يعقوب ـ وولدك شباع، وأصبحت وعندكم فضل من طعامكم.

أو علمت ـ يا يعقوب ـ أنّ العقوبة والبلوى إليٰ أوليائي أسرع منها الى أعدائي الخ ....

ومن الطريف أنّ أبا حمزة يقول: سألت الإمام زين العابدين عليه السلام متى رأى يوسف رؤياه؟ فقال الإمام: في تلك الليلة»

يستفاد من هذا الحديث أن زلّة بسيطة أو بعبارة أدق: «ترك الأَولىٰ» وهو لا يعدّ خطيئة أو إثماً، (لأنّ يعقوب لم يتّضح له حال السائل) هذا الترك من قبل الأنبياء والأولياء يكون سبباً لأن يبتليهم الله بلاءً شديداً ... وما ذلك إلّا لمقامهم الكبير الذي يوجب عليهم أن يراقبوا كل حركاتهم وسكناتهم، لأنّ «حَسنات الأبرار سيئات المقربين».

نحو أرض مصر

قضى يوسف في ظلمة الجب الموحشة والوحدة القاتلة ساعات مرّةً، ولكنّه بإيمانه بالله وسكينته المنبثقة عن الإيمان شع في قلبه نور الأمل، وألهمه الله تعالى القوة والقدرة على تحمّل الوحدة الموحشة، وأن ينجح في هذا الإمتحان.

ولكنّ ... الله أعلم كم يوماً قضى يوسف في هذه الحالة؟

قال بعض: قضى ثلاثة أيام، وقال آخرون: يومين.

وعلى كل حال تبلج النّور ﴿وجاءت سيّارة﴾.

وانتخَبت منزلها على مقربة من الجُبّ، وطبيعي أنّ أوّل ما تفكر القافلة فيه ـ في منزلها الجديد ـ هو تأمين الماء وسد حاجتها منه ﴿فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه﴾.

فانتبه يوسف الى صوت وحركة من أعلى البئر، ثمّ رأى الحبل والدلو يسرعان الى النّزول،

فانتهز الفرصة وانتفع من هذا العطاء الإلهي وتعلق بالحبل بوثوق.

فأحسّ المأمور بالإتيان بالماء أن الدلو قد ثقُلَ أكثر ممّا ينبغي، فلمّا سحبه بقوة الى الأعلى فوجيء نظره بغلام كأنّه فلقة قمر، فصرخ وقال: ﴿يا بشرى هذا غلام﴾.

وشيئاً فشيئاً سرى خبر يوسف بين جماعة من أهل القافلة، ولكن من أجل أن لا يذاع هذا الخبر وينتشر، ولكي يمكن بيع هذا الغلام الجميل في مصر، أخفوه ﴿وأسرّوه بضاعة﴾[1].

وشروه بثمنٍ بخسٍ

﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾[2].

وبالرغم من الاختلاف في من هم الذين شروا يوسف بثمن بخس[3] وقول بعضهم: هم إخوة يوسف، ولكن ظاهر القرآن الكريم هو من كان في القافلة.

ثمّ إنّ هناك اختلافاً آخر في الثمن الذي بيع به يوسف، وكيف قُسّم بينهم؟ فقال البعض: عشرون درهماً، وقالت طائفة: اثنان وعشرون، ومع ملاحظة أنّ الباعة كانوا عشرين يتّضح سهم كل منهم، وكم هو زهيد!

في قصر عزيز مصر

إنتهت حكاية يوسف مع إخوته الذين ألقوه في غيابة الجبّ وبدأ فصل جديد من حياة هذا الغلام الحدث في مصر فقد جيء بيوسف الى مصر وعرض للبيع، ولما كان تحفة نفيسة فقد صار من نصيب «عزيز مصر» الذي كان وزيراً لفرعون أو رئيساً لوزرائه، لأنّه كان يستطيع أن يدفع قيمة أعلى لغلام ممتاز من جميع الجهات، والآن لنَر ما الذي حدث له في

---

١ ـ يوسف، ١٩.

٢ ـ يوسف، ٢٠.

٣ ـ هنا يبرز هذا السؤال وهو: لِمَ باعوا يوسف الذي كان يعدّ ـ على الأقل ـ غلاماً ذا قيمة بثمن قليل، أو كما عبّر عنه القرآن ﴿وشروه بثمن بخسٍ﴾...؟
ولكن هذا أمر مألوف فإنّ السُراق أو أُولئك الذين تأتيهم بضاعة مهمّة دون أي تعب ونصب يبيعونها سريعاً لئلا يطلع الآخرون.
ومن الطبيعي أنّهم لا يستطيعون بهذه الفورية أن يبيعوه بسعر غالٍ.

بيت عزيز مصر. يقول القرآن الكريم في شأن يوسف: ﴿وقال الذي اشتراه من مصر لامرأته أكرمي مثواه عسىٰ أن ينفعنا أو نتخذه ولداً﴾ فلا ينبغي أن تنظري اليه كما ينظرالى العبيد.

يستفاد من هذه الجملة أنّ عزيز مصر لم يرزق ولداً وكان في غاية الشوق للولد، وحين وقعت عيناه على هذا الصبيّ الجميل والسعيد تعلّق قلبه به ليكون مكان ولده.

ثمّ يضيف القرآن الكريم ﴿وكذلك مكنّا ليوسف في الأرض ولنعلمه من تأويل الأحاديث﴾[١].

تفسير الاحلام جزاء العفاف

الملاحظة التي تثير السؤال هنا، هي: ما علاقة الإطلاع على تفسير الأحلام وتأويل الأحاديث بمجييء يوسف الى قصر عزيز مصر ؟!

لكن مع الإلتفات الى أنّ هذه النقطة يمكن أن تكون جواباً للسؤال الآنف الذكر، وهي أن كثيراً من المواهب العلمية يهبها الله قبال التقوى من الذنوب ومقاومة الاهواء والميول النفسيّة، أو بتعبير آخر: إنّ هذه المواهب التي هي ثمرة البصيرة القلبية الثاقبة، هي جائزة إلٰهية يهبها الله لمثل هؤلاء الأشخاص.

نقرأ في حالات ابن سيرين مفسر الأحلام المشهور أنّه كان رجلاً بزازاً وكان جميلاً للغاية فعشقته امرأة وتعلق قلبها به، واستدرجته الى بيتها بأساليب وحيل خاصّة، ثمّ غلّقت الأبواب عليه (لينال منها الحرام) لكنه لم يستسلم لهوى تلك المرأة وأخذ ينصحها ويذكر مفاسد هذا الذنب العظيم، ولكن نار الهوى كانت متأججة في قلبها بحيث لم يطفئها ماء الموعظة، ففكر ابن سيرين في الخلاص من قبضتها، فلوّث جَسده بما كان في بيتها من أقذار تنفّر الرائي، فلما رأته المرأة نفرت منه وأخرجته من البيت.

يقال أنّ ابن سيرين أصبح ذكيّاً بعد هذه الحادثة ورزق موهبة عظيمة في تفسير الأحلام، وذكروا قصصاً عجيبة عنه في الكتب التي تتناول تفسير الأحلام تدل على عمق اطلاعه في هذا المجال!

فعلى هذا يمكن أن يكون يوسف عليه السلام قد نال هذه الموهبة الخاصّة (العلم بتأويل

---

١ ـ يوسف، ٢١.

الأحاديث) لتسلّطه على نفسه قبال إثارة امرأة العزيز لهوى النفس!

لقد واجه يوسف في هذا المحيط الجديد، الذي يعدّ واحداً من المراكز السياسية المهمة في مصر مسائل مستحدثة فمن جهة كان يرى قصور الطغاة المدهشة وثرواتهم ومن جهة أُخرىٰ كانت تتجسد في ذهنه صورة أسواق النخاسين وبيع المماليك والعبيد ... ومن خلال الموازنة بين هاتين الصورتين كان يفكر في كيفية القضاء على هموم المستضعفين من الناس لو أصبح مقتدراً على ذلك!

أجلْ، لقد تعلّم الكثير من هذه الأشياء في هذا المحيط المفعم بالضوضاء، وكان قلبه يفيض همّاً لأنّ الظروف لم تتهيأ له بعدُ. فاشتغل بتهذيب نفسه وبنائها، يقول القرآن الكريم في هذا الصدد: ﴿ولمّا بلغ أشده آتيناه حكماً وعلماً وكذلك نجزي المحسنين﴾[1].

العشق الملتهب

لم يأسر جمال يوسف الملكوتي عزيز مصر فحسب، بل أسر قلب امرأة العزيز كذلك وأصبح متيّماً بجماله!.

وامتدّت مخالب العشق إلى أعماق قلبها، وبمرور الزمن كان هذا العشق يتجذّر يوماً بعد يوم ويزداد إشتعالاً لكنّ يوسف هذا الشابّ الطاهر التقي، لم يفكّر بغير الله، ولم يتعلّق قلبه بغير عشق الله سبحانه.

وهناك أُمور أُخرىٰ زادت من عشق امرأة العزيز ليوسف فمن جهة لم تُرزق الولَد، ومن جهة أُخرىٰ إنغمارها في حياة مترفة مفعمة بالبذخ ومن جهة ثالثة عدم إبتلائها بأيّ نوع من البلاء كما هي حال المتنعّمين، وعدم الرقابة الشديدة على هذا القصر من قبل العزيز من جهة رابعة .. كلّ ذلك ترك امرأة العزيز ـ الفارغة من الإيمان والتقوى ـ تهوي في وساوسها الشيطانية إلى الحضيض، بحيث أفضت ليوسف أخيراً عمّا في قلبها وراودته عن نفسه.

واتّبعت جميع الأساليب والطرق للوصول إلى هدفها، وسعت لكي تلقي في قلبه أثراً من هواها وترغيبها وطلبها، كما يقول عن ذلك القرآن الكريم: ﴿وراودته التي هو في بيتها﴾.

إنّ امرأة العزيز طلبت من يوسف أن ينال منها بطريق المسالمة والمساومة ـ كما يصطلح

---

١ ـ يوسف، ٢٢.

عليه ـ وبدون أي تهديد، وأبدت محبّتها القصوى له بمنتهى اللين.

وأخيراً فكّرت في أن تخلو به وتوفّر له جميع ما يثير غريزته، من ثياب فضفاضة، وعطور عبقة شذيّة، وتجميلات مرغبة، حتّى تستولي على يوسف وتأسره!.

يقول القرآن الكريم: ﴿وغلّقت الأبواب وقالت هيتَ لك﴾ [1].

وغلّقت الأبواب

إنّها أحكمت غلق الأبواب، وهذا يعني أنّها سحبت يوسف إلى مكان من القصر المتشكّل من غرف متداخلة .. وكما ورد في بعض الرّوايات كانت سبعة أبواب، فغلقتها عليه جميعاً .. لئلّا يجد يوسف أي طريق للفرار .. إضافةً إلى ذلك أرادت أن تُشعر يوسف أن لا يقلق لإنتشار الخبر فإنّه سوف لا يفتضح، حيث لا يستطيع أحد أن ينفذ إلى داخل القصر أبداً.

وفي هذه الحال، حين رأى يوسف أنّ هذه الأُمور تجري نحو الإثم، ولم ير طريقاً لخلاصه منها، توجّه يوسف إلى زليخا و ﴿قال معاذ الله﴾ وبهذا الكلام رفض يوسف طلب امرأة العزيز غير المشروع .. وأعلمها أنّه لن يستسلم لإرادتها. وأفهمها ضمناً ـ كما أفهم كلّ إنسان ـ أنّه في مثل هذه الظروف الصعبة لا سبيل إلى النجاة من وساوس الشيطان وإغراءاته إلّا بالالتجاء إلى الله .. الله الذي لا فرق عنده بين السرّ والعلن، بين الخلوة والإجتماع، فهو مطّلع ومهيمن على كلّ شيء، ولا شيء إلّا وهو طوع أمره وإرادته!

وبهذه الجملة إعترف يوسف بوحدانية الله تعالى من الناحية النظرية، وكذلك من الناحية العملية أيضاً، ثمّ أضاف ﴿إنّه ربّي أحسن مثواي﴾ .. أليس التجاوز ظُلماً وخيانةً واضحة ﴿إنّه لا يفلح الظالمون﴾ [2].

عاصفة في قلب يوسف

وهنا يبلغ أمر يوسف وامرأة العزيز إلى أدقّ مرحلة وأخطرها، حيث يعبّر القرآن عنه تعبيراً ذا مغزى كبير ﴿ولقد همّت به وهمّ بها لولا أن رأى برهان ربّه﴾.

---

١ ـ يوسف، ٢٣.

٢ ـ يوسف، ٢٣.

إنّه كان في قصر امرأة عزيز مصر صنم تعبده، وفجأةً وقعت عيناها عليه، فكأنّها أحسّت بأنّ الصنم ينظر إلى حركاتها الخيانيّة بغضب، فنهضت وألقت عليه ستراً، فاهتزّ يوسف لهذا المنظر، وقال: أنت تستحين من صنم لا يملك عقلاً ولا شعوراً ولا إحساساً، فكيف لا أستحيي من ربّي الخبير بكلّ شيء، والذي لا تخفى عليه خافية؟.

فهذا الإحساس منح يوسف قوّة جديدة، وأعانه على الصراع الشديد في أعماق نفسه بين الغريزة والعقل، ليتمكّن من التغلّب على أمواج الغريزة في نفسه.[1]

يقول القرآن المجيد: **﴿كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنّه كان من عبادنا المخلصين﴾**[2].

وهي إشارة إلى أنّ هذا الإمداد الغيبي والإعانة المعنوية لإنقاذ يوسف من السوء والفحشاء من قبل الله لم يكن إعتباطاً، فقد كان عبداً عارفاً مؤمناً ورعاً ذا عمل صالح طهّر قلبه من الشرك وظلماته، فكان جديراً بهذا الإمداد الإلهي.[3]

---

١ ـ أمّا الرّوايات التي لا سند لها والتي ينقلها البعض، والتي مؤدّاها أنّ يوسف صمّم على الذنب، ولكنّه لاحظ فجأةً حالة من المكاشفة بين جبرئيل ويعقوب وهو يعضّ على إصبعه، فرأى يوسف هذا المنظر وتخلّف عن إقدامه على هذا الذنب .. فهذه الرّوايات ليس لها أي سندٍ معتبر .. وهي روايات إسرائيلية أنتجتها الذهنيات البشرية الضيّقة التي لم تدرك مقام النبوّة أبداً.

٢ ـ يوسف، ٢٤.

٣ ـ العفّة والمتانة في البيان

من عجائب القرآن وواحدة من أدلّة الإعجاز، أنّه لا يوجد في تعبيره ركّة وإبتذال وعدم العفّة وما إلى ذلك، كما أنّه لا يتناسب مع أُسلوب الفرد العادي الأُمّي الذي تربّى في محيط الجاهليّة، مع أنّ حديث كلّ أحد يتناسب مع محيطه وأفكاره!.

وبين جميع قصص القرآن وأحداثه التي ينقلها توجد قصّة غرام وعشق واقعية، وهي قصّة (يوسف وامرأة عزيز مصر).

قصّة تتحدّث عن عشق امرأة جميلة والهة ذات أهواء جامحة لشاب جميل طاهر القلب.

أصحاب المقالات والكتاب حين يواجهون مثل هذا الأمر .. إمّا أن يتحدّثوا عن أبطال القصّة بأن يطلقوا للقلم أو اللسان العنان، حتّى تظهر في (البين) تعابير مثيرة وغير أخلاقية كثيرة.

وإمّا أن يحافظوا على العفّة والنزاهة في القلم واللسان، فيحوّلوا القصّة إلى القرّاء أو السامعين بشكل غامض ومبهم.

فضيحة امرأة العزيز!!

المقاومة الشديدة التي أبداها يوسف جعلت امرأة العزيز آيسة منه تقريباً .. ولكن يوسف الذي إنتصر في هذا الدور على تلك المرأة المعاندة أحسّ أنّ بقاءه في بيتها ـ في هذا المزلق الخطر ـ غير صالح، وينبغي أن يبتعد عنه، ولذلك أسرع نحو باب القصر ليفتحه ويخرج، ولم تقف امرأة العزيز مكتوفة الأيدي، بل أسرعت خلفه لتمنعه من الخروج، وسحبت قميصه من خلفه فقدّته ﴿واستبقا الباب وقدّت قميصه من دُبُر﴾.

وعلى كلّ حال فقد أوصل يوسف نفسه نحو الباب وفتحه فرأيا «يوسف وامرأة العزيز» عزيز مصر خلف الباب فجأةً. يقول القرآن الكريم: ﴿وألفيا سيّدها لدى الباب﴾.

في هذه اللحظة التي رأت امرأة العزيز نفسها على أبواب الفضيحة من جهة، وشعلة الإنتقام تتأجّج في داخلها من جهة أُخرىٰ، كان أوّل شيء توجّهت إليه أن تخاطب زوجها متظاهرة بمظهر الحقّ متّهمة يوسف إذ ﴿قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلّا أن يسجن أو عذاب أليم﴾.

من الطريف هنا أنّ هذه المرأة الخائنة نسيت نفسها أنّها امرأة العزيز حينما كانت لوحدها مع يوسف، ولكن عندما وجدت نفسها مشرفة على الإفتضاح، عبّرت عن نفسها بأنّها أهله لتثير فيه إحساس الغيرة! فهي خاصّة به ولا ينبغي لأحدٍ أن يلقي عليها نظرات الطمع!!

والأمر الآخر أنّ امرأة العزيز لم تقل إنّ يوسف كان يريد السوء بي، بل تحدّثت عن ما

فالكاتب أو صاحب المقال مهما كان ماهراً يبتلى بواحد من هذين الإشكالين، ترى هل يعقل أنّ فرداً لم يدرس يرسم رسماً دقيقاً وكاملاً لفصول مثل هذا العشق المثير، دون أن يستعمل أقلّ تعبير مهيّج وبعيد عن العفّة؟!

ولكنّ القرآن يمزج في رسم هذه الميادين الحسّاسة من هذه القصّة ـ بأُسلوب معجب ـ الدقّة في البيان مع المتانة والعفّة، دون أن يغضّ الطرف عن ذكر الوقائع، أو أن يظهر العجز، وقد إستعمل جميع الأُصول الأخلاقية والأُمور الخاصّة بالعفّة.

ونعرف أنّ أخطر ما في هذه القصّة ما جرى في «خلوة العشق» وما أظهرته امرأة العزيز بإبتكارها وهواها.

والقرآن يتناول كلّ ما جرى من حوادث ويتحدّث عنها دون أن يظهر أقلّ إنحراف من أُصول العفّة.

يستحقّه من الجزاء مع عزيز مصر، فكأنّ أصل المسألة مسلّم به!! والكلام عن كيفية الجزاء.

وهذا التعبير المدروس الذي كان في لحظة إضطراب ومفاجأة للمرأة يدلّ على شدّة إحتيالها.

ثمّ إنّ التعبير عن السجن أوّلاً، ثمّ عدم قناعتها بالسجن وحده، إذ تتجاوز هذا الحكم إلى العذاب الأليم أو «الإعدام» مثلاً.

ولكن يوسف أدرك أنّ السكوت هنا غير جائز .. فأماط اللثام عن عشق امرأة العزيز **﴿وقال هي راودتني عن نفسي﴾** [1].

وطبيعي أنّ مثل هذا الحادث من العسير تصديقه في البداية، أي إنّ شابّاً يافعاً غير متزوّج لا يُعدّ آثماً، ولكن امرأة متزوّجة ذات مكانة إجتماعية ـ ظاهراً ـ آثمة! فلذلك كانت أصابع الإتّهام تشير إلى يوسف أكثر من امرأة العزيز.

وشهد شاهد من أهلها

حيث أنّ الله حامي الصالحين والمخلصين فلا يرضى أن يحترق هذا الشاب المجاهد بشعلة الإتّهام، لذلك يقول القرآن في هذا الصدد: **﴿وشهد شاهد من أهلها إن كان قميصه قدّ من قُبلٍ فصدقت وهو من الكاذبين وإن كان قميصه قدّ من دُبر فكذبت وهو من الصادقين﴾**.

وأي دليل أقوى من هذا الدليل، لأنّ طلب المعصية إن كان من طرف امرأة العزيز فقد ركضت خلف يوسف وقدّت قميصه من دُبر، لأنّه كان يريد الفرار فأمسكت بثوبه فقدّته، وإذا كان يوسف هو الذي هجم عليها وهي تريد الفرار أو وقفت أمامه للمواجهة والدفاع، فمن المسلّم أن يُقدّ قميص يوسف من قُبل! وأيّ شيء أعجب من أن تكون هذه المسألة البسيطة «خرق الثوب» مؤشّراً على تغيير مسير حياة بريء وسنداً على طهارته ودليلاً على إفتضاح المجرم!.

أمّا عزيز مصر فقد قبل هذا الحكم الدقيق، وتحيّر في قميص يوسف ذاهلاً: **﴿فلمّا رأى قميصه قُدّ من دُبر قال إنّه من كيدكن إنّ كيدكن عظيم﴾**.

في هذه الحال، ولخوف عزيز مصر من إنتشار خبر هذا الحادث المؤسف على الملأ،

---

١ ـ يوسف، ٢٦ ـ ٢٥.

فتسقط منزلته وكرامته في مصر رأى أنّ من الصلاح كتمان القضيّة، فالتفت إلى يوسف وقال: ﴿يُوسفُ أعرض عن هذا﴾ أي أُكتم هذا الأمر ولا تخبر به أحداً .. ثمّ التفت إلى امرأته وقال: ﴿واستغفري لذنبك إنّك كنت من الخاطئين﴾ [١].

من كان الشاهد؟!

هناك أقوال في الشاهد الذي ختم «ملفّ يوسف وامرأة العزيز» بسرعة، وأوضح البريء من المسيء من هو؟

قال بعضهم: هو أحد أقارب امرأة العزيز، وكلمة «من أهلها» دليل على ذلك .. وعلى القاعدة فهو رجل حكيم وعارف ذكي بحيث إستطاع أن يستنبط الحكم من قدّ الثوب دون أن يكون لديه شاهد أو بيّنة. بل إكتشف حقيقة الحال .. ويقال: إنّ هذا الرجل كان من مشاوري عزيز مصر وكان معه.

الرأي الآخر: إنّ الشاهد كان طفلاً رضيعاً من أقارب امرأة العزيز وكان على مقربةٍ من الحادث، وكان يوسف قد طلب من عزيز مصر أن يحتكم إلى هذا الطفل، فتعجّب عزيز مصر من هذا الطلب .. تُرى هل يمكن هذا؟! لكن «الطفل» حين تكلّم ـ كما تكلّم المسيح عليه السلام في المهد ـ وأعطى هذا المعيار لمعرفة البريء من المسيىء، التفت عزيز مصر إلى أنّ يوسف ليس غلاماً (عاديّاً) بل هو نبي أو متنبّي [٢].

مؤامرة أُخرىٰ

بالرغم من أنّ عشق امرأة العزيز المذكور آنفاً كان ـ مسألة خصوصية ـ بحيث أكّد حتّى العزيز على كتمانها، ولكن حيث أنّ هذه الأسرار لا تبقى خافية، ولا سيّما في قصور الملوك وأصحاب المال والقوّة ـ التي في حيطانها آذان صاغية ـ فسوف تتسرّب إلى خارج القصر كما يقول القرآن في هذا الشأن: ﴿وقال نسوة في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه

---

١ ـ يوسف ٢٩ ـ ٢٧.

٢ ـ نقل عن الإمام الصادق أنّ شاهد يوسف كان طفلاً في المهد. ولكن ينبغي الإلتفات إلى أنّ أيّاً من الحديثين المتقدّمين ليس له سند قوي.

قد شغفها حبّاً﴾ ثمّ لُمْنَها وعَنَّفنها بهذه الجملة ﴿إنّا لنراها في ضلال مبين﴾[١]. وواضح أنّ المتحدّث بمثل هذا الكلام كنّ نساء أشراف مصر حيث كانت أخبار القصور المفعمة بفساد الفراعنة والمستكبرين مثيرةً لهنّ وكنّ يستقصينها دائماً.

لم يكن فساد هؤلاء النسوة بأقلّ من امرأة العزيز ولكنّ أيديهنّ لم تصل إلى يوسف، وكما يقول المثل ـ «العين بصيرة واليد قصيرة» فكنّ يرين امرأة العزيز بسبب هذا العشق في ضلال مبين.

ويقول البعض: إنّ إذاعة هذا السرّ من قبل هذه المجموعة من نساء مصر، كانت خطّة لتحريك امرأة العزيز حتّى تدعوهنّ إلى قصرها لتكشف لهنّ عن براءتها وتريهن يوسف وجماله!

ولعلّهنّ كنّ يتصوّرن أنّ يوسف إذا رآهنّ بهره جمالهنّ، وربّما رآهنّ أجمل من امرأة العزيز، ولأنّ يوسف كان يحترم امرأة العزيز إحترام الولد لوالدته ـ أم مربّيته ـ فهو لا يطمع فيها، ولهذا السبب يكون إحتمال نفوذهنّ إلى قلبه أقوى من نفوذ امرأة العزيز إليه!.

هناك مسألة جديرة بالإلتفات وهي: من الذي أذاع هذا السرّ؟ هل كان من امرأة العزيز التي لم ترغب في هذه الفضيحة أبداً! أو من قبل العزيز نفسه! وكان يؤكّد على كتمان السرّ، أو القاضي الحكيم الذي حكم في الأمر، ويُستبعد منه هذا العمل؟!

وعلى كلّ حال فإنّ مثل هذه المسائل في هذه القصور المفعمة بالفساد لا تبقى طيّ الكتمان، وأخيراً فإنّها تنتقل على ألسنة الذين يظهرون الحرص على شرف القصر وتنتشر، ومن الطبيعي أن يضيف عليها آخرون أوراقاً وأغصاناً.

دخول يوسف على نساء مصر

أمّا امرأة العزيز فقد وصلها ما دار بين النسوة من إفتضاحها ﴿فلمّا سمعت بمكرهنّ أرسلت إليهنّ واعتدت لهنّ متكئاً وأتت كلّ واحدة منهنّ سكيناً﴾.

هذا العمل دليل على أنّ امرأة العزيز لم تكن تكترث بزوجها، ولم تأخذ الدرس من فضيحتها، ثمّ أمرت يوسف أن يتخطّى في المجلس ﴿وقالت أُخرج عليهن﴾ وتعبير ﴿أُخرج

---

١ ـ يوسف، ٣٠.

عليهن﴾ بدلاً من «أُدخل» يشير إلى أنّها كانت أخفت يوسف داخل البيت، أو جعلته مشغولاً في إحدى الغرف التي يوضع فيها الغذاء عادةً حتّى يكون دخوله إلى المجلس مفاجأة للجميع.

قطّعن ايديهنّ

نساء مصر ـ وطبقاً لبعض الرّوايات التي تقول: كنّ عشراً .. أو أكثر ـ فوجئن بظهور يوسف كأنّه البدر أو الشمس الطالعة، فتحيّرن من جماله ﴿فلمّا رأينه أكبرنه﴾ وفقدن أنفسهنّ ﴿وقطّعن أيديهن﴾ مكان الفاكهة، وحين وجدن الحياء والعفّة تشرقان من عينيه وقد احمّر وجهه خجلاً صحن جميعاً و ﴿قلن حاشا لله ما هذا بشراً إن هذا إلّا ملك كريم﴾ [١].[٢]

لماذا اللّوم على عشق يوسف؟

وفي هذه الحال التي كانت الدماء تسيل من أيدي النسوة وقد لاحظن ملامح يوسف كلّها وصرن أمامه «كالخُشُبِ المسنَّدة» كشفن عن أنّهن لسن بأقل من امرأة العزيز عشقاً ليوسف، فاستغلّت امرأة العزيز هذه الفرصة فـ﴿قالت فذالكن الذي لمتنّني فيه﴾.

فكأنّ امرأة العزيز أرادت أن تقول لهنّ: لقد رأيتن يوسف مرّة واحدة فحدث ما حدث وفقدتُنّ صوابكن وقطعتن أيديكن من جماله وعشقه، فكيف اُلام وأنا أراه وأسكن معه ليل نهار؟!

وهكذا أحسّت امرأة العزيز بالغرور لأنّها وُفّقت في ما ألقته من فكرة وأعطت لنفسها العذر، وإعترفت بكلّ صراحة بكلّ ما فعلت وقالت: ﴿ولقد راودته عن نفسه فاستعصم﴾.

وبدلاً من أن تظهر الندم على كلامها أو تتحفّظ على الأقل أمام ضيوفها، أردفت القول بكلّ جدّ يحكي عن إرادتها القطعيّة: ﴿ولئن لم يفعل ما آمره ليسجننّ﴾ ... ولا أكتفي بسجنه، بل ﴿وليكوناً من الصاغرين﴾[٣].

---

١ ـ يوسف، ٣١.

٢ ـ وهناك أقوال في أنّ النسوة إلى أي حدّ قطّعن أيديهن؟ فمنهم من بالغ في الأمر، ولكن كما يستفاد من القرآن على نحو الإجمال أنّهن جرحن أيديهنّ.

٣ ـ يوسف، ٣٢.

ومن الطبيعي أنّه إذا اكتفى عزيز مصر إزاء خيانة امرأته بالقول: ﴿**استغفري لذنبك**﴾ فينبغي أن تجرّ امرأته الفضيحة إلى هذه المرحلة .. وأساساً فإنّ مثل هذه الأُمور والمسائل في قصور الفراعنة والملوك ليست أُموراً مهمّة.

استسلم يا يوسف

إنّ بعضاً من نسوة مصر أعطين الحقّ لامرأة العزيز ودرن حول يوسف ليرغبّنه بأن يستسلم لحبّها وكلّ واحدة تكلّمت بكلام!

فقالت واحدة: أيّها الشاب ما هذا الصبر والدلال، ولِمَ لا ترحم هذه العاشقة الواهبة قلبها لك، ألا ترى هذا الجمال الآسر؟ أليس عندك قلب؟! ألست شابّاً؟ ألا تستلذّ بالعشق والجمال، فهل أنت حجارة أو خشب؟!

وقالت الثّانية: إذا كنت لا تعرف عن الجمال والعشق شيئاً .. لكن ألا تدري أنّ امرأة العزيز ذات نفوذ وقدرة .. ألا تفكّر أن لو ملكت قلبها فستنال كلّ شيء وتبلغ أيّ مقام شئت ...

وقالت الثّالثة: إذا كنت لا ترغب في جمالها المثير ولا تحتاج إلى مقامها ومالها، ولكن ألا تعرف أنّها ستنتقم لنفسها بما أُوتيت من وسائل الإنتقام الخطرة، ألا تخاف من السجن ووحشته ومن الغربة المضاعفة فيه؟!

ربّ السجن أحبّ إليّ

تهديد امرأة العزيز من جانبها بالسجن والإذلال من جهة، ووساوس النسوة الملوّثات اللائي خطّطن ليوسف كما يخطّط الدلّال من جهة أُخرىٰ، أوقعا يوسف في أزمة شديدة، وأحاط به طوفان المشاكل، ولكن حيث أنّ يوسف كان قد صنع نفسه، وقد أوجد نور الإيمان والعفّة والتقوى في قلبه هدوءاً وسكينة خاصّة، فقد صمّم بعزم وشجاعة والتفت نحو السّماء ليناجي ربّه وهو في هذه الشدّة ﴿**قال ربّ السجن أحبّ إليّ ممّا يدعونني إليه**﴾.

وحيث كان يدري أن لا مهرب له إلّا إلى الله في جميع الأحوال ولا سيما في الساعات الحرجة، فقد أودع نفسه عند الله بهذا الكلام ﴿**وإلّا تصرف عنّي كيدهن أصبُ إليهنّ وأكن من الجاهلين**﴾.

ربّاه ... إنّني أتقبّل السجن الموحش رعاية لأمرك وحفظاً لطهارة نفسي ... هذا السجن

تتحرّر فيه روحي وتطهّر نفسي، وأنا أرفض هذه الحريّة الظاهرية التي تأسر روحي في سجن «الشهوة» وتلوّث نفسي.

ربّاه .. أعِنّي، وهب لي القوّة، وزدني قدرةً وعقلاً وإيماناً وتقوى، حتّى أنتصر على هذه الوساوس!

وحيث أنّ وعد الله حقّ، وأنّه يُعين المجاهد (لنفسه أو لعدوّه) فإنّه لم يترك يوسف سُدىً وتلقفته رحمته ولطفه كما يقول القرآن الكريم: ﴿فاستجاب له ربّه فصرف عنه كيدهن إنّه هو السميع العليم﴾[1].

فهو يسمع نجوى عبيده، وهو مطلع على أسرارهم، ويعرف طريق الحلّ لهم.

السّجن بسبب البراءة

إنتهى المجلس العجيب لنسوة مصر مع يوسف في قصر العزيز في تلك الغوغاء والهياج، ولكنّ خبره ـ بالطبع ـ وصلَ إلى سمع العزيز .. ومن مجموع هذه المجريات إتّضح أنّ يوسف لم يكن شابّاً عادياً، بل كان طاهراً لدرجة لا يمكن لأي قوّةٍ أن تجرّه إلى الإنحراف والتلوّث، واتّضحت علامات هذه الظاهرة من جهات مختلفة، فتمزّق قميصه من دُبر، ومقاومته أمام وساوس نسوة مصر، وإستعداده لدخول السجن وعدم الإستسلام لتهديدات امـرأة العـزيز بالسجن والعذاب الأليم، كلّ هذه الأُمور أدلّة على طهارته لا يمكن لأحد أن يسدل عليها الستار أو ينكرها!.

ولازم هذه الأدلّة إثبات عدم طهارة امرأة العزيز وإنكشاف جريمتها، وعلى أثر ثبوت هذه الجريمة فإنّ الخوف من فضيحة جنسية في أُسرة العزيز كان يزداد يوماً بعد يوم.

فكان الرأي بعد تبادل المشورة بين العزيز ومستشاريه هو إبعاد يوسف عن الأنظار لينسى الناس إسمه وشخصه، وأحسن السبل لذلك إيداعه قعر السجن المظلم أوّلاً، وليشـيع بـين الناس أنّ المذنب الأصلي هو يوسف ثانياً، لذلك يقول القرآن في هذا الصدد: ﴿ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننّه حتّى حين﴾[2].

---

١ ـ يوسف، ٣٤ ـ ٣٣.

٢ ـ يوسف، ٣٥.

إنّ مثل هذا التصميم في حقّ يوسف لم يكن من قبل. ويحتمل أن تكون هذه الفكرة إقترحتها امرأة العزيز لأوّل مرّة .. وبهذا دخل يوسف النزيه ـ بسبب طهارة ثوبه ـ السجن، وليست هذه أوّل مرّة ولا آخرها أن يدخل الإنسان النزيه «بجريرة نزاهته» السجن!!

أحداث السجن

ومن جملة السجناء الداخلين مع يوسف فتيان ﴿**ودخل معه السجن فتيان**﴾.

وحيث أنّ من الظروف لم تكن تسمح للإنسان أن يحصل فيها على الأخبار بطريق عادي، فإنّه يأنس لأحاسيس الآخرين ليبحث عن مسير الحوادث ويتوقّع ما سيكون، حتّى أنّ الرؤيا وتعبيرها عنده يكون مطلباً مهمّاً.

من هذا المنطلق جاء ليوسف يوماً هذان الفتيان اللذان يقال: إنّ أحدهما كان ساقياً في بيت الملك، والآخر كان مأموراً للطعام والمطبخ، وبسبب وشاية الأعداء وسعايتهم بهما دخلا السجن بتهمة التصميم لسمّ الملك، وتحدّث كلّ منهما عن رؤيا رآها الليلة الفائتة وكانت بالنسبة له أمراً عجيباً.

﴿**قال أحدهما إنّي أراني أعصر خمراً وقال الآخر إنّي أراني أحمل فوق رأسي خبزاً تأكل الطير منه**﴾ ثمّ أضافا ﴿**نبّئنا بتأويله إنّا نراك من المحسنين**﴾[1].

معتقل أو معقل تربية

إغتنم يوسف مراجعة السجينين له لتعبير الرؤيا ـ وكان لا يدع فرصة لإرشاد السجناء ونصحهم ـ وبحجّة التعبير كان يبيّن حقائق مهمّة تفتح لهم السُبُل ولجميع الناس أيضاً.

في البداية، ومن أجل أن يستلفت إهتمامهما وإعتمادهما على معرفته بتأويل الأحلام الذي كان مثار إهتمامهما وتوجّههما ﴿**قال لا يأتيكما طعام ترزقانه إلّا نبّأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما**﴾.

وبهذا فقد طمأنهما أنّهما سيجدان ضالّتهما قبل وصول الطعام إليهما.

﴿**ذلكما ممّا علّمني ربّي**﴾ ولئلّا يتصوّر أنّ الله يمنح مثل هذه الأُمور دون حساب، قال

---

١ ـ يوسف، ٣٦.

﴿إنّي تركت ملّة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون﴾.

والمقصود بهذه الملّة أو الجماعة هم عبدة الأصنام بمصر أو عبدة الأصنام بكنعان.

وينبغي لي أن أترك مثل هذه العقائد لأنّها على خلاف الفطرة الإنسانية النقيّة، ثمّ إنّي تربّيت في أُسرة الوحي والنبوّة ﴿واتّبعت ملّة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب﴾[١].

ولعلّ هذه هي أوّل مرّة يعرّف يوسف نفسه للسجناء بهذا التعريف، ليعلموا أنّه سليل الوحي والنبوّة وقد دخل السجن بريئاً .. كبقيّة السجناء الأبرياء في حكومة الطواغيت.

تعبير رؤيا السجناء

وبعد أن أرشد يوسف صاحبي سجنه ودلّهما ودعاهما إلى حقيقة التوحيد، بدأ بتعبير الرؤيا لهما، وقال: **﴿ياصاحبي السجن أمّا أحدكما فيسقي ربّه خمراً وأمّا الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه﴾**.

وبالرغم من تناسب كلّ رؤيا مع ما عبّره يوسف، فكان معلوماً إجمالاً مَن الذي يطلق من السجينين؟ ومن الذي يصلب منهما؟ إلّا أنّ يوسف لم يرغب في أن يُبيّن التعبير بصراحة أكثر من هذه .. خاصّة وأنّ فيه خبراً غير مريح، لذلك جعل التعبير تحت عنوان «أحدكما».

ثمّ أضاف مؤكداً ﴿قُضي الأمر الذي فيه تستفتيان﴾[٢] وهو إشارة إلى أنّ هذا التعبير ليس تعبيراً ساذجاً، بل هو من أنباء الغيب التي تعلّمها من الله، فلا مجال للترديد والكلام بعد هذا.

السجين الثّاني الذي سمع بالخبر المزعج أخذ يكذّب رؤياه ويقول: كنت أمزح معك، ظانّاً أنّ مصيره سيتبدّل بهذا التكذيب، فعقّب عليه يوسف بالجملة المتقدّمة!

اذكرني عند ربّك

وحين أحسّ يوسف أنّ السجينين سينفصلان عنه عاجلاً، ومن أجل أن يجد يوماً يُطلق فيه ويُبرّأ من هذه التهمة، أوصى أحد السجينين الذي كان يعلم أنّه سيطلق أن يذكره عند الملك ﴿وقال للذي ظنّ أنّه ناجٍ منهما اُذكرني عند ربّك﴾ لكن هذا الغلام «الناسي» مثله مثل

---

١ ـ يوسف، ٣٨ ـ ٣٧.

٢ ـ يوسف، ٤١.

الأفراد قليلي الإستيعاب، ما إن يبلغوا نعمةً ما حتّى ينسوا صاحبها، وهكذا نسـي يـوسف تماماً، ولكن القرآن عبّر عن ذلك بقوله: ﴿فأنساه الشيطان ذكر ربّه﴾ وهكذا أصبح يوسف منسيّاً ﴿فلبث في السجن بضع سنين﴾[١][٢].

في حديث عن النّبيﷺ أنّه قال: «عجيب من أخي يوسف كيف إستغاث بالمخلوق دون الخالق؟» وروي أنّه قال: «لو لا كلمته ما لبث في السجن طول ما لبث» يعني قوله ﴿أُذكرني عند ربّك﴾.

وروي عن أبي عبدالله الصادق عليه السلام قال: «جاء جبرئيل عليه السلام فقال: يايوسف من جعلك أحسن الناس؟ قال: ربّي، قال: فمن حبّبك إلى أبيك دون إخوانك؟ قال: ربّي، قال: فمن ساق إليك السيارة؟ قال: ربّي، قال: فمن صرف عنك الحجارة؟ قال: ربّي، قال: فمن أنقذك من الجُبّ؟ قال: ربّي، قال: فمن صرف عنك كيد النسوة؟ قال: ربّي، قال: فإنّ ربّك يقول: ما دعاك إلى أن تنزل حاجتك بمخلوق دوني؟ البث بالسجن بما قلت بضع سنين».

رؤيا ملك مصر وما جرى له

بقي يوسف سنين في السجن المظلم كأي إنسان منسيّ، ولم يكن لديه من عمل إلّا بناء شخصيته، وإرشاد السجناء وعيادة مرضاهم وتسلية الموجَعين منهم.

حتّى غيّرت (حظّه وطالعه) حادثة صغيرة بحسب الظاهر .. ولم تغيّر هذه «الظاهرة» حظّه فحسب، بل حظّ أُمّة مصر وما حولها.

لقد رأى ملك مصر الذي يقال أنّ إسمه هو «الوليد بن الرّيان» وكان «عزيز مصر وزيره» رأى هذا الملك رؤيا مهولة، فأحضر عند الصباح المعبّرين للرؤيا ومن حوله فقصّ عـليهم رؤياه ﴿وقال الملك إنّي أرى سبع بقرات سمان يأكلهنّ سبع عجاف وسبع سنبلات خـضر

---

١ ـ يوسف، ٤٢.

٢ ـ ما من شكّ من أنّ يوسف توسّل بالغير في سبيل نجاة نفسه!

وبديهي أنّ مثل هذا التوسّل للنجاة من السجن ومن سائر المشاكل، ليس أمراً غريباً بالنسبة للأفراد العاديين، وهو من قبيل التوسّل بالأسباب الطبيعية، ولكن بالنسبة للأفراد الذين هم قدوة وفي مكانة عالية من الإيمان والتوحيد، لا يمكن أن يخلو من إيراد، ولعلّ هذا كان سبباً في بقاء يوسف فـي السجن بضع سنين، إذ لم يرض الله سبحانه ليوسف «ترك الأَولىٰ»!.

وأُخر يابسات﴾ ثمّ إلتفت إليهم طالباً منهم تعبير رؤياه فقال: ﴿ياأيّها الملأ أفتوني في رؤياي إن كنتم للرؤيا تعبرون﴾.

ولكن حاشية السلطان وجموا إزاء هذه الرؤيا و ﴿قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين﴾[١].

هنا يرد سؤال، وهو: كيف تجرّأ هؤلاء أمام السلطان، بقولهم جواباً لسؤاله عن رؤياه إنّها ﴿أضغاث أحلام﴾ في حين أنّ المعروف عند حاشية السلطان أنّ تفلسف كلّ حركة منه ولو كانت بغير معنى يفسّرونها تفسيراً مقبولاً.

من الممكن أنّهم رأوا الملك مهموماً من هذه الرؤيا، وكان من حقّه ذلك لأنّه رأى ﴿سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأُخر يابسات﴾.

ألا يدلّ ذلك على أنّ من الممكن أنّ أفراداً ضعافاً يتسلّمون السلطة من يده على حين غرّة!؟!

لذلك قالوا له: ﴿أضغاث أحلام﴾ ليرفعوا الكدورة عن خاطره، أي: لا تتأثّر فما هنالك أمر مهم، وهذه الأحلام لا يمكن أن تكون دليلاً على أي شيء.

ساقي الملك يتذكّر يوسف

وهنا تذكّر ساقي الملك ما حدث له ولصاحبه في السجن مع يوسف، ونجا من السجن كما بشّره يوسف ﴿وقال الذي نجا منهما وادّكر بعد أُمّة أنا أُنبّئكم بتأويله فارسلون﴾.

أجل في زاوية السجن يعيش رجل حيّ الضمير طاهر القلب مؤمن وقلبه مرآة للحوادث المستقبلية، إنّه الذي يستطيع أن يكشف الحجاب عن هذه الرؤيا المغلقة ويعبّرها.

جملة ﴿فارسلون﴾ تشير إلى أنّ من الممكن أن يكون يوسف ممنوع المواجهة، وكان الساقي يريد أن يأذن الملك ومن حوله بمواجهته لهذا الشأن.

وهكذا حرّك كلام الساقي المجلس وشخصت الأبصار نحوه، وطلبوا منه الإسراع بالذهاب إليه والإتيان بالخبر.

مضى الساقي إلى السجن ليرى صديقه القديم .. ذلك الصديق الذي لم يفِ بوعده له، لكنّه

---

١ ـ يوسف، ٤٣.

ربّما كان يعرف أنّ شخصية يوسف الكريمة تمنعه من فتح «باب العتاب» فالتفت إليه وقال: **﴿يوسفُ أيّها الصدّيق أفتنا في سبع بقرات سمان يأكلهنّ سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأُخر يابسات لعلّي أرجع إلى الناس لعلّهم يعلمون﴾**.

إنّ يوسف دون أن يطلب شرطاً أو قيداً أو أجراً لتعبيره، عبّر الرؤيا فوراً تعبيراً دقيقاً لا غموض فيه ولا حجاب مقروناً بما ينبغي عمله في المستقبل و **﴿قال تزرعون سبع سنين دأباً فما حصدتم فذروه في سنبله إلّا قليلاً ممّا تأكلون﴾**.

ثمّ إنّه يحلّ بكم القحط لسبع سنين متوالية فلا أمطار ولا زراعة كافية، فعليكم بالإستفادة ممّا جمعتم في سنيّ الرخاء **﴿ثمّ يأتي بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدّمتم لهنّ﴾**.

ولكن عليكم أن تحذروا من إستهلاك الطعام **﴿إلّا قليلاً ممّا تحصنون﴾** وإذا واظبتم على هذه الخطّة فحينئذٍ لا خطر يهدّدكم لأنّه **﴿ثمّ يأتي من بعد ذلك عام فيه يُغاث الناس﴾** ..

و **﴿يغاث الناس﴾** أي يدركهم الغيث فتكثر خيراتهم، وليس هذا فحسب، بل **﴿فيه يعصرون﴾**[1] المحاصيل لإستخراج الدهن والفاكهة لشراب عصيرها .. الخ.

سجين مصر أو قائد مخطّط

كم كان تعبير يوسف لهذه الرؤيا دقيقاً ومحسوباً، حيث كانت البقرة في الأساطير القديمة مظهر «السنة» .. وكون البقرات سماناً دليل على كثرة النعمة، وكونها عجافاً دليل على الجفاف والقحط، وهجوم السبع العجاف على السبع السّمان كان دليلاً على أن يُستفاد من ذخائر السنوات السابقة.

وسبع سنبلات خضر وقد أحاطت بها سبع سنبلات يابسات تأكيد آخر على هاتين الفترتين فترة النعمة وفترة الشدّة.

إضافةً إلى انّه أكّد له على هذه المسألة الدقيقة، وهي خزن المحاصيل في سنابلها لئلّا تفسد بسرعة وليكون حفظها إلى سبع سنوات ممكناً.

وكون عدد البقرات العجاف والسنابل اليابسات لم يتجاوز السبع لكلّ منهما دليل آخر على إنتهاء الجفاف والشدّة مع إنتهاء تلك السنوات السبع .. وبالطبع فإنّ سنةً سيأتي بعد هذه

---

١ ـ يوسف، ٤٩ ـ ٤٥.

السنوات سنة مليئة بالخيرات والأمطار، فلابدّ من التفكير للبذر في تلك السنة وأن يحتفظوا بشيء ممّا يخزن لها.

في الحقيقة لم يكن يوسف مفسّراً بسيطاً للأحلام، بل كان قائداً يخطّط من زاوية السجن لمستقبل البلاد، وقد قدّم مقترحاً من عدّة مواد لخمسة عشر عاماً على الأقل، وكما سنرى فإنّ هذا التعبير المقرون بالمقترح للمستقبل حرّك الملك وحاشيته وكان سبباً لإنقاذ أهل مصر من القحط القاتل من جهة، وأن ينجو يوسف من سجنه وتخرج الحكومة من أيدي الطغاة من جهة أُخرىٰ.

تبرئة يوسف من كلّ إتّهام!

لقد كان تعبير يوسف لرؤيا الملك دقيقاً ومدروساً ومنطقياً إلى درجة أنّه جذب الملك وحاشيته إليه، إذ كان يرى أنّ سجيناً مجهولاً عبّر رؤياه بأحسن تعبير وتحليل، دون أن ينتظر أيّ أجر أو يتوقّع أمراً ما .. كما أنّه أعطى للمستقبل خطّة مدروسة أيضاً.

لقد فهم الملك إجمالاً أنّ يوسف لم يكن رجلاً يستحقّ السجن، بل هو شخص أسمى مقاماً من الإنسان العادي، دخل السجن نتيجة حادث خفيّ، لذلك تشوّق لرؤيته، ولكن لا ينبغي للملك أن ينسى غروره ويسرع إلى زيارته، بل أمر أن يُؤتى به إليه كما يقول القرآن: **﴿وقال الملك ائتوني به فلمّا جاءه الرّسول﴾** لم يوافق يوسف على الخروج من السجن دون أن يثبت براءته، فالتفت إلى رسول الملك و **﴿قال ارجع إلى ربّك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطّعن أيديهنّ﴾** إذن .. فيوسف لم يرغب أن يكون كأي مجرم، أو على الأقل كأي متّهم يعيش مشمولاً بـ«عفو الملك» .. لقد كان يرغب أوّلاً أن يُحقّق في سبب حبسه، وأن تثبت براءته وطهارة ذيله، ويخرج من السجن مرفوع الرأس، كما يُثبت ضمناً تلوّث النظام الحكومي وما يجري في قصر وزيره!.

أجل لقد اهتمّ بكرامة شخصيته وشرفه قبل خروجه من السجن، وهذا هو نهج الأحرار.

الطريف هنا أنّ يوسف في عبارته هذه أبدى سموّاً في شخصيته إلى درجة أنّه لم يكن مستعدّاً لأن يصرّح باسم امرأة العزيز التي كانت السبب المباشر في إتّهامه وحبسه، بل إكتفى بالإشارة إلى جماعة النسوة اللاتي لهنّ علاقة بهذا الموضوع فحسب.

ثمّ يضيف يوسف: إذا لم يعلم سبب سجني شعب مصر ولا جهازه الحكومي وبأي سبب

وصلت السجن، فالله مطّلع على ذلك **﴿إنّ ربّي بكيدهن عليم﴾**.

عاد المبعوث من قبل الملك إلى يوسف مرّة ثانية إلى الملك، وأخبره بما طلبه يوسف مع ما كان من إبائه وعلوّ همّته، لذا عظم يوسف في نفس الملك وبادر مسرعاً إلى إحضار النسوة اللائي شاركن في الحادثة، والتفت إليهنّ **﴿وقال ما خطبكنّ إذ راودتن يوسف عن نفسه﴾** يجب أن تقلنَ الحقّ .. هل إرتكب يوسف خطيئة أو ذنباً؟

فتيقّظ فجأةً الوجدان النائم في نفوسهنّ، وأجبنه جميعاً بكلام واحد ـ متّفق على طهارته و **﴿قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء﴾**[1].

اعتراف زليخا

أمّا امرأة العزيز التي كانت حاضرة أيضاً، وكانت تصغي بدقّة إلى حديث الملك ونسوة مصر، فلم تجد في نفسها القدرة على السكوت، ودون أن تُسأل أحسّت بأنّ الوقت قد حان لأن تنزّه يوسف وأن تعوّض عن تبكيت وجدانها وحيائها وذنبها بشهادتها القاطعة في حقّه، وخاصّة أنّها رأت كرم يوسف المنقطع النظير من خلال رسالته إلى الملك، إذ لم يعرّض فيها بالطعن في شخصيتها وكان كلامه عامّاً ومغلقاً تحت عنوان «**نسوة مصر**».

فكأنّما حدث إنفجار في داخلها فجأةً وصرخت و **﴿قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحقّ أنا راودته عن نفسه وإنّه لمن الصادقين﴾**.

ثمّ واصلت امرأة العزيز كلامها **﴿ذلك ليعلم أنّي لم أخنه بالغيب﴾** لأنّي عرفت بعد هذه المدّة الطويلة وما عندي من التجارب **﴿أنّ الله لا يهدي كيد الخائنين﴾**.

في الحقيقة[2] فانّها ومن أجل إعترافها الصريح بنزاهة يوسف وما أخطأته في حقّه، تقيم دليلين:

الأوّل: إنّ وجدانها، ويحتمل بقايا علاقتها بيوسف، لا تسمح لها أن تستر الحقّ أكثر من هذا، وأن تخون هذا الشاب الطاهر في غيابه.

الثّاني: إنّ من مشاهدة الدروس المليئة بالعبر على مرور الزمن تجلّت لها هذه الحقيقة،

---

١ ـ يوسف، ٥١ ـ ٥٠.

٢ ـ بناءً على أنّ الجملة المتقدّمة لإمرأة العزيز كما يقتضيه ظاهر العبارة.

وهي أنّ الله يرعى الصالحين ولا يوفّق الخائنين في مرادهم أبداً.

وبهذا بدأت الحجب تنقشع عن عينيها قليلاً قليلاً .. وتلمس حقيقة الحياة ولا سيّما في هزيمة عشقها الذي صنع غرورها وشخصيتها الخياليّة، وإنفتحت عيناها على الواقع أكثر، فلا عجب أن تعترف هذا الإعتراف الصريح.

وتواصل امرأة العزيز القول: ﴿وما أُبرىء نفسي إنّ النفس لأمّارة بالسوء إلّا ما رحم ربّي﴾ وبحفظه وإعانته نبقى مصونين، وأنا أرجو أن يغفر لي ربّي هذا الذنب ﴿إنّ ربّي غفور رحيم﴾[1].

يوسف أميناً على خزائن مصر

﴿وقال الملك ائتوني به أستخلصه لنفسي﴾.

وهكذا أمر الملك بإحضار يوسف لكي يجعله مستشاره الخاص ونائبه في المهمّات فيستفيد من علمه ومعرفته وخبرته لحلّ المشاكل المستعصية.

ثمّ أرسل الملك مندوباً لزيارته في السجن، فدخل عليه وأبلغه تحيات الملك وعواطفه القلبية تجاهه ثمّ قال له: إنّه قد لبّى طلبك في البحث والتحقيق عن نساء مصر وإتّهامهنّ إيّاك، حيث شهدن جميعهنّ صراحةً ببراءتك ونزاهتك فالآن لا مجال للتأخير، قم لنذهب إلى الملك.

فدخل يوسف على الملك وتكلّم معه فعندما سمع من يوسف الأجوبة التي تحكي عن علمه وفراسته وذكائه الحادّ، إزداد حبّاً له وقال: إنّ لك اليوم عندنا منزلة رفيعة وسلطات واسعة وإنّك في موضع ثقتنا وإعتمادنا ﴿فلمّا كلّمه قال إنّك اليوم لدينا مكين أمين﴾ فلابدّ أن تتصدّى للمناصب الهامّة في هذا البلد، وتهتمّ بإصلاح الأُمور الفاسدة، وإنّك تعلم (حينما فسّرت الرؤيا) بأنّ أزمة إقتصادية شديدة سوف تعصف بهذا البلد، وفي تصوّري إنّك الشخص الوحيد القادر على أن يتغلّب على هذه الأزمة.

فاختار يوسف منصب الأمانة على خزائن مصر، وقال إجعلني مشرفاً على خزائن هذا البلد فإنّي حفيظ عليم وعلى معرفة تامّة بأسرار المهنة وخصائصها ﴿قال إجعلني على خزائن الأرض إنّي حفيظ عليم﴾.

---

١ ـ يوسف، ٥٣ ـ ٥١.

كان يوسف يعلم أنّ جانباً كبيراً من الإضطراب الحاصل في ذلك المجتمع الكبير المليء بالظلم والجور يكمن في القضايا الإقتصادية، والآن وبعد أن عجزت أجهزة الحكم من حلّ تلك المشاكل وإضطرّوا لطلب المساعدة منه، فمن الأفضل له أن يسيطر على إقتصاد مصر حتّى يتمكّن من مساعدة المستضعفين وأن يخفّف عنهم ـ قدر ما يستطيع ـ الآلام والمصاعب ويستردّ حقوقهم من الظالمين. ويقوم بترتيب الأوضاع المترديّة في ذاك البلد الكبير، ويجعل الزراعة وتنظيمها هدفه الأوّل وخاصّةً بعد وقوفه على أنّ السنين القادمة هي سنوات الوفرة حيث تليها سنوات المجاعة والقحط، فيدعو الناس إلى الزراعة وزيادة الإنتاج وعدم الإسراف في إستعمال المنتوجات الزراعية وتقنين الحبوب وخزنها والإستفادة منها في أيّام القحط والشدّة.

وهكذا لم ير يوسف بُدّاً من تولية منصب الإشراف على خزائن مصر.

وقال البعض: إنّ الملك حينما رأى في تلك السنة أنّ الأُمور قد ضاقت عليه وعجز عن حلّها، كان يبحث عمّن يعتمد عليه وينجّيه من المصاعب، فمن هنا حينما قابل يوسف ورآه أهلاً لذلك أعطاه مقاليد الحكم بأجمعها وإستقال هو من منصبه.

وقال آخرون: إنّ الملك جعله في منصب الوزير الأوّل بديلاً عن (عزيز مصر).

والإحتمال الآخر هو أنّه بقي مشرفاً على خزائن مصر [٢١].

ثمّ يقول الله سبحانه وتعالى مُنهياً بذلك قصّة يوسف عليه السلام: ﴿**وكذلك مكّنا ليوسف في الأرض يتبوّأ منها حيث يشاء**﴾.

نعم إنّ الله سبحانه وتعالى ينزل رحمته وبركاته ونعمه المادية والمعنوية على من يشاء من عباده الذين يراهم أهلاً لذلك ﴿**نصيب برحمتنا من نشاء**﴾.

---

١ ـ وهذا ما يستفاد من ظاهر الآية الكريمة.

٢ ـ إلّا أنّ الآيتين (١٠٠) و(١٠١) واللتين تدلّان على أنّه أخيراً إستقلّ بأُمور مصر ـ بدل الملك وصار هو ملكاً على مصر.

وبرغم أنّ الآية رقم (٨٨) تقول: إنّ إخوة يوسف حينما دخلوا عليه نادوه باسم ﴿**ياأيّها العزيز**﴾ وهذا دليل على أنّه استقلّ بمنصب عزيز مصر، لكن نقول: إنّه لا مانع من أن يكون يوسف قد إرتقى سلّم المناصب تدريجاً حيث كان في أوّل الأمر مشرفاً على الخزائن، ثمّ جُعل الوزير الأوّل، وأخيراً صار ملكاً على مصر.

وأنّه سبحانه وتعالى لا ينسى أن يجازي المحسنين، وإنّه مهما طالت المدّة فإنّه يجازيهم بجزائه الأوفى **﴿ولا نضيع أجر المحسنين﴾**[١].

سبع سنوات خضر، وسبع يابسات

وكما كان متوقّعاً، فقد تحسّنت الزراعة في مصر خلال سبع سنوات متتالية وذلك على أثر توالي الأمطار ووفرة ماء النيل وكثرته، ويوسف الذي كان مسؤولاً عن الشؤون الإقتصادية في مصر ومشرفاً على خزائنها، أمر ببناء المخازن الكبيرة والصغيرة التي تستوعب الكميّات الكبيرة من المواد الغذائية وتحفظها عن الفساد، وقد أجبر أبناء الشعب على أن يبيعوا للدولة الفائض عن حاجتهم من الإنتاج الزراعي، وهكذا امتلأت المخازن بالمنتوجات الزراعية والإستهلاكية ومرّت سبع سنوات من الرخاء والوفرة، وبدأ القحط والجفاف يُظهر وجهه الكريه، ومنعت السّماء قطرها، فلم تينع ثمرة، ولم تحمل نخلة.

وهكذا أصاب عامّة الشعب الضيق وقلّت منتوجاتهم الزراعية، لكنّهم كانوا على علم بخزائن الدولة وإمتلائها بالمواد الغذائية، وساعدهم يوسف حيث إستطاع ـ بخطّة محكمة ومنظّمة مع الأخذ بعين الإعتبار الحاجات المتزايدة، في السنين القادمة ـ أن يرفع الضيق عن الشعب بأن باع لهم المنتوجات الزراعية مراعياً في ذلك العدالة بينهم.

والملفت للنظر أنّ يوسف أقبل على جمع الطعام فجمع في السبع سنين المخصبة فكبسه في الخزائن، فلمّا مضت تلك السنون وأقبلت المجدية أقبل على بيع الطعام فباعهم في السنة الأُولىٰ بالدراهم والدنانير وفي السنة الثّانية بالحلي والجواهر وفي السنة الثّالثة بالدّواب والمواشي وفي السنة الرّابعة بالعبيد والإماء وفي السنة الخامسة بالدّور والعقار وفي السنة السّادسة بالمزارع والأنهار وفي السنة السّابعة برقابهم فملك أحرارهم وعبيدهم وأموالهم ثمّ قال إنّي لم أصلح اهل مصر لأفسدهم، ولم أنجهم من البلاء ليكون وبالاً عليهم ولكن اللّه نجاهم على يدي، إنّي اعتقت أهل مصر كلّهم، ورددت اليهم أموالهم وعبيدهم.

---

١ ـ يوسف، ٥٦ ـ ٥٤.

اخوة يوسف الىٰ مصر

وهذا القحط والجفاف لم يكن مقتصراً على مصر وحدها، بل شمل البلدان المحيطة بها أيضاً، ومنهم شعب فلسطين وأرض كنعان المتاخمة لمصر والواقعة على حدودها في الشمال الشرقي، وكانت عائلة يوسف تسكن هناك وقد تأثّرت بالجفاف. واشتدّ بهم الضيق، بحيث اضطرّ يعقوب أن يرسل جميع أولاده ـ ما عدا بنيامين الذي أبقاه عنده بعد غياب يوسف ـ إلى مصر، حيث سافروا مع قافلة كانت تسير إلى مصر ووصلوا إليها ـ كما قيل ـ بعد ١٨ يوماً.

إنّ الأجانب عند دخولهم إلى الأراضي المصرية كانوا ملزمين بتسجيل أسمائهم في قوائم معيّنة لكي تعرض على يوسف، ومن هنا فحينما عرض الموظفون تقريراً على يوسف عن القافلة الفلسطينية وطلبهم للحصول على المؤن والحبوب رأى يوسف أسماء أُخوته بينهم وعرفهم وأمر بإحضارهم إليه، دون أن يتعرّف أحد على حقيقتهم وأنّهم أُخوته ..

يقول القرآن الكريم: ﴿وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون﴾[1] وكان طبيعيّاً أن لا يتعرّف إخوة يوسف عليه لأنّه في جانب كان قد مضى على فراقهم إيّاه منذ أن أودعوه الجبّ وخرج منه ودخل إلى مصر ما يقرب من أربعين سنة، ومن جهة أُخرىٰ كان لا يخطر ببالهم أنّ أخوهم صار عزيزاً لمصر، وحتّى لو رأوا الشبه بين العزيز وبين أخيهم لحملوه على الصدفة.

إضافةً إلى هذا فإنّ ملابس يوسف تختلف عن السابق، ومن الصعب عليهم معرفة يوسف وهو في ملابس أهل مصر، كما أنّ إحتمال بقاء يوسف على قيد الحياة بعد هذه المدّة كان ضعيفاً عندهم، وعلى أيّة حال فإنّ إخوة يوسف قد اشتروا ما طلبوه من الحبوب ودفعوا ثمنه بالأموال أو الكُندر أو الأحذية أو بسائر ما جلبوه معهم من كنعان إلى مصر.

اقتراح يوسف الجديد علىٰ إخوته

أمّا يوسف فإنّه قد رحّب بإخوته ولاطفهم وفتح باب الحديث معهم، قالوا: نحن عشرة إخوة من أولاد يعقوب، ويعقوب هو ابن إبراهيم الخليل نبي الله العظيم، وأبونا أيضاً من أنبياء

---

١ ـ يوسف، ٥٨.

الله العظام، وقد كبر سنّه وألمّ به حزن عميق ملك عليه وجوده.

فسألهم يوسف: لماذا هذا الغمّ والحزن؟

قالوا: كان له ولد أصغر من جميع إخوته وكان يحبّه كثيراً، فخرج معنا يوماً للنزهة والتفرّج والصيد وغفلنا عنه فأكله الذئب، ومنذ ذلك اليوم وأبونا يبكي لفراقه.

ونقل البعض أنّه كان من عادة يوسف أن لا يعطي ولا يبيع لكلّ شخص إلّا حمل بعير واحد، وبما أنّ إخوته كانوا عشرة فقد باع لهم ١٠ أحمال من الحبوب، فقالوا: إنّ لنا أباً شيخاً كبيراً عاجزاً عن السفر وأخاً صغيراً يرعى شؤون الأب الكبير، فطلبوا من العزيز أن يدفع إليهم حصّتهما، فأمر يوسف أن يضاف إلى حصصهم حملان آخران، ثمّ توجّه إليهم مخاطباً إيّاهم وقال: إنّي أرى في وجوهكم النبل والرفعة كما إنّكم تتحلّون بأخلاق طيبة، وقد ذكرتم انّ أباكم يحبّ أخاكم الصغير كثيراً، فيتّضح أنّه يمتلك صفات ومواهب عالية وفذّة ولهذا أحبّ أن أراه إضافة إلى هذا، فإنّ الناس هنا قد أساؤوا الظنّ بكم واتّهموكم، لأنّكم من بلد أجنبي، فأتوا بأخيكم الصغير في سفركم القادم لتثبتوا صدقكم، وتدفعوا التّهمة عن أنفسكم.

وهنا يقول القرآن الكريم: إنّه حينما جهّزهم يوسف بجهازهم وأرادوا الرحيل عن مصر **﴿ولمّا جهّزهم بجهازهم قال ائتوني بأخ لكم من أبيكم ألا ترون أنّي أُوفي الكيل وأنا خير المنزلين﴾**. لكنّه ختم كلامه بتهديد مبطّن لهم، وهو إنّني سوف أمنع عنكم المؤن والحبوب إذا لم تأتوني بأخيكم **﴿فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون﴾**، وكان يوسف يحاول بشتّى الطرق، تارةً بالتهديد، وأُخرىٰ بالتحبّب، أن يلتقي بأخيه بنيامين ويبقيه عنده.

وأجاب اخوة يوسف على طلب أخيهم: **﴿قالوا سنراود عنه أباه وإنّا لفاعلون﴾**.

وأخيراً أمر يوسف رجاله بأن يضعوا الأموال التي اشتروا بها الحبوب في رحالهم ـ جلباً لعواطفهم ـ **﴿وقال لفتيانه اجعلوا بضاعتهم في رحالهم لعلّهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم لعلّهم يرجعون﴾**.[1] [2]

---

١ ـ يوسف، ٦٢ ـ ٥٩.

٢ ـ **لماذا لم يظهر يوسف حقيقته لإخوته**

إنّ أوّل ما يتبادر إلى الذهن هو إنّه لماذا لم يعرّف يوسف نفسه لإخوته، حتّى يقفوا على حقيقة حاله ويرجعوا إلى أبيهم ويخبرونه عن مصير يوسف، وبذلك تنتهي آلامه لأجل فراق يوسف؟

ويمكن طرح هذا السؤال على شكل أوسع وبصورة أُخرىٰ، وهو أنّه حينما التقى يوسف باخوته في

موافقة يعقوب

رجع أُخوة يوسف إلى كنعان فرحين حاملين معهم المتاع الثمين، لكنّهم كانوا يـفكّرون بمصيرهم في المستقبل وأنّه لو رفض الأب ولم يوافق على سفر أخيهم الصغير (بنيامين) فإنّ عزيز مصر سوف لن يستقبلهم، كما إنّه لا يعطيهم حصّتهم من الحبوب والمؤن.

ومن هنا يقول القرآن: **﴿فلمّا رجعوا إلى أبيهم قالوا ياأبانا منع منّا الكيل﴾** ولا سبيل لنا للحصول عليه إلّا أن ترسل معنا أخانا **﴿فأرسل معنا أخانا نكتل﴾** وكن على يقين من أنّـنا سوف نحافظ عليه ونمنعه من الآخرين **﴿وإنّا له لحافظون﴾**.

أمّا الأب الشيخ الكبير الذي لم يمح صورة (يوسف) عن ذاكرته مرّ السنين فإنّه حينما سمع هذا الكلام استولى عليه الخوف وقال لهم معاتباً: **﴿هل آمنكم عليه إلّاكما آمنتكم على أخيه من قبل﴾** فكيف تتوقّعون منّي أن أطمئن بكم وأُلبّي طلبكم وأُوافق على سـفر ولدي وفلذة كبدي معكم إلى بلاد بعيدة، ولا زلت أذكر تخلفّكم في المرّة السابقة عن عهدكم، ثمّ أضاف **﴿فالله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين﴾**.

ثمّ إنّ الأُخوة حينما عادوا من مصر **﴿ولمّا فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردّت إليهم﴾** فشاهدوا أنّ هذا الأمر هو برهان قاطع على صحّة طلبهم، فجاؤوا إلى أبيهم و **﴿قالوا ياأبانا ما نبغي هذه بضاعتنا ردّت إلينا﴾** وهل هناك فضل وكرم أكثر من هذا أن يقوم حاكم أجنبي وفي

مصر كان قد مرّ ثمان سنوات على تحريره من السجن، حيث كان في السنة الأُولىٰ مـن سـنوات القحط والجدب، التي أعقبت سبع سنوات من الوفرة والرخاء، وقام بخزن المنتوجات الزراعية ـ وفي السنة الثامنة أو بعدها ـ جاء أُخوة يوسف إلى مصر لشراء الحبوب، فلماذا لم يحاول يوسف خلال هذه السنوات الثمان أن يبعث إلى كنعان من يخبر أباه بواقع حاله ويخرجه عن آلامه وينهي مرارته الطويلة؟

حاول جمع الإجابة على هذا السؤال، وذكروا له عدّة أجوبة، ولعلّ أحسنها وأقربها هو أنّ يوسف لم يكن مجازاً من قبل الله سبحانه وتعالى في إخبار أبيه، لأنّ قصّة يوسف مع غضّ النظر عن خصائصه الذاتية كانت ساحة لإختبار يعقوب وحقلاً لإمتحانه، فلابدّ من أن يؤدّي يعقوب إمتحانه ويجتاز فترة الإختبار قبل أن يسمح ليوسف بإخباره، وإضافةً إلى هذا فإنّ إسراع يوسف في إخبار إخوته قـد يؤدّي إلى عواقب غير محمودة، مثلاً قد يستولي عليهم الخوف والهلع من إنتقام يوسف منهم لما إرتكبوه سابقاً في حقّه فلا يرجعوا إليه.

ظروف القحط والجفاف، بمساعدتنا ويبيع لنا الحبوب والمؤن ثمّ يردّ إلينا ما دفعناه ثمناً له؟!

ثمّ إنّه ردّ بضاعتنا علينا بشكل خفي بحيث لا يستثير فينا الخجل ـ أليس هذا غاية الجود والكرم؟! فياأبانا ليس هناك مجال للتأخير ـ ابعث معنا أخانا لكي نسافر ونشتري الطعام ﴿ونمير أهلنا﴾ وسوف نكون جادّين في حفظ أخينا ﴿ونحفظ أخانا﴾، وهكذا نتمكّن من أن نشتري كيل بعير من الحبوب ﴿ونزداد كيل بعير﴾ وإنّنا على يقين في أنّ سماحة العزيز وكرمه ـ سوف يسهّلان حصوله و ﴿ذلك كيل يسير﴾.

وفي كلّ الأحوال ـ رفض يعقوب إرسال إبنه بنيامين معهم، ولكنّه كان يواجه إصرار أولاده بمنطقهم القوي بحيث اضطرّ إلى التنازل على مطلبهم ولم يَر بدّاً من القبول، ولكنّه وافق بشرط: ﴿قال لن أرسله معكم حتّى تؤتون موثقاً من الله لتأتنّني به إلّا أن يحاط بكم﴾، والمقصود من قوله ﴿موثقاً من الله﴾ هو العهد واليمين المتضمّن لإسم الله سبحانه وتعالى.

وعلى كلّ حال فقد وافق أُخوة يوسف بدورهم على شرط أبيهم، وحينما أعطوه العهد والمواثيق المغلّظة قال يعقوب: ﴿فلمّا أتوه موثقهم قال الله على ما نقول وكيل﴾ [١، ٢].

---

١ ـ يوسف، ٦٦ ـ ٦٣.

٢ ـ إنّ أوّل ما يتبادر إلى الذهن، هو أنّه كيف وافق يعقوب على سفر بنيامين مع أُخوته برغم ما أظهروه في المرّة السابقة من سوء المعاملة مع يوسف، إضافة إلى هذا فإنّنا نعلم أنّهم كانوا يبطنون الحقد والحسد لبنيامين ـ وإن كان أخفّ من حقدهم وحسدهم على يوسف ـ كما قرأنا في بداية هذه القصّة ﴿إذ قالوا ليوسف وأخوه أحبّ إلى أبينا منّا ونحن عصبة﴾ أي إنّ يوسف وأخاه أحبّ إلى أبينا برغم ما نملكه نحن من قوّة وكثرة.

لكن تظهر الإجابة على هذا السؤال إذا لاحظنا أنّه قد مضى ثلاثون إلى أربعين سنة على حادثة يوسف، وقد صار أُخوة يوسف الشبّان كهولاً، ومن الطبيعي أنّهم نضجوا أكثر من السابق، كما وقفوا على الآثار السلبية والسيّئة لما فعلوه مع يوسف، سواء في داخل أُسرتهم أم في وجدانهم، حيث أثبتت لهم تجارب السنين السالفة أنّ فقد يوسف كان لا يزيد حبّ أبيهم لهم، بل إزداد نفوره منهم وخلق لهم مشاكل جديدة.

إضافةً إلى هذه الأُمور فإنّ يعقوب لم يواجه طلباً للخروج إلى التنزّه والصيد، بل كان يواجه مشكلة مستعصية مستفحلة، وهي إعداد الطعام لعائلة كبيرة وفي سنوات القحط والمجاعة.

فمجموع هذه الأُمور أجبرت يعقوب على الرضوخ لطلب أولاده والموافقة على سفر بنيامين ولكنّه أخذ منهم العهود والمواثيق على أن يرجعوه سالماً.

لا تدخلوا من باب واحد

توجّه إخوة يوسف صوب مصر للمرّة الثانية بعد إذن أبيهم وموافقته على إصطحاب أخيهم الصغير معهم، وحينما أرادوا الخروج ودعهم أبوهم موصياً إيّاهم بقوله: ﴿وقال يابني لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرّقة﴾[1] شكّ في أنّ عاصمة مصر في تلك الأيّام شأنها شأن جميع البلدان، كانت تمتلك سوراً عالياً وأبواباً متعدّدة وكان يعقوب قد نصح أولاده بأن يتفرّقوا إلى جماعات صغيرة، وتدخل كلّ جماعة من باب واحد.

ذهب جمع إلى أنّ سبب هذه النصيحة هو أنّ إخوة يوسف كانوا يتمتّعون بقسط وافرٍ من الجمال (وإن لم يكونوا كيوسف لكنّهم في كلّ الأحوال كانوا إخوته) وبأجسام قويّة رشيقة، وكان الأب الحنون في قلق شديد من أنّ الفات نظر الناس إلى هذه المجموعة المكوّنة من ١١ شخصاً ويدلّ سيماهم على أنّهم غرباء وإنّهم ليسوا من أهل مصر، فيصيبهم الحسد من تلك العيون الفاحصة.

وهناك سبب آخر، وهو أنّ دخول هذه المجموعة إلى مصر بوجوههم المشرقة وأجسامهم الرشيقة القويمة والسير في شوارعها، قد يثير الحسد والبغضاء في بعض النفوس الضعيفة فيسعون ضدّهم عند السلطان ويظهرونهم كمجموعة أجنبية تحاول العبث بأمن البلد ونظامه، فحاول يعقوب عليه السلام أن يجنبهم بنصيحته عن هذه المشاكل.

واصل الأُخوة سيرهم نحو مصر، وبعد أن قطعوا مسافة طويلة وشاسعة بين كنعان ومصر دخلوا الأراضي المصرية.

يوسف يخطّط للإحتفاظ بأخيه

وأخيراً دخل الأُخوة على يوسف وأعلموه بأنّهم قد نفّذوا طلبته واصطحبوا معهم أخاهم الصغير برغم إمتناع الأب في البداية، ولكنّهم أصرّوا عليه وإنتزعوا منه الموافقة لكي يثبتوا لك إنّهم قد وفوا بالعهد، أمّا يوسف فإنّه قد إستقبلهم بحفاوة وكرم بالغين ودعاهم لتناول الطعام على مائدته، فأمر أن يجلس كلّ إثنين منهم على طبق من الطعام، ففعلوا وجلس كلّ واحد

---

١ ـ يوسف، ٦٧.

منهم بجنب أخيه على الطعام، وبقي بنيامين وحيداً فتألّم من وحدته وبكى وقال: لو كان أخي يوسف حيّاً لعطف عليّ ولأجلسني إلى جنبه على المائدة لأنّنا إخوة من أب واحد وأُمّ واحدة، قال يوسف مخاطباً إيّاهم: إنّ أخاكم بقي وحيداً وإنّني سأجلسه بجنبي على المائدة ونأكل سويّة من الطعام، ثمّ بعد ذلك أمر يوسف بأن تهيّأ لهم الغرف ليستريحوا فيها ويناموا، ومرّة أُخرىٰ بقي بنيامين وحيداً، فاستدعاه يوسف إلى غرفته وبسط له الفراش إلى جنبه، لكنّه لاحظ في تقاسيم وجهه الحزن والألم وسمعه يذكر أخاه المفقود (يوسف) متأوّهاً، عند ذاك نفذ صبر يوسف وكشف عن حقيقة نفسه، والقرآن الكريم يصف هذه الوقائع بقوله: **﴿ولمّا دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه قال إنّي أنا أخوك فلا تبتئس بما كانوا يعملون﴾** [١].

والمراد بقوله «يعملون» هو معاملة الأُخوة السيّئة لأخيهم بنيامين حيث خطّطوا لإبعاده وطرده من بينهم كما فعلوا بيوسف ـ فقال يوسف لأخيه: لا تحزن فإنّ المحاولات التي قاموا بها لإلحاق الضرر بي قد إنقلبت إلى خير وسعادة ورفعة لي، إذاً لا تحزن وكن على يقين بأنّ محاولاتهم سوف تذهب أدراج الرياح.

أيّتها العير إنّكم لسارقون

عند ذاك إقترح يوسف على أخيه بنيامين وقال له: هل تودّ أن تبقى عندي ولا تعود معهم؟

قال بنيامين: نعم، ولكن إخوتي لا يوافقون على ذلك، لأنّهم قد أعطوا أبي العهود والمواثيق المغلّظة بأن يرجعوني إليه سالماً.

قال يوسف: لا تهتمّ بهذا الأمر فإنّي سوف أضع خطّة محكمة بحيث يضطرّون لتركك عندي والرجوع دونك. وبدأ يوسف بتنفيذ الخطّة، وأمر بأن يعطي لكلّ واحد منهم حصّة من الطعام والحبوب ثمّ عند ذاك **﴿فلمّا جهزّهم بجهازهم جعل السقاية في رحل أخيه﴾**.

لا شكّ في أنّ يوسف قام بهذا العمل بسرية تامّة، ولعلّه لم يطّلع على هذه الخطّة سوى موظّف واحد وعند ذاك إفتقد العاملون على تزويد الناس بالمؤونة الكيل الملكي الخاص، وبحث عنه الموظّفون والعمّال كثيراً لكن دون جدوى وحينئذ **﴿أذّن مؤذّن أيّتها العير إنّكم لسارقون﴾** [٢].

---

١ ـ يوسف، ٦٩.

٢ ـ يوسف، ٧٠.

وحينما سمع إخوة يوسف هذا النداء إرتعدت فرائصهم وإستولى عليهم الخوف، حيث لم يخطر ببالهم أن يتّهموا بالسرقة بعد الحفاوة التي قوبلوا بها من جانب يوسف، فتوجّهوا إلى الموظفين والعمال وقالوا لهم: ماذا فقدتم؟ ﴿قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون﴾.

قالوا: قد فقدنا صواع الملك ونظنّ إنّه عندكم ﴿قالوا نفقد صواع الملك﴾ وبما أنّ الصواع ثمين ومورد علاقة الملك فانّ لمن يعثر عليه جائزة، وهي حمل بعير من الطعام ﴿ولمن جاء به حمل بعير﴾، ثمّ أضاف المؤذّن والمسؤول عن البحث عن الصواع المفقود: إنّني شخصيّاً أضمن هذه الجائزة ﴿وأنا به زعيم﴾.

فاشتدّ إضطراب الأُخوة لسماعهم هذه الأُمور وزادت مخاوفهم، وتوجّهوا إلى الموظّف مخاطبين إيّاه ﴿قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض وما كنّا سارقين﴾.

إلّا أنّ الموظفين توجّهوا إليهم و ﴿قالوا فما جزاؤه وإن كنتم كاذبين﴾.

أجاب الأُخوة: إنّه عقاب من وجد الصواع في رحله هو أن يؤخذ الشخص نفسه بدل الصواع ﴿قالوا جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه﴾ وإنّ هذا العقاب هو جزاء السارق ﴿كذلك نجزي الظالمين﴾.

وحينئذ أمر يوسف الموظفين والعمال بأنّ تنزل رحالهم من على ظهور الجمال ويفتح متاعهم وأن يبحثوا فيها واحداً بعد واحد ودون إستثناء، وتجنّباً عن إنكشاف الخطّة أمر يوسف بأن يبدأوا البحث والتفتيش في أمتعة الأُخوة أوّلاً قبل أمتعة أخيه بنيامين، لكنّهم وجدوه أخيراً في أمتعة بنيامين ﴿فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ثمّ إستخرجها من وعاء أخيه﴾[1].

لقد فضحتنا ايّها الجاهل

بعد أن عثر على الصاع في متاع بنيامين، إستولى الإرتباك والدهشة على الأُخوة، وصعقتهم هذه الواقعة ورأوا أنفسهم في حيرة غريبة، فمن جهة قام أخوهم بعمل قبيح وسرق صواع الملك، وهذا يعود عليهم بالخزي والعار، ومن جهة أُخرىٰ انّ هذا العمل سوف يفقدهم إعتبارهم ونفوذهم عند الملك خصوصاً مع حاجتهم الشديدة إلى الطعام، وإضافةً إلى كلّ

١ ـ يوسف، ٧٦ ـ ٧١.

هذا، كيف يجيبون على إستفسارات أبيهم؟ وكيف يقنعونه بذنب إبنه وعدم تـقصيرهم فـي ذلك؟

قال بعض: إنّه بعد أن عثر على الصاع توجّه الأُخوة إلى بنيامين وعاتبوه عتاباً شديداً، فقالوا له: ألا تخجل من فعلك القبيح قد فضحتنا وفضحت أباك يعقوب، وآل يعقوب .. قل لنا كيف سرقت الصاع ووضعته في رحلك؟

أجابهم بنيامين ببرود، حيث كان عالماً بالقضيّة وأسرارها: إنّ الذي قام بهذا العمل ووضع الصواع في رحلي، هو نفسه الذي وضع الأموال في متاعكم في المرّة السابقة، لكن الأُخوة لم ينتبهوا ـ لهول الواقعة عليهم ـ لمغزى كلام بنيامين.

ثمّ يستمرّ القرآن الكريم ويبيّن كيف إستطاع يوسف أن يأخذ أخاه بالخطّة التي رسمها الله له دون أن يثير في أُخوته أي نوع من المقاومة والرفض ﴿**كذلك كدنا ليوسف ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك**﴾[١].[٢]

---

١ ـ يوسف، ٧٦.

٢ ـ هنا سؤالان لابدّ من الاجابة عليهما:

١ ـ لماذا اتّهم يوسف أخاه؟

هل يجوز شرعاً أن يتّهم الإنسان بريئاً لم يرتكب ذنباً، ولم تقتصر آثار هذه التّهمة على البـريء وحده، بل تشمل الآخرين من قريب أو بعيد؟ كما هو الحال في يوسف حيث شمل اتّهامه الأُخوة وسبب لهم مشاكل عديدة.

يمكن معرفة الجواب بعد وقوفنا على أنّ توجيه هذه التّهمة لبنيامين كان باتّفاق مسبق بينه وبـين يوسف، وكان عارفاً بأنّ هدف الخطّة وتوجيه التهمة إليه لأجل بقائه عند يوسف، أمّا بالنسبة للآثار السلبية المترتّبة على الأُخوة فإنّ اتّهام بنيامين بالسرقة لم يكن في الواقع اتّهاماً مباشراً لأُخوته وإن سبّب لهم بعض التشويش والقلق ولا مانع من ذلك بالنظر إلى إمتحان مهم.

٢ ـ لماذا اتّهام الجميع بالسرقة؟

مرّ علينا في الآية الشريفة قوله تعالى: ﴿**إنّكم سارقون**﴾ وهذه في الواقع تهمة موجّهة إلى الجميع وهي تهمة كاذبة، فما المسوغ والمجوّز الشرعي لمثل هذا الإتّهام الباطل؟

يمكن الإجابة على هذا السؤال في عدّة نقاط وهي:

أوّلاً: إنّ قائل هذه الجملة غير معلوم، حيث ورد في القرآن إنّه (قالوا ...) ولعلّ القائلين هم بـعض الموظفين من عمّال يوسف والمسؤولين عن حماية خزائن الحبوب، فهم حـينما إفـتقدوا صـواع

يستفاد من القرآن الكريم أنّ عقوبة السرقة عند المصريين كانت تختلف عنها عند الكنعانيين، فعند أُخوة يوسف (آل يعقوب) ولعلّه عند الكنعانيين كانت العقوبة هي عبودية السارق (بصورة دائمة أو مؤقتة) لأجل الذنب الذي إقترفه يقول الطبرسي في مجمع البيان ـ ذيل الآية ـ إنّ السنّة المتّبعة لدى بعض المجتمعات في ذلك الزمان هو أن يصير السارق عبداً لمدّة سنة كاملة، وذكر أيضاً أنّ أُسرة يعقوب كانت ترى عبودية السارق بمقدار ما سرق (أي يعمل عندهم بذلك المقدار).

فقد سرق أخ له من قبل

وأخيراً إقتنع أُخوة يوسف بأنّ أخاهم (بنيامين) قد إرتكب فعلاً شنيعاً وقبيحاً وإنّه قد شوّه سمعتهم وخذلهم عند عزيز مصر، فأرادوا أن يبرّأوا أنفسهم ويعيدوا ماء وجههم قالوا: ﴿**إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل**﴾ أي إنّه لو قام بالسرقة فهذا ليس بأمر عجيب منه فإنّ أخاه يوسف وهو أخوه لأبويه قد إرتكب مثل هذا العمل القبيح، ونحن نختلف عنهما في النسب، وهكذا أرادوا أن يفصلوا بينهم وبين بنيامين ويربطوه بأخيه يوسف.

وحينما سمع يوسف كلامهم تأثّر بشدّة لكنّه كتم ما في نفسه ﴿**فأسرّها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم**﴾ لأنّه كان عالماً بأنّهم قد افتروا عليه واتّهموه كذباً، إلّا أنّه لم يرد عليهم وقال لهم بإختصار وإقتضاب ﴿**قال أنتم شرّ مكاناً**﴾ أي إنّكم أحقر وأشرّ مكاناً ممّن تتّهمونه وتنسبون إليه السرقة، أو أنتم أحقر الناس عندي.

الملك، اطمأنّوا بأنّ السارق هو أحد أفراد القافلة القادمة من كنعان، فوجّهوا الخطاب إليهم جميعاً، وهذا من الأُمور الطبيعيّة، فحينما يقوم شخص مجهول في ضمن مجموعة معيّنة بعمل ما، فإنّ الخطاب يوجّه إليهم جميعاً ويقال لهم: إنّكم فعلتم هذا العمل، والمقصود إنّ أحد هذا المجموعة أو بعضها قد فعل كذا.

ثانياً: الطرف الذي وجّهت إليه التّهمة وهو بنيامين، كان موافقاً على توجيه هذه التهمة له، لأنّ التهمة كانت مقدّمة للخطّة المرسومة والتي كانت تنتهي ببقائه عند أخيه يوسف، وأمّا شمول الإتّهام لجميع الأُخوة ودخولهم جميعاً في دائرة الظنّ بالسرقة، فإنّ كلّ ذلك كان إتّهاماً مؤقتاً حيث زالت بمجرّد التفتيش والعثور على الصواع وظهر المذنب الواقعي.

ثمّ أضاف يوسف: إنّ الله سبحانه وتعالى أعلم بما تنسبون ﴿والله أعلم بما تصفون﴾ [١].

الملاحظ هنا إنّه برغم أنّ إخوة يوسف إفتروا عليه زوراً واتّهموه بالسرقة لكي يبرّأوا أنفسهم، لكن لابدّ وأن تكون لهذه التّهمة أرضية قديمة بحيث تمسّك بها الإخوة في تلك اللحظة الحرجة.

وقد نقلوا ثلاثة نصوص في هذا المجال:

الأوّل: أنّ يوسف بعد أن توفّيت اُمّه قضى فترة من طفولته عند عمّته، وقد كانت تكنّ له حبّاً عميقاً، وحينما كبر يوسف وأراد يعقوب أن يفصله عنها، لم تَر عمّته حيلة ووسيلة للإحتفاظ بيوسف إلّا بحيلة نسائية وذلك بأن ربطت على خاصرته حزاماً أو شالاً ممّا تركه آل إسحاق، ثمّ إدّعت أنّ يوسف أراد سرقتها، فلابدّ من أن يعاد إليها يوسف ـ وطبقاً للدستور والسنّة المتّبعة عندهم ـ عبداً قناً جزاءً له.

الثّاني: قيل إنّ امرأة من أرحام يوسف من اُمّه كان لها صنم تعبده، فأخذه يوسف وحطمه ورمى به على الطريق، فاتّهموه بالسرقة.

الثّالث: قيل إنّ يوسف كان يأخذ أحياناً بعض الطعام من المائدة ويتصدّق به على الفقراء والمساكين، فعلم الإخوة بذلك واتّهموه بالسرقة.

لكن مثل هذه الأعمال لا تعدّ سرقة، لأنّ النّبيه يعرف أنّ ربط الحزام على الشخص دون علمه بأنّه ملك الغير. أو كسر الصنم ورميه على الطريق، أو أخذ الطعام من المائدة التي بسطها أبوه ويعلم أنّه يرضى بالتصدّق ببعضها للفقراء والمساكين، لا يعدّ سرقة ولا يجوز معاقبة من فعله بهذه التّهمة.

لماذا لم تقبل تضحية الاخوان؟

وعندما لاحظ الإخوة أنفسهم محاصرين بين أمرين، فمن جهة وطبقاً للسنّة والدستور المتعيّن عندهما لابدّ وأن يبقى أخوهم الصغير ـ بنيامين عند عزيز مصر ويقوم بخدمته كسائر عبيده، ومن جهة اُخرىٰ فإنّهم قد أعطوا لأبيهم المواثيق والأيمان المغلّظة على أن يحافظوا على أخيهم بنيامين ويعودوا به سالماً إليه، حينما وقعوا في هذه الحالة توجّهوا إلى يوسف

---

١ ـ يوسف، ٧٧.

الذي كان مجهول الهوية عندهم، مخاطبين إيّاه ﴿قالوا ياأيّها العزيز إنّ له أباً شيخاً كبيراً فخذ أحدنا مكانه﴾ لكي نرجعه إلى أبيه ونكون قد وفينا بالوعد الذي قطعناه له، فإنّه شيخ كبير ولا طاقة له بفراق ولده العزيز، فنرجو منك أن تترحّم علينا وعلى أبيه فـ﴿إنّا نراك من المحسنين﴾.

أمّا يوسف فإنّه قد واجه هذا الطلب بالإنكار الشديد و ﴿قال معاذ الله أن نأخذ إلّا من وجدنا متاعنا عنده﴾ فإنّ العدل والإنصاف يقتضي أن يكون المعاقب هو السارق، وليس بريئاً رضي بأن يتحمّل أوزار عمل غيره، ولو فعلنا لأمسينا من الظالمين ﴿إنّا إذاً لظالمون﴾[1].

والطريف أنّ يوسف لم ينسب لأخيه السرقة وإنّما عبّر عنه بـ﴿من وجدنا متاعنا عنده﴾. وهذا برهان على السلوك الحسن والسيرة المستقيمة التي كان ينتهجها يوسف في حياته.

رجوع الإخوة إلى أبيهم خائبين

حاول الإخوة أن يستنقذوا أخاهم بنيامين بشتّى الطرق، إلّا أنّهم فشلوا في ذلك، ورأوا أنّ جميع سبل النجاة قد سدّت في وجوههم، فبعد أن فشلوا في تبرئة أخيهم وبعد أن رفض العزيز إستعباد أحدهم بدل بنيامين، إستولى عليهم اليأس وصمّموا على الرجوع والعودة إلى كنعان لكي يخبروا أباهم، يقول القرآن واصفاً إيّاهم ﴿فلمّا استيئسوا منه خلصوا نجيّاً﴾ أي إنّهم بعد أن يئسوا من عزيز مصر أو من إنقاذ أخيهم، إبتعدوا عن الآخرين وإجتمعوا في جانب وبدأوا بالتشاور والنجوى فيما بينهم.

وفي ذلك الإجتماع الخاص خاطبهم الأخ الكبير قائلاً: ﴿قال كبيرهم ألم تعلموا أنّ أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله﴾ بأن تردّوا إليه بنيامين سالماً، فالآن بماذا تجيبونه؟ وقد سوّدنا صفحتنا في المرّة السابقة بما عاملنا به أخانا يوسف ﴿ومن قبل ما فرّطتم في يوسف﴾ فالآن والحالة هكذا ـ فإنّني لا أُغادر أرض مصر وسوف أعتصم فيها ﴿فلن أبرح الأرض حتّى يأذن لي أبي أو يحكم الله وهو خير الحاكمين﴾

ثمّ أمرهم الأخ الأكبر أن يرجعوا إلى أبيهم ويخبروه بما جرى عليهم ﴿ارجعوا إلى أبيكم فقولوا ياأبانا إنّ ابنك سرق﴾ وهذه شهادة نشهدها بمقدار علمنا عن الواقعة حيث سمعنا بفقد

---

١ ـ يوسف، ٧٩ ـ ٧٨.

صواع الملك، ثمّ عثر عليه عند أخينا، وظهر للجميع إنّه قد سرقها ﴿وما شهدنا إلّا بما علمنا﴾ ولكن نحن لا نعلم إلّا ما شهدناه بأعيننا وهذا غاية معرفتنا ﴿وما كنّا للغيب حافظين﴾.

ثمّ أرادوا أن يزيلوا الشكّ والريبة عن قلب أبيهم فقالوا يمكنك أن تتحقّق وتسأل من المدينة التي كنّا فيها ﴿وسأل القرية التي كنّا فيها﴾ ومن القافلة التي سافرنا معها إلى مصر ورجعنا معها، حيث أنّ فيها أُناساً يعرفونك وتعرفهم، وبمقدورك أن تسألهم عن حقيقة الحال وواقعها ﴿والعير التي أقبلنا فيها﴾ وفي كلّ الأحوال كن على ثقة بأنّنا صادقون ولم نقص عليك سوى الحقيقة والواقع ﴿وإنّا لصادقون﴾[1].

يستفاد من مجموع هذه الكلمات والحوار الذي دار بين الأولاد والأب أنّ قضيّة سرقة بنيامين كانت قد شاعت في مصر، وأنّ جميع الناس علموا بأنّ أحد أفراد العير والقافلة القادمة من كنعان حاول سرقة صواع الملك، لكن موظفي الملك تمكّنوا بيقظتهم من العثور عليها والقبض على سارقها، ولعلّ قول الأُخوة لأبيهم ﴿وسأل القرية ...﴾ أي إسأل أرض مصر، كناية عن أنّ القضيّة شاعت بحيث علم بها حتّى أراضي مصر وحيطانها.

يعقوب والألطاف الإلهية

وأخيراً غادروا مصر متّجهين إلى كنعان في حين تخلّف أخواهم الكبير والصغير، ووصلوا إلى بيتهم منهوكي القوى وذهبوا لمقابلة أبيهم، وحينما رأى الأب الحزن والألم مستولياً على وجوههم (خلافاً للسفرة السابقة والتي كانوا فيها في غاية الفرح) علم أنّهم يحملون إليه أخباراً محزنة وخاصّة حينما إفتقد بينهم بنيامين وأخاه الأكبر، وحينما أخبروه عن الواقعة بالتفصيل، إستولى عليه الغضب وقال مخاطباً إيّاهم بنفس العبارة التي خاطبهم بها حينما أرادوا أن يشرحوا له خديعتهم مع يوسف ﴿قل بل سوّلت لكم أنفسكم أمراً﴾

لكن بعد هذا العتاب المليء بالحزن والأسى رجع يعقوب إلى قرارة نفسه وقال: ﴿فصبر جميل﴾ أي إنّني سوف أمسك بزمام نفسي، ولا أسمح لها بأن تطغى عليّ بل أصبر صبراً جميلاً على أمل بأنّ الله سبحانه وتعالى سوف يعيد لي أولادي (يوسف وبنيامين وأخوهم الأكبر) ﴿عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً﴾ فإنّه هو العالم بواقع الأُمور والخبير بحوادث العالم ما مضى

١ ـ يوسف، ٨٢ ـ ٨٠.

منها وما سوف يأتي، ولا يفعل إلّا عن حكمة وتدبير ﴿إنّه هو العليم الحكيم﴾[١].

ثمّ بعد هذه المحاورات بين يعقوب وأولاده، إستولى عليه الحزن والألم، وحينما رأى مكان بنيامين خالياً عادت ذكريات ولده العزيز يوسف إلى ذهنه، وتذكّر تلك الأيّام الجميلة التي كان يحتضن فيها ولده الجميل ذا الأخلاق الفاضلة والصفات الحسنة والذكاء العالي فيشمّ رائحته الطيّبة ويستعيد نشاطه، أمّا اليوم فلم يبق منه أثر ولا عن حياته خبر، كما أنّ خليفته (بنيامين) أيضاً قد ابتلي مثل يوسف بحادث مؤلم وذهب إلى مصير مجهول لا تعرف عاقبته.

حينما تذكّر يعقوب هذه الأُمور إبتعد عن أولاده واستعبر ليوسف ﴿وتولّى عنهم وقال ياأسفي على يوسف﴾

خجل الاخوة و عمىٰ يعقوب

أمّا الأُخوة فإنّهم حينما سمعوا باسم يوسف، ظهر على جبينهم عرق الندامة وإزداد خجلهم واستولى عليهم الحزن لمصير أخويهم بنيامين ويوسف، واشتدّ حزن يعقوب وبكاؤه على المصائب المتكرّرة وفقد أعزّ أولاده ﴿وابيضّت عيناه من الحزن﴾ لكن يعقوب كان ـ في جميع الأحوال مسيطراً على حزنه ويخفّف من آلامه ويكظم غيظه وأن لا يتفوّه بما لا يرضى به الله سبحان وتعالى ﴿فهو كظيم﴾.

يفهم من القرآن الكريم أنّ يعقوب لم يكن فاقداً لبصره، لكنّ المصائب الأخيرة وشدّة حزنه ودوام بكائه أفقده بصره، وكما أشرنا سابقاً فإنّ هذا الحزن والألم والعمى كان خارجاً عن قدرته وإختياره، فإذاً لا يتنافى مع الصبر الجميل.

أمّا الإخوة فكانوا متألّمين من جميع ما جرى لهم، فمن جهة كان عذاب الوجدان لا يتركهم ممّا أحدثوه ليوسف، ـ وفي قضيّة بنيامين ـ شاهدوا أنفسهم في وضع صعب وامتحان جديد، ومن جهة ثالثة كان يصعب عليهم أن يشاهدوا أباهم يتجرّع غصص المرارة والألم ويواصل بكاؤه الليل بالنهار، توجّهوا إلى أبيهم وخاطبوه معاتبين ﴿قالوا تالله تفتئوا تذكر يوسف حتّى تكون حرضاً أو تكون من الهالكين﴾ أي إنّك تردّد ذكر يوسف وتتأسّف عليه حتّىٰ تتمرّض وتشرف على الهلاك وتموت.

---

١ ـ يوسف، ٨٣.

لكنّ شيخ كنعان هذا النّبي العظيم والمتيقّظ الضمير ردّ عليهم بقوله: ﴿إنّما أشكوا بثّي وحزني إلى الله﴾ لا إليكم، أنتم الذين تخونون الوعد وتنكثون العهد لأنّني ﴿أعلم من الله ما لا تعلمون﴾[1] فهو اللطيف الكريم الذي لا أطلب سواه.

اليأس علامة الكفر!

كان القحط والغلاء وشحّة الطعام يشتدّ يوماً بعد آخر في مصر وما حولها ومنها كنعان، ومرّة أُخرىٰ أمر يعقوب أولاده بأن يتّجهوا صوب مصر للحصول على الطعام، لكنّه هذه المرّة طلب منهم بالدرجة الأُولىٰ أن يبحثوا عن يوسف وأخيه بنيامين، حيث قال لهم: ﴿يابني اذهبوا فتحسّسوا من يوسف وأخيه﴾.

لكن بما أنّ أولاد يعقوب كانوا مطمئنين إلى هلاك يوسف وعدم بقاءه، تعجّبوا من توصية أبيهم وتأكيده على ذلك، لكن يعقوب نهاهم عن اليأس والقنوط ووصّاهم بالإعتماد على الله سبحانه والإتّكال عليه بقوله: ﴿ولا تيأسوا من روح الله﴾ فإنّه القادر على حلّ الصعاب و ﴿إنّه لا ييأس من روح الله إلّا القوم الكافرون﴾.

وأخيراً جمع الأُخوة متاعهم وتوجّهوا صوب مصر، وهذه هي المرّة الثّالثة التي يدخلون فيها أرض مصر، هذه الأرض التي سبّبت لهم المشاكل وجرّت عليهم الويلات.

لكن في هذه السفرة ـ خلافاً للسفرتين السابقتين ـ كانوا يشعرون بشيء من الخجل يعذّب ضمائرهم فإنّ سمعتهم عند أهل مصر أو العزيز ملوّثة للوصمة التي لصقت بهم في المرّة السابقة، ولعلّهم كانوا يرونهم بمثابة (مجموعة من لصوص كنعان) الذين جاؤوا للسرقة. ومن جهة أُخرىٰ لم يحملوا معهم هذه المرّة من المتاع ما يستحقّ أن يعاوضوه بالطعام والحبوب، إضافةً إلى هذه الأُمور فإنّ فقد أخيهم بنيامين والآلام التي ألمّت بأبيهم كانت تزيد من قلقهم وبتعبير آخر فإنّ السكين قد وصلت إلى العظم، كما يقول المثل إلّا أنّ الذي كان يبعث في نفوسهم الأمل ويعطيهم القدرة على تحمّل الصعاب هو وصيّة أبيهم ﴿لا تيأسوا من روح الله﴾.

وأخيراً استطاعوا أن يقابلوا يوسف، فخاطبوه ـ وهم في غاية الشدّة والألم ـ بقولهم: ﴿فلمّا دخلوا عليه قالوا ياأيّها العزيز مسّنا وأهلنا الضرّ﴾ أي إنّ القحط والغلاء والشدّة قد

---

١ ـ يوسف، ٨٦ ـ ٨٤.

ألمّت بنا وبعائلتنا ولم نحمل معنا من كنعان إلّا متاعاً رخيصاً ﴿وجئنا ببضاعة مزجاة﴾ لا قيمة لها ولكن ـ في كلّ الأحوال ـ نعتمد على ما تبذل لنا من كرمك ونأمل في معروفك ﴿فاوف لنا الكيل﴾ بمنّك الكريم وصدقاتك الوافرة ﴿وتصدّق علينا﴾ ولا تطلب منّا الأجر، بل أُطلبه من الله سبحانه وتعالى حيث ﴿إنّ الله يجزي المتصدّقين﴾ [1].

والطريف أنّ إخوة يوسف لم ينفذوا وصيّة أبيهم في البحث عن إخوتهم أوّلاً، بل حاولوا الحصول على الطعام، ولأجل ذلك قابلوا العزيز وطلبوا منه المؤن والحبوب، ولعلّ السبب في ذلك ضعف أملهم في العثور على يوسف، أو لعلّهم أرادوا أن يظهروا أنفسهم أمام العزيز والمصريين وكأنّهم أُناس جاؤوا لشراء الطعام والحبوب فقط، فمن ثمّ يطرحوا مشكلتهم أمام العزيز ويطلبوا منه المساعدة، فعند ذاك يكون وقع الطلب أقوى وإحتمال تنفيذه أكثر.

قال البعض: إنّ مقصود الإخوة من قولهم: ﴿تصدّق علينا﴾ كان طلب الإفراج عن أخيهم لأنّهم لم يطلبوا من العزيز الطعام والحبوب مجّاناً دون عوض حتّى يطلبوا منه التصدّق عليهم، فإنّهم يدفعون ثمنه.

يوسف يقبّل رسالة الاب بعيون مغرورقة بالدموع

إنّ الإخوة كانوا يحملون معهم رسالة من أبيهم إلى عزيز مصر، حيث مدح يعقوب في تلك الرسالة عزيز مصر وأكبر عدالته وصلاحه وشكره على ما بذله له ولعائلته من الطعام والحبوب، ثمّ عرّف نفسه والأنبياء من أهل بيته وأخبره برزاياه وما تحمله من المصائب والمصاعب من فقده أعزّ أولاده وأحبّهم إلى نفسه يوسف وأخيه بنيامين، وما أصابهم من القحط والغلاء، وفي ختام الرسالة طلب من العزيز أن يمنّ عليه ويطلق سراح ولده بنيامين، وذكّره أنّ بنيامين سليل بيت النبوّة والرسالة وأنّه لا يتلوّث بالسرقة وغيرها من الدناءات والمعاصي.

وحينما قدّم الأولاد رسالة أبيهم إلى العزيز شاهدوا أنّه فضّ الرسالة بإحترام وقبلها ووضعها على عينيه وبدأ يبكي بحيث أنّ الدموع بلّت ثيابه وهذا ما حيّر الإخوة، وبدأوا يفكّرون بعلاقة العزيز مع أبيهم بحيث جعله يبكي شوقاً وشغفاً حينما فتحها، ولعلّ فعل العزيز

---

[1] ـ يوسف، ٨٨ ـ ٨٧.

أثار عندهم إحتمال أن يكون يوسف هو العزيز، ولعلّ هذه الرسالة أثارت عواطف العزيز وشعوره بحيث لم يطق صبراً وعجز عن أن يخفي نفسه بغطاء السلطة وأجبره على كشف نفسه لإخوته.

أءنّك لأنت يوسف

وفي تلك اللحظة، وبعد أن مضت أيّام الإمتحان الصعب وكان قد إشتدت محنة الفراق على يوسف وظهرت عليه آثار الكآبة والهمّ، أراد أن يعرّف نفسه لإخوته فابتدرهم بقوله: **﴿هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون﴾**.

لاحظوا عظمة يوسف وعلوّ نفسه حيث يسألهم أوّلاً عن ذنبهم لكن بهذه الكناية اللطيفة يقول: **﴿ما فعلتم﴾** وثانياً يبيّن لهم طريقة الإعتذار وأنّ ما ارتكبوه في حقّ إخوتهم إنّما صدر عن جهلهم وغرورهم، وأنّه قد مضى أيّام الصبى والطفولة وهم الآن في دور الكمال والعقل!

كما أنّه يفهم من هذا الكلام أنّ يوسف لم يكن وحده الذي ابتلي بإخوته ومعاملتهم السيّئة، بل إنّ بنيامين أيضاً كان يقاسي منهم ألوان العذاب، ولعلّه قد شرح لأخيه يوسف في الفترة التي قضاها في مصر، جانباً ممّا عاناه تحت أيديهم.

إنّ يوسف حينما استفسر عمّا فعلوه معه ومع أخيه ختم إستفساره بإبتسامة عريضة ليدفع عن أذهانهم إحتمال أنّه سوف ينتقم منهم فظهرت لإخوته أسنانه الجميلة ولاحظوا وتذكّروا الشبه بينه وبين أسنان أخيهم يوسف.

أمّا هم، فإنّهم حينما لاحظوا هذه الأُمور مجتمعة، وشاهدوا أنّ العزيز يتحدّث معهم ويستفسرهم عمّا فعلوه بيوسف، تلك الأعمال التي لم يكن يعلمها أحد غيرهم إلّا يوسف.

ومن جهة أُخرىٰ أدهشهم يوسف وما أصابه من الوجد والهياج حينما إستلم كتاب يعقوب، وأحسّوا بعلاقة وثيقة بينه وبين صاحب الرسالة.

وثالثاً كلّما أمعنوا النظر في وجه العزيز ودقّقوا في ملامحه، لاحظوا الشبه الكبير بينه وبين أخيهم يوسف .. لكنّهم في نفس الوقت لم يدر بخلدهم ولم يتصوّروا أنّه يمكن أن يكون أخوهم يوسف قد إرتقى منصب الوزارة وصار عزيزاً لمصر، أين يوسف وأين الوزارة والعزّة؟! لكنّهم تجرّأوا أخيراً وسألوه مستفسرين منه **﴿قالوا أءنّك لأنت يوسف﴾**[1].

---

١ ـ يوسف، ٨٩ ـ ٩٠.

دموع الفرح

كانت هذه الدقائق أصعب اللحظات على الإخوة، حيث لم يكونوا يعرفون محتوى إجابة العزيز! وأنّه هل يرفع الستار ويظهر لهم حقيقته، أم أنّه سوف يعتقد بأنّهم مجانين حيث ظنّوا هذا الظنّ.

كانت اللحظات تمرّ بسرعة والإنتظار الطويل يثقل على قلوبهم فيزيد في قلقهم، لكن يوسف لم يدع أُخوته يطول بهم الإنتظار ورفع الحجاب بينه وبينهم وأظهر لهم حقيقة نفسه و **﴿قال أنا يوسف وهذا أخي﴾** لكن لكي يشكر الله سبحانه وتعالى على ما أنعمه من جميع هذه المواهب والنعم، ولكي يعلّم إخوته درساً آخر من دروس المعرفة قال: إنّه **﴿قدّ منّ الله علينا إنّه من يتّق ويصبر فإنّ الله لا يضيع أجر المحسنين﴾**.

لا يعرف أحد كيف مرّت هذه اللحظات الحسّاسة على الإخوة كما لا يعرف أحد مدى إنفعالهم وما خامرهم من السرور والفرح وكيف تعانقوا واحتضنوا أخاهم والدموع الغزيرة التي ذرفوها وذلك حينما التقوا بأخيهم وبعد عشرات السنين من الفراق، لكنّهم في كلّ الأحوال كانوا لا يطيقون النظر إلى وجه أخيهم يوسف لعلمهم بالذنب والجريمة التي اقترفوها في حقّه، فترقّبوا إجابة يوسف وأنّه هل يغفر لهم إساءتهم إليه ويعفو عن جريمتهم أم لا؟ فابتدأوا مستفسرين بقولهم: **﴿قالوا تالله لقد آثرك الله علينا﴾** أي إنّ الله سبحانه وتعالى قد فضّلك علينا بالعلم والحلم والحكومة **﴿وإن كنّا لخاطئين﴾** [1].

اليوم يوم الرحمة

يوسف الذي كانت نفسه تأبى أن يرى إخوته في حال الخجل والندامة ـ خاصّة في هذه اللحظات الحسّاسة وبعد إنتصاره عليهم ـ أو لعلّه أراد أن يدفع عن أذهانهم ما قد يتبادر إليها من إحتمال أن ينتقم منهم، فخاطبهم بقوله: **﴿قال لا تثريب عليكم اليوم﴾** أي إنّ العتاب والعقاب مرفوع عنكم اليوم، اطمئنوا وكونوا مرتاحي الضمير ولا تجعلوا للآلام والمصائب السابقة منفذاً إلى نفوسكم، ثمّ لكي يبيّن لهم أنّه ليس وحده الذي أسقط حقّه وعفا عنهم، بل

---

١ ـ يوسف، ٩١ ـ ٩٠.

إنّ الله سبحانه وتعالى أيضاً عفا عنهم حينما أظهروا الندامة والخجل قال لهم: ﴿يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين﴾ أي إنّ الله سبحانه وتعالى قد قبل توبتكم وعفا عنكم لأنّه أرحم الراحمين.

وهذا دليل على علو قدر يوسف وغاية فضله حيث إنّه لم يعف عن سيّئات إخوته فحسب، بل رفض حتّى أن يوبّخ ويعاتب إخوته ـ فضلاً عن أن يجازيهم ويعاقبهم ـ إضافةً إلى هذا فإنّه طمأنهم على أنّ الله سبحانه وتعالى رحيم غفور وأنّه تعالى سوف يعفو عن سيّئاتهم، وإستدلّ لهم على ذلك بأنّ الله سبحانه وتعالى هو أرحم الراحمين.

وهنا تذكر الإخوة مصيبة أُخرىٰ قد ألمّت بعائلتهم والشاهد الحي على ما إقترفوه في حقّ أخيهم ألا وهو أبوهم حيث فقد الشيخ الكبير بصره حزناً وفراقاً على يوسف، أمّا يوسف فإنّه قد وجد لهذه المشكلة حلاً حيث خاطبهم بقوله: ﴿إذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيراً﴾ ثمّ طلب منهم أن يجمعوا العائلة ويأتوا بهم جميعاً ﴿وأتوني بأهلكم أجمعين﴾ [1].

من الذي حمل قميص يوسف؟

إنّ يوسف قال: إنّ الذي يحمل قميصي المشافي إلى أبي لابدّ وأن يكون هو نفسه الذي حمل قميصي الملطّخ بالدماء إليه، لكي يدخل السرور على قلبه بعد أن ملأ قلبه حزناً وألماً من قبل! فأعطى لـ(يهودا) قميصه بعد أن اعترف له أنّه هو الذي حمل قميصه الملطّخ بالدماء إلى أبيه وأخبره بأنّ الذئب قد أكل يوسف، وهذا التصرّف من يوسف إن لم يدلّ على شيء فإنّه يدلّ على أنّه برغم أعماله الكثيرة ومتاعبه اليوميّة، فإنّه لم يغفل عن صغائر الأُمور المتعلّقة بالسلوك الأخلاقي

يوسف وجلالة شأنه

إنّ إخوة يوسف ـ بعد هذه القضايا ـ كانوا يحسّون بالخجل الشديد فأرسلوا إليه من يقول له: يا يوسف إنّك تستضيفنا كلّ يوم صباحاً ومساءً ـ على مائدتك فنأكل من زادك وهذا ما

---

١ ـ يوسف، ٩٣ ـ ٩٢.

يزيد في خجلنا حيث لا نطيق النظر إلى وجهك بعد أن نتذكّر إساءتنا إليك، فأجابهم بكلمة لطيفة ليبعد عنهم الخجل بأنّ الفضل يعود إليهم، وأنّ جلوسهم على مائدته لهو مكرمة منهم وإنّ الشعب المصري كانوا ينظرون إليّ نظرة الحرّ إلى العبد ويقولون فيما بينهم (سبحان من بلغ عبداً بيع بعشرين درهماً ما بلغ!!) أي انظروا إلى فعل الله سبحانه وتعالى بهذا العبد فإنّه قد بيع في السوق بعشرين درهماً وهو الآن وصل إلى هذه المرتبة السامية، لكنّهم الآن ينظرون إلى مائدتي وأنتم جلوس حولها، فيعرفون قدري وتثبت لهم منزلتي وإنّني لست بعبد ذليل بيع بعشرين درهماً، وإنّما أنا سليل بيت النبوّة والرسالة ومن أولاد نبي الله إبراهيم الخليل، وهذا ما أُباهي وأفتخر به أمام الآخرين.

وأخيراً شملتهم رعاية الله ولطفه

أمّا أولاد يعقوب فإنّهم بعد أن واجهوا يوسف وجرى لهم ما جرى حملوا معهم قميص يوسف فرحين ومستبشرين وتوجّهوا مع القوافل القادمة من مصر، وفيما كان الإخوة يقضون أسعد لحظات حياتهم، كان هناك بيت في بلاد الشام وأرض كنعان ألا وهو بيت يعقوب الطاعن في السنّ حيث كان يقضي هو وعائلته أحرج اللحظات وأشدّها حزناً وبؤساً.

لكن ـ مقارناً مع حركة القافلة من مصر ـ حدث في بيت يعقوب حادث غريب بحيث أذهل الجميع وصار مثاراً للعجب والحيرة، حيث نشط يعقوب وتحرّك من مكانه وتحدّث كالمطمئن والواثق بكلامه قال: لو لم تتحدّثوا عنّي بسوء ولم تنسبوا كلامي إلى السفاهة والجهل والكذب لقلت لكم: ﴿إنّي لأجد ريح يوسف﴾ فإنّي أحسّ بأنّ أيّام المحنة والآلام سوف تنصرم في القريب العاجل، وأنّه قد حان وقت النصر واللقاء مع الحبيب، وأرى أنّ آل يعقوب قد نزعوا ثوب العزاء والمصيبة ولبسوا لباس الفرح والسرور ـ لكن لا تصدّقون كلامي ﴿ولمّا فصلت العير قال أبوهم إنّي لأجد ريح يوسف لولا أن تفنّدون﴾.

أمّا الذين كانوا مع يعقوب وهم عادةً أحفاده وأزواج أولاده وغيرهم من الأهل والعشيرة فقد إستولى عليهم العجب وخاطبوه بوقاحة مستنكرين: ﴿قالوا تالله إنّك لفي ضلالك القديم﴾[1] أليس هذا برهاناً واضحاً على ضلالك حيث مضت سنين طويلة على موت يوسف

---

١ ـ يوسف، ٩٥ ـ ٩٤.

لكنّك لا زلت تزعم أنّه حي، وأخيراً تقول: إنّك تشمّ رائحته من مصر؟! أين مصر وأين الشام وكنعان؟! وهذا دليل على بعدك عن عالم الواقع وإنغماسك في الأوهام والخيالات لكنّك قد ضللت منذ مدّة طويلة، ألم تقل لأولادك قبل فترة اذهبوا إلى مصر وتحسّسوا عن أحوال يوسف!

يظهر من هنا أنّ المقصود بـ(الضلال) ليس الإنحراف في العقيدة، بل الإنحراف في تشخيص حقيقة حال يوسف والقضايا المتعلّقة به، لكن يستفاد من هذه التعابير أنّهم كانوا يتعاملون مع هذا النّبي الكبير والشيخ المتيقّظ الضمير بخشونة وقساوة بالغين بحيث كانوا يقولون له مرّة: ﴿**إنّ أبانا في ضلال مبين**﴾ وهنا قالوا له: ﴿**إنّك لفي ضلالك القديم**﴾ لكنّهم كانوا غافلين عن الحقيقة التي كان يتحلّى بها يعقوب وعن صفاء قلبه، ويتصوّرون أنّ قلب يعقوب كقلوبهم القاسية المظلمة وأنّه لا يطّلع على حقائق الأُمور ماضيها ومستقبلها.

وتصل قافلة كنعان

وتمضي الليالي والأيّام ويعقوب في حالة الإنتظار ... الإنتظار القاسي الذي يستبطن السرور والفرح والهدوء والإطمئنان، إلّا أنّ المحيطين به كانوا مشغولين عن هذه الأُمور لإعتقادهم بأنّ قضيّة يوسف مختومة وإلى الأبد.

وبعد عدّة أيّام من الإنتظار ـ والتي لا يعلم إلّا الله كيف قضاها يعقوب ـ إرتفع صوت المنادي معلناً عن وصول قافلة كنعان من مصر، لكن في هذه المرّة ـ وخلافاً للمرّات السابقة ـ دخل أولاد يعقوب إلى المدينة فرحين مستبشرين، وتوجّهوا مسرعين إلى بيت أبيهم، وقد سبقهم الـ(بشير) الذي بشّر يعقوب بحياة يوسف وألقى قميص يوسف على وجهه.

أمّا يعقوب الذي أضعفت المصائب بصره ولم يكن قادراً على رؤية القميص فبمجرّد أن أحسّ بالرائحة المنبعثة من القميص شعر في تلك اللحظة الذهبية بأنّ نوراً قد شعّ في جميع ذرّات وجوده وأنّ السّماء والأرض مسروران ونسيم الرحمة يدغدغ فؤاده ويزيل عنه الحزن والألم، شاهد الجدران وكأنّها تضحك معه، وأحسّ يعقوب بتغيّر حالته، وفجأةً رأى النّور في عينيه وأحسّ بأنّهما قد فتحتا ومرّة أُخرىٰ رأى جمال العالم، والقرآن الكريم يصف لنا هذه الحالة بقوله: ﴿**فلمّا أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتدّ بصيراً**﴾.

هذه الحالة التي حصلت ليعقوب أسالت دموع الفرح من عيون الإخوة والأهل، وعند ذاك خاطبهم بقوله: ﴿ألم أقل لكم إنّي أعلم من الله ما لا تعلمون﴾.

هذه المعجزة الغريبة، جعلت الأولاد يعودون إلى أنفسهم، ويتساءلون عنها ويفكّرون في ماضيهم الأسود المليء بالأخطاء والذنوب، وما اعتورهم من الحسد وغيره من الصفات الرذيلة البعيدة عن الإنسانية، لكن ما أجمل التوبة والعودة إلى طريق الصواب حينما ينكشف للإنسان خطأ المسيرة التي سار فيها .. وما أحلى تلك اللحظات التي يحاول المذنب أن يطلب العفو ممّن جنى عليه، ليطهّر به نفسه ويبعدها عن جادّة الخطأ والإنحراف، وهذا ما قام به الإخوة حيث وقعوا نادمين على يد أبيهم يقبّلونها ويطلبون منه العفو والإستغفار ﴿قالوا ياأبانا استغفر لنا ذنوبنا إنّا كنّا خاطئين﴾.

أمّا يعقوب هذا الرجل العظيم الذي كانت روحه أوسع من المحيطات، فقد أجابهم دون أن يلومهم على تلك الأفعال التي اقترفوها في حقّه وحقّ أخيهم .. أجابهم بقوله: ﴿سوف استغفر لكم ربّي﴾ وأملي معقود بأن يغفر الله سبحانه وتعالى ذنوبكم ﴿إنّه هو الغفور الرحيم﴾[1] [2].

---

١ ـ يوسف، ٩٨ ـ ٩٦.

٢ ـ هذه الآيات تثير اسئلة:

١ ـ كيف أحسّ يعقوب برائحة قميص يوسف؟!

هذا سؤال أثاره الكثير، واعتبروه معجزة خارقة للعادة من قبل يعقوب أو يوسف. إلّا أنّه ـ مع الأخذ بنظر الإعتبار سكوت القرآن عن هذا الأمر ـ ولم يتناوله على أنّه أمر إعجازي أو غير إعجازي فمن الهيّن أن نجد له توجيهاً علميّاً أيضاً. إذ أنّ حقيقة «التليبائي» أو إنتقال الفكر من النقاط أو الأماكن البعيدة تُعدّ مسألة علميّة قطعيّة مسلّماً بها ... وأنّها تحدث عند من تكون لديهم علاقة قريبة تربط بعضهم ببعض، أو تكون لديهم قدرة روحيّة عالية.

ولعلّ كثيراً منّا يواجه مثل هذه المسألة في حياتنا اليوميّة، وذلك أن يشعر شخص «من أب، أو أمّ، أو أخ» مثلاً بالكآبة وإنقباض النفس دون سبب، ثمّ لا يمضي وقت ـ أو فترة ـ حتّى يبلغه خبر بأنّ أخاه أو ولده قد حدث له حادث ما في نقطة بعيدة عنه.

فالعلماء يوجّهون هذا الإحساس على أنّه جرى عن طريق إنتقال الفكر.

وما ورد في قصّة يعقوب لعلّه من هذا القبيل أيضاً، فعلاقته الشديدة بيوسف وعظمة روحه، كلّ ذلك كان سبباً لأن يشعر بالحالة الحاصلة للأخوة نتيجة حمل قميص يوسف من مسافة بعيدة.

ومن الممكن أن يتعلّق هذا الأمر بمسألة سعة دائرة علم الأنبياء أيضاً.
وقد وردت إشارة طريفة ـ في بعض الرّوايات ـ إلى مسألة إنتقال الفكر، وهي أنّ بعضهم سأل الإمام أبا جعفر الباقر عليه السلام: فقال: جُعلت فداك، ربّما حزنت من دون مصيبة تُصيبني أو أمر ينزل بي، حتّى يعرف ذلك أهلي في وجهي وصديقي.
فقال عليه السلام: **«نعم ياجابر، إنّ الله خلق المؤمنين من طينة الجنان وأجرى فيهم من ريح روحه، فلذلك المؤمن أخو المؤمن لأبيه وأمّه، فإذا أصاب روحاً من تلك الأرواح في بلد من البلدان حُزنٌ حزنت هذه لأنّها منها».**
ويستفاد من بعض الرّوايات أيضاً أنّ هذا القميص لم يكن قميصاً مألوفاً، بل كان ثوباً من ثياب الجنّة، وقد خلّفه إبراهيم الخليل عليه السلام في آل يعقوب وأسرته ليكون ذكرى له، وأنّ رجلاً كيعقوب عليه السلام الذي كانت لديه شامّة من «الجنّة» أحسّ برائحة هذا الثوب الذي هو من ثياب الجنّة من بعيد.

٢ ـ السؤال المعروف الآخر هنا هو ما أثاره بعضهم في شأن يعقوب وهو:

كيف يمكن أن يكون هذا النّبي العظيم قد أحسّ بريح قميص يوسف من مسافة قدّرها بعضهم بثمانين فرسخاً، وقال بعضهم: من مسافة عشرة أيّام، مع أنّه لم يطّلع على الحوادث القريبة منه التي مرّت على يوسف عندما أُلقي في الجبّ في أرض كنعان؟
والجواب على هذا السؤال يسير لا غبار عليه، لأنّ علمهم بالأُمور الغيبيّة يستند إلى علم الله وإرادته، وما يشاؤه الله لهم من العلم «أو عدمه» حتّى ولو كان ذلك في أقرب نقطة من نقاط العالم.
فيمكن تشبيههم من هذا الوجه بالقافلة التي تسير في ليل مظلم في صحراء تغشيها الغيوم وبينا هي على هذه الحال وإذا السّماء تومض بالبرق اللامع فتضيء الصحراء إلى منتهى أطرافها، فترى القافلة بأمّ أعينها كلّ شيء أمامها، إلّا أنّ البرق ينطفيء ثانيةً ويستوعب الظلام كلّ مكان فلا يرى أحد شيئاً.
ولعلّ الحديث الوارد عن الإمام الصادق عليه السلام في شأن علم الإمام عليه السلام إشارة إلى هذا المعنى، إذ جاء عنه عليه السلام أنّه قال: **«جعل الله بينه وبين الإمام عموداً من نور، ينظر الله به إلى الإمام، وينظر الإمام به إليه، فإذا أراد علم شيء نظر في ذلك النّور فعرفه».**
ومع الإلتفات إلى هذه الحقيقة، فلا مجال للتعجّب بأن تقتضي مشيئة الله سبحانه ـ لإبتلاء يعقوب وتمحيصه أن لا يعرف يوماً شيئاً عن الحوادث في كنعان وهي تجري قريباً منه، وأن يحسّ برائحة قميص ولده يوسف وهو في مصر في يوم آخر عندما قُدّر له أن تنتهي محنته وبلواه.

٣ ـ كيف رُدّ على يعقوب بصره؟!

احتمل البعض أنّ يعقوب عليه السلام لم يفقد بصره بصورة كليّة، وإنّما ضعف بصره، وعند حصول مقدّمات الوصال تبدّل تبدّلاً بحيث عاد ذلك البصر إلى حالته الطبيعيّة الأُولىٰ، إلّا أنّ ظاهر آيات القرآن يدلّ على أنّه فقد بصره تماماً وابيضّت عيناه من الحزن، وعلى ذلك فإنّ بصره عاد إليه عن طريق

ما أحلىٰ اجمل لحظة الوصال!

مع وصول القافلة التي تحمل أعظم بشارة من مصر إلى كنعان، وعودة البصر إلى يعقوب، إرتفعت أهازيج في كنعان. فالبيت الذي لم يخلع أهله عنهم ثياب الحزن والأسى لسنين عديدة، أصبح غارقاً في السرور والحبور، فلم يكتموا رضاهم عن هذه النعم الإلهيّة أبداً.

والآن ينبغي على أهل هذا البيت ـ وفقاً لوصيّة يوسف ـ أن يتحرّكوا ويتّجهوا نحو مصر، وتهيّأت مقدّمات السفر من جميع النواحي، وركب يعقوب راحلته وشفتاهُ رطبتان بذكر الله وتمجيده، وقد منحه عشق يوسف قوّةً وعزماً إلى درجة وكأنّه عاد شاباً من جديد.

وهذا السفر على خلاف الأسفار السابقة ـ التي كانت مقرونة لدى إخوة يوسف بالقلق والحزن ـ كان خالياً من أيّة شائبة من شوائب الهمّ والغمّ. وحتّى لو كان السفر بنفسه متعباً، فهذا التعب لم يكن شيئاً ذا بال قِبالَ ما يهدفون إليه في مسيرهم هذا.

كانوا يطوون الليالي والأيّام ببطء، لأنّ الشوق كان يحيل كلّ دقيقة إلى يومٍ أو سنة، ولكن إنتهى كلّ شيء ولاحت معالم مصر وأبنيتها من بعيد بمزارعها الخُضر وأشجارها الباسقة السامقة وعماراتها الجميلة.

إلّا أنّ القرآن الكريم ـ كعادته دائماً ـ حذف هذه المقدّمات التي يمكن أن تدرك بأدنى تفكّر وتأمّل، فقال في هذا الشأن: **﴿فلمّا دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه﴾**.

وأخيراً تحقّقت أحلى سويعات الحياة ليعقوب، وفي هذا اللقاء والوصال الذي تمّ بين يعقوب ويوسف بعد سنين من الفراق، مرّت على يعقوب ويوسف لحظات لا يعلم ا الله عواطفها في تلك اللحظات الحلوة، وأيّة دموع إنسكبت من عينيهما من الفرح.

تعبير رؤيا يوسف

وعندها التفت يوسف إلى إخوته وأبويه و **﴿قال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين﴾** لأنّ مصر أصبحت تحت حكم يوسف في أمن وأمان واطمئنان.

ويُستشفّ من هذه الجملة أنّ يوسف كان قد خرج إلى خارج بوّابة المدينة لإستقبال

الإعجاز، حيث يقول القرآن الكريم: ﴿فارتدّ بصيراً﴾.

والديه وإخوته، ولعلّ التعبير بـ﴿دَخلوا على يوسف﴾ يحتمل أن يكون يوسف قد أمر أن تنصب الخيام هناك «خارج المدينة» وأن تُهيأ مقدّمات الإستقبال لأبويه وإخوته.

فلمّا دخلوا القصر أكرمهم يوسف ﷺ ﴿ورفع أبويه على العرش﴾.

وكانت هذه العظمة من النعمة الإلهيّة واللطف والموهبة التي منّ الله بها على يوسف قد أدهشت إخوة يوسف وأبويه فذهلوا جميعاً ﴿وخرّوا له سُجّداً﴾.

وعندها إلتفت يوسف إلى أبيه ﴿وقال ياأبت هذا تأويل رؤياي من قبل﴾.

ألم يكن أنّي رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين؟!

فانظر ياأبت كما كنت تتوقّع من عاقبة أمري ﴿قد جعلها ربّي حقّاً﴾ .. ﴿وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن﴾.

الطريف هنا أنّ يوسف تكلّم هنا عن سجنه في مصر من بين جميع مشاكله ولم يتكلّم على الجبّ مراعاةً لإخوته.

ثمّ أضاف يوسف قائلاً: ﴿وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي﴾.

ومرّة أُخرىٰ يظهر هنا يوسف مثلاً آخر من سعة صدره وعظمته، ودون أن يقول: من هو المقصّر، وإنّما يقول بصورة مجملة أنّ الشيطان تدخّل فنزغ بيني وبين إخوتي، فهو لا يريد أن يتشكّىٰ من أخطاء إخوته السالفة.

والتعبير عن أرض كنعان بالبدو تعبير طريف وكاشف عن مدى الإختلاف بين تمدّن مصر وتخلّف كنعان «حضاريّاً».

وأخيراً يقول يوسف: إنّ جميع هذه المواهب هي من قِبَل الله، ولِمَ لا تكون كذلك فـ﴿إنّ ربّي لطيف لما يشاء﴾.

فيتولّى أُمور عباده بالتيسير والتدبير .. وهو يعلم من هو المحتاج ومن هو الجدير بالإستجابة ﴿إنّه هو العليم الحكيم﴾.

ثمّ يلتفت يوسف نحو مالك الملك الحقيقي وولي النعمة الدائمة فيقول شاكراً راجياً: ﴿ربّ قد آتيتني من الملك وعلّمتني من تأويل الأحاديث﴾.

وهذا العلم البسيط بحسب الظاهر «تأويل الأحاديث» كم كان له من أثر عظيم في تغيير حياتي وحياة جماعة آخرين من عبادك، وما أعظم بركة العلم!

فأنت ياربّ: ﴿فاطر السّماوات والأرض﴾.

ولذلك فقد خضعت وإستسلمت قبال قدرتك جميع الأشياء.

ربّاه: ﴿أنت وليّ في الدنيا والآخرة توفّني مسلماً وألحقني بالصالحين﴾[١].

عدم ذكر القصّة للأب

قال يعقوب ليوسف: يابُني حدّثني كيف صنع بك إخوتك؟!

قال: ياأبت دعني.

فقال: أقسمت عليك إلّا أخبرتني!

فقال له: أخذوني وأقعدوني على رأس الجبّ، ثمّ قالوا لي: انزع قميصك، فقلت لهم إنّي أسألكم بوجه أبي يعقوب أن لا تنزعوا قميصي ولا تبدوا عورتي، فرفع فلان السكّين عليّ، وقال: انزل.

فصاح يعقوب فسقط مغشيّاً عليه ثمّ أفاق، فقال له: يابني كيف صنعوا بك؟!

فقال يوسف: إنّي أسألك بإله إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلّا أعفيتني فتركه».

وهذا الأمر يدلّ على أنّ يوسف لم يرغب بأيّ وجه أبداً أن يُعيد في ذهنه أو في ذهن أبيه الماضي المرير، بالرغم من أنّ رغبة يعقوب في التقصّي عن الأمر لم تدعه يستقرّ.

---

١ ـ يوسف، ١٠١ ـ ٩٩.

النّبي شعيب عليه السلام

مدين بلدة شعيبٍ ...

قوم شعيب وأهل مدين، أولئك الذين حادوا عن طريق التوحيد وهاموا على وجوههم في شركهم وعبادة الأصنام، ولم يعبدوا الأصنام فحسب، بل الدّرهم والدينار والثروة والمال، ومن أجل ذلك فإنّهم لوثوا تجارتهم الرابحة وكسبهم الوفير بالغش والبخس والفساد.

في بداية القصّة يقول القرآن الكريم ﴿وإلى مدين أخاهم شعيباً﴾ [١] [٢] إنّ نسب شعيب ينتهي إلىٰ ابراهيم عليه السلام كما تذكر التواريخ.

و«مدين» على وزن «مريم» اسم لمدينة شعيب وقبيلته، وتقع المدينة شرق خليج العقبة، وأهلها من أبناء إسماعيل، وكانوا يتاجرون مع أهل مصر ولبنان وفلسطين.

ويطلق اليوم على مدينة «مدين» اسم «معّان» ولكن بعض الجغرافيين أطلقوا اسم مدين على الساكنين بين خليج العقبة وجبل سيناء.

وورد في التوراة أيضاً اسم «مديان» ولكن تسمية لبعض القبائل، وطبيعي أنّ اطلاق الاسم على المدينة وأهلها أمر رائج.

---

١ ـ هود، ٨٤.

٢ ـ وكلمة «أخاهم» تستعمل في مثل هذا التعبير لبيان منتهى المحبّة من قِبَل الأنبياء لقومهم، لا لأنّهم من أفراد قبيلته وقومه فحسب، بل إضافةً إلى ذلك فإنّه يريد الخيرَ لهم. ويتحرق قلبه عليهم، فمثله مثل الأخ الودود.

المفاسد الاقتصاديّة

هذا النّبي وهذا الأخ الودود المشفق على قومه ـ كأي نبيّ في أُسلوبه وطريقته في بداية الدعوة ـ دعاهم أوّلاً إلى ما هو الأساس والعماد والمعتقد وهو «التوحيد» وقال: ﴿يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾.

ثمّ أشار إلى أحد المفاسد الإقتصادية التي هي من افرازات عبادة الأصنام والشرك، وكانت رائجة عند أهل مدين يومئذٍ جدّاً، وقال: ﴿ولا تنقصوا المكيال﴾[1].

ورواج هذين الأمرين بينهم يدل على عدم النظم والحساب والميزان في أعمالهم ونموذجاً للظلم والجور والإجحاف في ذلك المجتمع الثري.

إن قوم شعيب (أهل مدين وأصحاب الأيكة) كانوا مستقرين في منطقة حساسة تجارية، وهي على طريق القوافل القادمة من الحجاز إلى الشام، أو العائدة من الشام إلى الحجاز، ومن مناطق أُخَر.

ونحن نعرف أن هذه القوافل تحتاج في اثناء الطريق إلى أُمور كثيرة... وطالما يسيءُ أهل المنطقة الإستفادة من هذه الحالة، فهم يستغلونها فيشترون بضائعهم بأبخس ثمن... ويبيعون عليهم المستلزمات بأعلى ثمن «وينبغي الإلتفات إلى أن أكثر المعاملات في ذلك الحين كانت قائمة على أساس المعاوضة سلعة بسلعة»...

وربما تذرعوا عند شراء البضاعة بأن فيها عدة عيوب، وإذا أرادوا أن يبيعوا عليهم عرّفوها بأحسن التعاريف، وعندما يزنون لأنفسهم يستوفون الوزن، وإذا كالوا الآخرين أو وزنوا لهم لا يهتمون بالميزان الصحيح والإستيفاء السليم، وحيث أن الطرف المقابل محتاج إلى هذه الأُمور على كل حال ومضطر إليها، فلا بد له من أن يقبلها ويسكت عليها!...

وبغض النظر عن القوافل التي تمرّ عليهم، فإنّ أهل المنطقة نفسها المضطرين إلى التعامل ببضائعهم مع هؤلاء المطففين، وليسوا بأحس حظاً من أصحاب القوافل أيضاً.

فقيمة المتاع سواءً كان الجنس يراد بيعهُ أو شراؤه تتعين بحسب رغبة الكسبة هؤلاء. والوزن والمكيال على كل حال بأيديهم، فهذا المسكين المستضعف عليه أن يستسلم لهم كالميت بيد غاسله!

---

١ ـ هود، ٨٤.

ثمّ يؤكّد شعيبﷺ، على نظامهم الإقتصادي، فإذا كان قد نهىٰ قومه عن قلّة البيع والبخس في المكيال، فهنا يدعوهم إلى إيفاء الحقوق والعدل والقسط حيث يقول: ﴿ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط﴾.

ثمّ يخطو خطوة أوسع ويقول: ﴿ولا تبخسوا الناس أشياءهم﴾

ونجد في نهاية الآية أنّ شعيباً يخطو خطوةً أُخرىٰ أوسع ويقول لقومه: ﴿ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾.

فالفساد يقع عن طريق البيع ويقع عن طريق غصب حقوق الناس والإعتداء على حقوق الآخرين، والفساد أيضاً يقع في الإخلال بالموازين والمقاييس الإجتماعيّة، ويقع أيضاً ببخس الناس أشياءهم وأموالهم، وأخيراً يقع الفساد على الحيثيات بالإعتداء على حرمتها وعلى النواميس وأرواح الناس.

ثمّ يخبرهم أنّ زيادة الثروة ـ التي تصل إلى أيديكم عن طريق الظلم واستثمار الآخرين ـ ليست هي السبب في غناكم، بل ما يغنيكم هو ﴿بقيّة الله خير لكم إنّ كنتم مؤمنين﴾[١].

المنطق الواهي

والآن فَلْنَرَ ما كان ردّ القوم اللجوجين إزاء نداء هذا المصلح السّماوي «شعيب».

فبما إنّهم كانوا يتصورون أنّ عبادة الأصنام من آثار سلفهم الصالح، ودلالة على أصالة ثقافتهم، وكانوا لا يرفعون اليد عن الغش في المعاملة وتحقيق الربح الوفير عن هذا الطريق قالوا ﴿يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا﴾ ونترك حريتنا في التصرف بأموالنا فلا نستطيع الإستفادة منها ﴿أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء﴾ إنّ هذا بعيد منك ﴿إنّك أنت الحليم الرشيد﴾[٢]؟![٣]

---

١ ـ هود، ٨٦ ـ ٨٥.

٢ ـ هود، ٨٧.

٣ ـ وهنا ينقدح هذا السؤال وهم لِمَ سألوه عن الصلاة وأظهروا اهتمامهم بها؟!

قال بعض: كان ذلك لأنّ شعيباً كان يكثر من صلاته ويقول للناس:

إنّ الصلاة تنهى صاحبها عن الفحشاء والمنكرات.

ولكن هؤلاء الأغبياء الذين لم يعرفوا السرّ والعلاقة بين الصلاة وترك المنكرات، كانوا يسخرون من

عاقبة الحمقىٰ

لما رأى قوم شعيب الظالمون ـ أنّهم لا يملكون دليلاً ليواجهوا به منطقه المتين... ومن أجل أن يسيروا على نهجهم ويواصلوا طريقهم، رشقوه بسيلٍ من التُهم والأكاذيب.

فالتهمة الأُولىٰ هي ما يلصقها الجبابرة دائماً والمجرمون بالأنبياء، وهي السحر فاتّهموه بها و ﴿**قالوا إنّما أنت من المسحّرين**﴾ ولايُرى في كلامك ما هو منطقي!! وتظن أنّك بهذا الكلام تستطيع تقييد حريتنا في التصرف في أموالنا كما نشاء!!

ثمّ ما الفارق بينك وبيننا لنتّبعك؟! ولا مزيّة لك علينا ﴿**وما أنت إلّا بشر مثلنا وإن نظنُّك لمن الكاذبين**﴾.

وبعد إلقاء هذا الكلام المتناقض، إذ تارةً يدعونه (من الكاذبين) ورجلاً انتهازياً، وتارةً يدعونه مجنوناً أو من المسحّرين، وكان كلامهم الأخير هو: إن كنت نبيّاً ﴿**فاسقط علينا كسفاً من السماء إن كنت من الصادقين**﴾[1] حيث كنت تهددنا دائماً بهذا اللون من العذاب.

وهكذا يبلغ بهم صلفهم ووقاحتهم وعدم حيائهم إلى هذه الدرجة، وأظهروا كفرهم وتكذيبهم في أسوأ الصور.

جواب شعيب

ولكن شعيباً ردّ على من اتّهمه بالسفه وقلّة العقل بكلام متين و ﴿**قال يا قوم أرأيتم إنّ كنت على بينةٍ من ربّي ورزقني منه رزقاً حسناً**﴾.

إنّه يريد أن يفهم قومه أنّ في عمله هذا هدفاً معنوياً وإنسانياً وتربوياً، وأنّه يعرف حقائق لا يعرفها قومه، والإنسان دائماً عدوّ ما جهل. ثمّ يضيف هذا النّبي العظيم قائلاً: ﴿**وما أُريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه**﴾ فلا تتصوروا أنني أقول لكم لا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تنقصوا المكيال، وأنا أبخس الناس أو أنقص المكيال، أو أقول لكم لا تعبدوا الأوثان وأنا أفعل ذلك كلّه، كلا فإنّني لا أفعل شيئاً من ذلك أبداً.

شعيب وكانوا يقولون له: أهذه الأذكار والأوراد والحركات التي تقوم بها تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا ونهمل سنّة السلف وثقافتنا التقليدية أو أن نسلب اختيارنا من التصرف بأموالنا كيف شئنا؟!

١ ـ الشعراء، ١٨٧ ـ ١٨٥.

ويستفاد من هذه الجملة أنّهم كانوا يتهمون شعيباً بأنّه كان يريد الربح لنفسه، ولهذا فهو ينفي هذا الموضوع صراحةً ويقول تعقيباً على ما سبق **﴿إن أُريد إلّا الإصلاح ما استطعت﴾**.

﴿وما توفيقي إلّا بالله عليه توكلت وإليه أنيب﴾.

وأسعى للإستعانة به على حل المشاكل، وأتوكل عليه في تحمّل الشدائد في هذا الطريق، وأعود إليه أيضاً.

ثمّ ينبههم إلى مسألة أخلاقية، وهي أنّه كثيراً ما يحدث للإنسان أنّه لا يعرف مصالحه وينسى مصيره، وذلك بسبب بغضه وعدائه بالنسبة لشخص آخر أو التعصب الأعمى واللجاجة في شيء ما، فيقول لهم **﴿ويا قوم لا يجرمنكم شقاقي﴾** فتبتلوا بما ابتلى به غيركم و**﴿أن يصيبكم مثلُ ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح﴾** وما حدث لقوم لوط من البلاء العظيم حيث أمطرهم الله بحجارة من سجيل منضود وقلب مدنهم فجعل عاليها سافلها **﴿وما قوم لوط منكم ببعيد﴾** [1] فلا زمانهم بعيد عنكم كثيراً، ولا مكان حياتهم، كما أنّ أعمالكم وذنوبكم لا تقل عن أعمالهم وذنوبهم أيضاً.

و«مدين» التي كانت موطن شعيب لم تكن بعيدة عن موطن قوم لوط، لأنّ الموطنين كلاهما كانا من مناطق «الشامات» وإذا كان بينهما فاصل زمني، فلم يكن الفاصل بالمقدار الذي يستدعي نسيان تأريخه، وأمّا من الناحية العملية فالفرق كبير بين الإنحراف الجنسي الذي كان عليه قوم لوط والإنحراف الإقتصادي الذي كان عليه قوم شعيب، لكن كليهما يتشابهان في توليد الفساد في المجتمع والإخلال بالنظام الإجتماعي وإماتة الفضائل الخُلقية وإشاعة الإنحراف.

التّهديدات المتبادلة بين شعيب وقومه

إنّ شعيباً هذا النّبي العظيم الذي لُقِّبَ بخطيب الأنبياء لخطبه المعروفة والواضحة، والتي كانت أفضل دليل أمين للحياة المادّية والمعنوية لهذه الجماعة، واصل محاججته لقومه بالصبر والأناة والقلب المحترق، ولكن تعالوا لنرى كيف ردّ عليه هؤلاء القوم الضالون؟!

لقد أجابوه بأربع جمل كلّها تحكي عن جهلهم ولجاجتهم:

---

١ ـ هود، ٨٩ ـ ٨٨.

فأوّلها: أنّهم قالوا: ﴿يا شعيب ما نفقه كثيراً ممّا تقول﴾ ... فكلامك أساساً ليس فيه أوّل ولا آخر، وليس فيه محتوى ولا منطق قيم لنفكر فيه ونتدبره وليس لديك شيء نجعله مـلاكاً لعملنا، فلا ترهق نفسك أكثر! وامض الى قوم غيرنا...

والثّانية: قولهم ﴿وإنّا لنراك فينا ضعيفاً﴾ فإذا كنت تتصور أنّك تستطيع إثبات كلماتك غير المنطقية بالقدرة والقوّة فانت غارق في الوهم.

والثّالثة: هي أنّه لا تظنّ أنّنا نتردد في القضاء عليك بأبشع صورة خوفاً منك ومن بأسك، ولكن احترامنا لعشيرتك هو الذي يمنعنا من ذلك ﴿ولولا رهطك لرجمناك﴾!

وقولهم الأخير: ﴿وما أنت علينا بعزيز﴾ فمهما كانت منزلتك في عشيرتك، ومهما كـنت كبيراً في قبيلتك إلّا أنّه لا منزلة لك عندنا لسلوكك المخالف والمرفوض.

ولكنّ شعيباً دون أن يتأثر بكلماتهم الرخيصة واتهاماتهم الواهية أجابهم بمنطقه العذب وبيانه الشائق متعجباً وقال: ﴿يا قوم أرهطي أعزّ عليكم من الله﴾ أفتذرونني من أجل رهطي وقبيلتي التي لا تتجاوز عدّة أنفار ولا ينالني منكم سوء، فَلِمَ لا تصغون لكلامي في الله؟ وهل يمكن أن نقارن عدّة أفراد بعظمة الله سبحانه ... وأنتم لم تهابوه وتوقّروه ﴿واتخذتموه وراءكم ظهرياً﴾.

وفي الختام يقول لهم: لا تظنوا أنّ الله غافل عنكم أو أنّه لا يـرى أعـمالكم ولا يسـمع كلامكم، بل ﴿إنّ ربّي بما تعملون محيط﴾.

حيث أنّ المشركين من قوم شعيب هددوهُ في آخر كلامهم بالرجم، وأبرزوا قوتهم أمامه، كان موقف شعيب من تهديداتهم على النحو التالي: ﴿ويا قوم اعملوا على مكانتكم إنّي عامل سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه وارتقبوا إنّي معكم رقيب﴾[1]. أي انتظروا لتنتصروا عليّ بقواكم وجماعتكم وأموالكم، وأنا منتظر أيضاً أن يصيبكم الله بعذابه ويهلككم جميعاً.

عاقبة المفسدين في مدين

قرأنا في قصص الأقوام السابقين مراراً، أنّ الأنبياء كانوا في المرحلة الأُولىٰ يدعونهم الى الله ولم يألوا جهداً في النصيحة والإبلاغ وبيان الحجّة، وفي المرحلة التي بعدها حيث لم ينفع

---

١ ـ هود، ٩٣ ـ ٩١.

النصح للجماعه ينذرها نبيّها ويخوّفها من عذاب الله، ليعود الى طريق الحق من فيه الإستعداد ولتتم الحجّة عليهم، وفي المرحلة الثّالثة، وبعد أن لم يُغن أي شيء ممّا سبق ـ تبدأ مرحلة التصفية وتطهير الأرض، وينزل العقاب فيزيل الأشواك من الطريق.

وفي شأن قوم شعيب ـ أي أهل مدين ـ وصل الأمر الى المرحلة النهائية أيضاً، إذ يقول القرآن الكريم فيهم: ﴿ولما جاء أمرنا نجيّنا شعيباً والذين آمنوا معه برحمة منّا وأخذت الذين ظلموا الصّيحة﴾.

«الصيحة» معناها كل صوت عظيم، والقرآن الكريم يحكي عن هلاك أقوام متعددين بالصيحة السّماوية، هذه الصيحة يحتمل أن تكون صاعقةً من السّماء أو ما شابهها، وقد تبلغ الأمواج الصوتية حدّاً بحيث تكون سبباً لهلاك جماعة من الناس.

ثمّ يعقّب القرآن فيقول: ﴿فأصبحوا في ديارهم جاثمين﴾ أي: أجساداً هامدة بلا روح، لتبقى أجسادهم هناك عبرة لمن اعتبر ...

وهكذا طُوي سجلّ وطومار حياتهم ﴿كأنّ لم يغنوا فيها﴾.

إن حرّاً شديداً محرقاً حلّ في أرضهم سبعة أيّام، ولم يهب نسيم بارد مطلقاً، فإذا قطعة من السحاب تظهر في السماء ـ بعد السبعة أيّام ـ وتحرك نسيم عليل فخرجوا من بيوتهم، واستظلّوا تحت السحاب من شدّة الحرّ.

وفجأة سطعت من بين السحابة صاعقة مميتة بصوتها المذهل، واحرقتهم بنارها وزلزلت الأرض وهلكوا جميعاً.

وانطفأ بريق كل شيء، فلا ثروة ولا قصور ولا ظلم ولا زينةٍ كل ذلك تلاشى وانعدم.

وكما كانت نهاية عاد وثمود ـ وقد حكى عنهما القرآن ـ فهو يقول عن نهاية مدين أيضاً ﴿ألا بعداً لمدين كما بعدت ثمود﴾[1].

وواضح أنّ المقصود من كلمة «مدين» أهل مدين الذين كانوا بعيدين عن رحمة الله وكانوا من الهالكين.

---

١ ـ هود، ٩٥ ـ ٩٤.

النّبي موسىٰ عليه السلام

لقد جاءت قصّة موسىٰ عليه السلام في القرآن الكريم، اكثر من سائر الانبياء، و اشير إلىٰ قصّة موسىٰ و فرعون و بنى‌اسرائيل اكثر من مائة مرّة، في اكثر من ثلاثين سورة... ولو أنّنا درسنا آيات كل سورة على حدة، ثمّ وضعناها جنباً إلى جنب لم نلحظ فيها جانب التكرار على خلاف ما يتصوره البعض، بل ذكر من هذه الملحمة التاريخية في كل سورة ما يناسبها من البحث للاستشهاد به. وحيث أنّ مصر كانت أوسع، وكان لشعبها حضارة أكثر تقدماً من قوم نوح وهود وشعيب وما شابههم، وكانت مقاومة الجهاز الفرعوني ـ بنفس النسبة ـ أكثر وأكبر، ولهذا تمتع قيام موسى بن عمران بأهمية أكبر، وحوىٰ عبراً ونكاتٍ أكثر، وقد ركّز القرآن الكريم علىٰ النقاط البارزة المختلفة من حياة موسى وبني إسرائيل بمناسبات مختلفة.

المراحل الخمس من حياة موسىٰ

وعلى العموم يمكن حصر وتلخيص حياة هذا النّبي الإلٓهي العظيم في خمس دورات ومراحل:

١ ـ مرحلة الولادة، وما جرى عليه من الحوادث حتى ترعرعه في البلاط الفرعون.

٢ ـ مرحلة فراره من مصر، وحياته في أرض «مدين» في كنف النّبي شعيب٧.

٣ ـ مرحلة بعثته، ثمّ المواجهات الكثيرة بينه وبين فرعون وجهازه.

٤ ـ مرحلة نجاته ونجاة بني إسرائيل من مخالب فرعون، والحوادث التي جرت عليه في الطريق، وعند وروده إلى بيت المقدس.

٥ ـ مرحلة مشاكله مع بني إسرائيل.

ولادة موسى

كانت سُلطة فرعون وحكومته الجائرة قد خططت تخطيطاً واسعاً لذبح «الأطفال» من بني إسرائيل حتى أن القوابل [من آل فرعون] كن يراقبن النساء الحوامل [من بني إسرائيل].

ومن بين هؤلاء القوابل كانت قابلة لها علاقة مودّة مع أمّ موسى عليه السلام «وكان الحمل خفيّاً لم يظهر أثره على أم موسى» وحين أحست أم موسى بأنّها مقرّب وعلى أبواب الولادة أرسلت خلف هذه القابلة وأخبرتها بالواقع، وأنّها تحمل جنيناً في بطنها وتوشك أن تضعه، فهي بحاجة ـ هذا اليوم ـ إليها.

وحين ولد موسى عليه السلام سطع نور بهيّ من عينيه فاهتزّت القابلة لهذا النور وطُبع حُبُّه في قلبها، وأنار جميع زوايا قلبها.

ونقرأ في حديث عن الإمام الباقر عليه السلام في هذا الباب: **«فلمّا وضعت أم موسى موسى نظرت إليه وحزنت عليه واغتمت وبكت وقالت: تذبح الساعة، فعطف الله الموكلة بها عليه، فقالت لأم موسى: ما لك قد اصفر لونك؟ فقالت: أخاف أن يذبح ولدي، فقالت: لا تخافي وكان موسى لا يراه أحد إلا أحبه»**.

فالتفتت القابلة إلى أم موسى وقالت لها: كنت أروم أن أخبر الجهاز الفرعوني بهذا الوليد ليأتي الجلاوزة فيقتلوه «وأنال بذلك جائزتي» ولكن ما عسى أن أفعل وقد وقع حبّه الشديد في قلبي، وأنا غير مستعدة لأن تنقص ولو شعرة واحدة من رأسه، فاهتمي بالمحافظة عليه، وأظنّ أن عدوّنا المتوقع سيكون هذا الطفل أخيراً.

موسى في التنّور

خرجت القابلة من بيت أمّ موسى فرآها بعض الجواسيس من جلاوزة فرعون وصمموا على أن يدخلوا البيت، فعرفت أخت موسى ما أقدموا عليه فأسرعت إلى أمّها وأخبرتها بأن تتهيأ للأمر، فارتبكت ولم تدر ماذا تصنع؟! وفي هذه الحالة من الإرتباك وهي ذاهلة لفت وليدها «موسى» بخرقة وألقته في التنور فاذا بالمأمورين والجواسيس يقتحمون الدار، فلم يجدوا شيئاً إلّا التنور المشتعل ناراً.. فسألوا أم موسى عن سبب دخول القابلة عليها فقالت: إنّها صديقتي وقد جاءت زائرة فحسب، فخرجوا ايسين.

ثمّ عادت أمّ موسى إلى رشدها وصوابها وسألت «أخت موسى» عن أخيها فأظهرت عدم معرفتها بمكانه، وإذا البكاء يعلو من داخل التنور، فركضت إلى التنور فرأت موسى مسالماً وقد جعل الله النّار عليه برداً وسلاماً «الله الذي نجّى إبراهيم الخليل من نار النمرود» فأخرجت وليدها سالماً من التنور.

لكن الأمّ لم تهدأ إذ أن الجواسيس يمضون هنا وهناك ويفتشون البيوت يمنة ويسرة، وكان الخطر سيقع لو سمعوا صوت هذا الطفل الرضيع.

وفي هذه الحال اهتدت أم موسى بإلهام جديد، إلهام ظاهره أنّه مدعاة للخطر، ولكن مع ذلك أحسّت بالإطمئنان أيضاً.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[1].

كان ذلك من الله ولابدّ أن يتحقق، فلبست ثياب عملها وصممت على أن تلقي وليدها في النيل.

فجاءت إلى نجّار مصري «وكان النجار من الأقباط والفراعنة أيضاً» فطلبت منه أن يصنع صندوقاً صغيراً.

فسألها النجار قائلاً: ما تصنعين بهذا الصندوق مع هذه الأوصاف؟ ولكن الأمّ لما كانت غير متعودة على الكذب لم تستطع دون أن تقول الحق والواقع، وأنّها من بني إسرائيل ولديها طفل تريد إخفاءه في الصندوق.

فلمّا سمع النجّار القبطي هذا الخبر صمم على أن يخبر الجلاوزة والجلاّدين، فمضى نحوهم لكن الرعب سيطر على قلبه فارتج على لسانه وكلّما حاول أن يفهمهم ولو كلمة واحدة لم يستطع، فأخذ يشير إليهم إشارات مبهمة، فظن أُولئك أنّه يستهزىء بهم فضربوه وطردوه، ولما عاد إلى محله عاد عليه وضعه الطبيعي، فرجع ثانية إليهم ليخبرهم فعادت عليه الحالة الأُولىٰ من الإرتجاج والعيّ، وأخيراً فقد فهم أن هذا أمر إلهي وسرّ خفي، فصنع الصندوق وأعطاه لأم موسى.

---

١ ـ القصص، ٧.

وخرير الماء أضحىٰ مهده

ولعلّ الوقت كان فجراً والناس ـ بعد ـ نيام، وفي هذه الحال خرجت أم موسى وفي يديها الصندوق الذي أخفت فيه ولدها موسى، فاتجهت نحو النيل وأرضعت موسى حتى ارتوى، ثمّ ألقت الصندوق في النيل فتلقفته الأمواج وأخذت تسير به مبتعدة عن الساحل، وكانت أم موسى تشاهد هذا المنظر وهي على الساحل.. وفي لحظة أحست أن قلبها انفصل عنها ومضى مع الأمواج، فلولا لطف الله الذي شملها وربط على قلبها لصرخت ولإنكشف الأمر واتضح كل شيء.

ولا أحد يستطيع أن يصور ـ في تلك اللحظات الحساسة ـ قلب الأُم بدقّة.

لا يستطيع أيّ أحد أن يصور حال أُم موسى وما أصابها من الهلع والفزع ساعة ألقت طفلها في النيل ولكنّ هذه الأبيات المترجمة عن الشاعرة الإيرانيّة «پروين اعتصامي» ـ بتصرف ـ تحكي صورة «تقريبية» عن ذلك الموقف:

أمّ موسى حين ألقت طفلها ... للذي رب السما أوحى لها
نظرت للنيل يمضي مسرعاً ... آه لو تعرف حقاً حالها
ودوي الموج فيه صاخب ... وفتاها شاغل بلبالها

* * *

وتناغيه بصمتٍ: ولدي ... كيف يمضي بك هذا الزورق
دون ربان، وإن ينسك من ... هو ذو لطفٍ فمن ذا يشفق
فأتاها الوحي: مهلاً، ودعي ... باطل الفكر ووهما يزهق

* * *

إن موسى قد مضى للمنزل ... فاتق الله ولا تستعجلي
قد تلقينا الذي ألقيته ... بيد ترعى الفتى لا تجهلي
وخرير الماء أضحى مهده ... في اهتزاز مؤنس إن تسألي

* * *

وله الموج رؤوماً حدبا ... فاق من يحدب أمّا وأبا
كل نهر ليس يطغى عبثاً ... إن أمر الله كان السببا

❊ ❊ ❊

يأمر البـحر فـيغدو هـائجا | وله الطوفان طـوعاً مـائجا
عـالم الإيـجاد مـن آثـاره | كـل شـيء لعـلاه عـارجـا

❊ ❊ ❊

أين تـمضين دعـيه فـله | خير ربّ يرتضيه لا هـجا

محبّة موسىٰ في القلوب

ولكن تعالوا لنرى مايجري في قصر فرعون؟!

ورد في الأخبار أنّ فرعون كانت له بنت مريضة، ولم يكن له من الأبناء سواها، وكانت هذه البنت تعاني من آلام شديدة لم ينفعها علاج الأطباء، فلجأ إلى الكهنة فقالوا له: نتكهّنُ ونتوقع أن إنساناً يخرج من البحر يكون شفاؤها من لعاب فمه حين يدهن به جسدها، وكان فرعون وزوجه «آسية» في انتظار هذا «الحادث» وفي يوم من الأيّام.. فجأة لاح لعيونهما صندوق تتلاطمه أمواج النيل فلفت الأنظار، فأمر فرعون عمّاله أن يأتوا به ليعرفوا ما به؟!

ومثل الصندوق «المجهول» الخفيّ أمام فرعون، ولم يتمكن أحد أن يفتحه.

بلى كان على فرعون أن يفتحه لينجو موسى على يد فرعون نفسه، وفتح الصندوق على يده فعلاً!.

فلمّا وقعت عين آسية عليه سطع منه نور فأضاء قلبها، ودخل حبّه في قلوب الجميع، ولا سيما قلب امرأة فرعون «آسية».. وحين شفيت بنت فرعون من لعاب فمه زادت محبّته أكثر فأكثر.

ولنعد الآن إلى القرآن الكريم لنسمع خلاصة القصّة من لسانه! يقول القرآن في هذا الصدد: ﴿فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوّاً وحزناً﴾.

وبديهي أنّ الفراعنة لم يجلبوا الصندوق الذي فيه الطفل الرضيع من المـاء ليـربوه فـي أحظانهم فيكون لهم عدواً لدوداً، بل أرادوه ـ كما قالت امرأة فرعون ـ قرة عين لهم.

ولكن النتيجة والعاقبة.. كان ما كان وحدث ما حدث.. ولطافة التعبير كـامنة فـي أنّ الله سبحانه يريد أن يبيّن قدرته، وكيف أن هذه الجماعة «الفراعنة» عبّأت جميع قواها لقتل بني

إسرائيل، وإذا الذي أرادوا قتله ـ وكانت كل هذه المقدمات من أجله ـ يتربى في أحضانهم كأعزّ ابنائهم.

ويستفاد من القرآن الكريم أن شجاراً حدث ما بين فرعون وامرأته، ويحتمل أن بعض أتباعه كانوا قد وقفوا عند رأس الطفل ليقتلوه، لأنّ القرآن الكريم يقول في هذا الصدد: **﴿وقالت امرأة فرعون قرّة عين لي ولك لا تقتلوه عسىٰ أن ينفعنا أو نتخذه ولداً..﴾** [1].

ويلوح للنظر أنّ فرعون وجد في مخايل الطفل والعلائم الأُخرىٰ ومن جملتها إيداعه في التابوت «الصندوق» وإلقاءه بين أمواج النيل، وما إلى ذلك أن هذا الطفل من بني إسرائيل، وأن زوال ملكه على يده، فجثم كابوسٌ ثقيل على صدره من الهم وألقىٰ على روحه ظلّة، فأراد أن يجري قانون إجرامه عليه.

فأيّده أطرافه وأتباعه المتملّقون على هذه الخطة، وقالوا: ينبغي أن يذبح هذا الطفل، ولا دليل على أن لا يجري هذا القانون عليه.

ولكن آسية امرأة فرعون التي لم ترزق ولداً ذكراً، ولم يكن قلبها منسوجاً من قماش عمال قصر فرعون، وقفت بوجه فرعون وأعوانه ومنعتهم من قتله.

وإذا أضفنا قصّة شفاء بنت فرعون بلعاب فم موسى ـ على ما قدمناه ـ فسيكون دليلاً آخر يوضح كيفية انتصار آسية في هذه الازمة.

ولكن القرآن ـ بجملة مقتضية وذات مغزى كبير ـ ختم الآية قائلاً: **﴿وهم لا يشعرون!﴾**.

أجل، إنّهم لم يشعروا أنّ أمر الله النافذ ومشيئته التي لا تقهر، اقتضت أن يتربى هذا الطفل في أهم المراكز خطراً... ولا أحد يستطيع أن يردّ هذه المشيئة، ولا يمكن مخالفتها أبداً..

تخطيط الله العجيب..

إظهار القدرة.. ليس معناه أن الله إذا أراد أن يهلك قوماً جبارين، يرسل عليهم جنود السماوات والأرض، فيهلكهم ويدمرهم تدميراً.

إظهار القدرة هو أن يجعل الجبابرة والمستكبرين يدمرون أنفسهم بأيديهم، يلهم قلوبهم بإلقاء أنفسهم في البئر التي حفروها لغيرهم، وأن يصنعوا لأنفسهم سجناً يموتون فيه! وأن

---

١ ـ القصص، ٩ ـ ٨.

يرفعوا أعواد المشانق ليعدموا عليها!..

وفي قضية الفراعنة الجبابرة المعاندين حدث مثل هذا، وتمّت تربية موسى ونجاته في جميع المراحل على أيديهم.

فالقابلة التي أولدت موسى كانت من الأقباط.

والنجار الذي صنع الصندوق الذي أخفي فيه موسى كان قبطيّاً.

والذين التقطوا الصندوق كانوا من آل فرعون!.

والذي فتح باب الصندوق كان فرعون بنفسه أو امرأته آسية.

وأخيراً فإن المكان الآمن والهادىء الذي تربّى فيه موسى ـ البطل الذي قهر فرعون ـ هو قصر فرعون ذاته. وبهذا الشكل يظهر الله تعالى قدرته.

عودة موسى إلى حضن أُمّه

أمُّ موسى التي قلنا عنها: إنّها ألقت ولدها في أمواج النيل. اقتحم قلبها طوفان شديدٌ من الهمّ على فراق ولدها، فقد اصبح مكان ولدها الذي كان يملأ قلبها خالياً وفارغاً منه.

فأوشكت أن تصرخ من أعماقها و تذيع جميع أسرارها، لكن لطف الله تداركها، وكما يعبّر القرآن الكريم **﴿وأصبح فؤاد أمّ موسى فارغاً إن كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين﴾**.

وطبيعيّ تماماً أنّ أُمّاً تفارق ولدها بهذه الصورة يمكن أن تنسى كل شيء إلّا ولدها الرضيع، ويبلغ بها الذهول درجةً لا تلتفت معها إلى ما سيصيبها وولدها من الخطر لو صرخت من أعماقها وأذاعت أسرارها.

ولكن الله الذي حمّل أُم موسى هذا العبء الثقيل ربط على قلبها لتؤمن بوعد الله، ولتعلم أنّه بعين الله، وأنّه سيعود إليها وسيكون نبيّاً.

وعلى أثر لطف الله أحست أم موسى بالإطمئنان، ولكنّها أحبت أن تعرف مصير ولدها، ولذلك أمرت أخته أن تتبع أثره وتعرف خبره **﴿وقالت لأخته قصّيه﴾**.

فاستجابت «أُخت موسى» لأمر أمّها، وأخذت تبحث عنه بشكل لا يثير الشبهة، حتى بصرت به من مكان بعيدٍ، ورأت صندوقه الذي كان في الماء يتلقفه آل فرعون.. ويقول القرآن في هذا الصدد: **﴿فبصرت به عن جنب﴾**.

ولكن أُولئك لم يلتفتوا إلى أن أخته تتعقبه ﴿وهم لا يشعرون﴾.

وعلى كل حال، فقد اقتضت مشيئة الله أن يعود هذا الطفل إلى أُمّه عاجلاً ليطمئن قلبها، لذلك يقول القرآن الكريم: ﴿وحرمنا عليه المراضع من قبل﴾ [1].

وطبيعيٌ أن الطفل الرضيع حين تمر عليه عدة ساعات فإنه يجوع ويبكي ولا يطيق تحمل الجوع، فيجب البحث عن مرضعٍ له، ولا سيما أن ملكة مصر «امرأة فرعون» تعلق قلبها به بشدّة، وأحبّته كروحها العزيزة.

كان عمال القصر يركضون من بيت لآخر بحثاً عن مرضع له، والعجيب في الأمر أنّه كان يأبى أثداء المرضعات.

لعل ذلك آتٍ من استيحاشه من وجوه المرضعات، أو أنّه لم يكن يتذوق ألبانهن، إذ يبدو لبن كلٍّ منهن مرّاً في فمه، فكأنّه يريد أن يقفز من أحضان المراضع، وهذا هو التحريم التكويني من قبل الله تعالى إذ حرّم عليه المراضع جميعاً.

ولم يزل الطفل لحظة بعد أُخرىٰ يجوع أكثر فأكثر وهو يبكي وعمال فرعون يدورون به بحثاً عن مرضع بعد أن ملأ قصر فرعون بكاءً وضجيجاً، ومازال العمال في مثل هذه الحال حتى صادفوا بنتاً أظهرت نفسها بأنّها لا تعرف الطفل، فقالت: ﴿هل أدلّكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون﴾ [2].

إنّني أعرف امرأة من بني إسرائيل لها ثديان مملوءان لبناً، وقلب طافح بالمحبّة، وقد فقدت وليدها، وهي مستعدةً أن تتعهد الطفل الذي عندكم برعايتها.

فسرّ بها هؤلاء وجاءوا بأمّ موسى إلى قصر فرعون، فلمّا شمّ الطفل رائحة أُمّه التقم ثديها بشغف كبير، وأشرقت عيناه سروراً، كما أن عمّال القصر سرّوا كذلك لأنّ البحث عن مربيةٍ له أعياهم، وامرأة فرعون هي الأُخرىٰ لم تكتم سرورها للحصول على هذه المرضع أيضاً.

ولعلهم قالوا للمرضع: أين كنت حتى الآن، إذ نحن نبحث عن مثلك منذ مدّةً.. فليتك جئت قبل الآن، فمرحباً بك وبلبنك الذي حلّ هذه المشكلة.

---

١ ـ «المراضع» جمع «مُرضِع» على زنة «مُخبر» ومعناها المرأة التي تسقي الطفل لبنها من ثديها.

٢ ـ القصص، ١٢ ـ ١٠.

لماذا ارتضع من ثديك؟

حين استقبل موسى ثدي أُمّه، قال هامان وزير فرعون لأم موسى: لعلك أُمّه الحقيقية، إذ كيف أبى جميع هذه المراضع ورضي بك، فقالت: أيّها الملك، لأنّي امرأة ذات عطر طيب ولبني عذب، لم يأتني طفل رضيع إلّا قبل بي، فصدّقها الحاضرون وقدموا لها هدايا ثمينة.

ونقرأ في هذا الصدد حديثاً قال الراوي: قلت للإمام الباقر عليه السلام: فكم مكث موسى غائباً من أُمّه حتى ردّه الله؟ قال «ثلاثة أيّام».

وقال بعضهم: هذا التحريم التكويني لأنّ الله لم يرد لموسى أن يرتضع من الألبان الملوثة بالحرام.. الملوّثة بأموال السرقة، أو الملوّثة بالإجرام والرشوة وغصب حقوق الآخرين، وإنّما أراد لموسى أن يرتضع من لبنٍ طاهر كلبن أُمّه ليستطيع أن ينهض بوجه الأرجاس ويحارب الآثمين.

وتم كل شيءٍ بأمر الله **﴿فرددناه إلى أُمّه كي تقرّ عينها ولا تحزن ولتعلم أن وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾**[1].

هنا ينقدح سؤال مهم وهو: هل أودع آل فرعون الطفل «موسى» عند أُمّه لترضعه وتأتي به كل حين ـ أو كل يوم ـ إلى قصر فرعون لتراه امرأة فرعون؟!

أم أنّهم أودعوا موسى في القصر وطلبوا من المرضع «أم موسى» أن تأتي بين فترات متناسبة إلى القصر لترضعه؟!

لا يوجد دليلٌ قوي لأيٍّ من الإحتمالين، إلّا أن الإحتمال الأوّل أقرب للنظر كما يبدو!

وهناك سؤال آخر أيضاً، وهو: هل انتقل موسى إلى قصر فرعون بعد إكماله فترة الرضاعة، أم أنّه حافظ على علاقته بأُمّه وعائلته وكان يتردد ما بين القصر وبيته؟!

قال بعض: أودع موسى بعد فترة الرضاعة عند فرعون وامرأته، وتربى موسى عندهما، تنقل في هذا الصدد قصص عريضة حول موسى وفرعون، ولكن هذه العبارة التي قالها فرعون لموسى عليه السلام بعد بعثته **﴿ألم نربّك فينا وليداً ولبثت فينا من عمرك سنين؟!﴾**[2]، تدل

---

١ ـ القصص، ١٣.

٢ ـ الشعراء، الآية ١٨.

بوضوح على أن موسى عاش في قصر فرعون مدة، بل مكث هناك سنين طويلة.

ويستفاد من تفسير علي بن إبراهيم أن موسى عليه السلام بقي مع كمال الإحترام في قصر فرعون حتى مرحلة البلوغ، إلّا أنّ كلامه عن توحيد الله أزعج فرعون بشدة إلى درجة أنّه صمّم على قتله، فترك موسى القصر ودخل المدينة فوجد فيها رجلين يقتتلان، أحدهما من الأقباط والآخر من الأسباط، فواجه النزاع بنفسه.

موسى عليه السلام وحماية المظلومين

و هنا نواجه مرحلة اخرىٰ من قصّة موسى عليه السلام وما جرى له مع فرعون، وفيها مسائل تتعلق ببلوغه، وبعض الأحداث التي شاهدها وهو في مصر قبل أن يتوجه إلى «مدين» ثمّ سبب هجرته إلى مدين.

إن موسى ﴿دخل المدينة على حين غفلة من أهلها﴾.

فما هي المدينة؟ لا نعرفها على وجه التحقيق.. لكن الاحتمال القوي أنّها عاصمة مصر.. وكما يقول البعض فإنّ موسى عليه السلام على أثر المشاجرات بينه وبين فرعون، ومخالفاته له ولسلطته التي كانت تشتدّ يوماً بعد يوم حتى بلغت أوجها، حُكم عليه بالتبعيد عن العاصمة.. لكنّه برغم ذلك فقد سنحت له فرصة خاصّة والناس غافلون عنه أن يعود إلى المدينة ويدخلها.

والمقصود من جملة ﴿على حين غفلة من أهلها﴾ هو الزمن الذي يستريح الناس فيه من أعمالهم، ولا تُراقب المدينة في ذلك الحين بدقّة، ولكن أي حين وأي زمن هو؟!

قال بعضهم: هو أوّل الليل، لأنّ الناس يتركون أعمالهم ويعطلون دكاكينهم ومحلاتهم ابتغاء الراحة والنوم، وجماعة يذهبون للتنزه، وآخرون لأماكن أُخرىٰ..

وعلى كل حال، موسى دخل المدينة، وهنالك واجه مشادّة ونزاعاً، فاقترب من منطقة النزاع ﴿فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوّه﴾.

والتعبير بـ «شيعته» يدل على أن موسى قبل أن يبعث كان له أتباع وأنصار وشيعة من بني إسرائيل، وربّما كان قد اختارهم لمواجهة فرعون وحكومته كنواة اساسية.

فلمّا بصر الإسرائيلي بموسى استصرخه ﴿فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوّه﴾.

فجاءه موسىعليه‌السلام لاستنصاره وتخليصه من عدوّه الظالم.. الذي يقال عنه أنّه كان طباخاً في قصر فرعون، وكان يريد من الإسرائيلي أن يحمل معه الحطب إلى القصر، فضرب موسى هذا العدو بقبضة يده القوية على صدره، فهوىٰ إلى الأرض ميتاً في الحال: **﴿فوكزه موسى فقضى عليه﴾**.

وممّا لا شك فيه، فإنّ موسى لم يقصد أن يقتل الفرعوني، ويتّضح ذلك من خلال الآيات التالية أيضاً.. ولا يعني ذلك أن الفراعنة لم يكونوا يستحقون القتل، ولكن لاحتمال وقوع المشاكل والتبعات المستقبلية على موسى وجماعته.

لذلك فإنّ موسىعليه‌السلام أسف على هذا الأمر **﴿قال هذا من عمل الشيطان إنّه عدوّ مضلٌّ مبين﴾**.

وبتعبير آخر: فإنّ موسىٰعليه‌السلام كان يريد أن يبعد الفرعوني عن الرجل الإسرائيلي، وإن كان الفرعونيون يستحقون أكثر من ذلك. لكن ظروف ذلك الوقت لم تكن تساعد على مثل هذا العمل، وكما سنرى فإن ذلك الأمر دعا موسىعليه‌السلام إلى أن يخرج من مصر إلى أرض مدين وحرمه من البقاء في مصر.

ثمّ يتحدث القرآن عن موسىعليه‌السلام فيقول: **﴿قال ربّ إنّي ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له إنّه هو الغفور الرحيم﴾**.

ومن المسلم به أنّ موسىعليه‌السلام لم يصدر منه ذنب هنا، بل ترك الأولى، فكان ينبغي عليه أن يحتاط لئلا يقع في مشكلة، ولذلك فإنّه استغفر ربّه وطلب منه العون، فشمله اللطيف الخبير بلطفه.

لذلك فإنّ موسىعليه‌السلام حين نجا بلطف الله من هذا المأزق **﴿قال ربّ بما أنعمت على﴾** من عفوك عني وانقاذي من يد الاعداء وجميع ما أنعمت علي منذ بداية حياتي لحدّ الآن **﴿فلن أكون ظهيراً للمجرمين﴾**[١]. ومعيناً للظالمين.

بل سأنصر المؤمنين المظلومين، ويريد موسىعليه‌السلام أن يقول: إنّه لا يكون بعد هذا مع فرعون وجماعته أبداً.. بل سيكون إلى جانب الإسرائيليين المضطهدين..»[٢].

---

١ ـ القصص، ١٧ ـ ١٥.

٢ ـ ألم يكن عمل موسى هذا مخالفاً للعصمة!

للمفسّرين أبحاث مُذيّلة وطويلة في شأن المشاجرة التي حدثت بين القبطي والإسرائيلي وقتل

موسى يتوجّه إلى مدين خُفيةً

حيث أن خبر مقتل الفرعوني في مصر انتشر بسرعة، والقرائن المتعددة تدلّ على أن القاتل من بني إسرائيل، ولعل اسم موسى عليه السلام كان مذكوراً من بين بني إسرائيل المشتبه فيهم.

وبالطبع فإنّ هذا القتل لم يكن قتلاً عادياً، بل كان يعد شرارة لانفجار ثورةٍ مقدمة للثورة.. ولا شك أن جهاز الحكومة لا يستطيع تجاوز هذه الحالة ببساطة ليعرّض أرواح الفرعونيين للقتل على أيدي عبيدهم من بني إسرائيل.

لذلك يقول القرآن في بداية هذا المقطع **﴿فأصبح في المدينة خائفاً يترقب﴾**.

وهو على حالٍ من الترقب والحذر، فوجيء في اليوم التالي بالرجل الإسرائيلي الذي آزره موسى بالأمس يتنازع مع قبطي آخر وطلب من موسى أن ينصره **﴿فإذا الذي استنصره بالأمس يستصرخه﴾**.

ولكن موسى تعجب منه واستنكر فعله و **﴿قال له موسى إنك لغوي مبين﴾** إذ تحدث كل يوم نزاعاً ومشادة مع الآخرين، وتخلق مشاكل ليس أوانها الآن، إذ نحن نتوقع أن تصيبنا تبعات ما جرى بالأمس، وأنت اليوم في صراع جديد أيضاً!!

موسى للقبطي.

وبالطبع فإنّ أصل هذا العمل ليس مسألة مهمّة.. لأنّ الظلمة الأقباط والفراعنة المفسدين الذين قتلوا آلاف الأطفال من بني إسرائيل ولم يتأبّوا يحجموا عن أية جريمة ضد بني إسرائيل، لم تكن لهم حرمة عند بني إسرائيل.

إنّما المهم عند علماء التّفسير هو تعبيرات موسى عليه السلام التي ولّدت إشكالات عندهم.

فهو تارة يقول: ﴿هذا من عمل الشيطان﴾.

وفي مكان آخر يقول: ﴿ربّي إنّي ظلمت نفسي فاغفر لي﴾.

فكيف تنسجم أمثال هذه التعابير مع عصمة الأنبياء حتى قبل بعثتهم ورسالتهم.

ولكن هذه الإشكالات تزول بالتوضيح المتقدم في تفسير الآية الآنفة، وهو أن ما صدر من موسى عليه السلام هو من قبيل «ترك الأولىٰ» لا أكثر، إذ كان عليه أن يحتاط قبل أن يضرب القبطي، فلم يحتط، فأوقع نفسه في مشاكل جانبية، لأنّ قتل القبطي لم يكن أمراً هيناً حتى يعفو عنه الفراعنة.

ونعرف أن ترك الأُولىٰ لا يعني أنّه عمل حرام ذاتاً، بل يؤدي الى ترك عمل أهم وأفضل، دون أن يصدر منه عمل مخالف ومناف لذلك العمل!.

ولكنّه كان على كل حال مظلوماً في قبضة الظالمين (وسواء كان مقصراً في المقدمات أم لا) فعلى موسى عليه السلام أنّ يعينه وينصره ولا يتركه وحيداً في الميدان، **﴿فلمّا أن أراد أن يبطش بالذي هو عدوّ لهما﴾** صاح ذلك القبطي: **﴿ياموسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس﴾** ويبدو من عملك هذا أنّك لست إنساناً منصفاً **﴿ان تريد إلّا أن تكون جباراً في الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين﴾**[1].

وهذه العبارة تدلّ بوضوح على أن موسى عليه السلام كان في نيّته الإصلاح من قبل، سواءً في قصر فرعون أو خارجه، ونقرأ في بعض الرّوايات أن موسى عليه السلام كانت له مشادات كلامية مع فرعون في هذا الصدد، لذا فإن القبطي يقول لموسى: أنت كل يوم تريد أن تقتل إنساناً، فأيّ إصلاح هذا الذي تريده أنت؟! في حين أن موسى عليه السلام لو كان يقتل هذا الجبار، لكان يخطو خطوة أُخرىٰ في طريق الإصلاح..

وعلى كل حال فإنّ موسى التفت إلى أن ما حدث بالأمس قد انتشر خبره، ومن أجل أن لا تتسع دائرة المشاكل لموسى فإنّه أمسك عن قتل الفرعوني في هذا اليوم.

قرار قتل موسىٰ

ومن جهة أُخرىٰ فإنّ الأخبار وصلت إلى قصر فرعون فأحسّ فرعون ومن معه في القصر أن تكرار مثل هذه الحوادث ينذره بالخطر، فعقد جلسة شورى مع وزارئه وانتهى «مؤتمرهم» إلى أن يقتلوا موسى، وكان في القصر رجل له علاقة بموسى فمضى إليه وأخبره بالمؤامرة.. وكما يقول القرآن الكريم: **﴿وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى قال يا موسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إنّي لك من الناصحين﴾**.

ويبدو أنّ هذا الرجل هو «مؤمن آل فرعون» الذي كان يكتم إيمانه ويدعى «**حزقيل**» وكان من أسرة فرعون، وكانت علاقته بفرعون وثيقة بحيث يشترك معه في مثل هذه الجلسات.

وكان هذا الرجل متألماً من جرائم فرعون، وينتظر أن تقوم ثورة «إلهية» ضده فيشترك معها.

---

١ ـ القصص، ١٩ ـ ١٨.

ويبدو أنّه كان له أمل كبير بموسى عليه السلام إذ كان يتوسم في وجهه رجلاً ربّانياً صالحاً ثوريّاً، ولذلك فحين أحسّ بأن الخطر محدق بموسىٰ أوصل نفسه بسرعة إليه وانقذه من مخالب الخطر، وسنرى بعدئذٍ أن هذا الرجل لم يكن في هذا الموقف فحسب سنداً وظهيراً لموسى، بل كان يعدّ عيناً لبني إسرائيل في قصر فرعون في كثيرٍ من المواقف والأحداث.

أمّا موسى عليه السلام فقد تلقى الخبر من هذا الرجل بجدّية وقبل نصحه ووصيته في مغادرة المدينة ﴿فخرج منها خائفاً يترقب﴾.

وتضرع إلى الله بإخلاص وصفاء قلب ليدفع عنه شرّ القوم و ﴿قال ربّ نجني من القوم الظالمين﴾ [1].

فأنا أعلم يا ربّ أنّهم ظلمة ولا يرحمون، وقد نهضت ـ دفاعاً عن المحرومين ـ بوجه الظالمين، ولم آل جهداً ووسعاً في ردع الأشرار عن الاضرار بالطيبين، فأسألك ـ يا ربّي العظيم ـ أن تدفع عنّي أذاهم وشرّهم.

ثمّ قرر موسى عليه السلام أن يتوجه إلى مدينة «مدين» التي كانت تقع جنوب الشام وشمال الحجاز، وكانت بعيدة عن سيطرة مصر والفراعنة..

أين كانت مدين؟!

«مدين»: اسم مدينة كان يقطنها «شعيب» وقبيلته، هذه المدينة كانت تقع في شرق خليج العقبة [وشمال الحجاز وجنوب الشامات] وأهلها من أبناء إسماعيل «الذبيح» ابن إبراهيم الخليل عليه السلام، وكانت لهم تجارة مع مصر وفلسطين ولبنان.

أمّا اليوم فيطلق على «مدين» اسم «معان» [2]. وفي الوقت الحاضر يبدو في الخرائط الجغرافية للأردن أن إحدى مدنها في الجنوب الغربي منها، واسمها «معان» تحمل الأوصاف ذاتها التي كانت في مدين.. وتنطبق عليها تماماً.

---

١ ـ القصص، ٢١ ـ ٢٠.

٢ ـ كما أن بعضاً من المفسّرين يعتقدون أن مدين اسم لجماعة كانت تعيش ما بين خليج العقبة وجبل سينا المعروف بطور سيناء، وجاء اسمها في التوراة بـ «مديان» أيضاً.
كما يرى البعض: إنّ أساس تسمية هذه المدينة «بمدين» هو لأنّ أحد أبناء إبراهيم الخليل واسمه «مدين» كان يعيش في هذه المدينة.

لكن موسىٰ شاب تربّى في نعمةٍ ورفاهٍ ويتجه إلى سفرٍ لم يسبق له في عمره أن يسافر إليه، فلا زاد ولا متاع ولا صديق ولا راحلة ولا دليل، وكان قلقاً خائفاً على نفسه، فلعل أصحاب فرعون سيدركونه قبل أن يصل إلى هدفه «مدين» ويأسرونه ثمّ يقتلونه.. فلا عجب أن يظل مضطرب البال!

أجل، إن على موسىﷺ أن يجتاز مرحلة صعبة جدّاً، وأن يتخلص من الفخ الذي ضربه فرعون وجماعته حوله ليصطادوه، ليستقرّ أخيراً إلى جانب المستضعفين ويشاطرهم آلامهم بأحاسيسه وعواطفه، وأن يتهيأ لنهضة إلهية لصالحهم وضد المستكبرين.

إلّا أنّه كان لديه في هذا الطريق وعواطفه رأس مال كبير وكثير لا ينفد أبداً، وهو الإيمان بالله والتوكل عليه، لذا لم يكترث بأي شيء وواصل السير.. **﴿ولما توجه تلقاء مدين قال عسى ربّي أن يهديني سواء السبيل﴾**[1].

عملٌ صالح يفتح لموسىٰ أبواب الخير

نواجه هنا مقطعاً آخر من هذه القصّة، وهي قضيّة ورود موسىٰﷺ إلى مدينة مدين.

هذا الشاب الطاهر الذي لا يغش أحداً أمضىٰ عدّة أيّام في الطريق، الطريق التي لم يتعود المسير فيها من قبل أبداً، ولم يكن له بها معرفة، وكما يقول بعضهم: اضطر موسىٰ إلى أن يمشي في هذا الطريق حافياً، وقيل: إنّه قطع الطريق في ثمانية أيّام، حتى لقي ما لقي من النصب والتعب، وورمت قدماه من كثرة المشي.

وكان يقتات من نبات الأرض وأوراق الشجر دفعاً لجوعه، وليس له أمام مشاكل الطريق وأتعابه إلّا قلبه المطمئن بلطف الله الذي خلّصه من مخالب الفراعنة.

وبدأت معالم «مدين» تلوح له من بعيد شيئاً فشيئاً، وأخذ قلبه يهدأ ويأنس لاقترابه من المدينة، ولما اقترب ثمّ عرف بسرعة أنّهم أصحاب أغنام وأنعام يجتمعون حول الآبار ليسقوا أنعامهم وأغنامهم.

يقول القرآن في هذا الصدد: **﴿فلما ورد ماء مدين وجد عليه أمّة من الناس يسقون ووجد**

---

١ ـ القصص، ٢٢.

من دونهما امرأتين تذودان﴾

فحركه هذا المشهد... حفنة من الشبان الغلاظ يملأون الماء ويسقون الأغنام، ولا يفسحون المجال لأحد حتى يفرغوا من أمرهم.. بينما هناك امرأتان تجلسان في زاوية بعيدة عنهم، وعليهم آثار العفّة والشرف، جاء إليهما موسىعليه السلام ليسألهما عن سبب جلوسهما هناك و **﴿قال ما خطبكما﴾**.

وَلِمَ لا تتقدمان وتسقيان الأغنام؟!

لم يرق لموسىعليه السلام أن يرى هذا الظلم، وعدم العدالة وعدم رعاية المظلومين، وهو يريد أن يدخل مدينة مدين، فلم يتحمل ذلك كله، فهو المدافع عن المحرومين ومن أجلهم ضرب قصر فرعون ونعمته عرض الحائط وخرج من وطنه، فهو لا يستطيع أن يترك طريقته وسيرته وأن يسكت أمام الجائرين الذين لا ينصفون المظلوم!..

فقالت البنتان: إنّهما تنتظران تفرق الناس وأن يسقي هؤلاء الرعاة اغنامهم: **﴿قالتا لا نسقي حتى يصدر الرعاء﴾**.

ومن أجل أن لا يسأل موسى: أليس لكما أب؟ ولماذا رضي بارسال بناته للسقي مكانه، أضافتا مكملتين كلامهما **﴿وأبونا شيخ كبير﴾** فلا هو يستطيع أن يسقي الأغنام، وليس عندنا أخ يعينه على الأمر فلا حيلة لنا إلّا أن نؤدي نحن هذا الدور.

فتأثر موسىعليه السلام من سماعه حديثهما بشدة. فأي أناس هؤلاء لا ينصفون المظلوم، ولا همّ لهم غير أنفسهم.

فتقدم وأخذ الدلو وألقاها في البئر.. يقال: إن هذه الدلو كان يجتمع عليها عدّة نفر ليخرجوها بعد امتلائها من الماء، إلّا أن موسىعليه السلام استخرجها بقوته وشكيمته وهمّته بنفسه دون أن يعينه أحد **﴿فسقى لهما﴾** أغنامهما.

ويقال: إنّ موسىعليه السلام حين اقترب من البئر لام الرعاء، قال: أي أناس أنتم لا همّ لكم إلّا أنفسكم! وهاتان البنتان جالستان؟! ففسحوا له المجال وقالوا له: هلمّ واملأ الدلو، وكانوا يعلمون أن هذه الدلو حين تمتليء لا يستخرجها إلّا عشرة أنفار من البئر.

ولكن موسى عليه السلام بالرغم من تعب السير في الطريق والجوع مـلأ الدلو وسـحبها بـنفسه وسقى أغنام المرأتان جميعها.. ﴿ثمّ تولّى إلى الظل وقال ربّ إنّي لما أنزلت إليّ من خـيرٍ فقير﴾[1].

أجل.. إنّه متعب وجائع، ولا أحد يعرفه في هذه المدينة، فهو غريب، وفي الوقت ذاته كان مؤدباً وإذا دعا الله فلا يقول: ربّ إنّي أريد كذا وكذا، بل يقول: ﴿ربّ إنّي لما أنزلت إلي من خير فقير﴾ أي إنّه يكشف عن حاجته فحسب، ويترك الباقي إلى لطف الله سبحانه.

لكن هلمّ إلى العمل الصالح، فكم له من أثر محمود! وكم له من بركات عجيبة! خطوة نحو الله ملءُ دلوٍ من أجل إنصاف المظلومين، فتح لموسىٰ فصلاً جديداً، وهيأ له من عالم عجيب من البركات المادية والمعنوية.. ووجد ضالته التي ينبغي أن يبحث عنها سنين طوالاً.

وبداية هذا الفصل عندما جاءته احدى البنتين تخطو بخطوات ملؤها الحياء والعفة ويظهر منها أنّها تستحي من الكلام مع شاب غريب، ﴿فجاءته إحداهما تمشي على استحياء﴾ فلم تزد على أن ﴿قالت إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا﴾.

فلمع في قلبه إشراقٌ من الأمل، وكأنّه أحس بأنّ واقعة مهمّة تنتظره وسـيواجـه رجـلاً كبيراً!. رجلاً عارفاً بالحق وغير مستعد أن يترك أي عمل حتى لو كان ملء الدلو أن يجزيه عليه، هذا الرجل ينبغي أن يكون انساناً نموذجياً ورجلاً سماوياً وإلهيّاً.. ربّاه.. ما أروعها من فرصة.

أجل، لم يكن ذلك الشخص الكبير سوى «شعيب» النّبي الذي كان يدعو الناس لسنين طوال نحو الله، كان مثلاً لمن يعرف الحق ويطلب الحق، واليوم إذ تعود بنتاه بسرعة يبحث عن السبب، وحين يعرف الأمر يقرر أن يؤدي ما عليه من الحق لهذا الشاب كائناً من كان.

موسىٰ في بيت شعيب

تحرك موسى عليه السلام ووصل منزل شعيب، وطبقاً لبعض الروايات، فإنّ البنت كانت تسير أمام موسى لتدله على الطريق، إلّا أن الهواء كان يحرّك ثيابها وربّما انكشف ثوبها عنها، ولكـن موسى لما عنده من عفة وحياء طلب منها أن تمشي خلفه وأن يسير أمامها، فإذا ما وصلا إلى

---

١ ـ القصص، ٢٤ ـ ٢٣.

مفترق طرق تدله وتخبره من أي طريق يمضي إلى دار أبيها شعيب:

دخل موسىعليه السلام منزل شعيبعليه السلام، المنزل الذي يسطع منه نور النبوّة.. وتشع فيه الروحانية من كل مكان.. وإذا شيخ وقور يجلس ناحيةً من المنزل يرحب بقدوم موسىعليه السلام، ويسأله:

من أين جئت؟! وما عملك؟! وما تصنع في هذه المدينة. وما مرادك وهدفك هنا؟!

ولِمَ أراك وحيداً؟!

وأسئلة من هذا القبيل..

يقول القرآن في هذا الصدد: **﴿فلما جاءه وقص عليه القصص قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين﴾**[١] فأرضنا بعيدة عن سيطرتهم وسطوتهم ولا تصل أيديهم إلينا، فلا تقلق ولا تشعر نفسك الوحشة، فأنت في مكان آمن ولا تفكر بالغربة، فكل شيء بلطف الله سيتيسر لك!..

فالتفت موسى إلىٰ أنّه وجد استاذاً عظيماً.. تنبع من جوانبه عيون العلم والمعرفة والتقوى، وتغمر وجوده الروحانيّة.. ويمكن أن يروي ظمأه منه.

كما أحسّ شعيب أنّه عثر على تلميذ جدير ولائق، وفيه استعداد لأن يتلقى علومه وينقل إليه تجارب العمر!

أجل.. كما أن موسىٰ شعر باللذة حين وجد أستاذاً عظيماً.. كذلك أحس شعيب بالفرح والسرور حين عثر على تلميذ مثل موسى.

موسىٰ صهر شعيب

جاء موسىٰ إلى منزل شعيب، منزل قرويّ بسيط، منزل نظيف ومليء بالروحيّة العـالية، وبعد أن قصّ عليه قصّته، بادرت إحدى بنتي شعيب بالقول ـ وبعبارة موجزة ـ: إنّني أقترح أن تستأجره لحفظ الأغنام ورعايتها: و**﴿قالت احديٰهما يا أبت استأجره إنّ خير من استأجرت القويُّ الأمين﴾**.

هذه البنت التي تربّت في حجر النّبي الكبير، ينبغي أن تتحدث بمثل هذا الحديث الوجيز الكريم، وأن تؤدي الكلام حقّه بأقلّ العبارات.

تُرى من أين عرفت هذه البنت أنّ هذا الشاب قويٌّ وأمين أيضاً؟ مع أنّها لم تره الّا لأوّل

---

١ ـ القصص، ٢٥.

مرّة على البئر، ولم تتّضح لها سوابق حياته!

والجواب على هذا السؤال واضح وجليّ.. إذ لاحظت قوته وهو يُنحيّ الرعاء عن البئر ويملأ القربة الثقيلة لوحده ويطالب بحق المظلوم، وأمّا أمانته وصدقه فقد اتّضحا لها منذ أن سارت أمامه إلى بيت أبيها، فطلب منها أن تتأخر ويتقدمها، لئلا تضرب الريح ثيابها!.

أضف إلى ذلك.. من خلال نقله قصته لشعيب فقد اتّضحت قوته في دفعه القبطي عن الإسرائيلي وقتله إيّاه بضربة واحدة.. وأمانته وصدقه.. في عدم مساومته الجبابرة.

فرضي شعيب عليه السلام باقتراح ابنته، وتوجه إلى موسى و﴿قال إنّي أريد أن أُنكحك إحدى ابنتي هاتين على أن تأجرني ثماني حجج﴾ ثمّ أضاف قائلاً: ﴿فإن أتممت عشراً فمن عندك﴾.

واستجابة لهذا القرار والعقد الذي أنشأه شعيب مع موسىٰ.. وافق موسى و﴿قال ذلك بيني وبينك﴾..

ثمّ أردف مضيفاً بالقول: ﴿أيّما الأجلين قضيت فلا عدوان عليَّ﴾ أي سواءً قضيت عشر سنين أو ثماني سنين «حجج» فلا عدوان علي..

ومن أجل استحكام العقد بينهما جعل موسى عليه السلام اللّه كفيلاً وقال: ﴿والله على ما نقول وكيل!﴾[1].

وبهذه البساطة أصبح موسى صهراً لشعيب على ابنته.

إسما ابنتي شعيب: واحدة «صفورة» أو «صفورا» وهي التي تزوجت من موسى عليه السلام، أمّا الثّانية فاسمها «ليا».

افضل اعوام عمر موسىٰ

لا يعلم أحد ـ بدّقة ـ ما جرى على موسى في سنواته العشر مع شعيب، ولا شكّ أن هذه السنوات العشر كانت من أفضل سنوات العمر لموسىٰ عليه السلام سنوات عذبة هادئة، سنوات هيأته للمسؤولية الكبرىٰ.

في الحقيقة كان من الضروري أن يقطع موسى عليه السلام مرحلة عشر سنين من عمره في الغربة إلى جانب النّبي العظيم شعيب، وأن يكون راعياً لغنمه؛ ليغسل نفسه ممّا تطبّعت عليه من قبل

---

١ ـ القصص، ٢٨ ـ ٢٦.

أو ما قد أثرت عليه حياة القصر من خلق وسجية.

كان على موسى عليه السلام أن يعيش إلى جوار سكنة الأكواخ فترةً ليعرف همومهم وآلامهم، وأن يتهيأ لمواجهة سكنة القصور.

ومن جهة أُخرىٰ كان موسىٰ بحاجة الى زمن طويل ليفكر في أسرار الخلق وعالم الوجود وبناء شخصيته. فأيُّ مكان أفضل له من صحراء مدين، وأفضل من بيت شعيب؟!.

إنّ مسؤولية نبي من أولي العزم، ليست بسيطة حتى يمكن لكل فرد أن يتحملها، بل يمكن أن يقال: إنّ مسؤولية موسى عليه السلام ـ بعد مسؤولية النّبي محمّد صلى الله عليه وآله ـ من بين الأنبياء جميعاً، كانت أثقل وأهم، بالنظر لمواجهته الجبابرة على الأرض، وتخليص أمّة من أسرهم، وغسل آثار الأسر الثقافي من أدمغتهم.

إنّ شعيباً قرر تكريماً لأتعاب موسى وجهوده معه أن يهب له ما تلده الأغنام في علائم خاصة، فاتفق أن ولدت جميع الأغنام أو أغلبها ـ في السنة الذي ودّع فيها موسى شعيباً ـ أولادها بتلك العلائم التي قررها شعيب ، وقدمها شعيب مع كامل الرغبة إلى موسى.

ومن البديهي أنّ موسى عليه السلام لا يقنع في قضاء جميع عمره برعي الغنم، وإن كان وجود «شعيب» الى جانبه يعدّ غنيمة كبرى.

فعليه أن ينهض إلى نصرة قومه، وأن يخلصهم من قيود الأسر، وينقذهم من حالة الجهل وعدم المعرفة.

وعليه أن ينهي وجودالظلمة وحكام الجور في مصر، وأن يحطّم الأصنام، وأن يجد المظلومون العزة بالله معه، هذا الإحساس كان يدفع موسى للسفر إلى قومه.

وأخيراً جمع موسى أثاثه ومتاعه وأغنامه وتهيأ للسفر.

ويستفاد ضمناً من التعبير بـ«الأهل» التي وردت في آيات كثيرة في القرآن أن موسى عليه السلام كان عنده هناك غير زوجته ولدٌ أو أولاد، كما تؤيد الرّوايات الإسلامية هذا المضمون، وكما صرّح بهذا المعنى في «التوراة» في سفر الخروج، وإضافةً إلى كل ذلك فإنّ زوجته كانت حاملاً أيضاً.

الشّرارة الأُولىٰ للوحي

وعند عودته من مدين إلى وطنه أضاع الطريق، ولئلا يقع أسيراً بيد الظلمة من أهل الشام اختار طريقاً غير مطروق. وكانت زوجته (أهله) مُقرباً، فأحسّت بوجع الطلق، فوجد موسى عليه السلام نفسه بمسيس الحاجة إلى النّار لتصطلي المرأة بها، لكن لم يكن في الصحراء أيّ شيء، فلمّا لاحت له النّار من بعيد سُرّ كثيراً، وعلم أنّها دليل على وجود إنسان أو أناس، فقال: سأمضي وآتيكم منها بخبر أو شعلة للتدفئة.

وعلى كل حال فإنّ القرآن يقول: ﴿**فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله انس من جانب الطور ناراً**﴾ ثمّ التفت إلى أهله و﴿**قال لأهله امكثوا إنّي آنست ناراً لعلي آتيكم منها بخبرٍ أو جذوةٍ من النّار لعلكم تصطلون**﴾ أي (تتدفؤون).

ويستفاد من قوله ﴿**لعلي آتيكم بخبر**﴾ أنّه كان أضاع الطريق، كما يستفاد من جملة ﴿**لعلكم تصطلون**﴾ أن الوقت كان ليلاً بارداً.

ولم يرد في الآية كلامٌ عن حالة زوجة موسى، ولكن المشهور أنّها كانت حاملاً وكانت تلك اللحظة قد أحست بالطلق وألم الولادة.. وكان موسى قلقاً لحالها أيضاً.

﴿**فلّما أتاها**﴾ أي أتى النّار التي آنسها ورآها، وجدها ناراً لا كمثل النيران الأُخر فهي غير مقترنة بالحرارة والحريق، بل هي قطعة من النور والصفاء، فتعجب موسى من ذلك ﴿**نودي من شاطىء الوادي الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة أن ياموسى إنّي أنا الله ربّ العالمين**﴾[1].

ولا شك أن الله سبحانه قادر على أن يجعل الأمواج الصوتية في كل شيء، فأوجد في الوادي شجرة ليكلّم موسى.. وموسى بشر له جسم وأذنان ولابدّ له ليسمع الكلام من أمواج صوتية.. وطبيعي أن كثيراً من الأنبياء كان الوحي بالنسبة لهم إلهاماً داخلياً، وأحياناً يرون ما يوحى إليهم في «النوم» كما كان الوحي يأتيهم. أحياناً ـ عن طريق سماع الأمواج الصوتية.

وعلى كل حال فلا مجال للتوهم بأنّ الله جسم، تعالى الله عن ذلك.

---

١ ـ القصص، ٣٠ ـ ٢٩.

فاخلع نعليك

إن موسى عليه السلام حين اقترب من النّار، دقق النظر فلاحظ أن النّار تخرج من غصن أخضر وتضيء وتزداد لحظة بعد لحظة وتبدو أجمل، فانحنى موسى وفي يده غصن يابس ليوقده من النّار، فجاءت النّار من ذلك الغصن الأخضر إليه فاستوحش ورجع إلى الوراء.. ثمّ رجع إليها ليأخذ منها قبساً فأتته ثانية.. وهكذا مرّة يتجه بنفسه إليها ومرّة تتجه النّار إليـه، وإذا النداء والبشارة بالوحي إليه من قبل الله سبحانه.

﴿يا موسىٰ إنّي أنا ربّك فاخلع نعليك إنّك بالواد المقدس طوى﴾ [1].

إنّ موسى عليه السلام قد أمر بخلع نعليه احتراماً لتلك الأرض المقدسة، وأن يسير بكل خضوع وتواضع في ذلك الوادي ليسمع كلام الحق، وأمر الرسالة.

وقد هام موسى لدى سماعه هذا النداء المحيي للروح: **﴿إنّي أنا ربّك﴾** وأحاطت بكـل وجوده لذة لا يمكن وصفها، فمن هذا الذي يتحدث معي؟ إنّه ربّي الذي جللني بالفخر الكلمة **﴿ربّك﴾** ليُعْلمني بأنّي قد تربيت وترعرعت منذ نعومة أظفاري وإلىٰ الآن في ظـل رحـمته وعنايته، وأصبحت مهيئاً لرحمة عظيمة.

لقد أُمر أن يخلع نعليه، لأنّه قد وضع قدمه في أرض مقدسة .. الأرض التي تجلى فيها النور الإلهي، ويسمع فيها نداء الله، ويتحمل مسؤولية الرسالة، فيجب أن يخطو في الأرض بمنتهى الخضوع والتواضع، وهذا هو سبب خلعه النعل عن رجله.

وفي حديث عن الإمام الصادق عليه السلام فيما يتعلق بهذا الجانب والزمن من حياة موسى عليه السلام حيث يقول: «**كن لما لا ترجوا أرجى منك لما ترجو، فإن موسى بن عمران خرج ليقبس لأهله ناراً فرجع إليهم وهو رسول نبي**» ! وهي إشارة إلىٰ أن الإنسان كثيراً ما يأمل أن يصل إلىٰ شيء لكنه لا يصل إليه، إلّا أن أشياء أهم لا أمل له في نيلها تتهيأ له بفضل الله.

---

١ ـ طه، ١٢.

عصا موسى واليد البيضاء

لا شك أنّ الأنبياء يحتاجون إِلىٰ المعجزة لإِثبات ارتباطهم بـالله، وإِلّا فـإِنّ أي واحـد يستطيع أن يدعي النّبوة، وبناء على هذا فإِن معرفة الأنبياء الحقيقيين من المزيفين لا يتيسر إِلّا عن طريق المعجزة. وهذه المعجزة يمكن أن تكون بذاتها دعوة وكتاباً سماوياً للـنّبي، ويمكن أن تكون أُموراً أُخرىٰ من قبيل المعجزات الحسية والجسمية، إِضافة إِلىٰ أن المعجزة مؤثرة في نفس النّبي، فهي تزيد من عزيمته وإِيمانه وثباته.

على كل حال، فإِن موسىﷺ بعد تلقيه أمر النّبوة، يجب أن يتلقى دليلها وسندها أيضاً، وهكذا تلقّىٰ موسىﷺ في تلك الليلة المليئة بالذكريات والحوادث معجزتين كبيرتين من الله، ويبيّن القرآن الكريم هذه الحادثة فيقول: ﴿وما تلك بيمينك يا موسى﴾؟

إِنّ هذا السؤال البسيط المقترن باللطف والمحبة، إِضافة إِلىٰ أنّه بثّ الطمانينة في نـفس موسىﷺ الذي كان غارقاً حينئذٍ في دوامة من الاضطراب والهيجان فإِنّه كان مقدمة لحادثة مهمّة.

فأجاب موسى: ﴿قال هي عصاي﴾ ولما كان راغباً في أن يستمر في حديثه مع محبوبه الذي فتح الباب بوجهه لأوّل مرّة، وربّما كان يظن أيضاً أن قوله: ﴿هي عصاي﴾ غير كاف، فأراد أن يبيّن آثارها وفوائدها فأضاف: ﴿أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي﴾ أي أضرب بها على اغصان الشجر فتتساقط اوراقها لتأكلها الاغنام ﴿ولي فيها مآرب أُخرىٰ﴾ [1].

من المعلوم ما للعصا لأصحابها من فوائد، فهم يستعملونها أحياناً كسلاح للـدفاع عـن أنفسهم أمام الحيوانات المؤذية والأعداء، وأحياناً يصنعون منها مظلة في الصحراء تقيهم حرّ الشمس، وأحياناً أُخرىٰ يربطون بها وعاء أو دلواً ويسحبون الماء من البئر العميق.

عل كل حال، فإِنّ موسى غط في تفكير عميق: أيّ سؤال هذا في هذا المجلس العظيم، وأيّ جواب أعطيه؟ وماذا كانت تلك الأوامر؟ ولماذا هذا السؤال؟

﴿وأن ألق عصاك فلما رآها تهتز كأنّها جان ولّى مدبراً ولم يعقب﴾.

ويوم اختار موسىﷺ هذه العصا ليتوكأ عليها للاستراحة، ويهشُّ بها على غنمه، ويرمي

---

١ ـ طه، ١٨ ـ ١٧.

لها بهذه العصا أوراق الأشجار، لم يكن يعتقد أنّ في داخلها هذه القدرة العظيمة المودعة من قبل الله. وأن هذه العصا البسيطة ستهز قصور الظالمين، وهكذا هي موجودات العالم، نتصور أنّها لا شيء، لكن لها استعدادات عظيمة مودعة في داخلها بأمر الله تتجلى لنا متى شاء.

في هذه الحال سمع موسى عليه السلام مرّة أُخرىٰ النداء من الشجرة **﴿أقبل ولا تخف إنّك من الأمنين﴾** [۱].[۲] وعلى كل حال، كان على موسى عليه السلام أن يعرف هذه الحقيقة، وهي أنّه لا ينبغي له الخوف في الحضرة الإلهية؛ لأنّ الأمن المطلق حاكم هناك، فلا مجال للخوف إذاً.

آية من الرعب، آية من النور

كانت المعجزة الأُولىٰ آية «من الرعب»، ثمّ أمر أن يظهر المعجزة الثّانية وهي آية أُخرىٰ «من ا لنور والأمل» ومجموعهما سيكون تركيباً من «الإنذار» و«البشارة» إذْ جاءه الأمر **﴿أسلك يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء﴾**.

فالبياض الذي يكون على يده للناس لم يكن ناشئاً عن مرض ـ كالبرص ونحوه ـ بل كان نوراً الهياً جديداً.

لقد هزّت موسى عليه السلام مشاهدته لهذه الأُمور الخارقة للعادات في الليل المظلم وفي الصحراء الخالية.. ومن أجل أن يهدأ روع موسى من الرهب، فقد أمر أن يضع يده على صدره **﴿واضمم إليك جناحك من الرهب﴾**.

وجاء موسى النداءُ معقّباً: **﴿فذانك برهانان من ربّك إلى فرعون وملئه إنّهم كانوا قوماً فاسقين﴾** [۳].

---

۱ ـ القصص، ۳۱.

۲ ـ يقول تعالى: ﴿وأن ألق عصاك فلما رآها تهتز كأنّها جان ولّى مدبراً ولم يعقب﴾. كما عبر في بعض الآيات عن العصا بـ ﴿ثعبان مبين﴾ [سورة الأعراف الآية ۱۰۷ وسورة الشعراء الآية ۳۲].

وإنّ هذا التفاوت في التعابير ربّما لبيان الحالات المختلفة لتلك الحية.. التي كانت في البداية حية صغيرة، ثمّ ظهرت كأنّها ثعبان مبين.

كما ويحتمل أن موسى عليه السلام رآها في الوادي بصورة حية، ثمّ في المرات الأُخرىٰ بدأت تظهر بشكل مهول ﴿ثعبان مبين﴾.

۳ ـ القصص، ۳۲.

فهم طائفة خرجت عن طاعة الله وبلغ بهم الطغيان مرحلة قصوى.. فعليك ـ يا موسى ـ أن تؤدي وظيفتك بنصحهم، وإلّا واجهتهم بما هو أشد.

طلب اسباب النصر

ومضافاً إلىٰ أنّ موسىعليه‌السلام لم يستوحش ولم يخف من هذه المهمّة الثقيلة الصعبة، ولم يطلب من الله أي تخفيف في هذه المهمة، فإنّه قد تقبلها بصدر رحب، غاية ما في الأمر أنّه طلب من الله أسباب النصر في هذه المهمة. ولما كان أهم وأول أسباب النصر الروح الكبيرة، والفكر الوقاد، والعقل المقتدر، وبعبارة أُخرىٰ: رحابة الصدر ، فقد ﴿**قال رب اشرح لي صدري**﴾.

نعم إنّ أوّل رأسمال لقائد ثوري هو رحابة الصدر، والصبر الطويل، والصمود والثبات، والشهامة وتحمل المشاكل والمصاعب.

ولما كان هذا الطريق مليئاً بالمشاكل والمصاعب التي لا يمكن تجاوزها إلّا بلطف الله، فقد طلب موسى من الله في المرحلة الثّانية أن تُيسر له أُموره وأعماله، وأن تذلل هذه العقبات التي تعترضه، فقال: ﴿**ويسر لي أمري**﴾.

ثمّ طلب موسى أن تكون له قدرة على البيان بأعلىٰ المراتب فقال: ﴿**واحلل عقدة من لساني**﴾ فصحيح أن امتلاك الصدر الرحب أهم الأُمور والأسس، إلّا أنّ بلورة هذا الأساس تتمّ إذا وجدت القدرة على إراءته وإظهاره بصورة كاملة، ولذلك فإنّ موسى بعد طلب انشراح الصدر، ورفع الموانع والعقبات، طلب من الله حل العقدة من لسانه.

خاصّة وأنّه بيّن علة هذا الطلب فقال: ﴿**يفقهوا قولي**﴾[١] فهذه الجملة في الحقيقة تفسير للآية التي قبلها، ومنها يتّضح أنّ المراد من حلّ عقدة اللسان لم يكن هو التلكؤ وبعض العسر في النطق الذي أصاب لسان موسىعليه‌السلام نتيجة احتراقه في مرحلة الطفولة ـ كما نقل ذلك بعض المفسّرين عن ابن عباس ـ بل المراد عقد اللسان المانعة من إدراك وفهم السامع، أي أريد أتكلم بدرجة من الفصاحة والبلاغة والتعبير بحيث يدرك أي سامع مرادي من الكلام جيداً.

١ ـ طه، ٢٨ ـ ٢٥.

أخي رفيقي ومعيني

وعلى كل حال، فإنّ القائد والقدوة والموفق والمنتصر هو الذي يمتلك إضافة إلىٰ سعة الفكر وقدرة الروح، بياناً أخاذاً بليغاً خالياً من كل أنواع الإبهام والقصور.

ولما كان إيصال هذا الحمل الثقيل ـ حمل رسالة الله، وقيادة البشر وهدايتهم، ومحاربة الطواغيت والجبابرة ـ إلىٰ المحل المقصود يحتاج إلىٰ معين ومساعد، ولا يمكن أن يقوم به إنسان بمفرده، فقد كان الطلب الرابع لموسى من الله هو: ﴿واجعل لي وزيراً من أهلي﴾.

لماذا طلب موسى أن يكون هذا الوزير من أهله؟ فسببه واضح، لأنّه يعرفه جيداً، ومن جهة أُخرىٰ فإنّه أحرص من غيره، فكم هو جيد وجميل أن يستطيع الإنسان أن يتعاون مع شخص تربطه به علائق روحية وجسمية؟!

ثمّ يشير إلىٰ أخيه، فيقول: ﴿هارون أخي﴾[١] وهارون ـ حسب نقل بعض المفسّرين ـ كان الأخ الأكبر لموسى، وكان يكبره بثلاث سنين، وكان طويل القامة، جميلاً بليغاً، عالي الإدراك والفهم، وقد رحل عن الدنيا قبل وفاة موسى بثلاث سنين[٢].

وقد كان نبيّاً مرسلاً[٣] وكذلك كانت له بصيرة بالأُمور وميزاناً باطنياً لتمييز الحق من الباطل[٤]. وأخيراً فقد كان نبيّاً وهبه الله لموسى من رحمته،[٥] فقد كان يسعى جنباً إلىٰ جنب مع أخيه في أداء هذه الرسالة الثقيلة.

صحيح أن موسى عليه السلام عندما طلب ذلك من الله في تلك الليلة المظلمة في الوادي المقدس حيث حُمّل الرسالة، كان قد مضىٰ عليه أكثر من عشر سنين بعيداً عن وطنه، إلّا أنّ ارتباطه ـ عادة ـ بأخيه لم يقطع بصورة كاملة، بحيث أنّه يتحدث بهذه الصراحة عنه، ويطلب من الله أن يشاركه في هذا البرنامج الكبير.

---

١ ـ طه، ٣٠ ـ ٢٩.

٢ ـ مجمع البيان ذيل الآية.

٣ ـ كما يظهر من الآية (٤٥) من سورة المؤمنون: ﴿ثمّ أرسلنا موسى وأخاه هارون بآياتنا وسلطان مبين﴾.

٤ ـ كما ورد في الآية (٤٨) من سورة الأنبياء: ﴿ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياء﴾.

٥ ـ ﴿ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبيّاً﴾ مريم، ٥٣ .

ثمّ يبيّن موسىعليه‌السلام هدفه من تعيين هارون للوزارة والمعونة فيقول: **﴿أشدد به أزري﴾**.

ويطلب، من أجل تكميل هذا المقصد والمطلب: **﴿واشركه في أمري﴾** فيكون شريكاً في مقام الرسالة، وفي إجراء وتنفيذ هذا البرنامج الكبير، إلّا أنّه يتبع موسى على كل حال، فموسى إمامه ومقتداه.

وفي النهاية يبيّن نتيجة هذه المطالب فيقول: **﴿كي نسبحك كثيراً ونذكرك كثيراً إنّك كنت بنا بصيراً﴾** وتعلم حاجاتنا جيداً، ومُطَّلِع على مصاعب هذا الطريق أكثر من الجميع، فنحن نطلب منك أن تعيننا على طاعتك، وأن توفقنا وتؤيدنا في أداء واجباتنا ومسؤولياتنا الملقاة على عاتقنا.

ولما كان موسى لم يهدف من طلباته المخلصة هذه إلّا الخدمة الأكثر والأكمل، فإنّ الله سبحانه قد لبى طلباته في نفس الوقت **﴿قال قد أُتيت سؤلك يا موسى﴾** [١].

إنّ موسى في الواقع طلب كل ما كان يلزمه في هذه اللحظات الحساسة الحاسمة التي يجلس فيها لأوّل مرّة على مائدة الضيافة الإلهية ويطأ بساطها، والله سبحانه كان يحب ضيفه أيضاً، حيث لبّى كل طلباته وأجابه فيها في جملة قصيرة تبعث الحياة، وبدون قيد وشرط ثمّ وبتكرار اسم موسى أكمل له الإستجابة وحلاوتها وأنزال كل إبهام عن قلبه، وأي تشويق وافتخار أن يكرر المولىٰ اسم العبد؟

موسىٰ في مواجهة فرعون

انتهت المرحلة الأُولىٰ لمأمورية «موسىعليه‌السلام» وهي موضوع الوحي «والرسالة» وطلبه أسباب الوصول إلى هذا الهدف الكبير!...

وتعقيباً على المرحلة الآنفة تأتي المرحلة الثّانية، أي مواجهة موسى وهارون لفرعون، والكلام المصيري الذي جرى بينهم!

يقول القرآن الكريم مقدمةً لهذه المرحلة: **﴿فأتيا فرعون فقولا إنّا رسول ربّ العالمين﴾**.

وضمن دعوتكما لفرعون بأنّكما رسولا ربّ العالمين اطلبا منه أن يُرسل بني إسرائيل ويرفع يده عنهم: **﴿أن أرسل معنا بني إسرائيل﴾**.

---

١ ـ طه ٣٦ ـ ٣١.

وبديهي أن المراد من الآية أن يرفع فرعون عن بني إسرائيل نيرْ العبوديّة والقهر والإستعباد، ليتحرروا ويأتوا مع موسى وهارون، وليس المراد هو إرسال بني إسرائيل معهما فحسب.

وصل موسىٰ عليه السلام إلى مصر، وأخبر أخاه هارون بما حُمِّلَ.. وأبلغه الرسالة الملقاة عليهما.. فذهبا معاً إلى فرعون ليبلغاه رسالة الله، وبعد عناء شديد استطاعا أن يصلا إلى فرعون وقد حف به من في القصر من جماعته وخاصته، فأبلغاه الدعوة إلى الله ووحدانيّته.

وهنا يلتفت فرعون فيتكلم بكلمات مدروسة وممزوجة بالخبث والشيطنة لينفي الرسالة ويقول لموسىٰ: ﴿ألم نربّك فينا وليداً...﴾.

إذْ ٱلتقطناك من أمواج النيل الهادرة فانقذناك من الهلاك، وهيّأنا لك مرضعة، وعفونا عن الحكم الصادر في قتل أبناء بني إسرائيل الذي كنت مشمولاً به، فتربّيت في محيط هادىء آمن منعّماً... وبعد أن تربيت في بيتنا عشت زماناً ﴿ولبثت فينا من عمرك سنين﴾.

ثمّ توجه إلى موسى وذكرّه بموضوع قتل القبطي فقال: ﴿وفعلت فعلتك التي فعلت﴾.

إشارةً إلى أنه كيف يمكنك أن تكون نبيّاً ولديك مثل هذه السابقة؟!

ثمّ بعد هذا كله: ﴿وأنت من الكافرين﴾! (أي بنعمة فرعون) فلطالما جلست علىٰ مائدتنا وتناولت من زادنا فكيف تكون نبيّاً وأنت كافر بنعمتي؟!

وفي الحقيقة؛ كان فرعون يريد أن يجعل موسىٰ محكوماً بهذه التهم المواجهة إليه، وبهذا المنطق الإستدراجي.

وعندما سمع موسى كلمات فرعون الممزوجة بالخبث والشيطنة أجاب على إشكالات فرعون الثلاثة، إلّا أنه قدّم الإجابة على الإشكال الثّاني نظراً لأهميته. (أو أنه أساساً لم يجد الإشكال الأوّل يستحق الإجابة، لأن تربية الشخص لا تكون دليلاً على عدم جواز هداية مربّية إن كان المربي ضالاً، ليسلك سبيل الرشاد)

وعلى كل حال أجابه موسىٰ عليه السلام: ﴿قال فعلتها إذاً وأنا من الضالين﴾.

أي إن موسى كانت ضربته للرجل القبطي لا بقصد القتل، بل لكي يحمي المظلوم ويدافع عنه، ولم يدر أنّه ستؤول ضربته إلى الإجهاز عليه وقتله،

﴿ففررت منكم لما خفتكم فوهب لي ربي حكماً وجعلني من المرسلين﴾!

ثمّ يردّ موسى عليه السلام على كلام فرعون الذي يمنُّ به عليه في أنّه ربّاه وتعهده منذ طفولته

وصباهُ، معترضاً عليه بلحن قاطع فيقول: ﴿وتلك نعمة تمنُّها عليّ أن عبّدت بني إسرائيل﴾[1].

صحيح أنّ يد الحوادث ساقتني ـ وأنا طفل رضيع ـ إلىٰ قصرك، لأتربّىٰ في كنفك، وكان في ذلك بيان لقدرة الله، لكن ترى كيف جئت إليك؟ ولم لا تربيتُ في أحضان والديّ وفي بيتهما؟!

ألم يكن ذلك لأنّك عبّدت بني إسرائيل وصفّدت أيديهم بنير الأسر! حتى أمرت أن يُقتل الأطفال الذكور وتستحيا النساء للخدمة؟!

فهذا الظالم المفرط من قبلك، كان سبباً لأن تضعني أُمي في الصندوق حفاظاً عليّ، وتلقيني في أمواج النيل، وكانت مشيئة الله أن تسوق الأمواج «زورقي» الصغير حتى توصله إلى قصرك... أجل إن ظلمك الفاحش هو الذي جعلني رهين منّتك وحرمني من بيت أبي الكريم، وصيرني في قصرك الملوّث!...

الإتهام بالجنون

حين واجه موسى عليه السلام فرعون بلهجة شديدة: وأجابه بضرس قاطع، وأفحم فرعون في ردّه، غيّر فرعون مجرى كلامه، وسأل موسى عن معنى كلامه أنّه رسول ربّ العالمين، و ﴿قال فرعون وما ربّ العالمين﴾..

ومن المستبعد جدّاً أن يكون فرعون قد سأل موسى عليه السلام هذا السؤال لفهم الحقيقة ومعرفة الموضوع، بل يبدو أنّه سأله متجاهلاً ومستهزئاً.

إلّا أنّ موسىٰ ـ على كل حال ـ لم يجد بُداً كسائر الباحثين الواعين اليقظين، أن يجيب على فرعون بجدّ... وحيث أن ذات الله سبحانه بعيدة عن متناول أفكار الناس، فإنّهُ أخذ يحدثه عن آيات الله في الآفاق وآثاره الحيّة إذْ ﴿قال ربّ السماوات والأرض وما بينهما إن كنتُمْ موقنين﴾.

فالسماوات بما فيهن من عظمة، والأرض على سعتها... والموجودات المتعددة بألوانها بحيث لا تساوي أنت وقصرك بإزائها إلّا ذرّة في مقابل المجرّة! كلّها من خلق ربّي، فمثل هذا الخالق المدبّر لهذا العالم جدير بالعبادة، لا الموجود الضعيف التافه مثلك!...

---

١ ـ الشعراء، ٢٢ ـ ١٦.

إلّا أن فرعون لم يتيقظ من نومة الغافلين بهذا البيان المتين المحكم لهذا المعلم الكبير الرّباني السماوي... فعاد لمواصلة الإستهزاء والسخرية، واتبع طريقة المستكبرين القديمة بغرور، و ﴿قال لمن حوله ألا تستمعون﴾.

ومعلوم من هم الذين حول فرعون؟ فهم أشخاص من نسيجه وجماعة من أصحاب القوّة والظلم والقهر والمال.

كان الذين حول فرعون هناك خمسمائة نفر، وهم يعدّون من خواص قومه.

وكان الهدف من كلام فرعون أن لا يترك كلام موسى المنطقي يؤثر في القلوب المظلمة لأُولئك الرهط... فعدّه كلاماً بلا محتوى وغير مفهوم.

إلّا أن موسى عليه السلام عاد مرّةً أُخرىٰ إلى كلامه المنطقي دون أي خوف ولا وهن ولا إيهام، فواصل كلامه و ﴿قال ربّكم وربّ آبائكم الأولين﴾.

إلّا أن فرعون تمادى في حماقته، وتجاوز مرحلة الإستهزاء إلى اتهام موسى بالجنون، فـ ﴿قال إنّ رسولكم الذي أُرسل إليكم لمجنون﴾...

وذلك ما اعتاده الجبابرة والمستكبرون على مدى التاريخ من نسبة الجنون إلى المصلحين الرّبانيين!...

وممّا يستجلب النظر أن هذا الضالّ المغرور لم يكن مستعدّاً حتى لأنّ يقول: «إنّ رسولنا الذي أرسل إلينا»، بل قال: «إنّ رسولكم الذي أرسل إليكم»، لأن التعبير برسولكم ـ أيضاً ـ له طابع الاستهزاء المقترن بالنظرة الإستعلائية... يعني: إنني أكبر من أن يدعوني رسول... وكان الهدف من اتهامه موسى بالجنون هو إحباط وإفشال منطقه القويّ المتين لئلا يترك أثراً في أفكار الحاضرين.

إلّا أن هذه التهمة لم تؤثر في روح موسى عليه السلام ومعنوياته العالية، وواصل بيان آثار الله في عالم الإيجاد في الآفاق والأنفس، مبيناً خط التوحيد الأصيل فـ ﴿قال ربّ المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون﴾.

فإذا كنت ـ يا فرعون ـ تحكم حكما ظاهريّاً في أرض محدودة تدعى مصر، فإنّ حكومة ربّي الواقعية تسع المشرق والمغرب وما بينهما جميعاً، وآثاره تشرق في وجوه الموجودات!... وأساساً فإنّ هذه الشمس في شروقها وغروبها وما يتحكم فيها من نظام، كل ذلك بنفسه آية له ودليل على عظمته... إلّا أنّ العيب كامن فيكم، لأنّكم لا تعقلون، ولم تعتادوا

التفكير. وفي الواقع إن موسى عليه السلام أجاب على اتهامهم إياه بالجنون بأسلوب بليغ بأنّه ليس مجنوناً، وأن المجنون هو من لا يرى كل هذه الآثار ودلائل وجود الخالق، والعجيب أنه مع وجود الآثار على باب الدار والجدار، فانه يوجد من لا يفكر في هذه الآثار!».

غير أن هذا المنطق المتين الذي لا يتزعزع غاظ فرعون بشدة، فالتجأ إلى استعمال «حربةٍ» يفزع إليها المستكبرون عند الإندحار، و ﴿قال لئن اتخذت إلٰهاً غيري لأجعلنك من المسجونين﴾[1].

فأنا لا أعرف كلماتك، إنّما أعرف وجود الهٍ ومعبود كبير وهو أنا... ومن قال بغيره فهو محكوم بالإعدام أو السجن!...

وفي الواقع كان فرعون يريد أن يسكت موسى بهذا المنطق الارهابي، لأن مواصلة موسى عليه السلام بمثل هذه الكلمات ستكون سبباً في إيقاظ الناس، وليس أخطر على الجبابرة من شيء كإيقاظ الناس!...

بلادكم في خطر

رأينا كيف حافظ موسى عليه السلام علىٰ تفوّقه ـ من حيث المنطق ـ على فرعون، وبيّن للحاضرين إلى أيّة درجة يعوّل مبدؤه على منطقه وعقله، وأن ادعاء فرعون واهٍ وضعيف، فتارة يسخر من موسىٰ، وتارةً يرميه بالجنون، وأخيراً يلجأ إلى التهديد بالسجن والإعدام!...

وهنا يقلب موسىٰ عليه السلام صفحة جديدة، فعليه أن يسلك طريقةً أخرىٰ يخذل فيها فرعون ويعجزه. عليه أن يلجأ إلى القوّة أيضاً، القوّة الإلهية التي تنبع من الإعجاز، فالتفت إلى فرعون متحدّياً و ﴿قال أو لوجئتك بشيءٍ مبين﴾...

وهنا وجد فرعون نفسه في طريقٍ مغلق مسدود... لأن موسى عليه السلام أشارَ إلى خطّة جديدة! ولفت انظار الحاضرين نحوه، إذ لو أراد فرعون أن لا يعتدّ بكلامه، لاعترض عليه الجميع ولقالوا: دعه ليرينا عمله المهم، فلو كان قادراً على ذلك فلنرىٰ، ونعلم حينئذٍ أنّه لا يمكن الوقوف امامه، وإلّا فستنكشف مهزلته!! وعلى كل حال ليس من اليسير تجاوز كلام موسى ببساطة...

---

١ ـ الشعراء، ٢٩ ـ ٢٣.

فاضطر فرعون إلى الإستجابة لا قتراح موسى عليه السلام و ﴿قال فأت به إن كنت من الصادقين﴾.

﴿فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين﴾ «بأمر الله».

ثمّ أظهر إعجازاً آخر حيث أدخل يده في جيبه (اعلى الثوب) وأخرجها فاذا هي بيضاء منيرة: ﴿ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين﴾.

في الحقيقة إن هاتين المعجزتين الكبيرتين، إحداهما كانت مظهر الخوف، والأُخرىٰ مظهر الأمل، فالأُولىٰ تناسب مقام الإنذار، والثّانية للبشارة! والأُولىٰ تبيّن عذاب الله، والأُخرىٰ نورٌ وآية رحمة! لأنّ المعجزة ينبغي أن تكون منسجمةً مع دعوة النّبي عليه السلام.

غير أن فرعون اضطرب لهذا المشهد المهول وغرق في وحشة عميقة ولكي يحافظ على قدرته الشيطانية التي أحدق بها الخطر بظهور موسى عليه السلام، وكذلك من أجل أن يرفع من معنويات أصحابه والملأ من حوله في توجيه معاجز موسىٰ ولفت نظرهم عنها، فقد ﴿قال للملأ حوله إن هذا لساحر عليم﴾.

ذلك الإنسان الذي كان يدعوه مجنوناً إلى لحظات آنفة، وإذا هو الآن يعبر عنه بالعليم، وهكذا هي طريقة الجبابرة وأسلوبهم، حيث تتبدل كلماتهم في مجلس واحد عدّة مرّات، ويحاولون التشبث بأي شيءٍ للوصول إلى هدفهم.

وكان فرعون يعتقد أن اتهام موسى بالسحر ألصق به وأكثر قبولاً عند السامعين، لأنّ ذلك العصر كان عصر السحر، فإذا أظهر موسى عليه السلام معاجزه فمن اليسير توجيهها بالسحر.

ومن أجل أن يعبّىء الملأ ويُثيرَ حفيظتهم ضد موسى عليه السلام، قال لهم: ﴿يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون؟﴾.

والغريب في الأمر أن فرعون الذي قال هذا الكلام هو الذي كان يقول من قبل: ﴿أليس لي ملكُ مصر﴾؟!

والآن حيث يرى عرشه متزعزعاً ينسى مالكيته المطلقة لهذه الأرض، ويعدّها ملكَ الناس، فيقول لهم: أرضكم في خطر، إن موسى يريد أن يخرجكم من أرضكم، ففكروا في حيلة!... فرعون هذا لم يكن قبل ساعة مستعداً لأن يصغي لأحد، كان الآمر بلا منازع، أمّا الآن فهو في حرج شديد يقول لمن حوله: «ماذا تأمرون»؟! إنّها استشارة عاجزة ومن موقف الضعف فحسب!...

ويستفاد من القرآن الكريم [1] أنّ أتباع فرعون ومن حوله ائتمروا فيما بينهم وتشاوروا في الأمر، وكانوا في حالة من الإضطراب النفسي بحيث كان كلٌّ منهم يسأل الآخر قائلاً: وأنت ما تقول؟ وماذا تأمرون؟!

وبعد المشاورة فيما بينهم التفت الملأ من قوم فرعون إليه و **﴿قالوا أرجه وأخاه وابعث في المدائن حاشرين﴾**. أي أمهلهما وابعث رسلك الى جميع المناطق والأمصار.

﴿يأتوك بكل سحّار عليم﴾ [2].

وفي الواقع أن رهط فرعون إمّا أنّهم غفلوا، وإمّا أنّهم قبلوا اتهامه لموسى واعين للأمر. فهيأوا خطةً على أنّه ساحر، ولابدّ من مواجهته بسحرة أعظم منه وأكثر مهارة!...

وقالوا: لحسن الحظّ إنّ في بلادنا العريضة سحرةً كثيرين، فلابدّ من جمع السحرة لإحباط سحر موسى عليه السلام.

اجتماع السحرة من كلّ مكانٍ

تحرك المأمورون بحسب اقتراح أصحاب فرعون إلى مدن مصر لجمع السحرة والبحث عنهم، وكان الوعد المحدد **﴿فجمع السحرة لميقات يوم معلوم﴾**.

وبتعبير آخر: إنّهم هيأوهم من قبل لمثل هذا اليوم، كي تجتمعوا في الوعد المقرر في «ميدان العرض»...

والمراد من «اليوم المعلوم» كما يستفاد من بعض الآيات في سورة الأعراف، أنّه بعض أعياد أهل مصر، وقد اختاره موسى عليه السلام للمواجهة ومنازلة السحرة... وكان هدفه أن يجد الناس فرصة أوسع للإجتماع، لأنّه كان مطمئناً بأنّه سينتصر، وكان يريد أن يظهر آيات الله وضعف فرعون والملأ من حوله للجميع، وليشرق نور الإيمان في قلوب جماعة كثيرين!...

وطُلب من الناس الحضور في هذا المشهد: **﴿وقيل للناس هل أنتم مجتمعون﴾** وهذا التعبير يدلّ على أنّ المأمورين من قِبَلِ فرعون بذلوا قصارى جهودهم في هذا الصدد... وكانوا يعلمون أنّهم لو أجبروا الناس على الحضور لكان ردّ الفعل سلبيّاً، لأنّ الإنسان يكره الإجبار

---

١ ـ الآية (١١٠) من سورة الأعراف.

٢ ـ الشعراء، ٣٧ ـ ٣٠.

ويعرض عنه بالفطرة! لذلك قالوا: هل ترغبون في الحضور؟ وهل أنتم مجتمعون؟ ومن البديهي أن هذا الأسلوب جرّ الكثير إلى حضور ذلك المشهد.

وقيل للناس: إنّ الهدف من هذا الحضور والإجتماع هو أنّ السحرة اذا انتصروا فمعنىٰ ذلك انتصار الالهة وينبغي علينا اتباعهم: ﴿لعلنا نتّبع السحرة إن كانوا هم الغالبين﴾ فلابدّ من تهييج الساحة للمساعدة في هزيمة عدو الالهة إلى الأبد.

وواضح أنّ وجود المتفرجين كلّما كان أكثر شدّ من أزر الطرف المبارز، وكان مدعاةً لأن يبذل أقصى جهده، كما أنه يزيد من معنوياته وعندما ينتصر الطرف المبارز يستطيع أن يثير الصخب والضجيج إلى درجةً يتوارى بها خصمه، كما أن وجود المتفرجين الموالين بإمكانه أن يضعف من روحيّة الطرف المواجه «الخصم» فلا يدعه ينتصر!

أجل إن اتباع فرعون بهذه الآمال كانوا يرغبون أن يحضر الناس، كما أنّ موسى عليه السلام كان يطلب ـ من الله ـ أن يحضر مثل هذا الجمع الحاشد الهائل! ليبيّن هدفه بأحسنِ وجه.

كل هذا من جهة، ومن جهة أُخرى كان السحرة يحلمون بالجائزة من قبل فرعون ﴿فلما جاء السحرة قالوا لفرعون ءإنّ لنا لأجراً إن كنّا نحن الغالبين﴾...

وكان فرعون قلقاً مضطرب البال، لأنّه في طريق مسدود، وكان مستعدّاً لأن يمنح السحرة أقصى الإمتيازات، لذلك فقد أجابهم بالرضا و ﴿قال نعم وإنّكم إذاً لمن المقرّبين﴾[١]. اي إن فرعون قال لهم: ما الذي تريدون وتبتغون؟! المال أم الجاه، فكلاهما تحت يديّ!...

وهذا التعبير يدلُّ على أن التقرب من فرعون في ذلك المحيط كان مهمّاً إلى درجة قصوىٰ! بحيث يذكره فرعون للسحرة ويعدّه أجراً عظيماً، وفي الحقيقة لا أجر أعظم من أن يصل الإنسان إلى مقربة من القدرة المطلوبة!...

المشهد العجيب لسحر السحرة

حين اتفق السحرة مع فرعون ووعدهم بالأجر والقرب منه، وشدّ من عزمهم، فإنّهم بدأوا بتهيئة المقدمات ووفروا خلال ماسخت لهم الفرصة عصيّهم وحبالهم، ويظهر أنّهم صيّروها جوفاء وطلوها بمادة كيميائية كالزئبق ،مثلاً، بحيث تتحرك وتلمع عندشروق الشمس عليها!

---

١ ـ الشعراء، ٤٢ ـ ٣٨.

وأخيراً كان اليوم الموعود والميقات المعلوم، وانثال الناس إلى ساحة العرض ليشهدوا المبارزة التاريخيّة، ففرعون وقومه من جانب، والسحرة من جانب آخر، وموسى وأخوه هارون من جانب ثالث، كلهم حضروا هناك!

وكعادة القرآن في حذف المقدمات المفهومة من خلال الآيات المذكورة، والشروع بذكر أصل الموضوع، فيتحدّث عن مواجهة موسى للسحرة حيث التفت إليهم و: **﴿قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون﴾**[1].

ويستفاد من القرآن الكريم[2] أنّ موسى عليه السلام قال ذلك عندما سأله السحرة: هل تلقي أنت أوّلاً أم نلقي نحن أوّلاً؟

وهذا الإقتراح من قبل موسى عليه السلام يدلّ أنّه كان مطمئناً لانتصاره، ودليلاً على هدوئه وسكينته أمام ذلك الحشد الهائل من الأعداء وأتباع فرعون... كان هذا الإقتراح يُعدّ أوّل «ضربة» يدمغ بها السحرة، ويبيّن فيها أنه يتمتع بالهدوء النفسي الخاص، وأنّه مرتبط بمكان آخر ومتصل به.

وأمّا السحرة الغارقون بغرورهم، والذين بذلوا أقصى جهودهم لانتصارهم في هذا «الميدان»، فقد كانوا مستعدين ومؤمّلين لأن يغلبوا موسى عليه السلام **﴿فألقوا حبالهم وعصيّهم وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون﴾**[3].

أجل، لقد استندوا إلىٰ عزّة فرعون كسائر المتملقين، وبدأوا باسمه وقدرته الواهية!

وهنا ـ كما يبيّن القرآن تحركت العصيُّ كأنّها الأفاعي والثعابين **﴿فاذا حبالهم وعصيّهم يخيّل إليه من سحرهم أنها تسعىٰ﴾**[4].

وقد انتخب السحرة العصي كوسائل لسحرهم، لتتغلّب حسب تصوّرهم على عصىٰ موسى، وأضافوا عليها الحبال ليثبتوا علوّهم وفضلهم عليه...

فتهللت أسارير وجوه الناس ووجه فرعون فرحاً، وأشرق الأمل في عيني فرعون وأتباعه، وسُرّوا سروراً لم يكن ليخفى على أحد، وسرت فيهم نشوة اللّذة من هذا المشهد!

---

١ ـ الشعراء، ٤٣.

٢ ـ الآية (١١٥) من سورة الأعراف.

٣ ـ الشعراء، ٤٤.

٤ ـ طه، ٦٦.

إنّ المشهد الذي أوجده السحرة كان عظيماً ومهماً، ومدروساً ومهيباً،

كان عدد السحرة يبلغ عشرات الألوف، وكانت الأجهزة والوسائل المستعملة كذلك تبلغ عشرات الآلاف، ونظراً إلى أن السحرة المهرة والمحترفين لهذا الفن في مصر كانوا في ذلك العصر كثيرين جدّاً، لهذا لا يكون هذا الكلام موضع استغراب وتعجب. خاصّة أنّ القرآن الكريم يقول: ﴿فأوجس في نفسه خيفةً موسى﴾ [1] أي إنّ المشهد كان عظيماً جدّاً ورهيباً إلىٰ درجة أن موسى شعر بالخوف قليلاً، وإن كان ذلك الخوف ـ حسب تصريح نهج البلاغة ـ [2] لأجل أنّه خشي أن من الممكن أن يتأثر الناس بذلك المشهد العظيم، فيكون إرجاعهم إلى الحق صعباً، وعلى أي حال فإنّ ذلك يكشف عن عظمة ذلك المشهد ورهبته.

نور الإيمان في قلب السحرة

إلّا أنّ موسى عليه السلام لم يمهل الحاضرين ليستمر هذا المشهد ويدوم هذا الفصل المثير، فتقدم ﴿فألقى موسى عصاه﴾ فتحولت الى ثعبان عظيم وبدأت بالتهام وسائل وادوات السحرة بسرعة بالغة ﴿فإذا هي تلقفُ ما يأفكون﴾ [3].

---

١ ـ طه، ٦٧.

٢ ـ الخطبة، ٤.

٣ ـ **هل يمكن قلب العصا إلى حية عظيمة؟!**

على كل حال لا شك في أنّ تبديل «العصا» إلى حية عظيمة معجزة، ولا يمكن تفسيرها بالتحليلات المادية المتعارفة، بل هي من وجهة نظر الإلّهي الموحد ـ الذي يعتبر جميع قوانين المادة محكومة للمشيئة الربانية ـ ليس فيها ما يدعو للعجب فلا عجب أن تتبدل قطعة من الخشب إلى حيوان بقوة ما فوق الطبيعة.

ويجب أن لا ننسى أن جميع الحيوانات في عالم الطبيعة توجد من التراب، والأخشاب والنباتات هي الأُخرىٰ من التراب، غاية ما هنالك أن تبديل التراب إلى حية عظيمة يحتاج عادة إلى ملايين السنين، ولكن في ضوء الإعجاز تقصر هذه المدّة إلى درجة تتحقق كل تلك التحولات والتكاملات في لحظة واحدة وبسرعة، فتتخذ القطعة من الخشب ـ التي تستطيع وفق الموازين الطبيعية أن تغير بهذه الصورة بعد مضي ملايين السنين ـ تتخذ مثل هذه الصورة في عدّة لحظات.

والذين يحاولون أن يجدوا لمعاجز الأنبياء تفسيرات طبيعية ومادية ـ وينفوا طابعها الإعجازي، ويظهروها في صورة سلسلة من المسائل العادية مهما كانت هذه التفاسير مخالفة لصريح الكتب

وهنا طاف صمت مهيب على وجوه الحاضرين وغشّاهم الوجوم وفغرت الأفواه من الدهشة والعجب، وجمدت العيون، ولكن سرعان ما انفجر المشهد بصراخ المتفرجين المذعورين ففر جماعة من مكانهم وبقي آخرون يترقبون نهاية المشهد، وأفواه السحرة فاغرة من الدهشة...

و تبدّل كل شيء، وثاب السحرة إلى رشدهم بعد أن كانوا ـ إلى تلك اللحظة ـ مع فرعون غارقين في الشيطنة، ولأنّهم كانوا عارفين بقضايا السحر ودقائقه، فإنّهم تيقنوا أن عصا موسى لم تكن سحراً، بل هي معجزة إلهية كبرى **﴿فأُلقي السحرة ساجدين﴾**.

الطريف أنّ القرآن يعبر عن خضوع السحرة بـ«أُلقي» وهذا التعبير إشارة إلى منتهى التأثير وجاذبية معجزة موسى لهم، حتى كأنّهم سقطوا على الأرض وسجدوا دون اختيارهم...

واقترن هذا العمل العبادي ـ وهو السجود ـ بالقول بلسانهم فـ**﴿قالوا آمنا بربّ العالمين﴾**.

ولئلا يبقىٰ مجالٌ للإبهام والغموض والتردد، ولئلا يفسر فرعون ذلك تفسيراً آخر فإنّهم قالوا: **﴿ربّ موسى وهارون﴾**[1].

وهذا التعبير يدّل على أنّه وإن كان موسىٰ عليه السلام متكفلاً لأمر المبارزة وإلقاء العصا ومحاججة السحرة، إلّا أنّ أخاه هارون كان يعاضده في الأمر، وكان مستعداً لتقديم أي عون لأخيه.

وهذا التبدل والتغيّر المفاجيء العجيب في نفوس السحرة بحيث خطوا في لحظة واحدة من الظلمة المطلقة إلى النور المبين. ولم يكتفوا بذلك حتىٰ أقحموا انفسهم في خطر القتل، وأعرضوا عن مغريات فرعون ومصالحهم المادية... كلّ ذلك لما كان عندهم من «علم» استطاعوا من خلاله أن يتركوا الباطل ويتمسكوا بالحقّ!

السماوية. إنّ هؤلاء يجب أن يوضحوا موقفهم: هل يؤمنون بالله وقدرته ويعتبرونه حاكماً على قوانين الطبيعة، أم لا؟ فإذا كانوا لا يؤمنون به وبقدرته، لم يكن كلام الأنبياء ومعجزاتهم إلّا لغواً لديهم. وإذا كانوا مؤمنين بذلك، فما الداعي لنحت، مثل هذه التّفسيرات والتبريرات المقرونة بالتكلف والمخالفة لصريح الآيات القرآنية. (وإن لم نر أحداً من المفسّرين ـ على ما بينهم من اختلاف السليقة ـ عمد إلى هذا التّفسير المادي، ولكن ما قلناه قاعدة كلية).

١ ـ الشعراء، ٤٨ ـ ٤٥.

آمنتم به قبل أن آذن لكم

أمّا فرعون، فحيث وجد نفسه مهزوماً معنوياً ويرى من جانب آخر أن وجوده وسلطانه في خطر، وخاصّة أنه كان يعرف أيّ تأثير عميق لإيمان السحرة في قلوب سائر الناس، ومن الممكن أن يسجد جماعة آخرون كما سجد السحرة، فقد تذرع بوسيلة جديدة وابتكار ماكر، فالتفت إلى السحرة و ﴿قال آمنتم به قبل أن آذن لكم﴾.

لقد تربع على عرش الإستبداد سنين طوالاً، ولم يكن يترقب من الناس أن لا يسجدوا أو يقوموا بعمل دون إذنه فحسب، بل كان ترقُّبه أن تكون قلوب الناس وأفكارهم مرهونةً بـه وبأمره، فليس لهم أن يفكّروا دون اذنه!! وهكذا هي سنة الجبابرة والمستكبرين!.

هذا المغرور الطائش لم يكن مستعدّاً لأن يذكر اسم الله ولا اسم موسى، بل اكتفى بالقول (آمنتم به)! والمراد من هذا التعبير هو التحقير!!

إلّا أن فرعون لم يقنع بهذا المقدار، بل أضاف جملتين أُخريين ليُثّبت موقعه كما يتصوّر أوّلاً، وليحول بين أفكار الناس اليقظين فيعيدهم غفلةً نياماً.

فاتّهم السحرة أوّلاً بأنّهم تواطؤوا مع موسىعليه السلام وتآمروا على أهل مصر جميعاً، فـقال: ﴿إنّه لكبيركم الذي علمكم السحر﴾.

وقد اتفقتم مع موسى من قبل أن تردوا هذه الساحة، فتضلوا أهل مصر وتـجرّوهم إلى الخضوع تحت سيطرة حكومتكم؛ وتريدون أن تطردوا أصحاب هذا البلد وتخرجوهم من ديارهم وتُحلّوا العبيد محلهم...

إلّا أنني لا أدعكم تنتصرون في هذه المؤامرة، وسأخنق المؤامرة في مهدها ﴿فـلسوف تعلمون لأُقطعنّ أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأُصلبنكم أجمعين﴾ [1].

أي: لا أكتفي بإعدامكم فحسب، بل أقتلكم قتلاً بالتعذيب والزجر بين الملأ العام، وعلى جذوع النخل، (لأن قطع الأيدي والأرجل من خلاف يؤدي إلى الموت البطيء، فيذوق معه الإنسان التعذيب أكثر).

---

١ ـ الشعراء، ٤٩.

لا ضير إنّا الىٰ ربّنا منقلبون

إلّا أن فرعون لم يحقق هدفه هنا، لأن السحرة قبل لحظة ـ والمؤمنين في هذه اللحظة ـ قد غمر قلوبهم الايمان، وأضرمهم عشق الله؛ بحيث لم يهزّهم تهديد فرعون، فأجابوه بضرس قاطع واحبطوا خطته و ﴿قالوا لا ضير إنا إلى ربّنا منقلبون﴾.

فأنت بهذا العمل لا تنقص منّا شيئاً، بل توصلنا إلى معشوقنا الحقيقي والمعبود الواقعي، فيوم كانت هذا التهديدات تؤثر فينا لم نعرف أنفسنا ولم نعرف ربّنا، وكنّا، ضالين مضلين، إلّا أنّنا عثرنا اليوم على ضالتنا (فاقض ما أنت قاضٍ)!

ثمّ أضافوا بأنّهم واجهوا النّبي موسىعليه السلام من قبل بالتكذيب وأذنبوا كثيراً، ولكن مع ذلك فـ ﴿إنا نطمع أن يغفر لنا ربّنا خطايانا أن كنا أوّل المؤمنين﴾[1]...

إنّنا لا نستوحش اليوم من أي شيء، لا من تهديداتك، ولا من تقطيع الأيدي والأرجل من خلاف ولا من الصلب على جذوع النخل.

وإذا كنّا نخاف من شيء، فإنّما نخاف من ذنوبنا الماضية، ونرجوا أن تمحىٰ في ظل الإيمان وبفضل الله ولُطْفِهِ!

أية طاقة وقوّة هذه التي إن وُجدت في الإنسان صغرت عندها أعظم القوى، وهانت عنده أشد الأُمور، وكرمت نفسه بسخاء في موقف التضحية والإيثار؟!

إنّها قوّة الإيمان. إنّها شعلة العشق النيرة، التي تجعل الشهادة في سبيل الله أحلى من الشهد والعسل، وتصيّر الوصال إلى المحبوب أسمى الأهداف!

إلّا أن هذا المشهد ـ على كل حال ـ كان غالياً وصعباً على فرعون وقومه، بالرغم من أنّه طبّق تهديداته ـ طبقاً لبعض الروايات ـ فاستشهد على يديه السحرة المؤمنون ـ إلّا أن ذلك لم يطفيء عواطف الناس تجاه موسى فحسب، بل أثارها أكثر فأكثر!...

ففي كل مكان كانت اصداء النّبي الجديد... وفي كل حدب وصوب حديث عن أوائل الشهداء المؤمنين، وهكذا آمن جماعة بهذا النحو، حتى أن جماعة من قوم فرعون وأصحابه المقربين حتىٰ زوجته، آمنوا بموسىٰ ايضاً.

---

١ ـ الشعراء، ٥١ ـ ٥٠.

وآمنت امرأة فرعون

إنّ زوجة فرعون (آسية) قد آمنت منذ أن رأت معجزة موسى عليه السلام أمام السحرة، واستقرّ قلبها على الإيمان، لكنّها حاولت أن تكتم إيمانها، غير أنّ الإيمان برسالة موسى وحبّ الله ليس شيئاً يسهل كتمانه، وبمجرّد أن اطّلع فرعون على إيمانها نهاها مرّات عديدة وأصرّ عليها أن تتخلّى عن رسالة موسى وربّه، غير أنّ هذه المرأة الصالحة رفضت الإستسلام إطلاقاً.

وأخيراً أمر فرعون أن تُثبت يداها ورجلاها بالمسامير، وتترك تحت أشعة الشمس الحارقة، بعد أن توضع فوق صدرها صخرة كبيرة. وفي تلك اللحظات الأخيرة كانت امرأة فرعون بهذا الدعاء إذ قالت: **﴿ربّ ابن لي عندك بيتاً في الجنّة ونجّني من فرعون وعمله ونجّني من القوم الظالمين﴾** وقد استجاب لها ربّها وجعلها من أفضل نساء العالم إذ يذكرها في صفّ مريم.

في رواية عن الرّسول صلى الله عليه وآله: «**أفضل نساء أهل الجنّة خديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمّد ومريم بنت عمران، وآسيا بنت مزاحم امرأة فرعون**».

ومن الطريف أنّ امرأة فرعون كانت تستصغر بيت فرعون ولا تعتبره شيئاً مقابل بيت في الجنّة وفي جواره تعالى، وبذلك أجابت على نصائح الناصحين في أنّها ستخسر كلّ تلك المكاسب وتحرم من منصب الملكة (ملكة مصر) وما إلى ذلك. لسبب واحد هو أنّها آمنت برجل راعٍ كموسى.

لم تستطع بهارج الدنيا وزخارفها التي كانت تنعم بها في ظلّ فرعون، والتي بلغت حدّاً ليس له مثيل. لم تستطع كلّ تلك المغريات أن تثنيها عن نهج الحقّ، كما لم تخضع أمام الضغوط وألوان العذاب التي مارسها فرعون. وقد واصلت هذه المرأة المؤمنة طريقها الذي إختارته رغم كلّ الصعاب واتّجهت نحو الله معشوقها الحقيقي.

وتجدر الإشارة إلى أنّها كانت ترجو أن يبني الله لها بيتاً عنده في الجنّة لتحقيق بعدين ومعنيين: المعنى المادّي الذي أشارت إليه بكلمة «في الجنّة»، والبعد المعنوي وهو القرب من الله «عندك» وقد جمعتهما في عبارة صغيرة موجزة.

قرار قتل موسىٰ

لقد اشتد الصراع بين موسى عليه السلام وأصحابه من جانب، وبين فرعون وأنصاره من جانب آخر. ووقعت حوادث كثيرة، لا يذكر القرآن عنها كثيراً في هذه الفقرة، ولتحقيق هدف خاص يذكر القرآن أنّ فرعون قرّر قتل موسى عليه السلام لمنع انتشار دعوته وللحيلولة دون ذيوعها، لكنّ المستشارين من «الملأ» من القوم عارضوا الفكرة.

يقول تعالىٰ: ﴿وقال فرعون ذروني أقتل موسىٰ وَليدع ربّه﴾[1].

نستفيد من الآية أنّ أكثرية مستشارية أو بعضهم على الاقل كانوا يعارضون قتل موسىٰ، لخوفهم أن يطلب عليه السلام من ربّه نزول العذاب بساحتهم، لما كانوا يرون من معجزاته وأعماله غير العادية، إلّا أنّ فرعون ـ بدافع من غروره ـ يصر علىٰ قتله مهما تكن النتائج.

وبالطبع، فإنّ سبب امتناع «الملأ» عن تأييد فكرة فرعون في قتل موسىٰ غير معلوم، فهناك احتمالات كثيرة قد يكون بعضها أو كلّها صحيحة ... .

فقد يكون الخوف من العذاب الإلهي ـ كما احتملنا ـ هو السبب.

وقد يكون السبب خشية القوم من تحوّل موسىٰ عليه السلام بعد استشهاده إلى هالة مقدّسة، وهو ممّا يؤدي إلىٰ زيادة عدد الأتباع والمؤمنين بدعوته.

إنّ هؤلاء يعتقدون أنّ موسىٰ عليه السلام مجرّد حادث صغير ومحدود، بينما يؤدي قتله في مثل تلك الظروف إلىٰ أن يتحول إلى تيار... تيارٌ كبير يصعب السيطرة عليه.

البعض الآخر من المقربين لفرعون ممّن لا يميل إليه، كان يرغب ببقاء موسىٰ عليه السلام حياً حتىٰ يشغل فكر فرعون دائماً، كي يتمكن هؤلاء من العيش بارتياح بعيداً عن عيون فرعون، ويفعلون ما شاؤوا من دون رقابته.

وهذا الأمر يعبّر عن «سليقة» في بلاط السلاطين، إذ يقوم رجال الحاشية ـ من هذا النوع ـ بتحريك بعض أعداء السلطة حتىٰ ينشغل الملك أو السلطان بهم، وليأمنوا هم من رقابته عليهم، كي يفعلوا ما يريدون!

---

١ ـ مؤمن، ٢٦.

أخاف أن يبدّل دينكم

وقد استدل فرعون على تصميمه في قتل موسىٰ عليه السلام بدليلين، الأوّل ذو طابع ديني ومعنوي، والآخر ذو طابع دنيوي ومادي، فقال الأول، كما يحكي القرآن ذلك: ﴿**إنّي أخاف أن يبدّل دينكم**﴾.

وفي الثّاني: ﴿**أو أن يظهر في الأرض الفساد**﴾.

فإذا سكتّ أناوكففت عن قتله، فسيظهر دين موسىٰ وينفذ في أعماق قلوب أهل مصر، وستتبدل عباة الأصنام التي تحفظ منافعكم ووحدتكم؛ وإذا سكتّ اليوم فإنّ الزمن كفيل بزيادة أنصار موسىٰ عليه السلام وأتباعه، وهو أمرٌ تصعب معه مجاهدته في المستقبل، إذ ستجر الخصومة والصراع معه إلى إراقة الدماء والفساد وشيوع القلق في البلاد، لذا فالمصلحة تقتضي أن أقتله أسرع ما يمكن.

والآن لنر كيف كان رد فعل موسىٰ عليه السلام والذي يبدو أنّه كان حاضر المجلس؟

يقول القرآن في ذلك: ﴿**وقال موسى إنّي عذت بربي و ربكم من كلّ متكبر لا يؤمن بيوم الحساب**﴾[1].

قال موسىٰ عليه السلام هذا الكلام بقاطعية واطمئنان يستمدان جذورهما من إيمانه القوي واعتماده المطلق على الله تعالىٰ، وأثبت بذلك بأنّه لا يهتز أو يخاف أمام التهديدات.

أتقتلون رجلاً أن يقول ربّي الله!

من هنا تبدأ مرحلة جديدة من تأريخ موسىٰ عليه السلام وفرعون. المرحلة التي نقصدها هنا تتمثل بقصة «مؤمن آل فرعون» الذي كان من المقربين إلى فرعون، ولكنّه اعتنق دعوة موسىٰ التوحيدية من دون أن يفصح عن إيمانه الجديد هذا، وإنّما تكتم عليه واعتبر نفسه. من موقعه في بلاط فرعون ـ مكلفاً بحماية موسىٰ عليه السلام من أي خطر يمكن أن يتهدد من فرعون أو من جلاوزته.

فعندما شاهد أنّ حياة موسىٰ في خطر بسبب غضب فرعون، بادر بأسلوبه المؤثر للقضاء

---

١ ـ مؤمن، ٢٧ ـ ٢٦.

على هذا المخطط. يقول تعالىٰ: ﴿**وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه أتقتلون رجلاً أن يقول ربّي الله**﴾. أتقتلوه في حين أنّه: ﴿**وقد جاءكم بالبينات من ربّكم**﴾.

هل فيكم من يستطيع أن ينكر معاجزه، مثل معجزة العصا واليد البيضاء؟ ألم تشاهدوا بأعينكم انتصاره على السحرة، بحيث أن جميعهم استسلموا له وأذعنوا لعقيدته عن قناعة تامة، ولم يرضخوا لا لتهديدات فرعون ووعيده، ولا لإغراءاته وأمنياته، بل استرخصوا الأرواح في سبيل الحق؛ في سبيل دعوة موسىٰ، وإله موسىٰ ... هل يمكن أن نسمّي مثل هذا الشخص بالساحر؟

فكروا جيداً، لا تقوموا بعملٍ عجول، تحسّبوا لعواقب الأُمور وإلّا فالندم حليفكم.

ثم إنّ للقضية بعد ذلك جانبين: ﴿**وإن يك كاذباً فعليه كذبه وإن يك صادقاً يصبكم بعض الذي يعدكم**﴾.

إنّ حبل الكذب قصير ـ كما يقولون ـ وسينفضح أمره في النهاية إذا كان كاذباً، وينال جزاء الكاذبين، وإذا كان صادقاً ومأُموراً من قبل السماء فإنّ توعده لكم بالعذاب حاصل شئتم أم أبيتم، لذا فإنّ قتله في كلا الحالين أمر بعيد عن المنطق و الصواب.

ثم أضاف: ﴿**إنّ الله لا يهدي من هو مسرفٌ كذّاب**﴾.

فإذا كان موسىٰ سائراً في طريق الكذب والتجاوز فسوف لن تشمله الهداية الإلهية، وإذا كنتم أنتم كذلك فستحرمون من هدايته.

ولم يكتف «مؤمن آل فرعون» بهذا القدر، وإنّما استمرّ يحاول معهم بلينٍ وحكمة، حيث قال لهم كما يحكي ذلك القرآن من أنّه قال لهم أن بيدكم حكومة مصر الواسعة مع خيراتها و نعيمها فلا تكفروا بهذه النعم فيصيبكم العذاب الالهي. ﴿**يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين في الأرض فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا**﴾.

ويظهر أنّ هذا الكلام أثر في حاشية فرعون وبطانته، فقلّل من غضبهم وغيظهم، لكن فرعون لم يسكت ولم يقتنع، فقطع الكلام بالقول: ﴿**قال فرعون ما أريكم إلّا ما أرىٰ**﴾ وهو إنّي ارىٰ من المصلحة قتل موسى و لا حلّ لهذه المشكلة سوى هذا الحل.

ثمّ إنني : ﴿**و ما أهديكم إلّا سبيل الرشاد**﴾[1].

---

١ ـ مؤمن، ٢٩ ـ ٢٨.

التحذير من العاقبة!

كان الشعب المصري آنذاك يمتاز نسبياً بمواصفات التمدّن والثقافة، وقد اطّلع على أقوال المؤرّخين بشأن الأقوام السابقة، أمثال قوم نوح وعاد وثمود الذين لم تكن أرضهم تبعد عنهم كثيراً، وكانوا على علم بما آل إليه مصيرهم.

لذلك كلّه فكّر مؤمن آل فرعون بتوجيه أنظار هؤلاء إلىٰ أحداث التأريخ وأخذ يحذرهم من تكرار العواقب الأليمة التي نزلت بغيرهم، عساهم أن يتيقظوا ويتجنّبوا قتل موسىٰ عليه السلام يقول القرآن الكريم حكاية على لسانه: ﴿**وقال الذي آمن يا قوم إنّي أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب**﴾.

ثم أوضح مراده من هذا الكلام بأنني خائف عليكم عن العادات والتقاليد السيئة التي كانت متفشّية في الاقوام السالفة. ﴿**مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم**﴾.

لقد نالت هذه الأقوام جزاء ما كانت عليه من الكفر والطغيان، إذ قتل من قتل منهم بالطوفان العظيم، وأصيب آخرون منهم بالريح الشديدة، وبعضهم بالصواعق المحرقة، ومجموعة بالزلازل المخرّبة.

واليوم يخاطبهم مؤمن آل فرعون: ألا تخشون أن تصيبكم إحدىٰ هذه البلايا العظيمة بسبب إصراركم على الكفر والطغيان؟ هل عندكم ضمان بأنّكم لستم مثل أولئك؛ أو أن العقوبات الإلهية لا تشملكم ؛ ترىٰ ماذا عمل أُولئك حتىٰ أصابهم ما أصابهم، لقد اعترضوا على دعوة الأنبياء الإلهيين، وفي بعض الأحيان عمدوا إلى قتلهم ... لذلك كلّه فإني أخاف عليكم مثل هذا المصير المؤلم!؟

ولكن ينبغي أن تعلموا أنّ ما سيصيبكم و يقع بساحتكم هو من عند أنفسكم وبماجنت أيديكم: ﴿**وما الله يريد ظلماً للعباد**﴾.

لقد خلق الله الناس بفضله وكرمه، ووهبهم من نعمه ظاهرة وباطنة، وأرسل أنبياءه لهدايتهم، ولصدّ طغيان العتاة عنهم، لذلك فإنّ طغيان العباد وصدّهم عن السبيل هو السبب فيما ينزل بهم من العذاب الأليم.

ثم اضاف: ﴿ويا قوم إنّي أخاف عليكم يوم التناد﴾ [١] أي يوم تطلبون العون من بعضكم البعض، إلّا أصواتكم لا تصل إلى أي مكان.

وفي كلّ الأحوال، لقد قام مؤمن آل فرعون بعمله من خلال الوسائل التي وقفنا عليها آنفاً، فانتهىٰ إلىٰ أجهاض مخطط فرعون في قتل موسىٰ عليه السلام، أو علىٰ الأقل وفّر الوقت الكافي في تأخير تنفيذ هذا لمخطط إلىٰ أن استطاع موسى عليه السلام أن يفلت من الخطر.

لقد كانت هذه مهمّة عظيمة أنجزها هذا الرجل المؤمن الشجاع، الذي انصب جهده في هذه المرحلة الخطيرة من الدعوة الموسوية على إنقاذ حياة كليم الله عليه السلام: وكما سيتضح لاحقاً من احتمال أن هذا الرجل ضحىٰ بحياته أيضاً في هذا السبيل.

الكلام الأخير

في آخر مرحلة يزيل مؤمن آل فرعون الحجب والأستار عن هويته، إذ لم يستطع التكتم ممّا فعل، فقد قال كلّ ما هو ضروري، أمّا القوم من ملأ فرعون، فكان لهم ـ كما سنرىٰ ذلك ـ قرارهم الخطير بشأنه!

الله تبارك وتعالىٰ لم يترك عبده المؤمن المجاهد وحيداً وإنّما: ﴿**فوقاه الله سيئات ما مكروا**﴾ [٢].

إنّ التعبير بـ﴿**سيئات ما مكروا**﴾ يفيد أنّهم وضعوا خططاً مختلفة ضدّه... ترىٰ ما هي هذه الخطط؟

في الواقع، إنّ القرآن لم يذكرها بل تركها مجهولة، لكنّها ـ حتماً ـ لا تخرج عن ألوان العقاب والتعذيب ينزلونه بالرجل قبل أن يحل به القتل والإعدام، إلّا أنّ اللطف الإلهي أبطل مفعولها جميعاً وأنجاه منهم.

تفيد بعض التفاسير أنّ مؤمن آل فرعون انتهز فرصة مناسبة فالتحق بموسىٰ عليه السلام، وعبّر البحر مع بني إسرائيل. وقيل أيضاً: أنّهُ هرب إلى الجبل عندما صدر عليه قرار الموت، وبقي هناك مختفياً عن الأنظار.

---

١ ـ مؤمن، ٣٢ ـ ٣١.

٢ ـ مؤمن، ٤٥.

ومن الطبيعي أن لا يكون هناك تعارض بين الرأيين، إذ يمكن أن يكون قد هرب إلى الجبل أولاً، ثمّ التحق ببني إسرائيل.

أريد أن أطلع إلىٰ إله موسىٰ!!

بالرغم من النجاح الذي أحرزه مؤمن آل فرعون في أثناء عزم فرعون عن قتل الكليم عليه السلام، إلّا أنّه لم يستطع أن يثنيه عن غروره وتكبره وتعاليه إزاء الحق، لأنّ فرعون لم يكن ليملك مثل هذا الإستعداد أو اللياقة الكافية للهداية، لذلك نراه يواصل السير في نهجه الشرير، إذ يأمر وزيره هامان ببناء برج للصعود إلىٰ السماء (!!) كي يجمع المعلومات عن إله موسى، ﴿وقال فرعون يا هامان ابن لي صرحاً لعلي أبلغ الأسباب﴾. أي لعلي أحصل على وسائل وتجهيزات توصلني الى السماوات.

﴿أسباب السموات فاطلع إلىٰ إله موسىٰ وإنّي لأظنّه كاذباً﴾.

ولكن ماذا كانت النتيجة؟! ﴿كذلك زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل وما كيد فرعون إلّا في تباب﴾ [1].

إنّ أول ما يطالعنا هنا هو السؤال عن الهدف الذي كان فرعون يرغب بتحقيقه من خلال عمله هذا.

هل كان فرعون بهذا لمقدار من الغباء والحماقة والسذاجة بحيث يعتقد أن إله موسىٰ موجود فعلاً في مكان ما من السماء؟ وإذا كان موجوداً في السماء، فهل يستطيع الوصول إليه بواسطة إقامة بناء مرتفع يعتبر ارتفاعه تافهاً إزاء جبال الكرة الأرضية؟

إنّ هذا الاحتمال ضعيف للغاية، ذلك لأنّ فرعون بالرغم من غروره و تكبره، فقد كان يمتاز بالذكاء والقدرة السياسية التي أهّلته للسيطرة علىٰ شعب كبير لسنين مديدة من خلال أساليب القهر والقوة والخداع.

لذلك كلّه نرىٰ الموقف يدعونا إلى تحليل هذا التصرف الفرعوني لمعرفة دواعيه وأهدافه الشيطانية.

فمن خلال عملية التأمّل والتمحيص، يمكن أن تنتهي إلىٰ ثلاثة أهداف كانت تكمن وراء

---

١ ـ مؤمن، ٣٧.

هذا التصرّف والأهداف هذه هي:

أولاً: أراد فرعون أن يختلق وضعاً يعمد من خلاله إلىٰ إلهاء الناس وصرف أذهانهم عن قضية نبوة موسىٰعليه السلام وثورة بني إسرائيل. وقضية بناء مثل هذا الصرح المرتفع يمكن أن تحوز على اهتمام الناس، وتهيمن علىٰ اهتماماتهم الفكرية، وبالتالي إلىٰ صرفهم عن القضية الأساسية.

إن فرعون خصص لبناء صرحه مساحة واسعة من الأراضي، ووظّف في إقامته خمسين ألفاً من العمال والبنائين المهرة، بالإضافة إلىٰ من انشغل بتهيئة وسائل العمل والتمهيد لتنفيذ المشروع، وكلّما كان البناء يرتفع أكثر ازداد تأثيره في الناس، وأخذ يجلب إليه الإهتمام والأنظار أكثر، إذ أصبح الصرح حديث المجالس، والخبر الأوّل الذي يتناقله الناس، وفي مقابل ذلك يتناسون قضية انتصار موسىعليه السلام على السحرة ـ ولو مؤقتاـ خصوصاً مع الأخذ بنظر الإعتبار ذلك الإهتزاز العنيف الذي ألحق بجهاز فرعون وأساط الناس.

ثانياً: استهدف فرعون من خلال تنفيذ مشروع الصرح اشتغال أكبر قطّاع من الناس، وعلى الأخص العاطلين منهم، لكي يجد هؤلاء في هذا الشغل عزاءً ـ ولو مؤقتاًـ عن مظالم فرعون و ينسون جرائمه وظلمه. و من ناحية ثانية فإنّ اشتغال مثل هذا العدد الكثير يؤدي إلىٰ ارتباطهم بخزانة فرعون وأمواله، وبالتالي ارتباطهم بنظامه وسياساته!

ثالثاً: لقد كان من خطة فرعون بعد انتهاء بناء الصرح، أن يصعد إلىٰ أعلىٰ نقطة فيه، ويرمق السماء ببصره، أو يرمي سهماً نحو السماء، ويرجع الى الناس فيقول لهم: لقد انتهىٰ كلّ شيء بالنسبة لإله موسىٰ. والآن انصرفوا إلىٰ أعمالكم براحة بال!!

أما بالنسبة إلى فرعون نفسه، فقد كان يعلم أنّه حتىٰ لو ارتقىٰ الجبال الشامخات التي تتطاول في علوها علىٰ صرحه، فإنّه سوف لن يشاهد أي شيء آخر يفترق عمّا يشاهده وهو يقف على الأرض المستوية يتطلع نحو السماء!

والطريف في الأمر هنا أنّ فرعون بعد قوله: ﴿فاطلع إلىٰ موسىٰ﴾ رجع خطوة إلىٰ الوراء فنزل عن يقينه إلى الشك، حيث قال بعد ذلك: ﴿وإنّي لأظنه كاذباً﴾ إذ استخدم تعبير «أظن»!

هنا ناقش جماعة من المفسّرين[1] مسألة «الصرح»، وهل بنى فرعون «الصرح» حقّاً أم لا؟!

---

١ ـ كالفخر الرازي والآلوسي.

ويبدو أن الذي شغل فكر المفسّرين هو أن هذا العـمل لم يكـن مـتزّناً بأيّ وجـه وأي حساب.

ترى.. ألم يكن الناس قد صعدوا الجبال من قبل فرأوا منظر السماء كما هو على الأرض؟.

وهل البرج الذي يبنيه البشر أكثر ارتفاعاً من الجبل؟.

وأي أحمق يصدق أنّه يمكن الوصول إلى السماء بواسطة مثل هذا البرج؟!

ولكن أُولئك الذين يفكرون مثل هذا التفكير غفلوا عن هذه المسألة، وهي أن مـصر لم تكن أرضاً جبلية، وبعد هذا كلّه نسوا أنّ الطبقة العامّة لأهل مصر بسطاء ويخدعون بشتى الوسائل. حتى في عصرنا الذي يسمى عصر العلم وعصر النور، نجد مسائل تشبه ما وقع في العصور الماضية ينخدع بها الناس.

خمسون ألف بنّاء يبنون البرج

وعلى كل حال، فطبقاً لما ورد في بعض التواريخ، فإنّ هامان أمر بأرض واسعة ليـبنىٰ عليها الصرح أو البرج، وهيّأ خمسين ألف رجل من العمال والمهندسين لهذا العمل المضني، وآلاف العمال لتهيئة الوسائل اللازمة لهذا البناء، وفتح أبواب الخزائن وصرف أموالاً طائلة في هذا السبيل، واشغل عمالاً كثيرين في هذا البناء.. حتى أنّه ما من مكان إلّا وتسمع فيه أصوات هذا البناء أو أصداؤه!.

وكلما اعتلى البناء أكثر فأكثر كان الناس يأتون للتفرج، وما عسى أن يفعل فرعون بهذا البناء وهذا البرج.

صعد البناء إلى مرحلة بحيث أصبح مشرفاً على جـميع الأطـراف. وكـتب بـعضهم: إنّ المعمارين بنوا هذا البرج بناءً بحيث جعلوا حوله سلالم حلزونية يمكن لراكب الفـرس أن يرتقي الى أعلى البرج.

قتلتُ إله موسىٰ

ولمّا بلغ البناء تمامه ولم يستطع البناؤون أن يعلوه أكثر من ذلك.. جاء فرعون بنفسه يوماً وصعده بتشريفات خاصة.. فنظر إلى السماء فوجدها صافية كما كان ينظرها من الأرض لم تتغير ولم يطرأ عليها جديد.

المعروف أنّه رمى سهماً إلى السماء، فرجع السهم مخضباً بالدم على أثر إصابته لأحد الطيور أو أنّها كانت خديعة من قبل فرعون من قبل.. فنزل فرعون من أعلى القصر وقال للناس: اذهبوا واطمأنوا فقد قتلت إله موسى.

ومن المسلم به أن جماعة من البسطاء الذين يتبعون الحكومة اتباعاً أعمىٰ وأصم، صدّقوا ما قاله فرعون ونشروه في كل مكان، وشغلوا الناس بهذا الخبر لإغفالهم عن الحقائق!.

ونقلوا هذا الخبر أيضاً، وهو أنّ البناء لم يدم طويلاً «وطبعاً لا يدوم» أجل لقد تهدم البناء وقتل جماعة من الناس.. ونقلوا في هذا الصدد قصصاً أُخرىٰ، وحيث أن لم تتّضح صحتها لنا فقد صرفنا عنها النظر.

العقوبات التنبيهية

لقد كان القانون الإلٰهي العام في دعوة الأنبياء هو أنّهم كلّما واجهوا معارضة كان الله تعالى يبتلي الاقوام المعاندين بأنواع المشاكل والبلايا، حتى يحسّوا بالحاجة في ضمائرهم وأعماق نفوسهم، وتستيقظ فيهم فطرة التوحيد المتكّسلة تحت حجاب الغفلة عند الرفاه والرخاء، فيعودوا إلى الإحساس بضعفهم وعجزهم، ويتوجهوا إلى المبدأ القادر مصدر جميع النعم.

وفي القرآن الكريم إشارة إلى نفس هذا المطلب في قصّة فرعون، إذ يقول تعالى: **﴿ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلّهم يذكّرون﴾**.

ومع أنّ القحط والجدب أصابا حاشية فرعون ومؤيديه أجمع، ولكن الخطاب موجه إلى خصوص أقربائه وخاصته، وهو إشارة إلى أن المهم هو أن يستيقظ هؤلاء، لأنّ بيدهم أزمة الناس..... أن يضلوا الناس، أو يهدونهم، ولهذا توجه الخطاب إليهم فقط، وإن كان البلاء قد أصاب الآخرين أيضاً.

ويجب أن لا نستبعِد هذه النقطة، وهي أن الجدب كان يعدّ بلاءً عظيماً لمصر، لأنّ مصر كانت بلداً زراعياً، فكان الجدب مؤذياً لجميع الطبقات، ولكن من المسلّم أنّ آل فرعون ـ وهم الأصحاب الأصليين للأراضي الزراعية وإنتاجها ـ كانوا أكثر تضرراً بهذا البلاء. ثمّ إنّ الجدب استمر عدّة سنوات.

ولكن بدل أن يستوعب «آل فرعون» هذه الدروس الإلٰهية، ويستيقظوا من غفلتهم

وغفوتهم العميقة، أساءوا استخدام هذا الظرف والحالة، وفسّروها حسب مزاجهم، فإذا كانت الأحوال مؤاتية ومطابقة لرغبتهم، وكانوا يعيشون في راحة واستقرار قالوا: إنّ الوضع الحسن هو بسبب جدارتنا، وصلاحنا **﴿فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه﴾**.

ولكن عندما تنزل بهم النوائب فإنّهم ينسبون ذلك إلى موسى عليه السلام وجماعته فوراً ويقولون هذا من شومهم: **﴿وإن تصبهم سيئةٌ يطّيروا بموسى ومن معه﴾**.

لكن القرآن الكريم قال في معرض الردّ عليهم: اعلموا أنّ منشأ كل شؤم وبلاء أصابكم انّما هو من قبل الله، وأنّ الله تعالى أراد أن تصيبكم نتيجة أعمالكم المشؤومة، ولكن أكثرهم لا يعلمون **﴿ألا إنّما طائرهم عندالله ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾**[1].

النّوائب المتنوعة

القرآن الكريم يشير إلى مرحلة أُخرىٰ من الدروس المنبهة التي لقّنها الله لقوم فرعون، فعندما لم تنفع المرحلة الأُولىٰ، يعني أخذهم بالجدب والسنين وما ترتب عليه من الأضرار المالية في إيقاظهم وتنبيههم، جاء دور المرحلة الثّانية وتمثلت في عقوبات أشدّ، فأنزل الله عليهم نوائب متتابعة مدمِرة، ولكنّهم ـ وللأسف ـ لم ينتبهوا مع ذلك.

وفي البداية يقول القرآن الكريم من باب المقدمة لنزول النّوائب: إنّهم بقوا يلجّون في إنكار دعوة موسى: **﴿وقالوا مهما تأتنا من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين﴾**.

إنّ التعبير بـ «الآية» لعلّه من باب الإستهزاء والسخرية، لأنّ موسى عليه السلام وصف معاجزه بأنّها آيات الله، ولكنّهم كانوا يفسرونها بالسحر.

إنّ الجهاز الإعلامي الفرعوني الذي كان ـ تبعاً لذلك العصر ـ أقوى جهاز إعلامي، وكان النظام الحاكم في مصر يستخدمه كامل الإستخدام ... إنّ هذا الجهاز الإعلامي قد عبّأ قواه في توكيد تهمة السحر في كل مكان، وجعلها شعاراً عاماً ضد موسى عليه السلام، لأنّه لم يكن هناك تهمة منها أنسب بالنسبة إلى معجزات موسى عليه السلام للحيلولة دون إنتشار الدعوة الموسوية ونفوذها المتزايد في الأوساط المصرية.

ولكن حيث أن الله سبحانه لا يعاقب أُمّة أو قوماً من دون أن يتمّ عليهم الحجّة قال في

---

١ ـ الاعراف، ١٣١ ـ ١٣٠.

الآية اللاحقة: نحن أنزلنا عليهم بلايا كثيرة ومتعددة لعلهم يتنبهون ... فقال أولاً: **﴿فأرسلنا عليهم الطوفان﴾**.

ثمّ سلط الجراد على زروعهم وأشجارهم **(والجراد)**.

إنّ هجوم أسراب الجراد كان عظيماً جدّاً إلى درجة أنّها وقعت في أشجارهم وزروعهم أكلاً وقضماً وإتلافاً، حتى أنّها أفرغتها من جميع الغصون والأوراق، وحتى أنّها أخذت تؤذي أبدانهم، بحيث تعالت صيحاتهم واستغاثاتهم.

وكلّما كان يُصيبهم بلاء كانوا يلجأون إلى موسىعليه السلام ويسألونه أن يطلب من الله أن يرفع عنهم ذلك البلاء، فقد فعلوا هذا بعد الطوفان والجراد أيضاً، وقبل موسىعليه السلام، وارتفع عنهم البلاء ولكنّهم مع ذلك لم يكفّوا عن لجاجهم وتعنتهم.

وفي المرّة الثّالثة سلط عليهم القمل **﴿والقمل﴾**. والظاهر أنّه نوع من الآفات الزراعية التي تصيب الغلات، وتفسدها وتتلفها.

وعندما خفت أمواج هذا البلاء، واستمرّوا في عنادهم سلط الله عليهم في المرحلة الرّابعة، الضفادع، فقد تزايد نسل الضفادع تزايداً شديداً حتى أنّه تحول إلى بلاء عظيم عكّر عليهم صفو حياتهم: **﴿والضفادع﴾**.

ففي كل مكان كانت الضفادع الصغيرة والكبيرة تزاحمهم، حتى في البيوت والغرف والموائد وأواني الطعام، بحيث ضاقت عليهم الحياة بما رحبت، ولكنّهم مع ذلك لم يخضعوا للحق، ولم يسلّموا.

وفي هذا الوقت بالذات سلّط الله عليهم **﴿الدّم﴾**.

قال البعض: إنّ داء الرعاف (وهو نزيف الدم من الأنف) شاع بينهم كداء عام، وأُصيب الجميع بذلك. ولكن أكثر الرّواة والمفسّرين ذهبوا إلى أن نهر النيل العظيم تغير وصار لونه كلون الدم، بحيث صار تعافه الطباع، ولم يعد قابلاً للإنتفاع.

وقال تعالى في ختام ذلك: إنّ هذه الآيات والمعاجز الباهرة ـ رغم أنّها أظهرت لهم حقانية موسى ـ ولكنّهم استكبروا عن قبول الحق وكانوا مجرمين. **﴿آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين﴾**[1].

---

١ ـ الاعراف، ١٣٣ ـ ١٣٢.

وفي بعض الرّوايات نقرأ أن كل واحدة من هذه البلايا كانت تقع في سنة واحدة، يعني أنّه أصابهم الطوفان في سنة، والجراد في سنة أُخرىٰ، والآفات الزراعية في سنة ثالثة، وهكـذا. ولكن نقرأ في بعض الرّوايات أنّه كان يفصل بين كل بلاء وآخر شهر واحد لا أكثر وعلى أي حال، لاشك أنّها كانت تقع بصورة منفصلة، وفي فواصل زمنيّة مختلفة كي تكون هناك فرصة للتفكر والتنبه واليقظة.

هذا والجدير بالإنتباه أن هذه البلايا كانت تصيب آل فرعون وقومه خاصّة، وكـان بـنو إسرائيل في معزل عن ذلك، ولا شك أنّ هذا نوع من الإعجاز، ولكن يمكن أن نبرر قسماً من ذلك بتبرير علمي معقول، لأنّنا نعلم أنّ أجمل نقطة في بلد مثل مصر هي شاطئا النيل وضفتاه، وكانت هذه الشواطيء والضفاف برمتها تحت تصرف الفرعونيين والقبطيين ومحل سكناهم، فقصورهم الجميلة الشامخة، ومزارعهم الخضراء وبساتينهم العامرة، كانت في هذه الضفاف. وبطبيعة الحال كان نصيب بني إسرائيل الذين كانوا عبيداً للفرعونيين والقبطيين هي النقاط النائية والصحاري البعيدة الشحيحة الماء.

ومن الطبيعي أنّ الطوفان عندما يحدث يكون الأقرب إلى الخطر ضفتا النيل وشـاطئاه ومن يسكنها، وكذا عندما كانت الضفادع تخرج من الماء، وكذا انقلاب الماء إلى هيئة الدم كان يظهر في مياه الفرعونيين الذين كانوا يسكنون إلى جانب النيل دون بني إسرائيل، وأمّا الجراد والآفات النباتية فقد كانت تتعرض لها المناطق الزراعية والبساتين الخضراء الوفيرة المحصول في الدرجة الأُولىٰ.

كل ما قيل في الآيات السابقة جاء في التوراة أيضاً، ولكن ثـمّة فـروق واضـحة بـين محتويات القرآن الكريم [١].

نقض العهد المتكرر

القرآن الكريم نلاحظ رد فعل الفرعونيين في مقابل النوائب والبلايا المنبّهة الإلّهيّة، إنّهم عندما كانوا يقعون في مخالب البلاء ينتبهون من غفوتهم بصورة مؤقتة شأنهم شأن جـميع العصاة، وكانوا يبحثون عن حيلة للتخلص منها، ويطلبون من موسى عليه السلام أن يدعو لهم، ويسأل

١ ـ راجع سفر الخروج الفصل السابع إلى العاشر من التوراة.

الله في خلاصهم، ولكن بمجرّد أن يزول عنهم طوفان البلاء وتهدأ أمواج الحوادث، ينسون كل شيء ويعودون إلى سيرتهم الأُولىٰ.

وفي البداية نقرأ: ﴿**ولمّا وقع عليهم الرّجز قالوا يا موسى أُدع لنا ربّك بما عهد عندك**﴾.

إنّهم عند نزول البلاء يلجأون إلى موسى ويطلبون منه أن يدعو لرفع العذاب عنهم، وأن يفي الله بما وعده له من استجابة دعائه.

ثمّ يقولون: إذا دعوتَ فرفع عنّا البلاء فإنّنا نحلف لك بأن نؤمن بك، ونرفع طوق العبودية عن بني إسرائيل: ﴿**لئن كشفت عنّا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بني إسرائيل**﴾.

ويشير إلى نقضهم للعهد ويقول: ﴿**فلمّا كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون**﴾[1].

إنّ موسى حدّد لهم وقتاً وعيّن أمداً، فكان يقول لهم: في الوقت الفلاني سيرفع هذا البلاء عنكم، حتى يتّضح لهم أنّ إرتفاع ذلك البلاء عنهم ليس أمراً اتفاقياً وصدفة، بل هو بفضل دعائه وطلبه من الله تعالى.

إذا كان نبياً فلم لا يملك أسورة من ذهب؟

لقد ترك منطق موسىعليه السلام من جهة، ومعجزاته المختلفة من جهة أُخرىٰ، والإبتلاءات والمصائب التي نزلت على رؤوس أهل مصر والتي رفعت ببركة دعاء موسىعليه السلام من جهة ثالثة، أثراً عميقاً في ذلك المحيط، وزعزعت أفكار الناس واعتقادهم بفرعون، ووضعت كل نظامهم الإجتماعي والديني موضع سؤال واستفسار.

هنا أراد فرعون بسفسطته ومغالطته أن يمنع نفوذ موسىعليه السلام عن التأثير في أفكار شعب مصر، فالتجأ إلى القيم الواهية المنحطة التي كانت حاكمة في ذلك المحيط، وقارن بينه وبين موسىعليه السلام من خلال هذه القيم ليبدو متفوقاً على موسى، كما يذكر ذلك القرآن الكريم حيث يقول: ﴿**ونادى فرعون في قومه قال يا قوم أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون**﴾.

أمّا موسى فماذا يملك؟ لا شيء سوى عصا ولباس صوف! فلمن الشأن الرفيع والمكانة

---

١ ـ الاعراف، ١٣٥ ـ ١٣٤.

السامية، له أم لي؟ أهو يقول الحق أم أنا؟ افتحوا عيونكم جيداً وتأمّلوا دقيقاً في المسألة..

وبهذا فقد عظم فرعون القيم المبتدعة السيئة، وجعل المال والمقام والجاه هي معايير الإنسانية، كما هو الحال بالنسبة إلى عبدة الأصنام في عصر الجاهلية في موقفهم أمام نبيّ الإسلام صلى الله عليه وآله.

التعبير بـ «نادى» يوحي بأن فرعون عقد مجلساً عظيماً لخبراء البلد ومستشاريه، وخاطبهم جميعاً بصوت عال فقال ما قال، أو أنّه أمر أن يوزع نداؤه كرسالة في جميع أنحاء البلاد.

ثمّ يضيف: ﴿أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين﴾[١] وبهذا يكون قد خص نفسه بافتخارين عظيمين ـ حكومة مصر، وملك النيل ـ وذكر لموسى نقطتي ضعف: الفقر ولكنة اللسان.

هذا في الوقت الذي لم يكن بموسى أية لكنة في اللسان، لأنّ الله تعالى قد استجاب دعاءه، ورفع عنه عقدة لسانه، لأنّه سأل ربّه عند البعثة أن: ﴿واحلل عقدة من لساني﴾[٢]، ومن المسلّم أن دعاءه قد استجيب، والقرآن شاهد على ذلك أيضاً.

ليس عيباً عدم امتلاك الثروة الكثيرة، والألبسة الفاخرة، والقصور المزينة، والتي تحصل عادة عن طريق ظلم المحرومين والجور عليهم، بل هو فخر وكرامة وسمو.

إنّ التعبير بـ «مهين» لعله إشارة إلى الطبقات الإجتماعيّة في ذلك الزمان، حيث كانوا يظنون أن الأشراف الأقوياء والأثرياء طبقة متعالية، والكادحين الفقراء طبقة واطئة، أو أنّه إشارة إلى أصل موسى حيث كان من بني إسرائيل، وكان الأقباط يرون أنهم ساداتهم وكبراؤهم.

ثمّ تشبث فرعون بذريعتين أخريين، فقال: ﴿فلولا أُلقي عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين﴾[٣] فلو أنّ الله قد جعله رسوله فلماذا لم يعطه أساور من ذهب، ومعاونين له كباقي الرسل؟

يقولون: إنّ الفراعنة كانوا يعتقدون أنّ الرؤساء يجب أن يزينوا أنفسهم بالأساور والقلائد

---

١ ـ الزخرف، ٥٢ ـ ٥١.

٢ ـ طه، ٢٧.

٣ ـ الزخرف، ٥٣.

الذهبية، ولذلك فإنّهم يتعجبون من موسى إذ لم يكن معه مثل آلات الزينة هذه، بل كان قد لبس بدل ذلك ملابس الرعي الصوفية، وهذا هو حال المجتمع الذي يكـون مـعيار نـقييم الشخصية في نظره الذهب والفضة وأدوات الزينة.

موسىٰ و هارون و لباس الصوف

ورد عن اميرالمؤمنين عليه السلام بيان معبر وبليغ هنالك حيث يقول:

«... ولقد دخل موسىٰ بن عمران ومعه أخوه هارون عليهما السلام على فرعون وعـليهما مـدارع الصوف وبأيديهما العصي فشرطا له إنْ أسلم بقاء ملكه ودوام عزّه فقال: «ألا تعجبون من هذين يشرطان لي دوام العز وبقاء الملك وهما بما ترون من حال الفقر والذل، فهلاّ أُلقـي عليهما أساورة من ذهب، إعظاماً للذهب وجمعه، واحتقاراً للصوف ولبسه.

والحجّة الثانية هي تلك الحجّة المعروفة التي كانت تطرحها كثير من الأُمم الضالة العاصية في مواجهة الأنبياء، فكانوا يقولون أحياناً: لماذا أرسل الله بشراً وليس ملكاً؟ وأحياناً أُخرىٰ: إذا كان إنساناً فلماذا لم يأت معه ملك؟

في حين أنّ الرسل المبعوثين إلى البشر يجب أن يكونوا من جنسهم ليلمسوا حاجاتهم، ويحسوا بمشاكلهم ومسائلهم ويجيبوهم، وليقدروا على أن يكونوا من الناحية العملية قدوة وأسوة لهم.

المرحلة الرّابعة مرحلة البناء من أجل الثّورة

رأينا كيف أنّ موسى خرج منتصراً من تلك المواجهة. رغم عدم إيمان فرعون وقومه إلّا أن هذه القضية كان لها عدة آثار مهمّة، يعدُّ كلٌ منها انتصاراً مهمّاً:

١ ـ آمن بنو إسرائيل بنبيّهم «موسى عليه السلام» والتفّوا حوله بقلوب موحّدة... لأنّهم بعد سنوات طوال من القهر والتعسف والجور يرون نبيّاً سماوياً في أوساطهم يضمن هدايـتهم وعـلى استعداد لأن يقود ثورتهم نحو الحرية وتحقيق النصر على فرعون..

٢ ـ لقد شقّ موسى عليه السلام طريقه وسط أهل مصر من الأقباط وغيرهم... ومال إليـه جـمع منهم، أو على الأقل خافوا من مخالفته، وطافت أصداء دعوة موسى في أرجاء مصر جمعاء!

٣ ـ وأهمّ من كل ذلك أنّ فرعون لم ير في نفسه القدرة ـ لا من جهة أفكار عامّة الناس،

ولا من جهة الخوف على مقامة ـ على مواجهة رجل له عَصَا كهذه العصا، ولسان مؤثر كلسان موسى.

هذه الأُمور هيأت أرضية ملائمة لأن ينشر موسى عليه السلام دعوته بين الناس، ويتمّ الحجة عليهم!

وهنا يبيّن القرآن الكريم مرحلة أُخرىٰ من نهضة وثورة بني إسرائيل ضد الفراعنة. فيقول أولاً: **﴿وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوءا لقومكما بمصر بيوتاً واجعلوا بيوتكم قبلة﴾** فالأمر الالهي يقرر اختيار البيوت لبني اسرائيل بمصر وان تكون هذه البيوت متقاربة ومتقابلة.

ثمّ تطرقت إلى مسألة تربية النفس معنوياً وروحياً، فقالت: **﴿وأقيموا الصلاة﴾** ومن أجل أن تطرد آثار الخوف والرعب من قلوب هؤلاء وتعيد وتزيد من قدرتهم المعنوية والثّورية قالت: **﴿وبشّر المؤمنين﴾**[1].

يستفاد من مجموع هذه الآية أنّ بني إسرائيل كانوا في تلك الفترة بصورة جماعة متشتتة مهزومة ومتطفلة وملوّثة وخائفة، فلا مأوى لهم ولا اجتماع مركزي، ولا برنامجاً معنوياً بنّاء، ولا يمتلكون الشجاعة والجرأة اللازمة للقيام بثورة حقيقية.

لذلك فإنّ موسى وأخاه هارون قد تلقوا مهمّة وضع برنامج في عدّة نقاط من أجل تطهير مجتمع بني إسرائيل، وخاصّة في الجانب الروحي:

١ ـ الإهتمام أوّلاً بمسألة بناء المساكن، وعزل مساكنهم عن الفراعنة، وكان لهذا العمل عدّة فوائد:

إحداها: أنّهم بتملّكهم المساكن في بلاد مصر سيشعرون برابطة أقوى تدفعهم للدفاع عن أنفسهم وعن ذلك الماء والتراب.

والأُخرىٰ: أنّهم سينتقلون من الحياة الطفيلية في بيوت الأقباط إلى حياة مستقلة.

والثّالثة: أنّ أسرار أعمالهم وخططهم سوف لا تقع في أيدي الأعداء.

٢ ـ أن يبنوا بيوتهم متقاربة ويقابل بعضها الآخر. لأنّ القبلة في الأصل بمعنى حالة التقابل، وإطلاق كلمة القبلة على ما هو معروف اليوم إنّما هو معنىً ثانوي لهذه الكلمة.

وأدّىٰ هذا العمل الى تجمع وتمركز بني إسرائيل بشكل فاعل، واستطاعوا بذلك وضع

---

١ ـ يونس، ٨٧.

المسائل الإجتماعية بعامّة قيد البحث والتحقيق، وأن يجتمعوا مع بعضهم لأداء المراسم الدينية والشعائر المذهبية، وأن يرسموا الخطط اللازمة من أجل حريتهم.

٣ ـ التوجه إلى العبادة، وخاصّة الصلاة التي تحرر الإنسان من عبودية العباد، وتربطه بخالق كل القوى والقدرات، وتغسل قلبه وروحه من لوث الذنوب، وتحيي فيه الشعور بالإعتماد على النفس وعلى قدرة الله حيث ستدب وتنبعث روح جديدة في الإنسان.

٤ ـ إنّ هذه المهمّة وجهت الأمر لموسى ـ باعتباره قائداً ـ بأن يطهّر روح بني إسرائيل من اشكال الخوف والرعب التي كانت من افرازات سنين العبودية والذلة الطويلة. وأن يربي وينمي فيهم الإرادة والشهامة والشجاعة وذلك عن طريق بشارة المؤمنين بالفتح والنصر النهائي، ولطف الله ورحمته.

فأخرجناهم من جنّات و عيون و كنوزٍ و مقامٍ كريم

ولمّا أتمّ موسى على أهل مصر الحجة البالغة، وامتازت صفوف المؤمنين من صفوف المنكرين، نزل الوحيُ على موسى أن يخرج بقومه من مصر، والقرآن يجسد هذا المشهد فيقول أوّلاً: **﴿وأوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي أنّكم متّبعون﴾**.

وفعلاً امتثل موسى عليه السلام هذا الأمر، وعبأ بني إسرائيل بعيداً عن أعين أعدائهم، وأمرهم بالتحرك، واختار الليل خاصّة لتنفيذ أمر الله لتكون خطته نافذة.

إلّا أن من البديهي أن حركة جماعة بهذا الشكل ليس هيناً يسيراً يمكن إخفاؤه لزمان طويل، فما كان أسرع أن رفع جواسيس فرعون هذا الخبر إليه، وكما يحدثنا القرآن عن ذلك أن فرعون أرسل رسله وأعوانه الى المدن لجمع القوات: **﴿فأرسل فرعون في المدائن حاشرين﴾**.

بالطبع فإنّ في تلك الظروف، وصول إيلاغ فرعون إلى المدائن، وجميع مناطق مصر، يحتاج إلى زمان معتنىً به لكن من الطبيعي أن يصل هذا البلاغ المدن القريبة بسرعة وتتحرك القوىٰ المعدّة فوراً، وتؤدي مقدمة الجيش مهمّتها، وتتبعها بقية الأفواج بالتدريج...

ولتعبئة الناس ـ ضمناً ـ وتهيئة الأرضية لإثارتهم ضد موسى وقومه، أمر فرعون أن يُعلَن **﴿إنّ هؤلاء لشرذمة قليلون﴾**.

فبناء على ذلك فنحن منتصرون عند مواجهتنا لهذه الفئة القليلة حتماً.

إنّ هؤلاء «أي موسى وقومه» بالإضافة إلى أنّهم قليلون فهم متفرقون، فكأن فرعون، بهذا التعبير أراد أن يجسم عدم انسجام بني إسرائيل من حيث أعداد الجيش فيهم...

أضاف **﴿وإنّهم لنا لغائظون﴾** فمن يسقي مزارعنا غداً، ومن يبنيْ لنا القصور؟ ومن يخدم في البيوت والقصور غيرهم؟!

ثمّ إنّا من مؤامرتهم يجب أن نكون على حذر سواء أقاموا أم رحلوا: **﴿وإنا لجميع حاذرون﴾** ومستعدون جميعاً لمواجهتهم.

ثمّ يذكر القرآن النتيجة الإجمالية لعاقبة فرعون وقومه وزوال حكومته، وقيام حكومة بني إسرائيل، فيقول: **﴿فأخرجناهم من جنات وعيون وكنوز ومقام كريم﴾**.

أجل **﴿كذلك وأورثناها بني إسرائيل﴾**[1].[2]

---

١ ـ الشعراء، ٥٩ ـ ٥٢.

٢ – **هَلْ حكمَ بنُو إسرائيلَ في مصرَ؟!**

على أساس تعبير القرآن الكريم ﴿كذلك وأورثناها بني اسرائيل﴾... فإنّ جمعاً من المفسّرين يعتقدون أن بني إسرائيل عادوا إلى مصر وسيطروا على الحكم، ومكثوا في مصر حاكمين مدّة.

وظاهر الآيات المتقدمة يناسب هذا التّفسير.

في حين أن بعض المفسّرين يعتقد أن بني إسرائيل تحركوا نحو بيت المقدس بعد هلاك فرعون وأتباعه، إلّا أنّهم بعد مدّة مديدة رجعوا إلى مصر وشكلوا فيها حكومتهم.

وتتطابق فصول التوراة الحالية المتعلقة بهذا القسم مع هذا التّفسير.

ويعتقد بعض آخر من المفسّرين أن بني إسرائيل صاروا جماعتين أو فئتين، فجماعة منهم بقيت في مصر وحكمت فيها، وتحركت جماعة منهم مع موسى نحو بيت المقدس.

وذكر احتمال آخر، وهو أن بني إسرائيل حكموا مصر بعد موسى عليه السلام وفي زمان النّبي سليمان بن داود، والآية **﴿كذلك وأورثناها بني إسرائيل﴾** ناظرة إلى هذا المعنى!

إلّا أنّه مع ملاحظة أن موسى عليه السلام نبي ثائر كبير، فمن البعيد جدّاً أن يترك هذه الأرض التي تهاوت أركان حكومتها وقد اصبحت مقاليد اُمورها بيده فيذرها كلياً دون أن يخطط لها خطة ويتجه نحو فلسطين وبيت المقدس والصحاري الشاسعة، ولا سيما أن بني إسرائيل قد سكنوا مصر لسنين طوال، وتعودوا على محيطها، فبناءً على هذا لا يخرج الأمر من أحد حالين... إمّا أن نقول: إن بني إسرائيل عادوا جميعاً إلى مصر وحكموا فيها، أو أن نقول: إن قسماً منهم بقوا في مصر بأمر موسى عليه السلام واستولوا على العرش وحكموا في مصر!... وفي غير هاتين الحالين لا يتجلّى مفهوم لاخراج الفراعنة منها ووراثة بني اسرائيل لها...

عاقبة فرعون وأتباعه الوخيمة

القرآن الكريم يبرز المشهد الأخير من قصّة موسىٰ وفرعون، وهو كيفية هلاك فرعون وقومه، ونجاة بني إسرائيل وانتصارهم!

وكما قرأنا سابقاً فإنّ فرعون أرسل المدائن حاشرين، وهيأ مقداراً كافياً من «القوّة» والجيش، قال البعض: كان ما أرسله فرعون على أنّه مقدمة الجيش ستمائة ألف مقاتل، وتبعهم نفسه بمليون.

تحركوا في جوف الليل ليدركوهم بسرعة، فبلغوهم صباحاً: **﴿فلمّا تراءىٰ الجمعان قال أصحاب موسى إنّا لمدركون﴾**[١].

فأمامنا بحر خضم متلاطم بالأمواج، ومن ورائنا بحر من الجيوش المتعطشة للدماء بتجهيزاتها الكاملة... هؤلاء الغاضبون علينا وهم الذين قتلوا أطفالنا الأبرياء سنين طوالاً... وفرعون نفسه رجل دموي جبار... فعلى هذا سيحاصروننا بسرعة، ويقتلوننا جميعاً بحدّ السيوف، أو سيأسروننا ويعذبوننا، والقرائن جميعها تدل على ذلك.

اضرب بعصاك البحر

وهنا مرّت لحظات عسيرة على بني إسرائيل... لحظات مُرّة لايمكن وصف مرارتها... ولعل جماعة منهم تزلزل إيمانهم وفقدوا معنوياتهم وروحياتهم.

إلّا أنّ موسىٰ عليه السلام كان مطمئناً هادىء البال، وكان يعرف أن وعد الله في هلاك فرعون وقومه ونجاة بني إسرائيل لايتخلف أبداً ولن يخلف الله وعده رسله!...

لذلك التفت إلى بني إسرائيل الفزعين بكمال الإطمئنان والثقة و **﴿قال كلاّ إن معي ربّيْ سيهدين﴾**.

وفي هذه الحال التي قد يكون البعض سمعوا كلامه دون أن يصدقوه، وكانوا ينتظرون آخر لحظات حياتهم، صدر أمر الله كما يقول القرآن: **﴿فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر...﴾**.

---

١ ـ الشعراء، ٦١.

تلك العصا التي هي في يوم آية إنذار، وفي يوم آخر آية رحمة ونجاة!

فامتثل موسى عليه السلام أمر ربه فضرب البحر، فإذا أمامه مشهد رائع عجيب، تهللت له أسارير وجوه بني إسرائيل، إذا انشقّ البحر **﴿فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم﴾**!

وعلى كل حال، فإنّ الله الذي ينفذ أمره في كل شيء، وبأمره تموج البحار وتتصرف الرياح وتتحرك العواصف وكل شيء في عالم الوجود من رشحات فضله وقدرته أصدر أمره الى البحر، وأمواجه، فالتحمت الأمواج وتراكمت بعضها إلى بعض، وظهرت ما بينها طُرُق سالكة، فمرّتْ كل فرقة من بني إسرائيل في إحدى الطرق!

إلّا أنّ فرعون وأتباعه بالرغم من مشاهدتهم هذه المعجزة الكبرى الواضحة لم يذعنوا للحق، ولم ينزلوا عن مَركبِ غرورهم، فاتبعوا موسى ورهطه ليبلغوا مصيرهم المحتوم، كما يقول القرآن في هذا الشأن: **﴿وأزلفنا ثمّ الآخرين﴾**...

وهكذا ورد فرعون وقومه البحر أيضاً، واتبعوا عبيدهم القدماء الذين استرقّوهم بطغيانهم، وهم غافلون عن أن لحظات عمرهم تقترب من النهاية، وأن عذاب الله سينزل فيهم!

ويقول القرآن الكريم: **﴿وأنجينا موسى ومن معه أجمعين﴾**.

وحين خرج آخر من كان من بني إسرائيل من البحر، ودخل آخر من كان من أتباع فرعون البحر، صدر أمر الله فعادت الأمواج إلى حالتها الأُولىٰ فانهالت عليهم فجأةً، فهلك فرعون وقومه في البحر، وصار كل منهم كالقشّة في وسط الأمواج المتلاطمة.

ويبيّن القرآن هذه الحالة بعبارة موجزة متينة فيقول: **﴿ثمّ أغرقنا الآخرين﴾**[1]...

فاليوم ننجيك ببدنك

أصبح فرعون كالقشة تتقاذفه الأمواج وتلهو به، فعنذاك زالت حجب الغرور والجهل من أمام عينه، وسطع نور التوحيد الفطري وصدع بالإيمان: **﴿حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنّه لا إله إلّا الذي آمنت به بنوا إسرائيل﴾** فلست مؤمناً بقلبي فقط، بل إنّي من المسلمين عملياً: **﴿وأنا من المسلمين﴾**.

ولما تحققت تنبؤات موسىٰ عليه السلام الواحدة تلو الأُخرىٰ وأدرك فرعون صدق هذا النّبي

---

١ ـ الشعراء، ٦٦ ـ ٦٢.

الكبير أكثر فأكثر وشاهد قدرته وقوته، اضطر إلى إظهار الإيمان على أمل أن ينقذه ربّ بني إسرائيل كما أنجاهم من هذه الأمواج المتلاطمة ولذلك يقول: آمنت أنّه لا إله إلّا الذي آمنت به بنو إسرائيل!

إلّا أنّ من البديهي أنّ مثل هذا الإيمان الذي يتجلّىٰ عند نزول البلاء ونشوب أظفار الموت، إيمان اضطراري يتشبث به كل جان ومجرم ومذنب وليست له أية قيمة، أو يكون دليلاً على حسن نيته أو صدق قوله، ولهذا فإنّ الله سبحانه خاطبه فقال: **﴿الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين﴾**.

لكن **﴿فاليوم ننجّيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية﴾**[1] آية للحكام المستكبرين ولكل الظالمين والمفسدين، وآية للفئات المستضعفة.

هناك بحث في المراد من البدن هنا، فالكثير يرىٰ بأنّ المراد هو جسد فرعون الذي فارقته الروح، لأنّ عظمة فرعون في أفكار الناس في ذلك المحيط بلغت حدّاً بحيث أنّ الكثير لولا ذلك لم يكن يصدق أن فرعون يمكن أن يغرق، وكان من الممكن أن تنسج الأساطير والخرافات الكاذبة حول نجاة وحياة فرعون بعد هذه الحادثة، لذلك ألقى الله سبحانه جسده خارج الماء.

اللطيف هنا، أنّ البدن في اللغة يعني الجسد العظيم ـ وهذا يدلنا على أن فرعون كان عظيم الهيكل ممتلىء الجسم كما هو الحال في الكثير من أهل الترف والرفاه الدنيوي!

إلّا أنّ البعض الآخر قالوا: إنّ أحد معاني البدن هو الدرع، وهذا إشارة إلى أن الله سبحانه قد أخرج فرعون من الماء بدرعه الذهبي الذي كان على بدنه ليعرف عن طريقه، ولا يبقى أي مجال للشك في أنّه فرعون.

ويوجد الآن في متاحف مصر وبريطانيا جثة أو جثتين من جثث الفراعنة التي بقيت محنّطة بالمومياء، فهل أنّ بدن فرعون المعاصر لموسى من بينهاحيث حفظوه فيما بعد بالمومياء، أم لا؟

لا يمكننا اثبات ذلك.

---

١ ـ يونس، ٩٢ ـ ٩٠.

معبر بني إسرائيل!

ورد التعبير في القرآن مراراً عن موسى أنه عبر بقومه «البحر»[1] كما جاء في بعض الآيات لفظ «اليمّ» بدلاً من البحر.[2]

والآن ينبغي أن نعرف ما المراد من «البحر» و «اليم» هنا، أهو إشارة إلى النهر الكبير الواسع في مصر، النيل الذي يروي جميع أراضيها؟ أم هو إشارة إلى البحر الأحمر «المعروف ببحر القلزم في بعض المصطلحات»؟

يستفاد من التوراة الحالية ـ وكذلك من كلمات بعض المفسّرين ـ أنه إشارة إلى البحر الأحمر... إلّا أن القرائن الموجودة والمتوفرة تدل على أنّ المراد منه هو نهر النيل.

الاقتراح على موسى بصنع الوثن

القرآن الكريم يشير إلى جانب حساس آخر من قصّة بني إسرائيل التي بدأت في أعقاب الإنتصار على الفرعونيين، وذلك هو مسألة توجه بني إسرائيل إلى الوثنية.

وفي الحقيقية فإنّه مع انتهاء قصة فرعون بدأت مشكلة موسى الداخلية الكبرى، يعني مشكلته مع جهلة بني إسرائيل، والأشخاص المتعنتين والمعاندين. وكانت هذه المشكلة أشدّ على موسى عليه السلام وأثقل بمراتب كثيرة ـ كما سيتّضح من قضية مواجهته لفرعون والملأ وهذه هي خاصية المشاكل والمجابهات الداخلية.

يقول سبحانه: ﴿وجاوزنا ببني إسرائيل البحر﴾ أي النيل العظيم. ولكن في مسيرهم مرّوا على قوم يخضعون للأصنام ﴿فأَتَوا على قوم يعكفون على أصنامٍ لهم﴾.

فتأثّر الجهلة الغافلون بهذا المشهد بشدّة إلى درجة قالوا لموسى من دون إبطاء: يا موسى اتّخذ لنا معبوداً على غرار معبودات هؤلاء ﴿قالوا يا موسى اجعل لنا إلَهاً كما لهم آلِهة﴾.

فانزعج موسى عليه السلام من هذا الإقتراح الأحمق بشدّة، وقال لهم: ﴿قال إنّكم قوم تجهلون﴾.[3]

---

١ ـ اقرأ سورة «يونس: الآية ٩٠ ـ وطه الآية ٧٧ ـ والشعراء الآية ٦٣.

٢ ـ اقرأ سورة طه الآية ٧٨ ـ والقصص الآية ٤٠ ـ والذاريات الآية ٤٠.

٣ ـ الاعراف، ١٣٨.

إنّه كان بين بني إسرائيل أشخاص كثيرون ممن يكفرون النعمة ولا يشكرونها، فمع أنّهم رأوا كل تلك المعاجز التي أُتي بها موسى عليه السلام، ومع أنّهم تمتعوا بكل تلك المواهب الإلٓهية التي خصّهم الله بها، فإنّه لم ينقضِ عن هلاك عدوهم فرعون ونجاتهم من الغرق برهة من الزمن حتى نسوا كل هذه الأُمور دفعة واحدة، وطلبوا من موسى أن يصنع لهم أصناماً ليعبدوها!!

جواب اميرالمؤمنين لليهودي

ونقرأ في نهج البلاغة أنّ أحد اليهود اعترض على المسلمين عند أمير المؤمنين عليه السلام قائلاً: ما دفنتم نبيّكم حتى اختلفتم فيه. فردّ عليه الإمام صلوات الله عليه قائلاً: «**إنّما اختلفنا عنه لا فيه، ولكنّكم ما جفّت أرجلكم من البحر حتى قلتم لنبيّكم اجعَلْ لنا إلٓهاً كما لهم آلهة، فقال إنّكم قوم تجهلون**».

أي إنّنا اختلفنا في الأحاديث والأوامر التي وصلت إلينا عن نبيّنا، لا أنّنا اختلفنا حول النّبي ونبوته، (فكيف بألوهية الله) ولكنّكم ما إن خرجتم من مياه البحر إلّا واقترحتم على نبيّكم أن اجعل لنا آلهة كما للوثنيين آلهة، وقال موسى: إنّكم قوم تجهلون.

إنّ موسى عليه السلام ـ لتكميل حديثه لبني إسرائيل ـ قال: إنّ هذه الجماعة الوثنية التي ترونها سينتهي أمرها إلى الهلاك، وإن عملهم هذا باطل لا أساس له ﴿**إن هؤلاء متبَّرٌ ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون**﴾.

ثمّ اضاف موسى عليه السلام للتوكيد: ﴿**أغير الله أبغيكم إلٓهاً وهو فضّلكم على العالمين**﴾.

وإحدى النعم الإلٓهية الكبرى التي وهبها الله سبحانه لبني إسرائيل، ليبعث بالإلتفات إلى هذه النعمة الكبرى حسّ الشكر فيهم، وليعلموا أن اللائق بالخضوع والعبادة هو الذات الإلٓهية المقدسة فحسب، وليس هناك أي دليل يسوّغ لهم الخضوع أمام أصنام لا تضر ولا تنفع شيئاً أبداً. يقول في البداية: تذكّروا يوم أنجيناكم من مخالب آل فرعون الذين كانوا يعذبونكم دائماً ﴿**وإذ أنجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب**﴾.

ثمّ تمشياً مع أسلوب القرآن في بيان الأُمور بتفصيل بعد إجمال شرح هذا العذاب المستمر، وهو: قتل الأبناء، واستبقاء النساء للخدمة والإسترقاق ﴿**يقتلون أبناءكم، ويستحيون نساءكم**﴾[1].

---

١ ـ الاعراف، ١٤١ ـ ١٣٩.

بنو إسرائيل والأرض المقدسة

القرآن الكريم يبيّن واقعة دخول بني إسرائيل إلى الأرض المقدسة نقلاً عن لسان نبيّهم موسى عليه السلام فيقول: ﴿يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين﴾.

وقد اختلف حول المراد بعبارة (الأرض القدسة)، وحول موقعها الجغرافي من العالم.

فيرى البعض أنّها أرض «بيت المقدس» حيث القدس الشريف، وآخرون يرون أنّها «أرض الشام» وفئة ثالثة ترى أنّها «الأردن وفلسطين» وجماعة أُخرىٰ تقول أنّها أرض «الطور».

ولكن لا يستبعد أن يكون المراد من العبارة المذكورة كل أرض الشام التي تشمل جميع الإحتمالات الواردة، لأنّ هذه الأرض ـ كما يشهد التاريخ ـ تعتبر مهداً للأنبياء، ومهبطاً للوحي، ومحلاً لظهور الأديان السماوية الكبرى، كما أنّها كانت لفترت طوال من التاريخ مركزاً للتوحيد وعبادة الله الواحد الأحد، ونشر تعاليم الأنبياء ... لهذه الأسباب كلها سمّيت بـ «الأرض المقدسة» مع أنّ هذا الإسم يطلق عن منطقة «بيت المقدس» بصورة خاصّة أحياناً.

وقد واجه بنو إسرائيل دعوة موسى عليه السلام للدخول إلى الأرض المقدسة مواجهة الضعفاء الجبناء الجهلاء، الذين يتمنون أن تتحقق لهم الإنتصارات في ظل الصدف والمعاجز دون أن يبادروا بأنفسهم إلى بذل جهد في هذا المجال، وردّ هؤلاء على طلب موسى عليه السلام بقولهم: ﴿قالوا يا موسى إنّ فيها قوماً جبارين وإنّا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون﴾.

ويدل جواب بني إسرائيل هذا على الأثر المشؤوم الذي خلفه الحكم الفرعوني على نفوس هؤلاء فإنّ في كلمة «لن» التي تفيد التأييد دلالة على الخوف والرعب العميقين اللذين استوليا على هذه الطائفة ممّا أرغمهم على الإمتناع عن الدخول في أي صراع من أجل تحرير الأرض المقدسة وتطهيرها.

وكان على بني إسرائيل أن يحرروا تلك الأرض بكفاحهم وتضحياتهم، أمّا لو أنّ الأعداء تركوا الأرض المقدسة أو أبيدوا فيها بمعجزة على خلاف السنة الإلهية الطبيعية، فإن بني إسرائيل بدخلوهم إليها ـ في مثل هذه الحالة دون أي عناء أو مشقة ـ كانوا سيواجهون العجز في إدارة تلك الأرض الواسعة الغنية، ولم يكونوا ليبدوا أيّ اهتمام بالحفاظ على شيء

حصلوا عليه دون جهد أو معاناة، فلا يظهر لديهم والحالة هذه أي استعداد أو كفاءة لعمل ذلك.

أمّا المراد من عبارة ﴿قوماً جبارين﴾ فهم كما تدل عليه التواريخ قوم «العمالقة» الذين كانوا يمتلكون أجساماً ضخمة، وكانت لهم أطوال خارقة، بحيث ذهب الكثير إلى المبالغة في طول أجسام هؤلاء وصنعوا الأساطير الخرافية من ذلك، وكتبوا فيهم مواضيع تثير السخرية لا يسندها أيّ دليل علمي، وبالأخص فيما كتبوه عن المدعو بـ«عوج» في التواريخ المصطنعة المشوبة بالخرافات والأساطير.[1]

بعد هذا الحديث يشير القرآن الكريم إلى رجلين أنعم الله عليهما بالإيمان والتقوى والورع وشملهما بنعمه الكبيرة، فجمعا صفات الشجاعة والشهامة والمقاومة مع الدرك الإجتماعي والعسكري ممّا دفعهما إلى الدفاع عن اقتراح النّبي موسى عليه السلام فواجها بني إسرائيل بقولهما: ادخلوا عليهم من باب المدينة، وحين تدخلون عليهم سيواجهون الإمر الواقع فتكونون أنتم المنتصرون، يقول القرآن الكريم في هذا المجال: ﴿قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنّكم غالبون﴾.

ويؤكد بعد ذلك على ضرورة الإعتماد على الله في كل خطوة من الخطوات، والإستمداد من روح الإيمان بقوله تعالى: ﴿وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين﴾[2].

وما ذكره أغلب المفسّرين حول هوية هذين الرجلين هو أنّهما «يوشع بن نون» و«كالب بن يوحنا» وهما من النقباء الإثني عشر في بني إسرائيل[3].

أخبرونا كلّما انتصرتم

والذي حصل حقيقة هو أنّ بني إسرائيل لم يقتنعوا بأي من الإقتراحات المذكورة، فهم بسبب الضعف والجبن المتأصلين في نفوسهم خاطبوا موسى عليه السلام وأخبروه صراحة بأنّهم لن

---

١ ـ يبدو أن مثل هذه الخرافات التي تسربت حتى إلى بعض الكتب الإسلامية، وإنّما هي من صنع بني إسرائيل، والتي تسمّى عادة بـ«الإسرائيليات» والدليل على هذا القول هو ما ورد نصاً في التوراة المتداولة من أساطير خرافية تشبه أساطير العمالقة، في سفر الأعداد في أواخر الفصل الثّالث عشر.

٢ ـ المائدة، ٢٣ ـ ٢١.

٣ ـ الباب الأوّل من سفر التثنية في التوراة المتداولية، فيه إشارة إلى أنّ اسمي هذين الرجلين هما «يوشع» و«كاليب».

يدخلوا تلك الأرض مادام العمالقة موجودين فيها، وطالبوا موسى أن يذهب هو وربه لمحاربة العمالقة وسألوه أن يخبرهم عن إنتصاره حيث هم قاعدون، وفي هذا المجال يقول القرآن الكريم: **﴿قالوا يا موسى إنّا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنّا ههنا قاعدون﴾**.

وتبيّن هذه الآية مدى الوقاحة التي وصل إليها بنوإسرائيل في مخاطبة نبيّهم موسى عليه السلام، فهم بقولهم «لن» و«أبداً» أكدوا رفضهم القاطع للدخلول إلى الأرض المقدسة، كما أنّهم استخفوا بموسى عليه السلام ودعوته واستهزأوا بهما، بقولهم: **﴿إذهب أنت وربك فقاتلا إنّا ههنا قاعدون ...﴾** كما أنّهم ـ أيضاً ـ لم يعيروا التفاتاً لإقتراح الرجلين المؤمنين، ولم يبدوا حيال ذلك أي جواب.

والطريف في الأمر أن التوراة المتداولة قد أوردت أجزاء مهمّة من هذه القصة، في الباب الرابع عشر من سفر الأعداد.

ثمّ إنّ موسى أصابه اليأس والقنوط من القوم، ورفع يديه للدعاء مناجياً ربّه قائلاً: إنّه لا يملك حرية التصرف إلّا على نفسه وأخيه، وطلب من الله أن يفصل بينهما وبين القوم الفاسقين العصاة. **﴿قال ربّ إني لا أملك الّا نفسي و أخي فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين﴾** [1].

تيه بني اسرائيل

وكانت نتيجة صلف وعناد بني إسرائيل أنّهم لاقوا عقابهم، إذ استجاب الله دعاء نبيه موسى عليه السلام، فحرّم عليهم دخول الأرض المقدسة، المليئة بالخيرات مدّة أربعين عاماً، وفي هذا المجال يقول القرآن الكريم: **﴿قال فإنّها محرمة عليهم أربعين سنة...﴾**.

وزادهم عذاباً إذ كتب عليهم التيه والضياع في البراري والقفار طيلة تلك الفترة، حيث يقول القرآن الكريم في ذلك: **﴿يتيهون في الأرض ...﴾** وقد سميت الصحراء التي تاه فيها بنو إسرائيل باسم «التيه» أيضاً، وكانت جزءاً من صحراء سيناء.

بعد ذلك تذكر الآية أنّ ما نال بني إسرائيل من عذاب في تلك المدة، كان مناسباً لما فعلوه، وتطلب من موسى عليه السلام أن لا يحزن على المصير الذي لا قوه حيث يقول سبحانه : **﴿فلا تأس**

---

١ ـ المائدة، ٢٤ ـ ٢٥ .

على القوم الفاسقين﴾ [١].

وربما كان سبب ورود الجملة الأخيرة، هو أنّ موسىعليه السلام قد ثارت عاطفته بعد أن علم بالعذاب الذي كتبه الله على بنيإسرائيل، فطلب من الله العفو لقومه ـ كما ورد في التوراة المتداولة ـ فأجابه برد سريع أوضح له أن بنيإسرائيل يستحقون ذلك العذاب، وهم لا يستحقون العفو الالإلهي لأنّهم أُناس فاسقون وعصاة، متكبرون، ومن كان هذا شأنه سيلاقي ـ حتماً ـ مثل هذا المصير.

ويجب الإنتباه إلى أنّ حرمان بنيإسرائيل من الدخول إلى الأرض المقدسة، لم يكن له طابع للإنتقام (كما أن جميع العقوبات الإلهية ليس فيها طابع إنتقامي، بل هي إما أن تكون لأجل تقويم شخصية الفرد، أو تكون نتيجة لأخطائه ومعاصيه.

وقد اشتمل هذا الحرمان على فلسفة خاصّة، حيث تحرر بنوإسرائيل بعد معاناة طويلة قاسوها في ظل الكبت والقمع الفرعوني اللذين خلفا فيهم عقد الإحساس باحتقار النفس والذل والضعة والنقص، لذلك فهم لم يبدوا استعداداً لتطهير أنفسهم وأرواحهم في تلك الفترة بعد التحرر وفي ظل قيادة وزعامة نبيّهم موسىعليه السلام كما لم يكونوا مستعدين لتلك القفزة المعنوية التي كان من شأنها أن تهيء لهم حياة جديدة مقرونة بالفخر والعز والسؤدد، وجوابهم لموسىعليه السلام ـ الذي اشتمل على رفضهم الدخول إلى ميدان الجهاد التحرري في الأرض المقدسة ـ خير دليل على هذه الحقيقة.

لذلك كان من الضروري أن يعاني بنو إسرائيل من التيه والضياع في الصحراء، ليزول الجيل الضعيف العاجز منهم بشكل تدريجي وليحل محله جيل جديد في محيط الصحراء، محيط الحرية وفي أحضان التعاليم الإلهية، وقد صقلت نفوسهم حياة الصحراء القاسية الضارية، ووهبت لأرواحهم وأنفسهم القوة والقدرة، وأعدتهم لخوض غمار ذلك الجهاد ليقيموا حكومة الحق في تلك الأرض المقدسة!

ندم مجموعة من بنياسرائيل

مجموعة من التائهين ندمت علىٰ ما فعلته أشد الندم، وتضرعت إلى الله، فشمل الله سبحانه

---

١ ـ المائدة، ٢٦ ـ ٢٥.

بني إسرائيل ثانية برحمته، وأنزل عليهم نعمه التي يشير القرآن الكريم إلى بعضها: ﴿وَظَلَّلْنا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ﴾.

والظّل له أهمية الكبرى لمن يطوي الصحراء طيلة النهار وتحت حرارة الشمس اللّافحة، خاصة أن مثل هذا الظّل لا يضيّق الفضاء علىٰ الإنسان ولا يمنع عنه هبوب النسيم.

يبدو أن الغمام الذي تشير إليه الآية الكريمة، ليس من النوع العابر الذي يظهر عادة في سماء الصحراء، ولا يلبث أن يتفرق ويزول، بل هو من نوع خاص تفضل به الله علىٰ بني إسرائيل ليستظلوا به بالقدر الكافي.

وإضافة إلى الظل فانّ الله سبحانه وفّر لبني إسرائيل بعد تيههم الطعام الذي كانوا في أمسّ الحاجة إليه خلال أربعين عاماً خلت من ضياعهم: ﴿وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوىٰ، كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾.

لكن هؤلاء عادوا إلى الكفران: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [1].

المنّ والسّلوى

بناءً علىٰ ما روي عن النّبيﷺ: «إن الكماة من المنّ». [2] يتّضح أنّ «المنّ» فطريات مأكولة كانت تنمو في تلك الأرض.

بشأن «السلوى» قال بعض المفسرين إنه العسل، وأجمع الباقون علىٰ أنه نوع من الطير،

---

١ ـ البقرة، ٥٧.

٢ ـ وتذكر التوراة أن «المنّ» حبٌّ يشبه بذر الكزبرة يتساقط علىٰ الأرض ليلاً، وكان بنو إسرائيل يجمعونه ويصنعون منه خبزاً ذا طعم خاص.

وثمة احتمال آخر هو أن الأمطار الغزيرة النافعة التي هطلت بفضل الله علىٰ تلك الصحراء أثرت علىٰ أشجار تلك المنطقة فأفرزت عصارة حلوة استفاد منها بنو إسرائيل.

واحتمل بعضهم أن يكون «المنّ» نوعاً من العسل الطبيعي حصل عليه بنو إسرائيل في الجبال والمرتفعات المحيطة بصحراء التيه. وهذا التّفسير يؤيد ما ورد من شروح علىٰ العهدين (التوراة والإنجيل) حيث جاء: «الأراضي المقدسة معروفة بكثرة أنواع الأوراد والأزهار، ومن هنا فإن مجاميع النحل تبني خلاياها في أخاديد الصخور وعلىٰ أغصان الأشجار وثنايا بيوت النّاس، بحيث يستطيع أفقر النّاس أن يتناول العسل».

كان يأتي علىٰ شكل أسراب كبيرة إلى تلك الأرض، وكان بنو إسرائيل يتغذون من لحومها. في النصوص المسيحية تأييد لهذا الرأي.[١]

شاء الله بفضله ومنّه أن يكثر هذا الطير في صحراء سيناء آنئذٍ لسدّ حاجة بني إسرائيل من اللحوم، ولم تكن هذه الكثرة من الطير طبيعية في تلك المنطقة.

انفجار العيون في الصّحراء

تذكير آخر بنعمة أُخرىٰ من نعم الله علىٰ بني إسرائيل: وهذه النعمة أغدقها الله عليهم، حين كان بنوإسرائيل في أمسّ الحاجة إلى الماء وهم في وسط صحراء قاحلة، فطلب موسى عليه السلام من الله عزّ وجلّ الماء: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسىٰ لِقَوْمِهِ﴾، فتقبل الله طلبه، وأمر نبيّه أن يضرب الحجر بعصاه: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الحَجَرَ فَانْفَجَرتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً﴾ بعدد قبائل بني إسرائيل.

وكل عين جرت نحو قبيلة بحيث أن كل قبيلة كانت تعرف العين التي تخصّها ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ﴾.

كثرت الأقوال في طبيعة الحجر الذي انفجرت منه العيون، وكيفية ضربه بالعصا، والقرآن لا يزيد علىٰ ذكر ما سبق.

قال البعض: إن هذا الحجر كان في ثنايا الجبال المطلة علىٰ الصحراء وأن المياه جرت قليلة أولاً، ثم كثرت حتى ارتوى منها كل قبائل بني إسرائيل مع مواشيهم ودوابهم. ظاهرة انفجار المياه من الصخور طبيعية، لكن الحادثة هنا مقرونة بالإعجاز كما هو واضح[٢].

---

١ ـ حيث ورد في تفسير علىٰ العهدين ما يلي: «إعلم أن السلوى تتحرك بمجموعات كبيرة من افريقيا، فتتجه إلى الشمال، وفي جزيرة كابري وحدها يصطاد من هذا الطائر ١٦ ألفاً في الفصل الواحد... هذا الطائر يجتاز طريق بحر القلزم، وخليج العقبة والسويس، ويدخل شبه جزيرة سيْناء. وبعد دخوله لا يستطيع أن يطير في إرتفاعات شاهقة لشدّة ما لاقاه من تعب وعناء في الطريق، فيطير علىٰ إرتفاع منخفض ولذلك يمكن اصطياده بسهولة ... وورد ذكر ذلك في سفر الخروج وسفر الأعداء من التوراة».

يستفاد من هذا النص أن المقصود بالسلوى طير خاص سمين يشبه الحمام معروف في تلك الأرض.

٢ ـ في الفصل السابع عشر من «سفر الخروج» تذكر التوراة:

لقد مَنّ الله علىٰ بني إسرائيل بإنزال المنّ والسلوى، وفي هذه المرّة يمنّ عليهم بالماء الذي يعزّ في تلك الصحراء القاحلة، ثم يقول سبحانه لهم: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ ٱللهِ وَلاَ تَعْثَوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾[١].

وفي هذه العبارة حث لهم علىٰ ترك العناد وإيذاء الأنبياء، وأن يكون هذا أقل شكرهم لله علىٰ هذه النعم.

المطالبة بالأطعمة المتنوعة

بعد شرح نِعَم الله علىٰ بني إسرائيل، يذكر القرآن الكريم صورة من عنادهم وكفرانهم بهذه النعم الكبرى.

يتحدّث أولاً عن مطالبة بني إسرائيل نبيّهم بأطعمة متنوعة بدل الطعام الواحد (ٱلمَنّ وَالسَّلْوىٰ): ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسىٰ لَنْ نَصْبِرَ عَلىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾.

فخاطبهم موسى ﴿قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنىٰ بالَّذِي هُوَ خَيْرٌ إِهْبِطُوا مِصْراً فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُم﴾.

ويضيف القرآن: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوَ بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيّينَ بِغَيرِ الحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَواْ وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾[٢].

الميعاد الكبير

القرآن الكريم يشير إلى مشهد من مشاهد حياة بني إسرائيل، ومشكلة موسى عليه السلام معهم، وذلك هو قصّة ذهاب موسى إلى ميقات ربّه، وتلقي أحكام التّوراة عن طريق الوحي وكلامه مع الله، واصطحاب جماعة من كبار بني إسرائيل وشخصياتهم إلىٰ الميقات لمشاهدة هـذه

«فقال الرب لموسى سر قدام الشعب وخذ معك من شيوخ إسرائيل وعصاك التي ضربت بها النهر خذها في يدك واذهب ـ ها أنا أقف أمامك هناك علىٰ الصخرة في حوريب فتضرب الصخر فيخرج منها ماء ليشرب الشعب ففعل موسى هكذا أمام عيون شيوخ إسرائيل».

١ ـ البقرة، ٦٠.

٢ ـ البقرة، ٦١.

الحادثة وإثبات أنّ الله لا يمكن أن يدرَك بالأبصار، والتي ذكرت بعد قصّة عبادة بني إسرائيل للعجل وإنحرافهم عن مسير التوحيد، وضجّة السامريّ العجيبة.

يقول تعالى أوّلاً: **﴿وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر فتم ميقات ربّه أربعين ليلة﴾**.

ثمّ ذكر أنّ موسى استخلف هارون وأمره بالإصلاح في قومه، وأن لا يتبع سبيل المفسدين: **﴿وقال موسى لأخيه هارون اخلفني في قومي واصلح ولا تتبع سبيل المفسدين﴾**[1].[2]

---

١ ـ الاعراف، ١٤٢.

٢ ـ **لماذا التفكيك بين الثلاثين والعشر؟**

إنّ أوّل سؤال يطرح نفسه هنا، هو: لماذا لم يبيّن مقدار الميقات بلفظ واحد هو الأربعين، بل ذكر أنّه واعده ثلاثين ليلة ثمّ أتمّه بعشر، في حين أنّه تعالى ذكر ذلك الموعد في لفظ واحد هو أربعين في الآية (١٥١) من سورة البقرة.

ذكر تفسيرات عديدة لهذا التفكيك، والذي يبدو أقرب إلى النظر وأكثر انسجاماً مع أحاديث أهل البيت(عليهم السلام) هو أنّه وإن كان الواقع هو أربعين يوماً، إلّا أنّه في الحقيقة وعد الله موسى في البداية ثلاثين يوماً ثمّ مدّده عشرة أيّام أُخرىٰ، اختباراً لبني إسرائيل كي يُعرف المنافقون في صفوف بني إسرائيل.

فقد روي عن الإمام محمّد الباقر(عليه السلام) أنّه قال: **إنّ موسى(عليه السلام) لما خرج وافداً إلى ربّه واعدهم ثلاثين يوماً، فلمّا زاده الله على الثلاثين عشراً قال قومه، قد أخلفنا موسى فصنعوا ما صنعوا (من عبادة العجل)**.

وأمّا أن هذه الأيّام الأربعين صادفت أيّام أي شهر من الشهور الإسلامية، فيستفاد من بعض الرّوايات أنّها بدأت من أوّل شهر ذي القعدة وختمت باليوم العاشر من شهر ذي الحجة (عيد الأضحى). وقد جاء التعبير بلفظ أربعين ليلة في القرآن الكريم لا أربعين يوماً، فالظاهر أنّه لأجل أن مناجاة موسى لربّه كانت تتمّ غالباً في الليالي.

لماذا طلب موسى(عليه السلام) من أخيه الإصلاح وعدم اتّباع المفسدين؟

السؤال الثّاني الذي يطرح نفسه هنا، هو: لماذا قال موسى(عليه السلام) لأخيه: اصلح ولا تتبع سبيل المفسدين، مع أن هارون نبي معصوم من المستحيل أن يتبع طريق المفسدين وينهج نهجهم الفاسد؟

نقول في الجواب: إنّ هذا ـ في الحقيقة ـ نوع من التوكيد لإلفات نظر أخيه إلى أهمية مكانته في بني إسرائيل. ولعله أراد بهذا الموضوع أن يوضح لبني إسرائيل ويفهمهم أن عليهم أن يمتثلوا لتعاليم هارون ونصائحه ومواعظه الحكيمة، ولا يستثقلوا أوامره ونواهيه، ولا يعتبروا تلك الأوامر والنواهي

المطالبة برؤية الله

هنا يشير سبحانه إلى مشهد مثير آخر من مشاهد حياة بني إسرائيل، وذلك عندما طلب جماعة من بني إسرائيل من موسى عليه السلام ـ بإلحاح وإصرار ـ أن يَروا الله سبحانه، وأنّهم لن يؤمنوا به إذا لم يشاهدوه، فاختار موسى سبعين رجلاً من قومه واصطحبهم معه إلى ميقات ربّه، وهناك رفع طلبهم إلى الله سبحانه، فسمع جواباً أوضح لبني إسرائيل كل شيء في هذا الصعيد. ﴿ولما جاء موسى لميقاتنا وكلّمه ربّه قال ربّ أرني أنظر إليك﴾.

ولكن سرعان ما سمع الجواب من جانب المقام الرّبوبي: كلا، لن تراني أبداً ﴿قال لن تراني ولكن أُنظر إلى الجبل فإن استقرّ مكانه فسوف تراني فلمّا تجلى ربّه للجبل جعله دكاً﴾.

فلمّا رأى موسىٰ هذا المشهدِ الرهيب تملكه الرعب إلى درجة أنّه سقط على الأرض مغميً عليه ﴿وخرّ موسى صعقاً﴾.

وعندما أفاق قال: ربّاه سبحانك، أنبتُ إليك، وأنا أوّل من آمن بك ﴿فلمّا أفاق قال سبحانك تبتُ إليك وأنا أوّل المؤمنين﴾ [1].

لماذا طلب موسى رؤية الله؟

كيف طلب موسى عليه السلام ـ وهو النّبي العظيم ومن أُولي العزم ـ رؤية الله وهو يعلم جيداً أن الله ليس بجسم، وليس له مكان، ولا هو قابل للمشاهدة والرؤية، والحال أن مثل هذا الطلب لا يليق حتى بالأفراد العاديّين من الناس؟

وأوضح الأجوبة هو أن موسى عليه السلام طرح مطلب قومه، لأنّ جماعة من جَهَلة بني إسرائيل أصرّوا على أن يروا الله حتى يؤمنوا وقد أمر موسى عليه السلام من جانب الله أن يطرح مطلب قومه هذا على الله سبحانه حتى يسمع الجميع الجواب الكافي، وقد صُرّح بهذا في رواية مرويّة عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام.[2]

وكذلك قيادة هارون لهم دليلاً على قِصَرِهم وصغرهم ... بل يفعلون كما يفعل هارون حيث كان رغم منزلته البارزة ومقام نبوته تابعاً ومطيعاً لنصائح موسى عليه السلام.

١ ـ الاعراف، ١٤٣.

٢ ـ مم تاب موسى عليه السلام؟

ألواح التوراة

وفي النهاية أنزل الله شرائع وقوانين دينه على موسى عليه السلام.

ففي البداية: **﴿قال يا موسى إنّي اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي﴾**.

فإذا كان الأمر كذلك **﴿فخذ ما آتيناك وكن من الشاكرين﴾**.

ثمّ أضاف تعالى واصفاً محتويات الألواح التي أنزلها على موسى عليه السلام بقوله: **﴿وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلاً لكل شيء﴾**.

ثمّ أمره بأن يأخذ هذه التعاليم والأوامر مأخذ الجد، ويحرص عليها بقوة **﴿فخذها بقوّة﴾**.

وأن يأمر قومه أيضاً بأن يختاروا من هذه التعاليم أحسنها **﴿وأمر قومك يأخذوا بأحسنها﴾**.

كما يحذرهم بأن مخالفة هذه الأوامر والتعاليم والفرار من المسؤوليات والوظائف تستتبع نتائج مؤلمة، وأن عاقبتها هي جهنم وسوف يرى الفاسقون مكانهم **﴿سأوريكم دار الفاسقين﴾**[1].[2]

إنّ سؤالاً يطرح نفسه هنا هو: أن موسى عليه السلام بعد أن أفاق قال: **﴿تبتُ إليك﴾** في حين أنّه لم يرتكب إثماً أو معصية، لأن هذا الطلب كان من جانب بني إسرائيل، وكان طرحه بتكليف من الله، فهو أدى واجبه إذن، ثمّ إذا كان هذا الطلب لنفسه وكان مراده الشهود الباطني لم يُحسب هذا العمل إثماً؟؟

ولكن يمكن الجواب على هذا السؤال من جانبين:

الأوّل: أن موسى طلب مثل هذا الطلب بالنيابة عن بني إسرائيل، ومع ذلك طلب من الله أن يتوب عليه، وأظهر الإيمان.

الآخر: أنّ موسى عليه السلام وإن كان مكلّفاً بأن يطرح طلب بني إسرائيل، ولكنّه عندما تجلى ربّه للجبل واتّضحت حقيقة الأمر، انتهت مدّة هذا التكليف، وفي هذا الوقت لا بدّ من العودة إلى الحالة الأُولىٰ يعني الرجوع إلى ما قبل التكليف، وإظهار إيمانه حتى لا تبقى شبهة لأحد، وقد بيّن ذلك بجملة، **﴿إنّي تبت إليك وأنا أوّل المؤمنين﴾**.

١ ـ الاعراف، ١٤٥.

٢ ـ ثمّ إن ها هنا نقاط عديدة ينبغي التوقف عندها والإلتفات إليها:

١ ـ نزول الألواح على موسى

إنّ ظاهر الآية الحاضرة يفيد أن الله تعالى أنزل ألواحاً على موسى عليه السلام قد كتب فيها شرائع التوراة وقوانينها، لا أنّه كانت في يدي موسى عليه السلام ألواح ثمّ انتقشت فيها هذه التعاليم بأمر الله.

اليهود وعبادتهم للعجل

يقصّ القرآن الكريم إحدى الحوادث المؤسفة، وفي نفس الوقت العجيبة التي وقعت في بني إسرائيل بعد ذهاب موسى عليه السلام إلى ميقات ربّه، وهي قصّة عبادتهم للعجل التي تمّت على يد شخص يدعى «السامري» مستعيناً بحلي بني إسرائيل وما كان عندهم من آلات الزّينة.

إنّ السامري كان يعرف أن قوم موسى عليه السلام قد عانوا سنين عديدة من الحرمان، مضافاً إلى أنّهم كانت تغلب عليهم روح المادية ـ كما هو الحال في أجيالهم في العصر الحاضر ـ ويولون الحليّ والذهب احتراماً خاصّاً، لهذا صنع عجلاً من ذهب حتى يستقطب إليه إهتمام بني إسرائيل من عبيد الثروة.

أمّا أن هذا الشعب الفقير المحروم من أين كان له كل ذلك الذهب والفضة؟ فقد جاء في الرّوايات أن نساء بني إسرائيل كنّ قد استعرن من الفرعونيين كمية كبيرة من الحليّ والذهب والفضّة لإقامة أحد أعيادهن، ثمّ حدثت مسألة الغرق وهلاك آل فرعون، فبقيت تلك الحلي عند بني إسرائيل.

إنَّ هذه الحادثة مثل بقية الظواهر الإجتماعية لم تكن لتحدث من دون مقدمة وأرضيَّة، فبنوا إسرائيل من جهة قضوا سنين مديدة في مصر وشاهدوا كيف يعبد المصريون الأبقار أو العجول. ومن جانب آخر عندما عبروا النيل شاهدوا في الضفة الأُخرىٰ مشهداً من الوثنية،

ولكن ماذا كانت تلك الألواح، ومن أي مادة؟ إنّ القرآن لم يتعرض لذكر هذا الأمر، وإنما أشار إليها بصورة الإجمال وبلفظة «الألواح» فقط، وهذه الكلمة جمع «لوح»، وهي مشتّقة من مادة «لاح يلوح» بمعنى الظهور والسطوع، وحيث أنّ المواضيع تتّضح وتظهر بكتابتها على صفحة، تسمىٰ الصفحة لوحا. ولكن ثمّة احتمالات مختلفة في الرّوايات وأقوال المفسّرين حول كيفية وجنس هذه الألواح، وحيث إنّها ليست قطعية أعرضنا عن ذكرها والتعرض لها.

٢ ـ كيف كلّم الله موسى؟

يستفاد من الآيات القرآنية المتنوعة أنّ الله تعالى كلّم موسى عليه السلام، وكان تكليم الله لموسى عن طريق خلق أمواج صوتية في الفضاء أو في الأجسام، وربّما انبعثت هذه الأمواج الصوتية من خلال «شجرة الوادي الأيمن» وربّما من «جبل طور» وتبلغ مسمع موسى فما ذهب اليه البعض من أن هذه الآيات تدلّ على جسمانية الله تعالى جموداً على الألفاظ تصوُّر خاطىء بعيد عن الصواب.

حيث وجدوا قوماً يعبدون البقر، وكما مرّ عليك طلبوا من موسىعليه السلام صنماً كتلك الأصنام، ولكن موسىعليه السلام وبّخهم وردّهم، ولامهم بشدّة.

وثالث، تمديد مدّة ميقات موسىعليه السلام من ثلاثين إلى أربعين، الذي تسبب في أن تشيع في بني إسرائيل شائعة وفاة موسىعليه السلام بواسطة بعض المنافقين.

والأمر الرابع، جهل كثير من بني إسرائيل بمهارة السامريّ في تنفيذ خِطته المشؤومة، كل هذه الأُمور ساعدت على أن تُقبل أكثرية بني إسرائيل في مدّة قصيرة على الوثنية، ويلتفوا حول العجل الذي أوجده لهم السامريّ للعبادة.

٦٠٠ الف عابد العجل في يومين

والعجيب أنّ بعض المفسرين ذكروا أنّ هذا التبدّل والإنحراف في بني إسرائيل قد حدث في أيّام قليلة فحسب، فبعد أن مضت (٣٥) يوماً على ذهاب موسى عليه السلام إلى ميقات ربّه، شرع السامري بعمله، وطلب من بني إسرائيل أن يجمعوا كلّ أدوات الزينة التي أخذوها كعارية من الفراعنة وما أخذوه منهم بعد غرقهم، ووضعوها جميعاً في اليوم السادس والثلاثين والسابع والثلاثين والثامن والثلاثين في موقد النّار، وأذابوها ثمّ صنعوا منها تمثال العجل، وفي اليوم التاسع والثلاثين دعاهم السامري إلى عبادته، فقبلها جماعة عظيمة ـ وعلى بعض الرّوايات ستمائة ألف شخص ـ وفي اليوم التالي، أي في نهاية الأربعين يوماً، رجع موسى.

﴿واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلاً جسداً له خوار﴾[1].

ومع أنّ هذا العمل (أي صنع العجل من الحلي) صدر من السامريّ[2] إلّا أنّه مع ذلك نسب هذا العمل إلى بني إسرائيل لأنّ كثيراً منهم ساعد السامريّ في هذا العمل وعاضده، وبذلك كانوا شركاء في جريمته، في حين رضي بفعله جماعة أكبر منهم.

وظاهر هذه الآية وإن كان يفيد ـ في بدء النظر ـ أنّ جميع قوم موسى شاركوا في هذا العمل، إلّا أنّه بالتوجه إلى الآية التي تقول: **﴿ومن قوم موسى أُمّة يهدون بالحقّ وبه يعدلون﴾**[3] يستفاد أنّ المراد من الآية المبحوثة هنا ليس كلّهم، بل أكثرية عظيمة منهم سلكوا

١ ـ الاعراف، ١٤٨.

٢ ـ كما تشهد بذلك آيات سورة طه.

٣ ـ الاعراف، ١٥٩.

هذا السبيل، وذلك بشهادة الآيات القادمة التي تعكس عجز هارون عن مواجهتها وصرفها عن ذلك.

ردة فعل شديدة تجاه عبادة العجل

يبيّن تعالى بالتفصيل ما جرى بين موسى عليه السلام وبين عبدة العجل عند عودته من ميقاته، وردة فعل موسى عليه السلام الشديدة التي أدت إلى يقظة هذه الجماعة.

يقول في البدء: ولما عاد موسى عليه السلام إلى قومه غضبان ممّا صنع قومه من عبادة العجل، قال لهم: ضيعتم ديني وأسأتم الخلافة **﴿ولمّا رجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً قال بئسما خلفتموني من بعدي﴾**[1].

ومن هنا يستفاد بوضوح أن موسى عند رجوعه إلى قومه من الميقات وقبل أن يلتقي ببني إسرائيل كان غضبان أسفاً، وهذا لأجل أن الله تعالى كان قد أخبر موسى عليه السلام بأنّه اختبر قومه من بعده وقد أضلّهم السامريّ **﴿قال فإنّا قد فتنا قومك من بعدك وَأضلّهم السامريّ﴾**[2].

ثمّ إنّ موسى عليه السلام قال لهم: **﴿أعجلتم أمر ربّكم﴾**[3].

المراد هو أنّكم تعجلتم في الحكم بالنسبة إلى أمر الله تعالى في قضية تمديد مدّة الميقات من ثلاثين إلى أربعين، فاعتبرتم عدم مجيئي في المدة المقررة ـ أوّلاً ـ دليلاً على موتي، في حين كان يتعين عليكم أن تتريثوا وتنتظروا قليلاً ريثما تمرّ أيّام ثمّ تتّضح الحقيقة.

وفي هذا الوقت بالذات، أي عندما واجه موسى عليه السلام هذه الأزمة الخطيرة من حياة بني إسرائيل، وكان الغضب الشديد يسر بل كل كيانه، ويثقل روحه حزن عميق، وقلق شديد على مستقبل بني إسرائيل، لأنّ التخريب والإفساد أمر سهل، وربّما استطاع شخص واحد تخريب كيان عظيم ولكن الإصلاح والتعمير أمر صعب وعسير جدّاً. خاصّة أنّه إذا سرت في شعب جاهل متعنت نَغمة مخالفة شاذة، وافقت هوى ورغبة، فإنّ محوها لا شك لن يكون أمراً ممكناً وسهلاً.

---

١ ـ الاعراف، ١٥٠.
٢ ـ طه، ٨٥.
٣ ـ الاعراف، ١٥٠.

ثورة الغضب

فهنا لا بدّ أن يظهر موسى عليه السلام غضبه الشديد ويقوم بالحدّ الأعلى من ردّ الفعل والسخط، كي يوقظ الأفكار المخدَّرة لدى بني إسرائيل، ويوجد انقلاباً في ذلك المجتمع الذي انحرف عن الحق، إذ العودة إلى الحق والصواب عسيرة في غير هذه الصورة.

إنّ القرآن يستعرض ردّة فعل موسى الشديدة في قبال ذلك المشهد وفي تلك الأزمة، إذ يقول: إنّ موسى ألقى ألواح التوراة التي كانت بيده، وعمد إلى أخيه هارون وأخذ برأسه ولحيته وجرهما إلى ناحيته ساخطاً غاضباً ﴿والقىٰ الالواح و أخذ برأس أخيه يجرّه إليه﴾[1].

وأنّه علاوة على ذلك لام هارون بشدّة، وصاح به، لماذا قصّرتَ في المحافظة على عقائد بني إسرائيل وخالفت أمري.

وفي الحقيقة كان هذا الموقف يعكس ـ من جانب ـ حالة موسى عليه السلام النفسية، وانزعاجه الشديد تجاه وثنية بني إسرائيل وانحرافهم، ومن جانب آخر كان ذلك وسيلة مؤثرة لهزّ عقول بني إسرائيل الغافية، والفاتهم إلى بشاعة عملهم.

وبناء على هذا إذا كان إلقاء ألواح التوراة في هذا الموقف قبيحاً ـ فرضاً ـ وكان الهجوم على أخيه لا يبدو كونه عملاً صحيحاً، ولكن مع ملاحظة الحقيقة التالية، وهي أنّه من دون إظهار هذا الموقف الإنزعاجي الشديد لم يكن من الممكن إلفات نظر بني إسرائيل إلى بشاعة خطئهم... ولكان من الممكن أن تبقى رواسب الوثنية في أعماق نفوسهم وأفكارهم ... إنّ هذا العمل لم يكن فقط غير مذموم فحسب، بل كان يعد عملاً واجباً وضرورياً.

إنّ موسى عليه السلام انزعج في هذه اللحظة من تأريخ بني إسرائيل انزعاجاً شديداً لم يسبق له مثيل، لأنّه وجد نفسه أمام أسوأ المشاهد ألا وهو الإنحراف عن التوحيد إلى عبادة العجل، وكان يرى جميع آثارها وأخطارها المتوقعة.

وعلى هذا فإنّ إلقاء الألواح ومؤاخذة أخيه بشدّة في مثل هذه اللحظة مسألة طبيعية تماماً.

---

١ ـ الاعراف، ١٥٠.

يابن أمّ، لا ذنب لي

إنّ ردة الفعل الشديدة هذه وإظهار الغضب هذا، كان له أثر تربوي بالغ في بني إسرائيل، فقد قلب المشهد رأساً على عقبٍ في حين أنّ موسى لو كان يريد أن ينصحهم بالكلمات اللينة والمواعظ الهادئة، لكان قبولهم لكلامه ونصحه أقلّ بكثير.

ثمّ إنّ القرآن الكريم ذكر أنّ هارون قال ـ وهو يحاول استعطاف موسى وإثبات برائته في هذه المسألة ـ: يا ابن أمّ هذه الجماعة الجاهلة جعلوني ضعيفاً إلى درجة أنّهم كادوا يقتلونني، فإذن أنا بريء، فلا تفعل بي ما سيكون موجباً لشماتة الأعداء بي ولا تجعلني في صف هؤلاء الظالمين **﴿قال ابنَ أمّ إنّ القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني فلا تشمت بي الأعداء ولا تجعلني مع القوم الظالمين﴾**.

إن التعبير بـ: «ابن أمّ» مع أن موسى وهارون كانا من أب وأم واحدة، إنّما هو لأجل تحريك مشاعر الرحمة والعطف لدى موسى عليه السلام في هذه الحالة الساخنة.

وفي المآل تركت هذه القصّة أثرها، وسرعان ما التفت بنو إسرائيل إلى قبح أعمالهم، فاستغفروا الله وطلبوا العفو منه.

لقد هدأ غضب موسى عليه السلام بعض الشيء، وتوجه إلى الله **﴿قال ربّ اغفر لي ولأخي وادخلنا في رحمتك وأنت أرحم الراحمين﴾**[1].

إنّ طلب موسى عليه السلام العفو والمغفرة من الله تعالى لنفسه ولأخيه، لم يكن لذنب اقترفاه، بل كان نوعاً من الخضوع لله، والعودة إليه، وإظهار النفرة من أعمال الوثنيين القبيحة.[2]

---

١ ـ الاعراف، ١٥١ ـ ١٥٠.

٢ ـ مقاربة بين تواريخ القرآن والتوراة الحاضرة:

يستفاد من الآيات الحاضرة، أن بني إسرائيل هم الذين صنعوا العجل لا هارون، وأنّ شخصاً خاصاً في بني إسرائيل يدعى السامريّ هو الذي أقدم على مثل هذا العمل، ولكن هارون ـ أخا موسى ووزيره ومساعده ـ لم يكن يتفرج على هذا الأمر بل عارضه، ولم يأل جهداً في هذا السبيل، حتى أنّهم كادوا أن يقتلوه لمعارضته لهم.

ولكن العجيب أنّ التوراة الفعلية تنسب صنع العجل والدعوة إلى عبادته إلى هارون خليفة موسى عليه السلام ووزيره وأخيه، إذ نقرأ في الفصل ٣٢ من سفر الخروج من التوراة، مايلي:

كيف كان للعجل الذهبي خوار؟

إنّ السامري بسبب ما كان عنده من معلومات وضع أنابيب خاصّة في باطن صدر العجل الذهبي، كان يخرج منها هواء مضغوط فيصدر صوت من فم ذلك العجل الذهبيّ شبيه بصوت

«لما رأى الشعب أن موسى أبطأ في النّزول من الجبل، اجتمع الشعب على هارون وقالوا له: قم اصنع لنا آلهة تسير أمامنا. لأنّ هذا موسى الرجل الذي أصعدنا من أرض مصر لا نعلم ماذا أصابه. فقال لهم هارون: إنزعوا أقراط الذهب التي في آذان نسائكم وبنيكم وبناتكم وأتوني بها، فنزع كل الشعب أقراط الذهب التي في آذانهم وأتوا بها إلى هارون، فأخذ ذلك من أيديهم وصوّره بالإزميل وصنعه عجلاً مسبوكاً، فقالوا: هذه آلهتك يا إسرائيل التي أصعدتك من أرض مصر.

فلمّا نظر هارون بنى مذبحاً أمامه ونادى هارون وقال: غداً عيد للربّ (ثمّ بين مراسيم تقديم القرابين لهذا العمل)».

ثّم تشرح التوراة قصّة رجوع موسىٰ عليه السلام غاضباً إلىٰ بني إسرائيل وإلقاء التوراة، ثمّ تقول:

«وقال موسى لهارون: ماذا صنع بك هذا الشعب حتى جلبتَ عليه خطيّة عظيمةً؟!

فقال هارون: لا يحم غضب سيدي. أنت تعرف الشعب إنّه في شرّ».

إنّ ما ذكر هو قِسمٌ من قصة عبادة بني إسرائيل للعجل برواية التوراة الحاضرة بالنص، في حين أن التوراة نفسها تشير في فصول أُخرىٰ إلى سمّو مقام هارون وعلو منزلته، ومن ذلك التـصريح بأنّ بعض معاجز موسى قد ظهرت وتحققت على يدي هارون (الإصحاح الثامن من سفر الخروج من التوراة).

كما أنّها تصف هارون بأنّه نبي قد أعلن عن نبوته موسى (الإصحاح الثامن من سفر الخروج أيضاً).

وعلى كل حال، تعترف التوراة لهارون ـ الذي كان خليفة لموسى عليه السلام وعارفاً بتعاليم شريعته ـ بمنزلة سامية ... ولكن انظروا إلى الخرافة التي تصف بأنّه كان صانع العجل، ومن عوامل حصول الوثنية في بني إسرائيل، وحتى أنّه اعتذر لموسىٰ عليه السلام عليه بما هو أقبح من الذنب حيث قال: إنّهم كانوا يميلون إلى الشرّ أساساً وقد شجعتهم عليه.

في حين أنّ القرآن الكريم ينزه هذين القائدين من كل ألوان التلوّث بأدران الشرك والوثنية.

على أنّه ليس هذا المورد هو المورد الوحيد الذي ينزّه فيه القرآنُ الكريمُ ساحة الأنبياء والرسل، وتنسب التوراة الحاضرة أنواع الإهانات والخرافات إلى الأنبياء المطهرين. وفي اعتقادنا أنّ أحـد الطرق لمعرفة أصالة القرآن وتحريف التوراة والإنجيل الفعليين، هو هـذه المـقارنة بـين القـضايا التأريخية التي وردت في هذه الكتب حول الأنبياء والرسل.

البقر. ويقول آخرون: كان العجل قد وضع في مسير الريح بحيث كان يسمَع منه صوتٌ على أثر مرور الريح على فمه الذي كان مصنوعاً بِهيئة هندسية خاصّة.

ثمّ إنّ موسىٰ عليه السلام بدأ بمحاكمة السامري: لماذا فعلتَ ما فعلت، وما هدفك من ذلك؟: ﴿قال فما خطبك ياسامري﴾؟ فأجابه و ﴿قال بصرت بما لم يبصروا فقبضت قبضة من أثر الرّسول فنبذتها وكذلك سوّلت لي نفسي﴾ [1].

تُرى ما كان مقصود السامري من كلامه هذا؟! قولان مشهوران ...

الأوّل: إنّ مراده هو: إنّني رأيت جبرئيل على فرس، عند مجيء جيش فرعون إلى ساحل البحر، يرغّب ذلك الجيش في المسير في تلك الطرق اليابسة في البحر، وكان يسير أمامهم، فقبضت شيئاً من تراب قدمه، أو «مركبه» وأدّخرته لهذا اليوم، فألقيته داخل العجل الذهبي، وما هذا الصوت إلّا من أثر ذلك التراب الذي أخذته.

الثّاني: إنّني آمنت ـ بداية الأمر ـ بقسم من آثار الرّسول (موسى)، ثمّ شككت فيها فألقيتها بعيداً وملت إلى عبادة الأصنام، وكان هذا عندي أجمل وأحلى.

جزاء السّامري

من الواضح أنّ جواب السامري عن سؤال موسى عليه السلام لم يكن مقبولاً بأي وجه، ولذلك فإنّ موسى عليه السلام أصدر قرار الحكم في هذه المحكمة، وحكم بثلاثة أحكام عليه وعلى عجله، فأوّلاً: ﴿قال فاذهب فإنّ لك في الحياة أن تقول لامساس﴾ أي يجب عليك الإبتعاد عن الناس وعدم الإتّصال بهم إلى آخر العمر، فكلّما أراد شخص الإقتراب منك، فعليك أن تقول له: لا تتّصل بي ولا تقربني. وبهذا الحكم الحازم طرد السامري من المجتمع وجعله في عزلة تامّة. منزوياً بعيداً عنهم!

قال البعض: إنّ جملة ﴿لا مساس﴾ إشارة إلى أحد القوانين الجزائية في شريعة موسى عليه السلام التي كانت تصدر في حقّ من يرتكب جريمة كبيرة، وكان ذلك الفرد يبدو كموجود شرّير نجس قذر، فلا يقربه أحد ولا يقرب أحداً. فاضطرّ السامري بعد هذه الحادثة أن يخرج من جماعة بني إسرائيل ويترك دياره وأهله، ويتوارى في الصحراء، وهذا هو جزاء الإنسان الذي

---

١ ـ طه، ٩٦.

يطلب الجاه ويريد إغواء جماعة عظيمة من المجتمع ببدعه وأفكاره الضالّة، ويجمعهم حوله، ويجب أن يُحرم مثل هذا ويعزل، ولا يتّصل به أيّ شخص، فإنّ هذا الطرد وهذه العزلة أشدّ من الموت والإعدام على مثل السامري وأضرابه. لأنّه يعامل معاملة النجس الملوّث فيطرد من كلّ مكان.

وقال بعض: إنّ موسى دعا على السامري ولعنه بعد ثبوت جرمه وخطئه، فابتلاه الله بمرض غامض خفي جعله ما دام حيّاً لا يمكن لأحد أن يمسّه، وإذا مسّه فسيبتلى بالمرض. أو أنّ السامري قد أُبتلي بمرض نفسي ووسواس شديد، والخوف من كلّ إنسان، إذ كان بمجرّد أن يقترب منه أي إنسان يصرخ (لا تمسّني).

والعقاب الثّاني: إنّ موسى عليه السلام قد أسمعه وأعلمه بجزائه في القيامة فقال: ﴿وإنّ لك موعداً لن تخلفه﴾.

والثالث: ﴿وانظر إلى إلهك الذي ظلت عليه عاكفاً لنحرقنّه ثمّ لننسفنّه في اليمّ نسفاً﴾ [٢١].

ذنب عظيم وتوبة فريدة

لقد فعلت ردة فعل موسى عليه السلام الشديدة فعلتها في المآل فقد ندم عَبَدة العجل الإسرائيليون

---

١ ـ طه، ٩٧.

٢ ـ من هو السامري؟

إنّ أصل لفظ (سامري) في اللغة العبرية (شمري) ولمّا كان المعتاد أن يبدّل حرف الشين إلى السين عند تعريب الألفاظ العبرية كما في تبديل «موشى» إلى «موسى»، و «يشوع» إلى «يسوع»، نفهم من ذلك أنّ السامري كان منسوباً إلى «شمرون»، وشمرون هو ابن يشاكر النسل الرّابع ليعقوب.

ومن هنا يتّضح أنّ إعتراض بعض المسيحيين على القرآن المجيد ـ بأنّ القرآن قد عرّف شخصاً كان يعيش في زمان موسى وأصبح زعيماً ومروّجاً لعبادة العجل باسم السامري المنسوب إلى «السامرة»، في حين أنّ السامرة لم يكن لها وجود أصلاً في ذلك الزمان ـ لا أساس له، لأنّه كما قلنا منسوب إلى شمرون لا السامرة.

على كلّ حال، فإنّ السامري كان رجلاً أنانياً منحرفاً وذكيّاً في الوقت نفسه، حيث إستطاع أن يستغلّ نقاط ضعف بني إسرائيل وأن يوجد ـ بجرأة ومهارة خاصّة ـ تلك الفتنة العظيمة التي سبّبت ميل الأغلبية الساحقة إلى عبادة الأصنام، وكذلك رأينا أيضاً أنّه لاقى جزاء هذه الأنانيّة والفتنة في هذه الدنيا.

ـ وهم أكثرية القوم ـ على فعلهم، ومن أجل أن لا يُتصور أن مجرّد الندم من مثل هذه المعصية العظيمة يكفي للتوبة، يضيف القرآن الكريم قائلاً: ﴿**إنّ الذين اتّخذوا العجل سينالهم غضبٌ من ربّهم وذلّة في الحياة الدنيا**﴾[1].

أمّا أنّ هذا الغضب ما هو؟ وهذه الذّلة ما هي؟ فالقرآن لم يصرح بشيء عنهما، وإنّما اكتفى بإشارة مجملة، ولكن يمكن أن تكون إشارة إلى الشقاء والمصائب والمشكلات التي ابتلوا بها بعد هذه الحادثة وقبل دخولهم الارض المقدسة.

أو أنّه إشارة إلى مهمّة قتل بعضهم بعضاً العجيبة التي كُلّفوا بها كجزاء وعقوبة لمثل ذلك الذنب العظيم.

يشير القرآن إلى طريقة التوبة المطروحة علىٰ بني إسرائيل: ﴿**وَإِذْ قَالَ مُوسىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ، فَتُوبُوا إِلىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ، فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ**﴾[2].

لا شك أن عبادة عجل السامري لم تكن مسألة هينة، لأن بني إسرائيل شاهدوا ما شاهدوا من آيات الله ومعجزات نبيّهم موسى عليه السلام، ثم نسوا ذلك دفعة، وخلال فترة قصيرة من غياب النّبي إنحرفوا تماماً عن مبدأ التوحيد وعن الدين الإلٓهي.

كان لابدّ من اقتلاع جذور هذه الظاهرة الخطرة، كي لا تعود إلى الظهور ثانية خاصة بعد وفاة صاحب الرسالة.

الاعدام الجماعي

كانت الأوامر الإلٓهية بالتوبة شديدة لم يسبق لها نظير في تاريخ الأنبياء، وتقضي هذه الأوامر أن تقترن التوبة بإعدام جماعي لعدد كبير من المذنبين، علىٰ أيديهم أنفسهم.

طريقة تنفيذ هذا الإعدام لا تقل شدة عن الإعدام نفسه، فقد صدرت الأوامر الإلٓهية أن يقتل المذنبون بعضهم بعضاً، وفي ذلك عذابان للمذنب: عذاب قتل الأصدقاء والمعارف علىٰ يديه، وما ينزل به ـ هو نفسه ـ من عذاب القتل.

---

١ ـ الاعراف، ١٥٢.

٢ ـ البقرة، ٥٤.

وجاء في الأخبار أن موسى أمر في ليلة ظلماء كل الجانحين إلى عبادة العجل، أن يغتسلوا ويرتدوا الأكفان ويعملوا السيف بعضهم في البعض الآخر.

ولعلك تسأل عن السبب في قساوة هذه التوبة ولماذا لم يقبل الله تعالى منهم التوبة دون إراقة للدماء؟

الجواب: إن السبب في شدّة هذا الحكم يعود إلى عظمة الذنب الذي إرتكبوه بعد كل ما شاهدوه من آيات ومعاجز، وإلى أن هذا الذنب يهدّد وجود الدعوة ومستقبلها لإن أُصول ومبادئ جميع الأديان السماوية يمكن إختزالها في التوحيد، فلو تزلزل هذا الأصل فإن ذلك يعني إنهيار جميع اللبنات الفوقية والمباني الحضارية للدين، فلو تساهل موسى عليه السلام مع ظاهرة عبادة العجل، لأمكن أن تبقىٰ سُنّة في الأجيال القادمة، خاصة وأن بني إسرائيل كانوا علىٰ مرّ التاريخ قوماً متعنتين لجوجين.

ولابدّ إذن من عقاب صارم يبقى رادعاً للأجيال التالية عن السقوط في هاوية الشرك.

خذوا ما آتيناكم بقوّة

نقل الطبرسي عن أبي زيد: أنّه حين رجع موسى من الطور، أتى بالألواح، قال لقومه: جئتكم بالألواح وفيها التوراة والحلال والحرام فاعملوا بها. قالوا: ومن يقبل قولك؟! فأرسل الله عزّ وجلّ الملائكة حتى نتقوا (رفعوا) الجبل فوق رؤوسهم، فقال موسى عليه السلام: إن قبلتم ما آتيتكم به وإلّا أرسلوا الجبل عليكم، فأخذوا التوراة وسجدوا لله تعالى ملاحظين الجبل (أي وهم ينظرون إلى الجبل من طرف خفي).

وجمع من المفسرين يذهبون إلى أن جبل الطور رفع فوق رؤوس بني إسرائيل بأمر الله لايجاد الظل عليهم، وهناك من يقول إن زلزالاً شديداً ضرب الجبل، بحيث كان يرى بنو إسرائيل ظل قمة الجبل علىٰ رؤوسهم من شدة الإهتزاز، وترقبوا أن يسقط الجبل عليهم، لكن الزلزال هدأ بفضل الله واستقرّ الجبل.

ويحتمل أيضاً أن تكون قد انفصلت من الجبل صخرة عظيمة بأمر الله علىٰ أثر زلزال شديد أو صاعقة، ومرّت فوق رؤوسهم في لحظات، فرأوها وتصوروا أنها ستسقط عليهم.[1]

---

١ ـ مسألة رفع الجبل فوق بني إسرائيل لتهديدهم عند أخذ الميثاق تثير سؤالاً بشأن إمكان تحقيق

فلنقرأ تفصيل القصّة في القرآن الكريم ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾[1]. مواد هذا الميثاق عبارة عن: توحيد الله، والإحسان إلى الوالدين والأقربين واليتامى والمساكين، والقول الصالح، وإقامة الصلاة، وأداء الزكاة، واجتناب سفك الدماء. هذه المواد وردت في التّوراة كذلك.

جبل الطّور

اختلف المفسرون في المقصود من جبل «الطّور»، منهم من قال: إنه نفس الجبل الذي أُوحي فيه إلى موسى. وقال آخرون: إنه اسم جنس بمعنىٰ مطلق «الجبل» لا جبل بعينه. وجاء تعبير (الجبل) بدل كلمة الطور في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ﴾[2].

التوراة

«التوراة» لفظة عبرية تعني «الشريعة والقانون»، وأُطلقت على الكتاب الذي أنزل الله على موسى بن عمرانعليه السلام. وقد تطلق أيضاً على مجموعة كتب العهد القديم أو أسفاره الخمسة.

إنّ مجموعة كتب العهد القديم تتألّف من التوراة وعدد من الكتب الأُخرى. والتوراة تتألّف

الإلتزام عن طريق التخويف والإرهاب.

هناك من قال: إن رفع الجبل فوقهم لا ينطوي علىٰ إرهاب وتخويف أو إكراه، لأن أخذ الميثاق بالإكراه لا قيمة له.

والأصح أن نقول: لا مانع من إرغام الأفراد المعاندين المتمردين علىٰ الرضوخ للحق بالقوّة. وهذ الإرغام مؤقت هدفه كسر أنفتهم وعنادهم وغرورهم، ومن ثم دفعهم للفكر الصحيح، كي يؤدوا واجباتهم بعد ذلك عن إرادة وإختيار.

علىٰ أي حال، هذا الميثاق يرتبط بالمسائل العملية، لا بالجانب الإعتقادي، فالمعتقدات لا يمكن تغييرها بالإكراه.

١ ـ البقرة، ٦٤ ـ ٦٣.

٢ ـ الاعراف، ١٧١.

من خمسة أقسام، كلّ قسم يسمّى «سفراً» وهي: «سفر التكوين» و«سفر الخروج» و «سفر لاوي» و «سفر الاعداد» و «سفر التثنية». هذه الأقسام من العهد القديم تشرح تكوين العالم والإنسان والمخلوقات وبعضاً من سير الأنبياء السابقين وموسىٰ بن عمران وبني إسرائيل والأحكام.

أمّا الكتب الأُخرى فهي ما كتبه المؤرّخون بعد موسىٰعليه السلام في شرح أحوال الأنبياء والملوك والأقوام التي جاءت بعد موسى بن عمرانعليه السلام.

بديهيّ أنّ هذه الكتب ـ عدا الأسفار الخمسة ـ ليست كتباً سماوية واليهود أنفسهم لا يدّعون ذلك. وحتّى «زبور» داود الذي يطلقون عليه اسم «المزامير» هو شرح مناجاة داود ومواعظه.

أمّا أسفار التوراة الخمسة ففيها دلائل تشير إلى أنّها ليست من الكتب السماوية، بل هي كتب تاريخية دوّنت بعد موسى بن عمرانعليه السلام، إذ فيها بيان موت موسىعليه السلام ومراسيم دفنه، وبعض الحوادث التي وقعت بعده، على الأخصّ الفصل الأخير من سفر التثنية الذي يثبت أنّ هذا الكتاب قد كتب بعد موت موسىعليه السلام.

يضاف إلى ذلك أنّ في هذه الكتب الكثير من الخرافات وهي تنسب أُموراً فاضحة للأنبياء، وبعض الأقوال الصبيانية، ممّا يؤكّد زيف هذه الكتب. والشواهد التاريخية تؤكّد أنّ التوراة الأصلية قد ضاعت، وأنّ أتباع موسىٰ هم الذين كتبوا هذه الكتب بعده.

الخضر عليه السلام

في حديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله، أنّه قال: «إنّ موسىٰ عليه السلام قام خطيباً في بني إسرائيل، فسئل أي الناس أعلم؟ قال: أنا.

فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه. فأوحىٰ إليه: إنَّ لي عبداً بمجمع البحرين هو أعلم مِنك.

قال موسىٰ: يا ربّ فكيف لي به؟

قال: تأخذ معك حوتاً...» إلخ الرّواية حيثُ أرشد تعالىٰ نبيّه موسىٰ للوصول إلىٰ الرجل العالم.

إنَّ مفاد هذه الواقعة هو تحذير لموسىٰ عليه السلام حتىٰ لا يعتبر نفسه ـ برغم علمه ومعرفته ـ أفضل الأشخاص [١].

---

١ ـ ولكن هنا يثار هذا السؤال: ألا يجب أن يكون النّبي ـ وهو هنا مِن أولي العزم وصاحب رسالة ـ أعلم أهل زمانه؟

في معرض الجواب نقول: نعم، ينبغي أن يكون أعلم فيما يتعلق بمهمّته، يعني الأعلم بالنظام التشريعي، وموسىٰ عليه السلام كان كذلك. أمّا الرجل العالِم (الخضر) فهو كما قلنا سابقاً، كانت لهُ مهمّة تختلف عن مهمّة موسىٰ عليه السلام ولا ترتبط بعالم التشريع. بعبارة أُخرىٰ: إنَّ الرجل العالم كان يعرف مِن الأسرار ما لا تعتمد عليه دعوة النّبوة.

وفي حديث جاء عن الإمام الصادق عليه السلام: «كان موسىٰ أعلم مِن الخضر» أي أعلم مِنهُ في علم الشرع.

وهنا نلاحظ أنَّ هذه الشبهة وقضية نسيان موسىٰ عليه السلام هما اللتان دفعتا البعض إلىٰ القول أنَّ موسىٰ المذكور في القصة ليسَ هو موسىٰ بن عمران، بل هو شخص آخر. لكن مع حل هاتين المشكلتين لا

إِنَّ قصّة موسىٰ والخضر لها أبعاد عجيبة أُخرىٰ. ففي القصّة يُواجهنا مشهد عجيب نرىٰ فيه نبيّاً مِن أولي العزم بكل وعيه ومكانته في زمانه يعيش محدودية في علمه ومعرفته مِن بعض النواحي، وهو لذلك يذهب إلىٰ معلّم (هو عالم زمانه) ليدرس ويتعلم علىٰ يديه، ونرىٰ أنَّ المعلم يقوم بتعليمه دروساً يكون الواحد مِنها أعجب مِن الآخر. ثمّ إنَّ هذه القصّة تنطوي علىٰ ملاحظات مهمّة جدّاً.

موسىٰ باحثاً عن الخضر

إن موسىٰعليه السلام كان يبحث عن شيءٍ مهم وقد أقام عزمه ورسّخ تصميمه للعثور علىٰ مقصوده وعدم التهاون في ذلك إطلاقاً.

إنّ الشيء الذي كان موسىٰعليه السلام مأموراً بالبحث عنه لهُ أثرٌ كبير في مستقبله، وبالعثور عليه سوف يفتتح فصلٌ جديدٌ في حياته.

نعم، إِنَّهُعليه السلام كان يبحث عن عالم يزيل الحجب مِن أمام عينيه ويُريه حقائق جديدة، ويفتح أباب العلوم أمامه، وسنعرف سريعاً أنَّ موسىٰعليه السلام كان يملك علامة للعثور علىٰ محل هذا العالم الكبير، وكانَعليه السلام يتحرك باتجاه تلك العلامة. يقول القرآن الكريم في هذا المجال:

﴿إذ قال موسىٰ لفتٰه لا أبرح حتّىٰ أبلغ مجمع البحرين أو أمضي حقباً﴾ [1].

المعنيّ مِن (فتاه) هو يوشع بن نون، الرجل الشجاع الرشيد المؤمن مِن بني إِسرائيل.

و **(مجمع البحرين)** بمعنىٰ محل التقاء البحرين، وهناك كلام عن اسم هـذين البـحرين، ولكن ـ بشكلٍ عام ـ يمكن إِجمال الحديث بثلاثة إِحتمالات والاقرب منها:

أنّ المقصود بمجمع البحرين هو محل اتصال **«خليج العقبة»** مع **«خليج السويس»** (إِذ المعروف أنَّ البحر الأحمر يتفرع شمالاً إِلىٰ فرعين: فرع نحو الشمال الشرقي حيث يشكّل خليج العقبة، والثّاني نحو الشمال الغربي ويسمىٰ خليج السويس، وهذان الخليجان يرتبطان جنوباً ويتصلان بالبحر الأحمر).

يبقىٰ مجال لهذا الكلام.

وفي حديث عن الإِمام علي بن موسىٰ الرضاعليه السلام نرىٰ إِشارة صريحة إِلىٰ أن مهمّة ووظيفة كلّ مِن موسىٰ والخضر كانت تختلف عن الآخر.

١ ـ الكهف، ٦٠.

و هذا هو الأقرب مِن حيث قربه إلىٰ مكان موسىٰ عليه السلام. وما يرجح هذا الرأي هو ما نستفيده مِن القرآن ـ بشكلٍ عام ـ مِن أنَّ موسىٰ عليه السلام لم يسلك طريقاً طويلاً بالرغم مِن أنَّهُ كان مستعداً للسفر إلىٰ أي مكان لأجل الوصول إلىٰ مقصوده.

سنوات بحثاً عن الخضر

كلمة «حقب» في كلام موسىٰ عليه السلام تعني المدّة الطويلة والتي فسَّرها البعض بثمانين عاماً، وغرض موسىٰ عليه السلام مِن هذه الكلمة، هو أنّني سوف لا أترك الجهد والمحاولة للعثور علىٰ ما ضيعتهُ ولو أدّىٰ ذلك أن أسير عِدَّة سنين.

﴿**فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما**﴾ أي السمكّة التي كانت معهما، أمّا العجيب في الأمر: ﴿**فاتّخذ سبيله في البحر سرباً**﴾.

وهناك كلام كثير عن نوعية السمك الذي كان معداً للغذاء ظاهراً هل كانت سمكّة مشوية، أو مملّحة أو سمكة طازجة حيث بعثت فيها الحياة بشكل اعجازي وقفزت الىٰ الماء وغاصت فيه.

في بعض كتب التّفسير نرىٰ أنَّ هُناك حديثاً عن عينٍ تهب الحياة، وأنّ السمكة عندما أصابها مقدار مِن ماء تلك العين عادت إليها الحياة.

وهناك احتمال آخر وهو أن السمكة كانت حيَّة، بمعنىٰ أنّها لم تكن قد ماتت بالكامل، حيث يوجد بعض أنواع السمك يبقى علىٰ قيد الحياة فترة بعد إخراجه مِن الماء، ويعود إلىٰ الحياة الكاملة إذا أعيد في هذه الفترة إلىٰ الماء.

وفي تتمة القصّة، نقرأ أنَّ موسىٰ وصاحبه بعد أن جاوزا مجمع البحرين شعرا بالجوع، وفي هذه الأثناء تذكَّر موسىٰ عليه السلام أنَّهُ قد جلب معهُ طعاماً، وعند ذلك قالَ لصاحبه: ﴿**آتنا غدائنا لقد لقينا مِن سفرنا هذا نصباً * قالَ أرأيت إذ أوينا إلىٰ الصخرة فإنّي نسيت الحوت وما أنسانيه إلّا الشيطان أن أذكره واتّخذ سبيلهُ في البحر عجباً**﴾.

ولأنَّ هذا الحادث والموضوع ـ بشكلٍ عام ـ كان علامة لموسىٰ عليه السلام، لكي يصل مِن خلاله إلىٰ موقع (العالم) الذي خرجَ يبحث عنهُ، لذا ﴿**قال ذلك ما كُنّا نبغي**﴾.

وهُنا رجعا في نفس الطريق: ﴿**فارتدّا علىٰ آثارهما قصصاً**﴾ [1].

---

١ ـ الكهف، ٦٤ ـ ٦٢.

لقاء المعلم الكبير

عندما رجع موسىٰ عليه السلام وصاحبه إلىٰ المكان الأوّل، أي قرب الصخرة وقرب (مجمع البحرين)، فجأة: **﴿فوجدا عبداً مِن عبادنا آتيناهُ رحمة مِن عندنا وعلمناه مِن لدنا علماً﴾**.

في هذه الأثناء قالَ موسىٰ للرجل العالِم باستفهام وبأدبٍ كبير: **﴿هل اتبعك علىٰ أن تعلمن مما علمت رُشداً﴾**.

في معرض الجواب نرىٰ أنَّ الرجل العالِم مع كامل العجب لموسىٰ عليه السلام **﴿قالَ إنّك لن تستطيع معي صبراً﴾**.

ثمّ بيَّن سبب ذلك مُباشرة وقال: **﴿وكيف تصبر علىٰ ما لم تحط بهِ خبراً﴾**.

وكما سنرىٰ فيما بعد، فإنَّ هذا الرجل العالم كانَ يُحيط بأبواب مِن العلوم التي تخص أسرار وبواطن الأحداث، في حين أنَّ موسىٰ عليه السلام لم يكن مأموراً بمعرفة البواطن، وبالتالي لم يكن يعرف عنها الكثير، وفي مثل هذه الموارد يحدث كثيراً أن يكون ظاهر الحوادث يختلف تمام الاختلاف عن باطنها، فقد يكون الظاهر قبيحاً أو غير هادف في حين أنَّ الباطن مفيد ومقدَّس وهادف لأقصىٰ غاية.

في مثل هذه الحالة يفقد الشخص الذي ينظر إلىٰ الظاهر صبره وتماسُكهُ فيقوم بالإعتراض وحتىٰ بالتشاجر.

ولكن الأستاذ العالِم والخبير بالأسرار بقي ينظر إلىٰ بواطن الأعمال، واستمر بعملهِ ببرود، ولم يعر أي أهمية إلىٰ اعتراضات موسىٰ وصيحاته، بل كان في انتظار الفرصة المناسبة ليكشف عن حقيقة الأمر، إلَّا أنَّ التلميذ كانَ مستمراً في الإلحاح، ولكنَّهُ ندمَ حين توضحت وانكشفت لهُ الأسرار.

وقد يكون موسىٰ عليه السلام اضطرب عندما سمعَ هذا الكلام وخشي أن يُحرم مِن فيض هذا العالم الكبير، لذا فقد تعهد بأن يصبر علىٰ جميع الحوادث و**﴿قال ستجدني إن شاءَ اللَّهُ صابراً ولا أعصي لك أمراً﴾**.

مرّة أُخرىٰ كشف موسىٰ عليه السلام عن قمة أدبه في هذه العبارة، فقد اعتمد علىٰ خالقه حيث لم يقل للرجل العالم: إنّي صابر، بل قال: إن شاء الله ستجدني صابراً.

ولأنَّ الصبر علىٰ حوادث غريبة وسيئة في الظاهر والتي لا يعرف الإنسان أسرارها، ليسَ بالامرالهيّن، لذا فقد طلب الرجل العالم مِن موسىٰ عليه السلام أن يتعهد لهُ مرّة أُخرىٰ، وحذّره: **﴿قال فإن اتبعتني فلا تسئلني عن شيء حتىٰ أحدث لك مِنهُ ذِكراً﴾**[1]. وقد أعطىٰ موسىٰ العهد مجدداً وانطلق مع العالم الأستاذ.

المعلم الإلهي والأفعال المنكرة!!

نعم، لقد ذهب موسىٰ وصاحبهُ وركبا السفينة: **﴿فانطلقا حتىٰ إذا ركبا في السفينة﴾**.

عندما ركبا السفينة قام العالم بثقبها: «**خرقها**».

وبحكم كَوْن موسي عليه السلام نبيّاً إلهياً كبيراً فقد كان مِن جانب يرىٰ أن من واجبه الحفاظ علىٰ أرواح وأموال الناس، وأن يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر، ومِن جانبٍ آخر كان وجدانه الإنساني يضغط عليه ولا يدعهُ يسكت أمام أعمال الرجل العالِم التي يبدو ظاهرها سيئاً قبيحاً، لذا فقد نسيَ العهد الذي قطعهُ للخضر (العالم) فاعترض و **﴿قال أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئاً إمراً﴾**.

وحقاً، لقد كان ظاهر عمل الرجل العالِم عجيباً وسيئاً للغاية، فهل هُناك عمل أخطر مِن أن يثقب شخص سفينة تحمل عدداً مِن المسافرين!

وفي بعض الرّوايات نقرأ أنَّ أهل السفينة انتبهوا إلىٰ الخطر بسرعة وقاموا بإصلاح الثقب (الخرق) مؤقتاً، ولكن السفينة أصبحت بعد ذلك معيبة وغير سالمة.

وفي هذه الأثناء نظر الرجل العالِم إلىٰ موسىٰ عليه السلام نظرة خاصّة وخاطبه: **﴿قال ألم أقل إنّك لن تستطيع معي صبراً﴾**.

أمّا موسىٰ الذي ندم علىٰ استعجاله، بسبب أهمية الحادثة، فقد تذكّر عهده الذي قطعه لهذا العالِم الأستاذ، لذا فقد التفت إليه قائلاً: **﴿قَال لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني مِن أمري عسراً﴾**[2]. يعني لقد اخطئت ونسيت الوعد فلا تؤاخذني بهذا الإشتباه.

---

١ ـ الكهف، ٧٠ ـ ٦٥.

٢ ـ الكهف، ٧٣ ـ ٧١.

أقتلت نفساً زكيّة ؟

لقد انتهت سفرتهم البحرية وترجلوا مِن السفينة: ﴿فآنطلقا حتىٰ إذا لقيا غلاماً فقتله﴾، وقد تمَّ ذلك بدون أي مقدمات!

وهنا ثار موسىٰ عليه السلام مرّة أُخرىٰ حيث لم يستطع السكوت علىٰ قتل طفلٍ بريء بدون أي سبب، وظهرت آثار الغضب علىٰ وجههِ وملأ الحزن وعدم الرضا عينيه ونسي وعده مرّةً أُخرىٰ، فقام للإعتراض، وكان اعتراضه هذه المرَّة أشد مِن اعتراضه في المرّة الأُولىٰ، لأنَّ الحادثة هذه المرَّة كانت موحشة أكثر من الأُولىٰ، فقال عليه السلام: ﴿أقتلت نفساً زكيةً بغير نفس﴾. أي إنّك قتلت انساناً بريئاً من دون أن يرتكب جريمة قتل، ﴿لقد جئت شيئاً نكراً﴾ [1].

ومرّة أُخرىٰ كرَّر العالم الكبير جملته السابقة التي اتسمت ببرودٍ خاص، حيث قالَ لموسىٰ عليه السلام: ﴿أَلم أقل لك إنّك لن تستطيع معي صبراً﴾.

تذكر موسىٰ تعهده فانتبه إلىٰ ذلك وهو خجل، حيث أخلَّ بالعهد مرَّتين ـ ولو بسبب النسيان ـ وبدأ تدريجياً يشعر بصدق عبارة الأستاذ في أنَّ موسىٰ لا يستطيع تحمّل أعماله، لذا فلا يطيق رفقته كما قالَ لهُ عندما عرض عليه موسىٰ الرفقة، لذا فقد بادر الىٰ الاعتذار وقال: إذا اعترضت عليك مرّة أُخرىٰ فلا تصاحبني وأنت في حلٍ منّي: ﴿إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت مِن لدني عذراً﴾ [2]. صيغة العذر هنا تدل علىٰ انصاف موسىٰ عليه السلام ورؤيته البعيدة للأُمور، وتبيّن أنَّهُ عليه السلام كانَ يستسلم للحقائق ولو كانت مرّة؛ بعبارة أُخرىٰ: إنّ الجملة توضح وبعد ثلاث مراحل للإختبار أنَّ مهمّة هذين الرجلين كانت مُختلفة.

لو شئت لاتخذت عليه أجراً

بعد هذا الكلام والعهد الجديد: ﴿فانطلقا حتىٰ إذا أتيا أهل قريةٍ استطعما أهلها فأبوا أن

---

١ ـ ثمّة كلام كثير عن الغلام المقتول، وفيما إذا كان بالغاً أم لا، فالبعض استدل بعبارة ﴿نفساً زكية﴾ علىٰ أنَّ الفتىٰ لم يكن بالغاً.

والبعض الآخر اعتبر عبارة ﴿بغير نفس﴾ دليلاً علىٰ أنَّ الفتىٰ كانَ بالغاً، ذلك لأنَّ القصاص يجوز بحق البالغ فقط، ولكن لا يمكن القطع في هذا المجال بالنسبة لنفس الآية.

٢ ـ الكهف، ٧٤ ـ ٧٦.

يضيفوهما﴾. لا ريب، إنَّ موسىٰ وصاحبه لم يكونا ممّن يلقي بكلّه علىٰ الناس ولكن يتّضح أنَّ زادهم وأموالهم قد نفدت في تلك السفرة، لذا فقد رغبا أن يضيفهما أهل تلك المدينة (ويحتمل أنَّ الرجل العالم تعمد طرح هذا الإقتراح كي يعطي موسىٰ درساً بليغاً آخر).[1]

وذكر المفسّرون نقلاً عن ابن عباس أنَّ المقصود بهذه المدينة، هو (**أنطاكية**)[2].

وذكر آخرون: إنَّ المقصود مِنها هو مدينة «أيلة» التي تسمىٰ اليوم ميناء (**أيلات**) المعروف والذي يقع علىٰ البحر الأحمر قرب خليج العقبة. أمّا البعض الثّالث فيرىٰ بأنّها مدينة (**الناصرة**) الواقعة شمال فلسطين، وهي محل ولادة السيّد المسيح عليه السلام. وقد نقل العلّامة الطبرسي حديثاً عن الإمام الصادق عليه السلام يدعم صحة هذا الإحتمال.

ورجوعاً إلىٰ ما قلناه في المقصود مِن (مجمع البحرين) إذ قلنا: إنَّهُ كناية عن محل التقاء خليج العقبة وخليج السويس، يتّضح أنَّ مدينة (**الناصرة**) أو ميناء (**أيلة**) أقرب إلىٰ هذا المكان من انطاكية.

المهم في الأمر، أنّنا نستنتج مِن خلال ما جرىٰ لموسىٰ عليه السلام وصاحبه مِن أهل هذه المدينة أنّهم كانوا لئاماً دنيئي الهمّة، لذا نقرأ في رواية عن رسول الله صلى الله عليه وآله قوله في وصف أهل هذه المدينة: «**كانوا أهل قريةٍ لئام**».

ثمّ يضيف القرآن: ﴿**فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض فأقامه**﴾ وقد كان موسىٰ عليه السلام يشعر بالتعب والجوع، والأهم مِن ذلك أنَّهُ كان يشعر بأنَّ كرامته وكرامة أستاذه قد أهينت مِن أهل هذه القرية التي أبت أن نضيفهما؛ ومِن جانب آخر شاهد كيف أنَّ الخضر قام بترميم الجدار بالرغم مِن سلوك أهل القرية القبيح إزاءهما، وكأنَّهُ بذلك أراد أن يجازي أهل القرية بفعالهم السيئة؛ وكان موسىٰ يعتقد بأنّ على صاحبه أن يُطالب بالأجر علىٰ هذا العمل حتىٰ يستطيعا أن يُعدّا طعاماً لهما.

---

١ ـ ويجب أن نلتفت إلىٰ أنَّ (قرية) في لغة القرآن تنطوي علىٰ مفهوم عام، وتشمل المناطق السكنية في الريف والمدينة، أمّا المقصود مِنها في الآية فهو المدينة لا القرية، كما تصرح بعد ذلك الآيات اللاحقة.

٢ ـ أنطاكية مِن المدن السورية القديمة التي تقع علىٰ بعد (٩٦) كم مِن حلب، و(٥٩) كم عن الإسكندرونة، تشتهر المدينة بالحبوب الغذائية، والحبوب الدهنية، فيها ميناء يسمىٰ «سويدية» ويبعد عن مركزها (٢٧) كيلومتر.

لذا فقد نسي موسىٰ عليه السلام عهده مرّة أُخرىٰ وبدأ بالإعتراض، إلّا أنَّ اعتراضه هذه المرَّة بدا خفيفاً فقال: ﴿قال لو شئت لاتّخذت عليه أجراً﴾[1].

وفي الواقع فإنَّ موسىٰ يعتقد بأنَّ قيام الإنسان بالتضحية في سبيل أناس سيئين عمل مجافٍ لروح العدالة؛ بعبارة أُخرىٰ: إنَّ الجميل جيِّد وحسن، بشرط أن يكون في محلّه.

صحيح أنَّ الجزاء الجميل في مقابل العمل القبيح هو مِن صفات الناس الإلهيين، إلّا أنَّ ذلك ينبغي أن لا يكون سبباً في دفع المسيئين للقيام بالمزيد مِن الأعمال السيئة.

أصعب مرحلة في حياة موسىٰ

وهنا قالَ الرجل العالم كلامه الأخير لموسىٰ، بأنّك ومِن خلال حوادث مُختلفة، لا تستطيع معي صبراً، لذلك قرَّر العالم قراره الأخير: ﴿قال هذا فراق بيني وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً﴾[2].

موسىٰ عليه السلام لم يعترض علىٰ القرار ـ طبعاً ـ لأنَّهُ هو الذي كان قد اقترحهُ عندَ وقوع الحادثة السابقة، وهكذا ثبت لموسىٰ أنَّهُ لا يستطيع الإستمرار مع هذا الرجل العالم. ولكن برغم كل ذلك، فإنَّ خبر الفراق قد نزل بوقعٍ شديد علىٰ قلب موسىٰ عليه السلام، إذ يعني فراق أستاذٍ قلبه مملوء بالأسرار، ومفارقة صُحبة مليئة بالبركة، إذ كان كلام الأستاذ دَرساً، وتعاملهُ يتسّم بالإلهام؛ نور الله يشع مِن جبينه، وقلبه مخزن للعلم الإلهي.

إنّ مفارقة رجل بهذه الخصائص أمرٌ صعب للغاية، لكن علىٰ موسىٰ عليه السلام أن ينصاع لهذه الحقيقة المُرَّة.

ورد في الخبر، أنَّ موسىٰ عليه السلام عندما سُئِلَ عن أصعب ما لاقىٰ مِن مُشكلات في طول حياته، أجاب قائلاً: لقد واجهت الكثير مِن المشاكل والصعوبات (إشارة إلىٰ ما لاقاه عليه السلام مِن فرعون، وما عاناه مِن بني إسرائيل) ولكن لم يكن أيّاً مِنها أصعب وأكثر ألماً علىٰ قلبي مِن قرار الخضر في فراقي إيّاه».

---

١ ـ الكهف، ٧٧.

٢ ـ الكهف، ٧٨.

الأسرار الداخلية لهذه الحوادث

بعد أن أصبح الفراق بين موسىٰ والخضر عليهما السلام أمراً حتمياً، كانَ مِن اللازم أن يقوم الأستاذ الإلهي بتوضيح أسرار أعماله التي لم يستطع موسىٰ أن يصبر عليها، وفي الواقع فإنَّ استفادة موسىٰ مِن صُحبته تتمثل في معرفة أسرار هذه الحوادث الثلاثة العجيبة، والتي يمكن أن تكون مفتاحاً للعديد مِن المسائل، وجواباً لكثير من الأسئلة.

ففي البداية ذكر قصّة السفينة وقال: ﴿**أمّا السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر فأردت أن أعيبها وكانَ وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً**﴾.

وبهذا الترتيب كان ثمّة هدف خيِّر وراء ثقب السفينة الذي بدأ في حينه عملاً مشيناً سيئاً، والهدف هو نجاتهم مِن قبضة ملك غاصب، وكان هذا الملك يترك السفينة المعيبة ويصرف النظر عنها. إذاً خلاصة المقصود في الحادثة الأُولىٰ هو حفظ مصالح مجموعة مِن المساكين.

بعد ذلك ينتقل العالم إلىٰ بيان سر الحادثة الثّانية التي قتل فيها الفتىٰ فيقول: ﴿**وأمّا الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغياناً وكفراً**﴾.

إنَّ الرجل العالم قامَ بقتل هذا الفتىٰ، واعتبر سبب ذلك ما سوف يقع للأب والأم المؤمنين في حالِ بقاء الابن علىٰ قيد الحياة.

ثمّ اضاف قوله: ﴿**فأردنا أن يُبدلهما ربّهما خيراً منهُ زكاة وأقرب رحماً**﴾.

في النهاية كشف الرجل العالم عن السر الثّالث الذي دعاه إلىٰ بناء الجدار فقال: ﴿**وأمّا الجدار فكانَ لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحتهُ كنزٌ لهما وكانَ أبوهما صالحاً فأراد ربّك أن يبلغا أشدّهما ويستخرجا كنزهما رحمةً مِن ربّك**﴾.

وأنا كُنت مأموراً ببناء هذا الجدار بسبب جميل وإحسان أبوي هذين اليتيمين، كي لا يسقط وينكشف الكنز ويكون معرّضاً للخطر.

وفي خاتمة الحديث، ولأجل أن تنتفي أي شبهة محتملة، أو شك لدىٰ موسىٰ عليه السلام، ولكي يكون علىٰ يقين بأنَّ هذه الأعمال كانت طبقاً لمخطط وتوجيه أعلىٰ خاص، قال العالم: ﴿**وما فعلتهُ عن أمري**﴾ بل بأمرٍ مِن الله. وذلك سر ما لم يستطع موسىٰ عليه السلام صبراً، إذ قال: ﴿**ذلك**

تأويل ما لم تسطع عليه صبراً﴾ [١]. [٢]

---

١ ـ الكهف، ٨٢ ـ ٧٩.

٢ ـ هل كانت مهمّة الخضر في إطار النظام التشريعي أم التكويني!؟

إنَّ هذه الحوادث الثّلاث شغلت عقول العلماء الكبار، وأثارت بينهم الكثير من الكلام والاستفهامات.

والسؤال الأوّل هو: هل يمكن إتلاف جزء مِن أموال شخص بدون إجازته بذريعة أنَّ هُناك غاصباً يريد أن يُصادرها؟

وهل يمكن معاقبة فتىٰ بذريعة الأعمال التي سيقوم بها في المستقبل؟

ثمّ هل هُناك ضرورة للعمل المجاني بهدف الحفاظ علىٰ أموال شخصٍ معين؟

لقد رأينا مِن سياق القصّة القرآنية أنَّ موسىٰ اعترض علىٰ الرجل العالم، ولكنَّهُ بعد أن استمع للتوضيحات وأحاط ببواطن الأُمور عاد واقتنع. أمّا نحن فأمامنا طريقان للإجابة علىٰ الأسئلة، للاطلاع علىٰ الطريق الاول: راجع الامثل، ج ٩، ص٣٢٨

و **أمّا الطريق الثّاني**: إنَّ في هذا العالم نظامان هما: **«النظام التكويني،والنظام التشريعي»**، وبالرغم مِن أنَّ هذين النظامين مُتناسقين فيما بينهما في الأصول الكلية، ولكنها قد ينفصلان ويفترقان في الجزئيات.

علىٰ سبيل المثال، يقوم الله سبحانه وتعالىٰ ومِن أجل اختبار العباد، بابتلائهم بالخوف ونقصٍ في الأموال والثمرات وموت الأعزّة وفقدانهم حتىٰ يتبيّن الصابر مِن غيره تجاه هذه الحوادث والبلاءات.

والسؤال هنا هو: هل يستطيع أي فقيه أو حتىٰ نبي أن يقوم بهذا العمل، أي ابتلاء العباد بنقص الأموال والثمرات وفقدان الأعزة، وفقدان الأمن والإستقرار بهدف اختبار الناس وابتلائهم؟

ونرىٰ أنَّ الله سبحانهُ وتعالىٰ يقوم بتحذير وتربية بعض أنبيائه وعباده الصالحين، وذلك بابتلائهم بمصائب بسبب تركهم للأولىٰ، مثل ما ابتلىٰ بهِ يعقوب عليه السلام بسبب قلّة توجهه إلىٰ المساكين، أو ما ابتلىٰ بهِ يونس عليه السلام بسبب تركه الأُولىٰ مِن بعض الأُمور ولو لفترةٍ قصيرة ... فهل يا ترىٰ يحق لأحد أن يقوم بهذه الأعمال بعنوان الجزاء والعقاب لهؤلاء الرسل الكرام والعباد الصالحين؟

ونرىٰ أنَّ الله سبحانه وتعالىٰ يقوم في بعض الأحيان، بسلب النعمة مِن الإنسان بسبب عدم شكره، كأن تغرق أمواله في البحر ـ مثلاً ـ يخسر هذه الأموال، أو يُصاب بالمرض بسبب عدم شكره لربِّه علىٰ نعمة السلامة ...

والسؤال هنا: هل يستطيع أحد مِن الناحية الفقهية والتشريعية أن يسلب النعمة مِن الآخرين، أو ينزل الضرر بسلامتهم وصحتهم بسبب عدم شكرهم وبدعوىٰ ابتلائهم؟

إنَّ أمثال هذه الأُمور كثيرٌ للغاية، وهي تُظهر ـ بشكلٍ عام ـ أنَّ عالَم الوجود، وخصوصاً خلق الإنسان، قد قام علىٰ النظام الأحسن، حيث وضعَ الله تعالىٰ مجموعة مِن القوانين والمقررات التكوينية حتىٰ يسلك الإنسان طريق التكامل، وعندما يتخلف عنها فسيُصاب بردود فعل مُختلفة. ولكنّا مِن وُجهة قوانين الشرع وضوابط الأحكام لا نستطيع أن نصنِّف الأُمور في إطار هذه القوانين التكوينية.

علىٰ سبيل المثال نرىٰ أنّ الطبيب يستطيع أن يقطع إصبع شخصٍ معين بحجّة عدم سراية السم إلىٰ قلبه، ولكن هل يستطيع أي شخص أن يقطع إصبع شخصٍ آخر بحجّة تربيته علىٰ الصبر أو عقاباً لهُ علىٰ كفرانه للنعم؟ (بالطبع الخالق يستطيع القيام بذلك حتماً لأنّهُ يُلائم النظام الأحسن).

والآن بعد أن ثبت وتوضح أنّ في العالم نظامان (تكويني وتشريعي)، وأنَّ الله هو الحاكم والمسيطر علىٰ هذين النظامين، لذا فلا مانع في أن يأمر تعالىٰ مجموعة بأن تطبّق النظام التشريعي، بينما يأمر مجموعة مِن الملائكة أو بعض البشر (كالخضر مثلاً) بأن يطبقوا النظام التكويني.

ومِن وجهة النظام التكويني لا يوجد أي مانع في أن يبتلي الله طفلاً غير بالغ بحادثة معينة، ثمّ يموت ذلك الطفل بسبب هذه الحادثة، وذلك لعلم الله تعالىٰ بأنَّ أخطاراً كبيرة كامنة لهذا الطفل في المستقبل كما أنَّ وجود مثل هؤلاء الأشخاص وبقاءهم يتمّ لمصلحة معينة كالإمتحان والإبتلاء وغير ذلك.

وأيضاً لا مانع في أن يبتليني الله اليوم بمرض صعب يقعدني الفراش لعلمه تعالىٰ بأنَّ خروجي مِن البيت لو تمّ فسأتعرض لحادثة خطيرة لا أستحقها، لذا فهو تعالىٰ يمنعني مِنها.

بعبارة أُخرىٰ: إنَّ مجموعة مِن أوليائه وعباده مكلّفون في هذا العالم بالبواطن، بينما المجموعة الأُخرىٰ مكلّفون بالظواهر. والمكلّفون بالبواطن لهم ضوابط وأصول وبرامج خاصّة بهم، مثلما للمكلّفين بالظواهر ضوابطهم وأصولهم الخاصّة بهم أيضاً.

صحيح أنَّ الخط العام لهذين البرنامجين يوصل الإنسان إلىٰ الكمال؛ وصحيح أنَّ البرنامجين متناسقين مِن حيث القواعد الكلية، إلّا أنّهما يفترقان في التفاصيل والجزئيات كما لاحظنا ذلك في الأمثلة.

بالطبع لا يستطيع أحد أن يعمل كما يحلو له ضمن هذين الخطين، بل يجب أن يحصل علىٰ إجازة المالك القادر الحكيم الخالق جلَّ وعلا، لذا رأينا الخضر (العالم الكبير) يوضح هذه الحقيقة بصراحة قائلاً، (ما فعلتهُ عن أمري) بل إنّي خطوت الخطوات وفقاً للبرنامج الإلهي والضوابط التي كانت موضوعة لي.

وهكذا سيزول التعارض والتضاد وتنتفي الأسئلة والمشكلات المثارة حول مواقف الخضر في

مَن هو الخضر؟

القرآن الكريم يتحدَّث عن العالم مِن دون أن يسميّه بالخضر وقد عبَّر عن معلّم موسىٰ عليه السلام بقوله: ﴿عبداً مِن عبادنا آتيناه رحمة مِن عندنا وعلمناه مِن لدنا علماً﴾[1] والآية توضح المقام الخاص للعبودية والعلم والمعرفة، لذا فإنّنا غالباً ما نصفه بالرجل العالم.

أمّا الرّوايات الإسلامية وفي مختلف مصادرها عرَّفت هذا الرجل باسم (الخضر) ومِن بعض هذه الرّوايات نستفيد بأنَّ اسمه الحقيقي كان (بليا بن ملكان) أمّا الخضر فهو لقب له، حيث أنَّهُ أينما كان يَطأ الأرض فإنَّ الأرض كانت تخضر تحت قدميه.

البعض احتمل أنَّ اسم الرجل العالم هذا هو (إلياس) ومن هنا ظهرت فكرة أن اليـاسُ والخضر هما اسمان لشخصٍ واحد.

ولكن المشهور المعروف بين المفسّرين والرواة هو الأوّل.

وطبيعي أن نقول: إنَّ اسم الرجل العالم أيّاً كان فهو غـير مـهم لا لمـضمون القـصّة ولا لقصدها، إذ المهم أن نعرف أنَّهُ كان عالماً إلهياً، شملتُه الرحمة الإلهية الخاصّة، وكان مُكلّفاً بالباطن والنظام التكويني للعالم، ويعرف بعض الأسرار، وكان معلّم موسىٰ بن عمران بالرغم مِن أنَّ موسىٰ عليه السلام كانَ أفضل مِنهُ مِن بعض الجوانب.

وهناك أيضاً آراء وروايات مُختلفة فيما إذا كان الخضر نبيّاً أَم لا.

ففي المجلد الأوّل مِن أصول الكافي وردت روايات عديدة تدل علىٰ أنَّ هذا الرجل لم يكن نبيّاً، بل كان عالماً مِثل (ذوالقرنين) و (آصف بن برخيا).

في حين نستفيد مِن روايات أُخرىٰ أنَّهُ كان نبيّاً، وظاهر بعض الآيات أعلاه يدل علىٰ هذا

الحوادث الثلاث.

وسبب عدم تحمّل موسىٰ عليه السلام لأعمال الخضر يعود إلىٰ مهمّة موسىٰ التي كانت تختلف عن مـهمّة الخضر في العالم، لذا فقد كان موسىٰ عليه السلام يبادر إلىٰ الإعتراض علىٰ مواقف الخضر المخالفة لضوابط الشريعة بينما كان الخضر مستمراً في طريق ببرود، لأنَّ وظيفة كل مِن هذين المبعوثين الإلهـيين تختلف عن وظيفة الآخر ودوره المرسوم لهُ إلهياً، لذلك لم يستطيعا العيش سوية، لذا قال الخضر لموسىٰ عليه السلام: ﴿هذا فراق بيني وبينك﴾.

١ ـ الكهف، ٦٥.

المعنىٰ، لأنّها تقول علىٰ لسانه: ﴿وما فعلته عن أمري﴾. وفي مكانٍ آخر قوله: ﴿فأردنا أن يبدلهما ربّهما خيراً منه ... ﴾.

ونستفيد من روايات أُخرىٰ أنَّ الخضر عمَّر طويلاً.[١]

الأساطير الموضوعة

إنَّ الأساس في قصّة موسىٰ والخضر عليهما السلام هو ما ذكر في القرآن، ولكن معَ الأسف هناك أساطير كثيرة قيلت حول القصّة وحول رمزيها (موسىٰ والخضر) حتىٰ أنَّ بعض الإضافات تعطي للقصّة طابعاً خرافياً. وينبغي أن نعرف أنَّ مصير كثير مِن القصص لم يختلف عن مصير هذه القصة، إذ لم تنجُ قصة مِن الوضع والتحريف والتقوُّل.

مقياسنا في واقعية القصّة هو أن نضع القرآن كمعيار أمامنا، وحتىٰ بالنسبة للأحاديث فإنّنا نقبلها في حال كونها مُطابقة للقرآن، فإذا كان هُناك حديث لا يطابق فسنرفضه حتماً ومن حسن الحظ لم يرد في الأحاديث حديث معتبر.

علم موسىٰ والخضر مقابل علم الله

روي أنَّ النّبي صلى الله عليه وآله قال: «لما لقي موسىٰ الخضر، جاء طير فألقىٰ منقاره في الماء، فقال الخضر لموسىٰ: تدري ما يقول هذا الطائر؟ قال: وما يقول؟ قال: يقول: ما علمك وعلم موسىٰ في علم الله إلّا كما أخذ مِنقاري مِن الماء».

ماذا كان الكنز؟

مِن الأسئلة التي تُثار حول هذه القصّة، هي عن ماهية الكنز ماذا كان؟ ولماذا كان صاحب

---

١ ـ هل ذكرت قصّة موسىٰ وهذا العالم الكبير في مصادر اليهود والمسيح؟

في الجواب نقول: إذا كان المقصود هو كتب العَهدين (التوراة والإنجيل) فإنَّ ذلك غير مذكور فيهما، أمّا بعض كتب علماء اليهود التي تمَّ تدوينها في القرن الحادي عشر الميلادي، ففيها قصّة تشبه إلىٰ حدٍ كبير حادثة موسىٰ عليه السلام وعالم زمانه، بالرغم مِن أنّها تذكر أنَّ أبطال تلك القصّة هما (إلياس) و (يوشع بن لاوي) وهما مِن مفسّري (التلمود) في القرن الثّالث الميلادي، وتختلف مِن خلال عدّة أُمور عن قصّة موسىٰ والخضر. راجع الامثل، ج ٩، ص٣٢٦.

موسىٰ يصر علىٰ إخفائه؟ ولماذا قام الرجل المؤمن، يعني أبا الأيتام بتجميع هذا الكنز وإخفائه؟

يرىٰ بعض أن الكنز يرمز إلىٰ شيء معنوي، قبل أن يكون لهُ مفهوم مادي.

إذ أنَّ هذا الكنز ـ طبقاً لروايات عديدة تُنقل مِن طرق السنة والشيعة ـ لم يكن سوىٰ لوح منقوش عليه مجموعة مِن الحكم.

أمّا ما هي هذه الحكم؟ فثمة كلام كثير في ذلك.

ففي كتاب الكافي نقلاً عن الإمام حيث قال في جوابه علىٰ سؤال يتعلق بماهية الكنز: **«أمّا إنَّهُ ما كان ذهباً ولا فضة، وإنّما كان أربع كلمات: لا إله إلّا الله، مَن أيقن بالموت لم يضحك، ومَن أيقن بالحساب لم يفرح قلبه، ومَن أيقن بالقدر لم يخش إلّا الله»**.

وفي روايات أُخرىٰ، ورد أنَّ اللوح كان مِن ذهب.

اصحاب السبت

عطلة يوم السبت وعصيان بني اسرائيل

إنّ جماعة من بني إسرائيل كانوا يعيشون عند ساحل أحد البحار (والظاهر أنّه ساحل البحر الأحمر المجاور لفلسطين) في ميناء يسمى بميناء «أيلة» (والذي يسمى الآن بميناء ايلات) وقد أمرهم الله تعالى على سبيل الإختبار والإمتحان أن يعطّلوا صيد الأسماك في يوم السبت، ولكنّهم خالفوا هذا التعليم، فأصيبوا بعقوبة موجعة مؤلمة نقرأ شرحها في القرآن الكريم.

في البداية يقول سبحانه: **﴿واسألْهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر﴾**. أي اسأل يهود عصرك عن قضية القرية التي كانت تعيش على ساحل البحر.

ثمّ يقول: وذكّرهم كيف أنّهم تجاوزوا ـ في يوم السبت ـ القانون الإلّهي **﴿إذ يَعدون في السبت﴾** لأنّ يوم السبت كان يوم عطلتهم، وكان عليهم أن يكفوا فيه عن الكسب، وعن صيد السمك ويشتغلوا بالعبادة، ولكنّهم تجاهلوا هذا الأمر.

ثمّ يشرح القرآن العدوان المذكور بالعبارة التالية: **﴿إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعاً﴾** فالأسماك كانت تظهر على سطح الماء في يوم السبت، بينما كانت تختفي في غيره من الأيّام.

ومن البديهي أنّ صيد الأسماك يشكّل لدى سكنة ساحل البحر مورد كسبهم وتغذيتهم، وكأنّ الأسماك بسبب تعطيل عملية الصيد في يوم السبت صارت تحس بنوع من الأمن من ناحية الصيادين، فكانت تظهر على سطح الماء أفواجاً أفواجاً، بينما كانت تتوغل بعيداً في البحر في الأيّام الأُخرىٰ التي كان الصيّادون فيها يخرجون للصيد.

إنّ هذا الموضوع سواء كان له جانب طبيعي عادي أم كان له جانب استثنائي وإلَهي، كان وسيلة لإمتحان وإختبار هذه الجماعة، لهذا يقول القرآن الكريم: وهكذا اختبرناهم بشيء يخالفونه ويعصون الأمر فيه ﴿كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون﴾.

عندما واجهت هذه الجماعة من بني إسرائيل هذا الإمتحان الكبير الذي كان متداخلاً مع حياتهم تداخلاً كاملاً، انقسموا إلى ثلاث فرق:

«الفريق الأوّل» وكانوا يشكّلون الأكثرية، وهم الذين خالفوا هذا الأمر الإلَهي.

«الفريق الثّاني» وكانوا على القاعدة يشكلون الأقلية، وهم الذين قاموا ـ تجاة الفريق الأوّل بوظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

«الفريق الثّالث» وهم الساكتون المحايدون الذين لم يوافقوا العصاة، ولا قاموا بوظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وفي النهاية يشرح القرآن الحوار الذي دار بين العصاة، وبين الذين نهوهم عن ارتكاب هذه المخالفة فيقول: ﴿وإذ قالت أُمّة منهم لِمَ تعظون قوماً اللهُ مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً﴾.

فأجابهم الآمرون بالمعروف الناهون عن المنكر: بأنّنا ننهىٰ عن المنكر لأنّنا نؤدي واجبنا تجاه الله تعالى، وحتى لا نكون مسؤولين تجاهه، هذا مضافاً إلى أنّنا نأمل أن يؤثر كلامنا في قلوبهم، ويكفوا عن طغيانهم وتعنتهم ﴿قالوا معذرة إلى ربّكم ولعلّهم يتقون﴾.

وفي المآل غلبت عبادة الدنيا عليهم، وتناسوا الأمر الإلَهي، وفي هذا الوقت نجينا الذين كانوا ينهون عن المنكر، وعاقبنا الظالمين بعقاب أليم منهم بسبب فسقهم وعصيانهم ﴿فلمّا نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون﴾.

ثمّ يشرح العقوبات هكذا: ﴿فلمّا عتوا عمّا نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين﴾ [1].

كيفَ ارتكبوا هذه المعصية؟

وأمّا كيف بدأت هذه الجماعة عملية التجاوز على هذا القانون الإلَهي؟ فقد وقع فيه كلام.

---

١ ـ الاعراف، ١٦٥ ـ ١٦٣.

ويستفاد من بعض الرّوايات أنّهم عمدوا في البداية إلى ما يسمى بالحيلة الشرعية، فقد أحدثوا أحواضاً إلى جانب البحر، وفتحوا لها أبواباً إلى البحر، فكانوا يفتحون هذه الأبواب في يوم السبت فتقع فيها أسماك كثيرة مع ورود الماء إليها، وعند الغروب حينما كانت الأسماك تريد العودة إلى البحر يوصدون تلك فتحبس الأسماك في تلك الأحواض، ثمّ يعمدون في يوم الأحد إلى صيدها، وأخذها من الأحواض، وكانوا يقولون: إنّ الله أمرنا أن لا نصيد السمك، ونحن لم نصد الأسماك إنّما حاصرناها فقط.

ويقول البعض: إنّهم كانوا يرسلون كلاليبهم وصناراتهم وشباكهم في البحر يوم السبت، ثمّ يسحبونها يوم الأحد وقد علقت بها الأسماك، وهكذا كانوا يصيدون السمك حتى في يوم السبتِ ولكن بصورة ماكرة.

ويظهر من بعض الرّوايات الأُخرىٰ أنّهم كانوا يصيدون السمك يوم السبتِ من دون مبالاة بالنهي الإلّهي، وليس بواسطة أية حيلة.

ولكن من الممكن أن تكون هذه الرّوايات صحيحة بأجمعها وذلك أنّهم في البداية استخدموا ما يسمى بالحيلة الشرعية، وذلك بواسطة حفر أحواض إلى جانب البحر، أو إلقاء الكلاليب والصنارات، ثمّ لما صُغرت هذه المعصية في نظرهم، جرأهم ذلك على كسر احترام يوم السب وحرمته، فأخذوا يصيدون السمك في يوم السبت تدريجاً وعلناً، واكتسبوا من هذا الطريق ثروة كبيرة جداً.[١]

---

١ ـ هل المسخ كان جسمانياً أو روحانياً؟

«المسخ» أو بتعبير آخر «تغيير الشكل الإنساني إلى الصورة الحيوانية» ومن المسلّم أنّه حدثٌ على خلاف العادة والطبيعة. على أنّه قد شوهدت حالات جزئية من (موتاسيون) والقفزة، وتغيير الشكل والصورة في الحيوانات إلى أشكال وصور أُخرىٰ، وقد شكّلت أُسُس فرضية التكامل في العلوم الطبيعية الحاضرة.

ولكنّ الموارد التي شوهدت فيها الـ«موتاسيون» والقفزة إنّما هي في صفات الحيوانات الجزئية، لا الصفات الكليّة، يعني أنّه لم يشاهَد إلى الآن نوعاً من أنواع الحيوان تغيّر على أثر الـ«موتاسيون» إلىٰ نوع آخر، بل يمكن أن تتغير خصوصيات معينة من الحيوان، ناهيك عن أنّ هذه التغييرات إنّما تظهر في الأجيال التي توجد في المستقبل، لا أن يحصل هذا التغيير في الحيوان يتولد من أمّه.

وعلى هذا الأساس، يكون تغير صورة إنسان أو حيوان إلى صورة نوع آخر أمراً خارقاً للعادة.

ولكن تقدم أنّ هناك أُموراً تحدث على خلاف العادة والطبيعة، وهذه الأُمور ربّما تقع في صورة

قصّة بقرة بني إسرائيل

قتل شخص من بني إسرائيل بشكل غامض، ولم يعرف القاتل.

تذكر كتب التأريخ والتّفسير أن دافع القتل في هذه الحادثة إمّا المال، أو الزّواج.

منهم من قال إنّ ثرياً من بني إسرائيل لم يكن له وارث سوى ابن عمه، فطال عمر هذا الثري ولم يطق الوارث مزيداً من الإنتظار، فقتله خفية ليحصل علىٰ أمواله، وألقى جسده في الطريق، ثم بدأ بالصراخ والعويل، وشكا الأمر إلى موسى.

وقال آخرون: إنّ القاتل أراد أن يتزوج من ابنة القتيل، فرفض ذلك، وزوّج ابنته إلى أحد أخيار بني إسرائيل. فقعد له وقتله.

علي أيّة حال حدث بين قبائل بني إسرائيل نزاع بشأن هذه الحادثة، كل قبيلة تتهم الأُخرىٰ بالقتل. توجّهوا إلى موسى ليقضي بينهم. فما كانت الأساليب الإعتيادية ممكنة في هذا القضاء. وما كان بالإمكان إهمال هذه المسألة لما سيترتب عليها من فتنة بين بني

المعاجز التي يأتي بها الأنبياء، وأحياناً تكون في صورة الأعمال الخارقة للعادة التي تصدر من بعض الأشخاص، وإن لم يكونوا أنبياء (وهي تختلف عن معاجز الأنبياء طبعاً).

وبناء على هذا، وبعد القبول بإمكان وقوع المعاجز وخوارق العادة، لا مانع من مسخ صورة إنسان إلى إنسان آخر. ولا يكون ذلك مستحيلاً تأباه العقول.

ووجود مثل هذه الخوارق للعادة لا هو إستثناء وخرق لقانون العلية، ولا هو خلاف العقل، بل هو مجرّد كسر قضية «عاديّة طبيعيّة» في مثل هذه الموارد، ولها نظائر رأيناها في الأشخاص غير العاديين.

بناء على هذا لا مانع من قبول «المسخ» على ما هو عليه في معناه الظاهري الوارد في القرآن، وأكثر المفسّرين قبلوا هذا التّفسير أيضاً.

إسرائيل. لجأ موسى ـ بإذن الله ـ إلى طريقة إعجازية لحل هذه المسألة.

يقول سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ وأن تضربوا قطعةً منها بالمقتول، كي يحيي ويخبركم بقاتله ﴿قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً﴾؟!

﴿قَالَ أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾[1].

أي إن الإستهزاء من عمل الجاهلين، وأنبياء الله مبرّأون من ذلك.

اشكالات بني اسرائيل

بعد أن أيقنوا جديّة المسألة، ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ﴾.

موسى عليه السلام أجابهم: ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَ فَارِضٌ وَلاَ بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ أي إنها لا كبيرة هرمة ولا صغيرة، بل متوسطة بين الحالتين: ﴿فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾.

لكن بني إسرائيل لم يكفوا عن لجاجتهم: ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا﴾؟

أجابهم موسى: ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾ أي إنها حسنة الصفرة لا يشوبها لون آخر.

ولم يكتف بنو إسرائيل بهذا، بل أصرّوا علىٰ لجاجهم، وضيّقوا دائرة انتخاب البقرة علىٰ أنفسهم.

عادوا و﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ﴾ طالبين بذلك مزيداً من التوضيح، متذرعين بالقول: ﴿إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ لَمُهْتَدُونَ﴾.

أجابهم موسى ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَ ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلاَ تَسْقِي الْحَرْثَ﴾ أي ليست من النوع المذلل لحرث الأرض وسقيها.

﴿مُسَلَّمَةٌ﴾ من العيوب كلها.

﴿لاَ شِيَةَ فِيهَا﴾ أي لا لون فيها من غيرها.

حينئذ: ﴿قَالُوا الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِ﴾.

﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ أي أنهم بعد أن وجدوا بقرة بهذه السمات ذبحوها بالرغم من عدم رغبتهم بذلك.

---

١ ـ البقرة، ٦٧.

﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ [١] أي اضربوا قطعة منها بالمقتول كي يحيى ويـخبركم بـقاتله. أخذو بنو اسرائيل يبحثون عن بقرة بتلك الخصائص فذبحوها وألقوا دمها على القتيل فحيى وذكر أنّ القاتل كان ابن عمّه.

الإحسان إلى الأب

إنّ البقرة كانت وحيدة لا تشاركها بقرة أُخرىٰ في المواصفات المذكورة، ولذلك اضطر القوم إلى شرائها بثمن باهظ.

ويقولون: إن هذه البقرة كانت ملكاً لشابٍ صالح علىٰ غاية البّر بوالده. هذا الرجل واتته سابقاً فرصة صفقة مربحة، كان عليه أن يدفع فيها الثمن نقداً. وكانت النقود في صندوق مغلق مفتاحه تحت وسادة والده. حين جاء الرجل ليأخذ المفتاح وجد والده نائماً، فأبىٰ إيقاظه وازعاجه، ففضّل أن يترك الصفقة علىٰ أن يوقظ والده.

وقال بعض المفسرين: «كان البائع علىٰ استعداد لأن يبيع بضاعته بسبعين ألفاً نقداً، ولكن الرجل أبى أن يوقظ والده واقترح شراء تلك البضاعة بثمانين ألفاً علىٰ أن يدفع المبلغ بـعد استيقاظ والده. وأخيراً لم تتم صفقة المعاملة، ولذا أراد الله تعالى تعويضه علىٰ ايثاره هـذا بمعاملة أُخرىٰ وفيرة الربح.

وقالوا أيضاً: بعد أن استيقظ الوالد وعلمه بالأمر، أهدى لولده البقرة المذكورة، فـدّرت عليه ربحاً عظيماً».

---

١ ـ البقرة، ٧٣ ـ ٦٨.

الثّري الاسرائيلي البخيل:

وقع الكلام على مواجهة بني إسرائيل مع رجل ثري منهم يدعى «قارون».

قارون هذا كان مظهراً للثراء المقرون بالكبر والغرور والطغيان.

وأساساً، فإنّ موسى عليه السلام واجه في طول حياته ثلث قوى استكبارية طاغوتية:

١ ـ «فرعون» الذي كان مظهراً للقوّة «والقدرة في الحكومة».

٢ ـ «قارون» الذي كان مظهراً للثروة والمال!

٣ ـ «السامري» الذي كان مظهراً للنفاق والصناعة.

وبالرغم من أنّ أهم مواجهات موسى عليه السلام هي مواجهته لفرعون و«حكومته» إلّا أَنّ مواجهتيه الأخيرتين لهما أهميّة كبيرة أيضاً، وفيهما دروس ذات عبر ومحتوى كبير!.

المعروف أن «قارون» كان من أرحام موسى و أقاربه «ابن عمه أو ابن خالته» وكان عارفاً بالتوراة، وكان في بداية أمره مع المؤمنين، إلّا أنّ غرور الثروة جرّه إلى الكفر ودعاه إلى أن يقف بوجه موسى عليه السلام وأماته ميتة ذات عبرة للجميع.

يقول القرآن في شأنه أوّلاً: ﴿إنّ قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم﴾ وسبب بغيه وظلمه إنّه كان ذا ثروة عظيمة، ولأنّه لم يكن يتمتع بايمان قوي وشخصية متينة فقد غرّته هذه الثروة الكبيرة وجرّته إلى الإنحراف والإستكبار.

يصف القرآن ما عنده من ثروة فيقول: ﴿وآتيناه من الكنوز ما إنّ مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوّة﴾[1].

---

١ ـ القصص، ٧٦.

إنّ قارون كان ذا مال كثير ووفير من الذهب والفضّة، بحيث كان يصعب حمل صناديقها على الرجال الأشداء.

اربع عظات

يقول القرآن في هذا الصدد: ﴿إذ قال له قومه لا تفرح إنّ الله لا يحبّ الفرحين﴾.

ثمّ يقدمون له أربع نصائح قيّمة أُخرىٰ ذات تأثير مهم على مصير الإنسان، بحيث تتكامل لديه حلقة خماسية من النصائح مع ما تقدم من قولهم له: ﴿لا تفرح﴾

فالنصيحة الأُولىٰ قولهم له: ﴿وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة﴾ وهذا إشارة إلى أن المال والثروة ليس أمراً سيئاً كما يتصوره بعض المتوهّمين، المهم أن تعرف فيم يستعمل المال، وفي أي طريق ينفق، فإذا ابتغي به الدار الآخرة فما أحسنه! أو كان وسيلة للعب والهوى والظلم والتجاوز، فلا شيء أسوأ منه!

والنصيحة الثّانية قولهم له: ﴿ولا تنس نصيبك من الدنيا﴾ والقرآن يشير إلى مسألة واقعيّة، وهي أنّ لكل فرد منّا نصيباً من الدنيا، فالأموال التي يصرفها على بدنه وثيابه ليظهر بمظهر لائق هي أموال محدودة، وما زاد عليها لا تزيد مظهره شيئاً، وعلى الإنسان أن لا ينسى هذه الحقيقة!...

والنصيحة الثّالثة هي ﴿وأحسن كما أحسن الله إليك﴾.

وهذه حقيقة أُخرىٰ، وهي أَن الإنسان يرجو دائماً نعم الله واحسانه وخيره ولطفه، وينتظر منه كل شيء. فبمثل هذه الحال كيف يمكن له التغاضي عن طلب الآخرين الصريح أو لسان حالهم.. وكيف لا يلتفت إليهم!.

والنصيحة الرابعة والأخيرة أن لا تغرنّك هذه الاموال والامكانات المادية فتجرّك الى الفساد. ﴿ولا تبغ الفساد في الآرض إنّ الله لا يحبّ المفسدين﴾ [1].

وليس من المعلوم بدقّة من هم الناصحون لقارون يومئذٍ ولكن القدر المسلم به أنّهم رجال علماء متقون، أذكياء، ذوو نجدة وشهامة، عارفون للمسائل الدقيقة الغامضة!.

---

١ ـ القصص، ٧٧ ـ ٧٦.

جواب قارون

والآن لنلاحظ ما كان جواب هذا الإنسان الباغي والظالم الإسرائيلي لجماعته الواعظين له!.

فأجابهم قارون بتلك الحالة من الغرور والتكبر الناشئة من ثروته الكبيرة، و﴿قال إنّما أوتيته على علم عندي﴾[1].

هذا لا يتعلق بكم، وليس لكم حق أن ترشدوني إلى كيفيةالتصرف بمالي، فقد أوجدته بعلمي وإطلاعي.

ثمّ إنّ الله يعرف حالي ويعلم أنّي جدير بهذا المال الذي أعطانيه، وعلمني كيف أتصرف به، فلا حاجة إلى تدخلكم!.

وبعد هذا كله فقد تعبت وبذلت جهوداً كبيرة في سبيل جمع هذا المال، فإذا كان الآخرون جديرين بالمال، فلم لا يتعبون ويجهدون أنفسهم؟ فلست مضايقاً لهم، وإذا لم يكونوا جديرين، فليجوعوا وليموتوا فهو أفضل لهم.

هذا المنطق العفن المفضوح طالما يردده الأثرياء الذين لا حظّ لهم من الإيمان أمام من ينصحهم.

وهذه اللطيفة جديرة بالإلتفات وهي أن القرآن لم يصرّح بالعلم الذيكان عند قارون وأبقاه مبهماً، ولم يذكر أي علم كان عند قارون حتى استطاع بسببه على هذه الثروة الطائلة!.

أهو علم الكيمياء.

أم هو علم التجارة والصناعة والزراعة.

أم علم الإدارة الخاص به، الذي استطاع بواسطته أَن يجمع هذه الثروة العظيمة.

أم جميع هذه العلوم!

لا يبعد أن يكون مفهوم كلامه سبحانه واسعاً وشاملاً لجميع هذه العلوم «بالطبع بصرف النظر عن أَن علم الكيمياء علم يستطاع بواسطته قلب النحاس وأمثاله ذهباً، وهل هو خرافة أم حقيقة واقعية»؟

---

١ ـ القصص، ٧٨.

وهنا يجيب القرآن على قول قارون وأمثاله من المتكبرين الضالين، فيقول: ﴿أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوّة وأكثر جمعاً﴾.

أتقول: ﴿إنّما أوتيته على علم عندي﴾ [1] ونسيت من كان أكثر منك علماً وأشدّ قوّة وأثرىٰ مالاً، فهل استطاعوا أن يفروا من قبضة العذاب الإلهي؟!

جنون الثّروة

المعروف أَن أصحاب الثروة يبتلون بأنواع الجنون... وواحد منها «جنون عرض الثروة وإظهارها» فهؤلاء يشعرون باللذة عندما يعرضون ثروتهم على الآخرين، وحين يعبرون على مركب غال وثير ويمرّون بين حفاة الأقدام فيتصاعد الغبار والاتربة لينتشر على وجوههم، ويحقّرونهم بذلك، فحينئذٍ يشعرون بالراحة النفسية والنشوة تدغدغ قلوبهم..

وبالرغم من أَن عرض الثروة هذا غالباً ما يكون سبباً للبلاء عليهم، لأنّه يربي الأحقاد في الصدور ويعبىء الحساسيّات ضده، وكثيراً ما ينهي هذا العمل الرديء حياة الإنسان، أو يزيل ثروته مع الريح!.

ولعل هذا الجنون يحمل هدفاً من قبيل اغراء الطامعين وتسليم الأفراد المعاندين ولكن الأثرياء غالباً ما يقومون بهذا العمل دون هدف، لأنّه نوع من الهوى والهوس وليس خطة أو برنامجاً معيناً.

وعلى كل حال فإن قارون لم يكن مستثنى من هذا القانون، بل كان يعدّ مثلاً بارزاً له، والقرآن يتحدث عنه في جملة موجزة فيقول: ﴿فخرج على قومه في زينته﴾ [2]. امام قومه من بني اسرائيل.

فإنّه أظهر جميع قدرته وقوته ليبدي ما لديه من زينة وثروة.

ومعلوم طبعاً إنّ رجلاً بهذه المثابة من الثروة ماذا يستطيع أن يفعل!؟

وينقل في التاريخ ـ في هذا الصدد قصص كثيرة ـ مقرونة بالأساطير أحياناً، فإنّ بعضهم يكتب أنّ قارون خرج في استعراض كبير، وقد أركب أربعة آلاف نفر على أربعة آلاف فرس

---

١ ـ القصص، ٧٨.

٢ ـ القصص، ٧٩.

حُمر «غالية القيمة» مغطاة بالقماش الفاخر، وقد ملأها زينة من الذهب والجواهر الأُخرىٰ، فمرّ بهذا الإستعراض على بني إسرائيل.. وقد أثار هذا المنظر الناس، إذ رأوا أربعة آلاف من الخدم ابيض يلبسون ثياباً حُمراً مع زينتهم.

وقال بعضهم: بل بلغ عدد هؤلاء «الخدم والحشم» سبعة آلاف نفر، وذكروا أخباراً أُخرىٰ في هذا الصدد.

ولو فرضنا أن كل ذلك مبالغ فيه، إلّا أنّه لا يمكن إنكار هذه الحقيقة، وهي أَن قارون لديه ثروات مهمّة أظهرها في زينته!

ياليت لنا مثل ما أوتي قارون

هنا أصبح الناس طائفتين ـ بحسب العادة فطائفة وهم الأكثرية ـ من عبدة الدنيا ـ أثارهم هذا المشهد، فاهتزت قلوبهم وتأوهوا بالحسرات وتمنوا لو كانوا مكان قارون ولو يوماً واحداً ولو ساعة واحدة وحتى ولو لحظة! واحدة...

فأيّة حياة عذبة جميلة هذه الحياة التي تهب اللذات والنشاط... **﴿قال الذين يريدون الحياةالدنيا يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون إنّه لذو حظ عظيم﴾**.

هنيئاً لقارون ولثروته العظيمة!.. وما أعظم جلاله وعزّته.. ولا نظن في التاريخ أحداً أعطاه الله ما أعطى قارون.. وما إلى ذلك من الكلمات.

لكن أمام هذه الطائفة التي ذكرناها آنفاً طائفة أُخرىٰ من العلماء والمتقين الورعين، سمت آفاقهم عن مثل هذه المسائل، وكانوا حاضرين حينئذٍ و«المشهد» يمرّ من أمامهم.

هؤلاء الرجال لا يقوّمون الشخصية بالذهب والقوّة، ولا يبحثون عن القيم في الأُمور الماديّة. لا تبهرهم هذه المظاهر، بل يسخرون منها ويتبسمون تبسم استهزاء وازدراء! ويحقّرون هذه الرؤوس الفارغة.

فهؤلاء كانوا هناك، وكان لهم موقف آخر من قارون، وكما يعبر عنهم القرآن **﴿وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً﴾** ثمّ أردفوا مؤكّدين **﴿ولا يلقّاها إلّا الصابرون﴾**[1].

---

١ ـ القصص، ٨٠ ـ ٧٩.

قارون والزكاة

لقد أوصل قارون بعمله هذا طغيانه وعناده إلى الدرجة القصوىٰ، غير أن ما ورد في التواريخ حكاية منقولة عن قارون تدل على منتهى الخسة وعدم الحياء! ننقلها هنا.

قال له موسى عليه السلام يوماً إنّ الله أمرني أن آخذ الزكاة فأبى فقال: إنّ موسى يريد أن يأكل أموالكم جاءكم بالصلاة وجاءكم بأشياء فاحتملتموها فتحتملوه أن تعطوه أموالكم؟ قالوا: لا نحتمل فما ترى؟

فقال لهم: أرى أن أرسل إلى بغي من بغايا بني إسرائيل فنرسلها اليه فترميه بأنّه أرادها على نفسها فأرسلوا إليها فقالوا لها: نعطيك حكمك على أن تشهدي على موسى أنّه فجر بك قالت نعم.

فجاء قارون إلى موسى عليه السلام قال: اجمع بني إسرائيل فأخبرهم بما أمرك ربّك قال: نعم، فجمعهم فقالوا له: بم أمرك ربّك؟ قال: أمرني أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وأن تصلوا الرحم وكذا وكذا وقد أمرني في الزاني إذا زنى وقد أحصن أن يرجم. قالوا: وإن كنت أنت؟ قال: نعم. قالوا: فإنّك قد زنيت، قال: أنا؟

فأرسلوا إلى المرأة فجاءت فقالوا: ما تشهدين على موسى؟ فقال لها موسى عليه السلام أنشدتك بالله إلّا ما صدقت. قالت: أمّا إذا نشدتني فإنّهم دعوني وجعلوا لي جعلاً على أن أقذفك بنفسي وأنا أشهد أنّك بريء وأنّك رسول الله. فخرّ موسى عليه السلام ساجداً يبكي فأوحى الله إليه: ما يبكيك؟ قد سلطناك على الأرض فمرها فتطيعك، فرفع رأسه فقال: خذيهم فأخذتهم إلى أعقابهم.

العذاب الإلهي

يقول القرآن الكريم في هذا الصدد ﴿فخسفنا به وبداره الأرض﴾.

أجل حين يبلغ الطغيان والغرور وتحقير المؤمنين الأبرياء والمؤامرة ضد نبي الله أوجها، تتجلى قدرة الله تعالى وتطوي حياة الطغاة... وتدمرهم تدميراً يكون عبرة للآخرين.

مسألة «الخسف» هنا التي تعني انشقاق الأرض وابتلاع ما عليها، حدثت على مدى التاريخ عدّة مرات.. إذ تتزلزل الأرض ثمّ تنشقّ وتبتلع مدينة كاملة أو عمارات سكنية

داخلها، لكن هذا الخسف الذي حدث لقارون يختلف عن تلك الموارد.. هذا الخسف كان طعمته قارون وخزائنه فحسب!.

يا للعجب!.. ففرعون يهوي في ماء النيل!.. وقارون في أعماق الأرض!.

الماء الذي هو سرّ الحياة وأساسها يكون مأموراً بهلاك فرعون.

والأرض التي هي مهاد الإطمئنان والدعة تنقلب قبراً لقارون واتباعه! ومن البديهي أنّ قارون لم يكن لوحده في ذلك البيت فقد كان معه أعوانه وندماءه ومن أعانه على ظلمه وطغيانه، وهكذا توغلوا في اعماق الارض جميعاً.

﴿فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين﴾ [1] ...

فلم يخلصه أصدقاؤه، ولا الذين كانوا يحملون أمتعته ولا أمواله ولا أي أحد من عذاب الله، ومضى قارون وأمواله ومن معه في قعر الأرض!

لولا أن منّ الله علينا لخسف بنا

القرآن الكريم يحكى عن التبدل العجيب لأولئك الذين كانوا يتفرجون على استعراض قارون بالأمس ويقولون: ياليت لنا مثل ما أوتي قارون، وما شابه ذلك!. وإذا هم اليوم يقولون: واهاً له، فإنّ الرزق بيد الله **﴿فأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون ويكأن الله يبسط الزرق لمن يشاء من عباده ويقدر﴾**.

لقد ثبت عندنا اليوم أن ليس لأحد شيء من عنده! فكلّ ما هو موجود فمن الله، فلا عطاؤه دليل على رضاه عن العبد، ولا منعه دليل على تفاهة عبده عنده!.

فالله تعالى يمتحن بهذه الأموال والثروة عباده أفراداً وأقواماً، ويكشف سريرتهم ونيّاتهم.

ثمّ أخذوا يفكرون في ما لو أجيب دعاؤهم الذي كانوا يصرون عليه، وأعطاهم الله هذا المال، ثمّ هووا كما هوى قارون، فماذا يكون قد نفعهم المال؟

لذلك شكروا الله على هذه النعمة وقالوا: **﴿لولا أن منّ الله علينا لخسف بنا ويكأنّه لا يفلح الكافرون﴾** [2].

---

١ ـ القصص، ٨١.

٢ ـ القصص، ٨٢.

فالآن نرى الحقيقة بأعيننا، وعاقبة الغرور والغفلة ونهاية الكفر والشهوة!. ونعرف أن أمثال هذه الحياة المثيرة للقلوب بمظاهرها الخداعة، ما أوحشها! وما أسوأ عاقبتها!.

ويتّضح من الجملة الأخيرة في هذه القصّة ـ ضمناً ـ أنّ قارون المغرور مات كافراً غير مؤمن، بالرغم من أنّه كان يعدّ عارفاً بالتوراة قارئاً لها، وعالماً من بني إسرائيل ومن أقارب موسى.

النّبي اشموئيلعليه السلام

اليهود الذين كانوا قد استضعفوا تحت سلطة الفراعنة استطاعوا أن ينجوا من وضعهم المأساوي بقيادة موسىعليه السلام الحكيمة حتى بلغوا القوّة والعظمة.

لقد أنعم الله على اليهود ببركة نبيّهم الكثير من النِعم بما فيها «صندوق العهد»[1] الذي حمله اليهود أمام الجند فأضفى عليهم الطمأنينة والمعنوية العالية، وظلّت هذه الروحية فيهم بعد رحيل موسىعليه السلام مدّة من الزمن، إلّا أنّ تلك النِعم والإنتصارات أثارت في اليهود الغرور شيئاً فشيئاً، وأخذوا بمخالفة القوانين، وأخيراً اندحروا على أيدي الفلسطينيين وخسروا قوّتهم ونفوذهم بخسارتهم صندوق العهد، فكان أن تشتّتوا وضعفوا ولم يعودوا قادرين على الدفاع عن أنفسهم حتّى أمام أتفه أعدائهم، بحيث إنّ هؤلاء الأعداء طردوا الكثيرين منهم من أرضهم وأسروا أبناءهم.

استمرّت حالهم على هذا سنوات طوالاً، إلى أن أرسل إليهم الله نبيّاً اسمه «اشموئيل» لإنقاذهم وهدايتهم، فتجمّع حوله اليهود الذين كانوا قد ضاقوا ذرعاً بالظلم وكانوا يبحثون عن ملجأ يأوون إليه، وطلبوا منه أن يختار لهم قائداً وأميراً لكي يتوحّدوا تحت لوائه، ويحاربوا العدوّ متّحدين يداً ورأياً، لإستعادة عزّتهم الضائعة.

اشموئيل الذي كان يعرف ضعفهم وتهاونهم وهبوط معنويّاتهم قال لهم: أخشى إن اخترت لكم قائداً أن تخذلوه عندما يدعوكم إلى الجهاد ومحاربة العدو.

---

١ ـ سوف نتطرّق قريباً إلى تاريخ هذا الصندوق ومحتوياته.

فقالوا: كيف يمكن أن نعصي أوامر أميرنا ونرفض القيام بواجبنا، مع أنّ العدوّ قد شرّدنا من أوطاننا واستولى على أرضنا وأسر أبناءنا!!

فرأى اشموئيل أنّ هؤلاء القوم قد شخّصوا داءهم وها هُم قد اتجهوا للمعالجة، ولعلّهم أدركوا سبب تخلّفهم، فتوجّه إلى الله يعرض عليه ما يطلبه القوم فأوحى إليه: أن اخترنا «طالوت» ملكاً عليهم.

فقال اشموئيل: ربّ إني لا أعرف طالوت ولم أره حتّى الآن. فجاءه الوحي: سنرسله إليك فاعطه قيادة الجيش ولواء الجهاد.

من هو طالوت؟

كان طالوت رجلاً طويل القامة، ضخماً، حسن التركيب، متين الأعصاب قويّها، ذكيّاً، عالماً، مدبّراً.

ويقول بعض: إنّ اختيار اسم «طالوت» له كان لطوله، ولكنّه مع كلّ ذلك لم يكن معروفاً، حيث كان يعيش مع أبيه في قرية على أحد الأنهر، ويرعىٰ ماشية أبيه ويشتغل بالزراعة.

أضاع يوماً بعض ماشيته في الصحراء، فراح يبحث عنها مع صاحب له بضعة أيّام حتّى اقتربا من مدينة صوف.

قال له صاحبه: لقد اقتربنا من صوف مدينة النبيّ اشموئيل، فتعال نزوره لعلّه يدلّنا بما له من اتصال بالوحي وحصانة في الرأي على ضالّتنا. والتقيا باشموئيل عند دخولهما المدينة.

ما أن تبادل اشموئيل وطالوت النظرات حتّى تعارف قلباهما، وعرف اشموئيل طالوت وأدرك أنّ هذا الشاب هو الذي أرسله الله ليقود الجماعة. وعندما انتهى طالوت من قصّته عن ضياع ماشيته، قال له اشموئيل: أمّا ماشيتك الضائعة فهي الآن على طريق القرية تتّجه إلى بستان أبيك فلا تقلق بشأنها. ولكني أدعوك لأمر أكبر من ذلك، إنّ الله قد أختارك لنجاة بني إسرائيل.

فأصاب العجب طالوت من هذا الأمر في البداية، ولكنّه قَبل المهمّة مسروراً فقال اشموئيل لقومه: لقد اختار الله طالوت لقيادتكم، فعليكم جميعاً أن تطيعوه، وأن تتهيّأوا للجهاد ومحاربة الأعداء.

كان بنو إسرائيل يعتقدون أنّ قائدهم يجب أن تتوفّر فيه بعض المميّزات من حيث نسبه وثروته، ممّا لم يجدوا منها شيئاً في طالوت، فانتابتهم حيرة شديدة لهذا الإختيار، فطالوت لم يكن من أُسرة لاوي التي ظهر منها الأنبياء، ولا كان من أسرتي يوسف أو يهودا اللتين سبق لهما الحكم، بل كان من أُسرة بنيامين المغمورة الفقيرة، فاعترضوا قائلين: كيف يمكن لطالوت أن يحكمنا، ونحن أحقّ منه بالحكم!

فقال اشموئيل ـ الذي رآهم على خطأ كبير ـ: إنّ الله هو الذي اختاره أميراً عليكم، والقيادة تحتاج إلى كفاءة جسمية وروحية وهي متوفّرة في طالوت، وهو يفوقكم فيها. إلّا أنّهم لم يقبلوا بهذا القول، وطلبوا دليلاً على أنّ هذا الإختيار إنّما كان من الله سبحانه.

فقال اشموئيل: الدليل هو أنّ التابوت ـ صندوق العهد ـ الذي هو أثرٌ مهمٌّ من آثار أنبياء بني إسرائيل، وكان مدعاةً لثقتكم واطمئنانكم في الحروب، سيعود إليكم يحمله جمع من الملائكة. ولم يمض وقت طويل حتّى ظهر الصندوق، وعلى أثر رؤيته وافق بنو إسرائيل على قيادة طالوت لهم.

طالوت في الحكم

تسلّم طالوت قيادة الجيش، وخلال فتره قصيرة أثبت لياقته وجدارته للإضطلاع بمهامّ إدارة المُلك وقيادة الجيش، ثمّ طلب من بني إسرائيل أن يعدّوا العدّة لمحاربة عدوّ كان يهدّدهم من كلّ جانب. قال لهم مؤكّداً إنّه لا يريد أن يسير معه للقتال إلّا الّذين ينحصر كلّ تفكيرهم في الجهاد، أمّا الذين لهم عمارة لم تتم، أو معاملة لم تكمل، وأمثالهم، فليس لهم الإشتراك في الجهاد. وسرعان ما اجتمع حوله جمع تظهر عليه الكثرة والقوّة، وتحرّكوا صوب العدو.

وفي المسيرة الطويلة وتحت أشعة الشمس المحرقة أصابهم العطش. فأراد طالوت ـ بأمر من الله ـ أن يختبرهم ويصفيهم، فقال لهم: سوف نصل قريباً إلى نهر في مسيرتنا، وأنّ الله يريد أن يمتحنكم به، فمن شرب منكم منه وارتوىٰ فليس منّي، ومن لا يشرب إلّا قليلاً منه فهو منّي. ولكنّهم ما أن وقعت أنظارهم على النهر حتّى فرحوا وهرعوا إليه وشربوا منه حتّى ارتووا، إلّا نفرٌ قليلٌ منهم ظلّوا على العهد.

طالوت يصفّي جيشه

أدرك طالوت أنّ أكثرية جيشه يتألّف من أُناس ضعفاء الإرادة وعديمي العهد، ما خلا بعض الأفراد المؤمنين، لذلك فقد تخلّى عن تلك الأكثرية واتّجه مع النفر المؤمن القليل خارجاً من المدينة إلى ميادين الجهاد.

إلّا أنّ هذا الجيش الصغير انتابه القلق من قلّته، فقالوا لطالوت: إننا لا طاقة لنا بمقابلة جيش قويّ كثير العدد. غير أنّ الذين كان لهم إيمان راسخ بيوم القيامة، وكانت محبّة الله قد ملأت قلوبهم، لم يرهبوا كثرة العدوّ وقلّة عددهم، فخاطبوا طالوت بكلّ شجاعة قائلين: قرّر ما تراه صالحاً، فنحن معك حيثما ذهبت، ولسوف نجالدهم بهذا العدد القليل بحول الله وقوّته، ولطالما انتصر جيش صغير بعون الله على جيش كبير، والله مع الصابرين.

قتل جالوت على يد داود

فاستعدّ طالوت بجماعته القليلة المؤمنة للحرب، ودعوا الله أن يمنحهم الصبر والثبات، وعند التقاء الجيشين خرج جالوت من بين صفوف عسكره وطلب المبارزة بصوت قوي أثار الرعب في القلوب، فلم يجرأ أحد على منازلته. في تلك اللحظة خرج شابٌ اسمه داود من بين جنود طالوت، ولعلّه لصغر سنّه، لم يكن قد خاض حرباً من قبل، بل كان قد جاء إلى ميدان المعركة بأمر من أبيه ليكون بصحبة اخوته في صفوف جيش طالوت. ولكنّه كان سريع الحركة خفيفها، وبالمقلاع الذي كان بيده رمىٰ جالوت بحجرين ـ بمهارة شديدة ـ فأصابا جبهته ورأسه، فسقط على الأرض ميّتاً وسط تعجّب جيشه ودهشتهم. وعلى أثر ذلك استولىٰ الرعب والهلع على جيش جالوت، ولم يلبثوا حتّى ركنوا إلى الفرار من أمام جنود طالوت وانتصر بنو إسرائيل.

ما هو التابوت؟

فما هو تابوت بني إسرائيل أو صندوق العهد؟ ومن الذي صنعه؟ وما هي محتوياته؟ فإنّ في تفاسيرنا وأحاديثنا، وكذلك في العهد القديم ـ التوراة ـ كلاماً كثيراً عنه. إلّا أنّ أوضحها هو ما جاءنا في أحاديث أهل البيت عليهم السلام وأقوال بعض المفسّرين من أمثال ابن عبّاس، حيث قالوا

إنّ التابوت هو الصندوق الذي وضعت فيه أُمّ موسى ابنها موسى وألقته في اليمّ، وبعد أن انتشل أتباع فرعون الصندوق من البحر وأتوا به إليه وأخرجوا موسى منه، ظلّ الصندوق في بيت فرعون ثمّ وقع بأيدي بني إسرائيل، فكانوا يحترمونه ويتبرّكون به.

موسى عليه السلام وضع فيه الألواح المقدّسة ـ التي تحمل على ظهرها أحكام الله ـ ودرعه وأشياء أُخرى تخصّه وأودع كلّ ذلك في أواخر عمره لدىٰ وصيّه يوشع ابن نون.

وبهذا ازدادت أهميّة هذا الصندوق عند بني إسرائيل، فكانوا يحملونه معهم كلّما نشبت حرب بينهم وبين الأعداء، ليصعّد معنوياتهم، لذلك قيل: إنّ بني إسرائيل كانوا أعزّة كرماء ما دام ذلك الصندوق بمحتوياته المقدّسة بينهم، ولكن بعد هبوط التزاماتهم الدينية وغلبة الأعداء عليهم سلب منهم الصندوق. واشموئيل وعدهم بإعادة الصندوق باعتباره دليلاً على صدق قوله.

﴿فيه سكينةٌ مِن ربّكم وبقيةٌ ممّا ترك آلُ موسى وآلُ هارون﴾.[1]

هذه الفقرة من الآية تبيّن أنّ الصندوق كما قلنا كان يحتوي على أشياء تضفي السكينة على بني إسرائيل وترفع معنوياتهم في الحوادث المختلفة.

ثمّ إنّ محتويات الصندوق كانت تضمّ آثاراً ممّا خلف آل موسى وآل هارون أُضيفت إلى ما كان فيه من قبل، وممّا يجدر ذكره هو أنّ «السكينة» بمعنى الهدوء، ويقصد بها هنا هدوء النفس والقلب.

قال لهم اشموئيل: إنّ الصندوق سوف يعود إليكم لتستعيدوا الهدوء الذي فقدتموه. وفي الحقيقة أنّ هذا الصندوق بطابعه المعنويّ والتاريخيّ كان أكثر من مجرّد لواء لبني إسرائيل وشعار لهم. كان يمثّل رمز استقلالهم ووجودهم وبرؤيته كانوا يسترجعون ذكرى عظمتهم السابقة. لذلك كان الوعد بعودته بشارة عظيمة لهم.

كيف جاء الملائكة بصندوق العهد؟

نظراً إلىٰ أنّ القرآن الكريم يقول: ﴿تحمله الملائكة﴾ أي إنّ صندوق العهد تحمله الملائكة، فهنا يطرح سؤال وهو:

---

١ ـ البقرة، ٢٤٨.

كيف جاء الملائكة بصندوق العهد ؟ في هذا أيضاً كلام كثير أوضحها ما جاء في التاريخ أنّه عندما وقع صندوق العهد بيد عبدة الأصنام في فلسطين وأخذوه إلى حيث يعبدون فيه أصنامهم، أصابتهم على أثر ذلك مصائب كثيرة، فقال بعضهم : ما هذه المصائب إلّا بسبب هذا الصندوق، فعزموا على إعاده عن مدينتهم وديارهم، ولمّا لم يرض أحد بالقيام بالمهمّة اضطّروا إلى ربط الصندوق ببقرتين وأطلقوهما في الصحراء. واتّفق هذا في الوقت الذي تمّ فيه نصب طالوت مَلكاً على بني إسرائيل. وأمر الله الملائكة أن يسوقوا الحيوانين نحو مدينة اشموئيل. وعندما رأى بنو إسرائيل الصندوق بينهم، اعتبروه إشارة من الله على اختيار طالوت مَلكاً عليهم.

وعليه نسب حمل الصندوق إلى الملائكة، لأنّهم هم الذين ساقوا البقرتين إلى بني إسرائيل.

في الحقيقة أنّ للملائكة معنىً واسعاً في القرآن والروايات، يشمل فضلاً عن الكائنات الروحية العاقلة، مجموعة من القوىٰ الغامضة الموجودة في هذا العالم.

أي داود هذا؟

وعلى الرّغم من أنّ القرآن الكريم لا يقول أنّ داود هذا هو داود النبي والد سليمان عليهما السلام ولكنّ جملة ﴿وآتاه الله الملك والحكمة وعلّمه ممّا يشاء﴾ [1] تدلّ على أنّه وصل إلى مقام النبوّة، لأنّ هذا ممّا يوصف به الأنبياء عادةً، ففي سورة ص نقرأ عن داود ﴿وشددنا ملكه وآتيناه الحكم﴾ [2] كما أنّ الأحاديث الواردة في ذيل هذه الآية تشير إلىٰ أنّه كان داود النبي نفسه.

---

١ ـ البقرة، ٢٥١ .

٢ ـ سورة ص ، ٢٠ .

النّبي داود عليه السلام

تعلّم من داود

نبيّ الله داود عليه السلام أحد كبار أنبياء بني إسرائيل وحاكماً لدولة كبيرة، وقد ورد ذكر مقامه العالي في عدّة آيات بيّنات من القرآن الكريم.

وكان يتمتّع بقوّة جسدية مكّنته من أن يقتل الطاغية جالوت بضربة قويّة واحدة بواسطة حجر رماه من مقلاعه على جالوت، فأسقطه من فرسه مضرّجاً بدمه خلال إحدى المعارك.

وقال البعض: إنّ الحجر مزّق صدر جالوت وخرج من ظهره.

أمّا من حيث قدرته السياسية، فقد كانت حكومته قويّة ومستعدّة دائماً لمواجهة الأعداء، بكلّ قوّة وإقتدار، حتّى قيل أنّ الآلاف من جنده كانت تقف على أهبّة الإستعداد من المساء حتّى الصباح في أطراف محراب عبادته.

ومن حيث قدرته الأخلاقية والمعنوية والعبادية، فإنّه كان يقوم معظم الليل في عبادة الله، ويصوم نصف أيّام السنة.

وأمّا من حيث النعم الإلهيّة، فقد أنعم عليه الباريء عزّوجلّ بالكثير من النعم الظاهرية والباطنية.

خلاصة الحديث، إنّ داود كان رجلاً ذا قوّة وقدرة في الحروب والعبادات والعلم والمعرفة وفي السياسة، وكان أيضاً صاحب نعمة كبيرة.

نعم الله علىٰ داود

القرآن الكريم يشرح أنواعاً من تلك النعم، قال تعالى: **﴿إنّا سخّرنا الجبال معه يسبّحن بالعشي والإشراق﴾**.

كذلك سخّرنا له مجاميع الطيور كي تسبّح الله معه **﴿والطير محشورة﴾**.

فكلّ الطيور والجبال مسخّرة لداود ومطيعة لأوامره، وتسبّح معه الباريء عزّوجلّ، وتعود إليه، **﴿كلّ له أوّاب﴾**[١][٢].

ومع أنّ كلّ ذرّات الوجود تذكر الله وتسبّح بحمده، سواء أسَبّحَ داود عليه السلام معها أو لم يسبّح، ولكن الميزة التي خُصّ بها داود هي أنّه ما إن يرفع صوته ويبدأ التسبيح، إلّا ويظهر ما كان خفيّاً وكامناً في الموجودات، وتتبدل الهمهمة الباطنية إلى نغمة علنية منسجمة، كما ورد في الروايات من تسبيح الحصاة في يد الرّسول الأكرم صلى الله عليه وآله.

وقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام عند ذكره لقصّة داود «**إنّه خرج يقرأ الزبور، وكان إذا قرأ الزبور لا يبقى جبل ولا حجر ولا طائر إلّا أجابه**».

وبعد ذكر هذه الفضيلة المعنوية، يذكر القرآن فضيلة مادية أُخرى فيقول: **﴿وألنّا له الحديد﴾**[٣].

يمكن القول، بأنّ الله تعالى علّم داود ـ إعجازاً ـ ما استطاع بواسطته تليين الحديد حتّى

---

١ ـ سورة ص، ١٩ ـ ١٨.

٢ ـ هناك سؤال يطرح، وهو: كيف تردّد الطيور والجبال صوت التسبيح مع داود؟

إختلف المفسّرون في الإجابة على هذا السؤال:

إحتمل البعض أنّ تسبيحها كان توأماً مع صوت ظاهري، مرافقاً لنوع من الإدراك والشعور الذي هو في باطن ذرّات العالم، وطبقاً لهذا الإحتمال، فإنّ كلّ موجودات العالم تتمتّع بنوع من العقل والشعور، وحينما تسمع صوت مناجاة هذا النّبي الكبير تردّد معه المناجاة، ليمتزج تسبيحها مع تسبيح داود عليه السلام. وما ذكر فيه غير مستبعد قياساً بقدرة الله.

فالمناجاة موجودة داخل جميع مخلوقات الكون، وترانيمها تتردّد على الدوام في بواطنها، وقد أظهرها الله سبحانه وتعالى لداود عليه السلام، كما في الحصاة التي كانت تسبّح الله وهي في يد رسول الله صلى الله عليه وآله.

٣ ـ سبأ، ١١.

يمكنه من صنع أسلاك رقيقة وقوية لنسج الدروع منها، أو أنّه كان قبل داود يستفاد من صفائح الحديد لصناعة الدروع والإفادة منها في الحروب، ممّا كان يسبّب حرجاً وإزعاجاً للمحاربين نتيجة ثقل الحديد من جهة، وعدم قابلية تلك الدروع للإنحناء أو الإلتواء حين إرتدائها، ولم يكن أحدٌ قد إستطاع حتّى ذلك اليوم نسج الدروع من أسلاك الحديد الرفيعة المحكمة، ليكون لباساً يمكن إرتداؤه بسهولة والإفادة من قابليته على التلوّي والإنحناء مع حركة البدن برقّة وإنسياب.

ولكن ظاهر القرآن يدلّل على أنّ ليونة الحديد تمّت لداود بأمر إلهي، فما يمنع الذي أعطى لفرن النار خاصية إلانة الحديد، أن يعطي هذه الخاصية لداود بشكل آخر.

إنّ الله أوحى إلى داود: نعم العبد أنت إلّا أنّك تأكل من بيت المال، فبكى داود أربعين صباحاً، فألان الله له الحديد، وكان يعمل كلّ يوم درعاً فيبيعها بألف درهم فعمل ثلاثمائة وستّين درعاً فباعها بثلاثمائة وستّين ألفاً فاستغنى عن بيت المال». [1]

على كلّ حال، فإنّ داود وجّه هذه القدرة التي وهبها إيّاه الله في أفضل الطرق وهي صناعة وسائل الجهاد والدفاع ضدّ الأعداء، ولم يحاول الإستفادة منها في صناعة وسائل الحياة العادية، وعلاوة على الإستفادة من دخله منها في تصريف أُمور حياته المعاشية البسيطة، فقد هيّأ جزءاً منه للإنفاق على المحتاجين. وفوق كلّ هذا، فقد كان عمله بحدّ ذاته معجزة إرتبطت به.

وآخر نعمة إلهيّة أُنعمت على داود هي تمكّنه من القضاء والحكم بصورة صحيحة وعادلة **﴿وفصل الخطاب﴾** [2].

***

---

١ ـ صحيح أنّ بيت المال يؤمّن مصارف الأشخاص الذين يقدّمون خدمة مجانية للأُمّة، ويتحمّلون الأعباء التي لا يتحمّلها غيرهم، ولكن ما أروع أن يستطيع الإنسان تقديم هذه الخدمة، وتأمين معاشه ـ في حال الإستطاعة ـ من كدّ يمينه، وداود عليه السلام أراد أن يكون ذلك العبد الممتاز.

٢ ـ سورة ص، ٢٠.

داود والإمتحان الكبير[1]

يبيّن القرآن المجيد أحداث قضيّة عرضت على داود.

ففي البداية يخاطب القرآن المجيد الرّسول الأكرم ﷺ: **﴿وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوّروا المحراب﴾**.

فرغم أنّ داود عليه السلام كان محاطاً بأعداد كبيرة من الجند والحرس، إلّا أنّ طرفي النزاع تمكّنا ـ من طريق غير مألوف ـ تسوّر جدران المحراب، والظهور أمام داود عليه السلام فجأةً، ففزع عند رؤيتهما، إذ دخلا عليه بدون إستئذان ومن دون إعلام مسبق، وظنّ داود عليه السلام أنّهم يكنّون له السوء، **﴿إذ دخلوا على داود ففزع منهم﴾**.

إلّا أنّهما عمدا بسرعة إلى تطييب نفسه وإسكان روعه، وقالا له: لا تخف نحن متخاصمان تجاوز أحدنا على الآخر **﴿قالوا لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض﴾**.

من المسلّم به أنّ قلق وروع «داود» قلّ بعض الشيء عندما وضّح الأخوان هدف مجيئهما إليه، ولكن بقي هناك سؤال واحد في ذهنه هو، إذا كنتما لا تكنّان السوء، فما هو الهدف من ميجئكما إليّ عن طريق غير مألوف؟

تقدّم أحدهما وطرح المشكلة على داود، وقال: هذا أخي، يمتلك (٩٩) نعجة، وأنا لا أمتلك إلّا نعجة واحدة، وإنّه يصرّ عليّ أن أعطيه نعجتي ليضمّها إلى بقيّة نعاجه، وقد شدّد عليّ في القول وأغلظ **﴿إنّ هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة فقال اكفلنيها وعزّني في الخطاب﴾**.

وهنا التفت داود عليه السلام إلى المدّعي قبل أن يستمع كلام الآخر وقال: من البديهي أنّه ظلمك بطلبه ضمّ نعجتك إلى نعاجه **﴿قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه﴾**.

فالظاهر أنّ طرفي الخصام إقتنعا بكلام داود عليه السلام وغادرا المكان.

---

١ ـ طرحت هذه الآيات بحث بسيط وواضح عن قضاء داود، ونتيجة لتحريف وسوء تعبير بعض الجهلة فقد أُثيرت ضجّة عظيمة في أوساط المفسّرين، وكانت أمواج هذه الضجّة من القوّة بحيث جرفت معها بعض المفسّرين، وجعلتهم يحكمون بشيء غير مقبول، ويقولون ما لا يليق بهذا النّبي الكبير.

وفي هذا المجال بعد الإنتهاء من تفسير الآيات بإختصار نتطرّق إلى الآراء المختلفة التي قيلت بشأنها.

ولكن داود غرق في التفكير بعد مغادرتهما، رغم أنّه كان يعتقد أنّه قضى بالعدل بين المتخاصمين، فلو كان الطرف الثاني مخالفاً لإدّعاءات الطرف الأوّل ـ أي المدّعي ـ لكان قد إعترض عليه، إذن فسكوته هو خير دليل على أنّ القضيّة هي كما طرحها المدّعي.

ولكن آداب مجلس القضاء تفرض على داود أن يتريّث في إصدار الأحكام ولا يتعجّل في إصدارها، وكان عليه أن يسأل الطرف الثاني أيضاً ثمّ يحكم بينهما، فلذا ندم كثيراً على عمله هذا، وظنّ أنّما فتنه الباري عزّوجلّ بهذه الحادثة **﴿وظنّ داود أنّما فتنّاه﴾**.

وهنا أدركته طبيعته، وهي أنّه أوّاب، إذ طلب العفو والمغفرة من ربّه وخرّ راكعاً تائباً إلى الله العزيز الحكيم **﴿فاستغفر ربّه وخرّ راكعاً وأناب﴾**.

على أيّة حال، فالله سبحانه وتعالى شمل عبده داود بلطفه وعفا عن زلّته من حيث ترك العمل بالأولى، **﴿فغفرنا له ذلك﴾**. وإنّ له منزلة رفيعة عند الله **﴿وإنّ له عندنا لزلفى وحسن مآب﴾**[1].

ما هي حقيقة وقائع قصّة داود؟

الذي وضّحه القرآن المجيد في هذا الشأن لا يتعدّى أنّ شخصين تسوّرا جدران محراب داود عليه السلام ليحتكما عنده، وأنّه فزع عند رؤيتهما، ثمّ إستمع إلى أقوال المشتكي الذي قال: إنّ لأخيه (٩٩) نعجة وله نعجة واحدة، وإنّ أخاه طلب منه ضمّ هذه النعجة إلى بقيّة نعاجه، فأعطى داود عليه السلام الحقّ للمشتكي، وإعتبر طلب الأخ ذلك من أخيه ظلماً وطغياناً، ثمّ ندم على حكمه هذا، وطلب من الله سبحانه وتعالى أن يعفو عنه ويغفر له، فعفا الله عنه وغفر له.

وهنا تبرز مسألتان دقيقتان أيضاً: الأُولى مسألة الإمتحان، والثانية مسألة الإستغفار.

القرآن الكريم لم يفصّل الحديث بشأن هاتين المسألتين، إلّا أنّ الدلائل الموجودة في هذه الآيات والروايات الإسلامية الواردة بشأن تفسيرها تقول: إنّ داود كان ذا علم واسع وذا مهارة فائقة في أمر القضاء، وأراد الله سبحانه وتعالى أن يمتحنه، فلذا أوجد له مثل تلك الظروف غير الإعتيادية، كدخول الشخصين عليه من طريق غير إعتيادي وغير مألوف، إذ تسوّرا جدران محرابه، وإبتلائه بالإستعجال في إصدار الحكم قبل الإستماع إلى أقوال الطرف

---

١ ـ سورة ص، ٢٥ ـ ٢١.

الثاني، رغم أنّ حكمه كان عادلاً.

ورغم أنّه إنتبه بسرعة إلى زلّته، وأصلحها قبل مضيّ الوقت، ولكن مهما كان فإنّ العمل الذي قام به لا يليق بمقام النبوّة الرفيع، ولهذا فإنّ إستغفاره إنّما جاء لتركه العمل بالأولى، وإنّ الله شمله بعفوه ومغفرته.

والشاهد على هذا الكلام إضافة إلى ما ذكرناه قبل قليل ـ هو قوله سبحانه الذي يأتي مباشرةً بعد تلك الآيات، والذي يخاطب داودﷺ: ﴿ياداود إنّا جعلناك خليفةً في الأرض فاحكم بين الناس بالحقّ ولا تتبع الهوى فيضلّك عن سبيل الله﴾[١]. وهذا الكلام يبيّن أنّ زلّة داود كانت في كيفية قضائه وحكمه.

وبهذا الشكل فإنّ القرآن لا يذكر شيئاً يقلّل من شأن ومقام هذا النّبي الكبير[٢].

---

١ ـ سورة ص، ٢٦.

٢ ـ **التوراة والقصص الخرافية بشأن داود**

الآن نتصفّح كتاب التوراة لنشاهد ماذا ذكر فيه عن هذه الواقعة، لنعثر على الأساس الذي إعتمد عليه بعض المفسّرين الجهلة وغير المطّلعين في تفسير هذه الآيات.

جاء في «التوراة» وفي الكتاب الثاني «اشموئيل» الإصحاح الحادي عشر من الجملة الثانية وحتّى السابعة والعشرين:

خلاصة هذه القصّة إلى هنا تكون كالآتي: في إحدى الأيّام صعد داود إلى سطح القصر فوقعت عيناه على البيت المجاور فرأى امرأة عارية تغتسل، فأحبّها، وتمكّن بإحدى الطرق من جلبها إلى بيته، فاضطجع معها فحملت منه.

وزوج هذه المرأة كان أحد الضبّاط المشهورين في جيش داود وكان طاهراً نقيّاً، قتله داود (نعوذ بالله من هذا الكلام) بمؤامرة جبانة عندما بعثه إلى منطقة خطرة جدّاً في ساحة الحرب، ثمّ تزوّج داود زوجته.

والآن نواصل سرد بقيّة القصّة على لسان التوراة الحالي إذ جاء في الإصحاح الثاني عشر من كتاب صموئيل الثاني «أنّ الربّ أرسل (ناثان) أحد أنبياء بني إسرائيل ومستشار داود في نفس الوقت، وقال له: كان رجلان في مدينة واحدة، واحد منهما غني والآخر فقير، وكان للغني غنم وبقر كثيرة جدّاً، وأمّا الفقير فلم يكن له شيء إلّا نعجة واحدة صغيرة قد اقتناها وربّاها، فجاء ضيف إلى الرجل الغني فأبى أن يأخذ من غنمه ومن بقره ليهيء للضيف الذي جاء إليه فأخذ نعجة الرجل الفقير وهيّأ لضيفه.

فحمي غضب داود، وقال لناثان، أقسم بالربّ أنّ الشخص الذي إرتكب هذا العمل يستحقّ القتل،

وعليه أن يردّ النعجة بأربعة أضعاف. وهنا قال ناثان لداود: إنّ ذلك الرجل هو أنت!
فانتبه داود للعمل غير الصحيح الذي قام به، فدعا الله ليتوب عليه، فتاب الله عليه، وأنزل في نفس الوقت إبتلاءات كبيرة على داود».

هذا وقد إستخدمت التوراة عبارات يجلّ القلم عن ذكرها، لهذا نصرف النظر عنها.

وفي هذا الجزء من القصّة التي إستعرضتها التوراة يمكن للمتتبّع ملاحظة ما يلي:

١ ـ لم يأت أحد متظلّماً وشاكياً إلى داود، وإنّما جاءه أحد أنبياء بني إسرائيل، الذي هو مستشار داود في نفس الوقت، وذكر له قصّة يستهدف منها وعظ داود، والقصّة هي بشأن شخصين الأوّل غني والثاني فقير، الغني يملك أعداداً كبيرة من الغنم والبقر، أمّا الفقير فلا يملك سوى نعجة واحدة صغيرة، والغني أخذ نعجة الرجل الفقير وهيّأها لضيفه.

إلى هذا المقدار من القصّة لا يوجد أي تطرّق لتسوّر جدران المحراب وفزع داود وتخاصم الشخصين عنده، إضافةً إلى طلب العفو والمغفرة.

٢ ـ داودعليه السلام إعتبر الغني طاغية ويستحقّ القتل لماذا يقتل من أجل نعجة واحدة)؟!

٣ ـ لماذا تسرّع داودعليه السلام في إصدار الحكم، إذ قال: يجب على الغني أن يردّ النعجة بأربعة أضعاف؟

٤ ـ داود يعترف بذنبه مع زوجة أوريّا.

٥ ـ لماذا يعفو الله عزّوجلّ عنه وبهذه السهولة؟!

٦ ـ الله سبحانه وتعالى يذكر عقوبات عجيبة ستطال داود من الأفضل عدم ذكرها هنا.

٧ ـ هذه المرأة (مع ماضيها المشهور) هي اُمّ سليمانعليه السلام!

رغم أنّ نقل مثل هذه القصص مؤلم حقّاً، ولكن ما العمل، إذ أنّ بعض الجهلة غير المطّلعين من المتأثّرين بالروايات الإسرائيليّة، أساؤوا إلى تفسير القرآن الكريم الطاهر، بإقحامهم مثل هذه الروايات فيه، ولا يوجد أمامنا سبيل إلّا ذكر أجزاء من تلك القصص الفاضحة لردّها.

والآن نسأل:

١ ـ هل يمكن إتّهام نبي مدحه الباري عزّوجلّ في قرآنه الكريم بعشر صفات عظيمة، ودعا نبيّنا الأكرم محمّد٦ إلى أن يستلهم من سيرته، هل يمكن إتّهامه بتلك التهم.

٢ ـ هل تتطابق هذه الأراجيف مع آيات القرآن التالية: ﴿**ياداود إنّا جعلناك خليفة في الأرض**﴾.

٣ ـ إذا إرتكب شخص عادي ـ وليس أحد الأنبياء ـ مثل هذا العمل الإجرامي للإعتداء على زوجة ضابط وفيّ وطاهر ومؤمن ومن خلال عملية خبيثة، بماذا سيحكم الناس عليه وما هي عقوبته؟ فالفاسق يتنزّه عن هذا العمل الشنيع، فكيف بنبي الله داود؟

وممّا يجدر ذكره أنّ التوراة لا تعتبر داود نبيّاً، وإنّما تعتبره ملكاً عادلاً له مكانة مرموقة، وأنّه مشيّد المعبد الكبير لبني إسرائيل.

٤ ـ الطريف في الأمر أنّ كتاب (مزامير داود) هو أحد كتب التوراة، وقد جمعت فيه مناجات وأحاديث داود، فهل يمكن درج أحاديث ومناجاة مثل هذا الإنسان في طيّات الكتب السماوية؟

٥ ـ لو طرحت هذه القصص على شخص لا يمتلك سوى القليل من العقل والإدراك، لأعترف بأنّ قصص التوراة المحرّفة حالياً ما هي إلّا خرافات، وأنّ أعداء نهج الأنبياء أو أشخاص جهلة غير مطّلعين صاغوا مثل هذه الخرافات، فكيف يمكن أن تكون هذه الخرافات معياراً للبحث؟ نعم فعظمة القرآن المجيد تبرز من خلال خلوّه من هذه الخرافات.

ورد عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام يقول فيه: «**لا أوتي برجل يزعم أنّ داود تزوّج امرأة أوريّا إلّا جلدته حدّين حدّاً للنبوّة وحدّاً للإسلام**».

لماذا، لأنّ المزاعم المذكورة تتّهم من جهة إنساناً مؤمناً بإرتكاب عمل محرّم، ومن جهة أُخرى تنتهك حرمة مقام النبوّة، ومن هنا حكم الإمام بجلد من يفتري عليه عليه السلام مرّتين (كلّ مرّة ٨٠ سوطاً).

وقال الامام الرّضا عليه السلام في جواب من سأله: يا ابن رسول الله، ما قصّة داود مع أوريّا؟

قال: «إنّ المرأة في أيّام داود كانت إذا مات بعلها أو قتل لا تتزوّج بعده أبداً، فأوّل من أباح الله عزّوجلّ له أن يتزوّج بامرأة قتل بعلها داود عليه السلام فتزوّج بامرأة أوريّا لمّا قتل وإنقضت عدّتها، فذلك الذي شقّ على الناس من قتل أوريّا».

يستفاد من هذا الحديث أنّ مسألة أوريّا كانت لها جذور حقيقيّة بسيطة، وأنّ داود نفّذ ما جاء في الرسالة الإلهيّة، إلّا أنّ أعداء الله من جهة، والجهلة من جهة أُخرى، إضافةً إلى مؤلّفي القصص الخيالية الذين يكتبون دائماً قصص عجيبة وكاذبة من جهة ثالثة، إختلقوا سيقاناً وأغصاناً وأوراقاً لهذه القصّة كي ينفّروا الإنسان من داود.

فأحدهم قال: لا يمكن أن يتمّ هذا الزواج ما لم تكن هنالك مقدّمات له؟

والآخر قال: يحتمل أنّ بيت أوريّا كان مجاوراً لبيت داود!

وفي النهاية اتّهموا أحد أنبياء الله الكبار بإرتكاب مختلف أنواع الذنوب الكبيرة والمخزية، وتناقلتها ألسنة الجهلة والبلهاء ولولا أنّها مذكورة في الكتب المعروفة لكان من الخطأ ذكرها والتعرّض لها.

النّبي سليمان عليه السلام

القرآن الكريم يزفّ البشرى لداود في أنّه سيرزق بولد صالح هو سليمان، وسيتولّى الحكم وأعباء الرسالة من بعده، ويقول: ﴿ووهبنا لداود سليمان نعم العبد إنّه أوّاب﴾[1].

على عكس «التوراة» الموجود اليوم والتي صوّرت «سليمان» أحد السلاطين الجبابرة وباني معابد الأوثان الضخمة ومستهتر النساء يعدّ القرآن الكريم «سليمان» من أنبياء الله العظام ونموذج للحكومة والقدرة المنقطعة النظير، وقد أعطى القرآن الكريم بعرضه البحوث المختلفة المتعلّقة بسليمان دروساً للبشر هي الأساس من ذكر قصّته.

إنّ الله تعالى أعطى لهذا الرّسول العظيم مواهب عظيمة، فمن وسيلة النقل السريعة جدّاً والتي إستطاع بواسطتها التنقّل في مملكته الواسعة في مدّة قصيرة، إلى المواد المعدنية المختلفة الكثيرة، إلى القوى العاملة الفعّالة الكافية لتصنيع تلك المعادن.

وقد قام سليمان عليه السلام بالإستفادة من المواهب المذكورة، ببناء المعابد الضخمة، وترغيب الناس بالعبادة، وكذلك فقد نظّم برامج واسعة لإستضافة أفراد جيشه وعمّاله وسائر الناس في مملكته. ومن الأواني التي جاء ذكرها في القرآن يمكننا تخيّل أكثر من ذلك.

وفي قبال ذلك طالبه الله تعالى بأداء الشكر على هذه النعم، مع تأكيده سبحانه على أنّ أداء شكر النعم يتحقّق من فئة قليلة نادرة.

ثمّ اتّضح كيف أنّ رجلاً بكلّ هذه القدرة والعظمة كان أمام الموت ضعيفاً لا حول له ولا

---

١ ـ سورة ص، ٣٠.

قوّة، بحيث فارق الدنيا فجأةً وفي لحظة واحدة. نعم .. كيف أنّ الأجل لم يعطه حتّى فرصة الجلوس أو الإستلقاء على سريره. ذلك حتّى لا يتوهّم المغرورون العاصون حينما يبلغون مقاماً أو منصباً أن قد أصبحوا مقتدرين حقيقة، فإنّ المقتدر الحقيقي الذي كان الجنّ والإنس والشياطين خدماً بين يديه، والذي كان يجول في الأرض والسماء وقد بلغ قمّة الهيبة والحشمة .. ثمّ في لحظة قصيرة فارق الدنيا.

وإتّضح كذلك كيف أنّ عصاً تافهةً، أقامت جثمانه مدّة، وجعلت الجنّ يعملون بجدٍ وإجتهاد وهم يلحظون جثمانه الواقف أو الجالس. ثمّ كيف أسقطته الأرضة على الأرض، وكيف إضطربت بسقوطه الدولة بكلّ مسؤوليها. نعم، عصاً تافهة أقامت دولةً عظيمة، ثمّ حشرة صغيرة أوقفت تلك الدولة!!

الإمتحان الصعب لسليمان وملكه الواسع

القرآن الكريم يتطرّق إلى أحد الإمتحانات التي إمتحن الله بها عبده سليمان، الإمتحان في ترك العمل بالأولى، وكيف توجّه بعدها سليمان بقلب خاشع إلى الله سبحانه وتعالى طالباً منه العفو والتوبة لتركه العمل بالأولى.[1]

يقول سبحانه: ﴿ولقد فتنّا سليمان وألقينا على كرسيه جسداً ثمّ أناب﴾.[2،3]

يستفاد من هذا الكلام الالهي بصورة عامّة أنّ موضوع إمتحان سليمان كان بواسطة جسد خالٍ من الروح أُلقي على كرسيّه وأمام عينيه، أمر لم يكن يتوقّعه، وآماله كانت متعلّقة بشيء

---

١ ـ إيجاز محتوى الآيات، سمح مرّة أُخرى لناسجي قصص الخيال أن ينسجوا قصصاً خيالية وهمية أُخرى، ويلصقوا التّهم بهذا النّبي الكبير ما لا يليق بالنبوّة، ويتنافى مع مقام العصمة، ويتنافى أساساً مع المنطق والعقل، وهذا بحدّ ذاته إمتحان للمحقّقين في علوم القرآن، فلو أنّنا إكتفينا بما تطرحه آيات القرآن لما بقيت ثغرة لنفوذ الخرافات والأباطيل.

٢ ـ سورة ص، ٣٤.

٣ ـ «الكرسي» يعني الأريكة ذات الأرجل القصيرة، ويبدو أنّه كان للسلاطين نوعان من الكراسي، الأوّل: له أرجل قصيرة يستخدم في الأوقات العادية، والثاني: له أرجل أطول يستخدمها السلاطين في إجتماعاتهم الرسمية، ويطلق على الأوّل اسم (كرسي) وعلى الثاني اسم (عرش).

آخر، والقرآن لا يعطي تفصيلات أُخرى في هذا المجال.

وقد أورد المفسّرون والمحدّثون تفسيرات متعدّدة في هذا المجال، أفضلها وأوضحها ما يلي:

إنّ سليمان عليه السلام كان متزوجاً من عدّة نساء، وكان يأمل أن يُرزق بأولاد صالحين شجعان ليساعدوه في إدارة شؤون البلاد وجهاد الأعداء، فحدّث نفسه يوماً قائلاً: لأطوفنّ على نسائي كي أُرزق بعدد من الأولاد لعلّهم يساعدونني في تحقيق أهدافي، ولكونه غفل عن قول (إن شاء الله) بعد تمام حديثه مع نفسه، تلك العبارة التي تبيّن توكّل الإنسان على الله سبحانه وتعالى في كلّ الأُمور والأحوال، فلم يرزق سوى ولد ميّت ناقص الخلقة جيء به وأُلقي على كرسي سليمان عليه السلام.

سليمان عليه السلام غرق ـ هنا ـ في تفكير عميق، وتألّم لكونه غفل عن الله لحظة واحدة وإعتمد على قواه الذاتية، فتاب إلى الله وعاد إليه.[1]

على أيّة حال، فإنّ القرآن الكريم يكرّر الحديث بصورة مفصّلة حول قضيّة توبة سليمان التي وردت في آخر عبارة تضمّنتها الآية السابقة: **﴿قال ربّ اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي إنّك أنت الوهّاب﴾**[2].

دولة سليمان العريضة

استجاب الله سبحانه وتعالى لطلب سليمان ومنحه ملكاً يتميّز بإمتيازات خاصّة ونعم كبيرة، يمكن إيجازها في خمسة أقسام:

---

١ ـ القصص الكاذبة والقبيحة التي تحدّثت عن فقدان خاتم سليمان، وعثور أحد الشياطين عليه، وجلوس ذلك الشيطان على عرش سليمان، كما ورد في بعض الكتب التي لا يستبعد أن يكون مصدرها هو كتاب (التلمود) اليهودي المليء بالخرافات الإسرائيلية لا يتناسب مع العقل والمنطق.
وهذه القصص ـ في حقيقة الأمر ـ دليل إنحطاط أفكار مبتدعيها، ولهذا فإنّ المحقّقين المسلمين أينما ذكروها أعلنوا بصراحة زيفها وكونها مجرّد إختلاقات، وقالوا: إنّ مقام النبوّة والحكومة الإلهية غير مرتبط بالخاتم، ولم يستردّ الباري عزّوجلّ النبوّة من أحد أنبيائه بعد أن بعثه بها، حتّى يبعث الشيطان بصورة نبي ليجلس مكان سليمان (٤٠) يوماً يحكم فيها بين الناس ويقضي بينهم.

٢ ـ سورة ص، ٣٥.

فسخّرنا له الريح

١ ـ تسخير الرياح له بعنوان واسطة سريعة السير **﴿فسخّرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب﴾**[١].

من الطبيعي أنَ الملك الواسع الكبير يحتاج إلى واسطة اتّصال سريعة، كي يتمكّن صاحب ذلك الملك من تفقّد كلّ مناطق مملكته بسرعة في الأوقات الضرورية، وهذا الإمتياز منحه الباري عزّوجلّ لسليمان عليه السلام.[٢]

الجنّ في خدمة سليمان

٢ ـ النعمة الأُخرى التي أنعمها الباريء عزّوجلّ على عبده سليمان عليه السلام، هي تسخير الموجودات المتمردة ووضعها تحت تصرّف سليمان لتنجز له بعض الأعمال التي يحتاجها **﴿والشياطين كلّ بنّاء وغوّاص﴾**[٣].

أي إنّ مجموعة منها منشغلة في البرّ ببناء ما يحتاج إليه سليمان من أبنية، وأُخرى منشغلة بالغوص في البحر.

---

١ ـ سورة ص، ٣٦.

٢ ـ أمّا كيف كانت الرياح تطيع أوامره؟

وبأي سرعة كانت تسير؟

وعلى أي شيء كان سليمان وأصحابه يركبون أثناء إنتقالهم من مكان إلى آخر عبر الرياح؟

وما هي العوامل التي كانت تحفظهم من السقوط ومن إنخفاض وإرتفاع ضغط الهواء، وغيرها من المشاكل.

خلاصة الأمر: ما هي هذه الواسطة السريّة وذات الأسرار الخفيّة التي كانت موضوعة تحت تصرّف سليمان في ذلك العصر؟

تفاصيل هذه التساؤلات ليست واضحة بالنسبة لنا، وكلّ ما نعرفه أنّ تلك الأُمور الخارقة توضع تحت تصرّف الأنبياء لتسهّل لهم القيام بمهامهم. وهذه القضايا ليست بقضايا عادية، وإنّما هي نعم خارقة ومعجزات، وهذه الأشياء تعدّ شيئاً بسيطاً في مقابل قدرة الباري عزّوجلّ، وما أكثر المسائل التي نعرف أصلها في الوقت الذي لا نعرف أي شيء عن جزئياتها.

٣ ـ سورة ص، ٣٧.

وبهذا الشكل فإنّ الله وضع تحت تصرّف سليمان قوّة مستعدّة لتنفيذ ما يحتاج إليه، فالشياطين ـ التي من طبيعتها التمرّد والعصيان ـ سخّرت لسليمان لتبني له، ولتستخرج المواد الثمينة من البحر.

ومسألة تسخير الشياطين لسليمان وتنفيذها لما يحتاج إليه، لم ترد في هذه الآية فقط، وإنّما وردت في عدّة آيات من آيات القرآن المجيد، ولكن في بعض الآيات استخدمت كلمة (الشياطين) فيها، فيما إستخدمت كلمة (الجنّ) في بعضها الآخر.

إنّ (الجنّ) موجودات مخفية عن أنظارنا، ولها عقول وشعور وقدرة، وبعضها مؤمن وبعضها الآخر كافر، ولا يوجد هناك أي مانع من أن توضع ـ بأمر من الله ـ تحت تصرّف بعض الأنبياء، لتنجز له بعض الأعمال [1].

لقد صيغت حول «الجنّ» أساطير وحكايات وقصص خرافية كثيرة، لو حذفناها لكان أصل وجودهم والصفات الخاصّة بهم التي وردت في القرآن موضوعاً لا يخالف العلم والعقل مطلقاً.

وعلى كلّ حال، يستفاد من قوله تعالىٰ: **﴿ومن الجنّ من يعمل بين يديه بإذن ربّه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير﴾**، أنّ تسخير هذه القوّة العظيمة كان ـ أيضاً ـ بأمر الله، وأنّهم كانوا يتعرّضون للعقاب لدى تقصيرهم في أداء مهامهم.

القرآن يشير إلى جانب من الأعمال الإنتاجية الهامّة، التي كان يقوم بها فريق الجنّ بأمر سليمان.

يقول تعالى: **﴿يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات﴾** [2].

فكلّ ما أراده سليمان من معابد وتماثيل وأواني كبيرة للغذاء والتي كانت كالأحواض الكبيرة، وقدور واسعة ثابتة، كانت تهيّأ له، فبعضها يرتبط بالمسائل المعنوية والعبادية، وبعضها الآخر يرتبط بالمسائل الجسمانية، وكانت متناسبة مع أعداد جيشه وعمّاله الهائلة.

---

١ ـ وهناك إحتمال وارد أيضاً، وهو أنّ كلمة الشياطين لها معنى واسع قد يشمل حتّى العصاة من البشر، وقد إستخدم هذا المعنى في الآية (١١٢) من سورة الأنعام، وبهذا الترتيب فإنّ الله سبحانه وتعالى منح سليمان قوّة جعلت حتّى المتمردّين العصاة ينصاعون لأوامره.

٢ ـ سبأ، ١٣ ـ ١٢.

على كلّ حال، فإنّ هؤلاء العمّال النشطين المهرة، قاموا ببناء المعابد الضخمة والجميلة في ظلّ حكومته الإلهية والعقائدية، حتّى يستطيع الناس أداء وظائفهم العبادية بسهولة.

«تماثيل» المذكورة في القرآن، جمع تمثال، بمعنى الرسم والصورة والمجسمة، وقد وردت تفاسير عديدة حول ماهية هذه التماثيل ولأي الموجودات كانت؟ أو لماذا أمر سليمان بصنعها؟.

يمكن أن تكون صنعت لتزيين المباني، كما نلاحظ ذلك في المباني المهمّة القديمة في عصرنا الحالي، أو حتّى في بعض المباني الجديدة.

أو لإضفاء الأُبّهة والهيبة على المباني التي بنيت، حيث أنّ رسم بعض أنواع الحيوانات كالأسد مثلاً يضفي نوعاً من الأُبّهة في أفكار غالبية الناس.[1]

الشياطين في الاغلال والاصفاد

٣ ـ النعمة الأُخرى التي أنعمها الباري عزّوجلّ على سليمان، هي سيطرته على مجموعة من القوى التخريبيّة، لأنّ هناك من بين الشياطين من لا فائدة فيه، ولا سبيل أمام سليمان سوى تكبيلهم بالسلاسل، كي يبقى المجتمع في أمان من شرورهم، كما جاء في القرآن المجيد ﴿وآخرين مقرنين في الأصفاد﴾[2].

---

١ ـ هل كان صنع تماثيل ذوات الأرواح مباحاً في شريعة سليمان عليه السلام مع كونه حراماً في الشريعة الإسلامية؟ أو أنّ التماثيل التي كانت تصنع لغير ذوات الروح من الموجودات كالأشجار والجبال والشمس والقمر والنجوم؟

أو أنّها كانت مجرّد نقوش ورسوم على الجدران ـ كما تلاحظ في الآثار القديمة ـ وهي غير محرّمة كما هو الحال في حرمة التماثيل المجسّمة.

كلّ ذلك محتمل، لأنّ تحريم صناعة المجسّمات في الإسلام، كان بقصد مكافحة قضيّة عبادة الأوثان وإقتلاعها من الجذور، في حين أنّ ذلك لم يكن بتلك الدرجة من الضرورة في زمن سليمان، لذا لم تحرم في شريعته!

ولكنّنا نقرأ في رواية عن الإمام الصادق عليه السلام في تفسير هذه الآية أنّه قال: «والله ما هي تماثيل الرجال والنساء ولكنّها الشجر وشبهه». وبالإستناد إلى هذه الرّواية فإنّ صنع التماثيل من ذوات الروح في شريعة سليمان كان حراماً أيضاً.

٢ ـ وهنا يطرح هذا السؤال: إن كان المراد من الشياطين هم شياطين الجنّ، فإنّ أُولئك لهم جسم

٤ ـ النعمة الرابعة التي أنعمها الله سبحانه وتعالى على نبيّه سليمان هي إعطاؤه الصلاحيات الواسعة والكاملة في توزيع العطايا والنعم على من يريد، ومنعها عمّن يريد حسب ما تقتضيه المصلحة، ﴿هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب﴾[1].

٥ ـ والنعمة الخامسة والأخيرة التي منّ الله سبحانه وتعالى بها على سليمان، هي المراتب المعنوية اللائقة التي شملته، ﴿وإنّ له عندنا لزلفى وحسن مآب﴾[2].

هذه الآية ـ في الحقيقة ـ هي الردّ المناسب على أُولئك الذين يدّنسون قدسية أنبياء الله العظام بادّعاءات باطلة وواهية يستقونها من كتاب التوراة الحالي المحرّف، وبهذا الشكل فإنّها تبرىء ساحته من كلّ تلك الإتّهامات الباطلة والمزيّفة، وتشيد بمرتبته عند الباريء عزّوجلّ، حتّى أنّ عبارة ﴿حسن مآب﴾ التي تبشّره بحسن العاقبة والمنزلة الرفيعة عند الله، هي ـ في نفس الوقت ـ إشارة إلى زيف الإدّعاءات المحرّفة التي نسبتها كتب التوراة إليه، والتي تدّعي أنّ سليمان انجرّ في نهاية الأمر إلى عبادة الأصنام إثر زواجه من امرأة تعبد الأصنام، وعمد إلى بناء معبد للأصنام، إلّا أنّ القرآن الكريم ينفي ويدحض كلّ تلك البدع والخرافات.

سُليمان في وادي النَمْل

يستفاد من القرآن الكريم أن «حكومة سليمان» لم تكن حكومةً مألوفة، بل حكومة مقرونة بما يخرق العادات والمعاجز المختلفة.

شفّاف لا يتناسب مع إستخدام الأغلال والسلاسل والقيود.

لهذا قال البعض: إنّها كناية عن إعتقال ومنع تلك الشياطين من أداء أي نشاط تخريبي، وإن كان المقصود من الشياطين هم المتمردون والعصاة من بني آدم فإنّ الأغلال والقيود تبقى محافظة على مفهومها الأصلي، أي إنّ إستخدامها هنا وارد.

١ ـ عبارة ﴿بغير حساب﴾ إمّا أن تكون إشارة إلى أنّ الباريء عزّوجلّ قد أعطى لسليمان صلاحيات واسعة لن تكون مورد حساب أو مؤاخذة، وذلك لصفة العدالة التي كان يتمتّع بها سليمان في مجال إستخدام تلك الصلاحيات، أو أنّ العطاء الإلهي لسليمان كان عظيماً بحيث أنّه مهما منح منه فإنّه يبقى عظيماً وكثيراً.

٢ ـ سورة ص، ٤٠ ـ ٣٨.

وفي الحقيقة فإنّ الله أظهر قدرته في هذه الحكومة وما سخّر لها من قوى، ونحن نعرف أن هذه الأمور عند الله ـ في نظر الإنسان الموحّد ـ يسيرة وسهلة!.

وأوّل ما يبدأ القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿وحُشر لسليمانَ جنودُه من الجنّ والإنس والطير﴾.

وكانت جنوده من الكثرة بحيث كانوا عند التحرك والمسير، ومن أجل المحافظة على النظم. يؤمرون بتوقف مقدمة الجيش لتلحق بها مؤخرتها ﴿فهم يوزعون﴾.

إنّ سليمان عليه السلام كان قد جمع جنوده وحرّكهم نحو نقطةٍ ما، لكن هذه النقطة أية نقطة هي؟ وأين كان يتجه سليمان؟ ليس ذلك معلوماً على وجه الدقّة.

واستفاد بعضهم من الآية التالية التي تتحدث عن وصول سليمان إلى وادي النمل، أنّها منطقة على مقربةٍ من الطائف. وقال بعضهم: بل هي منطقة على مقربة من «الشام».

وعلى كل حال، فإنّ سليمان تحرك بهذا الجيش العظيم ﴿حتى أتوا على وادي النمل﴾.

فخاطبت نملة من النمل أصحابها محذرة، ﴿قالت نملة يا أيّها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنّكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون﴾[1].

﴿فتبسم ضاحكاً من قولها﴾.

هناك كلمات مختلفة عند المفسّرين في الشيء الذي أضحك سليمان، والظاهر أن القضية ذاتها كانت عجيبة عند سليمان، بحيث تُحذّر نملة صويحباتها من النمل... تحذرهنّ من تحطيم سليمان وجنوده إياهن وهم لا يشعرون: فضحك من أجلها!

قال بعضهم: كان ضحك سليمان سروراً منه بأن عرف أن النمل تعترف بتقواه وعدالته وتقوى جنوده وعدالتهم.

وقال بعضهم: كان ضحكه وتبسمه لأنّ الله أعطاه هذه القدرة، وهي أنّه برغم جلجلة جيشه ولجبه فإنّه التفت إلى صوت النملة مخاطبة بقية النمل فلم يغفل عنها.

وعلى كل حال، فإن سليمان توجه نحو الله.. داعياً وشاكراً مستزيداً فضله ﴿وقال ربّ أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والدي﴾.

---

١ ـ ويستفاد ضمناً من جملة ﴿لا يشعرون﴾ أن عدل سليمان كان ظاهراً وواضحاً حتى عند النمل، لأنّ مفهوم الجملة أن سليمان وجنوده لو شعروا والتفتوا إلى النملة الضعيفة لما وطأوها بالأقدام، وإذا وطأوها فإنّما ذلك لعدم توجههم والتفاتهم.

﴿وأن أعمل صالحاً ترضاه﴾

والطلب الثّالث الذي طلبه سليمان من ربّه، هو أن يجعله في زمرة الصالحين، إذ قال: ﴿وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين﴾ [1].. [2]

---

١ ـ النمل، ١٩ ـ ١٧.

٢ ـ معرفة سليمان بلغة الحيوانات ومنطقها

ليس لنا كثيرُ معرفةٍ بعالم الحيوانات... وما يزال الغموض أو الإبهام يكتنف هذا العالم ويلقي عليه ظلاله، بالرغم من التقدم العلمي في هذا المجال.

إنّنا نرى آثار ذكاء الحيوانات ومهارتها في كثير من أعمالها.. فبناء خلايا النحل بشكلها المنظّم الدقيق، ودقة النمل في جميع ما يحتاج للشتاء، وكيفية ذخيرته ومذخره! ودفاع الحيوانات عن نفسها عند مواجهتها العدوّ، وحتى معرفتها بكثير من الأمراض، والعثور على بيوتها وأوكارها من الاماكن البعيدة، وقطع المسافات الطويلة للوصول إلى هدفها... وتوقّعها عن حوادثْ المستقبل وأمثالها.

كل هذه الأُمور تدل على أن في دنيا الحيوانات المجهولة كثيراً من الوسائل الغامضة التي لا نعرف حلّها!.

ثمّ بعد هذا كلّه فإنّ كثيراً من الحيوانات تقوم بأعمال مذهلة نتيجة للتعلم والتربية... يعجز عنها حتى الانسان.

إلّا أنّه ليس من الواضح أنّ هذه الحيوانات إلى أية درجة هي خبيرة بدنيا الناس!.. ترى هل تعلم الحيوانات واقعاً: من نحن؟! وما نعمل؟ وقد لا نعهد في هذه الحيوانات ذكاءً بهذا المستوى، إلّا أن هذا لا يعني نفيه وسلبه عنها.

فعلى هذا الحساب إذا كنّا قرأنا في القصّة السابقة.. أن النمل علم بمجيء سليمان وجنوده، وحذر من البقاء، وأنّه يجب التوجه نحو مساكنه لئلا يحطمه سليمان وجنوده.. وسليمان عرف هذا الموضوع تماماً.. فلا مجال للعجب.

ثمّ بعد هذا فإن حكومة سليمان ـ كما قلنا آنفاً ـ كانت خارقة للعادات مقرونة بالمعاجز، فعلى هذا الأساس أبدىٰ بعض المفسّرين اعتقادهم بأن هذا المستوى من الإطلاع والمعرفة ـ من قبل فئة من الحيوانات في عصر سليمان، هو بنفسه إعجاز خارق للعادة، ولا يمنع أن لا نرى ذلك عينه في سائر العصور والقرون.

والغرض أنّه لا دليل عندنا على حمل قصّة سليمان والنمل، أو سليمان والهدهد، على الكناية أو لسان الحال، مع إمكان حفظ الظاهر وحمله على المعنى الحقيقي!

سليمان عليه السلام يستعرض قوّاته القتالية

في أحد الأيّام وعند العصر إستعرض سليمان عليه السلام خيوله الأصيلة التي كان قد أعدّها لجهاد أعدائه، إذ مرّت تلك الخيول مع فرسانها أمام سليمان عليه السلام في إستعراض منسّق ومرتّب. وبما أنّ الملك العادل وصاحب النفوذ عليه أن يمتلك جيشاً قويّاً، والخيول السريعة إحدى الوسائل المهمّة التي يجب أن تتوفّر لدى ذلك الجيش، فقد جاء هذا الوصف في القرآن بعد ذكر مقام سليمان بإعتباره نموذجاً من أعماله.

إذ يقول: ﴿إذ عرض عليه بالعشي الصافنات الجياد﴾.

ولكي يطرد سليمان التصوّر عن أذهان الآخرين في أنّ حبّه لهذه الخيول القويّة ناتج من حبّه للدنيا، جاء في قوله تعالى: ﴿فقال إنّي أحببت حبّ الخير عن ذكر ربّي﴾ انّي أُحبّ هذه الخيل من أجل الله وتنفيذ أمره، وأُريد الإستفادة منها في جهاد الأعداء.

وإستمرّ سليمان عليه السلام ينظر إلى خيله الأصيلة المستعدّة لجهاد أعداء الله، وهو يعيش حالة من السرور، حتّى توارت عن أنظاره ﴿حتّى توارت بالحجاب﴾.

كان هذا المشهد جميلاً ولطيفاً لقائد كبير مثل سليمان، بحيث أمر بإعادة عرض الخيل مرّة أُخرى ﴿ردّوها عليّ﴾. وعندما نفّذت أوامره بإعادة الخيل، عمد سليمان عليه السلام إلى مسح سوقها وأعناقها ﴿فطفق مسحاً بالسوق والأعناق﴾[1].

وبهذا الشكل أشاد بجهود مدربي تلك الخيول، وأعرب لهم عن تقديره لها، لأنّ من الطبيعي لمن أراد أن يعرب عن تقديره للجواد أن يمسح رأس ذلك الجواد ووجهه ورقبته وشعر رقبته، أو يمسح على ساقه. وأبرز في نفس الوقت تعلّقه الشديد بخيله التي تساعده في تحقيق أهدافه العليا السامية، وتعلّق سليمان الشديد بخيله ليس بأمر يبعث على العجب.[2]

---

١ ـ سورة ص، ٣٣ ـ ٣١.

٢ ـ ما ذكرناه يتطابق مع ما ذهب إليه بعض المفسّرين كالفخر الرازي، كما تمّت الإستفادة من بعض ما ورد عن العالم الشيعي الكبير السيّد المرتضى، إذ قال في كتابه (تنزيه الأنبياء) في باب نفي الإدّعاءات الباطلة والمحرّمة التي ينسبها بعض المفسّرين ورواة الحديث إلى سليمان (إنّ الله تعالى ابتدأ الآية بمدحه والثناء عليه فقال: ﴿نعم العبد إنّه أوّاب﴾ فلا يمكن أن يثني عليه بهذا الثناء ثمّ يتبعه من غير فصل بإضافة القبيح إليه، وأنّه يتلّهى بعرض الخيل عن فعل المفروض عليه من الصلاة،

قضاء داود وسليمان عليهما السلام

يشير القرآن الكريم إلى جانب من حياة داود وسليمان، وفي البداية أشار إشارة خفيّة إلى حادث قضاء وحكم صدر من جانب داود وسليمان، فيقول: ﴿وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنّا لحكمهم شاهدين﴾[1].

وبالرغم من أنّ القرآن قد ألمح إلى هذه المحكمة لمحة خفيّة، وإكتفى بإشارة إجمالية وإستخلاص النتيجة الأخلاقية والتربوية لها والتي سنشير إليها فيما بعد، إلّا أنّه وردت بحوث كثيرة حولها في الرّوايات الإسلامية وأقوال المفسّرين.

فقال جماعة: إنّ القصّة كانت كما يلي: إنّ قطيع أغنام لبعض الرعاة دخلت ليلاً إلى بستان فأكلت أوراقه وعناقيد العنب منه فأتلفته، فرفع صاحب البستان شكواه إلى داود، فحكم داود بأن تعطى كلّ الأغنام لصاحب البستان تعويضاً لهذه الخسارة الفادحة، فقال سليمان ـ والذي كان طفلاً آنذاك ـ لأبيه: يانبي الله العظيم، غيّر هذا الحكم وعدّله! فقال الأب: وكيف ذاك؟ قال: يجب أن تودع الأغنام عند صاحب البستان ليستفيد من منافعها ولبنها وصوفها، وتودع البستان في يد صاحب الأغنام ليسعى في إصلاحه، فإذا عاد البستان إلى حالته الأُولىٰ يُردّ إلى صاحبه، وتردّ الأغنام أيضاً إلى صاحبها. وأيّد الله حكم سليمان.

لكن يبقى هنا إستفهام مهمّ:

ماذا كان أساس ومعيار هذين الحكمين؟

ويمكن الإجابة عن هذا السؤال: إنّ المعيار كان جبران الخسارة، فينظر داود إلى أنّ الخسارة التي أصابت الكرم تعادل قيمة الأغنام، ولذلك حكم بوجوب إعطاء الأغنام لصاحب البستان جبراً للخسارة، لأنّ التقصير من جانب صاحب الأغنام.

وينبغي الإلتفات إلى أنّنا نقرأ في بعض الرّوايات أنّ على صاحب الأغنام أن يمنع غنمه من التعدّي على زرع الآخرين في الليل، كما أنّ من واجب صاحب الزرع حفظ زرعه في النهار.

أمّا معيار حكم سليمان عليه السلام فقد كان يرى أنّ خسارة صاحب البستان تعادل ما سينتفع به

والذي يقتضيه الظاهر أنّ حبّه للخيل وشغفه بها كان عن إذن ربّه وبأمره وبتذكيره إيّاه، لأنّ الله تعالى قد أمرنا بإرباط الخيل وإعدادها لمحاربة الأعداء، فلا ينكر أن يكون سليمان عليه السلام مأموراً بمثل ذلك).

١ ـ الانبياء، ٧٨.

من الأغنام لسنة كاملة!

بناءً على هذا فإنّ الإثنين قد قضيا بالحقّ والعدل، مع فارق أنّ حكم سليمان كان أدقّ، لأنّ الخسارة لا تدفع مرّة واحدة في مكان واحد، بل تؤدّي بصورة تدريجيّة بحيث لا تثقل على صاحب الغنم أيضاً. وإضافةً إلى ما مرّ، فقد كان هناك تناسب بين الخسارة والجبران، لأنّ جذور النباتات لم تتلف، بل ذهبت منافعها المؤقتة، ولذلك فإنّ من الأعدل ألّا تنقل أُصول الأغنام إلى ملك صاحب البستان، بل تنقل منافعها فقط.

وعلى كلّ حال، فإنّ الله تعالىٰ يؤيّد حكم سليمان في هذه القصّة على هذه الشاكلة: ﴿ففهّمناها سليمان﴾ ولكن هذا لا يعني أنّ حكم داود كان إشتباهاً وخطأً، لأنّه تعالى يضيف مباشرةً ﴿وكلّاً آتينا حكماً وعلماً﴾ [1].

قصّة الهُدهد وملكة سبأ

يشير القرآن إلى جانب آخر من حياة سليمان عليه السلام المدهشة، وما جرى له مع الهدهد وملكة سبأ.

فيقول أوّلاً: ﴿وتفقّد الطير﴾.

وهذا التعبير يكشف هذه الحقيقة، وهي أنّه كان يراقب وضع البلاد بدقّة، وكان يتحرى أوضاع حكومته لئلا يخفى عليه غياب شيء، حتى لو كان طائراً واحداً.

وهناك كلام بيّن المفسّرين في كيفية التفات سليمان إلى عدم حضور الهدهد.

فقال بعضهم: كان سليمان عليه السلام عندما يتحرك تظلل الطير بأنواعها فوق رأسه فتكون مثل الخيمة، وقد عرف غياب الهدهد من وجود ثغرة في هذا الظل!.

وقال بعضهم: كان الهدهد مأموراً من قبل سليمان بالتقصيّ عن الماء كلما دعت الحاجة إليه... وعندما دعت الحاجة إلى الماء في هذه المرّة لم يجد الهدهد فعرف غيابه.

وعلى كل حال، فهذا التعبير ﴿ما لي لا أرىٰ الهُدهد﴾ ثمّ قوله: ﴿أم كان من الغائبين﴾ لعله إشارة إلى أن غياب الهدهد هل كان لعذر مقبول أولغير عذر؟

ومن أجل أن لا يكون حكم سليمان غيابياً، وأن لا يؤثر غياب الهُدهد على بقية الطيور،

---

١ ـ الانبياء، ٧٩.

فضلاً عن الاشخاص الذين يحملون بعض المسؤوليات، أضاف «سليمان» قائلاً: **﴿لأُعذبنه عذاباً شديداً أو لأذبحنه أو ليأتيني بسلطان مبين﴾**[1].

وفي الحقيقة فإنّ سليمان قبل أن يقضي غيابياً ذكر تهديده اللازم في صورة ثبوت التخلّف... وحتى هذا التهديد جعله في مرحلتين تناسبان الذنب... مرحلة العقاب بما دون الاعدام، ومرحلة العقاب بالإعدام.

وقد برهن «سليمان» ضمناً أنّه ـ حتى بالنسبة للطائر الضعيف ـ يستند في حكمه إلى المنطق والدليل، ولا يعوّل على القوّة والقدرة أبدا.

الهدهد والنبأ الهام

ولكن غيبة الهدهد لم تطل **﴿فمكث غير بعيد﴾** عاد الهدهد وتوجه نحو سليمان: **﴿فقال أحطت بما لم تُحط به وجئتك من سبأ بنبأٍ يقين﴾**.

وكأن الهدهد قد رأىٰ آثار الغضب في وجه سليمان، ومن أجل أن يزيل ذلك التهجم، أخبره أوّلاً بخبر مقتضب مهم الى درجة أن سليمان نفسه كان غير مطّلع عليه، برغم ما عنده من علم، ولما سكن الغضب عن وجه سليمان، فصّلَ الهدهد له الخبر[2].

---

١ ـ النمل، ٢٢ ـ ٢٠.

٢ ـ وممّا ينبغي الإلتفات إليه أنّ جنود سليمان ـ حتى الطيور الممتثلة لأوامره ـ كانت عدالة سليمان قد أعطتهم الحرية والأمن والدعة بحيث يكلمه الهدهد دون خوف وبصراحة لا ستار عليها فيقول: **﴿أحطت بما لم تحط به﴾**.

فتعامل الهدهد «وعلاقته» مع سليمان لم يكن كتعامل الملأ المتملقين للجبابرة الطغاة.. إذ يتملقون في البدء مدة طويلة، ثمّ يتضرعون ويعدون أنفسهم كالذرّة أمام الطود، ثمّ يهوون على أقدام الجبابرة ويبدون حاجتهم في حالة من التضرع والتملق، ولا يستطيعون أن يصرّحوا في كلامهم أبداً، بل يكنّون كنايةً أرق من الورد لئلا يخدش قلب السلطان غبار كلامهم!!.

أجل، إنّ الهُدهد قال بصراحة: غيابي لم يكن اعتباطاً وعبثاً... بل جئتك بخبر يقين «مهم» لم تحط به!

وهذا التعبير درس كبير للجميع، إذ يمكن أن يكون موجود صغير كالهدهد يعرف موضوعاً لا يعرفه أعلم من في عصره، لئلا يكون الإنسان مغروراً بعلمه... حتى لو كان ذلك سليمان مع ما عنده من علم النبوّة الواسع.

فإنّ الهدهد أخذ يفصّل لسليمان ما حدث فقال: **﴿إنّي وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم﴾**.

لقد بيّن الهُدهد لسليمان بهذه الجمل الثلاث جميع مواصفات هذا البلد تقريباً، وأسلوب حكومته!

فقال أوّلاً: إنّه بلد عامر فيه جميع المواهب والإمكانات، والآخر إنّني وجدت امرأة في قصر مجلل تملكهم، والثّالث: لها عرش عظيم ـ ولعله أعظم من عرش سليمان ـ لأنّ الهدهد كان رأى عرش سليمان حتماً، ومع ذلك يصف عرش هذه الملكة بأنّه عظيم.

وقد أفهم الهدهد بكلامه هذا سليمان أنّه لا ينبغي أن تتصور أن جميع العالم تحت «نفوذ أمرك وحكومتك»! وأن عرشك هو وحده العرش العظيم...

ولما سمع سليمانعليه السلام كلام الهدهد غرق في تفكيره، إلّا أن الهُدهد لم يمهله طويلاً فأخبره بخبر جديد.. خبر عجيب، مزعج مريب، إذ قال: **﴿وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم﴾** فكانوا يفخرون بعبادتهم للشمس وبذلك صدّهم الشيطان عن طريق الحق **﴿فصدهم عن السبيل﴾**.

وقد غرقوا في عبادة الاصنام حتى أنّي لا أتصور أنّهم يثوبون إلى رشدهم **﴿فهم لا يهتدون﴾** [1].

وهكذا فقد بيّن الهدهد ما هم عليه من حالة دينية ومعنوية أيضاً، إذ هم غارقون في الشرك والوثنية والحكومة تروّج عبادة الشمس... والناس على دين ملوكهم.

معابدهم وأوضاعهم الأُخرىٰ تدل على أنّهم سادرون في التيه، ويتباهون بهذا الضلال والإنحراف، وفي مثل هذه الظروف التي يرى فيها الناس والحكومة على خط واحد، فمن البعيد إمكان هدايتهم.

كتاب سليمان لملكة سبأ

لقد أصغى سليمانعليه السلام إلى كلام الهُدهد بكل اهتمام.. وفكّر مليّاً، ولعل سليمان كان يظنُّ أن كلام الهدهد صحيح، ولا دليل على كذب بهذا الحجم.. لكن حيث أن هذه المسألة لم تكن

---

١ ـ النمل، ٢٤ ـ ٢٢.

مسألة «ساذجةً» بسيطة، ولها أثر كبير في مصير بلد كامل وأمّة كبيرة!.. فينبغي أن لا يكتفي بمخبر واحد، بل ينبغي التحقيق أكثر في هذا المجال: **﴿قال سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين﴾** [١].

سليمان عليه السلام لم يتهم الهدهد فيحكم عليه بالكذب.. ولم يُصدّق كلامه دون أيّ دليل... بل جعله أساساً للتحقيق!

فقد كتب كتاباً وجيزاً ذا مغزى عميق، وسلّمه إلى الهدهد وقال له: **﴿اذهب بكتابي فألقه إليهم ثمّ تولّ عنهم فانظر ماذا يرجعون﴾**.

ففتحت ملكة سبأ كتاب سليمان، واطّلعت على مضمونه، وحيث أنّها كانت من قبل قد سمعت بأخبار سليمان واسمه، ومحتوى الكتاب يدلّ على إقدامه وعزمه الشديد في شأن بلدة «سبأ»، لذلك فكّرت مليّاً، ولما كانت في مثل هذه المسائل المهمّة تستشير من حولها، لذلك فقد دعتهم وتوجهت إليهم و**﴿قالت يا أيّها الملأ إنّي أُلقي إليّ كتاب كريم﴾**. [٢]

ثمّ إن «ملكة سبأ» تحدثت عن مضمون الكتاب فقالت: **﴿إنّه من سليمان وإنّه بسم الله الرحمن الرحيم ألّا تعلوا علي وأتوني مسلمين﴾**. [٣]

وبعد أن ذكرت ملكة سبأ محتوى كتاب سليمان لقومها... التفتت إليهم و **﴿قالت يا أيّها الملأ افتوني في أمري ما كنت قاطعةً أمراً حتى تشهدون﴾**.

---

١ ـ نمل، ٢٧.

٢ ـ ترىٰ، حقّاً أن ملكة سبأ لم تكن رأت «حامل الكتاب»، إلّا أنّها أحست بأصالة الكتاب من القرائن الموجودة فيه؟ ولم تحتمل أن يكون الكتاب مفتعلاً ومفترى أبداً..؟!

أم أنّها رأت الرّسول بأُم عينيها، ورأت كيفية وصول الكتاب المدهشة التي هي بنفسها دليل على أن المسألة واقعية ومهمّة، ومهما كان الأمر فإنّها عوّلت على الكتاب بكل اطمئنان؟.

وقول الملكة: ﴿إنّي ألقي إلي كتاب كريم﴾ «أي قيم» لعله لمحتواه العميق، أو لأنّه بُدىء باسم الله أو لأنّه ختم بإمضاء صحيح أو لأنّ مرسله رجل عظيم.

صحيح أنّهم (قوم سبأ) كانوا يعبدون الشمس، إلّا أننا نعرف أن كثيراً من عبدة الأصنام كانوا يعتقدون بالله ـ أيضاً ـ ويسمونه رب الأرباب ويعظمونه ويحترمونه.

٣ ـ ومن البعيد ـ كما يبدو ـ أن يكون سليمان كتب كتابه إلى ملكة سبأ بهذه العبارات «وهذه الألفاظ العربيّة». إذاً فالجمل الآنفة يمكن أن تكون منقولة بالمعنى، أو أنّها خلاصة ما كان كتبه سليمان، وقد أدّتها ملكة سبأ بهذه الوجازة والاقتضاب إلى قومها.

لقد أرادت الملكة بهذه الإستشارة تقوية مركزها في قومها، وأن تلفت أنظارهم إليها، كما أرادت ضمناً أن تعرف مدى انسجامهم وميزان استجابتهم لما تُقدم عليه من تصميم.

فالتفت إليها أشراف قومها وأجابوها على استشارتها ف﴿**قالوا نحن أُولوا قوّةٍ وأولوا بأسٍ شديدٍ والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين**﴾[1].

وهكذا فقد أظهروا لها تسليمهم وإذعانهم لأوامرها... كما أبدوا رغبتهم في الإعتماد على القوّة والحضور في ميدان الحرب.

إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها

ولمّا رأت الملكة رغبتهم في الحرب خلافاً لميلها الباطني، ومن أجل إطفاء هذا الظمأ وأن تكون هذه القضية مدروسة، لذلك ﴿**قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلو أعزة أهلها أذلةً**﴾.

فيقتلون جماعةً منهم ويأسرون آخرين ويطردون طائفة ثالثة ويخرجونهم من ديارهم ويخربون حيّهم و ينهبون ثرواتهم وأموالهم..

وفي الحقيقة.. إن ملكة سبأ التي كانت بنفسها ملكةً، كانت تعرف نفسية الملوك بصورة جيدة، وأن سيرتهم تتلخص في شيئين:

١ ـ الإفساد والتخريب.

٢ ـ وإذلال الأعزة...

لأنّهم يفكرون في مصالحهم الشخصية، ولا يكترثون بمصالح الأُمّة وعزتها... وهما على طرفي نقيض دائماً.

ثمّ أضافت الملكة قائلةً: علينا أن نختبر سليمان وأصحابه، لنعرف من هم وما يريدون؟ وهل سليمان نبيّ حقاً أو ملك؟ وهل هو مصلح أو مفسد؟ وهل يذلّ الناس أم يحترمهم ويعزّهم؟

فينبغي أن نرسل شيئاً إليه ﴿**وإنّي مرسلة إليهم بهديةٍ فناظرة بم يرجع المرسلون**﴾[2].

---

١ ـ النمل، ٣٢ ـ ٢٨.

٢ ـ النمل، ٣٥ ـ ٣٤.

فالملوك لهم علاقة شديدة بالهدايا، ونقطة الضعف كامنة في هذا الأمر، فيمكن أن يذعنوا للهدايا الغالية... فإذا أذعن سليمان بهذه الهدية فهو ملك، وينبغي أن نواجهه بـالقوّة فـنحن أقوياء... وإذا ألح على كلامه ولم يكترث بنا فهو نبيّ، وفي هذه الصورة ينبغي التعامل مـعه بالحكمة والتعقل!

ولم يذكر القرآن أية هدية أرسلتها الملكة إلى سليمان، لكنّه بتنكيرها بيّن عظمتها، إلّا أن المفسّرين ذكروا مسائل كثيرة لا يخلو بعضها من الإغراق:

قال بعضهم: أرسلت إليه خمسمائة غلام وخمسمائة جارية ممتازة، وقد ألبست الرجال ثياب النساء والنساء ثياب الرجال، وجعلت الأقراط في آذان الرجال والاسورة في أيديهم، وألبست الجواري تيجاناً... وكتبت في رسالتها إلى سليمان: لو كنت نبيّاً فميّز الرجـال مـن النساء!،

وبعثت أُولئك على مراكب ثمينة، ومعهم جواهر وأحجار كريمة، وأوصت رسولها ـ في الضمن ـ أن أنظر كيف يواجهك سليمان عند وردك عليه، فإن واجهك بالغضب فاعلم بأنه سيرة الملوك، وإن واجهك بالمحبة واللطف فاعلم أنّه نبيّ.

لا تخدعوني بالمال

خرج رسل ملكة سبأ بقافلة الهدايا وتركوا اليمن وراءهم قاصدين مقر سـليمان «فـي الشام» ظنّاً منهم أن سليمان سيكون مسروراً بمشاهدته هذه الهدايا ويرحب بهم.

لكن ما إن حضروا عند سليمان حتى رأوا ما يدهش الإنسان... فإنّ سليمان عليه السلام مضافاً الى عدم استقباله واكتراثه بتلك الهدايا **﴿قال أتمدونن بمال فما آتاني الله خير ممّا آتاكم﴾**

فما قيمة المال، ازاء مقام النبوّة والعلم والهداية والتقوىٰ **﴿بل أنتم بهديتكم تفرحون﴾**.

أجلْ، أنتم الذين تفرحون بمثل هذه الزخارف، فيهدي بعضكم لبعض فيشرق وجه تملع عيناه! إلّا أن هذه الأُمور لا قيمة لها عندي ولا أكترث بها.

ومن أجل أن يريهم سليمان موقفه الحاسم من الحق والباطل، قال لرسول مـلكة سـبأ الخـاص: **﴿ارجع إليهم فلنأتينّهم بجنود لا قـبل لهـم بـها ولنـخرجـنّهم مـنها أذلّـةً وهـم صاغرون﴾**[1].

---

١ ـ النمل، ٣٧ ـ ٣٦.

وطبيعي أن هذا التهديد كان تهديداً جديّاً جديراً بأن يؤخذ بنظر الإعتبار بالنسة لرسل ملكة سبأ الذين كانوا عند سليمان!.

ومع ملاحظة أنّ سليمان طلب من أُولئك شيئين: ترك الإستعلاء، والتسليم للحق ﴿ألا تعلوا علي وأتوني مسلمين﴾ وكان عدم إجابتهم لهذين وتوسلهم بالهديّة دليلاً على امتناعهم من قبول الحقّ وترك الإستعلاء، ولذلك هدّدهم باستخدام القوة العسكرية.

ولو أنّ ملكة سبأ وقومها طلبوا من سليمان الدليل والمعجزة (على أنّه نبيّ مطاع) لأعطاهم الحق أن يتحروا ويفحصوا أكثر... إلّا أنّ إرسال الهدية ظاهره أنّهم في مقام الإنكار.

واتضح كذلك أنّ أهمّ خبر مزعج أخبر به الهدهد عن هذه الجماعة «ملكة سبأ وقومها» أنّهم كانوا يعبدون الشمس ويسجدون لها من دون الله الذي له ما في السماوات والأرض فكان سليمانعليه السلام قلقاً من هذا الأمر... ومن المعلوم أن عبادة الأصنام ليست أمراً هيّناً تسكت عنه الأديان السماوية، أو أن تتحمل عبدة الأصنام على أنّهم أقليّة دينية. بل تستخدم القوّة إذا لزم الأمر وتحطم الأصنام ويطوىٰ الشرك ومريدوه من الوجود!.

وممّا بيّناه من توضيحات آنفاً يظهر أنّه لا تنافي بين تهديدات سليمان والأصل الاساس ﴿لا إكراه في الدين﴾ لأنّ عبادة الاصنام ليست ديناً، بل هي خرافة وانحراف.

حضور العرش في طرفة عين

وأخيراً عاد رُسُل ملكة سبأ بعد أن جمعوا هداياهم وأمتعتهم إلى بلدهم، وأخبروا ملكة سبأ بما شاهدوه من عظمة مُلك سليمانعليه السلام المعجز وجهازه الحكومي، وكل واحد من هذه الأُمور دليل على أنّه لم يكن كسائر الأفراد ولا ملكاً كسائر الملوك، بل هو مُرسل من قبل الله حقّاً، وحكومته حكومة إلهية.

وهنا اتّضح لأُولئك جميعاً أنّهم غير قادرين على مواجهته عسكرياً، بل إذا استطاعوا ـ فرضاً ـ فهم على احتمال قوي في مواجهة نبيّ عظيم ذي سلطة واسعة!.

لذلك قررت الملكة أن تأتي بنفسها مع أشراف قومها إلى سليمان، ويتفحصوا عن هذه المسألة ليتعرفوا على دين سليمان؟

فوصل هذا الخبر ـ عن أيّ طريق كان ـ إلى سمع سليمانعليه السلام، فعزم على اظهار قدرته العجيبة ـ والملكة وأصحابها في الطريق إليه ـ ليعرفهم قبل كل شيء على إعجازه، ليذعنوا له

ويسلّموا لدعوته... لذلك التفت إلى من حوله و **﴿قال يا أيّها الملأ أيّكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين﴾**.

وهنا أظهر شخصان استعدادهما لإمتثال طلب سليمانعليه السلام، وكان أمر أحدهما عجيباً والآخر أعجب! إذ **﴿قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك﴾**.

أمّا الشخص الآخر فقد كان رجلاً صالحاً له علم ببعض ما في الكتاب، ويتحدث عنه القرآن فيقول: **﴿قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك﴾**.

فلمّا وافق سليمانعليه السلام على هذا الأمر، أحضر عرش بلقيس بطرفة عين بالإستعانة بقوته المعنوية **﴿فلمّا رآه مستقراً عنده قال هذا من فضل ربّي ليبلوني أأشكر أم أكفر﴾**[١].[٢]

---

١ ـ النمل، ٤٠ ـ ٣٨.

٢ ـ وهناك اختلاف بين المفسّرين وكلام طويل في أن هذا الشخص الذي جاء بعرش الملكة، من كان؟! ومن أين له هذه القدرة العجيبة؟! وما المراد **﴿عنده علم من الكتاب﴾**؟

إلّا أنّ الظاهر أنّ هذا الشخص هو أحد أقارب سليمان المؤمنين وأوليائه الخاصين، وقد جاء اسمه في التواريخ بأنه (آصف بن برخيا) وزير سليمان وابن أخته.

وأمّا «علم الكتاب» فالمراد منه معرفة ما في الكتب السماوية... المعرفة العميقة التي تمكّنه من القيام بهذا العمل الخارق للعادة!

وقال بعضهم: يُحتمل أن يكون المراد من (علم الكتاب) هو اللوح المحفوظ الذي علم الله بعضه ذلك الرجل «آصف» ولذلك استطاع أن يأتي بعرش ملكة سبأ بطرفة عين، ويحضره عند سليمان!.

وقال كثير من المفسّرين: إنّ هذا الرجل المؤمن كان عارفاً بالاسم الأعظم، ذلك الاسم الذي يخضع له كل شيء، ويمنح الإنسان قدرة خارقة للعادة!.

السؤال الآخر: كيف تكون لعفريت من الجن القدرة على أمر خارق للعادة كهذه الحادثة؟!

والجواب: أن من الناس حتى غير المؤمنين من تكون له قدرة على بعض الأُمور الخارقة للعادة (وذلك للرياضة المجهدة ومجاهدة النفس) إلّا أن الفرق بين ما يقومون به ممّا يخرق العادة وبين المعجزة هو أنّه لما كانت أعمالهم مستندة إلى قدرة بشريةٍ محدودةٍ... فهي «أعمالهم الخارقة للعادة» محدودة دائماً، في حين أن المعاجز تستند إلى قدرة الله التي لا نهاية لها، وقدرته كسائر صفاته غير محدودة!.

لذلك نرى أن العفريت من الجن يحدّد قدرته ـ على فترة بقاء سليمان في مجلس القضاء والتحقيق في أُمور البلد، ليأتيه بعرش ملكة سبأ، في حين أنّ آصف بن برخيا لم يحدد قدرته، وتحديدها بارتداد الطرف هو في الحقيقة إشارة إلى أدنى فترة زمنية ممكنة... ومن المسلم به أن سليمانعليه السلام

نور الايمان في قلب الملكة

نواجه مشهداً آخر، ممّا جرى بين سلمان وملكة سبأ فسليمان من أجل أن يختبر عقل ملكة سبأ ودرايتها، ويهيء الجوّ لإيمانها بالله، أمر أن يغيروا عرشها وينكّروه فـ ﴿قال نكّروا لها عرشها ننظر أتهتدي أم تكون من الذين لا يهتدون﴾.

وبالرغم من أن المجيء بعرشها من سبأ الى الشام كان كافياً لان لا تعرفه ببساطة.. ولكن مع ذلك فإنّ سليمان أمر أن يوجدوا تغييرات فيه، من قبيل تبديل بعض علاماته، أو تـغيير ألوانه ومواضع مجوهراته[1].

وعلى كل حال... فلمّا جاءت ﴿قيل أهكذا عرشك﴾.

إنّ ملكة سبأ أجابت جواباً دقيقاً و ﴿قالت كأنّه هو﴾.

فلو قالت: يشبه، لأخطأت.. ولو قالت: هو نفسه، لخالفت الإحتياط، لأنّ مجيء عرشها إلى أرض سليمان لم يكن مسألة ممكنة بالطرق الإعتيادية، إلّا أن تكون معجزةً.

وقد جاء في التواريخ أن ملكة سبأ كانت قد أودعت عرشها الثمين في مكان محفوظ، وفي قصر مخصوص فيه غرفة عليها حرس كثير!

ومع كل ذلك فإنّ ملكة سبأ استطاعت أن تعرف عرشها رغم كل ما حصل له من تغييرات.. فقالت مباشرة: ﴿وأوتينا العلم من قبلها وكنّا مسلمين﴾[2].

أي، إذا كان مراد سليمانعليه السلام من هذه المقدمات هو اطلاعنا على معجزته لكي نؤمن به، فإنّنا كنّا نعرف حقانيته بعلائم أخر.. كنّا مؤمنين به حتى قبل رؤية هذا الأمر الخارق للعادة فلم

يشجع الاعمال التي تبيّن للناس الاشخاص الصالحين، ويباركها، لا عمل العفريت الذي قد يوقع العوام والبساط في الوهم، فيعدونه دليلاً على تقواه وطهارته!.

١ ـ ولكن يطرح هذا السؤال: ما الهدف الذي كان سليمانعليه السلام يتوخّاه من اختبار عقل (ودرايـة) ملكة سبأ وذكائها؟

لعل هذا الاختبار كان لمعرفة أي منطق يواجهها به؟ وكيف يأتي لها بدليل لإثبات المباني العقائدية؟ أو كان يفكر أن يتزوجها، وكان يريد أن يعرف هل هي جديرة بأن تكون زوجة له، أم لا؟.. أو أراد ـ واقعاً ـ أن يعهد لها بمسؤولية بعد ايمانها... فلابدّ من معرفة مقدار استعدادها لقبول المسؤولية!

٢ ـ النمل، ٤٢ ـ ٤١.

تكن حاجة إلى هذا الامر.

أجل، إنّها ودعت ماضيها الأسود برؤية هذه العلائم المنيرة، وخَطت نحو مرحلة جديدة من الحياة المملوءة بنور الإيمان واليقين.

دخول الملكة قصر سليمان الخاص

وفي نهاية هذه القصّة يجري الكلام عن مشهد آخر، وهو دخول ملكة سبأ قصر سليمان الخاص.

وكان سليمانعليه السلام قد أمر أن تصنع إحدى ساحات قصوره من قوارير، وأن يجري الماء من تحتها.

فلمّا وصلت مَلكة سبأ إلى ذلك المكان **﴿قيل لها أدخلي الصرح﴾** فلما رأته ظنته نهراً جارياً فرفعت ثوبها لتمر وسط الماء وهي متعجبة عن سبب وجود هذا الماء الجاري، وكما يقول القرآن: **﴿فلما رأته حسبته لجةً وكشفت عن ساقيها﴾**[1].

إلّا أنّ سليمانعليه السلام التفت إليها وقال: **﴿إنّه صرح ممرد من قوارير﴾**. فلا حاجة الى الكشف عن ساقيك فلا يمس الماء قدميك.[2]

---

١ ـ «اللّجة» في الاصل مأخوذة من اللجاج، ومعناه الشدّة، ثمّ أطلق على ذهاب الصوت وإيابه في الحنجرة تعبير (لجة) على وزن (ضجة)، أمّا الأمواج المتلاطمة فيُ البحر فتسمىٰ (لُجة) على وزن (جُبة) وهي هنا في الآية بهذا المعنى الأخير.

٢ ـ وهنا ينقدح سؤال هام، وهو أن سليمان نبيّ كبير، فلم كان لديه هذا البناء الفائق والتزيّن الرائق... والصرح الممرد والبساط الممهّد!.. وصحيح أنّه كان حاكماً مبسوط اليد، إلّا أن الأنسب أن يكون له بساط مألوف كسائر الأنبيآء.

إلّا أنّه، ما يمنع أن يُري سليمان مَلكة سبأ التي كانت ترى قدرتها وعظمتها بالعرش والتاج والقصر العظيم والزينة.. يريها هذا المشهد لتذعن لأمره، ولتحتقر ما عندها؟! وهذه نقطة انعطاف في حياتها لتعيد النظر في ميزان القيم ومعيار الشخصية!

ما يمنعه ـ بدلاً من أن يغير جيشاً لجباً فيسفك الدماء ـ أن يجعل فكر ملكة سبأ حائراً مبهوتاً بحيث لم تكن تتوقع ذلك أصلاً... خاصة أنّها كانت امرأة تهتم بهذه الأُمور والتشريفات!.

ولا سيما أنّ أغلب المفسّرين صرحوا بأن سليمان أمر أن يبنى مثل هذا الصرح والقصر قبل أن تصل ملكة سبأ إلى الشام، وكان هدفه أن يُريها قدرته لتذعن لأمره وتسلم له... وهذا الأمر يدلّ على أن

وحين رأت مَلكة سبأ هذا المشهد الرائع ﴿قالت ربِّ إنّي ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله ربِّ العالمين﴾[١].

لقد كنت في ما مضى أسجد للشمس وأعبد الأصنام، وكنت غارقة في الزينة والتجميل، وكنت أتصور أنّي أعلى الناس في الدنيا.

أمّا الآن فإنّني أفهم أنّني ضعيفة جدّاً وهذه الزخارف والزبارج لا تروي ظمأ الإنسان ولا تبلّ غليل روحه!.

ربّاه... أتيت اليك مسلمة مع سليمان نادمة عن سالف عمري، خاضعة عنقي إليك.

عاقبة أمر ملكة سبأ

كان هذا كل ما ورد في القرآن المجيد عن ملكة سبأ إذ آمنت أخيراً ولحقت بالصالحين... لكن هل عادت إلى وطنها بعد إيمانها، وواصلت حكمها من قبل سليمان، أو بقيت عند سليمان و تزوجت منه؟! أو تزوجت من أحد ملوك اليمن المشهورين باسم «تُبّع»؟

هذه الأُمور لم يشر إليها القرآن الكريم، لأنّها لا علاقة لها بالهدف الأصلي الذي يبتغيه القرآن من المسائل التربوية!... إلّا أن المؤرّخين والمفسّرين كلّاً منهم اختار رأياً، ولا نجد ضرورة في الخوض في ذلك، وإن كان المشهور أنّها تزوّجت من سليمان نفسه.

إلّا أنّه ينبغي أن نذّكر بهذا الأمر المهم، وهو أنّه وردت أساطير كثيرة حول سليمان وجنوده وحكومته وخصوصيات ملكة سبأ. وجزئيات حياتها أيضاً، ممّا يصعب على عامة الناس تمييزها من الحقائق التاريخية، وربّما يُغشّي هذه الحقائق التاريخية. ظلٌّ مظلم من الخرافات يشوه وجهها الناصع.. وهذه هي نتيجة الخرافات المتداخلة في الحقائق التي ينبغي أن تُراقب مراقبة تامّة!.

سليمان عليه السلام كان يتمتع في سلطانه بقدرة عظيمة من حيث القوّة الظاهرية وُفق بها للقيام بمثل هذا العمل!.

وبتعبير آخر: إنّ هذه النفقات المالية إزاء أمن منطقة واسعة، وقبول دين الحق، والوقاية عن الإنفاق المفرط للحرب ـ لم تكن أمراً مسرفاً.

١ ـ النمل، ٤٤.

موت ذا عبرة

في آخر حديث عن النّبي سليمان عليه السلام، يخبرنا الله سبحانه وتعالى فيه بطريقة موت ذلك النّبي العجيبة والداعية للإعتبار، فيوضّح تلك الحقيقة الساطعة، وهي كيف أنّ نبيّاً بتلك العظمة وحاكماً بكلّ تلك القدرة والأُبّهة، لم يستطع حين أخذ الموت بتلابيبه من أن يستلقي على سرير مريح، وإنتزعت روحه من بدنه بتلك السهولة والسرعة.

إنّ سليمان كان واقفاً متّكئاً على عصاه حين فاجأه الموت واستلّ روحه من بدنه، وبقي جثمان سليمان مدّة على حالته، حتّى أكلت الأُرضةُ ـ التي عبّر عنها القرآن بـ«**دابّة الأرض**» ـ عصاه، فاختلّ توازنه وهوى على الأرض، وبذا عُلم بموته.

الجميل هو أنّ **سليمان بن داود أمر الجنّ فصنعوا له قبّة من قوارير فبينا هو متكيء على عصاه في القبّة ينظر إلى الجنّ كيف ينظرون إليه إذ حانت منه التفاتة فإذا رجل معه في القبّة قال له: من أنت، قال: أنا الذي لا أقبل الرشا ولا أهاب الملوك أنا ملك الموت. فقبضه وهو قائم متكيء على عصاه في القبّة والجنّ ينظرون إليه. قال: فمكثوا سنة يدأبون له حتّى بعث الله عزّوجلّ الأرضة فأكلت منسأته ـ وهي العصا ـ فلمّا خرّ تبيّنت الجنّ أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين**»[1].

لماذا خفي موت سليمان مدّة من الزمن؟

كم هي المدّة التي ظلّ فيها موت سليمان مخفياً عن حكومته، هل كانت سنة، أم شهراً، أم عدّة أيّام؟ إختلف المفسّرون حول هذا الموضوع.

هل أنّ الكتمان كان من قبل مقربيه الذين قصدوا من وراء ذلك تمشية أُمور الدولة، أم أنّهم هم الآخرون قد خفي عليهم ذلك؟

يبدو من المستبعد تماماً أن يخفى أمر وفاته عن حاشيته لمدّة طويلة، لا بل حتّى لأكثر

---

١ ـ ويجب أن نذكّر هنا أيضاً، بأنّ قصّة النّبي سليمان عليه السلام ككثير من قصص الأنبياء، إختلطت مع الأسف بروايات كثيرة موضوعة وخرافات شوّهت صورة هذا النّبي العظيم، وأكثر هذه الخرافات أخذت من التوراة الرائجة اليوم، ولو إقتنعنا بما ورد في القرآن الكريم حول هذا النّبي لما واجهتنا أيّة مشكلة.

من يومٍ واحد، لأنّ من المسلّم أنّ هناك أفراداً كانوا مكلّفين بإيصال إحتياجاته وغذائه إليه، وهؤلاء سيعلمون بموته حتماً، وعليه فلا يستبعد ـ كما قال بعض المفسّرين ـ أنّهم علموا بأمر موته، لكنّهم أخفوا ذلك الأمر لغايات معيّنة، لذا فقد ورد في بعض الروايات بأنّ «آصف بن برخيا» وزير سليمان الخاص، هو الذي كان يدير أُمور الدولة.

ألم تشكّل مسألة عدم تناول الطعام والماء لمدّة طويلة تساؤلاً لدى ناظريه؟

مع اليقين بأنّ كلّ أعمال سليمان عليه السلام كانت عجيبة، فيمكن إعتبار هذه المسألة من عجائبه أيضاً، وحتّى أنّه ورد في بعض الروايات أنّه بعد مدّة من بقاء سليمان عليه السلام على حاله كثر الهمس بين البعض في وجوب عيادة سليمان، لأنّه على حاله منذ مدّة لم يتحرّك ولم يأكل ولم يشرب ولم ينم . ولكن حينما تحطّمت العصا، وسقط الجثمان على الأرض تبدّدت كلّ هذه الأفكار والأوهام.

النبي ايوب عليه السلام

إنّ أيّوب كان أُنموذجاً حيّاً للصبر والإستقامة، وذلك لتعطي درساً لمسلمي ذلك اليوم ويومنا الحاضر وغداً، درساً في مقاومة مشاكل وصعاب الحياة، ولتدعوهم إلى الإتّحاد والتعاون، كما وضّحت العاقبة المحمودة للصبر والصابرين.

وأيّوب نبي من أنبياء الله يستعرض القرآن الكريم جوانب من حياته وهو بذلك يدعو رسولنا الأكرم صلى الله عليه وآله إلى تذكّر قصّته، وحكايتها للمسلمين، كي يصبروا على المشاكل الصعبة التي كانت تواجههم، ولا ييأسوا من لطف ورحمة الله.[١]

يقول سبحانه: ﴿واذكر عبدنا أيّوب إذ نادى ربّه أنّي مسّني الشيطان بنصب وعذاب﴾[٢].

هذا الكلام الالهي يبيّن أوّلاً علوّ مقام أيّوب عند الباري عزّوجلّ، وذلك من خلال كلمة «عبدنا»، وثانياً فإنّه يشير بصورة خفيّة إلى الإبتلاءات الشديدة التي لا تطاق، وإلى الألم والعذاب الذي مسّ أيّوب عليه السلام.

ولم يرد في القرآن الكريم شرحاً مفصّلاً لما جرى على أيّوب عليه السلام، وإنّما نقرأ في كتب الحديث المعروفة، تفاصيل هذه القصّة.

---

١ ـ بخلاف كتاب التوراة الحالي الذي لم يعتبره من الأنبياء، وإنّما إعتبره أحد عباد الله المحسنين والأثرياء وذا عيال كثيرين.

٢ ـ سورة ص، ٤١.

لماذا ابتلي أيوب؟

سُئل الإمام الصادقعليه السلام عن بليّة أيّوب التي ابتلي بها في الدنيا لأيّ علّة كانت؟ (لعلّ السائل كان يظنّ أنّ أيّوب ابتلي بما ابتلي به لمعصية إرتكبها) فأجابعليه السلام بقوله: «لنعمة أنعم الله عزّوجلّ عليه بها في الدنيا وأدّى شكرها، وكان في ذلك الزمان لا يحجب إبليس دون العرش، فلمّا صعد ورأى شكر نعمة أيّوبعليه السلام حسده إبليس، فقال: ياربّ، إنّ أيّوب لم يؤدّ إليك شكر هذه النعمة إلّا بما أعطيته من الدنيا، ولو حرمته دنياه ما أدّى إليه شكر نعمة أبداً، فسلّطني على دنياه حتّى تعلم أنّه لم يؤدّ إليك شكر نعمة أبداً».

(ولكي يوضّح الباريء عزّوجلّ إخلاص أيّوب للجميع، ويجعله نموذجاً حيّاً للعالمين حتّى يشكروه حين النعمة ويصبروا حين البلاء، سمح الباري عزّوجلّ للشيطان في أن يتسلّط على دنيا أيّوب).

«فقال له الباري عزّوجلّ: قد سلّطتك على ماله وولده، قال: فانحدر إبليس فلم يبق له مالاً ولا ولداً إلّا أعطبه (أي أهلكه) فإزداد أيّوب لله شكراً وحمداً. قال: فسلّطني على زرعه ياربّ، قال: قد فعلت، فجاء مع شياطينه فنفخ فيه فاحترق، فازداد أيّوب لله شكراً وحمداً، فقال: ياربّ سلّطني على غنمه، فسلّطه على غنمه فأهلكها، فإزداد أيّوب لله شكراً وحمداً، فقال: ياربّ سلّطني على بدنه فسلّطه على بدنه ما خلا عقله وعينيه، فنفخ فيه إبليس فصار قرحة واحدة من قرنه إلى قدمه، فبقي في ذلك دهراً طويلاً يحمد الله ويشكره».

(ولكن وقعت حادثة كسرت قلبه وجرحت روحه جرحاً عميقاً، وذلك عندما زارته مجموعة من رهبان بني إسرائيل).

«وقالوا له: ياأيّوب لو أخبرتنا بذنبك لعلّ الله كان يهلكنا إذا سألناه، وما نرى إبتلاك بهذا الإبتلاء الذي لم يبتل به أحد إلّا من أمر كنت تستره؟ فقال أيّوب عليه السلام: وعزّة ربّي لم أرتكب أي ذنب، وما أكلت طعاماً إلّا ويتيم أو ضعيف يأكل معي».

حقّاً إنّ شماتة أصحابه كانت أكثر ألماً عليه من أيّة مصيبة أُخرى حلّت به، ورغم هذا لم يفقد أيّوب صبره، ولم يلوّث شكره الصافي كالماء الزلال بالكفر، وإنّما توجّه إلى الباريء عزّوجلّ وذكر العبارة التي ذكرناها آنفاً، أي قوله تعالى: ﴿**انّي مسّني الشيطان بنصب وعذاب**﴾ ولكونه خرج من الإمتحان الإلهي بنتيجة جيّدة، فتح الباري عزّوجلّ ـ مرّة أُخرى

ـ أبواب رحمته على عبده الصابر المتحمّل أيّوب، وأعاد عليه النعم التي إفتقدها الواحدة تلو الأُخرى، لا بل أكثر ممّا كان يمتلك من المال والزرع والغنم والأولاد، وذلك كي يفهم الجميع العاقبة الحسنة للصبر والتحمّل والشكر.

على أيّة حال، قيل: إنّ فترة ألمه وعذابه ومرضه كانت سبع سنين، وفي رواية أُخرى قيل: إنّها كانت (١٨) سنة، وحالته وصلت إلى حدّ بحيث تركه أصحابه وحتّى أقرب المقربين إليه، عدا زوجته التي صمدت معه وأظهرت وفاءها له. وهذا شاهد على وفاء بعض الزوجات!

أشدّ المصائب شماتة الأعداء

وأشدّ ما آذى وآلم روح أيّوب عليه السلام من بين ذلك الأذى والعذاب الذي مرّ به، هو شماتة أعدائه، لذا فقد جاء في إحدى الروايات أنّ أيّوب عليه السلام سئل بعد ما عافاه الله، أيّ شيء كان أشدّ عليك ممّا مرّ؟ فقال: شماتة الأعداء.

في النهاية خرج أيّوب عليه السلام سالماً من بودقة الإمتحان الإلهي، ونزول الرحمة الإلهيّة عليه يبدأ من هنا، إذ صدر إليه الأمر ﴿**اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب**﴾ [1].

فالله الذي فجّر عين زمزم في صحراء يابسة وحارقة تحت أقدام الطفل الرضيع إسماعيل، هو الذي أصدر أمراً بتفجّر عين باردة لأيّوب ليشرب منها ويغتسل بمائها للشفاء من كافّة الأمراض التي أصابته (الظاهرية والباطنية).

ويرى البعض أنّ تلك العين عبارة عن ماء معدني صالح للشرب، وفيه شفاء لكلّ الأمراض، ومهما كان فإنّه من لطف الله ورحمته النازلة على نبيّه الصابر المقاوم أيّوب عليه السلام.

النعمة المهمّة الأُولى التي أُعيدت على أيّوب هي العافية والشفاء والسلامة، أمّا بقيّة النعم التي أُعيدت عليه، فاستعرضها القرآن المجيد ﴿**ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمةً منّا وذكرى لأُولي الألباب**﴾.

وعن كيفية عودة عائلته إليه؟ المشهور إنّهم كانوا أمواتاً فأحياهم الله مرّة أُخرى.

ولكن البعض قال: إنّهم كانوا قد تفرّقوا عنه أيّام إبتلائه بالمرض، فجمعهم الله إليه بعد برئه. ويحتمل أنّ جميعهم أو بعضهم ابتلي بمختلف أنواع الأمراض، وقد شملتهم الرحمة

---

١ ـ سورة ص، ٤٢.

الإلهية وعادت إليهم صحّتهم وعافيتهم، ليجتمعوا مرّة أُخرى حول أيّوب.

ورغم أنّ القرآن لا يتطرّق إلى إعادة أموال أيّوب إليه، ولكن الدلائل كلّها تبيّن أنّ الباريء عزّوجلّ أعاد إليه أمواله وأكثر من السابق.

حلف ايوب

المشكلة الوحيدة التي بقيت لأيّوب عليه السلام هي قسمه بضرب زوجته، إذ كان قد أقسم أيّام مرضه لئن بريء من مرضه ليجلدنّ امرأته مائة جلدة أو أقل لأمر أنكره عليها، ولكن بعدما بريء من مرضه رغب أيّوب في العفو عنها إحتراماً وتقديراً لوفائها ولخدماتها التي قدّمتها إليه أيّام مرضه، ولكن مسألة القسم بالله كانت تحول دون ذلك.

وهنا شمل الباريء عزّوجلّ أيّوب عليه السلام مرّة أُخرى بألطافه ورحمته، وذلك عندما أوجد حلاّ لهذه المشكلة المستعصية على أيّوب ﴿**وخذ بيدك ضغثاً فاضرب به ولا تحنث**﴾.

وعن الأمر الذي أنكرته زوجة أيّوب على زوجها والتي تدعى (ليا) بنت يعقوب أقوال فقد نقل عن (ابن عبّاس) أنّ الشيطان ظهر بصورته الطبيعية لزوجة أيّوب، وقال لها: إنّي أُعالج زوجك بشرط أن تقولي حينما يتعافى: إنّي الوحيد الذي كنت السبب في معافاته، ولا أُريد أيّ أُجرة على معالجته ... الزوجة التي كانت متألّمة ومتأثّرة بشدّة لإستمرار مرض زوجها وافقت على الإقتراح، وعرضته على زوجها أيّوب فيما بعد، فتأثّر أيّوب كثيراً لوقوع زوجته في شرك الشيطان، وحلف أن يعاقب زوجته.

وقال البعض إنّ أيّوب بعث زوجته لمتابعة عمل ما، فتأخّرت في العودة إليه، فتأثّر أيّوب الذي كان يعاني من آلام المرض، وحلف أن يعاقب زوجته.

على أيّة حال، فإنّ زوجته كانت تستحقّ الجزاء من هذا الجانب، أمّا من جانب وفائها وخدمتها أيّوب طوال فترة مرضه فإنّه يجعلها تستحقّ العفو أيضاً.

حقّاً إنّ ضربها بمجموعة من سيقان الحنطة أو الشعير لا تعطي مصداقاً واقعياً لحلفه، ولكنّه نفّذ هذا الأمر لحفظ إحترام اسم الله، والحيلولة دون إشاعة مسألة إنتهاك القوانين، وهذا الأمر ينفّذ فقط بشأن الطرف الذي يستحقّ العفو، وفي الموارد الأُخرى التي لا تستحقّ العفو لا يجوز لأحد القيام بمثل هذا العمل.

وأخيرا يقول سبحانه: ﴿إنّا وجدناه صابراً نعم العبد إنّه أوّاب﴾[1].

ومن الواضح أنّ دعاء أيّوب الباريء عزّوجلّ، وطلبه دفع الوساوس الشيطانية عنه، ورفع البلاء والمرض عنه، كلّ هذه لا تتنافى مع مقام صبره وتحمّله، ذلك الصبر والتحمّل الذي استمرّ لمدّة سبع سنين، وفي روايات أُخرى لمدّة ثمانية عشر عاماً ـ للأوجاع والأمراض والفقر والعسر وإستمرار الشكر.

الذي يلفت النظر في هذه الآية أنّها أعطت ثلاثة أوصاف لأيّوب، كلّ واحد منها إن توفّر في أي إنسان فهو إنسان كامل.

أوّلاً: مقام عبوديته. ثانياً: صبره وتحمّله وثباته. ثالثاً: إنابته المتكرّرة إلى الله.

أيّوب عليه السلام في القرآن والتوراة

رغم أنّ الباريء عزّوجلّ أشاد بالروح الكبيرة لهذا النّبي الكبير الذي هو مظهر الصبر والتحمّل في قرآنه المجيد في أوّل القصّة الخاصّة به وفي آخرها. فإنّ قصّة هذا النّبي الكبير ـ ممّا يؤسف له ـ لم تحفظ من أيدي الجهلة والأعداء، حيث دسّوا فيها خرافات تافهة لا تليق بمقامه المحمود المنزّه عنها والمطهّر منها، ومن تلك الخرافات القول بأنّ الدود غطّى بدنه أثناء فترة مرضه، وتعفّن جسده، بحيث أنّ أهل قريته ضاقوا به ذرعاً وأخرجوه من قريتهم.

ودون أدنى شكّ، فإنّ مثل هذه الروايات مزيّفة رغم ورودها في طيّات كتب الحديث، لأنّ رسالة الأنبياء تفرض أن يكون النّبي المرسل ـ في أي زمان ـ بعيداً عن مثل تلك التقوّلات، كي ينجذب إليه الناس برغبة وشوق، وأن لا تتوفّر فيه أشياء تكون سبباً لتنفّرهم فيه وإبتعادهم عنه، كالأمراض والعيوب الجسدية والأخلاق السيّئة، لأنّها تتناقض مع فلسفة الرسالة.

ولكن ورد في التوراة جزء خاص بأيّوب وقبل موضوع (مزامير داود) وهذا الجزء يشتمل على (٤٢) فصلاً، كلّ فصل يشرح مواضيع مختلفة، وقد وردت في بعض الفصول مواضيع سيّئة وقبيحة، ومنها ما ورد في الفصل الثالث والذي يقول: إنّ أيّوب كان كثير الشكوى، في حين أنّ القرآن الكريم كان يعظّم ويشيّد بمقام صبره وتحمّله.

---

١ ـ سورة ص، ٤٤.

النّبي يونس عليه السلام

(يونس) بن (متى) ويلقّب بـ(ذي النون) أي صاحب الحوت، وقد أُعطي هذا اللقب لأنّ قصّته إرتبطت بالحوت، وهو من المعروفين، وعلى الظاهر أنّه ولد بعد موسى وهارون.

وقال البعض: إنّه من أولاد (هود) وقد كلّف من قبل الباري عزّوجلّ بهداية من تبقّى من قوم ثمود.

والمنطقة التي بعث إليها كانت إحدى مناطق العراق وتسمّى (نينوى)[1].

وقال البعض: إنّ بعثته كانت قبل ولادة المسيح عليه السلام بحوالي (٨٢٥) عاماً، وحالياً هناك قبر قرب مدينة الكوفة على ضعاف النهر يعرف بقبر (يونس).

وجاء في بعض الكتب أنّ يونس كان من أبناء بني إسرائيل وبعث إلى أهل نينوى بعد سليمان.[2]

---

١ ـ نينوى، اسم عدّة مناطق؛ الأُولى: مدينة قرب الموصل، والأُخرى في ضواحي الكوفة في جهة كربلاء، ومدينة في آسيا الصغرى، عاصمة مملكة آشور وتقع عاىٔ ضفاف نهر دجلة (دائرة المعارف ده خدا) والبعض الآخر قال: إنّ نينوى هي أكبر مدن مملكة آشور الواقعة في الضفّة الشرقية لنهر دجلة وقد بنيت مقابل الموصل (معجم قصص القرآن).

٢ ـ وقد شرح كتاب (يوناه) أحد كتب التوراة العهد القديم في بحوث مفصّلة حياة النّبي يونس وتحت عنوان (يوناه بن متى). وطبقاً لما جاء في هذا الكتاب، فإنّ يونس كان مكلّفاً بالذهاب إلى مدينة (نينوى) الكبيرة، ومجابهة شرور الطغاة هناك.

ثمّ تذكر التوراة حوادث أُخرى، تشبه كثيراً ما جاء في القرآن، مع وجود إختلاف، وهو أنّ الروايات

يونس في بوتقة الإمتحان

نبي الله «يونس» عليه السلام كسائر الأنبياء العظام بدأ بالدعوة إلى توحيد الله ومجاهدة عبدة الأصنام، ومن ثمّ محاربة الأوضاع الفاسدة التي كانت منتشرة في مجتمعه آنذاك، إلّا أنّ قومه المتعصّبين الذين كانوا يقلّدون أجدادهم الأوائل رفضوا الإستجابة لدعوته.

إستمرّ يونس عليه السلام بوعظ قومه بقلب حزين لأجلهم، مريداً لهم الخير وكأنّه أب رحيم لهم، في حين كانوا يواجهون منطقه الحكيم بالسفسطة والمغالطة، عدا مجموعة قليلة منهم، يحتمل أن لا تتعدّى الشخصين (أحدهما يسمّى بالعابد والثاني بالعالم) آمنت برسالته.

وبعد فترة طويلة من دعوته إيّاهم إلى عبادة الله وترك عبادة الأصنام، يئس يونس من هدايتهم، قرّر طبقاً لإقتراح الرجل العابد، مع ملاحظة أوضاع وأحوال قومه الضالّين، قرّر الدعاء عليهم.

وبالفعل فقد دعا عليهم، فنزل عليه الوحي وحدّد له وقت حلول العذاب الإلهي بهم، ومع

الإسلامية تقول: إنّ يونس دعا قومه إلى التوحيد ونفّذ ما أُوكل إليه في هذا المجال، وبعد أن رفض قومه دعوته دعا عليهم وتركهم وحصل له ما حصل في حادثة السفينة والحوت، ولكن التوراة ذكرت عبارة غير مقبولة، إذ قالت: إنّ يونس طلب قبل بعثه إلى قومه أن يعفى من هذه المهمّة، ولهذا توقّف عن الدعوة وإنهزم وحصلت له حادثة السفينة والحوت.

والذي يثير العجب أكثر أنّ التوراة تقول: إنّ يونس تألّم وغضب كثيراً عندما أزال الله سبحانه وتعالى العذاب عن قومه بعد ما أعلنوا توبتهم .

وجاء في أحد فصول التوراة ـ أيضاً ـ أنّ يونس بعث مرّتين، إمتنع في الأُولى وابتلي بذلك المصير المؤلم، وفي المرّة الثانية بعث أيضاً إلى المدينة (نينوى) نفسها، وكان أهلها قد تيقّظوا من غفلتهم وآمنوا بالله، وتابوا إليه وشملهم العفو الإلهي، ذلك العفو الذي لم يفرح قلب يونس.

وبمقارنة ما جاء في القرآن المجيد والروايات الإسلامية مع ما جاء في كتاب التوراة الحالي يتّضح إلى أي درجة تحطّ (التوراة المحرّفة) من شأن نبي الله يونس، فأحياناً ينسب إليه عدم قبوله حمل الرسالة التي كلّف بها، وأحياناً غضبه وسخطه على قرار الله سبحانه وتعالى بشمول قومه التائبين بالعفو والرحمة. وهذا يدلّ على أنّ التوراة الحالية كتاب لا يمكن الإعتماد عليه بأي شكل من الأشكال.

على أيّة حال، فإنّ يونس من الأنبياء الكبار الذين ذكرهم القرآن بأحسن وأفضل الذكر.

حلول موعد نزول العذاب، رحل يونس ـ بمعيّة الرجل العابد ـ عن قومه وهو غاضب عليهم، ووصل إلى ساحل البحر، وشاهد سفينة عند الساحل غاصّة بالركاب فطلب منهم السماح له بالصعود إليها.

يونس العبد الآبق

وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم قائلاً: ﴿إذ أبق إلى الفلك المشحون﴾[1].

كلمة «أبق» مشتقّة من (إباق) والتي تعني فرار العبد من سيّده، إنّها لعبارة عجيبة، إذ تبيّن أن ترك العمل بالأُولى من قبل الأنبياء العظام ذوي المقام الرفيع عند الله، مهما كان بسيطاً فإنّه يؤدّي إلى أن يتّخذ الباري عزّوجلّ موقفاً معاتباً ومؤنّباً للأنبياء، كإطلاق كلمة (الآبق) على نبيّه.

ومن دون أي شكّ فإنّ نبي الله يونس عليه السلام، معصوم عن الخطأ، ولكن كان الأجدر به أن يتحمّل آلاماً أُخرى من قومه، وأن يبقى معه حتّى اللحظات الأخيرة قبل نزول العذاب، عسى أن يستيقظوا من غفلتهم ويتوبوا إلى الله سبحانه وتعالى.

حقّاً إنّه دعا قومه إلى توحيد الله أربعين عاماً ولكن كان من الأجدر به أن يضيف عدّة أيّام أو عدّة ساعات إلى ذلك الوقت ببقائه معهم، لذلك فعندما ترك قومه وهجرهم شبهه القرآن بالعبد الآبق.

ثلاث مرات باسم يونس

صعد يونس عليه السلام إلى السفينة، ثمّ إنّ حوتاً ضخماً وقف أمام السفينة، فاتحاً فمه وكأنّه يطلب الطعام، فقال ركّاب السفينة إنّ هناك شخصاً مذنباً معنا يجب أن يكون طعام هذا الحوت، ولم يجدوا سبيلاً سوى الإقتراع لتحديد الشخص الذي يرمى للحوت، وعندما إقترعوا خرج اسم يونس، اقترعوا ثلاث مرّات وفي كلّ مرّة كان يخرج اسم يونس عليه السلام، فأمسكوا بيونس وقذفوه في فم الحوت العظيم.

وورد بهذا الشأن تفسير آخر يقول: إنّ إعصاراً هبّ في البحر عرض السفينة ومن فيها من

---

١ ـ الصّافات، ١٤٠.

الركّاب للخطر بسبب ثقل حمولتها، ولم يكن لهم سبيل للنجاة سوى تخفيف وزن السفينة من خلال إلقاء بعض ركّابها في وسط البحر، وعندما اقترعوا على من يرمونه في الماء خرج اسم يونس، وبعد رميه في البحر إبتلعه حوت عظيم.

وبعد بلعه من قبل الحوت أعطى الله سبحانه وتعالى أمراً تكوينياً إلى الحوت أن لا تلحق الأذى بيونس، إذ أنّ عليه أن يقضي فترة في السجن الذي لم يسبق له مثيل، كي يدرك تركه العمل بالأولى، ويسعى لإصلاحه.

وورد في إحدى الرّوايات أنّ **«أوحى الله إلى الحوت: لا تكسر منه عظماً ولا تقطع له وصلاً»**.

يونس و طلب العفو

يونس عليه السلام إنتبه بسرعة للحادث، وتوجّه على الفور إلى الله سبحانه وتعالى وتكامل وجوده مستغفراً الله على تركه العمل بالأولى، وطالباً العفو منه.

واضاف تعالى: **﴿فنادى في الظلمات أن لا إله إلّا أنت سبحانك إنّي كنت من الظالمين﴾**.

أي إنّه نادى من بطن الحوت بأن لا معبود سواك، وأنّني كنت من الظالمين، إذ ظلمت نفسي وإبتعدت عن باب رحمتك.

ما معنى الظلمات هنا؟

من الممكن أن يكون هذا التعبير إشارة إلى ظلمة البحر في أعماق الماء، وظلمة بطن الحوت، وظلمة الليل، وتؤيّد ذلك الرّواية التي رويت عن الإمام الباقر عليه السلام.

إعتراف يونس الخالص بالظلم، وتسبيحه الله المرافق للندم أدّى مفعوله، إذ إستجاب الله له وأنقذه من الغمّ **﴿فاستجبنا له ونجّيناه من الغمّ وكذلك ننجي المؤمنين﴾**[1].

واضاف تعالى: **﴿فلولا أنّه كان من المسبّحين للبث في بطنه إلى يوم يبعثون﴾**[2].

فالحوت الضخم لفظ يونس ـ الذي لم يكن غذاءً صالحاً لذلك الحوت ـ على ساحل خالٍ من الزرع والنبات، والواضح أنّ ذلك السجن العجيب أثر على سلامة وصحّة جسم يونس، إذ

---

١ ـ الانبياء، ٨٨.

٢ ـ الصافات، ١٤٤ ـ ١٤٣.

أنّه تحرّر من هذا السجن وهو منهار ومعتل.

إنّنا لا نعلم كم أمضى يونس من الوقت في بطن الحوت، فمن المسلّم به أنّه لا يمكن تجنّب المؤثّرات هناك مهما كانت الفترة الزمنية التي قضاها في بطن الحوت، صحيح أنّ الأمر الإلهي كان قد صدر في أن لا يهضم يونس داخل بطن الحوت، ولكن هذا لا يعني أن لا يتأثّر بعض الشيء بمؤثّرات ذلك السجن، لذا فقد كتب بعض أنّ يونس خرج من بطن الحوت وكأنّه فرخ دجاجة ضعيف وهزيل جدّاً لا يمتلك القدرة على الحركة.

يونس في ظلّ اوراق اليقطين

مرّة أُخرى شمله اللطف الإلهي، لأنّ جمسه كان مريضاً ومتعباً، وكلّ عضو من أعـضاء جسمه كان مرهقاً وعاجزاً، وكانت حرارة الشمس تؤذيه، فيحتاج إلى ظـلّ لطـيف يـظلّل جسده. والقرآن هنا يكشف عن هذا اللطف الإلهي بالقول، إنّنا أنبتنا عليه شجرة قرع ليستظلّ بأوراقها العريضة والرطبة ﴿وأنبتنا عليه شجرة من يقطين﴾ [1].

وقيل: إنّ أوراق شجرة القرع، إضافةً إلى أنّها كانت كبيرة ورطبة جدّاً ويمكن الإستفادة منها كظلّ جيّد، فإنّ الذباب لا يتجمّع حول هذه الأوراق، ولهذا فإنّ يونس عليه السلام التصق بتلك الأوراق كي يرتاح من حرقة الشمس ومن الحشرات في نفس الوقت، إذ أنّ بقاءه في داخل بطن الحوت أدّى إلى أن يصبح جلده رقيقاً جدّاً وحسّاساً، بحيث يتألّم إن استقرّت عـليه حشرة.

ويحتمل أنّ الباري عزّوجلّ يريد من هذه المرحلة إكمال الدرس الذي أعطاه ليونس في بطن الحوت، إذ كان عليه أن يحسّ بتأثير حرارة الشمس على جلده الرقيق، كي يبذل جهداً وسعياً أكثر ـ عندما يتسلّم القيادة في المستقبل ـ لإنقاذ أُمّته من نار جهنّم.

عاقبة قوم يونس

نترك الحديث عن يونس ونعود إلى قومه، فبعد أن ترك يونس قومه وهو غضبان، ظهرت لقومه دلائل تبيّن لهم قرب موعد الغضب الإلهي، هذه الدلائل هزّت عقولهم بقوّة وأعادتهم

---

١ ـ الصافات، ١٤٦ .

إلى رشدهم، ودفعتهم إلى اللجوء للشخص (العالم) الذي كان آمن بيونس وما زال موجوداً في المدينة، واتّخاذه قائداً لهم ليرشدهم إلى طريق التوبة.

خرجوا إلى الصحراء، وفرّقوا بين المرأة وطفلها، وحتّى بين الحيوانات وأطفالها، وجلسوا يبكون وينتحبون بأعلى أصواتهم، داعين الله سبحانه وتعالى بإخلاص أن يتقبّل توبتهم ويغفر ذنوبهم وتقصيرهم بعدم اتّباعهم نبي الله يونس.

وهنا أزاح الله عنهم سُحُب العذاب وأنزلها على الجبال، وهكذا نجا قوم يونس التائبون المؤمنون بلطف الله.

بعد هذا عاد يونس إلى قومه ليرى ماذا صنع بهم العذاب الإلهي؟ ولكن ما إن عاد إلى قومه حتّى فوجىء بأمر أثار عنده الدهشة والعجب، وهو أنّه ترك قومه في ذلك اليوم يعبدون الأصنام، وهم اليوم يوحّدون الله سبحانه.

القرآن يقول هنا: ﴿وأرسلناه إلى مائة الف أو يزيدون﴾ كانوا قد آمنوا بالله، وأُغدقت عليهم النعم الإلهية المادية والمعنوية لمدّة معيّنة، ﴿فآمنوا فمتّعناهم إلى حين﴾[1].

وبالطبع فإنّهم بعد توبتهم كانوا يتمتّعون بإيمان بسيط، وقد إزداد بعد عودة يونس إليهم، أي إزداد إيمانهم بالله وبرسوله يونس، وأخذوا ينفّذون تعليماته وأوامره.

ويتبيّن من آيات القرآن الكريم أنّ يونس عليه السلام بعث من جديد إلى قومه السابقين، أمّا الذين قالوا: إنّه بعث إلى قوم آخرين، فقولهم لا يتناسب مع ظاهر الآيات.

كيف بقي يونس حيّاً في بطن الحوت؟

قلنا: إنّه ليس هناك دليل واضح يبيّن كم أمضى يونس من الوقت في بطن الحوت؟ هل أنّها كانت عدّة ساعات أم عدّة أيّام أم عدّة أسابيع؟

فقد ورد في بعض الروايات أنّه أمضى (٩) ساعات في بطن الحوت، فيما قالت روايات أُخرى: إنّه أمضى ثلاثة أيّام، وأكّدت أُخرى أنّه أمضى أكثر، حتّى أنّ البعض قال: إنّه أمضى (٤٠) يوماً في بطن الحوت.

ولكن لا يوجد لدينا دليل ثابت على أي من هذه الأقوال.

---

١ ـ الصافات، ١٤٨ ـ ١٤٧.

وقد جاء في حديث لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، أنّ يونس أمضى (٩) ساعات في بطن الحوت.

وقال بعض المفسّرين من أهل السنّة: إنّ المدّة التي أمضاها يونس في بطن الحوت كانت ساعة واحدة فقط.

وكم كانت المدّة؟ فإنّ مثل هذا الأمر ـ من دون أي شكّ ـ يعدّ أمراً غير عادي، حيث أنّ الإنسان لا يستطيع أن يبقى حيّاً لعدّة دقائق في محيط فارغ من الهواء، وإذا رأينا أنّ الجنين يعيش عدّة أشهر في بطن اُمّه حيّاً، فإنّما ذلك بسبب عدم عمل أجهزته التنفسّية وحصوله على الأوكسجين اللازم عن طريق دم والدته.

ووفقاً لهذا فإنّ ما جرى ليونس إنّما هو معجزة من دون أي شكّ، وهذه ليست المعجزة الاُولى التي نصادفها في القرآن المجيد، فالباري عزّوجلّ ـ الذي حفظ إبراهيم عليه السلام في وسط النار، وأنقذ موسى وبني إسرائيل من الغرق بعد أن أوجد لهم طريقاً يابساً وسط البحر، وخلّص نوحاً من الطوفان العظيم بواسطة سفينة بسيطة ليهبط من بعد على الأرض اليابسة بسلام ـ قادر على حفظ عبد من عباده المخلصين مدّة من الزمن في بطن الحوت.

وبالطبع فإنّ وجود مثل تلك الحيتان الكبيرة في الماضي والحاضر لا يعدّ أمراً عجيباً، إذ يوجد حالياً نوع من أنواع الحيتان يطلق عليه اسم (بالن) طوله أكثر من (٣٠) متراً ويعدّ أكبر حيوان على وجه الأرض، وقلبه يزن طنّاً واحداً.

النّبي إلياس عليه السلام

لا يوجد أيّ شكّ في أنّ «إلياس» هو أحد أنبياء الله الكبار، والقرآن يصرّح بهذا الأمر، قال تعالى: ﴿إنّ الياس لمن المرسلين﴾.

اسم نبي الله (إلياس) جاء في آيتين من آيات القرآن المجيد، الأُولى في سورة الصافات، والثانية في سورة الأنعام إذ ذكر إسمه مع مجموعة أُخرى من الأنبياء ﴿وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كلّ من الصالحين﴾ [1].

وأبدى المفسّرون وجهات نظر متعدّدة بشأن إلياس، إذ أنّ البعض تساءل هل أنّ إسم «إلياس» هو اسم ثانٍ لنبي واحد، أم أنّه يتعلّق بنبي ليس له اسم ثانٍ، وما هي صفات وخصائص هذا النبي؟

للإجابة على هذه التساؤلات نستعرض وجهات النظر المتعدّدة تلك:

أ ـ «إلياس» هو إدريس (لأنّ كلمة إدريس، تلفظ إدراس، وبعد أن طرأت عليها تغيّرات بسيطة أضحت إلياس).

ب ـ «إلياس» هو أحد أنبياء بني إسرائيل، وهو ابن (ياسين) أحد أحفاد هارون أخي نبي الله موسى عليه السلام.

ج ـ «إلياس» هو الخضر.

في حين أعربت مجموعة أُخرى عن إعتقادها في أنّ إلياس هو صديق الخضر، وكلاهما ما زال حيّاً، وأنّ إلياس موكّل بالفيافي، والخضر موكّل بالبحار والجزر.

---

١ ـ الانعام، ٨٥.

ومجموعة ثالثة أكّدت على أنّ إلياس موكّل بالصحاري والخضر موكّل بالجبال، ويقولون بخلود الإثنين.

والبعض يرى أنّ إلياس ابن (اليسع).

د ـ إلياس هو نفسه (إيليا) نبي بني إسرائيل الذي عاصر الملك (آجاب) والذي أرسله الباري عزّوجلّ لإنذار وهداية (آجاب) الطاغية المتجبّر.

وقال البعض: إنّه يحيى معمدان المسيح.

ولكن الذي يتناسب وظاهر آيات القرآن الكريم هو أنّ هذا الاسم اسم أحد أنبياء الله غير تلك الأسماء التي وردت في القرآن المجيد، وأنّه بعث لهداية قوم يعبدون الأصنام، فكذّبه أكثر القوم، عدا مجموعة من المؤمنين المخلصين الذين صدّقوه.

وكما أشرنا سابقاً فإنّ البعض يعتقد بأنّه بعث إلى بلاد الشام، إستناداً إلى اسم الصنم (بعل) الذي كان يعبده القوم الموجودون في تلك المنطقة، وهي «بعلبك» التي هي اليوم إحدى مدن لبنان وتقع قرب الحدود السورية.

على أيّة حال، فقد وردت قصص مختلفة في الكتب بشأن هذا النبي، ولأنّها غير معتمدة وموثوقة فقد صرف النظر عنها.

النّبي إلياس مقابل قومه

يقول تعالى في قصّة الياس: **﴿إذ قال لقومه ألا تتّقون * أتدعون بعلاً وتذرون أحسن الخالقين﴾**. ومن هنا يتّضح أنّ قومه كانوا يعبدون صنماً إسمه (بعل) ويسجدون له، وأنّ هذا النّبي كان يدعوهم إلى ترك هذا العمل القبيح، والتوجّه إلى الله سبحانه وتعالى خالق هذا الكون العظيم وتوحيده وعبادته.

و من هنا جمع من المفسّرين ذهبوا إلى أنّ إلياس كان مبعوثاً إلى مدينة «بعلبك» إحدى مدن بلاد الشام[1] لأنّ (بعل) هو اسم ذلك الصنم و (بك) تعني مدينة، ومن تركيب هاتين الكلمتين نحصل على كلمة (بعلبك) وقيل: إنّ الصنم (بعل) كان مصنوعاً من الذهب وطوله حوالي (٢٠) ذراعاً وله أربعة أوجه، وخدمته كانوا (٤٠٠) شخصاً.

---

١ ـ بعلبك اليوم جزء من لبنان وتقع قرب الحدود السورية.

ولكن البعض ذهبوا إلى أنّ (بعل) ليس إسماً لصنم معيّن، بل يطلق بصورة عامّة على الأصنام، فيما قال البعض الآخر: إنّها تعني (الربّ والمعبود).

على أيّة حال، فقد عمد إلياس إلى توبيخ قوم بشدّة، وقال لهم: **﴿الله ربّكم وربّ آبائكم الأوّلين﴾**[1].

إذ أنّ الله مالككم ومربّيكم، وكلّ نعمة عندكم فهي منه، وأي مشكلة عندكم تتيسر بقدرته، فغيره، لا يعدّ مصدراً للخير والبركة، ولا يمكنه دفع الشرّ والبلاء عنكم.

موقف قوم إلياس

إلّا أنّ قومه اللجوجين والمتكبّرين لم يعطوا أُذناً صاغية لنصائحه ومواعظه، ولم يعبأوا بما يقوله لهدايتهم، وإنّما كذّبوه **﴿فكذّبوه﴾**.

ومقابل تصرفاتهم هذه توعدهم الله سبحانه وتعالى بعذابه بعبارة قصيرة جاء فيها: إنّنا سنحضرهم إلى محكمة العدل الإلهي وسنعذّبهم في جهنّم **﴿فإنّهم لمحضرون﴾** لينالوا جزاء أعمالهم القبيحة والمنكرة.

ولكن يبدو أنّ هناك مجموعة من الأطهار المحسنين والمخلصين قد آمنوا بما جاء به إلياس، ولكي لا يضيع حقّ هؤلاء، قال تعالى مباشرةً **﴿إلّا عباد الله المخلصين﴾**.

وفي المرحلة الثانية أثنى الله سبحانه وتعالى وبعث بتحيّاته إلى آل ياسين، قال تعالى: **﴿سلام على إل ياسين﴾**.[2]

وفي المرحلة الثالثة، قال تعالى: **﴿إنّا كذلك نجزي المحسنين﴾**.

أمّا المرحلة الرابعة فتطرح الايمان كأمر أساسي يجب أن يتوفّر في الأنبياء الذين إستعرضتهم هذه السورة المباركة فتقول: **﴿إنّه من عبادنا المؤمنين﴾**[3].

«الايمان» و «العبودية» لله هما مصدر الإحسان، والإحسان يؤدّي إلى إنضمام المحسن لصفوف المخلصين الذين يشملهم سلام الله.

---

١ ـ الصافات ١٢٦ ـ ١٢٤.

٢ ـ إستخدام عبارة (الياسين) بدلاً عن (الياس) إمّا لكونها من الناحية اللغوية لفظاً لـ (إلياس) واللتين لهما نفس المعنى، أو أنّها إشارة إلى (إلياس) وأتباعه المؤمنين، فوردت بصورة الجمع

٣ ـ الصافات، ١٣٢ ـ ١٢٧.

النبي اليسع عليه السلام

ورد اسم (اليسع) مرتين في القرآن المجيد[١]، وما جاء في القرآن الكريم يوضّح أنّه من الأنبياء الكبار ومن الذين يقول عنهم القرآن في آياته: ﴿وكلاً فضّلنا على العالمين﴾.[٢]

البعض يعتقد أنّ (اليسع) هو (يوشع بن نون) أحد أنبياء بني إسرائيل المعروفين، وقد دخلت الألف واللام على اسمه كما أُبدلت الشين بالسين، ودخول الألف واللام على الإسم غير العربي (وهذا اسم عبري) أمر غير جديد، فمثلها مثل (إسكندر) التي تلفظ وتكتب بالعربية (الإسكندر) إذ هو نوع من التقريب.

في حين أنّ البعض يعتبرها كلمة عربية مشتقّة من (يسع) والتي هي فعل مضارع مشتقّ من (وسعت) ولتحويله إلى إسم أُضيف إليه الألف واللام.

الآية (٨٦) من سورة الأنعام بيّنت أنّه من ذريّة إبراهيم، ولكن لم تبيّن إن كان من أنبياء بني إسرائيل، أم لا؟

أمّا فصل الملوك في كتاب التوراة فقد جاء فيه أنّ إسمه (اليشع) بن (شافات)، ومعنى (اليشع) في اللغة العبرية هو (الناجي) فيما تعني (الشافات) (القاضي).

وقد إعتبر قسم آخر أنّه (الخضر) ولم يتوفّر بعد أيّ دليل واضح على هذا القول.

---

١ ـ في الآية ٤٨ من سورة (ص) و الآية ٨٦ من سورة الانعام.

٢ ـ الأنعام ـ ٨٦.

واعتبر قسم آخر أنّه (ذو الكفل) وهذا الكلام مخالف بوضوح لما جاء في الآية (٤٨) من سورة (ص)، لأنّ ذا الكفل معطوفاً على اليسع.

وعلى أيّة حال، فإنّ اليسع هو نبي له مقام رفيع وذو إستقامة، وما ذكرناه بشأنه كافٍ للإستلهام منه.

النبي ذاالكفل عليه السلام

المعروف أنّ (ذا الكفل) أحد أنبياء الله، وذكره ورد مع أنبياء آخرين، وجاء بالضبط بعد إسم إسماعيل وإدريس.[١]

والبعض يعتقد أنّه من أنبياء بني إسرائيل، وأنّه من أبناء أيّوب وإسمه الحقيقي (بشر) أو (بشير) أو (شرف) والبعض يرى أنّه (حزقيل) وذو الكفل هو لقب أُطلق عليه.

وحول تسمية (ذي الكفل) بهذا الإسم (الكفل يعني النصيب) ويعني (الكفالة والتعهّد) وردت عدّة تفاسير، منها:

قال البعض: إنّه سمّي بذي الكفل لأنّ الله سبحانه وتعالى أنزل عليه نصيباً وافراً من الثواب وشمله برحمته الواسعة.

وقال بعضهم: لأنّه التزم بتعهّده بقيام الليل بالعبادة، وصيام النهار، وعدم السخط من قضاء الله، وبهذا أُطلق عليه هذا اللقب.

وبعض آخر قال: سمّي بذي الكفل لأنّه تكفّل بمجموعة من أنبياء بني إسرائيل، وأنقذهم من ملوك زمانهم الجبّارين.

وعلى أيّة حال، فإنّ ما في حوزتنا اليوم من معلومات عن نبي الله ذي الكفل يدلّ على إستقامته في طريق طاعة وعبادة الله، ومقاومة الجبابرة، وأنّه نموذج بارز ليومنا الحاضر وما بعده، رغم أنّ البعد الزمني بيننا وبينهم يحول دون المعرفة الدقيقة لتفاصيل أحوالهم.

---

١ ـ في الآية (٨٥) من سورة الأنبياء

النبي عزيز عليه السلام

القرآن الكريم، يقصّ حكاية أحد الأنبياء القدامى، وهي تشير إلى حكاية رجل سافر على حماره ومعه طعام وشراب، فمرّ بقرية قد تهدّمت وتحوّلت إلى أنقاض تتخلّلها عظام أهاليها النخرة. وإذ رأىٰ هذا المشهد المروع قال: كيف يقدر الله على إحياء هؤلاء الأموات؟

لم يكن تسأوله بالطبع من باب الشكّ والإنكار، بل كان من باب التعجّب، إذ أنّ القرائن الأُخرى في القرآن تدلّ على أنّه كان أحد الأنبياء، وقد تحدّث إليه الله، كما أنّ الأحاديث تؤيّد هذا كما سيأتي.

عند ذلك أماته الله مدة مائة سنة، ثمّ أحياه مرّة أُخرى وسأله: كم تظنّ أنّك بقيت في هذه الصحراء؟ فقال وهو يحسب أنّه بقي سويعات: يوماً أو أقل، فخاطبه الله بقوله: بل بقيت هنا مائة سنة، انظر كيف أنّ طعامك وشرابك طوال هذه المدّة لم يصبه أي تغيّر بإذن الله. أي أنّ الله القادر على إبقاء ما يسرع إليه التفسّخ والفساد كالطعام والشراب، قادر أيضاً على إحياء الموتى بيسر. فإبقاء الطعام والشراب نوع من إدامة الحياة لهذه المواد السريعة التفسّخ، وعملية الإبقاء هذه ليست بأيسر من إحياء الموتىٰ.

إلّا أنّ الآية لم تشر إلى ماهيّة طعام النبيّ وشرابه. يقول بعض: إنّ طعامه كان فاكهة التين وكان شرابه عصير بعض الفواكه، وكلاهما يسرع إليه الفساد والتفسّخ كما هو معلوم، لذلك فإنّ بقاءهما هذه المدّة الطويلة دون تلف أمرٌ مهم.

ولكن لكي تؤمن بأنك قد أمضيت مائة سنة كاملة هنا انظر إلى حمارك الذي تلاشى ولم يبق منه شيء بموجب نواميس الطبيعة، بخلاف طعامك وشرابك، ثمّ انظر كيف إنّنا نجمع

أعضاءه ونحييه مرّة أُخرى. فعندما رأىٰ كلّ هذه الأُمور أمامه قال: ﴿اعلم أنّ الله على كلّ شيء قدير﴾، أي: إنني الآن على يقين بعد أن رأيت البعث بصورة مجسّمة أمامي.

ومَن هذا النبيّ الذي تحدّث عنه القرآن الكريم؟ ثمّة أقوال عديدة، قال بعض: إنّه «ارميا». وقال آخرون: إنّه «الخضر». إلّا أنّ أشهر الأقوال: إنّه «العزير» ويؤيّده حديث عن الإمام الصادق عليه السلام.

واختلفت الأقوال أيضاً بشأن القرية المذكورة، قال بعض: إنّها «بيت المقدس» التي دمّرها نبوخذ نصّر، وهو احتمال بعيد...[١]

خدمة عزير الكبرىٰ لليهود

«عزير» في لغة العرب هو «عزرا» في لغة اليهود، ولمّا كانت العرب تغيّر في بعض الكلمات التي تردها من لغات أجنبية وتجري على لسانها، وذلك كما هي الحال في إظهار المحبّة خاصّة فتصغر الكلمة، فصغرت عزرا إلى عُزير، كما بُدلت كلمة يسوع العبرية إلى عيسى في العربية، ويوحنا إلى يحيى.

وعلى كان حال، فإن عزيراً ـ أو عزرا ـ له مكانة خاصّة في تاريخ اليهود، حتى أن بعضهم زعم أنّه واضع حجر الأساس لأُمّة اليهود باني مجدهم وفي الواقع فإنّ له خدمةً كبرى لدينهم، لأنّ بخت نصر ملك بابل دمر اليهود تدميراً في واقعته المشهورة، وجعل مُدُنَهم، تحت سيطرة جنوده فأبادوها، وهدموا معابدهم، وأحرقوا توراتهم، وقتلوا رجالهم، وسبوا نساءهم، وأسروا أطفالهم، وجيء بهم إلى بابل فمكثوا هناك حوالي قرن.

ولما فتح كورش ملك فارس بابل جاءه عزرا، وكان من أكابر اليهود، فاستشفعه في اليهود فشفّعه فيهم، فرجعوا إلى ديارهم وكتب لهم التّوراة ـ ممّا بقي في ذهنه من أسلافه اليهود وما كانوا قد حدّثوا به ـ من جديد.

ولذلك فهم يحترمونه أيما احترام، ويعدّونه منقذهم ومحيي شريعتهم.

وكان هذا الأمر سبباً أن تلقبه جماعة منهم بـ«ابن الله» غير أنّه يستفاد من بعض الرّوايات أنّهم أطلقوا هذا اللقب احتراماً له لا على نحو الحقيقة.

---

١ ـ جاءت هذه القصّة في سورة البقرة، الاية ٢٥٩.

ولكنّنا نقرأ في الرّواية ذاتها أنّ النّبي سألهم بما مؤدّاه (إذا كنتم تُجلّون عزيراً وتكرمونه لخدماته العظمى وتطلقَون عليه هذا الاسم، فعلامَ لا تسمّون موسى وهو أعظم عندكم من عزير بهذا الاسم؟ فلم يجدوا للمسألة جواباً وأطرقوا برؤوسهم).

ومهما يكن من أمر فهذه التسمية كانت أكبر من موضوع الإجلال والإحترام في أذهان جماعة منهم، وما هو مألوف عند العامّة أنّهم يحملون هذا المفهوم على حقيقته، ويزعمون أنّه ابن الله حقّاً، لأنّه خلصهم من الدمار والضياع ورفع رؤوسهم بكتابة التوراة من جديد.

وبالطبع فهذا الإعتقاد لم يكن سائداً عند جميع اليهود، إلّا أنّه يستفاد أنّ هذا التصّور أو الإعتقاد كان سائداً عند جماعة منهم، ولا سيما في عصر النّبي محمّدﷺ، والدليل على ذلك أنّ أحداً من كتب التاريخ، لم يذكر بأنّهم عندما سمعوا الآية ﴿عزير ابن الله﴾ [1] احتجوا على النّبي أو أنكروا هذا القول «ولو كان لبان».

---

١ ـ الآية ٣٠، من سورة التوبة.

النّبي زكريا و النّبي يحيىٰ عليهما السلام

إنّ زوجة زكريّا وأُمّ مريم كانتا أُختين، وكانتا عاقرين، وعندما رزقت أُمّ مريم بلطف من الله هذه الذرّية الصالحة، ورأىٰ زكريّا خصائصها العجيبة، تمنّىٰ أن يرزق هو أيضاً ذرّية صالحة وطاهرة وتقيّة مثل مريم، بحيث تكون آية على عظمة الله وتوحيده. وعلى الرغم من كبر سن زكريّا وزوجته، وبُعدهما من الناحية الطبيعيّة عن أن يرزقا طفلاً، فإنّ حبّ الله ومشاهدة الفواكه الطرية في غير وقتها في محراب عبادة مريم، أترعا قلبه أملاً بإمكان حصوله في فصل شيخوخته على ثمرة الأُبوّة، لذلك راح يتضرّع إلى الله **﴿قال ربِّ هب لي من لدنك ذرّية طيّبة إنّك سميع الدعاء﴾**[1].

بشارة ولادة يحيىٰ

لم يمض وقت طويل حتّى أجاب الله دعاء زكريّا.

﴿فنادته الملائكة وهو قائم يصلّي في المحراب﴾.

وفيما كان يعبد الله في محرابه، نادته ملائكة الله وقالت له إنّ الله يبشّرك بمولود اسمه يحيى بل إنهم لم يكتفوا بهذه البشارة حتّى ذكروا للمولود خمس صفات:

أوّلاً: سوف يؤمن بالمسيح ويشدّ أزره بهذا الإيمان: **﴿مصدّقاً بكلمة من الله﴾**. و«كلمة الله» هنا وفي مواضع أُخرىٰ من القرآن سيرد شرحها ـ تعني المسيح عليه السلام ـ وقد جاء في التاريخ

---

١ ـ آل‌عمران، ٣٨.

أنّ يحيىٰ كان يكبر عيسىٰ ستة أشهر، وكان أول من آمن به. وإذا كان قد اشتهر بين الناس بالطهر والزهد، فقد كان لإيمانه هذا بالمسيح تأثير كبير على الناس، في توجيههم وحثّهم على الإيمان به.

وثانياً: سيكون من حيث العلم والعمل قائداً للناس ﴿وسيّداً﴾، كما أنّه سيحفظ نفسه عن الشهوات الجامحة وعن التلوّث بحبّ الدنيا. ﴿وحصوراً﴾.

والرابعة والخامسة من مميّزاته أيضاً أنّه سيكون ﴿نبياً﴾ وأنّه ﴿من الصالحين﴾.

فلما سمع زكريا بهذه البشارة غرق فرحاً وسروراً، ولم يمتلك نفسه في إخفاء تعجبّه من ذلك، فقال ﴿ربّ أنّىٰ يكون لي غلام وقد بلغني الكبر وامرأتي عاقر﴾ فأجابه الله تعالى ﴿قال كذلك الله يفعل ما يشاء﴾[1] فلما سمع زكريا هذا الجواب الموجز الذي يشير إلى نفوذ إرادته تعالى ومشيئته، قنع بذلك[2].

آية على ولادة يحيىٰ

هنا يطلب زكريّا من الله إمارة على بشارته بمجيء يحيىٰ. إنّ إظهار دهشته وكذلك طلب علامة من الله، لا يعنيان أبداً أنّه لا يثق بوعد الله، خاصّة وأنّ ذلك الوعد قد تـوكّد بـقوله: ﴿كذلك الله يفعل ما يشاء﴾. إنّما كان يريد زكريّا أن يتحوّل إيمانه بهذا إيماناً شهودياً. كان يريد أن يمتليء قلبه بالإطمئنان، كما كان إبراهيم يـبحث عـن اطـمئنان القـلب والهـدوء الناشئين عن الشهود الحسّي.

---

١ ـ آل عمران، ٤٠ ـ ٣٨.

٢ ـ قد يسأل سائل: لماذا استولى العجب على زكريّا مع أنّه عالم بقدرة الله التي لا تنتهي؟
يتّضح الجواب بالرجوع إلى الآيات الأُخرى. كان يريد أن يعرف كيف يمكن لامرأة عاقر ـ خلفت وراءها سنوات عديدة بعد سنة اليأس ـ أن تحمل وتلد؟ ما الذي يتغيّر فيها؟ أترجع إليها العـادة الشهرية كسائر النساء المتوسّطات العمر؟ أم أنّها ستحمل بصورة أُخرىٰ؟
ثمّ إنّ الإيمان بقدرة الله غير «الشهود والمشاهدة». زكريّا كان يريد أن يبلغ إيمانه مبلغ الشهود، مثل إبراهيم الذي كان مؤمناً بالمعاد، ولكنّه طلب المشاهدة. كان يريد أن يصل إلى هذه المرحلة مـن الإيمان. وأنّه لأمر طبيعيّ أن يفكّر الإنسان، إذا ما صادفه أمر خارق للقوانين الطبيعية فـي كـيفيّة حصول ذلك، ويودّ لو أنّه رأىٰ دليلاً حسّياً على ذلك.

﴿قال آيتك ألّا تكلّم الناس ثلاثة أيّام إلّا رمزاً﴾[١].

أجاب الله طلب زكريّا هذا أيضاً، وعيَّن له علامة، وهي أنّ لسانه كفّ عن الكلام مدّة ثلاثة أيّام بغير أيّ نقص طبيعي، فلم يكن قادراً على المحادثة العادية. ولكن لسانه كان ينطلق إذا ما شرع يسبّح الله ويذكره. هذه الحالة العجيبة كانت علامة على قدرة الله على كلّ شيء. فالله القادر على فكّ لجام اللسان عند المباشرة بذكره، قادر على أن يفكّ عقم رحم امرأة فيخرج منه ولداً مؤمناً هو مظهر ذكر الله. وهكذا تتّضح العلاقة بين هذه العلامة وما كان يريده زكريّا.

وفي الوقت نفسه يمكن أن تحمل هذه العلامة معنى آخر في طيّاتها، وهو أنّ إلحاح زكريّا على طلب العلامة والآية ـ وإن لم يكن أمراً محرّماً ولا مكروهاً ـ كان من نوع «ترك الأولى». لذلك قرّر له علامة، إضافة إلى ما فيها من بيان لقدرة الله، طافحة بالإشارة إلى تركه للأولى.

وهب الله له ولداً شبيهاً بعيسى بن مريم في كثير من الصفات: في النبوّة وهما صغيران، وفي معنى اسميهما (عيسىٰ ويحيىٰ كلاهما بمعنى البقاء حيّاً)، وفي تحية وسلام الله عليهما في المراحل الثلاث: الولادة، والموت، والحشر و جهات أُخرى.

يحيى عليه السلام النّبي المتألّه الورع

«يحيى» من أنبياء الله الكبار، ومن جملة امتيازاته ومختصاته أنّه وصل إلىٰ مقام النّبوة في مرحلة الطفولة، فإنّ الله سبحانه قد أعطاه عقلاً وذكاءً وقّاداً ودراية واسعة في هذا العمر بحيث أصبح مؤهلاً لتقبل هذا المنصب.

إنّ المستفاد من المصادر الإسلامية والمسيحية أن يحيى كان بن خالة عيسىٰ.

فقد صرّحت المصادر المسيحية بأنّ يحيى غسل المسيح عليه السلام غسل التعميد، ولذلك يسمّونه (يحيى المعمد) ـ وغسل التعميد غسل خاص يغسل المسيحيون أولادهم به، ويعتقدون أنّه يطهرهم من الذنوب ـ ولما أظهر المسيح نبوته آمن به يحيى.

لقد كان بين يحيى وعيسى جوانب مشتركة، كالزهد الخارق غير المألوف، وترك الزواج للأسباب التي ذكرت، وولادتهما التي تحمل طابع الإعجاز، وكذلك النسب القريب جدّاً.[٢]

---

١ ـ آل‌عمران، ٤١.

٢ ـ ويستفاد من الرّوايات الإسلامية، أن بين الحسين عليه السلام ويحيى عليه السلام جهات مشتركة، ولذلك فقد روي الإمام زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام أنّه قال: «**خرجنا مع الحسين بن علي عليه السلام، فما نزل منزلاً ولا**

«يحيىٰ» من الحياة وتعني البقاء حيّاً، وقد اختيرت هذه الكلمة اسماً لهذا النبيّ العظيم، والمقصود بالحياة هنا هي الحياة المادّية والحياة المعنوية في نور الإيمان ومقام النبوّة والإرتباط بالله. هذا الاسم قد إختاره الله له قبل أن يولد، كما جاء في سورة مريم ﴿يا زكريّا إنّا نبشّرك بغلام اسمه يحيىٰ لم نجعل له من قبلُ سمّياً﴾[1] ومن هذا يتبيّن أيضاً أنّ أحداً لم يسبق أن سمّي بهذا الاسم.

صفات يحيىعليه السلام البارزة

أشار القرآن الكريم إلىٰ المواهب العشرة التي منحها الله ليحيى والتي اكتسبها بتوفيق الله:

١ ـ ﴿وآتيناه الحكم صبياً﴾. وهو أمر النّبوة والعقل والذكاء والدراية.

٢ ـ ﴿وحناناً من لدنا﴾ والحنان في الأصل بمعنىٰ الرحمة والشفقة والمحبّة وإظهار العلاقة والمودّة للآخرين.

٣ ـ ﴿وزكاة﴾ أي أعطيناه روحاً طاهرة وزكية.

٤ ـ ﴿وكان تقياً﴾ فكان يجتنب كل ما يخالف الأوامر الالهية.

٥ ـ ﴿وبراً بوالديه﴾.

٦ ـ ﴿ولم يكن جباراً﴾ فلم يكن رجلاً ظالماً ومتكبراً وانانيّاً.

٧ ـ ولم يكن ﴿عصياً﴾ ولم يقترف ذنباً ومعصية.

٨، ٩، ١٠ ـ ولما كان جامعاً لكل هذه الصفات البارزة، والأوسمة الكبيرة، فإن الله سبحانه قد سلّم عليه في ثلاثة مواطن: ﴿وسلام عليه يوم ولد، ويوم يموت، ويوم يبعث حياً﴾[2].

رحل منه إلّا ذكر يحيى بن زكريا وقتله، وقال: ومن هوان الدنيا على الله أنّ رأس يحيى بن زكريا أهدي إلىٰ بغي من بغايا بني إسرائيل».

كما أن شهادة الحسينعليه السلام تشبه شهادة يحيىعليه السلام من عدّة جهات أيضاً، وسنذكر كيفية قتل يحيى فيما بعد.

وكذلك فإنّ اسم الحسينعليه السلام كاسم يحيىعليه السلام لم يسبقه به أحد، ومدّة حملهما كانت أقل من المعتاد.

١ ـ الآية ٧.

٢ ـ مريم، ١٥ ـ ١٢.

النّبوة في الطفولة

صحيح أنّ مرحلة النضج العقلي للإنسان لها حدّ معين عادة، إلّا أنّه يوجد أفراد استثنائيون بين البشر دائماً، فأي مانع من أن يختصر الله هذه المرحلة لبعض عباده لمصالح ما، ويجعلها تتلخص في سنوات أقل؟ كما أن مرور سنة أو سنتين على الولادة أمر محتم من أجل التمكن من النطق عادة، في حين أنّنا نعلم أنّ عيسى عليه السلام قد تكلم في أيّامه الأُولىٰ، وكان كلاماً عميق المحتوى من شأنه أن يصدر ـ عادة عن أناس كبار في السن.[١]

شهادة يحيىٰ

لم تكن ولادة يحيى عجيبة ومذهلة لوحدها، بل إنّ موته أيضاً كان عجيباً من عدّة جهات، وقد ذكر أغلب المؤرّخين المسلمين، وكذلك المصادر المسيحية، مجرى هذه الشهادة على هذه النحو، بالرغم من وجود اختلاف يسير في خصوصياتها بين هذه المراجع:

لقد أصبح يحيى ضحية للعلاقات غير الشرعية لأحد طواغيت زمانه مع أحد محارمه، حيث تعلق «هروديس» ملك فلسطين اللاهث وراء شهواته بينت أخته «هروديا» وهام في غرامها، وألهب جمالها قلبه بنار العشق، ولذلك صمم علىٰ الزواج منها!

فبلغ هذا الخبر نبي الله العظيم يحيى عليه السلام، فأعلن بصراحة أنّ هذا الزواج غير شرعي ومخالف لتعليمات التوراة، وسأقف امام مثل هذا العمل.

لقد انتشر صخب وضوضاء هذه المسألة في كل أرجاء المدينة، وسمعت تلك الفتاة (هيروديا) بذلك، فكانت ترى يحيى أكبر عائق في طريقها، ولذلك صممت على الإنتقام منه

---

١ ـ من هنا يتّضح عدم صحة الإشكال الذي طرحه بعض الأفراد حول بعض أئمة الشيعة، بأنّه كيف تسلّم بعضهم أُمور الإمامة في سن صغيرة؟

نطالع في رواية عن علي بن أسباط، أحد أصحاب الإمام الجواد محمّد بن علي النقي عليه السلام أنّه قال: رأيت أبا جعفر عليه السلام وقد خرج عليّ، فأجدت النظر إليه، وجعلت أنظر إلىٰ رأسه ورجليه لأصف قامته لأصحابنا بمصر، فبينا أنا كذلك قعد فقال: «يا عليّ، إنّ الله احتج في الإمامة بمثل ما احتج به في النّبوة، قد يقول ﴿وآتيناه الحكم صبياً﴾، وقد يقول ﴿ولما بلغ أشده وبلغ أربعين سنة﴾ فقد يجوز أن يؤتى الحكمة وهو صبي، ويجوز أن يؤتى الحكمة وهو ابن أربعين».

في فرصة مناسبة لترفع هذا المانع من طريق شهواتـها ومـيولها، فـعمقت عـلاقتها بـخالها ووطدتها، وجعلت من جمالها مصيدة له، وقد ملكت عليه كل مشاعره وأحاسيسه، إلىٰ أن قال لها هيروديس يوماً: اطلبي منّي كل ما تريدين فسأحققه لك قطعاً، فقالت هيروديا: لا أريد منك إلّا رأس يحيى! لأنّه قد شوّه سمعتي وسمعتك، وقد أصبح كل الناس يعيروننا، فإنّ كنت تريد أن يهدأ قلبي ويسر خاطري فيجب أن تقوم بهذا العمل!

فسلّم هيروديس ـ الذي أصبح مجنوناً لا يعقل من عشق هذه المرأة ـ لما أرادت من دون أن يفكر ويتنبه إلىٰ عاقبة هذا العمل، ولم يمض قليل من الزمن حتى أُحضر رأس يحيى عند تلك المرأة الفاجرة، إلّا أنّ عواقب هذا العمل الشنيع قد أحاطت به، وأخذت بأطرافه في النهاية.

النّبي عيسىٰ و مريم عليهما السلام

إنّ «حنة» و «اشياع» كانتا أُختين، تزوّجت الأُولىٰ «عمران» أحد زعماء بني إسرائيل، وتزوّجت الأُخرىٰ «زكريّا» النبيّ.

مضت سنوات على زواج «حنة» بغير أن ترزق مولوداً. وفي أحد الأيّام بينما هي جالسة تحت شجرة، رأت طائراً يطعم فراخه. فأشعل هذا المشهد نار حبّ الأُمومة في قلبها، فتوجّهت إلى الله بمجامع قلبها طالبةً منه أن يرزقها مولوداً، فاستجاب الله دعاءها الخالص، ولم تمض مدّة طويلة حتّى حملت.

إنّ الله قد أوحىٰ إلى «عمران» أنّه سيهبه ولداً مباركاً يشفي المرضىٰ الميؤوس من شفائهم، ويحيي الموتىٰ بإذن الله، وسوف يرسله نبيّاً إلى بني إسرائيل. فأخبر عمران زوجته «حنة» بذلك. لذلك عندما حملت ظنّت أنّ ما تحمله في بطنها هو الابن الموعود، دون أن تعلم أنّ ما في بطنها أُم الابن الموعود «مريم» فنذرت ما في بطنها للخدمة في بيت الله «بيت المقدس ويسمّىٰ محرراً».

«المحرر» من التحرير، وكانت تطلق في ذلك الزمان على الأبناء المعيّنين للخدمة في المعبد ليتولّوا تنظيفه وخدماته، وليؤدّوا عباداتهم فيه وقت فراغهم. ولذلك سمّي الواحد منهم «المحرّر»، إذ هو محرّر من خدمة الأبوين، وكان ذلك مدعاة لافتخارهم.

قيل إنّ الصبيان القادرين على هذه الخدمة كانوا يقومون بها بإشراف الأبوين إلى سنّ البلوغ، ومن ثمّ كان الأمر يوكل إليهم، إن شاؤوا بقوا، وإن شاؤوا تركوا الخدمة.

ربّ انّي وضعتها انثىٰ

القرآن الكريم يشرح حال أُم مريم بعد ولادتها، فقد أزعجها أن تلد أُنثىٰ، وراحت تخاطب الله قائلة: إنّها أُنثىٰ، وأنت تعلم أنّ الذكر ليس كالأُنثى في تحقيق النذر، فالأُنثى لا تستطيع أن تؤدّي واجبها في الخدمة كما يفعل الذكر فالبنت بعد البلوغ لها عادة شهرية ولا يمكنها دخول المسجد، مضافاً إلى أن قواها البدنية ضعيفة، وكذلك المسائل المربوطة بالحجاب والحمل وغير ذلك. ﴿وليس الذكر كالأُنثى﴾.

إنّ أُمّ مريم لم تكن تصدّق إمكان قبول الأُنثىٰ خادمة في بيت الله، لذلك كانت تتمنّى أن تلد مولوداً ذكراً، إذ لم يسبق أن اختيرت أُنثىٰ لهذا العمل.

ولكن القرآن يقول إنّ الله قد قبل قيام هذه الأنثىٰ الطاهرة بهذه الخدمة الروحية والمعنوية، لأوّل مرّة.

يقول بعض المفسّرين: إنّ دليل قبولها لهذه الخدمة أنّها لم تكن ترى العادة الشهرية أثناء خدمتها في بيت المقدس لكي لا تضطرّ إلى ترك الخدمة، أو أن حضور طعامها من الجنّة إلى محرابها دليل على قبولها. وقد يكون قبول النذر وقبول مريم قد أُبلغ للأُمّ عن طريق الإلهام.

يقول القرآن: إختار الله زكريّا كي يتكفّل مريم، إذ أنّ أباها عمران قد ودّع الحياة قبل ولادتها.

إنّ أُم مريم هي التي سمّتها بهذا الإسم عند ولادتها. و «مريم» بلغتها تعني «العابدة». وفي هذا يظهر منتهى اشتياق هذه الأُمّ الطاهرة لوقف وليدها على خدمة الله. لذلك طلبت من الله ـ بعد أن سمّتها ـ أن يحفظها ونسلها من وسوسة الشياطين، وأن يرعاهم بحمايته ولطفه ﴿وإنّي أُعيذها بِكَ وذُرّيتها من الشيطان الرجيم﴾.

القرعة لكفالة مريم

إن أُمّ مريم بعد أن وضعتها لفّتها في قطعة قماش وأتت بها إلى المعبد وخاطبت علماء بني إسرائيل وأشرافهم بقولها: هذه المولودة قد نُذرت لخدمة بيت الله، فليتعهّد أحدكم بتربيتها. ولمّا كانت مريم من أُسرة معروفة «آل عمران»، أخذ علماء بني إسرائيل يتنافسون في الفوز بتعهّد تربيتها. وأخيراً اتّفقوا على إجراء القرعة بينهم، فجاؤوا إلى شاطىء نهر وأحضروا معهم

أقلامهم وعصيّهم التي كانوا يقترعون بها. كتب كلّ واحد منهم اسمه على قلم من الأقـلام، وألقوها في الماء، فكلّ قلم غطس في الماء خسر صاحبه، والرابح يكون من يطفو قلمه على الماء :غطس القلم الذي كتب عليه اسم زكريا، ثمّ عاد وطفا على سطحه،وبذلك أصـبحت مريم في كفالته، وقد كان في الحقيقة أجدرهم بذلك، فهو نبيٌ وزوج خالة مريم.

يقول سبحانه: ﴿**وما كنت لديهم اذ يلقون أقلامهم أيّهم يكفل مريم وما كنت لديـهم اذ يختصمون**﴾ [١] أي إنك لم تكن حاضراً حينذاك.

زكريا و كفالة مريم

كَبُرت مريم تحت رعاية زكريّا، وكانت غارقة في العبادة والتعبّد. بحيث إنّها عندما بلغت التاسعة من عمرها كانت تصوم النهار وتقوم الليل بالعبادة، وكانت على درجة كـبيرة مـن التقوىٰ ومعرفة الله حتّى أنّها فاقت الأحبار والعلماء في زمانها. وعندما كان زكريّا يزورها في المحراب يجد عندها طعاماً خاصّاً، فيأخذه العجب من ذلك. سألها يوماً: ﴿**يا مريمُ أنّىٰ لك هذا**﴾. فقالت: ﴿**هو من عند الله إنّ الله يرزق من يشاء بغير حساب**﴾ [٢].

القرآن لا يذكر شيئاً عن ماهيّة هذا الطعام ومن أين جاء، لكنّ بعض الأحاديث تفيد أنّه كان فاكهة من الجنّة في غير فصلها تحضر بأمر الله إلى المحراب. وليس ما يدعو إلى العجب في أن يستضيف الله عبداً تقيّاً.

وقد ورد عن الإمام الباقر عليه السلام ما ملخّصه أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله دخل يوماً على ابنته فاطمة عليها السلام وهو يعلم أنّها لم تكن تملك طعاماً يذكر منذ أيّام، فوجد عندها طعاماً وافراً خاصّاً، فسألها عنه، فقالت: هو من عند الله إنّ الله يرزق من يشاء بغير حساب. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله لعليّ عليه السلام: ألا أُحدّثك بمثلك ومثلها؟ قال: بلى، قال: مثل زكريّا إذ دخل على مريم المحراب فـوجد عندها رزقاً، قال: يا مريم أنّىٰ لك هذا؟ قالت: هو من عند الله، إنّ الله يرزق من يشاء بغير حساب... .

---

١ ـ آل عمران، ٤٤.

٢ ـ آل عمران، ٣٧.

الملائكة يكلمون مريم

إنّ الملائكة كانوا يكلّمون مريم: **﴿وإذ قالت الملائكة يا مريم... إنّ الله اصطفاك وطهّرك واصطفاك علىٰ نساء العالمين﴾**.

فقد بشرتها الملائكة بأن الله تعالى قد إختارها من بين جميع نساء العالم وطهّرها وفضلها بسبب تقواها وإيمانها وعبادتها.

والجدير بالذكر أن كلمة «اصطفاك» تكررت مرتين في هذه الآية، ففي المرّة الأُولى كانت لبيان الاصطفاء المطلق، وفي الثانية إشارة إلى أفضليّتها على سائر نساء العالم المعاصرة لها.[١]

إنّ الملائكة بعد أن بشّرها بأنّ الله قد اصطفاها، قالوا لها:

الآن اشكري الله بالركوع والسجود والخضوع له اعترافاً بهذه النعمة العظمىٰ. **﴿يا مريم اقنتي لربّك واركعي مع الراكعين﴾**[٢].

بداية ولادةالمسيح عليه السلام

يقول القرآن الكريم في قصّة ولادة المسيح عليه السلام: **﴿واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً﴾** فقد كانت مريم تبحث عن مكان خال من كل نوع من التشويش والضوضاء حتى لا يشغلها شيء عن مناجاتها ويصرفها ـ ولو حيناً ـ عن ذكر المحبوب، ولذلك اختارت شرقي بيت المقدس، ذلك المعبد الكبير، لعله يكون مكاناً أكثر هدوءاً، أو أنّه كان أنظف وأنسب من جهة أشعة الشمس ونورها.

---

١ ـ هذا يعني أن مريم كانت أعظم نساء زمانها، وهو لا يتعارض مع كون سيّدة الإسلام فاطمة الزهراء عليها السلام سيّدة نساء العالمين، فقد جاء في أحاديث متعدّدة عن رسول الله صلى الله عليه وآله والإمام الصادق عليه السلام قولهما:

«أمّا مريم فكانت سيّدة نساء زمانها. أمّا فاطمة فهي سيّدة نساء العالمين من الأوّلين والآخرين».

كما أنّ كلمة «العالمين» لا تتعارض مع هذا الكلام أيضاً، فقد وردت هذه الكلمة في القرآن وفي الكلام العام بمعنى الناس الذين يعيشون في عصر واحد، كما جاء بشأن بني إسرائيل **﴿واني فضّلتكم على العالمين﴾** (البقرة: ٤٧) فلاشكّ أنّ تفضيل مؤمني بني إسرائيل كان على أهل زمانهم.

٢ ـ آل عمران، ٤٣ ـ ٤٢.

في هذه الأثناء من أجل أن تكمل مريم مكان خلوتها واعتكافها من كـل جـهة، فـإنّها ﴿فاتخذت من دونهم حجاباً﴾ من أجل أن تناجي ربّها بحرية أكبر، وتستطيع عند خلو هذا المكان من كل ما يشغل القلب والحواس أن تتوجه إلىٰ العبادة والدعاء.

﴿فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً﴾ والروح أحد الملائكة العظام حيث تجسّد لمريم علىٰ شكل انسان جميل لا عيب فيه ولا نقص.[1]

إنّ الحالة التي اعترت مريم في تلك اللحظة واضحة جدّاً، فمريم التي عاشت دائماً نقية الجيب، وتربّت في أحضان الطاهرين، وكان يضرب بها المثل بين الناس في العفة والتقوى ... كم داخلها من الرعب والإضطراب عند مشاهدة هذا المنظر، وهو دخول رجل أجنبي جميل في محل خلوتها! ولذلك فإنّها مباشرة ﴿قالت إنّي أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً﴾ وكانت هذه أوّل هزّة عمّت كل وجود مريم.

إنّ ذكر اسم الرحمان، ووصفه برحمته العامّة من جهة، وتـرغيب الرجـل فـي التـقوى والإمتناع عن المعصية من جهة أُخرىٰ، كان من أجل أن يرتدع هذا الشخص المـجهول إن كانت له نيّة سيئة في ارتكاب المعصية، والأهم من ذلك كله هو الإلتجاء إلىٰ الله، فالله الذي يلتجىء إليه الإنسان في أحلك الظروف، ولا تقف أية قدرة أمام قدرته، هو الذي سـيحل المعضلات.

لقد كانت مريم تنتظر رد فعل ذلك الشخص المجهول بعد أن تفوهت بهذه الكلمات انتظاراً مشوباً بالإضطراب والقلق الشديد، إلّا أنّ هذه الحالة لم تطل، فـقد كـلمها ذلك الشـخص، ووضّح مهمته ورسالته العظيمة ﴿قال إنّي رسول ربّك﴾.

لقد كانت هذه الجملة كالماء الذي يلقىٰ علىٰ النار، فقد طمأنت قلب مريم الطاهر، إلّا أنّ هذا الإطمئنان لم يدم طويلاً؛ لأنّه أضاف مباشرة ﴿لأهب لك غلاماً زكياً﴾.

لقد اهتز كيان ووجود مريم لدى سماع هذا الكلام، وغاصت مرّة أُخرىٰ في قلق شديد ﴿قالت أنى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ولم أك بغياً﴾.

---

١ ـ ولا شك أنّ هذا الكلام لا يعني أن جبرئيل قد تبدل إلىٰ إنسان شكلاً وسيرة، لأنّ مـثل هـذا التحول والتبدل أمر غير ممكن، بل المراد أنّه ظهر بصورة إنسان بالرغم من أنّ سلوكه كان نفس ذلك السلوك الملائكي، إلّا أنّ مريم التي لم تكن تعلم بالأمر في البداية، كانت تظن أن في مقابلها إنساناً سيرة وصورة.

لقد كانت تفكر في تلك الحالة في الأسباب الطبيعية فقط، وكانت تظن أن المرأة يمكن أن يكون لها ولد عن طريقين لا ثالث لهما: إمّا الزواج أو التلوّث بالرذيلة والإنـحراف، وإنّـي أعرف نفسي أكثر من أي شخص آخر، فإنّي لم أختر زوجاً لحد الآن، ولم أكن امرأة منحرفة قط، ولم يسمع لحد الآن أنّ شخصاً يولد له ولد من غير هذين الطريقين!

إلّا أنّ أمواج هذا القلق المتلاطمة هدأت بسرعة عند سماع كلام آخر من رسول الله إليها، فقد خاطب مريم بصراحة: ﴿قال كذلك قال ربّك هو علي هين﴾ فأنت الواقفة علىٰ قدرتي والعالمة بها جيداً.. أنت التي رأيت ثمر الجنّة في فصل لا يوجد شبيه لتلك الفاكهة في الدنيا جنب محراب عبادتك. أنت التي سمعت نداء الملائكة حين شهدت بعفتك وطهارتك .. أنت التي تعلمين أنّ جدك آدم قد خلق من التراب، فلماذا هذا التعجب من سماعك هذا الخبر؟

ثمّ أضاف: ﴿ولنجعله آية للناس ورحمة منّا﴾ فنحن نريد أن نبعثه للناس رحمة من عندنا، ونجعله معجزة، وعلىٰ كل حال ﴿وكان أمراً مقضياً﴾[1]. فلا مجال بعد ذلك للمناقشة.

ما هو المراد من روح الله؟

إنّ كل المفسّرين المعروفين تقريباً فسّروا الروح هنا بأنّه جبرئيل ملك الله العظيم، والتعبير عنه بالروح لأنّه روحاني، ووجود مفيض للحياة، لأنّه حامل الرسالة الإلهية إلىٰ الأنبياء وفيها حياة جميع البشر اللائقين، وإضافة الروح هنا إلىٰ الله دليل على عظمة وشرف هذا الروح، حيث أنّ من أقسام الإضافة هي (الإضافة التشريفية).

مريم في عاصفة

وأخيراً حملت مريم، واستقر ذلك الولد الموعود في رحمها: ﴿فحملته﴾ ولم يتحدث القرآن عن كيفية نشوء وتكوّن هذا المولود، فهل أنّ جبرئيل قد نفخ في ثوبها، أم في فمها؟ وذلك لعدم الحاجة إلىٰ هذا البحث، بالرغم من أنّ كلمات المفسّرين مختلفة في هذا الشأن.

وعلى كل حال، فإنّ هذا الأمر قد تسبب في أن تبتعد عن بيت المقدس ﴿فانتبذت به مكاناً قصياً﴾.

---

١ ـ مريم، ٢١ ـ ١٦.

لقد كانت تعيش في حالة بين الخوف والأمل، حالة من القلق والإضطراب المشوب بالسرور، فهي تفكر أحياناً بأن هذا الحمل سيفشو أمره في النهاية، فالأفضل أن أبقى بعيدة عن أُولئك الذين يعرفونني عدّة أيّام أو أشهر، وأعيش في هذا المكان بصورة مجهولة، وماذا سيحدث في النهاية؟

فمن الذي سيقتنع بأنّ إمرأة لا زوج لها تحمل دون أن تكون قد تلوثت بالرذيلة؟ فماذا سأفعل تجاه هذا الإتهام؟ والحق أنّ من المؤلم جدّاً بالنسبة لفتاة كانت لسنين طويلة نموذجاً وقدوة للطهارة والعفة والتقوىٰ والورع، ومثالاً في العبادة والعبودية لله، وكان زهاد بني إسرائيل يفتخرون بكفالتها منذ الطفولة، وقد تربت وترعرعت في ظل نبي كبير، وقد شاع أمر سجاياها وقداستها في كل مكان، أن تحس في يوم ما أن كل هذا الرصيد المعنوي مهدد بالخطر، وستكون غرضاً ومرمى لاتهام يعتبر أسوء وأقبح اتهام، وكانت هذه هي المصيبة الثّالثة التي وقعت لها.

إلّا أنّها من جهة أُخرىٰ كانت تحس أنّ هذا المولود، نبي الله الموعود، تحفة سماوية نفيسة، فإنّ الله الذي بشرني بمثل هذا الغلام، وخلقه بهذه الصورة الإعجازية كيف سيذرني وحيدة؟ فهل من المعقول أن لا يدافع عني في مقابل مثل هذا الإتهام؟ أنا التي رأيت وجربت لطفه علىٰ الدوام، وأحسست بيد رحمته علىٰ رأسي.

وهناك بحث في مدّة حمل مريم، بالرغم من أنّه ذكر في القرآن بصورة مخفية ومبهمة، فبعضهم حسبه ساعة واحدة، وآخر تسع ساعات، وثالث ستة أشهر، ورابع سبعة، وآخر ثمانية، وآخر تسعة أشهر كسائر النساء، إلّا أن هذا الموضوع ليسَ له ذلك التأثير في هدف هذه القصّة. والرّوايات الواردة في هذا المجال مختلفة أيضاً.

وقد اعتقد الكثيرون أنّ المكان «القصي» هو مدينة «الناصرة» وربّما بقيت في تلك المدينة بصورة دائماً وقلّما خرجت منها.

ومهما كان فقد انتهت مدّة الحمل، وبدأت لحظات تلاطم أمواج حياة مريم، وقد دفعها ألم الولادة الشديد الذي هاج فيها إلىٰ ترك الأماكن المعمورة والتوجه إلىٰ الصحاري الخالية من البشر، والقاحلة التي لا عشب فيها ولا ماء ولا مأوى.

ومع أن النساء يلجأن عادة في مثل هذه الحالة إلىٰ المعارف والأصدقاء ليساعدوهّن علىٰ الولادة، إلّا أن وضع مريم لما كان استثنائياً، ولم تكن تريد أن يرى أحد وضع حملها

مطلقاً، فإنّها اتّخذت طريق الصحراء بمجرّد أن بدأ ألم الولادة ويقول القرآن في ذلك: **﴿فأجاءها المخاض إلىٰ جذع النخلة﴾**[1].

إنّ التعبير بجذع النخلة، وبملاحظة أن الجذع يعني بدن الشجرة، يوحي بأنّه لم يبق من تلك الشجرة إلّا جذعها وبدنها، أي إنّ الشجرة كانت يابسة.

يا ليتني متُّ قبل هذا

غمر كل وجود مريم الطاهر سيل من الغم والحزن، وأحسست بأنّ اللحظة التي كانت تخشاها قد حانت، اللحظة التي مهما أخفيت فإنّها ستتضح هناك، وسيتجه نحوها سيل سهام الإتهام التي سيرشقها بها الناس.

لقد كان هذا الإضطراب والصراع صعباً جدّاً، وقد أثقل كاهلها إلىٰ الحد الذي تكلمت فيه بلا إرادة و **﴿قالت يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً﴾**.

إنّ من البديهي أنّ الخوف من التهم في المستقبل لم يكن الشيء الوحيد الذي كان يعصر قلب مريم ويقلقها، وإن كان هذا الموضوع يشغل فكر مريم أكثر من أية مسألة أُخرىٰ، إلّا أنّ مشاكل ومصائب أُخرىٰ كوضع الحمل لوحدها بدون قابلة وصديق ومعين في الصحاري الخالية، وعدم وجود مكان للإستراحة، وعدم وجود الماء للشرب، والطعام للأكل، وعدم وجود وسيلة لحفظ المولود الجديد، وغير هذه الأُمور كانت تهزّها من الأعماق بشدّة.

قد يتساءل البعض باعتراض: كيف أنّ مريم المؤمنة والعارفة بالتوحيد حيث رأت كل ذلك اللطف والإحسان الإلهي، أجرت مثل هذه الجملة علىٰ لسانها وقالت: **﴿ياليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً﴾**، إلّا أنّ هؤلاء لم يدركوا أبداً حال مريم في تلك الساعة، ولو أنّهم أصابهم شيء قليل من هذه المشاكل فإنّهم سينسون حتىٰ أنفسهم.

إلّا أنّ هذه الحالة لم تدم طويلاً، فقد سطعت ومضة الأمل التي كانت موجودة دائماً في أعماق قلبها، وطرق سمعها صوت **﴿فناداها من تحتها ألا تحزني قد جعل ربّك تحتك سريا﴾** وانظري إلىٰ الأعلىٰ كيف أن هذا الجذع اليابس قد تحول إلىٰ نخلة مثمرة **﴿وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً فكلي واشربي وقري عيناً﴾** بالمولود الجديد **﴿فإمّا ترين من**

---

١ ـ مريم، ٢٣ ـ ٢٢.

البشر أحداً فقولي إنّي نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسياً﴾[١]. وهذا الصوم هو المعروف بصوم السكوت.

وخلاصة الأمر، إنّكِ لا تحتاجين إلىٰ الدفاع عن نفسك، فإنّ الذي وهبك هذا الوليد قد تعهد بمهمّة الدفاع عنك أيضاً، وعلىٰ هذا فليهدأ روعك من كل الجهات، ولا تدعي للهمّ طريقاً إلىٰ نفسك.

إن هذه الحوادث المتلاحقة التي سطعت كالشرر المضيء الوهاج في الظلام الدامس، قد أضاءت كل أرجاء قلبها، وألقت عليها الهدوء والإطمئنان.

المسيح يتكلم في المهد

وأخيراً رجعت مريم عليها السلام من الصحراء إلىٰ المدينة وقد احتضنت طفلها ﴿فأتت به قومها تحمله﴾ فلمّا رأوا طفلاً حديث الولادة بين يديها فغروا أفواههم تعجباً، فقد كانوا يعرفون ماضي مريم الطاهر، وكانوا قد سمعوا بتقواها وكرامتها، فقلقوا لذلك بشدّة، حيث وقع شك بعضهم وتعجّل آخرون في القضاء والحكم وأطلق العنان للسانه في توبيخها وملامتها، وقالوا: إن من المؤسف هذا الإنحدار مع ذلك الماضي المضيء، ومع الأسف علىٰ تلوّث سمعه تلك الأسرة الطاهرة ﴿قالوا يا مريم لقد جئت شيئاً فرياً﴾.

والبعض الآخر واجهها، بالقول: ﴿يا أخت هارون ما كان أبوك امرء سوء وما كانت أُمك بغياً﴾[٢] فمع وجود مثل هذا الأب والأُم الطاهرين، ما هذا الوضع الذي نراك عليه؟ فأي سوء رأيت في سلوك الأب وخلق الأُم حتى تحيدي عن هذا الطريق؟[٣]

في هذه الساعة، سكتت مريم بأمر الله، والعمل الوحيد الذي قامت به، هو أنّها أشارت إلىٰ وليدها ﴿فأشارت إليه﴾. إلّا أنّ هذا العمل جعل هؤلاء يتعجبون أكثر، وربما حمل بعضها علىٰ

---

١ ـ مريم، ٢٦ ـ ٢٣.

٢ ـ مريم، ٢٨ ـ ٢٧.

٣ ـ قولهم لمريم: ﴿يا أخت هارون﴾ وقع مثار الإختلاف بين المفسّرين، لكن يبدو أنّ الأصح هو أنّ هارون رجل طاهر صالح إلىٰ الدرجة التي يضرب به المثل بين بني إسرائيل، فإذا أرادوا أن يصفوا شخصاً بالطهارة والنزاهة، كانوا يقولون: إنّه أخو أو أخت هارون، وقد نقل العلّامة الطبرسي في مجمع البيان هذا المعنىٰ في حديث قصير عن النّبي صلى الله عليه وآله.

السخرية، ثمّ غضبوا فقالوا: مع قيامك بهذا العمل تسخرين من قومك أيضاً؟ **﴿قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبياً﴾**.

علىٰ كل حال، فإنّ الناس قلقوا واضطربوا من سماع كلام مريم هذا، بل وربما غضبوا وقالوا لبعضهم البعض ـ حسب بعض الرّوايات ـ: إنّ استهزاءها وسخريتها أشدّ علينا من انحرافها عن جادة العفة!

إلّا أنّ هذه الحالة لم تدم طويلاً، لأن ذلك الطفل الذي ولد حديثاً قد فتح فاه وتكلم: **﴿قال إنّي عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيّاً وجعلني مباركاً أينما كنت﴾**، ومفيداً من كل الجهات للعباد **﴿وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً﴾**.

وكذلك جعلني مطيعاً ووفياً لأُمي **﴿وبرّاً بوالدتي ولم يجعلني جباراً شقياً﴾**.

وفي النهاية يقول هذا المولود ـ أي المسيح ـ **﴿والسلام عليّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً﴾**.

إنّ هذه الأيّام الثلاثة في حياة الإنسان أيّام مصيرية خطرة، لا تتيسر السلامة فيها إلّا بلطف الله، ولذلك جاءت هذه الآية في حق يحيى عليه السلام كما وردت في شأن المسيح عليه السلام، مع الإختلاف بأنّ الله هو الذي قالها في المورد الأوّل، أمّا في المورد الثّاني فإنّ المسيح قد طلب ذلك.[1]

---

١ ـ إنجاب البكر

من جملة الأسئلة التي تثيرها هذه الآيات، هو: هل يمكن من الناحية العلمية أن يولد ولد من دون أب؟ وهل أن مسألة ولادة عيسى عليه السلام دون أب تخالف تحقيقات العلماء في هذا المجال، أو لا؟

مما لا شك فيه أنّ هذه المسألة قد تمت عن طريق الإعجاز، إلّا أنّ العلم اليوم لا ينفي إمكان وقوع مثل هذا الأمر أيضاً، بل صرح بإمكان ذلك، خاصّة وأن موضوع إنجاب البكر قد لوحظ بين كثير من الحيوانات، وإذا علمنا أن مسألة انعقاد النطفة لا تختص بالإنسان، فإنّ هذا يثبت إمكان حدوث هذا الأمر بصورة عامّة.

لقد كتب الدكتور «الكسيس كارل»، الفيزيائي وعالم الحياة الفرنسي المعروف، في كتاب «**الإنسان ذلك المجهول**»، عندما نفكر في مقدار مساهمة كل من الأب والأم في تكوين أمثالهما، فيجب أن نتذكر تجارب (لوب) و (باتايون) بأنّه يمكن إنتاج ضفدعة جديدة من بيضة ضفدعة غير ملقحة بدون تدخل الحيامن، بل بواسطة أساليب خاصّة.

وعلىٰ هذا فإنّ من الممكن أن يحل عامل كيمياوي أو فيزياوي محل حيمن الذكر، ولكن لابدّ علىٰ

بداية مهمّة عيسىٰ المسيح

إنّ الذين يختارهم الله لقيادة الناس وهدايتهم، لا بدّ أن يكونوا في أعلىٰ درجة من العلم والمعرفة وأن يقدّموا أسمىٰ التعاليم والقوانين البنّاءة، ثمّ بعد ذلك عليهم أن يظهروا أدلّة واضحة على علاقتهم بالله، لتوكيد مهمّتهم. وبهذين الوسيلتين تكتمل عملية هداية الناس، وفي الآيات أعلاه تمت الإشارة إلى هذين الأمرين. ففي الأُولىٰ كان الكلام عن علم المسيح وكتبه السماوية. وفي الآية الثانية إشارة إلى معجزاته العديدة. ثمّ تبيّن الهدف من كلّ ذلك وهو هداية بني إسرائيل المنحرفين ﴿**ورسولاً إلى بني إسرائيل**﴾.

معجزات عيسى

ولمّا كانت دعوة الأنبياء في الحقيقة دعوة إلى حياة حقيقية، فإنّ القرآن ـ عند بيان معجزات السيّد المسيح عليه السلام ـ يبدأ بذكر بثّ الحياة في الأموات بإذن الله، ويقول على لسان المسيح عليه السلام، ﴿**أنّي أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله**﴾.

كل حال من وجود أحد العوامل كمادة ضرورية دائماً.

بناء علىٰ هذا، فإنّ المؤكّد من الناحية العلمية لتكوّن الجنين هو وجود نطفة الأُم (البيضة)، وإلّا فإنّ نطفة الذكر (الحيمن) يمكن أن يقوم مقامها عامل آخر، ولهذا فإن مسألة حمل وولادة البكر من المسائل الواقعية التي يتقبلها ويعترف بها الأطباء في عالمنا المعاصر، وإن كانت نادرة الحدوث.

وإذا تجاوزنا ذلك، فإنّ هذه المسألة في مقابل قوانين الخلقة وقدرة الله، هي كما يصورها القرآن حيث يقول: ﴿إنّ مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثمّ قال له كن فيكون﴾ (آل عمران، ٥٩)، أي إنّ خرق العادة هذا ليس بأهم من خرق العادة الأوّل ذاك.

كيف يتكلم الصبي؟

لا يخفى أنّ أي طفل حديث الولادة لا يتكلم في الساعات أو الأيّام الأُولىٰ لولادته حسب الوضع الطبيعي المتعارف، فإنّ النطق يحتاج إلىٰ نمو المخ بالقدر الكافي، ثمّ تقوية عضلات اللسان والحنجرة، وانسجام أجهزة الجسم المختلفة مع بعضها، وهذه الأُمور عادة تستغرق عدّة أشهر حتىٰ تتهيأ تدريجياً عند الطفل.

إلّا أنّنا في المقابل لا نمتلك أي دليل علمي على استحالة هذا الأمر، غاية ما في الأمر أنّه خارق للعادة، وكل المعجزات تتصف بهذه الصفة، أي أنّها كلها خارقة للعادة، لا أنّها مستحيلة الوقوع.

إنّ قضية إحياء الموتى التدريجي بإذن الله ليست عويصة، لأنّنا نعلم أنّ جميع الكائنات الحيّة مخلوقة من التراب والماء، إلّا أنّ المعجزة في أن هذا الخلق الذي تحقّق على إمتداد سنوات طويلة. فما الذي يمنع من أن يكثّف الله تلك العوامل والأسباب بحيث تتمّ مراحل الخلق بسرعة فائقة، ويتحوّل الطين إلى كائن حي؟

بديهيّ أنّ تحقّق هذا الأمر في ذلك المحيط، وفي أي محيط آخر، سند حيّ ودليل واضح على علاقة صاحب المعجزة بعالم ما وراء الطبيعة، وعلى قدرة الله اللامتناهية.

ثمّ يشير إلى معالجة الأمراض الصعبة العلاج أو التي لا علاج لها، ويقول على لسانه: **﴿وأُبريء الأكمه والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله﴾**. لاشكّ أنّ القيام بكلّ هذه الأعمال وخاصّة لدىٰ علماء الطبّ في ذلك الزمان كان من المعجزات التي لا يمكن إنكارها.

بعد ذلك يشير إلى إخباره عن أسرار الناس الخافية، فلكلّ امرىء في حياته بعض الأسرار التي لا يعرف الآخرون شيئاً عنها. فإذا جاء من يخبرهم بما أكلوه، أو ما ادّخروه، فهذا يعني أنّه يستقي معلوماته من مصدر غيبي: **﴿وأُنبّئكم بما تأكلون وما تدّخرون في بيوتكم﴾**[1][2].

---

١ ـ آل عمران، ٥١ ـ ٤٩.

٢ ـ أكانت معجزات المسيح عجيبة؟

يصرّ بعض المفسّرين ـ مثل صاحب المنار ـ على تأويل المعجزات التي ذكرها القرآن للمسيح بشكل من الأشكال. من ذلك قولهم إنّ المسيح اكتفى بمجرّد الادّعاء بأنّه يفعل كذا وكذا بإذن الله، ولكنّه لم يفعل منها شيئاً أبداً! فإذا كان هذا الرأي قابلاً للنقاش هنا، فإنّ ما جاء في الآية ١١٠ من سورة المائدة لا مجال فيه لأيّ نقاش: **﴿وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير...﴾** لأنّ الآية تقول صراحةً إنّ واحدة من نِعم الله عليك أنّك كنت تصنع من الطين طيراً حيّاً بإذن الله.

إنّ الإصرار على أمثال هذه التأويلات لا موجب له أبداً. لأنّه إذا كان الهدف إنكار أعمال الأنبياء الخارقة للعادة، فإنّ القرآن يصرّح بها في كثير من المواضع، فإذا استطعنا ـ فرضاً ـ أن نؤوّل المعجزات فكيف بسائر المعجزات التي لا يمكن تأويلها؟

ثمّ إنّنا إذا كنا نقول إنّ الله هو الذي يحكم قوانين الطبيعة، وليست هي التي تحكمه، فما الذي يمنع هذه القوانين الطبيعية أن تتغيّر بأمر منه في ظروف استثنائية فتظهر حوادث بطرق غير طبيعية.

أمّا إذا تصوّر هؤلاء أن ذلك يتعارض مع وحدة أفعال الله وخالقيّته وكونه لا شريك له، فإنّ القرآن قد أجاب على هذا. فوقوع هذه الحوادث أينما وقعت مشروط بأمر الله، أي إنّ أحداً بقواه الخاصّة غير قادر على القيام بأمثال هذه الأعمال إلّاإذاشاء،وبإمداد من قدرته اللامتناهية وهذاهوالتوحيد عينه،

إني عبد الله

القرآن الكريم يؤكد على لسان السيد المسيح عليه السلام عبودية المسيح لرفع كلّ إيهام وريب قد ينشأ من كيفية ولادته التي قد يتشبث بها البعض لإثبات الوهيته وتقول: ﴿ان الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم﴾ يتّضح من هذه الآية ومن آيات أُخرىٰ أنّ السيّد المسيح، لكي يزيل كلّ إيهام وخطأ فيما يتعلّق بولادته الخارقة للعادة، ولكي لا يتّخذونها ذريعة لتأليهه، كثيراً ما يكرّر القول ﴿إنّ الله ربّي وربّكم﴾ و﴿إنّي عبدالله آتاني الكتاب وجعلني نبيّاً﴾[1]، بخلاف ما نراه في الأناجيل المحرّفة الموجودة التي تنقل عن المسيح أنّه كان يستعمل «الأب» في كلامه عن الله. إنّ القرآن يذكر «الرب» بدلاً من ذلك: ﴿إنّ الله ربّي وربّكم﴾. وهذا أكثر ما يمكن أن يقوم به المسيح في محاربة من يدّعي بالوهيّته.

حوار النصارىٰ مع النّبي صلى الله عليه وآله

إنّ مسيحيّي نجران جاؤوا في وفد مؤلّف من ٦٠ شخصاً وفيهم عدد من زعمائهم بقصد التحاور مع رسول الله صلى الله عليه وآله.

من بين المواضيع التي طرحت في ذلك الإجتماع مسألة اُلوهيّة المسيح التي رفضها رسول الله واستدلّ بأنّ المسيح وُلِد وعاش كبقية الناس ولا يمكن أن يكون إلهاً، لكنّهم استدلّوا على الوهيّته بولادته من غير أب.

القرآن الكريم يورد استدلالاً قصيراً وواضحاً في الردّ على مسيحيّي نجران بشأن الوهية المسيح: إنّ ولادة المسيح من غير أب لا يمكن أن تكون دليلاً على أنّه ابن الله أو أنّه الله بعينه، لأنّ هذه الولادة قد جرت لآدم بصورة أعجب فهو قد ولد من غير أب ولا أُم. وعليه، فكما أنّ خلق آدم من تراب لا يستدعي التعجّب، لأنّ الله قادر على كلّ شيء، ولأن «فعله» و «إرادته» متناسقان فإذا أراد شيئاً يقول له: كن فيكون، كذلك ولادة عيسىٰ من أُمّ وبغير أب، ليست مستحيلة.

لا الشرك.

١ ـ مريم: ٣٠.

أُسطورة التثليث الوهمية

القرآن الكريم يشير إلىٰ هذا الإنحراف وهو اعتقاد المسيحيين بالتثليث، أي وجود آلهة ثلاثة ويأتي التطرق إلى هذا البحث في سياق البحوث القرآنية.

فالقرآن يحذر في البداية أهل الكتاب من المغالاة والتطرف في دينهم، وتدعوهم أن لا يقولوا على الله غير الحق.

بعد ذلك يشير إلى عدّة نقاط، يعتبر كل واحد منها في حدّ ذاته دليلاً على بطلان قضية التثليث، وعدم صحة اُلوهية المسيح عليه السلام، وهذه النقاط هي:

١ ـ لقد حصرت الآية بنوة السيد المسيح عليه السلام بمريم عليها السلام ﴿إنّما المسيح عيسى بن مريم﴾، وإشارة البنوة ـ هذه الواردة في ستة عشر مكاناً من القرآن الكريم ـ إنّما تؤكّد أنّ المسيح عليه السلام هو إنسان كسائر الناس، خلق في بطن اُمّه، ومرّ بدور الجنين في ذلك الرحم، وفتح عينيه على الدنيا حين ولد من بطن مريم عليها السلام كما يولد أفراد البشر من بطون اُمهاتهم ومرّ بفترة الرضاعة وتربىٰ في حجر اُمّه، ممّا يثبت بأنّه امتلك كل صفات البشر فكيف يمكن ـ وحالة المسيح عليه السلام هذه ـ أن يكون إلهاً أزلياً أبدياً، وهو في وجوده محكوم بالظواهر والقوانين المادية الطبيعية ويتأثر بالتحولات الجارية في عالم الوجود؟!

٢ ـ تؤكّد الآية الكريمة أنّ المسيح عليه السلام هو رسول الله ومبعوث إلى البشر من قبله سبحانه وتعالى، وإن هذه المنزلة ـ أي منزلة النّبوة ـ لا تتناسب ومقام الألوهية.

والجدير بالذكر هو أنّ معظم كلام المسيح عليه السلام الوارد قسم منه في الأناجيل المتداولة في الوقت الحاضر، إنّما يؤكّد نبوته وبعثته لهداية الناس، وليس فيه دلالة على ادعائه الألوهية والربوبية.

٣ ـ تبيّن الآية أن عيسى المسيح عليه السلام هو كلمة الله التي ألقاها إلى مريم عليها السلام حيث تقول: ﴿وكلمته ألقاها إلى مريم﴾. وقد وردت عبارة: «كلمة» في وصف المسيح في عدد من الآيات القرآنية، وهذه إشارة إلى كون المسيح مخلوقاً بشرياً، إذ أن الكلمات مخلوقة من قبل الله، كما أنّ الموجودات في الكون من مخلوقاته عزَّ وجلّ، فكما أن الكلمات تبيّن مكنونات أنفسنا ـ نحن البشر ـ وتدل على صفاتنا وأخلاقياتنا، فإنّ مخلوقات الكون تحكي صفات خالقها وجماله وتدل على جلاله وعظمته.

وعلى هذا الأساس فقد وردت عبارة «كلمة» في عدد من العبارات القرآنية، لتشمل جميع مخلوقات الله،[١] وبديهي أنّ الكلمات الإلهية تتفاوت بعضها مع البعض في المنزلة والأهمية وعيسى عليه السلام يعتبر إحدى كلمات الله البارزة الأهمية، لكونه ولد من غير أب، إضافة إلى كونه يتمتع بمقام الرسالة الإلهية.

٤ ـ تشير الآية إلى أنّ عيسى المسيح عليه السلام هو روح مخلوقة من قبل الله، حيث تقول ﴿وروح منه﴾ وهذه العبارة التي وردت في شأن خلق آدم ـ أو بعبارة أُخرىٰ خلق البشر أجمعين ـ في القرآن الكريم، إنما تدل على عظمة تلك الروح التي خلقها الله تعالى وأودعها في أفراد البشر بصورة عامّة، وفي المسيح عليه السلام وسائر الأنبياء بصورة خاصّة.

إنّ ما يثير العجب هو أنّ المسيحيين يرون ولادة المسيح من أُمّ دون أب دليلاً على الوهيته، وهم ينسون في هذا المجال أن آدم عليه السلام كان قد ولد من غير أب، ولا أُم، ولم ير أحد هذه الخصيصة الموجودة في آدم دليلاً على ربوبيته.

بعد ذلك تؤكّد الآية على ضرورة الإيمان بالله الواحد الأحد وبأنبيائه، ونبذ عقيدة التثليث، مبشرة المؤمنين بأنّهم إن نبذوا هذه العقيدة فسيكون ذلك خيراً لهم: ﴿فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيراً لكم...﴾[٢].

اليهود بانتظار المسيح

كان اليهود ينتظرون مجيء المسيح بموجب ما بشّرهم به موسى، قبل أن يولد. ولكنّه عندما ظهر، وتعرّضت مصالح جمع من الظالمين والمنحرفين من بني إسرائيل للخطر، لم يبق معه إلّا نفر قليل، بينما تركه الذين احتملوا أن يؤدّي قبولهم دعوة المسيح والتقيّد بالقوانين الإلهية إلى ضياع مصالحهم.

بعد أن أعلن عيسىٰ دعوته وأثبتها بالأدلّة الكافية، أدرك أنّ جمعاً من بني إسرائيل يصرّون على المعارضة والعصيان ولا يتركون المعاندة والإنحراف ﴿فلمّا أحسّ عيسىٰ منهم الكفر﴾، فنادىٰ في أصحابه و ﴿قال مَن أنصاري إلى الله﴾ فاستجاب لندائه نفر قليل. كانوا أطهاراً

---

١ ـ كما في الآية (١٠٩) من سورة الكهف والآية (٢٩) من سورة لقمان،.

٢ ـ النساء، ١٧١.

سمّاهم القرآن بـ «الحواريّين». لبّوا نداء المسيح ولم يبخلوا بشيء في سبيل نشر أهدافه المقدّسة.

أعلن الحواريُون استعدادهم لتقديم كلّ عون للمسيح، وقالوا: **﴿نحن أنصار الله آمنّا بالله واشهد بأنّا مسلمون﴾**[1].

لاحظ أنّ الحواريين لم يقولوا: نحن أنصارك. بل لكي يعربوا عن منتهىٰ إيمانهم بالتوحيد وليؤكّدوا إخلاصهم، ولكن لا يشمّ من كلامهم أيّ رائحة للشرك، قالوا: نحن أنصار الله، ننصر دينه، ونريدك شاهداً على هذه الحقيقة، لعلّهم قد شمّوا منذ ذلك اليوم رائحة الإنحراف في المستقبل وأنّ هناك من يستدعي الوهيّة عيسىٰ من بعده، فسعوا ألّا يكون في كلامهم ما يمكن أن يتذرّعوا به.

من هم الحواريون؟

«حواريّون» جمع حواري من مادة «حَوَر» بمعنى الغسل والتبييض، وقد تطلق على الشيء الأبيض. لذلك يطلق العرب على الطعام الأبيض «الحواري». و«حور» جمع حوراء وهي البيضاء البشرة.

أمّا سبب تسمية تلامذة المسيح بالحواريّين فقد ذكرت له احتمالات كثيرة، ولكن الأقرب إلى الذهن، وهو الوارد في أحاديث أئمّة الدين، هو لأنّهم فضلاً عن طهارة قلوبهم وصفاء أرواحهم، كانوا دائبي السعي في تطهير الناس وتنوير أفكارهم وغسلهم من أدران الذنوب.

وهذا ما أكّده حديث عن الإمام الرضا عليه السلام في «عيون أخبار الرضا»..؟!

الحواريّون في القرآن والإنجيل

تكلّم القرآن على الحواريّين،[2] مشيراً إلى إيمانهم. ولكن يتبيّن ممّا نقرأه في الإنجيل بشأن الحواريّين أنّهم جميعاً ارتكبوا بعض الزلل بالنسبة للمسيح.

---

١ ـ آل عمران، ٥٢.

٢ ـ في سورة الصف، الآية ١٤.

أمّا أسماؤهم كما جاءت في إنجيل متّى ولوقا، الباب السادس، فهي:

١ ـ بطرس، ٢ ـ اندرياس، ٣ ـ يعقوب، ٤ ـ يوحنّا، ٥ ـ فيلوبس، ٦ ـ برتولولما، ٧ ـ توما، ٨ ـ متّى، ٩ ـ يعقوب بن حلفا، ١٠ ـ شمعون «الغيور»، ١١ ـ يهوذا أخو يعقوب، ١٢ ـ يهوذا الاسخريوطي الذي خان المسيح.

إنّ الحواريّين كانوا يرافقون المسيح في رحلاته. كلّما عطشوا أو جاعوا رأوا الماء والطعام مهيّأً أمامهم بأمر الله، فكانوا يرون في ذلك فخراً لهم أيّ فخر، وسألوا المسيح: أهناك من هو أفضل منّا؟ فقال: نعم، أفضل منكم من يعمل بيده ويأكل من كسبه.

وعلى أثر ذلك اشتغلوا بغسل الملابس للناس لقاء أجر، وانشغلوا بذلك؛ فكان ذلك درساً عملياً للناس بأنّ العمل ليس عيباً أو عاراً.

وبعدأن قبل الحواريّون دعوة المسيح إلى التعاون معه وأتّخاذه شاهداً عليهم في إيمانهم، أتّجهوا إلى الله يعرضون عليه إيمانهم قائلين: ﴿**ربّنا آمنّا بما أنزلت**﴾.

ولكن لمّا كانت دعوى الإيمان لا تكفي وحدها، فقد اتّبعوا ذلك بقيامهم بتنفيذ أوامر الله واتّباع رسوله المسيح، وقالوا مؤكّدين: ﴿**واتّبعنا الرسول**﴾.

عندما يتغلغل الإيمان في روح الإنسان لابدّ أن ينعكس ذلك على عمله، فبدون العمل يكون ادّعاؤه الإيمان تقوّلاً، لا إيماناً حقيقياً.

بعد ذلك طلبوا من الله قائلين ﴿**فاكتبنا مع الشاهدين**﴾. والشاهدون هم أُولئك الذين لهم صفة قيادة الأُمم، ويوم القيامة يشهدون على أعمال الناس الحسنة والسيّئة.

قصّة نزول المائدة على الحواريين

يذكر القرآن الكريم نزول المائدة من السماء: ﴿**إذ قال الحواريون يا عيسى ابن مريم هل يستطيع ربّك أن ينزل علينا مائدة من السماء**﴾.

شعر المسيح عليه السلام بالقلق من طلب الحواريين هذا الذي يدل على الشك والتردد، على الرغم من كل تلك الأدلة والآيات، فخاطبهم و﴿**قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين**﴾.

ولكنّهم سرعان ما أكّدوا للمسيح عليه السلام أن هدفهم بريء، وأنّهم لا يقصدون العناد واللجاج، بل يريدون الأكل منها (مضافاً إلى الحالة النّورانية في قلوبهم المترتبة على تناول الغذاء السماوي لأنّ للغذاء ونوعيته اثر مسلّم في روح الانسان) ﴿**قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئن**

قلوبنا، ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين﴾.

فبيّنوا قصدهم أنّهم طلبوا المائدة للطعام، ولتطمئن قلوبهم به لما سيكون لهذا الطعام الإلهي من أثر في الروح ومن زيادة في الثقة واليقين.

ولمّا أدرك عيسى عليه السلام حسن نيّتهم في طلبهم ذاك، عرض الأمر على الله: **﴿قال عيسى ابن مريم اللّهم ربّنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين﴾**.

من الواضح هنا أنّ الأُسلوب الذي عرض به عيسى بن مريم الأمر على الله كان أليق وأنسب، ويحكي عن روح البحث عن الحقيقة ورعاية الشؤون العامّة للمجتمع.

فاستجاب الله لهذا الطلب الصادر عن حسن نية وإخلاص، **﴿قال الله إني منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فإنّي أعذبه عذاباً لا أُعذبه أحداً من العالمين﴾** [١].

ما هي تلك المائدة السماوية؟

لم يذكر القرآن شيئاً عن محتوياتها، ولكن يستفاد من بعض الأحاديث، وخاصة الحديث المروي عن الإمام الباقر عليه السلام، أن تلك المائدة كانت تحوي أرغفة من الخبز ومقداراً من السمك، ولعل سبب طلب هذه المعجزة كان ما سمعوه عن المائدة السماوية التي نزلت على بني إسرائيل باعجاز من موسى عليه السلام فطلبوا هم أيضاً من عيسى عليه السلام مثل ذلك.

«العهد الجديد» والمائدة

في الأناجيل الأربعة الموجودة حالياً لا نجد كلاماً عن المائدة كما في القرآن، عدا ما جاء في إنجيل يوحنا، في الباب (٢١)، حول استضافة المسيح الإعجازية جمعاً من الناس بالخبز والسمك، ولكننا بقليل من التفحص ندرك أنّ ذلك لا علاقة له بالمائدة التي نزلت من السماء للحواريين.

ثمّة كلام في كتاب «أعمال الرسل» وهو من كتب العهد الجديد، يدور حول نزول مائدة على أحد الحواريين واسمه بطرس، ولكن هذا أيضاً ليس هو الموضوع الذي نحن بصدده،

---

١ ـ المائدة، ١١٥ ـ ١١٢.

غير أنّنا نعلم أن كثيراً من الحقائق التي نزلت علىٰ عيسىٰ عليه السلام لا أثر لها في الأناجيل السائدة، كما أن كثيراً ممّا نراه في هذه الأناجيل لم ينزل على المسيح عليه السلام.

الإنجيل او الأناجيل؟

«**الإنجيل**» كلمة يونانية بمعنى «البشارة» أو «التعليم الجديد» وتطلق على الكتاب الذي نزل على عيسى بن مريم عليه السلام. ومن الجدير بالتنويه أنّ القرآن كلّما أورد اسم كتاب عيسىٰ عليه السلام «الإنجيل» جاء به مفرداً وعلى أنّه قد نزل من الله. وعليه فإنّ الأناجيل المتداولة بين أيدي المسيحيّين،وحتّى الأشهر منها، وهي الأناجيل الأربعة «لوقا، ومُرقُس، ومتّىٰ، ويوحنا» ليست من الوحي الإلهي، وهذا ما لا ينكره المسيحيّون أنفسهم، إذ يقولون إنّ هذه الأناجيل قد كتبت بأيدي تلامذة السيّد المسيح عليه السلام بعده بمدّة طويلة. ولكنّهم يزعمون أن أُولئك التلامذة قد كتبوها بإلهام من الله.

هنا يحسن بنا أن نتعرّف ـ ولو بإيجاز ـ على «العهد الجديد» والأناجيل وكتّابها:

إنّ أهم كتاب ديني عند المسيحيّين والذي يعتمدونه على أنّه كتاب سماوي هو المجموعة التي يطلق عليها اسم «العهد الجديد».

«**العهد الجديد**» الذي يبلغ نحو ثلث «العهد القديم» يتألّف من ٢٧ كتاباً ورسالة تشمل موضوعات عامّة متناثرة ومختلفة، على النحو التالي:

١ ـ إنجيل متّىٰ[١]: وهو الإنجيل الذي كتبه «متّى» أحد حواريّي المسيح عليه السلام الاثني عشر في سنة ٣٨ ميلادية، وبعض يقول في سنة ٥٠ أو ٦٠ ميلادية.

٢ ـ إنجيل مُرقُس[٢]: بحسب ما جاء في كتاب «القاموس المقدّس» صفحة ٧٩٢، لم يكن مُرقُس من الحواريّين، ولكنّه كتب إنجيله بإشراف «بطرس». قتل مُرقُس سنة ٦٨م.

٣ ـ إنجيل لوقا: كان «لوقا» رفيق سفر «بولس» الرسول. كان «بولس» على عهد المسيح يهودياً متعصّباً، ولكنه اعتنق المسيحية بعده. يقال إنّه توفي في سنة ٧٠ م، وحسبما يقول مؤلّف «القاموس المقدّس» ص ٧٧٢: «إنّ تاريخ كتابة إنجيل لوقا يعود إلى حوالي سنة ٦٣م».

---

١ ـ متّىٰ: على وزن حتّىٰ، بمعنى عطاء الله.

٢ ـ مُرقُس: على وزن قُنفُذ، وقيل على وزن أسهُم، جمع سهم.

٤ ـ إنجيل يوحنا: «يوحنا» كان من تلامذة المسيح عليه السلام ومن أصحاب «بولس». يقول صاحب القاموس المذكور، اعتماداً على عدد من المحقّقين: إنّه أُلف في أواخر القرن الأول الميلادي.

يتّضح من محتويات هذه الأناجيل، التي تشرح عموماً حكاية صلب المسيح وما جرىٰ بعد ذلك، أنّ جميع هذه الأناجيل قد كتبت بعد المسيح بسنوات وليست كتباً سماوية نزلت على المسيح عليه السلام.

٥ ـ أعمال الرسل: «أعمال الحواريّين ودعاة الصدر الأوّل».

٦ ـ رسائل بولس الأربعة عشرة إلى جهات مختلفة.

٧ ـ رسالة يعقوب: «الرسالة العشرون من الرسائل السبع والعشرين في العهد الجديد».

٨ ـ رسالتا بطرس: «الرسالتنا ٢١ و ٢٢ من العهد الجديد».

٩ ـ رسائل يوحنا: «الرسائل ٢٣ و ٢٤ و ٢٥ من العهد الجديد».

١٠ ـ رسالة يهودا: «الرسالة ٢٦ من العهد الجديد».

١١ ـ مكاشفة يوحنا: «القسم الأخير من العهد الجديد».

إستناداً إلى المؤرّخين المسيحيّين وحسبما ورد في هذه الأناجيل والكتب والرسائل في العهد الجديد، فإنّ أيّاً منها ليس كتاباً سماوياً، بل هي كتب كتبت بعد المسيح عليه السلام، ونستنتج من ذلك أنّ الإنجيل الأصلي السماوي الذي نزل على المسيح عليه السلام قد فُقِد وليس له وجود الآن. إنّما تلامذة المسيح أدرجوا بعضاً منه في أناجيلهم ومزجوه ـ مع الأسف ـ بالخرافات.

مؤامرة قتل المسيح

إنّ اليهود ـ بالتعاون مع بعض المسيحيّين الخونة ـ قرّروا قتل السيّد المسيح، فأحبط الله مكرهم، ونجىٰ نبيّه منهم. يذكر الله نعمته على المسيح قبل وقوع الحادثة، قائلاً: ﴿إنّي متوفّيك ورافعك إليّ﴾[1].

من المعروف عند المفسّرين، بالإستناد إلى الآية ١٥٧ من سورة النساء، أنّ السيّد المسيح لم يُقتَل، وأنّ الله رفعه إلى السماء. غير أنّ المسيحيّين يقولون إنّه قُتِل ودُفِن، ثمّ قام من بين

---

١ ـ آل عمران، ٥٥.

الأموات وبقي لفترة قصيرة على الأرض ثمّ صعد إلى السماء[١].[٢]

أُسطورة الصّليب؟

يؤكّد القرآن الكريم على أنّ المسيح عليه السلام لم يقتل ولم يصلب، بل اشبته الأمر على اليهود فظنوا أنّهم صلبوه، وهم لم يقتلوه أبداً!

﴿و ما قتلوه و ما صلبوه ولكن شبّه لهم وإنّ الذين اختلفوا فيه لفي شكٍّ منه مالهم به من علم إلّا اتباع الظنّ و ماقتلوه يقيناً﴾[٣].

أمّا الأناجيل الأربعة الموجودة اليوم في متناول أيدينا فهي كلها تقول بأنّ المسيح عليه السلام قد صلب وقتل على هذه الصورة، وقد جاء هذا القول في الفصول الأخيرة من هذه الأناجيل الأربعة «متىٰ ـ لوقا ـ مرقس ـ يوحنا» وبصورة تفصيلية.

والمسيحيون اليوم يعتقدون بهذا الأمر بصورة عامّة، ومسألة الصلب أو قتل المسيح عليه السلام تعتبر اليوم أحد أهم المسائل الأساسية للديانة المسيحية، ونحن نعلم أنّ المسيحيين اليوم لا يعتبرون المسيح عليه السلام مجرّد نبي ارسل لهداية وإرشاد البشرية، بل يعتقدون بأنّه «ابن الله» من

---

١ ـ إنجيل مرقس الباب ٦ ـ إنجيل متىٰ الباب ٢٨ ـ إنجيل لوقا الباب ٢٤ ـ إنجيل يوحنا الباب ٣١.

٢ ـ ولكن الذي لابدّ من قوله الآن هو أنّ هذه الآية ليس فيها دليل على موت عيسىٰ، على الرغم من أنّ بعضهم تصوّر أنّ كلمة «متوفّيك» من «الوفاة». وعلى ذلك فإنّهم يرون أنّ هذا الموضوع يتعارض مع الرأي السائد بين المسلمين، والذي تؤيّده الأحاديث، من أنّ عيسىٰ لم يمت وأنّه حي. ولكن الأمر ليس كذلك.

توضيح ذلك انّ «الفوت» هو بُعد الشيء عن الإنسان بحيث يتعذّر إدراكه. و «الوافي» الذي بلغ التمام، ووفىٰ بعهده إذا أتمّه ولم ينقضه. وإذا استوفى أحد دَينه من المدين قيل «توفّىٰ دَينه».

وفي القرآن وردت «توفّىٰ» كراراً: ﴿وهو الذي يتوفّاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار﴾ الأنعام: ٦٠. فهنا عبّر عن النوم بكلمة «يتوفّاكم».

هذا المعنى نفسه يرد في الآية ٤٢ من سورة الزمر، كما ترد كلمة «توفّىٰ» في آيات أُخرىٰ بمعنى الأخذ.

صحيح أنّ «توفّىٰ» قد تأتي أحياناً بمعنى الموت، ولكنّها حتّى في تلك المواضع لا تعني الموت حقّاً، بل بمعنى قبض الروح. والواقع أنّ مادّة «فوت» ومادّة «وفي» منفصلتان تماماً.

٣ ـ النساء، ١٥٧.

أركان الثالوث المقدس لديهم، ويزعمون بأنّ هدف مجيء المسيح إلى هذا العالم ليكون قرباناً يفتدي بنفسه مقابل الخطايا والآثام التي يرتكبها البشر.

فيقولون: إنّه جاء ليضحي بنفسه من أجل ذنوبهم وخطاياهم، وقد صلب وقتل ليغسل بدمه ذنوب البشر، ولينقذ البشرية من العقاب، ولذلك فهم يعتقدون بأنّ طريق الخلاص والنجاة من العذاب والعقاب هو الإيمان بهذا الموضوع.

ومن هذا المنطلق فهم ـ أحياناً ـ يدعون المسيحية بدين «الإنقاذ» أو دين «الفداء» ويسمّون المسيح عليه السلام بـ«المنقذ» أو «المخلص» أو «الفادي».

واعتمادهم المفرط على الصليب واتخاذه شعاراً لأنفسهم إنّما يرتكز على قضية القتل والصلب هذه.

كانت تلك نبذة عن عقيدة المسيحيين حول مصير المسيح عليه السلام.

أمّا المسلمون فلا يشك أحدهم ببطلان وزيف هذه العقيدة، والسبب هو أنّ المسيح عيسى بن مريم عليه السلام، كان نبيّاً كسائر انبياء الله أوّلاً، ولم يكن هو الله ولا ابن الله، لأن الله واحد أحد فرد صمد لا شبيه ولا مثيل ولا زوج له ولا ولد.

وثانياً: إنّ مسألة الفداء والتضحية من أجل خطايا الآخرين، تعتبر مسألة بعيدة عن المنطق كل البعد، فكل إنسان يؤاخذ بجريرته وعمله، وإنّ طريق النجاة والخلاص يكون في الإيمان والعمل الصالح فقط.

وثالثاً: إنّ عقيدة الفداء من أجل الخطايا تعتبر خير مشجع على الفساد وممارسة الذنوب، وتؤدي بالبشرية إلى التلوث والهلاك.

وحين تلاحظ أن القرآن يؤكّد على قضية عدم صلب المسيح عليه السلام مع أنّ هذه القضية تظهر للعيان وكأنّها مسألة اعتيادية بسيطة، من أجل دحض عقيدة الفداء الخرافية بشدّة، لمنع المسيحيين من الإيغال في هذا الإعتقاد الفاسد، ولكي يؤمنوا بأنّ طريق الخلاص والنجاة إنّما هو في أعمالهم هم أنفسهم وليس في ظل الصليب.

رابعاً: هناك قرائن موجودة تثبت وهن وضعف قضية الإعتقاد بصلب المسيح عليه السلام هي:

١ ـ المعروف أنّ الأناجيل الأربعة المتداولة في الوقت الحاضر، والتي تشهد بصلب المسيح عليه السلام ـ كانت قد دوّنت بعده بسنين طويلة، وقد دوّنها حواريوه أو التالون من أنصاره عليه السلام ـ وهذه حقيقة يعترف بها حتى المؤرّخون المسيحيون.

كما نعرف أيضاً أنّ حواري المسيح عليه السلام قد هربوا حين هجم الأعداء عليه، والأناجيل نفسها تشهد بهذا الأمر[١] وعلى هذا الأساس فإنّ هؤلاء الحواريين قد تلقفوا مسألة صلب عيسى المسيح عليه السلام من أفواه الناس الآخرين، ولم يكونوا حاضرين اثناء تنفيذ عملية الصلب، وقد أدت التطورات التي حصلت آنذاك إلى تهيئة الأجواء المساعدة للإشتباه بشخص آخر وصلبه بدل المسيح عليه السلام، وسنوضح هذا الأمر فيما يلي من حديثنا.

٢ ـ إنّ العامل الآخر الذي يجعل من الإشتباه بشخص آخر بدل المسيح عليه السلام أمراً محتملاً هو أنّ المجموعة التي كلّفت بالقبض على عيسى المسيح عليه السلام والتي ذهبت إلى بستان «جستيماني» هذه المجموعة كانت تتشكل من أفراد الجيش الرومي الذين كانوا منهمكين في أُمور عسكرية، فهم لم يكونوا يعرفون اليهود ولغتهم وتقاليدهم، كما لم يميزوا بين حواري المسيح عليه السلام وبين المسيح نفسه.

٣ ـ تذكر الأناجيل أن الهجوم على مقر عيسى المسيح عليه السلام قد تمّ ليلاً، وبديهي أنّ ظلام الليل يعتبر خير ستار للشخص المطلوب ليتخفى به ويهرب، وليقع شخص آخر في أيدي المهاجمين.

٤ ـ يستنتج من نصوص جميع الأناجيل أنّ المقبوض عليه قد إختار الصمت أمام «بيلاطيس» الحاكم الرومي لبيت المقدس ـ آنذاك ـ ولم يتفوه إلّا بالقليل دفاعاً عن نفسه ويستبعد كثيراً أن يقع عيسى المسيح عليه السلام في خطر كهذا ولا يدافع عن نفسه بما يستحقه الدفاع عن النفس، وهو المعروف بالفصاحة والبلاغة والشجاعة والشهامة.

ألا يحتمل في هذا المجال أن يكون شخص آخر ـ كـ«يهوذا الأسخربوطي» الذي خان ووشى بعيسى المسيح عليه السلام وكان يشبهه كثيراً ـ قد وقع هو بدل المسيح في الأسر وأنّه لهول الموقف قد استولى عليه الخوف والرعب، فعجز عن الدفاع عن نفسه أو التحدث أمام الجلادين بشيء.

نقرأ في الأناجيل أنّ «يهوذا الأسخربوطي» لم يظهر بعد حادثة الصّلب أبداً، وأنّه ـ كما تقول هذه الأناجيل ـ قد قتل نفسه وانتحر[٢].

---

١ ـ لقد ترك الحواريون المسيح عليه السلام في ذلك الوقت وهربوا كلهم ... (من إنجيل متى، الإصحاح ٢٦ الجملة ٥٧).

٢ ـ إنجيل متى، الإصحاح ٣٧، الجملة ٦.

٥ ـ لقد بيّنا أنّ حواري المسيح عليه السلام ـ وكما ذكرت الأناجيل ـ قد هربوا حين أحسوا بالخطر يحدق بهم، كما هرب واختفى الأنصار الآخرون، وأخذوا يراقبون الأوضاع عن بعد، بحيث أصبح الشخص المقبوض عليه وحيداً بين الجنود الرومان، ولم يكن أي من أصحابه قريباً منه، ولذلك لا يستبعد ولا يبدو غريباً أن يقع خطأ أو سهو في تشخيص هوية الشخص المقبوض عليه.

٦ ـ ونقرأ في الأناجيل ـ أيضاً ـ أنّ الشخص المصلوب قد اشتكى من ربه (وليس لربّه) لأنّه ـ بحسب قوله ـ قد جفاه وتركه بأيدي الأعداء ليقتلوه[1]!

فلو صدقنا مقولة أنّ المسيح جاء لهذه الدنيا ليصلب ولينقذ بصلبه البشرية من عواقب خطاياهم وآثامهم، فلا يليق لمن يحمل هدفاً سامياً كهذا الهدف أن يصدر منه هذا الكلام، وهذا دليل على أن الشخص المصلوب لم يكن المسيح نفسه، بل كان إنساناً ضعيفاً وجباناً، وعاجزاً، ومثل هذا الإنسان يمكن أن يصدر منه كلام كالذي سبق، لا يمكن أن يكون هذا الإنسان هو المسيح عليه السلام.

٧ ـ لقد نفت بعض الأناجيل الموجودة مثل إنجيل «برنابا» قضية صلب المسيح عليه السلام (وهذا الإنجيل هو غير الأناجيل الأربعة التي يقبلها المسيحيون) كما أنّ بعضاً من الطوائف المسيحية أبدت شكوكها حول قضية الصلب وقد ذهب بعض الباحثين إلى أبعد من هذا، فادعوا بأن التاريخ قد ذكر شخصين باسم «عيسى» أحدهما عيسى المصلوب والآخر هو عيسى غير المصلوب وبينهما فاصل زمني يقدر بخمسمائة عام.

كانت تلك مجموعة من القرائن المؤيدة لقول القرآن الكريم في قضية الشبه الحاصل في قتل أو صلب المسيح عليه السلام.

بشارة عيسىٰ المسيح بظهور نبي الاسلام صلى الله عليه وآله

يشير القرآن الكريم إلى مسألة تكذيب بني إسرائيل لرسالة عيسى عليه السلام ومخالفتهم له، حيث يضيف تعالى: ﴿وإذ قال عيسى بن مريم يابني إسرائيل إنّي رسول الله إليكم مصدّقاً لما

---

١ ـ إنجيل متى ـ الإصحاح ٢٧، الجملتان ٤٦ و٤٧.

بين يديّ من التوراة ومبشّراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد﴾[١].

وهذا بيان من عيسى عليه السلام أنّه يمثّل همزة وصل وحلقة من الرسالة بين نبيين وكتابين وأُمّتين، فقد سبقته رسالة موسى عليه السلام وكتابه، وستليه رسالة الإسلام على يد النبي العظيم محمّد صلى الله عليه وآله.

بشارة العهدين وتعبير (فارقليطا)

ممّا لا شكّ فيه أنّ (التوراة والإنجيل) اللذين بأيدي اليهود والنصارى ليسا من الكتب السماوية التي نزلت على الرّسولين الإلهيين العظيمين (موسى وعيسى) عليهما السلام. إذ أنّها (كتب) ألّفها وجمعها بعض أصحابهم أو من أتى بعدهم.

إنّ مطالعة إجمالية لها تكشف هذه الحقيقة بوضوح، كما أنّ اليهود والمسيحيين لا ينكرون ذلك، وممّا لا شكّ فيه أنّ قسماً من تعاليم (موسى وعيسى) عليهما السلام قد ثبتت في هذه الكتب من خلال أقوال أتباعهم وحوارييهم، ولذا فلا يمكن إعتبار كلّ ما ورد في العهد القديم (التوراة والكتب الأُخرى المتعلّقة به)، وكذلك العهد الجديد (الإنجيل وما يرتبط به) مقبولاً وصحيحاً، كما لا يمكن رفض وإنكار جميع ما ورد فيها أيضاً.

والموقف المناسب ممّا ورد فيهما هو إعتبار ما جاء فيها من التعاليم خليطاً من تعاليم النبيين (موسى وعيسى) عليهما السلام وأفكار أتباعهما الآخرين.

وعلى كلّ حال فإنّنا نلاحظ تعبيرات عديدة فيها حول البشارة بظهور رجل عظيم لا تنطبق أوصافه وعلاماته إلّا على نبيّ الإسلام الكريم صلى الله عليه وآله.

وجدير بالذكر بالإضافة إلى ما تقدّم من وجود النبؤات التي وردت في هذه الكتب والتي تنطبق على شخص الرّسول الأعظم، فقد وردت في إنجيل (يوحنا) كلمة (فارقليط)[٢]. ثلاث مرّات، وحينما ترجمت كانت بمعنى (المُعَزي) لنقرأ النصّ في إنجيل يوحنا: «**وأنا أطلب من الأب فيعطيكم معزياً آخر ليمكث معكم إلى الأبد**»[٣].

---

١ ـ الصف، ٦.

٢ ـ جاء هذا التعبير في إنجيل عربي طبع في لندن في مطبعة ويليام وطسس سنة ١٨٥٧م.

٣ ـ إنجيل يوحنا باب ١٤، جملة ١٦.

وجاء في الباب الذي بعده: «**ومتى جاء المعزّي الذي سأرسله أنا إليكم من الأب روح الحقّ الذي من عند الأب ينبثق فهو يشهد لي**»[١].

وجاء في الباب الذي يليه ما نصّه: «**لكنّي أقول لكم الحقّ أنّه خير لكم أن أنطلق لأنّه إن لم أنطلق لا يأتيكم المعزّي ولكن إن ذهبت أرسله إليكم**»[٢].

والجدير بالذكر أنّ في المتن السرياني للأناجيل المأخوذة من الأصل اليوناني جاء بدل (المسلّي) (پارقليطا). أمّا في المتن اليوناني فلقد جاء (پيركلتوس) وهو بمعنى الشخص (الممتدح) من منظور الثقافة اليونانية وتعادل (محمّد، أحمد).

لقد شعر أسياد المعابد والكنيسة أنّ إنتشار هذه اللفظة يوجّه ضربة قاصمة وشديدة إلى كيانهم ومؤسساتهم، لذا فقد كتبوا (پاراكلتوس) بدل (پيركلتوس) والتي هي بمعنى (المسلّي). ومع هذا التحريف الواضح الذي غيّروا فيه هذا النصّ الحيّ إلّا أنّهم لم يستطيعوا إلغاء البشارة الصريحة بظهور نبي عظيم في المستقبل.

ويجدر الإنتباه إلى نصّ ما ورد في هذا الصدد في دائرة المعارف الفرنسية المترجمة حيث يقول:

(محمّد مؤسّس دين الإسلام ورسول الله وخاتم الأنبياء، إنّ معنى كلمة (محمّد) تعني المحمود كثيراً وهي مشتقّة من (الحمد) والتي هي بمعنى التجليل والتمجيد، وتشاء الصدفة العجيبة أن يذكر له إسم آخر من نفس الأصل (الحمد) ترادف لفظ (محمّد) يعني (أحمد) ويحتمل إحتمالاً قويّاً أنّ مسيحي الحجاز كانوا يطلقون لفظ (أحمد) بدلاً عن (فارقليطا).

و (أحمد) يعني: الممدوح والمجلّل كثيراً وهو ترجمة لفظ: (پيركلتوس) والذي وضع بديلاً عنه لفظ (پاراكلتوس) إشتباهاً، ولهذا فإنّ الكتاب المسلمين الملتزمين قد أشاروا مراراً إلى أنّ المراد من هذا اللفظ هو البشارة بظهور نبي الإسلام، وقد أشار القرآن الكريم ـ أيضاً ـ بوضوح إلى هذا الموضوع في سورة الصفّ (الآية، ٦)[٣].

وخلاصة الحديث أنّ المقصود بـ (فارقليطا) ليس روح القدس أو المسلّي، بل هو معادل لمفهوم (أحمد).

---

١ ـ إنجيل يوحنا، باب ١٥، جملة ٢٦.

٢ ـ إنجيل يوحنا، باب ١٧، جملة ٧.

٣ ـ دائرة المعارف الكبيرة الفرنسية، ج ٢٣، ص ٤١٧٦.

شاهد حيّ آخر

«فخر الإسلام» ـ الذي كان من كبار قساوسة المسيحيين، وتتلمذ عند علمائهم حتىٰ حاز مراتب كبيرة في الدراسات الكنيسة ـ يتحدث في مقدمة كتابه «أنيس الاعلام» عن انتقاله من المسيحية إلى الإسلام فيقول:

«... بعد بحث طويل وعناء كبير وتجوال في المدن، عثرت علىٰ قسيس كبير متميز في زهده وتقواه، كان يرجع إليه الكاثوليك بما فيهم سلاطينهم، تعلمت عليه زمناً مذاهب النصارى، وكان له طلاب كثيرون، ولكنه كان ينظر إليّ من بينهم نظرة خاصة، وكانت كل مفاتيح البيت بيدي، إلا مفتاحاً واحداً لغرفة صغيرة، احتفظ به عنده ....

وفي يوم اعتلّت صحة القسيس، فقال لي: قل للطلاب إني لا أستطيع التدريس اليوم. حينما جئت الطلاب وجدتهم منهمكين في نقاش حول معنى «فارقليطا» في السريانية، و«پريكلتوس» في اليونانية ... واستمر بينهم النقاش، وكل كان يدلي برأيه ....

بعد أن عدت إلى الأُستاذ سألني عما كان يدور بين الطلاب، فأخبرته، فقال لي: وما رأيك؟

قلت: اخترت الرأي الفلاني.

قال القسيس: ما قصّرت في عملك، ولكن الحقّ غير ذلك. لأن حقيقة هذا الأمر لا يعلمها إلا الراسخون في العلم، وقليل ماهم. أكثرت في الالحاح عليه أن يوضح لي معنى الكلمة. فبكى بكاءً مرّاً وقال: لم أخف عليك شيئاً ... إن لفهم معنى هذه الكلمة أثراً كبيراً، ولكنه إن انتشر فسنتعرض للقتل! فإن عاهدتني أن لا تفشيه فسأخبرك ... فأقسمت بكل المقدسات أن لا أذكر ذلك لأحد، فقال: إنه اسم من أسماء نبي المسلمين، ويعني «أحمد» و«محمّد».

ثم أعطاني مفتاح الغرفة وقال: افتح الصندوق الفلاني، وهاتِ الكتابين اللذين فيه، جئت إليه بالكتابين وكانا مكتوبين باليونانية والسريانية علىٰ جلد، ويعودان إلى عصر ما قبل الإسلام.

الكتابان ترجما «فارقليطا» بمعنى أحمد ومحمّد، ثم أضاف الأُستاذ: علماء النصارى كانوا مجمعين قبل ظهوره أن «فارقليطا» بمعنى «أحمد ومحمّد»، ولكن بعد ظهور محمّد صلى الله عليه وآله، غيّروا هذا المعنى حفظاً لمكانتهم ورئاستهم وأوّلوه، واخترعوا له معنى آخر لم يكن علىٰ

الإطلاق هدف صاحب الإنجيل.

سألته عما يقوله بشأن دين النصارى؟ قال: لقد نسخ بمجيء الإسلام، وكرر ذلك ثلاثاً، ثم قلت:

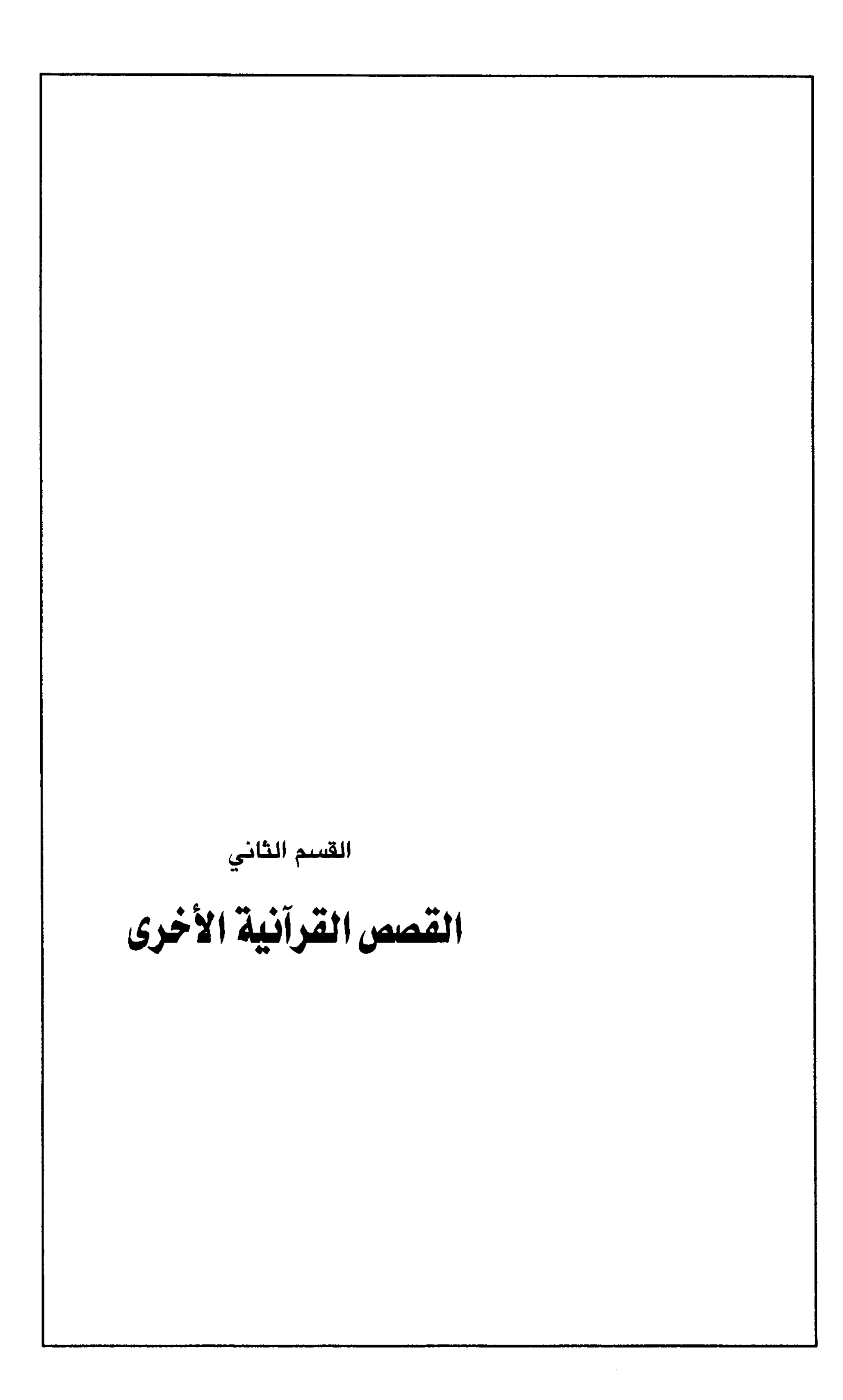
ما هي طريقة النجاة والصراط المستقيم في زماننا هذا؟ قال: إنما هي باتباع محمّد ﷺ.

قلت: وهل التابعون له ناجون؟

قال: إي والله، وكرر ذلك ثلاثاً.

ثم بكى الأُستاذ وبكيت كثيراً ثم قال: إذا أردت الآخرة والنجاة فعليك بدين الحق ... وأنا أدعو لك دائماً، شرط أن تكون شاهداً لي يوم القيامة أنّي كنت في الباطن مسلماً، ومن أتباع محمّد ﷺ ... وما من شك أن الإسلام هو دين الله اليوم على ظهر الأرض».

وكما يلاحظ فإن هذه الوثيقة الهامة تصرّح بما فعله علماء أهل الكتاب بعد ظهور نبي الإسلام ﷺ من تحريف لتفسير اسم النّبي وعلاماته، تحقيقاً لمصالحهم الشخصية.



القسم الثاني

القصص القرآنية الأخرى

لقمان

لقد ورد اسم «لقمان» في آيتين من القرآن في سورة لقمان، ولا يوجد في القرآن دليل صريح على أنّه كان نبيّاً أم لا، كما أنّ أُسلوب القرآن في شأن لقمان يوحي بأنّه لم يكن نبيّاً، لأنّه يلاحظ في القرآن أنّ الكلام في شأن الأنبياء عادةً يدور حول الرسالة والدعوة إلى التوحيد ومحاربة الشرك وإنحرافات البيئة، وعدم المطالبة بالأجر والمكافأة، وكذلك بشارة الأُمم وإنذارها، في حين أنّ أيّاً من هذه الأُمور لم يذكر في شأن لقمان، والذي ورد هو مجموعة مواعظ خاصّة مع ولده (رغم شموليتها وعموميتها)، وهذا دليل على أنّه كان رجلاً حكيماً وحسب.

وفي حديث عن الرّسول الأكرم ﷺ: «**حقّاً أقول: لم يكن لقمان نبيّاً، ولكن كان عبداً كثير التفكّر، حسن اليقين، أحبّ الله فأحبّه ومنّ عليه بالحكمة**».

وجاء في بعض التواريخ: أنّ لقمان كان عبداً أسود من سودان مصر، ولكنّه إلى جانب وجهه الأسود كان له قلب مضيء وروح صافية، وكان يصدق في القول من البداية، ولا يمزج الأمانة بالخيانة، ولم يكن يتدخّل فيما لا يعنيه.

واحتمل بعض نبوّته، لكن لا يوجد دليل على ذلك، بل لدينا شواهد واضحة على نقيض ذلك.

من أين كلّ هذه الحكمة؟

وجاء في بعض الرّوايات: أنّ شخصاً سأل لقمان: ألم تكون ترعى معنا؟ قال: نعم.

قال الرجل: فمن أين أتاك كلّ هذا العلم والحكمة؟

قال: قدر الله، وأداء الأمانة، وصدق الحديث، والصمت عمّا لا يعنيني.

وورد كذلك في ذيل الحديث الذي نقلناه عن الرّسول الأكرم ﷺ: **«كان لقمان نائماً نصف النهار، إذ جاءه نداء: يالقمان، هل لك أن يجعلك الله خليفة تحكم بين الناس بالحقّ؟ فأجاب الصوت: إن خيّرني ربّي قبلت العافية، ولم أقبل البلاء، وإن عزم عليّ فسمعاً وطاعة، فإنّي أعلم أنّه إن فعل بي ذلك أعانني وعصمني.**

فقالت الملائكة: دون أن يراهم: لِمَ يالقمان؟

قال: **لأنّ الحكم أشدّ المنازل وآكدها، يغشاه الظلم من كلّ مكان، إن وقي فبالحري أن ينجو، وإن أخطأ أخطأ طريق الجنّة، ومن يكن في الدنيا ذليلاً وفي الآخرة شريفاً خير من أن يكون في الدنيا شريفاً وفي الآخرة ذليلاً، ومن يخيّر الدنيا على الآخرة تفته الدنيا ولا يصيب الآخرة.**

فتعجّبت الملائكة من حسن منطقه، فنام نومة فأُعطي الحكمة، فانتبه يتكلّم بها».

اصحاب الكهف

إنّ مجموعة من الفتية الأذكياء المؤمنين كانوا يعيشون في ظل حياة مُترفة بالزّينة وأنواع النعم، إلَّا أنّهم انسلخوا مِن كل ذلك لأجل حفظ عقيدتهم وللصراع ضدَّ الطاغوت؛ طاغوت زمانهم، وذهبوا إلىٰ غارٍ خالٍ مِن جميع أشكال الزّينة والنعم، وقد أثبتوا بهذا المسلك أمر استقامتهم في سبيل الإيمان والثبات عليه.

المُلفت للنظر أنَّ القرآن ذكر في البداية قصّة هذه المجموعة مِن الفتية بشكلٍ مجمل، مُوظفاً بذلك أحد أُصول فن الفصاحة والبلاغة، وذلك لِتهيئة أذهان المستمعين، ثمّ بعد ذلك ذكر التفاصيل.

مجمل قصّة اصحاب الكهف

في البداية يقول تعالىٰ: **﴿أم حسبت أنَّ أصحاب الكهف والرقيم كانوا مِن آياتنا عجباً﴾**. إنَّ لنا آيات أكثر عجباً في السمٰوات والأرض، وإن كل واحدٍ منها نموذج لعظمة الخالق جلَّ وعلا، وفي حياتكم ـ أيضاً ـ أسرار عجيبة تُعتبر كل واحدة مِنها علامة علىٰ صدق دعوتك، وفي كتابك السماوي الكبير هذه آيات عجيبة كثيرة، وبالطبع فإنَّ قصّة أصحاب الكهف ليست بأعجب مِنها.

أمّا لماذا سميت هذه المجموعة بأصحاب الكهف؟ فذلك يعود إلىٰ لجوئهم إلىٰ الغار كي يُنقذوا أنفسهم، كما سيأتي ذلك لاحقاً إن شاء الله.

أمّا «الرقيم» ففي الأصل مأخودة مِن (رقم) وتعني الكتابة، وحسب اعتقاد أغلب

المفسّرين فإنَّ هذا هو اسم ثانٍ لأصحاب الكهف، لأنَّهُ في النهاية تمت كتابة أسمائهم علىٰ لوحة وُضعت علىٰ باب الغار. البعض يرىٰ أنَّ «الرقيم» اسم الجبل الذي كان فيه الغار.

والبعض الآخر اعتبر ذلك إسماً للمنطقة التي كان الجبل يقع فيها.

أمّا بعضهم فقد اعتبر ذلك إسماً للمدينة التي خرجَ مِنها أصحاب الكهف، إلّا أنَّ المعنىٰ الأوّل أكثر صحة كما يظهر.[1]

ثمّ يقول سبحانه بعد ذلك: ﴿إذ أوىٰ الفتية إلىٰ الكهف﴾ وعندما انقطعوا عن كل أمل توجهوا نحو خالقهم: ﴿فقالوا ربّنا آتنا مِن لدنك رحمة﴾ ثم: ﴿وهيىء لنا مِن أمرنا رشداً﴾. أي أرشدنا إلىٰ طريق يُنقذنا مِن هذا الضيق ويقربنا مِن مرضاتك وسعادتك، الطريق الذي فيه الخير والسعادة وإطاعة أوامر الله تعالىٰ. وقد أستُجيبت دعوتهم: ﴿فضربنا علىٰ أذانهم في الكهف سنين عدداً ثمّ بعثناهم لِنعلم أي الحزبين أحصىٰ لما لبثوا أمداً﴾[2].

القصّة المفصَّلة لأصحاب الكهف

بعد أن ذكر القرآن بشكلٍ مُختصر قصّة أصحاب الكهف، بدأ الآن مرحلة الشرح المفصَّل لها وكان المنطلق في ذلك قوله تعالىٰ: ﴿نحن نقصّ عليك نبأهم بالحق﴾ كلامٌ خالٍ مِن أي شكل مِن أشكال الخرافة والتزوير. ﴿إنّهم فتية آمنوا بربّهم وزدناهم هُدىً﴾.

ويشير القرآن ـ وما هو ثابت في التأريخ ـ إلىٰ أنَّ أصحاب الكهف كانوا يعيشون في بيئةٍ فاسدة وزمانَ شاعت فيه عبادة الأصنام والكفر، وكانت هُناك حكومة ظالمة تحتمي مظاهر الشرك والكفر والإنحراف.

مجموعة أهل الكهف ـ الذين كانوا علىٰ مستوىٰ مِن العقل والصدق ـ أحسّوا بالفساد وقرروا القيام ضدَّ هذا المجتمع، وفي حال عدم تمكنهم مِن المواجهة والتغيير فإنّهم سيهجرون هذا المجتمع والمحيط الفاسد.

---

١ ـ أمّا ما احتملهُ البعض مِن أنَّ أصحاب الرقيم هم مجموعة أُخرىٰ غير أصحاب الكهف، وتنقل بعض المرويات قصّة تختص بهم، فالظاهر أنَّ هذا الرّاي لا يتناسب مع القرآن، لأنَّ ظاهر القرآن يدل علىٰ أنَّ أصحاب الكهف والرقيم كانوا مجموعة واحدة، لذلك وبعد ذكر العنوانين تذكر السورة قصّة أصحاب الكهف ولا تذكر غيرهم. وهذا بنفسه دليل علىٰ الوحدة.

٢ ـ الكهف، ١٢ ـ ٩.

لذا يقول القرآن بعد البحث السابق: **﴿وربطنا علىٰ قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربّنا ربّ السماوات والأرض لن ندعو مِن دونه إلهاً﴾**.

فإذا عبدنا غيره: **﴿لقد قُلنا إذاً شططاً﴾**.

وفي الواقع، إنَّ هؤلاء الفتية المؤمنين ذكروا دليلاً واضحاً لإثبات التوحيد ونفي الآلهة. وهو قولهم: إنّنا نرىٰ وبوضوح أنَّ لهذه السماوات والأرض خالقاً واحداً، وأنَّ نظام الخلق دليل علىٰ وجوده، وما نحنُ إلَّا جزء مِن هذا الوجود، لذا فإنَّ ربّنا هو نفسهُ ربّ السماوات والأرض.

ثمّ ذكروا دليلاً آخر وهو: **﴿هؤلاء قومنا اتّخذوا مِن دونه آلهة﴾**.

فهل يُمكن الإعتقاد بشيء بدون دليل وبرهان؟: **﴿لولا يأتون عليهم بسلطان بيِّن﴾**.

وهل يمكن أن يكون الظن أو التقليد الأعمىٰ دليلاً علىٰ مثل هذا الإعتقاد؟ هؤلاء الفتية الموحدون قاموا بما يستطيعون لإزالة صدأ الشرك عن قلوب الناس، وزرع غرسة التوحيد في مكانها، إلَّا أنَّ ضجة عبادة الأصنام في ذلك المحيط الفاسد، وظلم الحاكم الجبار كانتا مِن الشدّة بحيث حبستا أنفاس عبادة الله في صدورهم وانكمشت همهمات التوحيد في حناجرهم.

وهكذا اضطروا للهجره لانقاذ أنفسهم والحصول علىٰ محيط أكثر استعداداً وقد تشاوروا فيما بينهم عن المكان الذي سيذهبون إليه ثمّ كان قرارهم: **﴿فأووا إلىٰ الكهف﴾**. حتىٰ: **﴿ينشر لكم ربّكم مِن رحمته ويُهيِّىء لكم مِن أمركم مرفقاً﴾**[1].

ملجأ باسم الغار

(الكهف) كلمة ذات مفهوم واسع، وتذكرنا بنمط الحياة الإبتدائية للإنسان، حيث ينعدم فيه الضوء، ولياليه مُظلمة وباردة، وتذكرنا بآلام المحرومين، إذ ليسَ ثمّة شيء مِن زينة الحياة المادية، أو الحياة الناعمة المرفَّهة.

ويتّضح الأمر أكثر إذا ما أخذنا بنظر الإعتبار أنَّ التأريخ ينقل لنا أنَّ أصحاب الكهف كانوا مِن الوزراء وأصحاب المناصب الكبيرة داخل الحُكُم. وقد نهضوا ضدَّ الحاكم وضدَّ مذهبه،

---

١ ـ الكهف، ١٥ ـ ١٣.

وكان اختيار حياة الكهوف علىٰ هذه الحياة قراراً يحتاج إلىٰ المزيد مِن الشهامة والهمّة والروح والإيمان العالي.

وفي هذا الغار البارد المظلم الذي قد يتضّمن خطر الحيوانات المؤذية، هُناك عالم مِن النور والإخلاص والتوحيد والمعاني السامية.

إنّ خطوط الرحمة الإلهية متجلية علىٰ جدران هذا الغار، وأمواج لطف الخالق تسبح في فضائه، ليسَ هُناك وجود للأصنام مِن أي نوعٍ كانت، ولا يصل طوفان ظُلم الجبارين إلىٰ هذا الكهف.

هؤلاء الفتية الموحدون تركوا الدنيا الملوثة الواسعة والتي كان سجناً لأرواحهم وذهبوا إلىٰ غارٍ مظلم جاف. وفعلهم هذا يشبه فعل النّبي يوسفعليه السلام حين أصروا عليه أن يستسلم لشهوة امرأة العزيز الجميلة، وإلّا فالسجن الموحش المظلم سيكون في انتظاره، لكن هذا الضغط زادَ في صموده وقال مُتوجهاً إلىٰ ربِّه العظيم: **﴿ربَّ السجن أحبّ إليّ ممّا يدعونني إليه وإلّا تصرف عنّي كيدهن أصب إليهن﴾**[1].

مكان أصحاب الكهف

يُشير القرآن إلىٰ التفاصيل الدقيقة المتعلّقة بالحياة العجيبة لأصحاب الكهف في الغار، وكأنّها تحكى علىٰ لسان شخص جالس في مقابل الغار ينظر إليهم.

في سورة الكهف إشارة إلىٰ ست خصوصيات هي:

أوّلاً: فتحة الغار كانت باتجاه الشمال، ولكونه في الجزء الشمالي مِن الكرة الأرضية، فإنَّ ضوء الشمس كانَ لا يدخل الغار بشكلٍ مُباشر، فالقرآن يقول إنّك اذا رأيت الشمس حين طلوعها لرأيت أنّها تطلع من جهة يمين الغار، وتغرب من جهة الشمال: **﴿وترىٰ الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال﴾**.

ولأنَّ فتحة الغار كانت إلىٰ الشمال فإنَّ الرياح اللطيفة والمعتدلة كانت تهب مِن طرف الشمال وكانت تدخل بسهولة إلىٰ داخل الغار، وتؤدي الىٰ تلطيف الهواء في جميع زوايا الغار.

---

١ ـ يوسف، ٣٣.

ثانياً: ﴿وهم في فجوةٍ منه﴾.

لقد كان أُولئك في مكان واسع مِن الغار، وهذا يدل علىٰ أنّهم لم يأخذوا مُستَقَرَّهم في فتحة الغار التي تتسم بالضيق عادة، بل إنّهم انتخبوا وسط الغار مستقراً لهم كي يكونوا بعيدين عن الأنظار، وبعيدين أيضاً عن الأشعة المباشر لضوء الشمس.

ثالثاً: إنَّ نوم أصحاب الكهف لم يكن نوماً عادياً: ﴿وتحسبهم أيقاظاً وهم رقود﴾. وهذا يدل علىٰ أنَّ أجفانهم كانت مفتوحة بالضبط مِثل الإنسان اليقظ، وقد تكون هذه الحالة الإستثنائية لكي لا تقترب منهم الحيوانات المؤذية التي تخاف الإنسان اليقظ. أو لكي يكون شكلهم مُرعباً كي لا يتجرأ إنسان علىٰ الإقتراب منهم. وهذا بنفسه أُسلوب للحفاظ عليهم.

رابعاً: وحتىٰ لا تنهرأ أجسامهم بسبب السنين الطويلة التي مكثوا فيها نياماً في الكهف، فإنَّ الله تبارك وتعالىٰ يقول: ﴿وَنقلبهم ذات اليمين وذات الشمال﴾.

حتىٰ لا يتركز الدم في مكانٍ معين، ولا تكون هُناك آثار سيئة علىٰ العضلات الملاصقة للأرض بسبب الضغط عليها لمدّة طويلة.

خامساً: في وصفٍ جديد يقول تعالىٰ: ﴿وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد﴾.

برغم أنَّ الآيات القرآنية لم تتحدث حتىٰ الآن عن كلب أصحاب الكهف، إلّا أنّ القرآن يذكر هُنا تعابير خاصّة تتضح مِن خلالها بعض المسائل، فمثلاً ذكر حالة كلب أصحاب الكهف يفيد أنّه كان معهم كلب يتبعهم أينما ذهبوا ويقوم بحراستهم.

أمّا متىٰ التحق هذا الكلب بهم، وهل كان كلب صيدهم، أو أنَّهُ كلب ذلك الراعي الذي التقىٰ بهم في مُنتصف الطريق، وعندما عرف حقيقتهم أرسل حيواناته إلىٰ القرية والتحق بهم، لأنَّهُ كان يبحث عن الحقيقة مثلهم وقد رفض هذا الكلب أن يتركهم واستمرَّ معهم.

ألا يعني هذا الكلام أنَّ جميع المحبّين ـ لأجل الوصول إلىٰ الحق ـ يستطيعون سلوك هذا الطريق، وأنَّ الأبواب غير مغلقة أمام أحد سواء كانوا وزراء عند الملك الظالم ثمّ تابوا، أو كان راعياً، بل وحتىٰ كلبه؟!

ألم يؤكّد القرآن أنّ جميع ذرات الوجود في الأرض والسماء، وجميع الأشجار والأحياء تذكر الله، وتحبّ الله في قلوبها وصميم وجودها؟

سادساً: قوله تعالىٰ: ﴿لو اطّلعت عليهم لوليت مِنهم فراراً ولملئت مِنهم رُعباً﴾[1].

إنّها ليست المرّة الأُولىٰ ولا الأخيرة التي يحفظ فيها الله تبارك وتعالىٰ عباده المؤمنين بالرعب والخوف، فقد واجهتنا صورة مُماثلة جسّدها قول الله تبارك وتعالىٰ: ﴿سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب﴾[2].

وفي دعاء الندبة نقرأ كلاماً حول رسول الله ﷺ: «ثمّ نصرتهُ بالرعب».

أو ما هو سبب الرعب في مشاهدة أهل الكهف، وهل يعود ذلك لظاهرهم الجسماني، أو بسبب قوّة معنوية سرية؟

الآيات القرآنية لم تتحدَّث عن ذلك.

اليقظة بعدَ نومٍ طويل

إنَّ نوم أصحاب الكهف كان طويلاً للغاية بحيث استمر (٣٠٩) سنة، وعلىٰ هذا الأساس كانَ نومهم أشبه بالموت، ويقظتهم أشبه بالبعث، لذا فإنَّ القرآن يقول ﴿وكذلك بعثناهم﴾.

يعني مِثلما كُنّا قادرين علىٰ إنامتهم نوماً طويلاً فإنّنا أيضاً قادرون علىٰ إيقاظهم. لقد أيقظناهم مِن النوم: ﴿ليتساءلوا بينهم قالَ قائل مِنهم كم لبثتم﴾.

﴿قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم﴾.

لعل التردُّد والشك هنا يعود إلىٰ أن أصحاب الكهف دخلوا الغار في بداية اليوم، ثمّ ناموا، وفي نهاية اليوم استيقظوا مِن نومهم، ولهذا السبب اعتقدوا في باديء الأمر بأنّهم ناموا يوماً واحداً، وبعد أن رأوا حالة الشمس، قالوا: بل ﴿بعض يوم﴾.

وأخيراً، بسبب عدم معرفته لمقدار نومهم قالوا: ﴿قالوا ربّكم أعلم بما لبثتم﴾.

قال بعضهم: إنَّ قائل هذا الكلام هو كبيرهم المسمىٰ (تلميخا) وبالنسبة لإستخدام صيغة الجمع علىٰ لسانه (قالوا) فهو متعارف في مثل هذه الموارد.

وَقد يكون كلامهم هذا بسبب شكِّهم في أنَّ نومهم لم يكن نوماً عادياً، وذلك عندما شاهدوا هندامهم وشعرهم وأظفارهم وما حلَّ بملابسهم.

---

١ ـ الكهف، ١٨ ـ ١٧.

٢ ـ الآية (١٥١)، مِن سورة آل عمران.

ولكنَّهم ـ في كل الأحوال ـ كانوا يحسّون بالجوع وبالحاجة الشديدة إلىٰ الطـعام، لأنَّ المخزون الحيوي في جسمهم انتهىٰ أو كاد، لذا فأوّل اقتراح لهم هو إرسال واحد منهم مع نقود ومسكوكات فضية لشراء الغذاء: ﴿فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلىٰ المدينة فلينظر أيّها أزكىٰ طعاماً فليأتكم برزقٍ منه﴾.

ثمّ أردفوا: ﴿وليتلطف ولا يشعرن بكم أحداً﴾. لماذا هذا التلطُّف: ﴿إنّهم إن يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم في ملّتهم﴾.

ثمَّ: ﴿ولن تُفلحوا إذاً أبداً﴾[1].

أزكىٰ الطعام

مع أنَّ أصحاب الكهف كانوا بعد يقظتهم بحاجة شديدة إلىٰ الطعام، إلَّا أنّهم قالوا للشخص الذي كلَّفوه بشراء الطعام: لا تشتر الطعام مِن أيّ كان، وإنّما انظر أيُّهم أزكىٰ وأطهر طعاماً فأتنا منهُ.

بعض المفسّرين تأولوا المعنىٰ وقالوا: إنَّ المقصود مِن (أزكىٰ) هو ما يعود إلىٰ الحيوانات المذبوحة، إذ أنّهم كانوا يعلمون أنَّ في تلك المدينة مَن يبيع لحم الميتة (أي غير المذبوح علىٰ الطريقة الشرعية) وأنَّ البعض يتكسَّب بالحرام، لذلك أوصوا صاحبهم بضرورة أن يتجنب مثل هؤلاء الأشخاص عندما يحاول شراءِ الطعام.

ولكن يظهر أنَّ لهذه الجملة مفهوماً واسعاً يشمل كافة أشكال الطهارات الظاهرية والباطنية (المعنوية).

لقد وصلت بسرعة أصداء هجرة هذه المجموعة مِن الرّجال المتشخّصين إلىٰ كلِّ مكان وأغاظت بشدّة الملك الظالم، حيث قدَّر أن تكون هذه الهجرة مقدّمة ليقظة ووعي الناس، أو قد يذهب أصحاب الكهف إلىٰ مَناطق بعيدة أو قريبة ويقومون بتبليغ مذهب التوحيد والدعوة إليه، ومحاربة الشرك وعبادة الأصنام.

لقد أصدر الحاكم تعليماته إلىٰ جهاز شرطته للبحث عن أصحاب الكهف في كل مكان، وعليهم أن يتبعوا آثارهم حتىٰ إلقاء القبض عليهم ومعاقبتهم.

---

١ ـ الكهف، ٢٠ ـ ١٩.

ولكن كلما بحثوا لم يعثروا علىٰ شيء، وهذا الأمر أصبح بحدٍّ ذاته لغزاً للناس، ونـقطة انعطاف في أفكارهم، وقد يكون هذا الأمر ـ وهو قيام مجموعة من ذوي المناصب في الدولة بترك مواقعهم العالية في الدولة وتعريض أنفسهم للخطر ـ هو بحدٍّ ذاته سبباً ليـقظة النـاس ومصدراً لوعيهم، أو لوعي قسم منهم علىٰ الأقل.

ولكن في كل الأحوال، فإنَّ قصّة هؤلاء النفر قد استقرت في صفحات التأريخ وأخذت الأجيال والأقوام تتناقلها عبر مئات السنين.

المأمور بالشراء في المدينة

والآن لنعد إلىٰ الشخص المكلَّف بشراء الطعام ولننظر ماذا جرىٰ له.

لقد دَخل المدينة ولكنَّهُ فغَر فاه مِن شدّة التعجُّب، فالشكل العام للبناء قد تغيَّر، هـندام الجميع ولباسهم غريب عليه، الملابس من طراز جديد، خرائب الأمس تحولت إلىٰ قصور، وقصور الأمس تحوَّلت إلىٰ خرائب!

لقد ظنَّ ـ للحظة واحدة ـ أنَّهُ لا يزال نائماً، وأنَّ ما يُشاهده ليس سوىٰ أحلام، فركَ عينيه، إلَّا أنَّهُ التفت إلىٰ ما يراه، وهو عين الحقيقة، وإن كانت عجيبة ولا يمكن تصديقها.

إنَّهُ لا يزال يعتقد بأنَّ نومهم في الغار كان ليوم أو بعض يوم، فلماذا هذا الإختلاف، وكيف تمَّت كل هذه التغييرات الكبيرة والواسعة في ظرف يوم واحد؟!

ومن جانب آخر كان منظره هو عجيباً للناس وغير مألوف. ملابسهُ، كلامه، شكلهُ كـل شيء فيه بدا غريباً للناس، وقد يكون هذا الوضع قد لفت أنـظارهم إليـه، لذا قـام بـعضهم بمُتابعته.

لقد انتهىٰ عجبه عِندما مدَّ يدهُ إلىٰ جيبه لِيُسدِّد مبلغ الطعام الذي اشتراه، فالبائع وقع نظره علىٰ قطعة نقود ترجع في قدمها إلىٰ (٣٠٠) سنة، وقد يكون اسم (دقيانوس) الملك الجبار مكتوباً عليها، وعندما طلب منهُ توضيحاً قالَ لهُ بأنَّهُ حصل عليها حديثاً.

وقد عرف الناس تدريجياً مِن خلال سلسلة مِن القرائن أنَّ هذا الشخص هو واحد مِـن أفراد المجموعة الذين قرأوا عن قصّتهم العجيبة والتأريخية التي وقعت قبل (٣٠٠) سنة، وأنَّ قصّتهم كانت تدور علىٰ الألسن في اجتماعات الناس وندواتهم، وهنا أحسَّ الشخص بأنَّهُ وأصحابه كانوا في نومٍ عميق وطويل.

هذه القضية كانَ لها صدىٰ كالقنبلة في المدينة، وقد انـتقلت عـبر الألسـن إِلىٰ جـميع الأماكن.

قال بعض المؤرّخين: إِنَّ حكومة المدينة كانت بيد حاكم صالح ومؤمن، إِلَّا أنَّ استيعاب وفهم قضية المعاد الجسماني وإِحياء الموتىٰ بعد الموت كان صعباً جـدّاً عـلىٰ أفـراد ذلك المجتمع، فقسم مِنهم لم يكن قادراً علىٰ التصديق بأنَّ الإِنسان يُمكن أن يعود للحياة بـعدَ الموت، إِلَّا أنَّ قصّة أصحاب الكهف أصبحت دليلاً قاطعاً لأُولئك الذين يـعتقدون بـالمعاد الجسماني.

ولذا فإِنَّ القرآن يبيّن أنّنا كما قمنا بإِنامتهم نقوم الآن بإِيقاظهم حتىٰ ينتبه الناس: **﴿وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أنَّ وعد الله حق﴾** ثمّ أضاف تعالىٰ: **﴿وأنَّ الساعة لا ريب فيها﴾** [1].

حيث أنَّ هذا النوم الطويل الذي استمرَّ لمئات السنين كان يشبه الموت، وأن إِيقاظهم يشبه البعث. بل يمكن أن نقول: إِنَّ هذه الإِنامة والإِيقاظ هي أكثر إِثارة للعجب مِن الموت والحياة في بعض جوانبها، فمن جهة قد مرَّت عليهم مئات السنين وهم نيام وأجسامهم لم تـفنَ أو تتأثّر، وقد بقوا طوال هذه المدَّة بدون طعام أو شراب، إِذن كيف بقوا أحياءً طيلةَ هذه المدَّة؟

اليسَ هذا دليلاً قاطعاً علىٰ قدرة الله علىٰ كل شيء، فالحياة بعد الموت، بعد مُشاهدة هذه القضية ممكنة حتماً.

نهاية قصّة أصحاب الكهف

إِنَّ الشخص الذي أرسل لتهيئة الطعام وشرائه، عاد بسرعة إِلىٰ الكهف وأخبر رفقاءه بما جرىٰ، وقد تعجب كل منهم، وبعد أن علموا بفقدان الأهل والأولاد والأصدقاء والإِخوان، ولم يبق مِن أصحابهم أحد، أصبحت الحياة بالنسبة إِليهم صعبة للغاية، فطلبوا مِن الخالق جـلَّ وعلا أن يُميتهم، وينتقلون بذلك إِلىٰ جوار رحمته. وهذا ما حدث.

لقد ماتوا ومضوا إِلىٰ رحمة ربِّهم، وبقيت أجسادهم في الكهف عندما وصلهُ الناس.

وهنا حدث النزاع بين أنصار المعاد الجسماني وبين مَن لم يعتقد به، فالمعارضون للمعاد كانوا يُريدون أن تنسىٰ قضية نوم ويقظة أصحاب الكهف بسرعة، كي يُسلبوا أنصار المعاد

---

١ ـ الكهف، ٢١.

الجسماني هذا الدليل القاطع، لذا فقد اقترح هؤلاء أن تُغلق فتحة الغار، حتىٰ يكون الكهف خافياً إلىٰ الأبد عن أنظار الناس. قال تعالىٰ: ﴿إذ يتنازعون بينهم أمرهم فقالوا ابنوا عليهم بنياناً﴾.

ولأجل إسكات الناس عن قصّتهم كانوا يقولون: لا تتحدثوا عنهم كثيراً، إنَّ قضيتهم معقدة ومصيرهم محاط بالألغاز!! لذلك فإن: ﴿ربّهم أعلم بهم﴾. أي اتركوهم وشأنهم واتركوا الحديث في قصّتهم.

أمّا المؤمنون الحقيقيون الذين عرفوا حقيقة الأمر واعتبروه دليلاً حيّاً لإثبات المعاد بعد الموت، فقد جَهدوا علىٰ أن لا تُنسىٰ القصة أبداً لذلك اقترحوا أن يتخذوا قرب مكانهم مسجداً، وبقرينة وجود المسجد فإنَّ الناس سوف لن ينسوهم أبداً، بالإضافة إلىٰ ما يتبرك بِهِ الناس مِن آثارهم: ﴿قال الذين غلبوا علىٰ أمرهم لنتخذنَّ عليهم مسجداً﴾.

القرآن بعدها يُشير إلىٰ بعض الإختلافات الموجودة بين الناس حول أصحاب الكهف، فمثلاً يتحدث عن اختلافهم في عددهم فيقول: ﴿سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم﴾. وبعضهم ﴿يقولون خمسة سادسهم كلبهم﴾. وذلك مِنهم ﴿رجماً بالغيب﴾. وبعضهم ﴿يقولون سبعة وثامنهم كلبهم﴾. أمّا الحقيقة فهي: ﴿قل ربّي أعلم بعدتهم﴾. ولذلك لأنّه ﴿ما يعلمهم إلّا قليل﴾.

وبالرغم مِن أنَّ القرآن لم يشر إلىٰ عددهم بصراحة، لكن نفهم مِن العلامات الموجودة في الآية أنَّ القول الثّالث هو الصحيح المطابق للواقع، حيث أنَّ كلمة ﴿رجماً بالغيب﴾ وردت بعد القول الأوّل والثّاني، وهي إشارة إلىٰ بُطلان هَذين القولين، إلّا أنَّ القول الثّالث لم يُتبع بمثل الإستنكار بل استتبع بقوله تعالىٰ: ﴿قل ربّي أعلم بعدتهم﴾ وأيضاً بقوله ﴿ما يعلمهم إلّا قليل﴾ وهذا بحدِّ ذاته دليل علىٰ صحة هذا القول (الثّالث).

وفي كل الأحوال فإنَّ الآية تنتهي بنصيحة تحث علىٰ عدم الجدال حولهم إلّا الجدل القائم علىٰ أساس المنطق والدليل: ﴿فلا تُمار فيهم إلّا مراءً ظاهراً﴾.

وعلىٰ أي حال فإنَّ مفهوم الكلام هو: عليك أن تتحدَّث معهم بالإعتماد علىٰ الوحي الإلهي، لأنَّ أقوىٰ الأدلة هو ما يصدر عن الوحي دون غيره: ﴿ولا تستفت فيهم مِنهم أحداً﴾[1].

---

١ ـ الكهف، ٢٢ ـ ٢١.

نوم أصحاب الكهف

مِن القرائن الموجودة في القرآن الكريم نفهم إجمالاً أنَّ نوم أصحاب الكهف كان طويلاً جدّاً. هذا الموضوع يُثير غريزة الاستطلاع عند كل مستمع، إذ يريد أن يعرف كم سنة بالضبط استمرَّ نومهم؟

في المقطع الأخير مِن مجموعة هذه القصّة التي تتحدث عن أصحاب الكهف، تُبعد الآيات الشك عن المستمع وتقول له: **﴿ولبثوا في كهفهم ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعاً﴾**.

إنَّ مجموع نومهم وبقائهم في الكهف هو (٣٠٩) سنة. والبعض يرىٰ أن ذكر ثلاثمائة وتسعة مفصولة بدلاً عن ذكرها في جملةٍ واحدة، يعود إلىٰ الفرق بين السنين الشمسية والسنين القمرية حيثُ أنّهم ناموا (٣٠٠) سنة شمسية، وبالقمري تعادل (٣٠٩). وهذا مِن لطائف التعبير حيث أوجز القرآن بعبارة واحدة صغيرة، حقيقة كبيرة تحتاج إلىٰ شرحٍ واسع.

ومِن أجل وضع حد لأقاويل الناس حول مكثهم في الكهف تؤكّد الآية: **﴿قل الله أعلم بما لبثوا﴾** لماذا؟ لأن: **﴿لهُ غيب السماوات والأرض﴾** [1].

والذي يعرف خفايا وظواهر عالم الوجود ويُحيط بها جميعاً، كيف لا يعرف مدّة بقاء أصحاب الكهف.

أين كانَ الكهف؟

للعلماء كلام كثير حول أصحاب الكهف، أين كانتَ مَنطقتهم؟ وأين يقع الكهف الذي مكثوا فيه؟

وهنا ينبغي أن نلاحظ أنَّهُ بالرغم مِن أنَّ العثور علىٰ المكان الدقيق لهذه الحادثة لا يؤثِّر كثيراً علىٰ أصل القصّة ودروسها التربوية وأهميتها التأريخية، وبالرغم مِن أنَّ هذه القصّة ليست الوحيدة التي نعرف أصلها ولا نعرف بعض جزئياتها وتفصيلاتها، إلَّا أنَّ معرفة محل الحادث يُساعدنا حتماً في فهم أكثر لخصوصيات هذه القصّة.

علىٰ أيةِ حال هُناك قولان راجحان مِن بين الإحتمالات الكثيرة المطروحة عن مكان

---

١ ـ الكهف، ٢٦ ـ ٢٥.

الكهف، يمكن أن نجملهما بما يلي:

أوّلاً: إنَّ هذه الحادثة وقعت في مدينة (أفسوس) وهذا الكهف كان يقع بالقرب مِنها.

ويمكن في الوقت الحاضر مُشاهدة خرائب هذه المدينة بالقرب مِن مدينة (أزمير) التركية، وبالقرب مِن قرية (أياصولوك) في جبال (ينايرداغ) حيثُ يوجد كهف لا يبتعد كثيراً عن (أفسوس).

إنَّ هذا الكهف هو غار وسيع، ويقال بأنَّهُ يمكن في داخله مشاهدة آثار مئات القبور، ويعتقد الكثيرون بأنَّ هذا الغار هو غار أصحاب الكهف.

وقد نقل من شاهد الكهف أنَّ فتحة الغار باتجاه الشمال الشرقي، وقد كان هذا الموقع سبباً في ترجيح شك بعض المفسّرين الكبار بِكون هذا المكان هو غار أصحاب الكهف، في حين أنَّ هذا الوضع يؤيد صحة الموضوع ويرجح كون الغار هو الكهف المقصود لأنَّ دلالة أن تكون الشمس عند الشروق على يمين الغار، وعند الغروب على يساره، هو أن تكون فتحة الغار باتجاه الشمال أو تميل قليلاً نحو الشمال الشرقي.

بالطبع لا يقلِّل مِن صحة الموضوع عدم وجود مسجد أو معبد إلىٰ جانبه، حيثُ يمكن أن تكون آثاره قد اندثرت بعد مرور حوالي (١٧) قرن علىٰ الحادث.

ثانياً: يقع الغار بالقرب مِن (عمّان) عاصمة الأردن، وبالقرب مِن قرية تسمّىٰ «رجيب».

ويمكن مشاهدة آثار صومعة فوق الغار تعود ـ وُفقاً لبعض القرائن ـ إلىٰ القرن الخامس الميلادي، حيث تحوَّلت إلىٰ مسجد ذي محراب ومئذنة بعد سيطرة المسلمين علىٰ ذلك المكان.

قصّة أصحاب الكهف في المصادر التاريخيّة للاقوام المختلفة

مِن المسلَّم به أنَّ قصّة أصحاب الكهف لم تكن مذكورة في أي مِن الكتب السماوية السابقة (سواء الكتب الأصلية أو المحرّفة الموجودة الآن) ويجب أن لا تذكر، لأنَّ الحادثة ـ طبقاً للتأريخ العام ـ كانت قد وقعت في القرون التي تلت ظهور المسيح عيسىٰ عليه السلام.

إنَّ حادثة أصحاب الكهف وقعت في زمان «دكيوس» (التي تُعرَّب بدقيانوس) حيثُ تعرّض المسيحيون في عصره إلىٰ تعذيب شديد.

ويقول المؤرّخون الأوربيون: إنَّ هذه الحادثة وقعت في الفترة مِن ٤٩ ـ ٢٥١ ميلادي،

وبذلك يَرىٰ هؤلاء المؤرّخون أنَّ مدّة نوم أصحاب الكهف لم تستغرق سوىٰ (١٥٧) سنة، ويطلقون عليهم لقب (النائمون السبعة لأفسوس) في حين أنّهم يُعرفون بيننا بأصحابِ الكهف.

والآن لنتعرف أين تقع (أفسوس) هذه؟ وَمَن أوّل عالم كتب كتاباً عن قصّة هؤلاء السبعة النائمين؟ وفي أي قرنٍ حصلَ ذلك؟

(أفسوس) أو (أفسس) بضم الألف والسين، هي واحدة مِن مدن آسيا الصغرىٰ (تركيا الحالية التي هي جزء مِن مملكة الروم الشرقية القديمة) وتقع بالقرب مِن نهر (كاستر) وعلىٰ بعد (٤٠) ميلاً تقريباً جنوب شرقي (أزمير) حيثُ كانت عاصمة الملك (الونى).

وقد اشتهرت (أفسوس) بسبب معبدها الوثني المعروف بـ «**أرطاميس**» الذي يُعتبر أحد عجائب الدنيا السبع.

ويقولون: إنَّ قصة أصحاب الكهف شُرحت لأول مرّة في رسالة باللغة السريانية كتبها عالم مسيحي يسمىٰ (**جاك**) الذي كان رئيساً للكنيسة السورية، وذلك في القرن الخامس الميلادي، ثمّ شخص آخر يسمّىٰ «**جوجويوس**» بترجمة تلك الرسالة إلىٰ اللاتينية وسمّها بـ «**جلال الشهداء**». وهذا الامر يُبيِّن أنَّ الحادثة كانت معروفة بين المسيحيين قبل قرن أو قرنين مِن ظهور الإسلام، وكانت الكنائس تهتم بها.

بالطبع بعض أحداث هذه القصّة ـ مثل مدّة نوم أصحاب الكهف ـ تختلف عمّا ورد في المصادر الإسلامية، فالقرآن يقول ـ وبصراحة ـ بأنَّ نومهم كان (٣٠٩) سنة.

مِن جانب ثانٍ وطبقاً لما ينقلهُ ياقوت الحموي في معجم البلدان وطبقاً لما ينقلهُ «ابن خردادبه» في كتاب «المسالك والممالك» وطبقاً ـ أيضاً ـ لما يقوله ابو ريحان البيروني في كتاب «الآثار الباقية»: إنَّ مجموعة مِن السوّاح القدماء قد وجدوا غاراً في مدينة (آبس) فيه بعض الإجساد المتيبسة، وقد احتملوا أن هذه الآثار تتعلق بقصّة أصحاب الكهف.

مِن سياق الآيات القرآنية في سورة الكهف، وأسباب النّزول المذكورة في المصادر الإسلامية، نستفيد أنَّ الحادثة كانت أيضاً معروفة بين علماء اليهود، وأنّها كانت عندهم حادثة تأريخية مشهورة. وبذلك يتّضح ـ بدقة ـ أنَّ قصّة النوم الطويل لأصحاب الكهف وردت في المصادر التأريخية للأقوام المختلفة.

ذو القرنين

قصّة «ذو القرنين» العجيبة

إنَّ مجموعة مِن قريش قرَّرت اختبار الرّسول الأكرمﷺ، وقامت هذه المجموعة بالتنسيق مع اليهود واستشارتهم بطرح ثلاث قضايا هى: تأريخ الفتية مِن أصحاب الكهف.

السؤال عن ماهية الروح، أمّا القضية الثّالثة فقد كانت حول «ذو القرنين».

إنَّ قصة «ذو القرنين» تدور حول شخصية أثارت اهتمامات الفلاسفة والباحثين منذ القدم. وقد بُذلت جهود ومساعي كثيرة للتعرُّف علىٰ هذه الشخصية.

وسنقوم أوّلاً بذكر قصّة ذي‌القرنين حيث أن حياته مع قطع النظر عن جوانبها التاريخية بمثابة درس كبير ومليء بالعبر ، ثمّ ننتقل إلىٰ بحوث لمعرفة شخصية ذي القرنين نفسه مستفيدين في ذلك مِن الرّوايات الإسلامية، وممّا أشار إليه المؤرّخون في هذا الصدد.

بتعبير آخر: إنَّ ما يهمنا أوّلاً هو الحديث عن شخصية ذي القرنين، وهو ما فعلهُ القرآن، حيث يقول تعالىٰ: ﴿ويسئلونك عن ذي القرنين﴾.

فيكون الجواب علىٰ لسان الرّسول المصطفىٰﷺ: **﴿قل سأتلوا عليكم مِنهُ ذكراً﴾**.

إنَّ بداية الآية تبيّن لنا أنَّ قصة «ذو القرنين» كانت متداولة ومعروفة بين الناس، ولكنّها كانت محاطة بالغموض والإبهام، لهذا السبب طالبوا الرّسول الأكرمﷺ الإدلاء حولها بالتوضيحات اللازمة.

وفي إستئناف الحديث عن ذي القرنين يقول تعالىٰ: **﴿إنّا مكنّا لهُ في الأرض﴾**. أي منحناه سُبل القوة والقدرة والحكم.

﴿وآتيناه مِن كل شيء سبباً * فأتبع سَبَباً حتىٰ إذا بلغ مغرب الشمس﴾.

فرأي أنّها تغرب في بحر غامق أو عين ذات ماء آجن: ﴿وجدها تغرب في عينٍ حمئةٍ﴾.

(حمئة) تعني في الأصل الطين الأسود ذا الرائحة الكريهة؛ أو الماء الآسن الموجود في المستنقعات. وهذا الوصف يُبَيِّن لنا بأنَّ الأرض التي بلغها «ذو القرنين» كانت مليئة بالمستنقعات، بشكل كان ذو القرنين يشعر معهُ بأنَّ الشمس كانت تغرب في هذه المستنقعات، تماماً كما يشعر بذلك مسافر البحر، وسكّان السواحل الذين يشعرون بأنَّ الشمس قد غابت في البحر أو خرجت مِنهُ!.

﴿ووجد عندها قوماً﴾ أي مجموعة من الناس فيهم الصالح والطالح، هؤلاء القوم هم الذين خاطب الله ذا القرنين في شأنهم: ﴿ قلنا يا ذا القرنين إمّا أن تُعذّب وإمّا أن تتخّذ فيهم حسناً﴾[1].

بعد ذلك يحكي القرآن جواب «ذيالقرنين» الذي قال: ﴿قال أمّا مَن ظلم فسوف نعذبه ثمّ يرد إلىٰ ربّه فيعذّبه عذاباً نكراً﴾. أي إنَّ الظالمين سينالون العذاب الدنيوي والأخروي معاً.

﴿وأمّا مَن آمن وعمل صالحاً فلهُ جزاءً الحسنىٰ﴾.

﴿وسنقول لهُ مِن أمرنا يُسراً﴾.

أي إنّنا سنتعامل معهُ بالقول الحسن، فضلاً عن أنّنا سنخفف عنهُ ولا نجعلهُ يواجه المشاكل والصعاب، بالإضافة إلىٰ أنّنا سوف لن نجبي مِنهُ ضرائب كثيرة.

والظاهر أنَّ ذا القرنين أراد مِن ذلك أن الناس سينقسمون مقابل دعوتي الىٰ التوحيد والإيمان والنهي عن الظلم والفساد إلىٰ مجموعتين، الأُولىٰ: هي المجموعة التي سترحب ببرنامجه الإلهي ودعوته للتوحيد والإيمان وهذه ستجزىٰ بالحسنىٰ وستعيش حياة آمنة ومطمئنة. أمّا الثّانية: فستتخذ موقفاً عدائياً مِن دعوة ذي القرنين وتقف في الجبهة المناوئة، وتستمر في شركها وظلمها، وتواصل فسادها. وهي لذلك ستعاقب نتيجة موقفها هذا أشدّ العقاب.

وعندما إنتهىٰ «ذو القرنين» مِن سفره إلىٰ الغرب توجه إلىٰ الشرق حيثُ يقول القرآن في ذلك: ﴿ثمّ أتبَع سَبَباً﴾ أي استخدم الوسائل والإمكانات التي كانت بحوزته.

---

١ ـ ويرىٰ بعض المفسّرين في كلمة (قلنا) دليلاً علىٰ نبوة ذي القرنين. ولكن مِن المحتمل أن يكون المقصود بهذا التعبير هو الإلهام القلبي الذي يمنحهُ الخالق جلَّ وعلا لغير الأنبياء أيضاً، هذا وليسَ بالإمكان انكار أنَّ التعبير الآنف الذكر يشير بالفعل إلىٰ معنىٰ النّبوة.

﴿حتىٰ إذا بلغ مطلع الشمس﴾. وهنا رأىٰ أنّها: ﴿وجدها تطلع علىٰ قوم لم نجعل لهم مِن دونها ستراً﴾. وفي اللفظ كناية عن أنَّ حياة هؤلاء الناس بدائية جدّاً، ولا يـملكون سـوىٰ القليل مِن الملابس التي لا تكفي لتغطية أبدانهم مِن الشمس.[١]

﴿كذلك وقد أحطنا بما لديه خُبراً﴾[٢]. هكذا كانت أعمال «ذو القرنين» ونحن نعلم جيداً بإمكاناته.

كيف تمّ بناء سد ذي القرنين؟

القرآن الكريم يشير إلىٰ سفرة أُخرىٰ مِن أسفار ذي القرنين حيثُ يقول: ﴿ثمّ أتبع سبباً﴾.

أي بعد هذه الحادثة استفاد مِن الوسائل المهمّة التي كانت تحت تصرفه ومضىٰ في سفره حتىٰ وصل إلىٰ موضع بين جبلين: ﴿حتىٰ إذا بلغَ بين السدين وجد مِـن دونـهما قـوماً لا يكادون يفقهون قولاً﴾.

إشارة إلىٰ أنَّهُ وَصَل إلىٰ مَنطقة جبلية، وهناك وَجدَ أُناساً (غير المجموعتين اللتين عثر عليهما في الشرق والغرب) كانوا علىٰ مستوىٰ دانٍ مِن المدنية، لأنّ الكلام أحد أوضح علائم التمدُّن لدى البشر.[٣]

في هذه الأثناء اغتنم هؤلاء القوم مجيء ذي القرنين، لأنّهم كانوا في عذاب شديد مِن قبل أعدائهم يأجوج ومأجوج، لذا فقد طلبوا العون منهُ قائلين: ﴿قالوا ياذا القرنين إن يأجـوج ومأجوج مفسدون في الأرض فهل نجعل لك خرجاً علىٰ أن تجعل بيننا وبينهم سداً﴾.

قد يكون كلامهم هذا تمَّ عن طريق تبادل العلامات والإشارات، لأنّهم لا يفهمون لغة ذي القرنين، أو أنّهم تحدثوا معهُ بعبارات ناقصة لا يمكن الإعتداد بها.[٤]

---

١ ـ وهناك احتمال آخر يطرحه البعض، ويرىٰ أن يكون هؤلاء القوم في أرض صحراويـة تـفتقر للجبال والأشجار والملاجيء، وأن ليسَ في تلك الصحراء ما يمكّن هؤلاء القوم مِن حماية أنفسهم مِن الشمس مِن غطاء أو غير ذلك. بالطبع ليسَ هناك تعارض بين التفاسير هذه.

٢ ـ الكهف، ٩١ ـ ٨٣.

٣ ـ البعض احتمل أنَّ جملة ﴿لا يكادون يفقهون قولاً﴾ لا تعني أنّهم لم يكونوا يعرفون اللغات، بـل كانوا لا يفهمون محتوىٰ الكلام، أي كانوا مُتخلفين فكرياً.

٤ ـ ويحتمل أن يكون التفاهيم بينهم تمَّ عن طريق المترجمين، أو بأُسلوب الإلهام الإلهـي، مـثل

يمكن أن نستفيد أنَّ تلك المجموعة مِن الناس كانت ذات وضع جيِّد مِن حيث الإمكانات الإقتصادية، إلَّا أنّهم كانوا ضعفاء في المجال الصناعي والفكري والتخطيطي، لذا فقد تقبلوا بتكاليف بناء هذا السد المهم، بشرط أن يتكفل ذو القرنين ببنائه وهندسته.

أمّا ذو القرنين فقد أجابهم: **﴿قال ما مكنّي فيه ربّي خير﴾**، وأنّي لا أحتاج إلىٰ مساعدتكم المالية وإنّما: **﴿فأعينوني بقوّة أجعل بينكم وبينهم ردماً﴾**.

ثمّ أمر ذو القرنين فقال: **﴿آتوني زبر الحديد﴾**.

وعندما تهيأت قطع الحديد أعطىٰ أمراً بوضع بعضها فوق البعض الآخر حتىٰ غطّي بين الجبلين بشكلٍ كامل: **﴿حتىٰ إذا ساوىٰ بين الصدفين﴾**.

الأمر الثّالث لذي القرنين هو طلبه مِنهم أن يجلبوا الحطب وما شابههُ، ووضعهُ علىٰ جانبي هذا السد، وأشعل النار فيه ثمّ أمرهم بالنفخ فيه حتىٰ احمرَّ الحديد مِن شدة النّار: **﴿قالَ انفخوا حتىٰ إذا جعلهُ ناراً﴾**.

لقد كان يهدف ذو القرنين مِن ذلك ربط قطع الحديد بعضها ببعض ليصنع منها سداً مـن قطعة واحدة، وعن طريق ذلك، قام ذو القرنين بنفس عمل «اللحام» الذي يُقام به اليوم في ربط أجزاء الحديد بعضها ببعض.

أخيراً أصدر لهم الأمر الأخير فقال: اجلبوا لي النحاس المذاب حتىٰ أضعه فوق هذا السد: **﴿قال آتوني أفرغ عليه قطراً﴾**.

وبهذا الشكل قام بتغطية هذا السد الحديدي بطبقة النحاس حتىٰ لا ينفذ فيه الهواء ويحفظ مِن التآكل.

بعض المفسّرين قالوا: إنَّ علوم اليوم أثبتت أنَّهُ عند إضافة مقدار مِن النحاس إلىٰ الحديد فإنَّ ذلك سيزيد مِن مقدار مقاومته، ولأنَّ «ذا القرنين» كان عالماً بهذه الحقيقة فقد أقدم علىٰ تنفيذه.

وأخيراً، أصبح هذا السد بقدر مِن القوّة والإحكام بحيث: **﴿فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقباً﴾**.

لقد كان عمل ذي القرنين عظيماً ومهماً، وكانَ لهُ وفقاً لمنطق المستكبرين ونـهجهم أن

تحدّث بعض الطيور مع سليمان عليه السلام.

يتباهىٰ بِهِ أو يمنّ به، إلّا أنَّهُ قال بأدبٍ كامل: **﴿قال هذا رحمة مِن ربّي﴾** لأنَّ أخلاقهُ كانت أخلاقاً إلٰهية.

إنَّهُ أراد أن يقول: إذا كنت أملك العلم والمعرفة وأستطيع بواسطتهما أن أخطو خطوات مهمّة، فإنَّ كل ذلك إنما كانَ مِن قبل الخالق جلَّ وعلا، وإذا كُنت أملك قابلية الكلام والحديث المؤثّر فذلك أيضاً مِن الخالق جلَّ وعلا.

وإذا كانت مثل هذه الوسائل والأفكار في اختياري فإنَّ ذلك مِن بركة الله ورحمته الخالق الواسعة.

أراد ذو القرنين أن يقول: إنّني لا أملك شيئاً مِن عندي كي أفتخر به، ولم أعمل عملاً مهماً كي أمُنّ علىٰ عباد الله.

ثمّ استطرد قائلاً: لا تظنوا أنَّ هذا السد سيكون أبدياً وخالداً: **﴿فإذا جاء وعد ربّي جعلهُ دكاء﴾**.

﴿وكان وعد ربّي حقّاً﴾[1].

لقد أشار ذو القرنين في كلامه هذا إلىٰ قضية فناء الدنيا وتحطّم هيكل نظام الوجود فيها عند البعث.

مَن هو ذو القرنين؟

ذكر المفسّرون كلاماً كثيراً عن شخصية ذي القرنين الوارد في القرآن الكريم، فمن هو؟ وعلىٰ أي واحد من الشخصيات التأريخية المعروفة تنطبق أوصافه ويمكن أن نرجع الآراء إلىٰ ثلاث نظريات أساسية:[2]

---

١ ـ الكهف، ٩٨ ـ ٩٢.

٢ ـ النظرية الأُولىٰ: يرىٰ البعض أنَّ «ذو القرنين» ليسَ سوىٰ «الإسكندر المقدوني»، لذا فإنّهم يسمونه «الاسكندر ذو القرنين» ويعتقد هؤلاء بأنَّهُ سيطر بعد وفاة أبيه علىٰ دول الروم والمغرب والمصر، وبنىٰ مدينة الإسكندرية، ثمّ سيطر بعد ذلك علىٰ الشام وبيت المقدس، ثمّ ذهب مِن هناك إلىٰ «أرمينيا»، وفتح العراق وبلاد فارس، ثمّ قصد الهند والصين، ومِن هناك رجع إلىٰ خُراسان، وقد بنىٰ مدناً كثيرة، ثمّ جاءَ إلىٰ العراق ومَرِضَ في مدينة «زور» وتوفي فيها.

ويقول البعض: إنَّهُ لم يُعمِّر أكثر مِن (٣٦) سنة، أمّا جسده فقد ذهبوا بِهِ إلى الإسكندرية ودفنوه هناك.

وأحدث النظريات في هذا المجال وردت عن المفكر الإسلامي المعروف (أبو الكلام آزاد) الذي شغل يوماً منصب وزير الثقافة في الهند. وقد أورد رأيه في كتاب حققه في هذا المجال. وطبقاً لهذه النظريه فإنَّ ذا القرنين هو نفسه (كورش الكبير) الملك الأخميني.

لماذا سمي ذو القرنين بهذا الإسم؟

البعض يعتقد أن سبب التسمية تعود إلىٰ وصوله للشرق والغرب، حيثُ يعبِّر العرب عن ذلك بقرني الشمس.

البعض الآخر يرىٰ بأنَّهُ عاش قرنين أو أنَّهُ حَكَمَ قرنين، وأمّا ما مقدار القرن فهناك آراء مُختلفة في ذلك.

البعض الثّالث يقول: كان يوجد علىٰ طَرَفي رأسه بروز (قرن)، ولهذا السبب سَمَّي بذي القرنين.

وأخيراً فإنَّ البعض يعتقد بأنَّ تاجهُ الخاص كان يحتوي علىٰ قرنين.

صفات ذي القرنين الممتازة

لو لاحظنا بدقة القرآن الكريم لاستفدنا أنَّ ذا القرنين كانت لهُ صفات ممتازة هي:

* هيّأَ لهُ الله جلَّ وعلا أسباب القوّة ومقدمات الإنتصار، وجعلها تحت تصرفه وفي متناول يده.

ـ يمكن ملاحظة ذلك في تفسير الفخر الرازي، والكامل لابن الأثير (المجلد الأوّل صفحة ٢٨٧). ويعتقد البعض أن أوّل مَن قال بهذه النظرية هو الشيخ ابن سينا في كتابه الشفاء ـ

النظرية الثّانية: ويرىٰ جمع مِن المؤرّخين أنَّ «ذو القرنين» كان أحد ملوك اليمن (كان ملوك اليمن يسمّون بـ«تبّع» وجمع ذلك «تبابعه») وقد دافع عن هذه النظرية «الأصمعي» في تأريخ العرب قبل الإسلام، و«ابن هشام» في تأريخه المعروف بسيرة ابن هشام، و«أبوريحان البيروني» في كتاب «الآثار الباقية».

ويمكن لنا أن نلمح في شعر شعراء (الحميرية) وهم مِن أقوام اليمن، وبعضاً مِن شعراء الجاهلية تفاخراً بكونِ «ذو القرنين» مِن قومهم.

وفقاً لهذه النظرية يكون سد ذو القرنين هو سد «مأرب» المعروف.

* لقد جهز ثلاثة جيوش مهمّة: الأوّل إلىٰ الغرب، والثّاني إلىٰ الشرق؛ والثّالث إلىٰ المنطقة التي تضم المضيق الجبلي، وفي كل هذه الأسفار كان لهُ تعامل خاص معَ الأقوام المختلفة حيث ورد تفصيل ذلك في الآيات السابقة.

* كان رجلاً مؤمناً تتجلىٰ فيه صفات التوحيد والعطف، ولم ينحرف عن طريق العدل، ولهذا السبب فقد شملهُ اللطف الإلهي الخاص، إذ كان ناصراً للمحسنين وعدوّاً للظالمين، ولم يكن يرغب أو يطمع بمال الدنيا كثيراً.

* كان مؤمناً بالله وباليوم الآخر.

* لقد صنع واحداً مِن أهم وأقوىٰ السدود، السد الذي استفاد لصنعه مِن الحديد والنحاس بدلاً مِن الطابوق والحجارة. (وإذا كانت هناك مواد أُخرىٰ مستخدمة فيه، فهي لا يعتبر شيئاً بالقياس الىٰ الحديد والنحاس) أمّا هدفه مِن بنائه فقد تمثل في مساعدة المستضعفين في قبال ظلم يأجوج ومأجوج.

* كان شخصاً مشهوراً بين مجموعة مِن الناس، وذلك قبل نزول القرآن، لذا فإنَّ قريش أو اليهود سألوا رسول الله ﷺ عنه، كما يصرح بذلك الكتاب العزيز في قوله تعالىٰ: ﴿**يسئلونك عن ذي القرنين**﴾.

ولا يمكن الإستفادة بشيء مِن صريح القرآن للدلالة علىٰ أنَّهُ كان نبيّاً، بالرغم مِن وجود تعابير تُشعِر بهذا المعنىٰ.

ونقرأ في العديد مِن الرّوايات الإسلامية الواردة عن الرّسول ﷺ وأئمّة أهل البيت عليهم السلام **أنَّهُ: «لم يكن نبيّاً بل عبداً صالحاً»**.

أين يقع سد ذي القرنين؟

بالرغم من محاولة البعض المطابقة بين سد ذي القرنين وبين جدار الصين الذي لا يزال موجوداً ويبلغ طوله مئات الكيلومترات، إلَّا أنَّ الواضح أنَّ جدار الصين لا يَدخل في بنائه الحديد ولا النحاس، ومضافاً إلىٰ ذلك لا يقع في مضيق جبلي ضيق، بل هو جدار مبني مِن مواد البناء العادية ويبلغ طول مئات الكيلومترات، وما زال موجوداً حتىٰ الآن.

البعض يرىٰ في سد ذي القرنين أنّه سد مأرب في اليمن، ولكن هذا السد برغم وقوعه في مضيق جبلي، إلَّا أنَّهُ أنشىء لمنع السيل ولخزن المياه، ولم يدخل النحاس والحديد في بنائه.

ولكن بالإستناد إلىٰ شهادة العلماء وأهل الخبرة فإنَّ السد ـ كما أشرنا لذلك قبل قليل ـ يقع في أرض القوقاز بين بحر الخزر والبحر الأسود، حيث توجد سلسلة جبلية كالجدار تفصل الشمال عن الجنوب، والمضيق الوحيد الذي يقع بين هذه الجبال الصخرية هو مضيق «داريال» المعروف، ويشاهد فيه جدار حديدي أثري حتىٰ الآن، ولهذه المرجحات يعتقد الكثيرون أنَّ سد «ذو القرنين» يقع في هذا المضيق، وأنَّ المتبقي مِن مواصفات آثاره دليل مؤيِّد لذلك.

الطريف في الأمر أنَّهُ يوجد نهر علىٰ مقربة من ذلك المكان يُسمىٰ «سائرس» أي «كورش» إذ كان اليونان يسمون كورش بـ(سائرس).

الآثار الأرمنية القديمة كانت تطلق علىٰ هذا الجدار اسم «بهاك كورائي» والتي تعني «مضيق كورش» أو «معبر كورش» وهذا دليل آخر علىٰ أنَّ كورش هو الذي بنىٰ السد.

مَن هم يأجوج ومأجوج؟

القرآن يؤيِّد بوضوح أنَّ هذين الاسمين هما لقبيلتين همجيتين كانتا تؤذيان سكان المناطق المحيطة بهم.

ويقول العلّامة الطباطبائي، في تفسير الميزان: إنَّهُ يستفاد مِن مجموع ما ذكر في التوراة أن مأجوج أو يأجوج ومأجوج هم مجموعة أو مجاميع كبيرة كانت تقطن أقصىٰ نقطة في شمال آسيا، وهم أناس محاربون يغيرون علىٰ الأماكن القريبة منهم.

ثمّة أدلة تأريخية علىٰ أنَّ مَنطقة شمال شرقي الأرض في نواحي «مغولستان» كانت في الأزمنة السابقة كثيفة السكان، إذ كانت الناس تتكاثر بسرعة، وبعد أن ازداد عددهم اتجهوا نحو الشرق أو الجنوب، وسيطروا علىٰ هذه الأراضي وسكنوا فيها تدريجياً.

وقد وردت مقاطع تأريخية مُختلفة لحركة هؤلاء الأقوام وهجراتهم.[١]

وفي عصر كورش في حوالي عام (٥٠٠) قبل الميلاد قامت هذه الأقوام بعدة هجمات،

---

١ ـ قد تمَّت واحدة مِن هذه الهجمات في القرن الرابع الميلادي، بقيادة «آتيلا» وقد قضت هذه الهجمة علىٰ حضارة الأمبراطورية الرومانية.

وكان آخر مقطع تأيخي لهجومهم في القرن الثّاني عشر الميلادي بقيادة جنگيز خان، حيث هاجم شرق البلاد الإسلامية ودمَّر العديد مِن المدن، وفي طليعتها مدينة بغداد حاضرة الخلافة العباسية.

لكن موقف حكومة «ماد وفارس» إزاءهم أدّىٰ إلىٰ تعتبر الأوضاع واستتباب الهدوء في آسيا الغربية التي نجت مِن حملات هذه القبائل.

وبهذا يظهر أنَّ يأجوج ومأجوج هُم مِن هذه القبائل الوحشية، حيث طلب أهل القفقاز مِن «كورش» عند سفره إليهم أن ينقذهم مِن هجمات هذه القبائل، لذلك أقدم علىٰ تأسيس السد المعروف بسدَّ ذي القرنين.

قوم تبّع

لقد كانت أرض اليمن ـ الواقعة في جنوب الجزيرة العربية ـ من الأراضي العامرة الغنية، وكانت في الماضي مهد الحضارة والتمدن، وكان يحكمها ملوك يسمّون «تبّعاً» ـ وجمعها تبابعة ـ لأنّ قومهم كانوا يتبعونهم، أو لأنّ أحدهم كان يخلف الآخر ويتبعه في الحكم.

ومهما يكن، فقد كان قوم تبع يشكلون مجتمعاً قوياً في عدته وعدده، ولهم حكومتهم الواسعة المترامية الأطراف.

من هم قوم تبّع؟

لقد وردت كلمة (تبّع) في القرآن الكريم مرتين فقط: مرة في الآية (٢٧) من سورة الدخان، وأخرىٰ في الآية ١٤ من سورة (ق) حيث تقول: ﴿**وأصحاب الأيكة وقوم تبّع كل كذب الرسل فحق وعيد**﴾.

إنّ «تبعاً» كان لقباً عاماً لملوك اليمن، ككسرىٰ لسلاطين إيران، وخاقان لملوك الترك، وفرعون لملوك مصر، وقيصر لسلاطين الروم.

وكانت كلمة (تبع) تطلق علىٰ ملوك اليمن من جهة أنّهم كانوا يدعون الناس إلىٰ اتباعهم، أو لأنّ أحدهم كان يتبع الآخر في الحكم.

لكن يبدو أنّ القرآن الكريم يتحدث عن أحد ملوك اليمن خاصة ـ كما أنّ فرعون المعاصر لموسىٰ عليه السلام، والذي يتحدث عنه القرآن كان معيناً ومحدداً ـ وورد في بعض الرّوايات أنّ اسمه «**أسعد أبا كرب**».

ويعتقد بعض أنّه كان رجلاً مؤمناً، واعتبروا تعبير «قوم تبّع» الذي ورد في آيتين من القرآن دليلاً علىٰ ذلك، حيث أنّه لم يُذَمّ في هاتين الآيتين، بل ذُم قومه، والرّواية المروية عن النّبي ﷺ شاهدة علىٰ ذلك، ففي هذه الرواية أنّه قال: «**لاتسبّوا تبّعاً فإنّه كان قد أسلم**».

تبّع بالقرب من المدينة

وورد في رواية أُخرىٰ: إنّ تبعاً لما قدم المدينة ـ من أحد أسفاره ـ ونزل بفنائها، بعث إلىٰ أحبار اليهود الذين كانوا يسكنونها فقال: إنّي مخرب هذا البلد حتىٰ لا تقوم به يهودية، ويرجع الأمر إلىٰ دين العرب.

فقال له شامول اليهودي ـ وهو يومئذ أعلمهم ـ أيها الملك إنّ هذا بلد يكون إليه مهاجر نبي من بني إسماعيل، مولده بمكّة اسمه أحمد. ثمّ ذكروا له بعض شمائل نبيّ الإسلام ﷺ فقال تبّع ـ وكأنّه كان عالماً بالأمر ـ: ما إلىٰ هذا البلد من سبيل، وما كان ليكون خرابها علىٰ يدي.

بل ورد في رواية في ذيل تلك القصة أنّه قال لمن كان معه من الأوس والخزرج: أقيموا بهذا البلد، فإن خرج النّبي الموعود فآزروه وانصروه، وأوصوا بذلك أولادكم، حتىٰ أنّه كتب رسالة أودعهم إياها ذكر فيها إيمانه بالرّسول الأعظم ﷺ.

تبّع في مكة

ويروي صاحب أعلام القرآن أنّ تبّعاً كان أحد ملوك اليمن الذين فتحوا العالم، فقد سار بجيشه إلىٰ الهند واستولىٰ علىٰ بلدان تلك المنطقة. وقاد جيشاً إلىٰ مكّة، وكان يريد هدم الكعبة، فأصابه مرض عضال عجز الأطباء عن علاجه.

وكان من بين حاشيته جمع من العلماء، كان رئيسهم حكيماً يدعىٰ شامول، فقال له: إنّ مرضك بسبب سوء نيتك في شأن الكعبة، وستشفىٰ إذا صرفت ذهنك عن هذه الفكرة واستغفرت، فرجع تبع عما أراد ونذر أن يحترم الكعبة، فلما تحسن حاله كسا الكعبة ببرد يماني.

وقد وردت قصّة كسوة الكعبة في تواريخ أُخرىٰ حتىٰ بلغت حد التواتر. وكان تحرك الجيش هذا، ومسألة كسوة الكعبة في القرن الخامس الميلادي، ويوجد اليوم في مكّة مكان

يسمىٰ «دار التبابعة».

وعلىٰ أية حال، فإنّ القسم الأعظم من تأريخ ملوك التبابعة في اليمن لا يخلو من الغموض من الناحية التاريخية، حيث لا نعلم كثيراً عن عددهم، ومدّة حكومتهم، وربّما نواجه في هذا الباب روايات متناقضة، وأكثر ما ورد في الكتب الإسلامية ـ سواء كتب التّفسير أو التأريخ أو الحديث ـ يتعلق بذلك الملك الذي أشار إليه القرآن في موضعين.

اصحاب القرية

قصّة رسل أنطاكية

(أنطاكية) واحدة من أقدم مدن الشام التي بنيت ـ على قول البعض ـ بحدود ثلاثمائة سنة قبل الميلاد. وكانت تعدّ من أكبر ثلاث مدن رومية في ذلك الزمان من حيث الثروة والعلم والتجارة.

تبعد (أنطاكية) مائة كيلومتر عن مدينة حلب، وستّين كيلومتراً عن الإسكندرية.

فتحت من قبل (أبي عبيدة الجراح) في زمن الخليفة الثاني، وقبل أهلها دفع الجزية والبقاء على ديانتهم.

احتلّها الفرنسيون بعد الحرب العالمية الأُولى، وحينما أراد الفرنسيون ترك الشام ألحقوها بالأراضي التركية خوفاً على أهالي أنطاكية من أن يمسّهم سوء بعد خروجهم لأنّهم نصارى مثلهم.

(أنطاكية) تعتبر بالنسبة إلى النصارى كالمدينة المنورة للمسلمين، المدينة الثانية في الأهمية بعد بيت المقدس، التي ابتدأ المسيح عليه السلام منها دعوته، ثمّ هاجر بعض من آمن بالمسيح عليه السلام ـ بولس وبرنابا ـ إلى أنطاكية ودعوا الناس هناك إلى المسيحية، وبذا إنتشرت المسيحية هناك.

أوّلاً يقول القرآن الكريم في بيان قصّة هؤلاء القوم: **﴿واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون﴾**.

بعد ذلك العرض الإجمالي العام، ينتقل القرآن إلى تفصيل الأحداث التي جرت فيقول:

﴿إذ أرسلنا إليهم إثنين فكذّبوهما فعزّزنا بثالث فقالوا إنّا إليكم مرسلون﴾.

أمّا من هم هؤلاء الرسل؟ هناك أخذ وردّ بين المفسّرين، بعضهم قال: إنّ أسماء الإثنين «شمعون» و «يوحنا» والثالث «بولس»، وبعضهم ذكر أسماء أُخرى لهم.

وكذلك هناك أخذ ورد في أنّهم رسل الله تعالى، أم أنّهم رسل المسيح عليه السلام (ولا منافاة مع قوله تعالى: ﴿إذ أرسلنا﴾ إذ أنّ رسل المسيح رسله تعالى أيضاً)، مع أنّ ظاهر القرآن ينسجم معه التّفسير الأوّل، وإن كان لا فرق بالنسبة إلى النتيجة التي يريد أن يخلص إليها القرآن الكريم.

الآن لننظر ماذا كان ردّ فعل هؤلاء القوم الضالّين قبال دعوة الرسل، القرآن الكريم يقول: إنّهم تعلّلوا بنفس الأعذار الواهية التي يتذرّع بها الكثير من الكفّار دائماً في مواجهة الأنبياء ﴿قالوا ما أنتم إلّا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شيء إن أنتم إلّا تكذبون﴾.

فإذا كان مقرّراً أن يأتي رسول من قبل الله سبحانه، فيجب أن يكون ملكاً مقرّباً وليس إنساناً مثلنا. هذه هي الذريعة التي تذرّعوا بها لتكذيب الرسل وإنكار نزول التشريعات الإلهية، والمحتمل أنّهم يعلمون بأنّ جميع الأنبياء على مدى التاريخ كانوا من نسل آدم، من جملتهم إبراهيم الخليل عليه السلام، الذي عرف برسالته، ومن المسلّم أنّه كان إنساناً، وناهيك عن أنّه هل يمكن لغير الإنسان أن يدرك حاجات الإنسان ومشكلاته وآلامه؟[1]

على كلّ حال، فإنّ هؤلاء الأنبياء لم ييأسوا جرّاء مخالفة هؤلاء القوم الضالّين ولم يضعفوا، وفي جوابهم ﴿قالوا ربّنا يعلم إنّا إليكم لمرسلون﴾ ومسؤوليتنا إبلاغ الرسالة الإلهية بشكل واضح وبيّن فحسب.

﴿وما علينا إلّا البلاغ المبين﴾[2].

من المسلّم به أنّهم لم يكتفوا بمجرّد الإدّعاء، أو القسم بأنّهم من قبل الله، بل إنّ ممّا يستفاد من تعبير «البلاغ المبين» إجمالاً أنّهم أظهروا دلائل ومعاجز تشير إلى صدق ادّعائهم، وإلّا فلا مصداقية (للبلاغ المبين)، إذ أنّ البلاغ المبين يجب أن يكون بطريقة تجعل من الميسّر

---

١ ـ وثمّ لماذا أكّدت الآية أيضاً على صفة «الرحمانية» لله؟ يُحتمل أن يكونوا قد أكّدوا على وصف الرحمانية لله ليقولوا بذلك أنّ الله الرحمن العطوف لا يثير المشاكل لعباده بإرسال الرسل والأنبياء، بل إنّه يتركهم وشأنهم! وهذا المنطق الخاوي المتهاوي يتناسب مع مستوى تفكير هذه الفئة الضالّة.

٢ ـ يس، ١٧ ـ ١٣.

للجميع أن يدركوا مراده، وذلك لا يمكن تحقّقه إلّا من خلال بعض الدلائل والمعجزات الواضحة.

وقد ورد في بعض الرّوايات أيضاً أنّ هؤلاء الرسل كانت لهم القدرة على شفاء بعض المرضى المستعصي علاجهم ـ بإذن الله ـ كما كان لعيسى عليه السلام.

لنرجمنّكم

إنّ الوثنيين لم يسلموا أمام ذلك المنطق الواضح وتلك المعجزات، بل إنّهم زادوا من عنفهم في المواجهة، وإنتقلوا من مرحلة التكذيب إلى مرحلة التهديد والتعامل الشديد ﴿**قالوا إنّا تطيّرنا بكم**﴾.

ويحتمل حدوث بعض الوقائع السلبية لهؤلاء القوم في نفس الفترة التي بعث فيها هؤلاء الأنبياء، وكانت إمّا نتيجة معاصي هؤلاء القوم، أو كإنذارات إلهية لهم، فكما نقل بعض المفسّرين فقد توقّف نزول المطر عليهم لمدّة، ولكنّهم لم يعتبروا من ذلك، بل إنّهم اعتبروا تلك الحوادث مرتبطة ببعثة هؤلاء الرسل. ولم يكتفوا بذلك، بل إنّهم أظهروا سوء نواياهم من خلال التهديد الصريح والعلني، وقالوا: ﴿**لئن لم تنتهوا لنرجمنّكم وليمسنّكم منّا عذاب أليم**﴾.

هنا ردّ الرسل الإلهيون بمنطقهم العالي على هذيان هؤلاء: ﴿**قالوا طائركم معكم أئن ذكّرتم**﴾.

فإذا أصابكم سوء الحظّ وحوادث الشؤم، ورحلت بركات الله عنكم، فإنّ سبب ذلك في أعماق أرواحكم، وفي أفكاركم المنحطّة وأعمالكم القبيحة المشؤومة، وليس في دعوتنا، فها أنتم ملأتم دنياكم بعبادة الأصنام وأتباع الهوى والشهوات، وقطعتم عنكم بركات الله سبحانه وتعالى.

وفي الختام قال الرسل لهؤلاء ﴿**بل أنتم قوم مسرفون**﴾[1].

فإنّ مشكلتكم هي الإسراف والتجاوز، فإذا أنكرتم التوحيد وأشركتم فسبب ذلك هو الإسراف وتجاوز الحقّ، وإذا أصاب مجتمعكم المصير المشؤوم فبسبب ذلك الإسراف في

---

١ ـ يس، ١٩ ـ ١٨.

المعاصي والتلوّث بالشهوات، وأخيراً ففي قبال الرغبة في العمل الصالح تهدّدون الهادفين إلى الخير بالموت، وهذا أيضاً بسبب التجاوز والإسراف.

المجاهدون الذين حملوا أرواحهم على الأكف!

يشير القرآن إلى جانب آخر من جهاد الرسل الذي وردت الإشارة إليه في هذه القصّة. والإشارة تتعلّق بالدفاع المدروس للمؤمنين القلائل وبشجاعتهم في قبال الأكثرية الكافرة المشركة .. وكيف وقفوا حتّى الرمق الأخير متصدّين للدفاع عن الرسل.

﴿وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى قال ياقوم اتّبعوا المرسلين﴾.

هذا الرجل الذي يذكر أغلب المفسّرين أنّ اسمه «**حبيب النجّار**» هو من الأشخاص الذين قُيّض لهم الإستماع إلى هؤلاء الرسل والإيمان وأدركوا بحقّانية دعوتهم ودقّة تعليماتهم، وكان مؤمناً ثابت القدم في إيمانه، وحينما بلغه بأنّ مركز المدينة مضطرب ويحتمل أن يقوم الناس بقتل هؤلاء الأنبياء، أسرع وأوصل نفسه إلى مركز المدينة ودافع عن الحقّ بما إستطاع. بل إنّه لم يدّخر وسعاً في ذلك.

التعبير بـ«رجل» بصورة النكرة يحتمل انّه إشارة إلى أنّه كان فرداً عادياً، ليس له قدرة أو إمكانية متميّزة في المجتمع، وسلك طريقه فرداً وحيداً. وكيف أنّه في نفس الوقت دخل المعركة بين الكفر والإيمان مدافعاً عن الحقّ.

التعبير بـ«أقصى المدينة» يدلّل على أنّ دعوة هؤلاء الأنبياء وصلت إلى النقاط البعيدة من المدينة، وأثّرت على القلوب المهيّأة للإيمان، ناهيك عن أنّ أطراف المدن عادةً تكون مراكز للمستضعفين المستعدين أكثر من غيرهم لقبول الحقّ والتصديق به، على عكس ساكني مراكز المدن الذين يعيشون حياة مرفّهة تجعل من الصعب قبولهم لدعوة الحقّ.

والآن لننظر إلى هذا الرجل المجاهد، بأي منطق وبأي دليل خاطب أهل مدينته؟

فقد أشار أوّلاً إلى هذه القضيّة **﴿اتّبعوا من لا يسألكم أجراً﴾**. فتلك القضيّة بحدّ ذاتها الدليل الأوّل على صدق هؤلاء الرسل، فهم لا يكسبون من دعوتهم تلك أيّة منفعة ماديّة شخصية، ولا يريدون منكم مالاً ولا جاهاً ولا مقاماً، وحتّى أنّهم لا يريدون منكم أن تشكروهم. والخلاصة: لا يريدون منكم أجراً ولا أي شيء آخر. ثمّ يضيف: إنّ هؤلاء الرسل كما يظهر من محتوى دعوتهم وكلامهم انّهم أشخاص مهتدون: **﴿وهم مهتدون﴾**.

ثمّ ينتقل إلى ذكر دليل آخر على التوحيد الذي يعتبر عماد دعوة هؤلاء الرسل، فيقول: ﴿**وما لي لا أعبد الذي فطرني**﴾.

فإنّ من هو أهل لأن يعبد هو الخالق والمالك والوهّاب، وليس الأصنام التي لا تُضرّ ولا تنفع، الفطرة السليمة تقول: يجب أن تعبدوا الخالق لا تلك المخلوقات التافهة.

وبعد ذلك ينبّه إلى أنّ المرجع والمآل إلى الله سبحانه فيقول: ﴿**وإليه ترجعون**﴾.

وفي ثالث إستدلال له ينتقل إلى الحديث عن الأصنام وإثبات العبودية لله بنفي العبودية للأصنام، فيكمل قائلاً: ﴿**أأتّخذ من دونه آلهةً إن يُردن الرحمن بضرٍّ لا تغن عنّي شفاعتهم شيئاً ولا ينقذون**﴾.

ثمّ يقول ذلك المؤمن المجاهد للتأكيد والتوضيح أكثر: إنّي حين أعبد هذه الأصنام وأجعلها شريكاً لله فإنّي سأكون في ضلال بعيد: ﴿**إنّي إذاً لفي ضلال مبين**﴾ فأي ضلال أوضح من أن يجعل الإنسان العاقل تلك الموجودات الجامدة جنباً إلى جنب خالق السموات والأرض!!

وعندما انتهى هذا المؤمن المجاهد المبارز من إستعراض تلك الإستدلالات والتبليغات المؤثّرة أعلن لجميع الحاضرين ﴿**إنّي آمنت بربّكم فاسمعون**﴾ [1].

موقف النّاس من المؤمن المضحي

لكن لننظر ماذا كان ردّ فعل هؤلاء القوم إزاء ذلك المؤمن الطاهر؟

القرآن لا يصرّح بشيء حول ذلك، ولكن يستفاد من طريقة الآيات التالية بأنّهم ثاروا عليه وقتلوه.

نعم فإنّ حديثه المثير والباعث على الحماس والمليء بالإستدلالات القوّية الدامغة، واللفتات الخاصّة والنافذة إلى القلب، ليس لم يكن لها الأثر الإيجابي في تلك القلوب السوداء المليئة بالمكر والغرور فحسب، بل إنّها على العكس أثارت فيها الحقد والبغضاء وسعرت فيها نار العداوة، بحيث أنّهم نهضوا إلى ذلك الرجل الشجاع وقتلوه بمنتهى القسوة والغلظة. وقيل انّهم رموه بالحجارة، وهو يقول: اللهمّ اهدِ قومي، حتّى قتلوه.

---

١ ـ يس، ٢٤ ـ ٢٠.

وفي رواية أُخرى أنّهم وطؤوه بأرجلهم حتّى مات.

ولقد أوضح القرآن الكريم هذه الحقيقة بعبارة جميلة مختصرة هي **﴿قيل ادخل الجنّة﴾** وهذا التعبير ورد في خصوص شهداء طريق الحقّ في آيات أُخرى من القرآن الكريم **﴿ولا تحسبنّ الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربّهم يرزقون﴾** [1].

والجدير بالذكر والملاحظة أنّ هذا التعبير يدلّل على أنّ دخوله الجنّة كان مقترناً باستشهاده شهادة هذا الرجل المؤمن، بحيث أنّ الفاصلة بين الإثنين قليلة إلى درجة أنّ القرآن المجيد بتعبيره اللطيف ذكر دخوله الجنّة بدلاً عن شهادته، فما أقرب طريق الشهداء إلى السعادة الدائمة!!

على كلّ حال فإنّ روح ذلك المؤمن الطاهرة، عرجت إلى السماء إلى جوار رحمة الله وفي نعيم الجنان، وهناك لم تكن له سوى أُمنية واحدة **﴿قال ياليت قومي يعلمون﴾**.

ياليت قومي يعلمون بأي شيء **﴿بما غفر لي ربّي وجعلني من المكرمين﴾** [2].

في حديث عن الرّسول ﷺ فيما يخصّ هذا المؤمن «**إنّه نصح لهم في حياته وبعد موته**».

وعلى كلّ حال، فقد كان هذا مآل ذلك الرجل المؤمن المجاهد الصادق الذي أدّى رسالته ولم يقصّر في حماية الرسل الإلهيين، وارتشف في النهاية كأس الشهادة، وقَفل راجعاً إلى جوار رحمة ربّه الكريم.

نهاية عمل انبياء ثلاثة

مع أنّ القرآن الكريم لم يورد شيئاً في ما انتهى إليه عمل هؤلاء الثلاثة من الرسل الذين بعثوا إلى هؤلاء القوم، لكن جمعاً من المفسّرين ذكروا أنّ هؤلاء قتلوا الرسل أيضاً إضافةً إلى قتلهم ذلك الرجل المؤمن، وفي حال أنّ البعض الآخر يصرّح بأنّ هذا الرجل الصالح شاغل هؤلاء القوم بحديثه وبشهادته لكي يتسنّى لهؤلاء الرسل التخلّص ممّا حيك ضدّهم من المؤامرات، والإنتقال إلى مكان أكثر أمناً.

---

١ ـ آل‌عمران، ١٦٩.

٢ ـ يس، ٢٧ ـ ٢٦.

عاقبة القوم الظالمين

رأينا كيف أصرّ أهالي مدينة أنطاكية على مخالفة الإلهيين، والآن لننظر ماذا كانت نتيجة عملهم؟

القرآن الكريم يقول في هذا الخصوص: ﴿**وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء وما كنّا منزلين**﴾.

فلسنا بحاجة إلى تلك الأُمور، وأساساً فانّه ليس من سنّتنا لإهلاك قوم ظالمين أن نستخدم جنود السماء، لأنّ إشارة واحدة كانت كافية للقضاء عليهم جميعاً وإرسالهم إلى ديار العدم والفناء، إشارة واحدة كانت كافية لتبديل عوامل حياتهم ومعيشتهم إلى عوامل موت وفناء، وفي لحظة خاطفة تقلب حياتهم عاليها سافلها.

ثمّ يضيف تعالى ﴿**إن كانت إلّا صيحة واحدة فإذا هم خامدون**﴾[1].

هل أنّ تلك الصيحة كانت صدى صاعقة نزلت من الغيوم على الأرض وهزّت كلّ شيء، ودمّرت كلّ العمران الموجود، وجعلت القوم من شدّة الخوف والوحشة يستسلمون للموت؟

أو أنّها كانت صيحة ناتجة عن زلزلة خرجت من قلب الأرض فضجّت في الفضاء بحيث أنّ موج إنفجارها أهلك الجميع.

أيّاً كانت فإنّها لم تكن سوى صيحة لم تتجاوز اللحظة الخاطفة في وقوعها، صيحة أسكتت جميع الصيحات، هزّة أوقفت كلّ شيء عن التحرّك، وهكذا هي قدرة الله سبحانه وتعالى، وهكذا هو مصير قوم ضالّين لا نفع فيهم.

قصّة رسل انطاكيّة في تفسير مجمع البيان

«الطبرسي» ـ أعلى الله مقامه ـ في تفسير مجمع البيان يقول: قالوا بعث عيسى رسولين من الحواريين إلى مدينة أنطاكية، فلمّا قربا من المدينة رأيا شيخاً يرعى غنيمات له وهو (حبيب) صاحب (يس) فسلّما عليه.

فقال الشيخ لهما: من أنتما؟

---

١ ـ يس، ٢٩ ـ ٢٨.

قالا: رسولا عيسى، ندعوكم من عبادة الأوثان إلى عبادة الرحمن.

فقال: أمعكما آية؟

قالا: نعم، نحن نشفي المريض ونبرىء الأكمه والأبرص بإذن الله.

فقال الشيخ: إنّ لي إبناً مريضاً صاحب فراش منذ سنين.

قالا: فانطلق بنا إلى منزلك نتطلّع حاله، فذهب بهما فمسحا إبنه فقام في الوقت بإذن الله صحيحاً، ففشا الخبر في المدينة وشفى الله على أيديهما كثيراً من المرضى.

وكان لهم ملك يعبد الأصنام فانتهى الخبر إليه، فدعاهما فقال لهما: من أنتما؟

قالا: رسولا عيسى، جئنا ندعوك من عبادة ما لا يسمع ولا يبصر إلى عبادة من يسمع ويبصر.

فقال الملك: ولنا إله سوى آلهتنا؟

قالا: نعم، من أوجدك وآلهتك.

قال: قُوما حتّى أنظر في أمركما، فأخذهما الناس في السوق وضربوهما.

وروي أنّ عيسى عليه السلام بعث هذين الرّسولين إلى أنطاكية فأتياها ولم يصلا إلى ملكها، وطالت مدّة مقامهما فخرج الملك ذات يوم فكبّرا وذكرا الله فغضب الملك وأمر بحبسهما، وجلد كلّ واحد منهما مائة جلدة، فلمّا كذب الرسولان وضربا، بعث عيسى (شمعون الصفا) رأس الحواريين على أثرهما لينصرهما، فدخل شمعون البلدة متنكّراً فجعل يعاشر حاشية الملك حتّى أنسوا به فرفعوا خبره إلى الملك فدعاه ورضي عشرته وأنس به وأكرمه، ثمّ قال له ذات يوم: أيّها الملك بلغني أنّك حبست رجلين في السجن وضربتهما حين دعواك إلى غير دينك فهل سمعت قولهما. قال الملك حال الغضب بيني وبين ذلك. قال: فإن رأى الملك دعاهما حتّى نتطلّع ما عندهما فدعاهما الملك.

فقال لهما شمعون: من أرسلكما إلى هاهنا.

قالا: الله الذي خلق كلّ شيء لا شريك له.

قال: وما آيتكما.

قالا: ما تتمنّاه.

فأمر الملك أن يأتوا بغلام مطموس العينين وموضع عينيه كالجبهة. فما زالا يدعوان حتّى

انشق موضع البصر، فأخذا بندقتين من الطين فوضعاها في حدقتيه فصارتا مقلتين يُبصر بهما، فتعجب الملك.

فقال شمعون للملك: أرأيت لو سألت إلهك حتّى يصنع صنيعاً مثل هذا فيكون لك ولإلهك شرفاً؟

فقال الملك: ليس لي عنك سرّ، إنّ إلهنا الذي نعبده لا يضرّ ولا ينفع.

ثمّ قال الملك للرسولين: إن قدر إلهكما على إحياء ميّت آمنّا به وبكما.

قالا: إلهنا قادر على كلّ شيء.

فقال الملك: إنّ هاهنا ميّتاً مات منذ سبعة أيّام لم ندفنه حتّى يرجع أبوه ـ وكان غائباً ـ فجاءوا بالميّت وقد تغيّر وأروح، فجعلا يدعوان ربّهما علانيةً، وجعل شمعون يدعو ربّه سرّاً، فقام الميّت وقال لهم: إنّي قد متّ منذ سبعة أيّام، وأدخلت في سبعة أودية من النار وأنا أُحذّركم ممّا أنتم فيه، فآمنوا بالله فتعجّب الملك.

فلمّا علم شمعون أنّ قوله أثّر في الملك، دعاه إلى الله فآمن وآمن من أهل مملكته قوم وكفر آخرون.

ونقل «العياشي» في تفسيره مثل هذه الرواية عن الإمام الباقر والصادق عليهما السلام مع بعض التفاوت.

ولكن بمطالعة الآيات السابقة، يبدو من المستبعد أنّ أهل تلك المدينة كانوا قد آمنوا، لأنّ القرآن الكريم يقول: ﴿**إن كانت إلّا صيحة واحدة فإذا هم خامدون**﴾. ويمكن أن يكون هناك إشتباه في الرواية من جهة الراوي.

اصحاب الرس

من هم اصحاب الرس[١،٢]؟ هناك أقوال كثيرة[٣].

نقل حديث طويل عن اميرالمؤمنين عليه السلام حول **«أصحاب الرس»** **خلاصته:** «**إنّهم كانوا قوماً يعبدون شجرة صنوبر يقال لها (شاه درخت) كان يافث بن نوح غرسها بعد الطوفان على شفير عين يقال لها (روشن آب) وكان لهم إثنتا عشرة قرية معمورة على شاطىء نهر يقال له «الرسّ»**، يسمين بأسماء: آبان، آذر، دي، بهمن أسفندار، فرودين، أُردي بهشت، خرداد، مرداد، تير، مهر، شهريور، ومنها اشتقّ العجم أسماء شهورهم.

وقد غرسوا في كل قرية منها من طلع تلك الصنوبرة حبّة. **أجروا عليها نهراً من العين التي** عند الصنوبرة، وحرّموا شرب مائها على أنفسهم وأنعامهم، ومن شرب منه قتلوه، ويقولون: إنّه حياة الآلهة فلا ينبغي لأحد أن ينقص حياتها. **وقد جعلوا في كل شهر من السنة يوماً ـ في كل** قرية، عيداً، يخرجون فيه إلى الصنوبرة التي خارج القرية يقربون إليها القرابين ويذبحون

---

١ ـ جاء ذكر هؤلاء القوم الظالمين في سورة الفرقان، الآية ٣٨.

٢ ـ كلمة «رسّ» في الأصل بمعنىٰ الأثر القليل، فيقال مثلاً **«رسّ الحديث في نفسي»** (قليل من حديثه في ذاكرتي) أو يقال: وجد رسّاً من حمىٰ» (يعني: **وجد قليلاً من الحمّىٰ في نفسه). وجماعة** من المفسّرين اعتقدوا بأن «الرسّ» بمعنىٰ البئر.

على أية حال فتسمية هؤلاء القوم بهذا الاسم، إمّا لأنّ أثراً قليلاً جداً بقي منهم، أو لأنّهم كانت لهم آبار كثيرة، أو لأنّهم هلكوا وزالوا بسبب جفاف آبارهم.

٣ ـ راجع الامثل، ج ١١، ص ٢٥٧.

الذبائح ثمّ يحرقونها في النار فيسجدون للشجرة عند ارتفاع دخانها وسطوعه في السماء ويبكون ويتضرعون، و الشيطان يكلمهم من الشجرة. وكان هذا دأبهم في القرىٰ حتىٰ إذا كان يوم عيد قريتهم العظمىٰ التي كان يسكنها ملكهم واسمها (أسفندار) اجتمع إليها أهل القرىٰ جميعاً وعيّدوا اثني عشر يوماً، وجاءوا بأكثر ما يستطيعونه من القرابين والعبادات للشجرة، وكلّمهم إبليس وهو يعدهم ويمنيهم أكثر ممّا كان من الشياطين في سائر الأعياد من سائر الشجر.

ولما طال منهم الكفر بالله وعبادة الشجرة، بعث الله إليهم رسولاً من بني إسرائيل من ولد يهودا، فدعاهم برهة إلى عبادة الله وترك الشرك، فلم يؤمنوا، فدعا على الشجرة فيبست، فلما رأوا ذلك ساءهم، فقال بعضهم: إنّ هذا الرجل سحر آلهتنا، وقال آخرون: إنّ آلهتنا غضبت علينا بذلك لما رأت هذا الرجل يدعونا إلى الكفر بها فتركناه وشأنه من غير أن نغضب لآلهتنا. فاجتمعت آراؤهم على قتله فحفروا بئراً عميقاً وألقوه فيها، وسدّوا فوهتها، فلم يزالوا عليها يسمعون أنينه حتىٰ مات، فأتبعهم الله بعذاب شديد أهلكهم عن آخرهم».

اصحاب الجنّة

أصحاب الجنّة الخضراء

يستعرض لنا القرآن الكريم قصّة أصحاب الجنّة كنموذج لذوي المال الذين غرقوا في أنانيتهم، فأصابهم الغرور، وتخلّوا عن القيم الإنسانية الخيّرة، وأعماهم حبّ المال عن كثير من الفضائل .. فالقرآن الكريم يذكر لنا قصّة مجموعة من الأغنياء كانت لهم جنّة (بستان مثمر) إلّا أنّهم فقدوها فجأة، وذلك لعتوّهم وغرورهم وكبرهم على فقراء زمانهم.

ويبدو أنّها قصّة معروفة في ذلك الزمان بين الناس، ولهذا السبب استشهد بها القرآن الكريم.

لقد تعدّدت الرّوايات في مكان هذه الجنّة، فقيل: إنّها في أرض اليمن بالقرب من صنعاء، وقيل: هي في الحبشة، وهناك قول بأنّها في أرض الشام، وذهب آخرون إلى أنّها في الطائف .. إلّا أنّ المشهور أنّها كانت في أرض اليمن.

وموضوع القصّة هو: أنّ شيخاً مؤمناً طاعناً في السنّ كان له بستان عامر، يأخذ من ثمره كفايته ويوزّع ما فضل من ثمرته للفقراء والمعوزين، وقد ورثه أولاده بعد وفاته، وقالوا: نحن أحقّ بحصاد ثمار هذا البستان، لأنّ لنا عيالاً وأولاداً كثيرين، ولا طاقة لنا بإتّباع نفس الأُسلوب الذي كان أبونا عليه .. ولهذا فقد صمّموا على أن يستأثروا بثمار البستان جميعاً، ويحرموا المحتاجين من أي عطاء منها، فكانت عاقبتهم كما يحدّثنا القرآن الكريم عنه ..

يقول تعالى: ﴿**إنّا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنّة إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين**﴾.

﴿**ولا يستثنون**﴾ أي لا يتركون منها شيئاً للمحتاجين.

وعند التدقيق في قرارهم هذا يتّضح لنا أنّ تصميمهم هذا لم يكن بلحاظ الحاجة أو الفاقة، بل إنّه ناشىء عن البخل وضعف الإيمان، واهتزاز الثقة بالله سبحانه، لأنّ الإنسان مهما اشتدّت حاجته، فإنّه يستطيع أن يترك للفقراء شيئاً ممّا أعطاه الله.

ثمّ يضيف تعالى استمراراً لهذا الحديث: **﴿فطاف عليهم طائف من ربّك وهم نائمون﴾**.

لقد سلّط الله عليها ناراً حارقة، وصاعقة مهلكة، بحيث أنّ جنّتهم صارت متفحّمة سوداء **﴿فأصبحت كالصريم﴾**، ولم يبق منها شيء سوى الرماد.

إنّ البلاء السماوي الذي تمثّل بصاعقة عظيمة ـ فيما يبدو ـ أحالت البستان إلى فحم ورماد أسود، وهكذا فعل الصواعق غالباً.

وعلى كلّ حال فإنّ أصحاب البستان بقوا على تصوّرهم لأشجار جنّتهم المملوءة بالثمر، جاهزة للقطف: **﴿فتنادوا مصبحين﴾**.

وقالوا: **﴿أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين﴾**.

وعلى ضوء المقدّمات السابقة: **﴿فانطلقوا وهم يتخافتون﴾**.

لقد كانوا يتكلّمون بهدوء حتّى لا يصل صوتهم إلى الآخرين، ولا يسمعهم مسكين، ويأتي لمشاركتهم في عملية جني الثمر أو تناول شيء من الفاكهة.

ويرتقب الفقراء يوم الحصاد بفارغ الصبر في مثل هذه الأيّام، لأنّهم تعوّدوا في كلّ سنة أن ينالهم شيء من الفاكهة كما كان يفعل ذلك الشيخ المؤمن، إلّا أنّ تصميم الأبناء البخلاء على حرمان الفقراء من العطاء، والسريّة التي غلفوا بها تحرّكاتهم، لم تدع أحداً يتوقّع أنّ وقت الحصاد قد حان .. حيث يطّلع الفقراء على الأمر بعد إنتهائه، وبهذا تكون النتيجة: **﴿وغدوا على حرد قادرين﴾**[1].

أصحاب البستان والمصير المؤلم

إنّ اصحاب البستان تحرّكوا في الصباح الباكر على أمل أن يقطفوا محصولهم الكثير، ويستأثروا به بعيداً عن أنظار الفقراء والمحتاجين، ولا يسمحوا لأي أحد من الفقراء بمشاركتهم في هذه النعمة الإلهية الوافرة، غافلين عن تقدير الله ... فإذا بصاعقة مهلكة تصيب

---

١ ـ القلم، ٢٥ ـ ١٧.

جنّتهم في ظلمة الليل فتحوّلها إلى رماد، في وقت كان أصحاب الجنّة يغطّون في نوم عميق.

يقول القرآن الكريم: ﴿فلمّا رأوها قالوا إنّا لضالّون﴾.

ثمّ أضافوا: ﴿بل نحن محرومون﴾ أي أردنا أن نحرم الفقراء والمحتاجين من العطاء إلّا أنّنا حرمنا أكثر من الجميع، حرمنا من الرزق المادّي، ومن البركات المعنوية التي تحصل عن طريق الإنفاق في سبيل الله للفقراء والمحتاجين.

﴿قال أوسطهم ألم أقل لكم لو لا تسبّحون﴾.

ألم أقل لكم اذكروا الله بالتعظيم وتجنّبوا مخالفته واشكروا نعمته وامنحوا المحتاجين شيئاً ممّا تفضّل الله به عليكم؟! لكنّكم لم تصغوا لما قلته لكم، وأخيراً وصلتم إلى هذه النتيجة البائسة في هذا اليوم الأسود.

ويستفاد ممّا تقدّم أنّ أحدهم كان شخصاً مؤمناً ينهاهم عن البخل والحرص، إلّا أنّهم كانوا لا يسمعون كلامه، ولقد أفصح عن رأيه بقوّة بعد هذه الحادثة، وأصبح منطقه أكثر حدة وقاطعية. وقد وبّخهم كثيراً على موقفهم من الفقراء، ووجّه لهم ملامة عنفية.

وتستيقظ ضمائرهم في تلك اللحظة ويعترفون بخطئهم وذنوبهم و ﴿قالوا سبحان ربّنا إنّا كنّا ظالمين﴾.

إلّا أنّ المسألة لم تنته إلى هذا الحدّ، حيث يقول تعالى: ﴿فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون﴾.

ومن المحتمل أنّ كلّ واحد منهم في الوقت الذي يعترف بذنبه، فإنّه يلقي بأصل الذنب على عاتق الآخر، ويوبّخه بشدّة، وأنّه كان السبب الأساس فيما وصلوا إليه من نتيجة بائسة مؤلمة، وكلّ منهم ـ أيضاً ـ يؤكّد أنّه لم يكن غريباً عن الله والعدالة إلى هذا الحدّ.

ثمّ يضيف تعالى: ﴿قالوا ياويلنا إنّا كنّا طاغين﴾.

وأخيراً ـ بعد عودة الوعي إلى ضمائرهم وشعورهم. بل وإعترافهم بالذنب والإنابة إلى الله ـ توجّهوا إلى الباريء عزّوجلّ داعين، وقالوا: ﴿عسى ربّنا أن يبدلنا خيراً منها إنّا إلى ربّنا راغبون﴾ فقد توجّهنا إليه ونريد منه انقاذنا ممّا تورّطنا فيه ..

والسؤال المطروح هنا: هل أنّ هؤلاء ندموا على العمل الذي أقدموا عليه، وقرّروا إعادة النظر في برامجهم المستقبلية، وإذا شملتهم النعمة الإلهية مستقبلاً فسيؤدّون حقّ شكرها؟ أم أنّهم وبّخوا أنفسهم وكثر اللوم بينهم بصورة موقتة، شأنهم شأن الكثير من الظالمين الذين يشتدّ

ندمهم وقت حلول العذاب، وما إن يزول الضرّ الذي حاقّ بهم إلّا ونراهم يعودون إلى ما كانوا عليه سابقاً من ممارسات مريضة؟

اختلف في ذلك، والمستفاد من سياق الآية اللاحقة أنّ توبتهم لم تـقبل، بـلحاظ عـدم إكتمال شروطها وشرائطها، ولكن يستفاد من بعض الرّوايات قبول توبتهم، لأنّها كانت عن نيّة خالصة، وعوضهم عن جنّتهم بأُخرى أفضل منها، مليئة بأشجار العنب المثمرة.

ويقول تعالى في آخر آية من هذه الآيات، بلحاظ الإستفادة من هذا الدرس والإعتبار به: ﴿كذلك العذاب ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون﴾[1].

---

١ ـ القلم، ٣٣ ـ ٢٦.

قوم سبأ

المصير المذهل لقوم سبأ!!

إنّ «قوم سبأ» كانوا يقطنون جنوب الجزيرة، وكانت لهم حكومة راقية، وحضارة خلّابة.

ورغم أنّ أرض (اليمن) كانت واسعة وصالحة للزراعة، إلّا أنّه من إستغلالها لعدم وجود نهر مهمّ في تلك المنطقة، كما أنّ مياه الأمطار ـ التي كانت تهطل بغزارة على قمم الجبال كانت تذهب هدراً في هضاب وصحاري تلك المنطقة. ولكن أهل تلك المنطقة الأذكياء فكّروا في كيفية الإستفادة من تلك المياه المهدورة، فبنوا لهذا الغرض عدداً من السدود في النقاط الحسّاسة كان أهمّها وأكثرها مخزوناً «سدّ مأرب».

«مأرب» بلدة صغيرة تقع عند إنتهاء إحدى ممرّات السيول تلك، وكانت تمرّ سيول جبال «صراة» العظيمة من جنبها، وفي فم هذا المضيق وبين جبلي «بلق» بنوا سدّاً عظيماً قوياً، وأوجدوا فيه منافذ كثيرة للماء، وقد إستطاع هذا السدّ خزن كميّات هائلة من الماء خلفه إلى درجة أنّهم إستطاعوا ـ بالإستفادة من ذخيرته ـ إحداث جنّات جميلة جدّاً، وبساتين مملوءة بالبركة على طرفي النهر الوارد إبتداءً من مصبّ السدّ.

إنّ القرى المأهولة في تلك الأرض كانت شبه متّصلة ببعضها، بحيث أنّ ظلال الأشجار كانت تتواصل مع بعضها البعض، وكانت الأشجار محمّلة بكميّات كبيرة من الثمار حتّى أنّ من يمرّ تحتها بسلّته الخالية يخرج بعد مدّةٍ قصيرة بسلّة ممتلئة تلقائياً، وفور النعمة ـ ممزوجاً بالأمان ـ هيّأ محيطاً مرفّهاً لحياة طاهرة، محيطاً نموذجياً لطاعة الله، والتكامل المعنوي، ولكنّهم لم يقدّروا النعمة حقّ قدرها، فنسوا الله، وجحدوا النعمة، وانشغلوا بالتفاخر والعناوين والمستوى الإجتماعي.

الجرذان الصحراوية، بعيداً عن مرأى هؤلاء المغرورين السكارى، كانت تتّخذ لها جحوراً في ذلك السدّ الترابي، وتنخره من الداخل، وفجأةً هطلت أمطار غزيرة وتـجمّعت لتشكّـل سيولاً عظيمة، تراكمت خلف ذلك السدّ الذي لم يعدّ حينها مؤهّلاً لتحمّل الضغط الشديد من تلك الكمّيات الهائلة، وما هي إلّا لحظة حتّى إنهار هذا السدّ ليضع النهاية لتلك الحياة الزاهية، ودمّر القرى المعمورة، الجنان، المزارع، المحاصيل، قضى على الحيوانـات، هـدّم القـصور والبيوت الجميلة الجذّابة، وتحوّلت تلك الأرض الحيّة إلى صحراء جافّة لا ماء فيها ولا كلأ، ولم يبق من تلك الجنان والأشجار المثمرة إلّا شجر (الأراك) المرّ، و (شجر المنّ) وقليل من (السدر)، وهاجرت الطيور المغردة ليحلّ محلّها البوم والغربان ....

نعم، حينما يريد الله سبحانه وتعالى إظهار قدرته، فإنّه يدمّر مدينة راقية بعدد من الفئران حتّى يتّضح للعباد مدى ضعفهم ولا يغترّوا بقدرتهم مهما بلغت.

«سبأ» اسم من؟ وما هي؟. الموضوع مورد أخذ وردّ بين المؤرّخين، ولكن المشهور هو أنّ «سبأ» اسم «أبي العرب» في اليمن، وطبقاً للرواية الواردة عن رسول الله صلى الله عليه وآله هو رجل مـن العرب ولد له عشرة. فالمراد بسبأ هاهنا القبيلة الذين هم أولاد سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان». [١]

المدينة الراقية التي أضاعها الكفران

عرض القرآن المجيد تأريخ «قـوم سـبأ»، وأشـار بـإختصار إلى بـعض خـصوصيات وجزئيات حياتهم.

يقول تعالى: ﴿لقد كان لسبأ في مسكنهم آية﴾.

---

١ ـ وبعضهم ذهب إلى أنّ «سبأ» اسم لأرض اليمن أو لإحدى مناطقها. وظاهر آيات القـرآن فـي قصّة سليمان عليه السلام و (الهدهد) أشارت إلى هذا المعنى أيضاً ففي الآية (٢٢) من سورة النمل، يقول تعالى على لسان الهدهد: ﴿وجئتك من سبأ بنبإٍ يقين﴾ يعني لقد جئتك من أرض سبأ بنبأ يقين.

في حال أنّ ظاهر الآية مورد البحث هو أنّ «سبأ» كانوا «قوماً» عاشوا في تلك المنطقة، بلحاظ أنّ ضمير «هم» في «مساكنهم» يعود عليهم.

ولا منافاة بين التّفسيرين لأنّ من الممكن أن يكون «سبأ» اسم شخص ابتداءً، ثمّ بعدئذٍ سمّي كلّ أولاده وقومه من بعده باسمه، ثمّ إنتقل الاسم ليشمل مكان سكناهم.

وكما قلنا فإنّ عظمة هذه الآية تنبع من أنّهم بالإستفادة من خصوصيات موقعهم وطريقة إحاطة الجبال بمنطقة سكناهم وبالذكاء العالي الذي وهبهم الله، إستطاعوا حصر مياه السيول ـ التي لا تخلف وراءها إلّا الدمار ـ خلف سدٍّ عظيم، وبذا عمّروا دولة رفيعة التمدّن، فكانت آية عظيمة أن يتحوّل سبب الخراب والدمار إلى عامل رئيسي من عوامل العمران والتمدّن!!

ينتقل القرآن بعد ذلك لتجلّي الموقف عن تلك الموهبة الإلهية التي وضعت بين يدي قوم سبأ. فيقول تعالى: ﴿جنّتان عن يمينٍ وشمال﴾.

إنّ هاتين المزرعتين لم تكونا عاديتين، بل إنّهما عبارة عن سلسلة من رياض المترابطة بعضها مع بعض والممتدة على جانبي نهر عظيم يتغذّى من ذلك السدّ العظيم.

أليس من العجيب إذاً أن يتحوّل سبب الخراب والدمار إلى سبب رئيسي للعمران بذلك الشكل المدهش؟ ثمّ ألا يعدّ ذلك من عجائب آيات الله سبحانه وتعالى؟

هذا من جهة العمران، ولكن العمران وحده لا يكفي، بل إنّ شرطه الأساسي هو «الأمان»، ولذلك أضاف ﴿وقدّرنا فيها السير﴾ أي جعلنا بينها فواصل معتدلة. ﴿سيروا فيها ليالي وأيّاماً آمنين﴾.

وبهذا فإنّ الفواصل والمسافات بين القرى كانت متناسقة محسوبة، وكذلك فإنّها طرق محفوظة من حملات الضواري أو السرّاق أو قطّاع الطرق. بحيث أنّ الناس كانوا يسافرون خلال هذه الطرق. بلا زاد أو دواب وبلا إستفادة من الحراس المسلّحين، ولم يكونوا يخافون من حوادث الطريق أو قلّة الماء والزاد لديهم.

ثمّ يضيف القرآن: ﴿كلوا من رزق ربّكم واشكروا له بلدةً طيّبة وربّ غفور﴾.

هذه الجملة القصيرة تصوّر مجموعة النعم المادية والمعنوية بأجمل تعابير، فبلحاظ النعم المادية أرض طيّبة خالية من الأمراض المختلفة، من السراق والظلمة، من الآفات والبلايا، من الجفاف والقحط، من الخوف والوحشة، وقيل خالية حتّى من الحشرات المؤذية.

هواء نقي، ونسيم يبعث على السرور، أرض معطاءة وأشجار وافرة الثمر.

وأمّا بلحاظ النعم المعنوية فمغفرة الله التي شملتهم، والتغاضي عن تقصيرهم، وصرف البلاء والعذاب عنهم وعن بلدتهم.

ولكن هؤلاء الجاحدين غير الشكورين. لم يقدّروا تلك النعمة حقّ قدرها. ولم يخرجوا من بوتقة الإمتحان بسلام، سلكوا طريق الإعراض والكفران، فقرّعهم الله أيّما تقريع!!

قال تعالى: ﴿فاعرضوا﴾ استهانوا بنعمة الله، توهّموا بأنّ العمران والمدنية والأمن أشياء عادية، نسوا الله، وأسكرتهم النعمة، وتفاخر الأغنياء على الفقراء، وظنّوا أنّهم يزاحمونهم في أرزاقهم.

وهنا مسّهم سوط الجزاء، يقول تعالى: ﴿فأرسلنا عليهم سيل العرم﴾ فدمّر بيوتهم ومزارعهم وحوّلها إلى خرائب ..

بعدئذٍ يصف القرآن الكريم عاقبة هذه الأرض كما يلي: ﴿وبدلّناهم بجنتيهم جنّتين ذواتي أُكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل﴾ [١].

وبذا يكون قد نبت محلّ تلك الأشجار الخضراء المثمرة، أشجار صحراوية غليظة ليست ذات قيمة، والتي قد يكون «السدر» أهمّها، وهذا أيضاً كان نادراً بينها. ولك ـ أيّها القارىء ـ أن تتخيّل أي بلاء حلّ بهؤلاء وبأرضهم؟!

ولعلّ ذكر هذه الأنواع الثلاثة من الأشجار التي بقيت في تلك الأرض المدمّرة إشارة إلى ثلاثة أُمور: أحدها قبيح المنظر، والثّاني لا نفع فيه، والثالث له منفعة قليلة جدّاً.

﴿فجعلناهم أحاديث ومزّقناهم كلّ ممزّق !!﴾

ويا له من تعبير رائع، ذلك الذي أوضح به القرآن الكريم مصيرهم المؤلم، حيث يقول: إنّنا جازيناهم ودمّرنا بلادهم ومعيشتهم بحيث: ﴿فجعلناهم أحاديث﴾.

نعم فلم يبق من تلك الحياة المرفّهة، والتمدّن العريض المشرق، إلّا أخبار على الألسن، وذكريات في الخواطر، وكلمات على صفحات التاريخ ﴿ومزّقناهم كلّ ممزّقٍ﴾.

كيف دمّرنا أرضهم بحيث سلبت منهم معها قدرة البقاء فيها، وبذا أصبحوا مجبرين على أن يتفرّقوا كلّ مجموعة إلى جهة لإدامة حياتهم، ونُثروا كما تنثر أوراق الخريف التي عصفت بها الريح حتّى أضحى تفرّقهم مثلاً يضرب فقيل: «تفرّقوا أيادي سبأ».

فقد ذهبت قبيلة (غسّان) إلى الشام، و (أسد) إلى عمان، و (خزاعة) إلى جهة تهامة، و (أنمار) إلى يثرب. وفي الختام يقول تعالى: ﴿إنّ في ذلك لآيات لكلّ صبّارٍ شكور﴾ [٢].

---

١ ـ سبأ، ١٦ ـ ١٥.

٢ ـ سبأ، ١٩.

صديقان أو أخوان

القرآن الكريم يُشير إلىٰ حادثة اثنين مِن الأصدقاء أو الإِخوة الذين يُعتبر كل واحدٍ مِنهم نموذجاً لإِحدىٰ المجموعتين، ويوضحان طريقة تفكير وقول وعمل هاتين المجموعتين.

﴿واضرب لهم مثلاً رجلين جعلنا لأحدهما جنتين مِن أعناب وحففناهما بنخلٍ وجعلنا بينهما زرعاً﴾.

البستان والمزرعة كانَ فيهما كل شيء: العنب والتمر والحنطة وباقي الحبوب، لقد كانت مزرعة كاملة ومكفية مِن كل شيء: **﴿كلتا الجنتين ءَاتت أكلها ولم تظلم منهُ شيئاً﴾**.

والأهم مِن ذلك هو توفّر الماء الذي يُعتبر سر الحياة، وأمراً مهمّاً لا غنىٰ للبستان والمزرعة عنه، وقد كانَ الماء بقدرٍ كافٍ: **﴿وفجرنا خلالهما نهراً﴾**.

علىٰ هذا الأساس كانَت لصاحب البستان كل أنواع الثمار: **﴿وكانَ لهُ ثمر﴾**.

ولأنَّ الدنيا قد استهوته فقد أصيب بالغرور لضعف شخصيته ورأي أن الإِحساس العميق بالأفضلية والتعالي علىٰ الآخرين، حيث التفت وهو بهذه الحالة إلىٰ صاحبه: **﴿فقال لصاحبه وهو يُحاوره أنا أكثر منك مالاً وأعز نفراً﴾**.

بناءاً علىٰ هذا فأنا أملك قوّة إِنسانية كبيرة وعندي مالٌ وثروة، وأنا أملك ـ أيضاً ـ نفوذاً وموقعاً إِجتماعياً، أمّا أنت (والخطاب لصاحبه) فماذا تستطيع أن تقول، وهل لديك ما تتكلم عنه؟!

لقد تضخَّم هذا الإِحساس ونما تدريجياً ـ كما هو حاله ـ ووصلَ صاحب البستان إلىٰ حالة بدأ يظن معها أنَّ هذه الثروة والمال والجاه والنفوذ إِنّما هي أُمور أبديّة، فدخل بغرور إلىٰ

بستانه (في حين أنَّهُ لا يعلم بأنَّهُ يظلم نفسه) ونظر إلىٰ أشجاره الخضراء التي كادت أغصانها أن تنحني مِن شدَّة ثقل الثمر، وسمع صوت الماء الذي يجري في النهر القريب من البستان والذي كان يسقي أشجاره، وبغفلة قال: لا أظن أن يفنىٰ هذا البستان، وبتصوير القرآن الكريم: ﴿ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قالَ ما أظن أن تبيد هذه أبداً﴾.

بل عمدَ إلىٰ ما هو أكثر مِن هذا، إذ بما أنَّ الخلود في هذا العالم يتعارض مع البعث والمعاد، لذا فقد فكَّر في إنكار القيامة وقال: ﴿وما أظن الساعة قائمة﴾ وهذا كلام يعكس وهم قائلة وتمنياته!

ثمّ أضاف! حتىٰ لو فرضنا وجود القيامة فإنّي بموقعي ووجاهتي سأحصل عند ربّي ـ إذا ذهبت إليه ـ علىٰ مقام وموقع أفضل. لقد كان غارقاً في أوهامه ﴿ولئن رددت إلىٰ ربّي لأجدنَّ خيراً مِنها مُنقلباً﴾ [1].

لقد أخذ صاحب البستان ضمن الحالة النفسية التي يعيشها والتي صورها القرآن الكريم، يضيف إلىٰ نفسه في كل فترة وهماً بعد آخر مِن أمثال ما حكت عنهُ الآيات آنفاً، وعندَ هذا الحد انبرىٰ لهُ صديقه المؤمن وأجابه بكلماتٍ يشرحهما لنا القرآن الكريم.

جواب المؤمن

هذه الآيات هي ردّ علىٰ ما نسجهُ من أوهام ذلك الغني المغرور العديم الإيمان، نسمعها تجري علىٰ لسان صاحبه المؤمن.

لقد بدأ الكلام بعد أن ظلَّ صامتاً يستمع إلىٰ كلام ذلك الرجل ذي الأفق الضيق والفكر المحدود، حتىٰ ينتهي مِن كلامه، ثمّ قال له: ﴿قالَ لهُ صاحبهُ وهو يحاوره أكفرت بالذي خلقك مِن تراب ثمّ مِن نطفة ثمّ سوّاك رجلاً﴾ [2].

---

١ ـ الكهف، ٣٦ ـ ٣٢.

٢ ـ وهُنا قد يُثار هذا السؤال، وهو: إنَّ كلام ذلك الرجل المغرور المتكبر الذي مرَّ ذكره في الآيات الآنفة، لم يصرّح فيه بإنكار الحق جلَّ وعلا، في حين أنَّ جواب الإنسان المؤمن ركزَّ فيه أوّلاً علىٰ إنكاره للخالق!؟ وفي الجواب علىٰ السؤال المُثار ذكر المفسّرون تفاسير مُعتدَّدة نجملها فيما يلي:
١ ـ قالت مجموعة مِنهم: بما أنَّ هذا الرجل المغرور أنكر بصراحة المعاد والبعث أو شكَكَ فيه، فإنَّهُ يلزم من ذلك إنكار الخالق، لأنَّ مُنكر المعاد الجسماني يُنكر في الواقع قدرة الله، ولا يصدّق بأنَّ هذا

ثمّ عَمِد الرجل الموحِّد المؤمن إلىٰ تحطيم كُفر وغرور ذلك الرجل (صاحب البستان) فقال: ﴿لكنّا هو الله ربّي﴾. وإنّي أفتخر بهذا الإعتقاد وأتباهىٰ به، إنّك تفتخر بأنّك تملك بستاناً ومزرعة وفواكه وماءاً كثيراً؛ إلّا أنّني أفتخر بأنَّ الله ربّي، إنَّهُ خالقي ورازقي؛ إنّك تتباهىٰ بدنياك وأنا أفتخر بعقيدتي وإيماني وتوحيدي: ﴿ولا أشرك بربّي أحداً﴾.

وبعد أن أشار إلىٰ قضية التوحيد والشرك اللذين يُعتبران مِن أهم المسائل المصيرية، جدَّد لومه لصاحبه قائلاً: ﴿ولولا إذ دَخلت جنتك قلت ما شاء الله﴾.

فلماذا لا تعتبر كل هذه النعم مِن الخالق جلَّ وعلا، ولماذا لم تشكره عليها. ولماذا لم تقل: ﴿لا قوة إلّا بالله﴾.

فإذا كُنت قد هيَّأت الأرض وبذرت البذور وزرعت الغرس وربيت الأشجار، وفعلت كلَّ شيء في وقته المناسب حتىٰ وصل الأمر إلىٰ ما وصل إليه؛ فإنَّ كل هذه الأُمور هي مِن قدرة الخالق جلَّوعلا، وقد وَضع سبحانه وتعالىٰ الوسائل والإمكانات تحت تصرفك، حيث أنّك لا تملك شيئاً من عندك، وبدونه تكون لا شيء!

ثمّ يقول له: ليسَ مِن المهم أن أكون أقل مِنك مالاً وولداً: ﴿إن ترن أنا أقل منك مالاً وولداً﴾.

﴿فعسىٰ ربّي أن يُؤتين خيراً مِن جنتك﴾.

وليسَ فقط أن يُعطيني أفضل ممّا عندك، بل ويرسل صاعقة من السماء علىٰ بُستانك، فتصبح الأرض الخضراء أرض محروقة جرداء: ﴿ويرسل عليها حسباناً مِن السماء فتصبح صعيداً زلقاً﴾.

أو أنَّهُ سبحانه وتعالىٰ يُعطي أوامره إلىٰ الأرض كي تمنعك الماء: ﴿أو يصبح ماؤها غوراً

التُراب المتلاشي سوف تعود لهُ الحياة مرّة أُخرىٰ، لذا فإنَّ الرجل المؤمن مع ذكره للخلق الأوّل مِن تُراب، ثمّ من نطفة، ثمّ بإشارته للمراحل الأُخرىٰ ـ أراد أن يُلفت نظره إلىٰ القدرة غير المتناهية للخالق حتىٰ يعلم بأنَّ قضية المعاد يُمكن مشاهدتها هُنا وتمثّلها بأعيننا في واقع هذه الأرض.

٢ ـ وقال آخرون: إنَّ شركهُ وكفرهُ كانا بسبب ما رَآه لِنفسه مِن إستقلال في المالكية وما تصوره مِن دوام وأبدية هذه الملكية.

٣ ـ الإحتمال الثّالث أنّه لا يبعدِ أن يكون الرجل قد أنكر الخالق في بعض كلامه ولم يذكر القرآن هذا المقطع من كلامه. وقد يتوضح الأمر بقرينة جواب الرجل المؤمن.

فلن تستطيع لهُ طلباً﴾[1].

في الواقع، إنَّ الرجل المؤمن والموحِّد حذَّر صديقه المغرور أن لا يطمأن لهذه النعم، لأنَّها جميعاً في طريقها إلىٰ الزوال وهي غير قابلة للإعتماد.

إنَّهُ أراد أن يقول لصاحبه: لقد رأيت بعينيك ـ أو علىٰ الأقل سمعت بأذنك ـ كيف أنَّ الصواعق السماوية جعلت مِن البساتين والبيوت والمزروعات ـ وخلال لحظة واحدة ـ تلّاً مِن التراب والدمار وأصبحت أرضهم يابسة عديمة الماء والكلأ.

وأيضاً سمعت أو رأيت بقيام هزة أرضية تطمس الأنهار وتُجفِّف العيون، بحيث تكون غير قابلة للإصلاح والترميم.

وبمعرفتك لكل هذ الأُمور فَلِمَ هذا الغرور؟!

أنت الذي شاهدت أو سمعت كل هذا، فَلِمَ هذا الإنشداد للأرض والهوىٰ؟

ثمّ لماذا تقول: لا أعتقد أن تزول هذه النعم وأنّها باقية وخالدة؛ فلماذا هذا الجهل والبلاهة!؟

العاقبة السوداء

أخيراً إنتهىٰ الحوار بين الرجلين دون أن يُؤثر الشخص الموحِّد المؤمن في أعماق الغني المغرور، الذين رجع إلىٰ بيته وهو يعيش نفس الحالة الروحية والفكرية، وغافل أنَّ الأوامر الإلهية قد صدرت بإبادة بساتينه ومزروعاته الخضراء، وأنَّهُ وَجَبَ أن ينال جزاء غروره وشركه في هذه الدنيا، لتكون عاقبته عبرة للآخرين.

ويحتمل أنَّ العذاب الإلهي قد نزلَ في تلك اللحظة مِن الليل عِندما خيَّم الظلام، علىٰ شكل صاعقة مميتة أو عاصفة هوجاء مخيفة، أو علىٰ شكل زلزال مخرِّب ومدمِّر. وأيّاً كان فقد دُمِّرت هذه البساتين الجميلة والأشجار العالية والزرع المثمر، حيثُ أحاط العذاب الإلهي بتلك المحصولات مِن كل جانب: ﴿وأحيط بثمره﴾.

وعند الصباح جاء صاحب البستان وتدور في رأسه الأحلام العديده ليتفقد ويستفيد من محصولات البستان، ولكنَّهُ قبل أن يقترب منه واجههُ مَنظر مُدهش وموحش، بحيث أنَّ فمهُ

---

١ ـ الكهف، ٤٠ ـ ٣٧.

بقي مفتوحاً مِن شدة التعجُّب، وعيناه توقفتا عن الحركة والإستدارة.

لم يكن يعلم بأنَّ هذا المنظر يشاهده في النوم أم في اليقظة! الأشجار جميعها ساقطة علىٰ التراب، النباتات مُدَمَّرة، وليسَ ثمّة أي أثر للحياة هُناك!

كان الأمر بشكل وكأنَّهُ لم يكن هُناك بستان ولا أراضي مزروعة، كانت أصوات (البوم) ـ فقط ـ تدوي في هذه الخرائب، قلبه بدأ ينبض بقوّة، بهت لونه، يَبَسَ الماء في فمه، وتحطَّم الكبرياء والغرور اللذان كانا يثقلان نفسه وعقله.

كأنَّهُ صحا مِن نومٍ عميق: **﴿فأصبح يُقلِّب كفيه علىٰ ما أنفق فيها وهي خاوية علىٰ عروشها﴾**.

وفي هذه اللحظة ندم علىٰ أقواله وأفكاره الباطلة: **﴿ويقول يا ليتني لم أشرك بربّي أحداً﴾**.

والأكثر حزناً وأسفاً بالنسبة لهُ هو ما أصبح عليه مِن الوحدة في مقابل كل هذه المصائب والإبتلاءات: **﴿ولم تكن لهُ فئة ينصرونه مِن دون الله﴾**.

ولأنَّهُ فقد ما كان يملكهُ مِن رأس المال ولم يبقي لديه شيء آخر، فإنَّ مصيره: **﴿وما كان منتصراً﴾**[1].

لقد إنهارت جميع آماله وظنونه الممزوجة بالغرور، لقد أدت الحادثة إلىٰ انتهاء كل شيء، فهو مِن جانب كانَ يقول: إنّي لا أصدق بأنَّ هذه الثروة العظيمة مِن الممكن أن تفنىٰ، إلَّا أنّني رأيت فناءها بعيني!

ومِن جانب آخر فقد كان يتعامل مع رفيقه المؤمن بكبر ويقول: إنّني أقوىٰ مِنك وأكثر أنصاراً ومالاً، ولكنَّهُ بعد هذه الحادثة اكتشف أن لا أحد ينصره!

ومِن جانبٍ ثالث فإنَّهُ كان يعتمد علىٰ قوته وقدرته الذاتية، ويعتقد بأنَّ غير قدرته محدودة، لكنَّهُ بعدَ هذه الحادثة، وبعد أن لم يكن بمقدوره الحصول علىٰ شيء، انتبه إلىٰ خطئه الكبير، لأنَّهُ لم يعد يتملك شيئاً يعوضه جانباً مِن تلك الخسارة الكبرىٰ.

---

١ ـ الكهف، ٤٣ ـ ٤٢.

العابد (برصيصا)[١]

كان في بني‌اسرائيل عابداً اسمه «برصيصا» قد عبد الله زماناً من الدهر حتّى كان يؤتى بالمجانين يداويهم ويعوذهم فيبرؤون على يديه، وانّه أُتي بامرأة قد جنّت وكان لها أُخوة فأتوه بها فكانت عنده، فلم يزل به الشيطان يزيّن له حتّى وقع عليها فحملت، فلمّا إستبان حملها قتلها ودفنها، فلمّا فعل ذلك ذهب الشيطان حتّى لقى أحد أُخوتها فأخبره بالذي فعل الراهب وانّه دفنها في مكان كذا، ثمّ أتى بقيّة أُخوتها، وهكذا إنتشر الخبر فساروا إليه فاستنزلوه فأقرّ لهم بالذي فعل، فأُمر به فصلب، فلمّا رفع على خشبته تمثّل له الشيطان فقال: أنا الذي ألقيت في قلوب أهلها، وأنا والذي أوقعتك في هذا، فأطعني فيما أقول أُخلّصك ممّا أنت فيه، قال نعم. قال: اسجد لي سجدة واحدة، فقال: كيف أسجد لك وأنا على هذه الحالة، فقال: أكتفي منك بالإيماء، فأومى له بالسجود فكفر بالله وقتل.

---

١ ـ ذكر بعض المفسرين هذه القصّة في تفسير سورة الحشر، الآية ١٧ ـ ١٦.

اصحاب الاخدود

المحارق البشريّة

يقول القرآن الكريم في سورة البروج: ﴿قتل أصحاب الأُخدود﴾[1].

إنّ «الأُخدود» هو الشق العظيم في الأرض، أو الخندق.. وهو هنا إشارة إلى تلك الخنادق التي ملأها الكفار ناراً ليردعوا فيها المؤمنين بالتنازل عن إيمانهم والرجوع إلى ما كانوا عليه من كفر وضلال.

ولكن.. متى حدث ذلك؟ في أيّ قوم؟ وهل حدث مرّة واحدة أم لمرّات؟ في منطقة أم مناطق؟

جرىٰ بين المفسّرين والمؤرّخين مخاض طويل بخصوص الإجابة عن هذه الأسئلة.

والمشهور: انّه اشارة إلى قصة (ذو نواس)، وهو آخر ملوك «حِميَر»[2] في أرض «اليمن».

وكان «ذو نواس» قد تهوّد، واجتمعت معه حمير على اليهودية، وسمّىٰ نفسه (يوسف)، وأقام على ذلك حيناً من الدهر، ثمّ أُخبر أنّ «بنجران» (شمال اليمن) بقايا قوم على دين النصرانية، وكانوا على دين عيسىٰ عليه السلام وحكم الإنجيل، فحمله أهل دينه على أن يسير إليهم ويحملهم على اليهودية، ويدخلهم فيها، فسار حتى قدم نجران، فجمع مَن كان بها على دين النصرانية، ثمّ عرض عليهم دين اليهودية والدخول فيها، فأبوا عليه، فجادلهم وحرص

---

١ ـ البروج، ٤.

٢ ـ حمير: إحدى قبائل اليمن المعروفة.

الحرص كلّه، فأبوا عليه وامتنعوا من اليهودية والدخول فيها، واختاروا القتل، فاتخذ لهم أُخدوداً وجمع فيه الحطب، وأشعل فيه النّار، فمنهم مَن أُحرق بالنّار، ومنهم مَن قُتل بالسيف، ومُثّل بهم كلّ مثلة، فبلغ عدد مَن قُتل وأُحرق بالنّار عشرين ألفاً.

وأضاف بعض آخر: إنّ رجلاً من بني نصارى نجران تمكّن من الهرب، فالتحق بالروم وشكا ما فعل (ذو نواس) إلى قيصر.

فقال قيصر: إن أرضكم بعيدة، ولكنّي سأكتب كتاباً إلى ملك الحبشة النصراني وأطلب منه مساعدتكم.

ثمّ كتب رسالته إلى ملك الحبشة، وطلب منه الإنتقام لدماء المسيحيين التي أُريقت في نجران، فلمّا قرأ الرسالة تأثّر جدّاً، وعقد العزم على الإنتقام لدماء شهداء نجران.

فأرسل كتائبه إلى اليمن والتقت بجيش (ذو نواس)، فهزمته بعد معركة طاحنة، وأصبحت اليمن ولاية من ولايات الحبشة.

وذكر بعض المفسّرين: إنّ طول ذلك الخندق كان أربعين ذراعاً، وعرضه اثني عشر ذراع، (وكلّ ذراع يقرب من نصف متر، وأحياناً يقصد به ما يقرب من متر كامل).

وقيل: إنّها كانت سبعة أخاديد، وكلّ منها بالحجم الذي ذكرناه.

وقد تبيّن ممّا ذكرناه بأن العذاب الإلهي قد أصاب أُولئك الذين قاموا بتعذيب المؤمنين، وانتقم منهم في دنياهم جراء ما هدروا من دماء زكية بريئة، وأنّ عذاب نار الآخرة لفي انتظارهم.

وأوّل من أوجد المحارق البشرية في التاريخ هم اليهود، وسرت هذه الممارسة الخبيثة على أيدي الطواغيت المجرمين، حتى شملت اليهود أنفسهم، كما حدث في ألمانيا النّازية حينما أُحرق جمع كبير من اليهود في محارق هتلر كما هو المشهور، فذاقوا «عذاب الحريق» في دنياهم قبل آخرتهم.

كما أصاب الخزي والعذاب (ذو نواس اليهودي) وهو مؤسس هذا الأُسلوب القذر من الجريمة. و الذي ذكرناه هو ما اشتهر بين أرباب التاريخ والتّفسير من قصّة أصحاب الأُخدود.[١]

---

١ ـ وثمّة روايات تذكر بأنّ هذه الجريمة البشعة ما اقتصرت علىٰ أهل اليمن فقط ولم تقف عند

وَأْدُ البنات[١]

جاء رجلٌ إلىٰ رسول اللّهﷺ فأعلن إسلامه، وجاءه يوماً فسأله: إنّي أذنبت ذنباً عظيماً فهل لي من توبة؟ فقال رسول اللّهﷺ: «إنّ اللّه تواب رحيم»، قال: يا رسول اللّه إنّ ذنبي عظيم قال: «ويلك مهما كان ذنبك عظيماً فعفو اللّه أعظم منه»، قال: لقد سافرت في الجاهلية سفراً بعيداً وكانت زوجتي حبلىٰ وعندما عدت بعد أربع سنوات استقبلتني زوجتي فرأيت بنتاً في الدار، فقلت لها: ابنة مَنْ هذه؟ قالت: ابنة جارنا. فظننت أنّها سترحل عن دارنا بعد ساعة، فلم تفعل، ثمّ قلت لزوجتي: أصدقيني مَنْ هذه البنت؟ قالت: ألا تذكر أنّي كنت حاملة

عصر (ذو نواس)، حتى قيل عشرة أقوال في ذلك.

وروي عن أمير المؤمنينعليه السلام أنّه قال: «إنّهم كانوا مجوس، أهل كتاب، وكانوا متمسكين بكتابهم، فتناول ملكهم الخمرة فوقع على أُخته، وبعد أن أفاق ندم، فأعلن حِلية زواج الأُخت، فلم يقبل النّاس، فهددهم فلم يقبلوا، فخدّ لهم الأُخدود، وأوقد فيه النيران، وعرض أهل مملكته على ذلك، فمَن أبى قذفه في النّار، ومَن أجاب خلّى سبيله». هذا في أصحاب فارس.. أمّا أصحاب أُخدود الشام، فهم قوم مؤمنون أحرقهم (آنطياخوس).

وقيل أيضاً: إنّ هذه الواقعة تعود لاصحاب نبيّ اللّه دانيال من بني إسرائيل، وقد أُشير إلى ذلك في كتاب دانيال من التوراة.

واعتبر الثعلبي: إنّهم هم الذين أُحرقوا في أُخدود فارس.

ولا يبعد انطباق قصة «أصحاب الأُخدود» على كلّ ما ذكر، وإنّ كان المشهور منها قصّة (ذو نواس) في أرض اليمن.

١ ـ الآيتان، ٥٩ ـ ٥٨ من سورة النحل تشيران الىٰ هذه القصّة.

عندما سافرت، إنّها إبنتك. فنمت تلك الليلة مغتماً، أنام واستيقظ، حتىٰ اقترب وقت الصباح نهضت من فراشي وذهبت إلىٰ فراش ابنتي فأخرجتها وأيقظتها وطلبت منها أن تصحبني إلىٰ حائط النخل، فتبعتني حتىٰ اقتربنا من الحائط فأخذت بحفر حفيرة وهي تعينني علىٰ ذلك، وعندما إنتهيت من ذلك وضعتها في وسط الحفرة.. وهنا فاضت عينا رسول اللّه بالدمع.. ثمّ وضعت يدي اليسرىٰ علىٰ كتفها وأخذت أهيل التراب عليها بيدي اليمنىٰ، فأخذت تصرخ وتدافع بيديها ورجليها وتقول: أبي ما تصنع بي!؟ ثمّ أصاب لحيتي بعض التراب فرفعت يدها تمسحه عنها، وأدمت ذلك حتىٰ دفنتها.

فقال رسول اللّه وهو يمسح دموعه: **«لولا أنْ سبقت رحمة اللّه غضبه لعجل اللّه لك العذاب»**.

وأدت بناتي الإثنتي عشرة

وكذلك ما روي في (قيس بن عاصم) أحد أشرف ورؤساء قبيلة بني تميم في الجاهلية، وقد أسلم عند ظهور النّبي ﷺ، جاء يوماً إلىٰ النّبي وقال له: إنّ آباءنا كانوا يدفنون بناتهم أحياءاً، وقد دفنت أنا (١٢) بنتاً، وعندما ولدت لي زوجتي البنت الثّالثة عشر أخفت أمرها وادّعت أنّها ماتت عند الولادة، ثمّ أودعتها آخرين، وعندما علمت بذلك بعد مدّة، أخذتها إلىٰ مكان بعيد ودفنتها حيّة دون أن أعتني ببكائها وتضرعها.

فتأذىٰ النّبي ﷺ من ذلك فقال ودموعه جارية: **«من لا يَرحم لا يُرحم»** ثمّ التفت إلىٰ قيس وقال: **«إنّ لك يوماً سيئاً»**، فقال قيس: ما أفعل لتكفير ذنبي؟ فقال النّبي ﷺ: **«حرر من العبيد بعدد ما وأدت»**.

وروي أيضاً أن (صعصعة بن ناجية) جد الفرزدق الشاعر المعروف، وكان رجلاً شريفاً حرّاً فقيل: إنّه كان في الجاهلية يحارب الكثير من العادات القبيحة حتىٰ أنّه اشترىٰ (٣٦٠) بنتاً من آبائهن كي ينقذهن من القتل، وقد أعطىٰ يوماً دابته مع بعيرين لأبٍ كان يريد قتل ابنته.

وقال له الرّسول ﷺ ذات مرّة (في ما معناه): ما أحسن ما صنعت وأجرك عند اللّه.

أصحاب الفيل

ذكر المفسّرون والمؤرّخون هذه القصّة بأساليب مختلفة واختلفوا في سنة وقوعها. لكن أصل القصّة متوافرة.[١]

«ذو نواس» ملك اليمن اضطهد نصارى نجران قرب اليمن كي يتخلوا عن دينهم.[٢]

بعد هذه الجريمة نجا من بين النصارى رجل اسمه (دوس) وتوجه إلى قيصر الروم الذي كان على دين المسيح، وشرح له ما جرى.

ولما كانت المسافة بين الروم واليمن بعيدة، كتب القيصر إلى النجاشي (حاكم الحبشة) لينتقم من (ذو نواس) لنصارى نجران، وارسل الكتاب بيد القاصد نفسه.

جهّز النجاشي جيشاً عظيماً يبلغ سبعين ألف محارب بقيادة (أرياط) ووجهه إلى اليمن. وكان (أبرهة) أيضاً من قواد ذلك الجيش.

اندحر (ذو نواس) وأصبح (أرياط) حاكماً على اليمن، وبعد مدّة ثار عليه أبرهة وأزاله من الحكم وجلس في مكانه.

بلغ ذلك النجاشي، فقرر أن يقمع (أبرهة). لكن أبرهة اعلن استسلامه الكامل للنجاشي ووفاءه له. حين رأى النجاشي منه ذلك عفا عنه وأبقاه في مكانه.

---

١ ـ ونحن نذكرها استناداً إلى الرّوايات المعروفة في «سيرة ابن هشام» و«بلوغ الأرب» و«بحار الأنوار» و «مجمع البيان» بتلخيص.

٢ ـ ذكر القرآن قصّة هذا الإضطهاد في موضوع أصحاب الأخدود في سورة البروج .

كنيسة لا نظير لها

و(أبرهة) من أجل أن يثبت ولاءه،بنى كنيسة ضخمة جميلة غاية الجمال، لا يوجد على ظهر الأرض مثلها آنذاك، وقرر أن يدعو أهل الجزيرة العربية لأن يحجّوا إليها بدل (الكعبة)، وينقل مكانة الكعبة إلى أرض اليمن.

ارسل أبرهة الوفود والدعاة إلى قبائل العرب في أرض الحجاز، يدعونهم إلى حجّ كنيسة اليمن، فاحسّ العرب بالخطر لإرتباطهم الوثيق بمكّة والكعبة ونظرتهم إلى الكعبة على أنّها من آثار إبراهيم الخليل عليه السلام.

تذكر بعض الرّوايات أنّ مجموعة من العرب جاؤوا خفية وأضرموا النّار في الكنيسة. وقيل إنّهم لوثوها بالقاذورات، ليعبروا عن اعتراضهم على فعل أبرهة ويهينوا معبده.

لم العجلة يا أبرهة؟

غضب أبرهة وقرر أن يهدم الكعبة هدماً كاملاً، للإنتقام ولتوجيه أنظار العرب إلى المعبد الجديد، فجهّز جيشاً عظيماً كان بعض أفراده يمتطي الفيل، واتجه نحو مكّة.

عند اقترابه من مكّة بعث من ينهب أموال أهل مكّة، وكان بين النهب مائتا بعير لعبد المطلب.

بعث (أبرهة) قاصداً إلى مكّة وقال له: ابحث عن كبير القوم وقل له إنّ أبرهة ملك اليمن يدعوك. أنا لم آت لحرب، بل جئت لأهدم هذا البيت، فلو استسلمتم، حقنت دماؤكم.

أنا ربّ الإبل

جاء رسول أبرهة إلى مكّة وبحث عن شريفها فدلوه على عبد المطلب، فحدثه بحديث أبرهة، فقال عبد المطلب، نحن لا طاقة لنا بحربكم، وللبيت ربّ يحميه.

ذهب عبد المطلب مع القاصد إلى النجاشي، فلما قدم عليه جعل النجاشي ينظر إليه وراقه حسنه وجماله وهيبته، حتى قام من مكانه احتراماً وجلس على الأرض واجلس عبد المطلب إلى جواره لأنّه ما أراد أن يجلس عبد المطلب على سرير ملكه ثمّ قال لمترجمه اسأله ما حاجتك؟ قال عبد المطلب: نهبت إبلي فمرهم بردّها عليّ.

فاندهش أبرهة وقال لمترجمه: قل له إنّه احتل مكاناً في قلبي حين رأيته، والآن قد سقط من عيني. أنت تتحدث عن إبلك ولا تذكر الكعبة وهي شرفك وشرف أجدادك، وأنا قدمت لهدمها؟!

قال عبد المطلب: أنا ربّ الإبل، وللبيت ربّ يحميه؟!

عاد عبد المطلب إلى مكّة، وأخبر أهلها أن يلجأوا إلى الجبال المحيطة بها، وذهب هو وجمع معه إلى جوار البيت ليدعو فأخذ حلقة باب الكعبة وانشد أبياته المعروفة:

لا هُمّ إن المرء يمنع رحله فامنع رحالك

لا يغلبن صليبهم ومحالهم أبداً محالك

جروا جميع بلادهم والفيل كي يسبوا عيالك

ولا همّ إن المرء يمنع رحله فامنع عيالك

وانصر على آل الصليب وعابديه اليوم آلك

ثمّ لاذ عبد المطلب وجمع من قريش باحدى شعاب مكّة وأمر أحد ولده أن يصعد على جبل (أبو قبيس) ليرى ما يجري.

عاد الابن مسرعاً إلى أبيه وأخبره أن سحابة سوداء تتجه من البحر (البحر الأحمر) إلى أرض مكّة. استبشر عبد المطلب وصاح: «**يا معشر قريش ادخلوا منازلكم فقد أتاكم اللّه بالنصر من عنده**».

من جانب آخر، توجه أبرهة راكباً فيله المسمى «محموداً» مع جيشه الجرار مخترقاً الجبال ومنحدراً إلى مكّة، لكن الفيل أبىٰ أن يتقدم، أمّا حينما يوجهوه نحو اليمن يهرول، تعجب أبرهة من هذا وتحيّر.

وفي هذه الأثناء وصلت طيور قادمة من جانب البحر كأنها الخطاطيف وهي تحمل حجراً في منقارها وحجرين في رجلها، بحجم الحمّصة، وألقوها على جيش أبرهة، فأهلكتهم. وقيل: إنّ الحجر كان يسقط على الرجل منهم فيخترقه ويخرج من الجانب الآخر.

ساد الجيش ذعر عجيب، فهلك منه من هلك، وفرّ من استطاع الفرار، صوب اليمن، وكانوا يتساقطون في الطريق.

(أبرهة) اصيب بحجر، وجُرح، فاعيد إلى صنعاء عاصمة ملكه، وهناك فارق الحياة.

وقيل: إنّ مرض الحصبة والجدري شوهد لأوّل مرّة في أرض العرب في تلك السنة.

وقيل: إنّ أبرهة جاء بفيل واحد كان يركبه واسمه محمود. وقيل بل ثمانية أفيال، وقيل: عشرة، وقيل: اثني عشر.

وفي هذا العام ولد رسول اللّه ﷺ حسب الرّواية المشهورة، وقيل إنّ بين الحادثتين ارتباطاً.

على أي حال، فإن أهمية هذه الحادثة الكبرى بلغت درجة تسمية ذلك العام بعام الفيل، وأصبح مبدأ تاريخ العرب.

المعجزة (للبيت ربّ يحميه)

القرآن الكريم يذكر هذه القصّة الطويلة في عبارات قليلة قصيرة قارعة، وفي غاية الفصاحة والبلاغة، ويركز على نقاط تساعد على تحقيق الأهداف القرآنية المتمثلة في إيقاظ المتعنتين المغرورين وبيان ضعف الإنسان أمام قدرة الجبار المتعال.

هذه الحادثة تبيّن أنّ المعجزات والخوارق لا تستلزم ـ كما ظنّ بعض ـ وجود النّبي والإمام، بل تظهر في كلّ ظرف يشاء اللّه فيه أن تظهر. والهدف منها إظهار عظمة اللّه سبحانه وحقانية دينه.

هذا العقاب العجيب الأعجازي، يختلف عمّا نزل من عقاب على أُمم أُخرىٰ مثل طوفان قوم نوح، وزلزال قوم لوط وإمطارهم بالحجارة، وصاعقة قوم ثمود؛ فهذه سلسلة حوادث طبيعية يتمثل إعجازها في حدوثها في تلك الظروف الخاصّة.

أمّا قصّة إبادة جيش أبرهة بحجارة من سجّيل، ترميها طير أبابيل، وليست كالحوادث الطبيعية.

تحليق هذه الطيور الصغيرة، واتجاهها نحو ذلك الجيش الخاص، ورميه بالحجارة التي تستطيع أن تهشّم أجساد جيش ضخم... كلّ تلك أُمور خارقة للعادة. ولكنّها ـ كما نعلم ـ ضئيلة جدّاً أمام قدرة اللّه تعالى.

اللّه الذي خلق داخل هذه الحجارة قدرة ذرية لو تحررت لولدت انفجاراً هائلاً، لقادر على أن يجعل في هذه الحجارة خاصية تستطيع أن تحوّل جيش أبرهة إلى (عصف مأكول).

لسنا في حاجة لأن نذهب إلى ما ذهب إليه بعض المعاصرين في تفسير هلاك جيش أبرهة بمكروبات وباء الحصبة والجدري أو أن نقول إنّ هذه الحجارة كانت ذرات متكافئة أُزيلت

الفراغات بينها فاصبحت ثقيلة للغاية، وقادرة على أن تخترق الأجساد.

كلّ هذه تبريرات تستهدف اعطاء صفة طبيعية لهذه الحادثة. ولسنا بحاجة إليها. كلّ ما نعلمه هو أنّ هذه الحجارة كانت لها خاصية غريبة في تهشيم الأجسام. ولم يخبرنا القرآن بأكثر من ذلك، وليس الأمر بمتعذر أمام قدرة اللّه سبحانه.

أشد الجزاء بأبسط وسيلة

يلاحظ أنّ هذه القصّة تتضمّن بيان قدرة اللّه أمام المستكبرين والطغاة على أفضل وجه... ولعل العقاب الذي حلّ بأبرهة وجيشه لا يبلغه عقاب، إذ على أثره تهشّم جيش وتحول إلى (عصف مأكول).

ثمّ إنّ إبادة هذا الجيش الجرار بكلّ ما كان يمتلكه من قدرة وشوكة كانت بواسطة أحجار صغيرة، وبواسطة طيور صغيرة كالخطاطيف. وفي هذا تحذير وإنذار لكلّ الطغاة والمستكبرين في العالم، ليعلموا مدى ضعفهم أمام قدرة اللّه سبحانه.

وقد يوكل اللّه سبحانه أداء هذه المهام الكبرى لموجودات أصغر، مثل المكروبات التي لاترى بالعين المجردة، لتتكاثر وتتناسل في مدّة وجيزة وتصيب أُمماً قوية بالأوبئة المختلفة كالطاعون، وتبيدهم خلال مدّة قصيرة.

«سد مأرب» العظيم في اليمن كان وسيلة لعمران كبير ومدنية عظيمة وقوية لقوم سبأ، وحين طغى هؤلاء القوم، جاء أمر إبادتهم عن طريق فأر صحراوي أو عدد من الفئران فثقبت السد، واتسع الثقب تدريجياً بالماء، وتحطم السد العظيم، واكتسح الماء كلّ ما بناه القوم واغرق الأفراد أو شردهم إلى كلّ حدب وصوب متفرقين حيارى، وهذه من مظاهر قدرة اللّه سبحانه.

من جهة أُخرىٰ هذه الحادثة اقترنت بولادة رسول اللّهﷺ، وكانت ممهّدة للبعثة المباركة، وإرهاصاً من ارهاصات بزوغ فجر الإسلام.

والقصة من ناحية ثالثة تهديد لكل طغاة العالم، من قريش وغير قريش؛ ليعلموا أنّهم لا يستطيعون أبداً أن يقاوموا أمام قدرة اللّه تعالى، فما أجدر بهم أن يعودوا إلى رشدهم، ويخضعوا لأمر اللّه، ويستسلموا للحق والعدل.

ثمّ هي من جانب رابع تبيّن أهمية هذا البيت الكبير. الأعداء الذين استهدفوا هدم الكعبة،

ونقل مركزية هذا الحرم الإبراهيمي إلى مكان آخر، قد واجهوا من العذاب ما أصبح عبرة للأجيال، وما زاد من أهمية هذا المركز المقدس.

ومن جهة خامسة، هذه الحادثة تؤكّد مشيئة اللّه سبحانه في جعل هذا الحرم آمناً استجابة لدعوة إبراهيم الخليل عليه السلام.

حادثة تاريخية قطعية

حادثة «**أصحاب الفيل**» كانت من الأهمية والشهرة بين العرب بحيث جعلوها مبدأ للتاريخ. والقرآن الكريم بدأ الحديث عن القصّة بعبارة ﴿**ألم تر**﴾ مخاطباً نبيّه صلى الله عليه وآله الذي لم ير هذه الحادثة. وهي دلالة أُخرى على قطعية وقوع الحادثة.

أضف إلى ذلك أنّ النّبي ـ حين تلا هذه الآيات على المشركين ـ لم ينكر عليه أحد، ولو كان أمراً مشكوكاً لاعترضوا عليه، ولسجل المؤرّخون هذا الإعتراض كما سجلوا سائر الإعتراضات؛ خاصّة.

القسم الثالث

قصة نبي الإسلام

ماذا كان دين الرّسول الأعظم قبل نبوته؟

لا يوجد شك في أن الرّسول الأكرمﷺ لم يسجد لصنم قبل بعثته أبداً، ولم ينحرف عن خط التوحيد، فتاريخ حياته يعكس بوضوح هذا المعنىٰ، إلّا أن العلماء يختلفون في الدين الذي كان عليه:

فذهب بعضهم أنّه دين المسيحعليه السلام، لأن المسيحية كانت الدين الوحيد الرسمي غير المنسوخ قبل بعثة الرّسولﷺ.

وقال البعض الآخر: إنه دين إبراهيمعليه السلام، لأنّه (شيخ الأنبياء) وأبوهم، وقد ذكرت بعض آيات القرآن أن دين الإسلام هو دين إبراهيم: ﴿ملة أبيكم إبراهيم﴾ [1].

أمّا البعض الآخر فلم يذكر شيئاً واكتفىٰ بالقول بأننا نعلم بأنّه كان على دين معين إلّا أنّه لم يتوضح لنا ما هو.

وبالرغم من أن كلاً من هذه الأقوال يستند إلى دليل معين، إلّا أنّها ليست قطعية، وأفضلها قول آخر وهو: لقد كان الرّسولﷺ يملك برنامجاً خاصاً من قبل الخالق وكان يعمل به، وفي الحقيقة فقد كان له دين خاص حتىٰ زمان نزول الإسلام عليه.

والدليل على هذا الكلام ما ورد في نهج البلاغة، وهو «**ولقد قرن الله به ومن لدن أن كان فطيماً أعظم ملك من ملائكته، يسلك به طريق المكارم، ومحاسن أخلاق العالم ليله ونهاره**».

فوجود مثل هذا الملك يدل على وجود برنامج خاص.

---

١ ـ الحج، الآية ٧٨.

والدليل الآخر هو أنّ التاريخ لم يذكر لنا أبداً أن الرّسول صلى الله عليه وآله انشغل بالعبادة في معابد اليهود أو النصارى أو الأديان الأخرىٰ، ولم يكن إلىٰ جوار الكفار في معابدهم، ولا إلى جوار أهل الكتاب في كنائسهم، وفي نفس الوقت فقد استمر في سلوك طريق التوحيد وكان متمسكاً بقوة بالأصول الأخلاقية والعبادة الإلهية.

وقد وردت عدّة روايات في المصادر الإسلامية عن أن الرّسول صلى الله عليه وآله كان مؤيداً منذ بداية عمره بروح القدس. وحتماً فإنّه كان يعمل وفقاً لما يستلهمه من روح القدس.

ويرىٰ العلّامة المجلسي أن الرّسول صلى الله عليه وآله كان نبياً قبل أن يكون رسولاً، فالملائكة كانت تتحدث معه أحياناً وكان يسمع صوتها، وأحياناً كان الإلهام الإلهي ينزل عليه ضمن الرؤيا الحقيقية الصادقة، وبعد أربعين سنة وصل إلى منزلة الرسالة ونزل القرآن والإسلام عليه، وقد ذكر لذلك ستة أدلة حيث يتلاءم بعضها مع ما ذكرناه أعلاه.

بداية الوحي

إن محمّداً ﷺ كان في غار حراء حين نزل عليه جبرائيل وقال له: إقرأ يا محمّد. قال: ما أنا بقاريء، فاحتضنه جبرائيل وضغطه وقال له: إقرأ يا محمّد وتكرر الجواب. ثمّ أعاد جبرائيل عمله ثانية وسمع نفس الجواب. وفي المرّة الثّالثة قال: ﴿إقرأ باسم ربّك الذي خلق...﴾ [1].

قال ذلك واختفىٰ عن أنظار النّبي ﷺ.

رسول اللّه أحسّ بتعب شديد بعد هبوط أولى أشعة الوحي عليه فذهب إلى خديجة وقال: «زملوني ودثروني». «الطبرسي» في مجمع البيان يروي عن الحاكم النيسابوري قصّة أوّل نزول الوحي ما ينبيء أنّ سورة الحمد كانت أوّل ما نزل على النّبي ﷺ يقول: إنّ رسول اللّه قال لخديجة إنّي إذا خلوت وحدي سمعت نداء.

فقالت: ما يفعل اللّه بك إلّا خيراً، فواللّه إنّك لتؤدي الأمانة وتصل الرحم وتصدق الحديث.

قالت خديجة: فانطلقنا إلى ورقة بن نوفل وهو ابن عمّ خديجة فاخبره رسول اللّه ﷺ بما رأى، فقال له ورقة: إذا أتاك فاثبت له حتى تسمع ما يقول ثمّ إيتني فأخبرني، فلمّا خلا ناداه يا محمّد: قل بسم اللّه الرحمن الرحيم، الحمد للّه ربّ العالمين... حتى بلغ ولا الضّالين، قل لا إله إلّا اللّه، فأتىٰ ورقة فذكر له ذلك، فقال له: أبشر ثمّ أبشر، فأنا أشهد أنّك الذي بشر به ابن مريم، وإنّك على مثل ناموس موسىٰ، وإنّك نبيّ مرسل، وإنّك سوف تؤمر بالجهاد بعد يومك هذا، ولئن أدركني ذلك لأُجاهدنّ معك، فلمّا توفي ورقة، قال رسول اللّه ﷺ: «لقد رأيت القس في الجنّة عليه ثياب الحرير لأنّه آمن بي وصدّقني» [2].

---

١ ـ العلق، ١.

٢ ـ جدير بالذكر أنّ في بعض كتب التّفسير والتاريخ كلاماً حول حياة الرّسول الأكرم ﷺ، في هذه البرهة الزمنية لا تتناسب أبداً مع شخصية النّبي الأكرم ﷺ، وتستند حتماً إلى أحاديث مختلفة أو

من هو أوّل من أسلم؟[١]

قالوا بالإجماع، إنّ أوّل من أسلم من النساء خديجة زوجة النّبيﷺ الوفية المضحية. وأمّا من الرجال فكل علماء الشيعة ومفسريهم، وفريق كبير من أهل السنة قالوا: إنّ عليّاًعليه السلام أوّل من أسلم ولبّىٰ دعوة النّبي الأكرمﷺ.

إنّ اشتهار هذا الموضوع بين علماء أهل السنة بلغ حداً إدّعىٰ جماعة منهم الإجماع عليه واتفقوا على ذلك. ومن جملة هؤلاء الحاكم النيسابوري فإنّه يقول[٢]: لا أعلم خلافاً بين أصحاب التواريخ أنّ علي بن أبي طالب رضي الله عنه أوّلهم إسلاماً، وإنّما اختلفوا في بلوغه.

وكتب ابن عبد البر[٣]: اتفقوا على أنّ خديجة أوّل من آمن بالله ورسوله وصدقه فيما جاء به، من علي بعدها[٤].

إلى اسرائيليات، من ذلك أنّ النّبيﷺ اغتم كثيراً لدى نزول الوحي عليه أوّل مرّة، وخشي أن يكون إلقاءات شيطانية! ومن ذلك أنّهﷺ همّ مرّات أن يلقي بنفسه من أعلى الجبل! وأمثال هذه الخزعبلات التي لا تنسجم اطلاقاً مع ما ذكرته كتب السيرة حول ما يتمتع به الرّسولﷺ من رجاحة في العقل، وضبط كبير في النفس، وصبر وسعة صدر، وثقة بالدور الكبير الذي ينتظره.

ويبدو أنّ أعداء الإسلام دسّوا هذه الرّوايات للطعن في الإسلام وللحط من شخصية النّبيﷺ.

١ ـ إنّ أكثر المفسّرين يطرح هذا السؤال ـ لمناسبة الآية ١٠٠ من سورة التوبة ﴿السّابقون الاوّلون...﴾.

٢ ـ في (المستدرك على الصحيحين) وفي كتاب (المعرفة)، في ص ٢٢.

٣ ـ في (الإستيعاب) ج ٢، ص ٤٥٧.

٤ ـ الغدير، ج ٣، ص ٢٣٨ و ٢٣٧.

وكتب أبو جعفر الإسكافي: قد روى الناس كافة افتخار علي بالسبق إلى الإسلام.[١]

وبعد هذا، فإنّ الرّوايات الكثيرة التي نقلت عن النّبي صلى الله عليه وآله وعن علي عليه السلام نفسه، والصحابة - في هذا الباب بلغت حد التواتر، وكنموذج لها نورد هنا بعض الأحاديث:

١ ـ قال النّبي صلى الله عليه وآله: «**أوّلكم وروداً على الحوض أوّلكم إسلاماً، علي بن أبي طالب عليه السلام**».[٢]

٢ ـ نقل جماعة من علماء أهل السنة عن النّبي صلى الله عليه وآله أنّه أخذ بيد علي عليه السلام وقال: «**إنّ هذا أوّل من آمن بي، وهذا أوّل من يصافحني، وهذا الصديق الأكبر**».[٣]

٣ ـ نقل أبو سعيد الخدري عن النّبي صلى الله عليه وآله أنّه وضع يده بين كتفي علي عليه السلام وقال: «**يا علي، لك سبع خصال لا يحاجك فيهن أحد يوم القيامة: أنت أوّل المؤمنين بالله إيماناً، وأوفاهم بعهد الله، وأقومهم بأمر الله...**»[٤]

وكما أشرنا سابقاً، فإنّ عشرات الرّوايات في مختلف كتب التأريخ والتّفسير والحديث قد نقلت عن النّبي صلى الله عليه وآله وآخرين في هذا الباب.[٥]

تحريف التاريخ

وهنا التفاتة لطيفة، وهي أنّ جماعة لما لم يستطيعوا إنكار سبق علي عليه السلام في الإيمان والإسلام سعوا إلى إنكار ذلك بأساليب أخر، أو التقليل من أهمية هذا الموضوع، والبعض يحاول أن يجعل أبا بكر مكان علي عليه السلام، ويدعي أنّه أول من أسلم.

فهم يقولون تارةً إنّ علياً عليه السلام في ذلك الوقت كان في العاشرة من عمره، وهو غير بالغ طبعاً، وعلى هذا فإن إسلامه يعني إسلام صبي، ومثل هذا الإسلام لم يكن له تأثير في تقوية جبهة

---

١ ـ المصدر السّابق.

٢ ـ الحديث أعلاه ـ حسب نقل الغدير ـ جاء في مستدرك الحاكم، ج ٢، ص ١٣٦، والإستيعاب، ج ٢، ص ٤٥٧، وشرح ابن أبي الحديد، ج ٣، ص ٢٥٨.

٣ ـ في المصدر السابق إنّ هذا الحديث قد نقل عن الطبراني، والبيهقي، والهيثمي في المجتمع، والحافظ الكنجي في الكفاية، والإكمال، وكنز العمال.

٤ ـ هذا الحديث ـ حسب نقل الغدير ـ قد نقل في كتاب حلية الأولياء، ج ١، ص ٦٦.

٥ ـ ومن أراد مزيد الإطلاع فليراجع الجزء الثّالث من الغدير ص ٢٢٠ ـ ٢٤٠، وكتاب إحقاق الحق الجزء ٣ ص ١١٤ ـ ١٢٠.

المسلمين وزيادة اقتدارهم في مقابل الأعداء[١].

وهذا عجيب حقّاً، وهو في الحقيقة إيراد واعتراض على شخص النّبيﷺ، لأنا نعلم أنّ النّبيﷺ قد عرض الإسلام على عشيرته وقومه يوم الدار، ولم يقبله إلّا عليّعليه السلام حين قام وأعلن اسلامه، فقبل النّبيﷺ إسلامه، بل وخاطبه بأنّك: أخي ووصي وخليفتي.

إنّ هذا الحديث الذي نقله جماعة من حفاظ الحديث، من الشيعة والسنة، في كتب الصحاح والمسانيد، وكذلك جمع من مؤرخي الإسلام، واستندوا عليه، يبيّن أنّ النّبيﷺ مضافاً إلى قبوله إسلام عليعليه السلام في ذلك السن الصغير، فإنّه عرفه للحاضرين ـ وللناس فيما بعد ـ بأنّه أخوه ووصيه وخليفته[٢].

ويعبرون تارة أُخرىٰ بأنّ أوّل من أسلم من النساء خديجة، ومن الرجال أبوبكر، ومن الصبيان عليعليه السلام، وأرادوا بهذا التعبير أن يقللوا من أهمية إسلام عليعليه السلام[٣].

إلّا أنّ أوّلاً: كما قلنا، إنّ سن عليعليه السلام الصغير في ذلك اليوم لا يقدح في أهمية الأمر بأي وجه، ولا يقلل من شأنه، خاصّة وأن القرآن الكريم قال في شأن يحيىٰ: ﴿وآتيناه الحكم صبياً﴾[٤]، وكذلك نقرأ ما قاله في شأن عيسىعليه السلام من أنّه تكلم وهو في المهد، وخاطب أُولئك الذين وقعوا في حيرة وشك من أمره وقال: ﴿إني عبدالله آتاني الكتاب وجعلني نبيّا﴾[٥].

إنّنا إذا ما ضممنا مثل هذه الآيات إلى الحديث الذي نقلناه آنفاً من أنّهﷺ جعل عليّاًعليه السلام وصيه وخليفته اتّضح أن هذا الكلام لم يصدر إلّا عن تعصب مقيت.

ثانياً: إنّ من غير المسلم تاريخياً أنّ أبابكر هو ثالث من أسلم، بل ذكروا في كثير من كتب التاريخ والحديث جماعة أُخرىٰ أسلمت قبله.

---

١ ـ هذا القول ذكره الفخرالرازي في تفسيره في ذيل الآية ١٠٠ من سورة التوبة.

٢ ـ هذا الحديث نقل بعبارات مختلفة، وما أوردناه أعلاه هو ما نقله أبو جعفر الإسكافي في كتاب (نهج العثمانية)، وبرهان الدين في (أنباء نجباء الأبناء)، وابن الأثير في (الكامل)، وآخرون. لمزيد الإطلاع والإستيضاح راجع الجزء الثّاني من الغدير، ص ٢٧٨ ـ ٢٨٦.

٣ ـ ذكر هذا التعبير المفسّر المعروف والمتعصّب صاحب المنار في ذيل الآية ١٠٠ من سورة التوبة.

٤ ـ مريم، ١٢.

٥ ـ مريم، ٣٠.

ونتهي هذا البحث بذكر هذا المطلب، وهو أنّ علياًعليه السلام أشار مراراً وتكراراً في خطبه إلى أنّه أوّل من أسلم، وأوّل من آمن، وأوّل من صلّى مع النّبيصلى الله عليه وآله، وبيّن موقعه من الإسلام، وهذه المسألة قد نقلت عنه في كثير من الكتب.

إضافة إلى أنّ ابن أبي الحديد نقل عن العالم المعروف **أبي جعفر الإسكافي المعتزلي**، أن البعض يقول: إذا كان أبو بكر قد سبق إلى الإسلام، فلماذا لم يستدل لنفسه بذلك في أي موقف؟ بل ولم يدّع ذلك أي أحد من مواليه من الصحابة.[١]

---

١ ـ الغدير، ج٣، ص ٢٤٠.

إنذار الأقربين «حديث يوم الدار»

وفقاً لما ورد في التواريخ الإسلامية، أُمر النّبي في السنة الثّالثة بدعوته الأقربين من عشيرته، لأنّ دعوته حتى ذلك الحين كانت مخفية «سريّة»، وكان الذين دخلوا في الإسلام عدداً قليلاً، لذلك حين نزلت الآية: **﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾** [١] والآية **﴿فاصدع بما تؤمر واعرض عن المشركين﴾** [٢] أمر النّبي أن يجعل دعوته علنية، وبدأ ذلك بدعوة أهله وأقربائه.

وأمّا كيفية إبلاغه وإنذاره إيّاهم، فهو بإجمال أنّه دعا النبيّ «عشيرته» إلى بيت عمّه أبي طالب، وكانوا في ذلك اليوم حوالي أربعين رجلاً، وكان ممن حضر هذه الدعوة بعض أعمام النّبيﷺ كأبي طالب والحمزة وأبو لهب والعباس، وبعد أن تناولوا الطعام، وأراد النّبي أن يؤدي ما عليه، تكلم أبولهب كلمات أحبط بها خطة النّبيﷺ، لذا فقد دعاهم النّبي في اليوم التالي أيضاً.

وبعد أن تناولوا الطعام، قالﷺ: **«يا بني عبد المطلب، إنّي والله ما أعلم شاباً في العرب جاء قومه بأفضل ممّا جئتكم بخير الدنيا والآخرة... وقد أمرني الله أن أدعوكم إليه فأيكم يؤازرني على أمري هذا، على أن يكون أخي ووصيي وخليفتي فيكم؟»** فأحجم القوم عنها غير علي، وكان أصغرهم (سناً)، فقال: **«يا نبيّ الله، أنا أكون وزيرك عليه»**، فأخذ رسول الله برقبته، وقال: **«إنّ هذا وصييّ وخليفتي فيكم فاسمعوا له وأطيعوا»** فقام القوم يضحكون،

---

١ ـ الشعراء، ٢١٤.

٢ ـ الحجر، ٩٤.

ويقولون لأبي طالب: قد أمرك أن تسمع لإبنك وتطيع.[١]

وهذا الحديث يوضح لنا كيف كان النّبي وحيداً حينذاك، وكيف ردّوا عليه دعوته بالسخرية والإستهزاء، وكيف وقف علي عليه السلام إلى جانب النّبي في وحدته ناصراً ومعيناً... .

وفي حديث آخر أن النّبي دعا قريشاً واحداً واحداً وحذرهم من النار فقال: **«يا بني كعب أنقذوا أنفسكم من النار»**.

وكان يدعو أحياناً بهذا الخطاب بني عبد شمس، وبني عبد مناف، وبني عبد المطلب، وبني هاشم فيقول: **«انقذوا أنفسكم من النار»**.[٢] فلست قادراً علىٰ الدفاع عنكم في حال كفركم.

---

١ ـ وقد نقل هذا الحديث كثير من أهل السنة كابن جرير الطبري، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، وأبو نعيم، والبيهقي، والثعلبي، كما نقله «ابن الأثير» في الجزء الثّاني من كتابه «الكامل»، وأبو الفداء في الجزء الأوّل من تأريخه، وجماعة آخرون.

لمزيد الإيضاح يراجع كتاب المراجعات، ص ١٣٠ فما بعد وكتاب إحقاق الحق، ج ٤، ص ٦٢.

٢ ـ تفسير القرطبي، ج ٧، ص ٤٨٥٩ ذيل الآيات محل البحث مع شيء من الإختصار.

ايمان أبي طالب

إنّ جميع علماء الشيعة وجمع من علماء أهل السنة، ومثل ابن أبي الحديد شارح نـهج البلاغة والقسطلاني في «إرشاد الساري» وزيـني دحـلان فـي حـاشية السـيرة الحـلبية، ويعتبرون أبا طالب من مؤمني الإسلام، وهناك في المصادر الإسلامية الأصيلة دلائل كثيرة على هذا.

ومن يطالع هذه الأدلة يندفع للتساؤل بدهشة: ما السبب الذي حدا ببعضهم إلى كره أبي طالب وتوجيه مثل هذا الإتهام الكبير إليه؟!

ذلك لأنّ أبا طالب ليس الوحيد الذي تعرض لمثل هذه الهجمات بسبب قرابته من أمير المؤمنين علي عليه السلام، بل إنّنا نلاحظ على امتداد تاريخ الإسلام أنّ كل من كان له بأي شكل من الأشكال نوع من القرابة من أميرالمؤمنين علي عليه السلام لم ينج من هذه الحملات اللئيمة، وفـي الحقيقة كان ذنب أبي طالب الوحيد أنّه والد الشخصية الإسلامية الكبرىٰ علي عليه السلام.

سبعة أدلّة

ونذكر هنا بإيجاز مختلف الأدلة التي تثبت إيمان أبي طالب، تاركين التفاصيل للكتب المختصة في الموضوع.

١ ـ كان أبو طالب يعلم، قبل بعثة الرّسول الأكرم صلى الله عليه وآله، أنّ ابن أخيه سوف يصل إلى مقام النبوة، فقد كتب المؤرّخون أنّه في رحلته مع قافلة قريش إلى الشام اصطحب معه ابن أخيه محمّداً البالغ يومئذ الثّانية عشرة من العمر، وفي غضون الرحلة رأىٰ منه مختلف الكرامات،

ثمّ عندما مرّت القافلة بالراهب (بحيرا) الذي أمضىٰ سنوات طوالاً في صومعته على طريق القوافل التجارية، استلف محمّدﷺ نظر الراهب الذي راح يدقق في وجهه وملامحه، ثمّ التفت إلى الجمع سائلاً: من منكم صاحب هذا الصبي؟ فأشار الجمع إلى أبي طالب الذي قال له: هذا ابن أخي، فقال بحيرا: إنّ لهذا الصبي شأناً، إنّه النّبي الذي أخبرت به وبرسالته الكتب السماوية، وقد قرأت فيها تفاصيل ذلك كله[١].

ولقد كان أبو طالب قبل ذلك قد أدرك من الوقائع والقرائن التي رآها من ابن أخيه أنّه سيكون نبي هذه الأُمّة.

وبموجب ما يذكره الشهرستاني صاحب «الملل والنحل» وغيره من علماء السنة أنّ سماء مكّة قد جست بركتها عن أهلها سنة من السنين، فواجه الناس سنة جفاف شديد، فأمر أبو طالب أنّ يأتوه بابن أخيه محمّد، فأتوه به وهو رضيع في قماطه، فوقف تجاه الكعبة، وفي حالة من التضرع والخشوع أخذ يرمي بالطفل ثلاث مرات إلى أعلىٰ ثمّ يتلقفه وهو يقول: يا ربّ بحق هذا الغلام اسقنا غيثاً مغيثاً دائماً هطلاً، فلم يمض إلّا بعض الوقت حتى ظهرت غمامة من جانب الأُفق وغطت سماء مكّة كلّها وهطل مطر غزير كادت معه مكّة أن تغرق.

ثمّ يقول الشهرستاني: هذه الواقعة، التي تدل على علم أبي طالب بنبوة ابن أخيه ورسالته منذ طفولته تؤكّد إيمانه به، وهذا أبيات أنشدها أبو طالب بعد ذلك بتلك المناسبة:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه	ثمال اليتامى عصمة للأرامل
يلوذ به الهلاك من آل هاشم	فهم عنده في نعمة وفواضل
وميزان عدل لا يخيس شعيرة	ووزان صدق وزنه غير عائل

إنّ حكاية إقبال قريش على أبي طالب‌ؑ عند الجفاف، واستشفاع أبي طالب إلى الله بالطفل قد ذكرها غير الشهرستاني عدد آخر من كبار المؤرّخين[٢].

---

١ ـ ملخص ما ورد في سيرة ابن هشام، ج ١، ص ١٩١، وسيرة الحلبي، ج ١، ص ١٣١، وكتب أُخرىٰ.

٢ ـ وقد أورد العلّامة الاميني‌ؒ صاحب كتاب «الغدير» هذه الحكاية وذكر أنّه نقلها من «شرح البخاري» و«المواهب اللدنية» و«الخصائص الكبرىٰ» و«شرح بهجة المحافل» و «السيرة الحلبية» و«السيرة النبوية» و«طلبة الطالب».

«الغدير»، ج ٧، ص ٣٤٦

أشعار ابي‌طالب شاهد حي

٢ ـ إضافة إلى كتب التّأريخ المعروفة، فانّ بين أيدينا شعراً لأبي طالب جمع في **«ديوان أبي طالب»**، ومنه الأبيات التّالية:

والله لن يصلوا إليك بجمعهم حتى أوسد في التراب دفينا
فاصدع بأمرك ما عليك غضاضة وابشر بذاك وقر منك عيونا
ودعوتني وعلمت أنك ناصحي ولقد دعوت وكنت ثمّ أميناً
ولقد علمت بأنّ دين محمّد من خير أديان البرية دينا

كما قال أيضاً:

ألم تعلموا أنا وجدنا محمّداً رسولاً كموسى خط في أوّل الكتب
وإنّ عليه في العباد محبّة ولا حيف في من خصّه الله بالحبّ[1]

يذكر ابن أبي الحديد طائفة كبيرة من أشعار أبي طالب، ثمّ يقول: إن هذه الأشعار لا تدع مجالاً للشك أنّ أبا طالب كان يؤمن برسالة ابن أخيه.

٣ ـ ثمّة أحاديث منقولة عن رسول الله صلى الله عليه وآله تؤكّد شهادته بإيمان عمه الوفي أبي طالب، من ذلك ما ينقله لنا صاحب كتاب «أبو طالب مؤمن قريش» فيقول: عندما توفي أبو طالب رثاه رسول الله صلى الله عليه وآله وهو على قبره، قائلاً: **«وا أبتاه! وا أبا طالباه واحزناه عليك! كيف أسلو عليك يا من ربيتني صغيراً، واجبتني كبيراً، وكنت عندك بمنزلة العين من الحدقة والروح من الجسد»**[2]. وكثيراً ما كان رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: **«ما نالت منّي قريش شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب»**[3].

٤ ـ من المتفق عليه أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قد أمر بقطع كل رابطة صحبة له بالمشركين، وكان ذلك قبل وفاة أبي طالب بسنوات، وعليه فانّ ما أظهره رسول الله صلى الله عليه وآله من الحبّ والتعلق بأبي طالب يدل على أنّه كان يرى في أبي طالب تابعاً لمدرسة التوحيد، وإلّا فكيف ينهىٰ الآخرين عن مصاحبة المشركين، ويبقى هو على حبّه العميق لأبي طالب؟

١ ـ **«الغدير»**، ج ٨.
٢ ـ «شيخ الأباطح» نقلاً عن «أبو طالب مؤمن قريش».
٣ ـ الطبري، نقلاً عن «أبو طالب مؤمن قريش».

ايطعنون علىٰ أبي طالب أو علىٰ رسول الله؟

٥ ـ في الأحاديث التي وصلتنا عن أهل البيت عليهم السلام أدلة وافرة على إيمان أبي طالب وإخلاصه، ولا يسع المجال هنا لذكرها، وهي أحاديث تستند إلى الاستدلال المنطقي والعقلي، كالحديث المنقول عن الإمام زين العابدين عليه السلام الذي قال ـ بعد أن سئل عن إيمان أبي طالب وأجاب الإيجاب ـ: «إنّ هنا قوماً يزعمون أنّه كافر ... **واعجبا كل العجب! أيطعنون على أبي طالب أو على رسول الله** صلى الله عليه وآله **وقد نهاه الله أن تقرّ مؤمنة مع كافر في غير آية من القرآن (أي في أكثر من آية) ولا يشك أحد أن فاطمة بنت أسد رضي الله تعالى عنها من المؤمنات السابقات، فأنّها لم تزل تحت أبي طالب حتى مات أبو طالب رضي الله عنه**»[1].

ثلاث سنوات في الشعب

٦ ـ وإذا تركنا كل هذا جانباً، فاننا قد نشك في كل شيء إلّا في حقيقة كون أبي طالب كان على رأس حماة الإسلام ورسول الإسلام، وكانت حمايته تتعدى الحدود المألوفة بين أبناء العشيرة والعصبيات القبلية ولا يمكن تفسيرها بها.

ومن الأمثلة الحيّة على ذلك حكاية (شعب أبي طالب) يجمع المؤرّخون على أنّه عندما حاصرت قريش النّبي صلى الله عليه وآله والمسلمين محاصرة إقتصادية وإجتماعية وسياسية شديدة وقطعت علائقها بهم، ظل أبو طالب الحامي والمدافع الوحيد عنهم مدّة ثلاث سنوات ترك فيها كل أعماله، وسار ببني هاشم إلى واد بين جبال مكّة يعرف بشعب أبي طالب فعاشوا فيه، وقد بلغت تضحياته حداً أنّه، فضلاً عن بنائه الأبراج الخاصّة للوقوف بوجه أي هجوم قد تشنه قريش عليهم، كان في كل ليلة يوقظ رسول الله صلى الله عليه وآله من نومه ويأخذه إلى مضجع آخر يعده له ويجعل ابنه الحبيب إليه علياً عليه السلام في مكانه، فإذا ما قال له ابنه علي عليه السلام: يا أبة، إنّ هذا سيوردني موارد الهلكة، أجابه أبو طالب عليه السلام: ولدي عليك بالصبر، كل حي إلى ممات، لقد جعلت فداء ابن عبدالله الحبيب، فيرد علي عليه السلام: يا أبه، ما قلت لك ذلك خوفاً من الموت في سبيل محمّد صلى الله عليه وآله، بل كنت أريدك أن تعلم مدى طاعتي لك واستعدادي للوقوف إلى جانب

---

١ ـ كتاب «الحجة» و«الدرجات الرفيعة» نقلاً عن «الغدير» ج ٨، ص ٣٨٠.

محمّد ﷺ[١]. إنّنا نرى أن من يترك التعصب، ويقرأ ـ بغير تحيز ـ ما كتبه التّأريخ بحروف من ذهب عن أبي طالب، سيرفع صوته مع صوت ابن أبي الحديد منشداً:

ولولا أبو طالب وابنه   لما مثل الدين شخصاً وقاماً
فذاك بمكّة آوى وحامى   وهذا بيثرب جس الحماما[٢]

عام الحزن

٧ ـ إنّ تأريخ حياة أبي طالب وتضحياته العظيمة للنّبي ﷺ وعلاقة النّبي ﷺ والمسلمين الشديدة به إلى درجة أنّ النّبي سمىٰ عام وفاته بـ «عام الحزن» كل ذلك يدل على أنّه كان يعشق الإسلام، ولم يكن دفاعه عن النّبي على أنّه أحد أرحامه، بل دفاع رجل مؤمن مخلص وعاشق نظيف وجندي مضحٍّ عن قائده وإمامه.. فمع هذه الحالة، كم يبلغ الجهل والغفلة والظلم وعدم الشكر بطائفة أن تصرّ على أنّ هذا الرجل المخلص المؤمن الموحّد مات مشركاً.

١ ـ الغدير، ج ٧، ص ٣٥٧ ـ ٣٥٨ بتصرف.

٢ ـ الغدير، ص ٨٦.

عداء ابي لهب

اسمه «عبد العزى» وكنيته «أبو لهب» وقيل إنّه كني بذلك لحمرة كانت في وجهه.

وامرأته «أم جميل» أُخت أبي سفيان، وكانت من أشدّ النّاس عداوة وأقذعهم لساناً تجاه النّبيﷺ ودعوته.

وفي الرّواية عن «طارق المحاربي» قال: بينا أنا بسوق ذي المجاز إذا أنا بشاب يقول: «يا أيّها النّاس قولوا لا إله إلّا الله تفلحوا». وإذا برجل خلفه يرميه قد أرمى ساقيه وعرقوبيه ويقول: يا أيّها النّاس إنّه كذاب فلا تصدقوه. فقلت: من هذا؟ فقالوا هو محمّد يزعم أنهّ نبيّ. وهذا عمّه أبولهب يزعم أنّه كذاب.

وفي رواية عن « ربيعة بن عباد» قال: كنت مع أبي أنظر إلى رسول اللهﷺ يتبع القبائل، ووراءه رجل أحول وضيء الوجه. يقف رسول الله ﷺ على القبيلة فيقول:«يا بني فلان. إنّي رسول الله إليكم. آمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وأن تصدقوني وتمنعوني حتى أنفذ عن الله ما بعثني به». وإذا فرغ من مقالته قال: الآخر من خلفه: يا بني فلان. هذا يريد منكم أن تسلخوا اللات والعزى وحلفاءكم من الجن، إلى ما جاء به من البدعة والضلالة، فلا تسمعوا له، ولا تتبعوه. فقلت لأبي: من هذا؟ قال: عمّه أبولهب.

ابولهب يتتبّع النّبي كالظل

كلما جاء وفد إلى النّبي ﷺ يسألون عن عمّه أبي لهب ـ اعتباراً بكبره وقرابته وأهميته ـ كان يقول لهم: إنّه ساحر، فيرجعون ولا يلقونه، فأتاه وفد فقالوا: لا ننصرف حتى نراه، فقال: إنا لم نزل نعالجه من الجنون فتباً له وتعساً.

إن أبالهب كان يتتبع النّبيﷺ غالباً كالظلّ. وما كان يرى سبيلاً لإيذائه إلّا سلكه. وكان يقذعه بأفظع الألفاظ. ومن هنا كان أشدّ أعداء الرسول والرسالة. إنّه الوحيد الذي لم يـوقع على ميثاق حماية بني هاشم للرسولﷺ، ووقف في صف الأعداء، واشترك في عهودهم.

تبّت يدىٰ أبي لهب

عن ابن عباس قال: عندما نزلت﴿**وانذر عشيرتك الأقربين**﴾ أمـر النّـبي ﷺ أن يـنذر عشيرته ويدعوهم إلى الإسلام (أي أن يعلن دعوته).

صعد النّبي ﷺ على جبل الصفا ونادى: «يا صباحاه»! (وهو نداء يطلقه العـرب حـين يهاجمون بغتة كي يتأهبوا للمواجهة، وإنّما اختاروا هذه الكلمة لأنّ الهجوم المباغت كـان يحدث في أوّل الصبح غالباً).

عندما سمع أهل مكّة هذا النداء قالوا: من المنادي؟ قيل: محمّد. فاقبلوا نحوه، وبدأ ينادي قبائل العرب باسمائها، ثمّ قال لهم: أرأيتم لو أخبرتكم أن العدوّ مصبحكم أو ممسيكم، أمـا كنتم تصدقوني.

قالوا: بلى.

قال: فإنّي نذير لكم بين يدي عذاب شديد.

فقال أبولهب: تبّاً لك. لهذا دعوتنا جميعاً؟!

فأنزل الله سورة المسد.

والقرآن يرد على هذا الإنسان البذيء ويقول له:

﴿**تبت يدا أبي لهب وتب**﴾.

﴿**ما أغنى عنه ماله وما كسب**﴾،

فليس با مكان أمواله أن تدرأ عنه العذاب الالهي

﴿**سيصلى ناراً ذات لهب**﴾[1].

من الآية الأولى نفهم أنّه كان ثرياً ينفق أمواله في محاربة النّبيﷺ.

وأبولهب ناره ذات لهب يصلاها يوم القيامة. وقيل: يصلاها في الدنيا قبل الآخرة.

---

١ ـ المسد، ٣ ـ ١.

حمّالة الحطب

﴿وامرأته حمالة الحطب، في جيدها حبل من مسد﴾[1].

القرآن الكريم يتحدث عن « أم جميل» امرأة أبي‌لهب، وأخت أبي سفيان، وعمّة معاوية. ويصفها بأنّها تحمل الحطب كثيراً، وفي رقبتها حبل من ليف النخيل.

«مسد» هو الحبل المفتول من الألياف. وقيل: حبل يوضع على رقبتها في جهنّم، له خشونة الألياف وحرارة النّار وثقل الحديد.

وقيل: إنّ نساء الأشراف كن يرين شخصيتهنّ في وسائل الزينة وخاصّة القلادة الثمينة. والله سبحانه يلقي في عنقها يوم القيامة حبل من ليف للإهانة. أو إن التعبير أساساً للتحقير والإهانة. وقيل: إنّ هذه العبارة تشير إلى أنّ أم جميل أقسمت أن تنفق ثمن قلادتها الثمينة على طريق معاداة الرسول ﷺ. ولذلك تقرر لها هذا العذاب.

عبر في عاقبة أبي لهب

جاء في الرّواية، أنّ أبالهب لم يشترك في بدر، بل ارسل من ينوب عنه. وبعد انـدحار المشركين وعودتهم إلى مكّة، هرع أبولهب ليسأل أبا سفيان عن الخبر. فأخبره أبوسفيان بالهزيمة وقال: «وايم الله ما لُمت النّاس. لقينا رجالاً بيضاً على خيل بلق بين السماء والأرض...» قال أبو رافع (مولى العباس) وقد كان جالساً: تلك الملائكة. فرفع أبولهب يده فضرب وجهه ضربة شديدة، ثمّ حمله وضرب به الأرض، ثمّ برك عليه يضربه وكان رجلاً ضعيفاً.

وما أن شهدت أم الفضل(زوجة العباس)، وكانت جالسة أيضاً، ذلك حتى أخذت عموداً وضربت أبالهب على رأسه وقالت: تستضعفه إن غاب عنه سيّده؟! فقام مولياً ذليلاً.

قال أبو رافع: فوالله ما عاش إلّا سبع ليال حتى رماه الله بالعدسة (مرض يشبه الطاعون) فمات. وقد تركه أبناه ليلتين أو ثلاثة ما يدفنانه حتى انتن في بيته.

فلما عيّرهما النّاس بذلك أخذ وغُسل بالماء قذفا عليه من بعيد، ثمّ أخذوه فدفنوه بأعلى مكّة وقذفوا عليه الحجارة حتى واروه.

---

١ ـ المسد، ٥ ـ ٤.

يستمع ابو سفيان و ابوجهل سرّاً

إنّ أبا سفيان وأبا جهل، والأخنس بن شريق ... خرجوا ليلة ليستمعوا إلى رسول اللهﷺ وهو يصلي من الليل في بيته. فأخذ كلٌّ رجل منهم مجلساً يستمع فيه، وكلٌّ لا يعلم بمكان صاحبه، فباتوا يستمعون له، حتىٰ إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق، فتلاوموا، وقال بعضهم لبعض: لا تعودوا، فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئاً! ثمّ انصرفوا. حتىٰ إذا كانت الليلة الثّانية عاد كلٌّ رجل منهم إلى مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتىٰ إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق، فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أوّل مرّة! ثمّ انصرفوا. حتىٰ إذا كانت الليلة الثّالثة أخذ كلٌّ رجل منهم مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتىٰ إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق فقال بعضهم لبعض: لا نبرح حتىٰ نتعاهد ألا نعود! فتعاهدوا على ذلك، ثمّ تفرقوا.

فلمّا أصبح الأخنس أخذ عصاه، ثمّ خرج حتىٰ أتىٰ أبا سفيان في بيته، فقال: أخبرني ـ يا أبا حنظلة ـ عن رأيك فيما سمعت من محمّد. فقال: يا أبا ثعلبة، والله لقد سمعت أشياء أعرفها، وأعرف ما يراد بها، وسمعت أشياء ما عرفت معناها، ولا ما يراد بها.

قال الأخنس: وأنا والذي حلفت به.

قال: ثمّ خرج من عنده حتىٰ أتىٰ أبا جهل، فدخل عليه بيته، فقال: يا أبا الحكم، ما رأيك فيما سمعت من محمّد؟

فقال: ماذا سمعت!؟ تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف. أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتىٰ إذا تجاثينا على الركب، وكنّا كفرسي رهان، قالوا: منّا نبي

يأتيه الوحي من السماء. فمتىٰ ندرك مثل هذه؟ والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه!!.

قال: فقام عنه الأخنس وتركه.

نعم، جاذبية القرآن ردت هؤلاء إلى أنفسهم ليالي متوالية، وكانوا حتىٰ بياض الصبح غرقىٰ هذه الجاذبية الإلهية، لكن التكبر والتعصب والحرص على المصالح المادية كان مسلطاً عليهم بحيث منعهم من قبول الحق.

ولا شك أنّ هذا النّور الإلهي له هذه القدرة على أن يجذب إليه كل قلب مستعد أينما كان.

وروي أنّه التقى أخنس وأبو جهل فقال له: يا أبا الحكم، اخبرني عن محمّد أصادق هو أم كاذب، فإنّه ليس ها هنا أحد غيري وغيرك يسمع كلامنا، فقال أبو جهل: ويحك والله إنّ محمّداً لصادق وما كذب قط، ولكن إذا ذهب بنو قصي باللواء والحجابة والسقاية والندوة والنّبوة فماذا يكون لسائر قريش؟!

المهاجرون الأول في الإسلام

في السنوات الأُولىٰ من بعثة رسول الله ﷺ ودعوته العامّة كان المسلمون أقلية ضعيفة، وكانت قريش قد تواصت أن تضيق الخناق على مواليها وأتباعها الذين يؤمنون برسول الله ﷺ، وعلى هذا فقد أصبح كلّ مسلم واقعاً تحت ضغط عشيرته وقومه يومئذٍ لم يكن عدد المسلمين يكفي للقيام بجهاد تحرري.

ولكي يحافظ رسول الله ﷺ على حياة هذه الجماعة القليلة، ويهيىء قاعدة للمسلمين خارج الحجاز، إختار لهم الحبشة وأمرهم بالهجرة إليها قائلاً: «**إنّ بها ملكاً صالحاً لا يظلم ولا يُظلم عنده أحد فاخرجوا إليه حتى يجعل الله عزّ وجلّ للمسلمين فرجاً**».

كان رسول الله ﷺ يقصد النجاشي (النجاشي اسم عام لجميع سلاطين الحبشة، مثل كسرىٰ لملوك إيران، أمّا النجاشي المعاصر لرسول الله ﷺ فهو (أصحمة)، أي العطية والهبة بلغة الأحباش).

فهاجر أحد عشر رجلاً وأربع نساء من المسلمين إلى الحبشة بحراً على ظهر سفينة صغيرة استأجروها، كان ذلك في شهر رجب من السنة الخامسة من البعثة، وقد أُطلق عليها اسم الهجرة الأُولىٰ.

ولم يمض على ذلك وقت طويل حتى لحقهم **جعفر بن أبي طالب** وجمع من المسلمين، فكانوا مع السابقين جمعاً مؤلفاً من ٨٢ رجلاً سوىٰ النساء والصبيان، وشكلت هذه المجموعة النواة الأُولىٰ للتجمع الإسلامي المنظم.

المشركون يطاردون المهاجرين

كان لفكرة هذا الهجرة وقع شديد على عبدة الأصنام، لأنّهم أدركوا جيداً أنّه لن يمضي زمن طويل حتى يكون عليهم أن يواجهوا جمعاً قوياً من المسلمين الذين اعتنقوا الإسلام ـ بالتدريج ـ ديناً لهم في أرض الحبشة حيث الأمن والأمان.

فشمروا عن ساعد الجد لإحباط تلك الفكرة، فاختاروا اثنين من فتيانهم الأذكياء المعروفين بالدهاء والمكر، وهما (عمرو بن العاص) و(عمارة بن الوليد) وحملوهما مختلف الهدايا والتحف إلى النجاشي ليوغروا صدره على المسلمين فيطردهم من بلاده، وعلى ظهر السفينة التي أقلت هذين إلى الحبشة سكرا وتخاصما إلّا أنّهما ـ لكي ينفذا المهمّة التي جاءا من أجلها ـ نزلا إلى البر الحبشي، وحضرا مجلس النجاشي بكثير من الأبهة، وخاصّة بعد أن اشتريا ضمائر حاشية النجاشي بالكثير من الهدايا والرشاوي، فوعدهم هؤلاء بالوقوف إلى جانبهما وتأييدها.

بدأ عمرو بن العاص كلامه للنجاشي قائلاً: «أيّها الملك، إنّ قوماً خالفونا في ديننا وسبوا آلهتنا، وصاروا إليك فردهم إلينا».

ثمّ قدما ما حملاه من هدايا إلى النجاشي.

فوعدهم النجاشي أن يبت بالأمر بعد استجواب ممثلي اللآجئين وبعد التشاور مع حاشيته.

جعفر بن ابيطالب متحدّث المهاجرين

وفي يوم آخر عقدت جلسة حافلة حضرتها حاشية النجاشي وجمع من العلماء المسيحيين، وممثل المسلمين جعفر بن أبي طالب، ومبعوثا قريش، وبعد أن استمع النجاشي إلى أقوال مبعوثي قريش، إلتفت إلى جعفر وطلب منه بيان ما لديه.

قال جعفر: يا أيّها الملك سلهم، أنحن عبيد لهم؟

فقال عمرو: لا، بل أحرار كرام.

جعفر: سلهم ألهم علينا ديون يطالبوننا بها؟

عمرو: لا، ما لنا عليكم ديون.

جعفر: فلكم في أعناقنا دماء تطالبونا بذخول بها؟

عمرو: لا.

جعفر: فما تريدون منّا؟ أذيتمونا فخرجنا من دياركم، ثمّ قال:

«نعم أيّها الملك خالفناهم بعث الله فينا نبيّاً أمرنا بخلع الأنداد وترك الإستقسام بالأزلام، وأمرنا بالصّلاة والزّكاة، وحرّم الظلم والجور وسفك الدّماء بغير حقّها، والزنا والربا والميتة والدّم ولحم الخنزير، وأمرنا بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربىٰ، ونهانا عن الفحشاء والمنكر والبغي».

فقال النّجاشي: بهذا بعث الله عيسى، ثمّ قال النجاشي لجعفر:

هل تحفظ ممّا أنزل الله على نبيّك شيئاً؟

قال جعفر: نعم، فقرأ سورة مريم، فلمّا بلغ قوله: **﴿وهزي إليكِ بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنيا﴾** قال: هذا والله هو الحقّ.

فقال عمرو: إنّه مخالف لنا فردّه إلينا.

فرفع النجاشي يده وضرب بها وجه عمرو وقال: اسكت، والله لئن ذكرته بعد بسوء لأفعلنّ بك وقال: ارجعوا إلى هذا هديته، وقال لجعفر وأصحابه: إمكثوا فإنّكم آمنون[١].

كان لهذا الحدث أثر بالغ بعيد المدىٰ، ففضلاً عمّا كان له من أثر إعلامي عميق في تعريف الإسلام لجمع من أهل الحبشة، فإنّه شد من عزيمة المسلمين في مكّة وحملهم على الإطمئنان والثقة بقاعدتهم في الحبشة لإرسال المسلمين الجدد إليها، إلى أن يشتد ساعدهم وتقوى شوكتهم.

لا ادري أنا بفتح خيبر أسرّ أم بقدوم جعفر؟

ومضت سنوات، وهاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة، وارتفع شأن الإسلام، وتمّ التوقيع على صلح الحديبية، وتوجه رسول الله ﷺ لفتح خيبر، وفي ذلك اليوم الذي كان فيه المسلمون يكادون يطيرون فرحاً لتحطيمهم أكبر قلعة للأعداء اليهود، فإذا بهم يشهدون من بعيد قدوم جمع من الناس صوبهم، ثمّ ما لبثوا حتى عرفوا أن أُولئك لم يكونوا سوىٰ

---

١ ـ ذكر جمع من المفسرين أنّ الآيات ٨٦ ـ ٨٢ من سورة المائدة نزلت في النجاشي و أصحابه.

المهاجرين الأوائل إلى الحبشة وقد عادوا في ذلك اليوم إلى أوطانهم بعد أن تحطمت قوىٰ الأعداء الشيطانية، وقويت جذور شجيرة الإسلام النامية.

وإذ شاهد رسول الله ﷺ مهاجري الحبشة، قال قولته التّأريخية: «**لا أدري أنا بفتح خيبر أسر أم بقدوم جعفر**»؟!

يروى أنّ جعفر وأصحابه جاؤوا إلى رسول الله ﷺ ومعهم سبعون رجلاً، اثنان وستون من الحبشة وثمانية من أهل الشام فيهم بحيراء الراهب، فقرأ عليهم رسول الله ﷺ سورة «يٰس» إلى آخرها فبكوا حتى سمعوا القرآن وآمنوا وقالوا: ما اشبه هذا بما كان ينزل على عيسى عليه السلام.

وروي أنّ النجاشي أرسل ثلاثين شخصاً من أخلص أتباعه إلى المدينة لإظهار حبّه لرسول الله ﷺ وللإسلام، أُولئك هم الذين إستمعوا إلى آيات سورة «يس» فأسلموا.

المعراج

مِن المعروف والمشهور بين علماء الإسلام أنَّ رسول اللّهﷺ عند ما كان في مكّة! أسرىٰ بِهِ اللّه تبارك وتعالىٰ بقدرته مِن المسجد الحرام إلىٰ المسجد الأقصىٰ، وَمِن هُناك صعد بِهِ إلىٰ السماء «المعراج» ليرىٰ آثار العظمة الرّبانية وآيات اللّه الكبرىٰ في فضاء السماوات، ثمّ عادﷺ في نفس الليلة إلىٰ مكّة المكرمة.

والمعروف المشهور أيضاً أنّ سفر الرّسولﷺ في الإسراء والمعراج قد تمَّ بجسم رسول اللّهﷺ وروحه معاً.

ولكن العجيب ما يحاولهُ البعض مِن توجيه معراج الرّسولﷺ بالمعراج الروحي والذي هو حالة شبيهة بالنوم أو «المكاشفة الروحية» ولكن هذا التوجيه ـ كما أشرنا ـ لا ينسجم اطلاقاً معَ ظواهر الآيات، بل هو مخالف لها، إذ يدل الظاهر علىٰ أنَّ القضية تمت بشكلٍ جسمي حسي.

المعراج في القرآن والحديث

في كتاب اللّه سورتان تتحدثان عن المعراج:

السورة الأُولىٰ هي سورة «الإسراء»، وقد أشارت إلىٰ القسم الأوّل مِن سفر الرّسولﷺ (أي أشارت لإسراءهﷺ مِن المسجد الحرام إلىٰ المسجد الأقصىٰ) وقد أُستتبع الإسراء بالمعراج.

السورة الثّانية التي أشارت للمعراج هي سورة «النجم» التي تحدثت عنهُ في ستِ آيات

هي: ﴿ولقد رآه نزلة أُخرىٰ عند سدرة المُنتهىٰ عِندها جنة المأوى إذ يغشىٰ السدرة ما يغشىٰ ما زاغَ البصر وما طغىٰ لقد رأى من آيات ربّه الكبرىٰ﴾.

هذه الآيات تفيد حسب أقوال المفسّرين أنَّ الإسراء والمعراج تمّا في حالة اليقظة، وإنّ قوله تعالىٰ: ﴿ما زاغَ البصر وما طغىٰ﴾ هو إثبات آخر لصحة هذا القول.

في الكتب الإسلامية المعروفة هُناك عدد كبير جدّاً مِن الأحاديث والرّوايات التي جاءت حول قضية المعراج، حتىٰ أنَّ الكثير من علماء الإسلام يذهب إلىٰ «تواتر» حديث المعراج أو اشتهاره.

تاريخ وقوع المعراج

هناك أيضاً اختلافات بين المؤرّخين المسلمين حول تاريخ وقوع المعراج، إذ يقول البعض: أنّه حصل في السنة العاشرة للبعثة في ليلة السابع والعشرين مِن شهر رجب، والبعض يقول: إنَّهُ عرجَ بهﷺ في (١٧) رمضان مِن السنة الثّانية عشرة للبعثة المباركة. وبعض ثالث قال: إنَّ المعراج وَقَع في أوائل البعثة.

ولكن في كل الأحوال، فإنَّ الإختلاف في تأريخ وقوع المعراج لا ينفي أصل الحادثة.

مِن المفيد أيضاً أن نذكر أنَّ عقيدة المعراج لا تقتصر علىٰ المسلمين، بل هُناك ما يُشابهها في الأديان الأخرىٰ، بل إنا نرىٰ في المسيحية أكثر ممّا قيل في معراج النّبيﷺ، إذ يقول أُولئك كما في الباب السّادس مِن إنجيل «مرقس» والباب (٢٤) مِن إنجيل «لوقا» والباب (٢١) مِن إنجيل (يوحنّا) أن عيسىٰ بعد أن صُلب وقتل ودفن نهض مِن مدفنه وعاش بين الناس أربعين يوماً قبل أن يعرج إلىٰ السماء ليبقىٰ هناك في عروجٍ دائم! ونستفيد مِن مؤدّىٰ بعض الرّوايات أنّ بعض الانبياء السابقين عُرِجَ بهم إلىٰ السماء أيضاً.

إنّ النّبي واصل معراجه إلى السماء خلال مراحل عديدة.

١ ـ **المرحلة الأُولى**: وهي ما بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى وقد أُشير إليها في الآية الأُولى من سورة الإسراء: ﴿**سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى**﴾.

وتقول بعض الرّوايات أنّ النّبي ﷺ نزل في المدينة أثناء إسرائه مع جبرئيل فصلّى بها.

كما صلّى أيضاً في المسجد الأقصى مع أرواح الأنبياء العظام كإبراهيم وموسى

وعيسى عليه السلام، وكان النّبي صلى الله عليه وآله إمامهم في الصلاة، ثمّ بدأ المعراج إلى السماوات السبع فجابهنّ سماءً بعد سماء وواجه في كلّ سماء مشاهدَ جديدة، فالتقى الملائكة والنبيين في بعضها، والجنّة وأهلها في بعضها، والنار وأهلها في بعضها، وحمل من كلّ في خاطره وروحه ذكريات قيّمة، وشاهد في عجائب كلّ واحدة منها رمز من رموز عالم الوجود وسرّ من أسراره، وبعد عودته ذكرها لأُمّته صراحةً أحياناً وبالكناية أو المجاز أحياناً، وكان يستلهم منها لتربية أُمّته وتعليمه بكثرة.

وهذا الأمر يدلّ على أنّ واحداً من أهداف هذا السَفَر السماوي الإستفادة من النتائج العرفانيّة والتربوية لهذه المشاهدات، والتعبير القرآني الغزير ﴿لقد رأى من آيات ربّه الكبرى﴾[1] يمكن أن يكون إشارة إجمالية لجميع هذه الأُمور.

وكما ذكرنا آنفاً فإنّ الجنّة والنار اللتين رآهما النّبي صلى الله عليه وآله في معراجه والأشخاص الذين كانوا منعّمين أو معذّبين فيهما لم تكونا جنّة القيامة ونارها، بل هما جنّة البرزخ وناره، لأنّه طبقاً لآيات القرآن فإنّ الجنّة والنار تكونان بعد يوم القيامة والفراغ من الحساب معدّتين للمتّقين والمسيئين.

وأخيراً وصل النّبي إلى السماء السابعة ورأى حجُباً من النور هناك حيث «سدرة المنتهى» و «جنّة المأوى» وبلغ النّبي هناك وفي العالم النوراني أوج الشهود الباطني والقرب إلى الله قاب قوسين أو أدنى ... وخاطبه الله هناك وأوحى إليه تعاليم مهمّة وأحاديث كثيرة نراها اليوم في الرّوايات الإسلامية تحت عنوان الأحاديث القدسيّة، وسنعرض قسماً منها بإذن الله في الفصل المقبل.

الطريف هنا هو أنّ الرّوايات الكثيرة تصرّح بأنّ النّبي صلى الله عليه وآله رأى أخاه وابن عمّه علياً في مراحل مختلفة من معراجه بصورة مفاجئة، وما نجده من التعابير في هذه الرّوايات كاشف عن مدى مقام علي وفضله بعد النّبي صلى الله عليه وآله.

وعلى الرغم من كثرة الرّوايات في شأن المعراج فهناك تعابير مغلقة ذات أسرار ليس من الهيّن كشف محتواها وهي كما يصطلح عليها من الرّوايات المتشابهة .. أي الرّوايات التي ينبغي إحالة تفسيرها على أهل بيت العصمة!

---

١ ـ النجم، ١٨.

وقد ذكرت كتب أهل السنّة روايات المعراج بشكل موسّع بحيث نقل ثلاثون راوية من رواتهم حديث المعراج.

وهنا ينقدح السؤال التالي وهو: كيف تمّ كلّ هذا السفر الطويل وهذه المشاهدات العجيبة والمتنوّعة والأحداث الطويلة في ليلة واحدة، بل في جزء منها؟!

ولكن يتّضح الجواب على السؤال بملاحظة أنّ سفر المعراج لم يكن سفراً بسيطاً كالمعتاد حتّى يقاس بالمعايير المعتادة! فلا السفر كان طبيعيّاً ولا وسيلته وركوبه ولا مشاهده ولا أحاديثه ولا المعايير الواردة فيها كمعاييرنا المحدودة والصغيرة على كرتنا الأرضية فكلّ شيء كان في المعراج خارقاً للعادة! وكان وفق مقاييس خارجة عن زماننا ومكاننا.

فبناءً على هذا لا مجال للعجب أن تقع كلّ هذه الأمور بمقياس ليلة أو أقل من ليلة من مقاييس ـ الكرة الأرضية ـ الزمانية.

هل كان المعراج جسدياً أم روحياً؟

إن ظاهر الآيات القرآنية الواردة في أوائل سورة الإسراء، وكذلك سورة النجم تدلل على وقوع المعراج في اليقظة، ويؤكّد هذا الأمر كبار علماء الإسلام من الشيعة والسنة.

وتشهد التواريخ الإسلامية أيضاً على صدق هذا الموضوع، ونقرأ في التأريخ أن المشركين أنكروا بشدّة قضية المعراج عندما تحدث بها الرّسولﷺ، وأخذوها عليه ذريعة للإستهزاء به، ممّا يدل بوضوح على أن الرّسول لم يدّع الرؤية أو المكاشفة الروحية أبداً، وإلّا لما استتبع القضية كل هذا الضجيج.

أمّا ما ورد عن الحسن البصري أنّه (كان في المنام رؤيا رآها) أو عن عائشة أنّه: (واللّه ما فُقِدَ جسد رسول اللّه ولكن عرج بروحه)، فيبدو أنّ لذلك منظور سياسي، لإخماد الضجّة التي أثيرت حول قضية المعراج.

هدف المعراج

إنّ هدف المعراج لم يكن تجوالاً للرّسولﷺ في السماوات للقاء اللّه كما يعتقد السذج، وكما نقل بعض العلماء الغربيين ـ ومع الأسف ـ لجهلهم أو لمحاولتهم تحريف الإسلام أمام الآخرين، ومنهم (غيور غيف) الذي يقول في كتاب (محمد رسول ينبغي معرفته من جديد،

ص ١٢٠)، (بلغ محمد في سفر معراجه إلىٰ مكان كان يسمع فيه صوت قلم اللّه، ويفهم أنّ اللّه منهمك في تدوين حساب البشر! ومع أنّه كان يسمع صوت قلم اللّه إلّا أنّه لم يكن يراه! لأنّ أحداً لا يستطيع رؤية اللّه وإن كان رسولاً).

وهذا يُظهر أن القلم كان من النوع الخشبي! الذي يهتز ويولد أصواتاً عند حركته علىٰ الورق!! وأمثال هذه الخرافات والأوهام.

كلا. فالهدف كان مشاهدة الرّسول صلى الله عليه وآله لأسرار العظمة الإلٰهية في أرجاء عالم الوجود، لا سيما العالم العلوي الذي يشكل مجموعة من براهين عظمته، وتتغذىٰ بها روحه الكريمة وتحصل علىٰ نظرة وإدراك جديدين لهداية البشرية وقيادتها.

ويتّضح هذا الهدف بشكل صريح في الآية الأُولىٰ من سورة الإسراء، والآية (١٨) من سورة النجم.

وهناك رواية أيضاً منقولة عن الإمام الصادق عليه السلام في جوابه علىٰ سبب المعراج. أنّه قال عليه السلام: **«إن اللّه لا يوصف بمكان، ولا يجري عليه زمان، ولكنّه عزَّ وجلّ أراد أن يشرف به ملائكته وسكان سماواته، ويكرمهم بمشاهدته، ويريه من عجائب عظمته ما يخبر به بعد هبوطه».**

المعراج والعلوم العصرية

كان بعض الفلاسفة القدماء يعتقد بنظرية «الأفلاك البطليموسية التسعة» والتي تكون علىٰ شكل طبقات البصل في إحاطتها بالأرض، لذلك فقد أُنكر المعراج بمزاعم علمية تقوم علىٰ أساس الإيمان بنظرية الهيئة البطليموسية والتي بموجبها يُلزَم خرق هذه الأفلاك ومِن ثمّ التئامها ليكون المعراج ممكناً.

ولكن مع انهيار قواعد نظرية الهيئة البطليموسية أصبحت شبهة خرق والتئام الأفلاك في خبر كان، وضمتها يد النسيان، ولكن التطوّر المعاصر في علم الأفلاك أدّىٰ إلىٰ إثارة مجموعة مِن الشبهات العلمية التي تقف دون إمكانية المعراج علمياً، وهذه الشبهات يمكن تلخيصها كما يلي:

أوّلاً: إنّ أوّل ما تواجه الذي يريد أن يجتاز المحيط الفضائي للأرض إلىٰ عمق الفضاء هو وجوب الإنفلات مِن قوة الجاذبية الأرضية، ويحتاج الإنسان للتخلّص مِن الجاذبية إلىٰ

وسائل إستثنائية تكون معدَّل سرعتها علىٰ الأقل (٤٠) ألف كيلومتر في الساعة.

ثانياً: المانع الآخر يتمثل في خلو الفضاء الخارجي مِن الهواء، الذي هو القوام في حياة الإنسان.

ثالثاً: المانع الثّالث يتمثل بالحرارة الشديدة الحارقة (للشمس) والبرودة القاتلة، وذلك بحسب موقع الإنسان في الفضاء مِن الشمس.

رابعاً: هناك خطر الإشعاعات الفضائية القاتلة كالأشعة الكونية والأشعة ما وراء البنفسجية وأشعة إكس، إذ مِن المعروف أنّ الجسم يحتاج إلىٰ كميات ضئيلة مِن هذه الإشعاعات، وهي بهذا الحجم لا تشكّل ضرراً علىٰ جسم الإنسان ووجود طبقة الغلاف الجوي يمنع من تسربها بكثرة إلىٰ الأرض.، ولكن خارج محيط الغلاف الجوّي تكثُر هذه الإشعاعات إلىٰ درجة تكون قاتلة.

خامساً: هُناك مُشكلة فقدان الوزن التي يتعرض لها الإنسان في الفضاء الخارجي، فمن الممكن للإنسان أن يتعوّد تدريجياً علىٰ الحياة في أجواء انعدام الوزن، إلّا أنَّ انتقاله مرّة واحدة إلىٰ الفضاء الخارجي ـ كما في المعراج ـ هو أمرٌ صعب للغاية، بل غير ممكن.

سادساً: المشكلة الأخيرة هي مُشكلة الزمان، حيثُ تؤكد علوم اليوم علىٰ أنَّهُ ليست هُناك وسيلة تسير أسرع مِن سرعة الضوء، والذي يريد أن يجول في سماوات الفضاء الخارجي يحتاج إلىٰ سرعة تكون أسرع مِن سرعة الضوء!

في مُواجهةِ هذه الأسئلة

أوّلاً: في عصرنا الحاضر، وبعد أن أصبحت الرحلات الفضائية بالإستفادة مِن معطيات العلوم أمراً عادياً، فإِنَّ خمساً مِن المشاكل الست الآنفة تنتفي، وتبقىٰ ـ فقط ـ مشكلة الزمن. وهذه المشكلة تثار فقط عند الحديث عن المناطق الفضائية البعيدة جداً.

ثانياً: إنَّ المعراج لم يكن حدثاً عادياً، بل أمرٌ إعجازي خارق للعادة ثمّ بالقدرة الإلٰهية. وكذلك الحال في كافة معجزات الأنبياء وهذا يعني عدم استحالة المعجزة عقلاً، أمّا الأُمور الأُخرىٰ فتتم بالإستناد إلىٰ القدرات الإلٰهية.

وإذا كانَ الإنسان قد استطاع باستثمار لمعطيات العلوم الحديثة أن يوفِّر حلولاً للمشكلات الآنفة الذكر، مثل مشكلة الجاذبية والأشعة وانعدام الوزن وما إلىٰ ذلك، حتىٰ

أصبح بمستطاعه السفر إلىٰ الفضاء الخارجي .. فألا يمكن لله ـ خالق الكون، صاحب القدرات المطلقة ـ أن يوفّر وسيلة تتجاوز المشكلات المذكورة؟!

إنّنا علىٰ يقين من أنّ اللّه تبارك وتعالىٰ وضع في مُتناول رسولهﷺ مركباً مَناسباً صانهُ فيه عن كل المخاطر والأضرار في معراجه نحو السماوات، ولكن ما اسم هذا المركب هل هو «البُراق» أو «رفرف»؟ وعلىٰ أي شكل وهيئةٍ كان؟ كل هذه أُمور غامضة بالنسبة لنا، ولكنّها لا تتعارض مع يقيننا بما تمَّ، وإذا أردنا أن نتجاوز كل هذه الأُمور فإنَّ مشكلة السرعة التي بقيت ـ لوحدها ـ تحتاج إلىٰ حل، فإنَّ آخر معطيات العلم المعاصر بدأت تتجاوز هذه المشكلة بعد أن وجدت لها حلولاً مناسبة بالرغم ممّا يُؤكّده «إنشتاين» في نظريته من أن سرعة الضوء هي أقصىٰ سرعة معروفة اليوم.

إنّ علماء اليوم يُؤكدون أنَّ الأمواج الجاذبة لا تحتاج إلىٰ الزمن، وهي تنتقل في آنٍ واحد من طرفٍ من العالم إلىٰ الطرف الآخر منه وهناك احتمال مطروح بالنسبة للحركة المرتبطة بتوسّع الكون (مِن المعروف أنَّ الكون في حالة اتساع وأنّ النجوم والمنظومات السماوية تبتعد عن بعضها البعض بحركة سريعة) إذ يلاحظ أنَّ الأفلاك والنجوم والمنظومات الفضائية تبتعد عن بعضها البعض وعن مركز الكون إلىٰ أطرافه، بسرعة تتجاوز سرعة الضوء!

إذن، بكلام مُختصر نقول: إنَّ المشكلات الآنفة ليس فيها ما يحول عقلاً دون وقوع المعراج، ودون التصديق به، والمعراج بذلك لا يعتبر مِن المحالات العقلية، بل بالإمكان تذليل المشكلات المثارة حوله بتوظيف الوسائل والقدرات المناسبة.

وبذلك فالمعراج لا يعتبر أمراً غير ممكن لا مِن وجهة الأدلة العقلية، ولا مِن وجهة معطيات وموازين العلوم المعاصرة. وهو بالإضافة إلىٰ ذلك أمرٌ إعجازي خارق للعادة. لذلك، إذا قام الدليل النقلي السليم عليه فينبغي قبوله والإيمان به.

جانب من إيحاءات الله وكلماته لرسوله في ليلة المعراج

إنّ النّبي ﷺ سأل الله سبحانه: يارَبِّ أيّ الأعمال أفضل؟!

فقال تعالى: **«ليس شيء عندي أفضل من التوكّل عليّ والرضا بما قسمت، يامحمّد! وجبت محبّتي للمتحابّين فيّ ووجبت محبّتي للمتعاطفين فيّ ووجبت محبّتي للمتواصلين فيّ، ووجبت محبّتي للمتوكّلين عليّ وليس لمحبّتي علم ولا غاية ولا نهاية.**

وهكذا تبدأ الأحاديث من المحبّة، المحبّة الشاملة والواسعة، وأساساً فإنّ عالم الوجود يدور حول هذا المحور!

وجاء في جانب آخر: «ياأحمد فاحذر أن تكون مثل الصبي إذا نَظَر إلى الأخضر والأصفر أحبّه وإذا أُعطي شيء من الحلو والحامض اغترّ به، فقال: ياربّ دُلّني على عمل أتقرّب به إليك قال: اجعل ليلك نهاراً ونهارك ليلاً قال: ربّ وكيف ذلك؟ قال: اجعل نومك صلاة وطعامك الجوع.

كما جاء في مكان آخر منه: ياأحمد محبّتي محبّة للفقراء فادن الفقراء وقرّب مجلسهم منك أُدنِكَ وبعّد الأغنياء وبعّد مجلسهم منك فإنّ الفقراء أحبّائي.

اهل الدنيا و الآخرة

وجاء في موضع آخر أيضاً: ياأحمد أبغض الدنيا وأهلها وأحبّ الآخرة وأهلها قال ياربّ ومن أهل الدنيا ومن أهل الآخرة؟ قال: أهل الدنيا من كثر أكله وضحكه ونومه وغضبه قليل الرضا لا يعتذر إلى من أساء إليه ولا يقبل معذرة من إعتذر إليه، كسلان عند الطاعة، شجاع عند المعصية، أمله بعيد وأجله قريب، لا يحاسب نفسه قليل المنفعة كثير الكلام، قليل الخوف، كثير الفرح عند الطعام وإنّ أهل الدنيا لا يشكرون عند الرخاء ولا يصبرون عند البلاء، كثير الناس عندهم قليل يحمدون أنفسهم بما لا يفعلون، ويدّعون بما ليس فيهم، ويتكلّمون بما يتمنّون ويذكرون مساويء الناس ويخفون حسناتهم..

قال: ياربّ، هل يكون سوى هذا العيب في أهل الدنيا، قال: ياأحمد إنّ عيب أهل الدنيا كثير فيهم، الجهل والحمق، لا يتواصفون لمن يتعلّمون منه، وهم عند أنفسهم عقلاء وعند العارفين حمقاء..

صفات أهل الجنّة

ثمّ يتناول الحديث أهل الجنّة فيقول:

ياأحمد إنّ أهل الخير وأهل الآخرة رقيقة وجوههم كثير حياؤهم قليل حمقهم، كثير نفعهم، الناس منهم في راحة وأنفسهم منهم في تعب كلامهم موزون، محاسبين لأنفسهم، متعبين

لها، تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم أعينهم باكية وقلوبهم ذاكرة، إذا كُتب الناس في الغافلين كتبوا من الذاكرين، في أوّل النعمة يحمدون وفي آخرها يشكرون دعاؤهم عند الله مرفوع، وكلامهم مسموع، تفرح الملائكة بهم، الناس (الغَفلَة) عندهم موتىٰ والله عندهم حي قيّوم «وهمّتهم عالية فلا ينظرون إلّا إليه» قد صارت الدنيا والآخرة عندهم واحدة يموت الناس مرّة ويموت أحدهم في اليوم سبعين مرّة «ويحيا حياةً جديدة» من مجاهدة أنفسهم ومخالفة هواهم.

وإن قاموا بين يدي كأنّهم البنيان المرصوص لا أرى في قلبهم شغلاً لمخلوق .. فوعزّتي وجلالي لأحيينّهم حياةً طيبةً إذا فارقت أرواحهم أبدانهم ولا أُسلّط عليهم ملك الموت ولا يلي قبض روحهم غيري ولأفتحنّ لروحهم أبواب السماء كلّها ولأرفعنّ الحجب كلّها دوني، ولآمرنّ الجنان فلتزيننّ.

ياأحمد إنّ العبادة عشرة أجزاء تسعة منها طلب الحلال فإذاً طيّبت مطعمك ومشربك فأنت في حفظي وكنفي.

حياة هنيئة و باقية

وجاء في مكان آخر منه: ياأحمد هل تدري أيّ عيش أهنأ وأيّ أبقى؟ قال اللهمّ لا، قال: أمّا العيش الهنيء فهو الذي لا يغترّ صاحبه عن ذكري ولا ينسى نعمتي ولا يجهل حقّي، يطلب رضاي في ليله ونهاره.

وأمّا الحياة الباقية فهي التي يعمل لنفسه حتّى تهون عليه الدنيا وتصغر في عينه وتعظم الآخرة عنده ويؤثر هواي على هواه ويبتغي مرضاتي ويعظّم حقّ عظمتي ويذكر علمي به ويراقبني بالليل والنهار عند كلّ سيّئة أو معصية وينقّي قلبه عن كلّ ما أكره ويبغض الشيطان ووساوسه ولا يجعل لإبليس على قلبه سلطاناً .. فإذا فعل ذلك أسكنت قلبه حبّاً حتّى أجعل قلبه لي وفراغه وإشتغاله وهمّه وحديثه من النعمة التي أنعمت على أهل محبّتي من خلقي .. وافتح عين قلبه وسمعه حتّى يسمع بقلبه وينظر بقلبه إلى جلالي وعظمتي «وحقائق الغيب».

وأخيراً فإنّ هذا الحديث القدسي الكريم يختتم بهذه العبارات المؤثرة! .. ياأحمد لو صلّى العبد صلاة أهل السماء والأرض ويصوم صيام أهل السماء والأرض ويطوي من الطعام مثل

الملائكة، ولبس لباس العاري ثمّ أرى في قلبه من حبّ الدنيا ذرّة أو سعتها أو رئـاستها أو حليّها أو زينتها لا يجاورني في داري ولأنزعنّ من قلبه محبّتي وعليك سـلامي ورحـمتي والحمد لله ربّ العالمين».

هذه الأحاديث القدسيّة «من ربّ العرش» التي تحمل روح الإنسان إلى أوج السماوات معها وتعرج به إلى حالة الشهود هي قسم من الحديث القدسي المشار إليه آنفاً.

ونضيف إلى ذلك أنّنا على يقين أنّه كان بين النّبي ومحبوبه في تلك الليلة الكريمة أسرار وإشارات وكلمات أُخرى لا تستطيع الآذان الإصغاء إليها ولا الأفكار الساذجة إستيعابها ... ولذلك بقيت في نفس النّبي طيّ الكتمان فلم يَبُحْ بها لأحد إلّا لخلصائه المختصّين به.

هجرة النّبيّ صلى الله عليه وآله

إنّ نفراً من قريش اجتمعوا في «دار الندوة» وهي دار قصيّ بن كلاب، وتآمروا في أمر النّبيّ صلى الله عليه وآله فقال عروة بن هشام: نتربص به ريب المنون، وقال أبوا البختري: أخرجوه عنكم تستريحوا من أذاه.

مقترح ابي جهل

وقال أبوجهل: ما هذا برأي، ولكن اُقتلوه بأن يجتمع عليه من كل بطن رجل فيضربوه بأسيافهم ضربة رجل واحد... فيرضى بنو هاشم حينئذٍ بالديّة، فصوّب إبليس هذا الرأي، وكان قد جاءهم في صورة شيخ كبير من أهل نجد، وخطّأ الأولّين.

فاتفقوا على هذا الرأي وأعدّو الرجال والسلاح.

علي عليه السلام يشري نفسه

وجاء جبرئيل عليه السلام فأخبر النّبي صلى الله عليه وآله فخرج إلى الغار وأمَر عليّاً فبات على فراشه.

روى «الثعلبي» مفسّر أهل السنّة المعروف في تفسيره أن النبي صلى الله عليه وآله لمّا أراد الهجرة إلى المدينة خلّف علي بن أبي طالب بمكة لقضاء ديونه وأداء الودائع التي كانت عنده وأمره ليلة خروجه من الدّار وقد أحاط المشركون بالدار أن ينام على فراشه وقال له: اتّشح ببردي الحضرمي الأخضر ونم على فراشي وإنّه لا يصل منهم إليك مكروه إن شاء الله تعالى. ففعل ذلك علي، فأوحى الله تعالى إلى جبرئيل وميكائيل إنّي آخيت بينكما وجعلت عمر أحدكما

أطول من الآخر فأيّكما يؤثر صاحبه بالحياة، فاختار كلاهما الحياة فأوحى الله تعالى إليهما: أفلا كنتما مثل علي بن أبي طالب آخيت بينه وبين محمّد فبات على فراشه يفديه بنفسه ويؤثره بالحياة انزلا إلى الأرض فاحفظاه من عدوّه.

فنزلا فكان جبرئيل عند رأسه وميكائيل عند رجليه وجبرئيل يُنادي بخٍّ بخٍّ مَن مثلك يا علي يُباهي الله تبارك وتعالى بك الملائكة، فأنزل الله على رسوله وهو متوجّه إلى المدينة في شأن علي الآية ﴿ومن النّاس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله والله رءوف بالعباد﴾ [١].

ولهذا سُمّيت هذه اللّيلة التاريخية بليلة المبيت، ويقول ابن عباس نزلت الآية في علي حين هرب رسول الله من المشركين إلى الغار مع أبي بكر ونام علي على فراش النبي.

ويقول (أبو جعفر الإسكافي) [٢] «إنّ حديث الفراش قد ثبت بالتواتر فلا يجحده إلّا مجنون أو غير مخالط لأهل الملّة» [٣].

فلمّا أصبحوا وفتشوا عن الفراش، وجدوا عليّاً عليه السلام وقد ردّ الله مكرهم فقالوا: أين محمّد؟ فقال: لا أدري، فاقتصّوا أثره وأرسلوا في طلبه، فلمّا بلغوا الجبل ومرّوا بالغار رأوا على بابه نسجَ العنكبوت، فقالوا: لو كان ها هنا لم يكن نسج العنكبوت على بابه فمكث فيه ثلاثاً ثمّ قدم المدينة» [٤].

---

١ ـ البقرة، ٢٠٧.

٢ ـ كما جاء في شرح نهج البلاغة لإبن أبي الحديد المجلّد (٣) الصفحة (٢٧٠).

٣ ـ ذكر صاحب الغدير: ج ٢ ص ٤٤ و ٥٥ أنّ ليلة المبيت رواها الغزالي في إحياء العلوم: ج ٣ ص ٢٣٨، والصفوي في نزهة المجالس: ج ٢ ص ٢٠٩، وابن الصبّاغ المالكي في الفصول المهمّة، والسبط ابن الجوزي الحنفي في تذكرة الخواص: ص ٢١، ومسند أحمد: ج ١ ص ٤٨ وتاريخ الطبري: ج ٢ ص ٩٩ ـ ١٠١، وابن هشام في السيرة: ج ٢ ص ٢٩١، والحلبي في السيرة: ج ٢ ص ٢٩، وتاريخ اليعقوبي: ج ٢ ص ٢٩.

٤ ـ الدر المنثور وفقاً لما نقل عنه صاحب المنار، ومجمع البيان ذيل الآية.

تغيير القبلة

رسول الإسلام ﷺ صلّىٰ صوب (بيت المقدس) بأمر ربّه مدّة ثلاثة عشر عاماً بعد البعثة في مكة، وبضعة أشهر في المدينة بعد الهجرة. ثم تغيّرت القبلة، وأمر الله المسلمين أن يصلّوا تجاه (الكعبة).

واختلف في المدّة التي صلّى خلالها المسلمون بعد الهجرة تجاه بيت المقدس، فذكروا مدداً مختلفة تتراوح بين سبعة أشهر وسبعة عشر شهراً.

كانت الجماعة المسلمة تتعرض خلال كل هذه المدّة (مدة صلاة المسلمين تجاه بيت المقدس) إلى لوم اليهود وتقريعهم، وكان اليهود يقولون عن المسلمين: إن هؤلاء غير مستقلين لأنّهم يصلون تجاه قبلتنا، وهذا دليل أننا علىٰ حقّ.

كانت هذه الأقوال تؤلم الرّسول وصحبه، فالأمر الإلهي يوجب أن يصلوا تجاه بيت المقدس، واليهود لا ينفكّون يرشقون المسلمين بوابل تهمهم وتقريعهم. وبلغ الأمر أن الرّسول ﷺ بدأ يقلب وجهه في السماء انتظاراً للوحي.

انتظار صعب!

إن النّبي ﷺ كان مرتبطاً بالكعبة إرتباطاً خاصاً، ومنتظراً لأمر تغيير القبلة، ولعلنا نستطيع أن نتلمس سبب ذلك في إرتباط النّبي ﷺ بإبراهيم عليه السلام، أضف إلى ذلك أن الكعبة أقدم قاعدة توحيدية، وأنه ﷺ كان يعلم بوقوع هذا التغيير، وكان يترقب حدوثه.

وهنا تبرز ظاهرة الإستسلام المطلق للرسول، حيث لم يتردد علىٰ لسانه طلب بهذا

الشأن، بل كان يقلب طرفه في السماء منتظراً بتلهّف نزول الوحي.

واستمر الإنتظار مدّة، حتى نزل الوحي يأمر بتغيير القبلة، كان الرّسول صلى الله عليه وآله في مسجد «بني سالم» يصلي الظهر، فما إن أتمّ ركعتين حتى أمر جبرائيل أن يأخذ بعضد الرّسول ويدير وجهه تجاه الكعبة.

إن صفوف المسلمين تغيّرت علىٰ أثر ذلك، وترك النساء مكانهنّ للرجال وبالعكس. (كان اتجاه بيت المقدس نحو الشمال تقريباً، بينما كان اتجاه الكعبة نحو الجنوب).

لم يكفّ اليهود بعد هذا التغيير عن اعتراضاتهم، بل واصلوا حربهم الإعلامية بشكل آخر، بدأوا يلقون التشكيكات بشأن هذا التغيير، والقرآن الكريم يتحدث عن هذه الإعتراضات: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾.

بدأوا يرددون: لو كانت القبلة الأُولىٰ هي الصحيحة فَلِمَ هذا التغيير؟ وإن كانت الثانية صحيحة فلماذا صلى المسلمون أكثر من ثلاثة عشر عاماً تجاه بيت المقدس؟!

والله سبحانه يجيب علىٰ هذا الإعتراض، فأمر رسوله أن ﴿قُلْ للهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلىٰ صِراطٍ مُسْتَقِيم﴾[1].

أسرار تغيير القبلة

تغيير القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة أثار لدى الجميع تساؤلات عديدة، أولئك الذين قالوا إن الأحكام ينبغي أن تبقى ثابتة راحوا يتساءلون عن سبب هذا التغيير، فلو كانت القبلة الصحيحة هي الكعبة، فلماذا لم يؤمر المسلمون بالصلاة نحوها منذ البدء، وإن كانت بيت المقدس فلِمَ هذا التغيير؟!

وأعداء الإسلام وجدوا الفرصة سانحة لبث سمومهم ولإعلامهم المضّاد. قالوا إن تغيير القبلة تمّ بدافع عنصري، وزعموا أن النّبي اتجه أوّلاً إلى قبلة الأنبياء السابقين، ثم عاد إلى قبلة قومه بعد تحقيق انتصاراته! وقالوا: إن محمّداً صلى الله عليه وآله أراد استعطاف أهل الكتاب بانتخابه بيت المقدس قبلة له، ولما يئس منهم استبدل الكعبة بها.

واضح مدى القلق والاضطراب الذي تتركه هذه الوساوس علىٰ مجتمع لم يتغلغل نور

---

١ ـ البقرة، ١٤٢.

العلم والإيمان في كل زواياه، ولم يتخلص بعد تماماً من رواسب الشرك والعصبية.

لذلك يصرّح القرآن الكريم أن تغيير القبلة إختبار كبير لتمييز المؤمنين من المشركين.

لا نستبعد أن يكون أحد أسباب تغيير القبلة ما يلي:

لما كانت الكعبة في بداية البعثة المباركة بيتاً لأصنام المشركين، فقد أُمر المسلمون مؤقتاً بالصلاة تجاه بيت المقدس، ليتحقّق الإنفصال التام بين الجبهة الإسلامية وجبهة المشركين.

وبعد الهجرة وإقامة الدولة الإسلامية والمجتمع الإسلامي، حدث الإنفصال الكامل بين الجبهتين، ولم تعد هناك ضرورة لاستمرار وضع القبلة، حينئذ عاد المسلمون إلى الكعبة أقدم قاعدة توحيدية، وأعرق مركز للأنبياء.

ومن الطبيعي أن يستثقل الصلاة نحو بيت المقدس لأولئك الذين كانوا يعتبرون الكعبة الرصيد المعنوي لقوميتهم، وأن يستثقلوا أيضاً العودة إلى الكعبة بعد أن اعتادوا علىٰ قبلتهم الأُولىٰ (بيت المقدس).

المسلمون بهذا التحوّل وُضعوا في بوتقة الإختبار، لتخليصهم ممّا علّق في نفوسهم من آثار الشرك، ولتنقطع كل انشداداتهم بماضيهم المشرك، ولتنمو في وجودهم روح التسليم المطلق أمام أوامر الله سبحانه.

إن الله سبحانه ليس له مكان ومحل ـ كما ذكرنا ـ والقبلة رمز لوحدة صفوف المسلمين ولإحياء ذكريات خط التوحيد، وتغييرها لا يغيّر شيئاً، المهم هو الإستسلام الكامل أمام الله، وكسر أوثان التعصب واللجاج والأنانية في النفوس.

معركة بدر[١]

كان أبوسفيان كبير مكّة عائداً بقافلة تجارية مهمّة مؤلفة من أربعين شخصاً، وتحوي على ثروة تجاربة تقدّر بخمسين ألف دينار من الشام نحو المدينة.

فأمر النّبي ﷺ أصحابه أن يتعبأوا ويتهيأوا لمواجهة هذه القافلة الكبيرة التي تحمل جل رأس مال العدوّ معها، وبمصادرة أموال القافلة لتوجيه ضربة إقتصادية نحو العدوّ وتعقبها ضربة عسكرية قاصمة.[٢]

---

١ ـ جاءت قصّة بدر في سورة الانفال، الآيات ٥ إلىٰ ١٨ .

٢ ـ وكان للنّبي وأصحابه الحق في مثل هذه الحملة أو الهجوم، لأنّه ـ أوّلاً ـ عندما هاجر المسلمون من مكّة نحو المدينة استولى أهل مكّة على كثير من أموالهم، ونزلت بهم خسارة كبيرة. فكان لهم الحق أن يجبروا مثل هذه الخسارة.

ثمّ بعد هذا كلّه برهن أهل مكّة طيلة الثلاثة عشر عاماً التي أقام النّبي وأصحابه بمكّة خلالها أنّهم لا يألون جهداً في إيذاء النّبي وأصحابه، بل أرادوا به الوقيعة والمكيدة، فإنّ عدوّاً كهذا لن يسكت عن النّبي ودعوته بمجرّد هجرته إلى المدينة، ومن المسلم به أنّه سيعبىءُ قواه في المستقبل لمواجهة النّبي والإيقاع به.

إذن فالعقل والمنطق يوجبان أن يسارع المسلمون بمبادرة عاجلة لمصادرة أموال أهل مكّة لتدمير دعامتهم الإقتصادية، وليوفروا على أنفسهم إمكانية التهيؤ العكسري والإقتصادي لمواجهة العدو مستقبلاً.

وهذه المبادرة كانت ولا تزال في جميع الخطط العسكرية قديمها وحديثها وأمّا من يرى أن توجّه النّبي نحو قافلة أبي سفيان ـ ودون الأخذ بنظر الإعتبار هذه الجهات المشار إليها آنفاً ـ نوعاً من

إنّ أبا سفيان عرف عن طريق أتباعه وأصدقائه تصميم النّبي على مواجهة قافلته، هذا من جهة، كما أنّ القافلة حينما كانت متجهة نحو الشام للإتيان بمال التجارة تعرضت لتحركات من هذا القبيل. لهذا فإنّ أبا سفيان أرسل من يمضي إلى مكّة بسرعة ليخبر أهلها بما سيؤول إليه أمر القافلة.

فمضى رسول أبي سفيان بحالة مثيرة كما أوصاه أبو سفيان، إذ خرم أنف بعيره وبتر أذنيه والدماء تسيل على وجه البعير لهيجانه، وقد شقّ ثوبه ـ أو طمريه ـ وركب بعيره على خلاف ما يركب الناس «إذ ظهره كان إلى رقبة البعير ووجهه إلى عجزه» ليلفت الناس إليه من كل مكان. فلما دخل مكّة أخذ يصرخ قائلاً: أيّها الناس الأعزة، أدركوا قافلتكم، أدركوا قافلتكم وأسرعوا وتعجلوا إليها، وإن كنت لا أعتقد أنّكم ستدركونها في الوقت المناسب، فإنّ محمّداً ورجالاً مارقين من دينكم قد خرجوا من المدينة ليتعرضوا لقافلتكم.

وكانت عاتكة بنت عبدالمطلب عمّة النّبيﷺ آنئذٍ قد رأت رؤيا موحشة عجيبة، وقد تناقلت الأفواه رؤياها فيزداد الناس هيجاناً.

وكانت عاتكة قد رأت قبل ثلاثة أيّام من مجيء رسول أبي سفيان إلى مكّة، أنّ شخصاً يصرخ: أيّها الناس تعجّلوا إلى قتلاكم، ثمّ صعد هذا المنادي إلى أعلى جبل أبي قيس وأخذ حجراً كبيراً فرماه فتلاشى الحجر في الهواء، ولم يبق بيت في مكّة لقريش إلّا نزل فيه منه شيء، كما أن وادي مكّة يجري دماً عبيطاً.

فلمّا استيقظت فزعة مرعوبة من نومها وقصّت رؤياها على أخيها العباس، ذهل الناس لهول هذه الرؤيا.

لكن أبا جهل لما بلغه ذلك قال: ما رأت عاتكة رؤيا، هذه نبيّة ثانية في بني عبدالمطلب، وباللات والعزّى لننظرن ثلاثة أيّام، فإن كان ما رأت حقّاً فهو كما رأت، وإن كان غير ذلك لنكتبنّ بيننا كتاباً: أنّه ما من أهل بيت من العرب أكذب رجالاً ونساءً من بني هاشم.

ولكن لم يكد يمضي اليوم الثّالث حتىٰ كان ما كان من أمر ذلك الرجل الذي هزّ مكّة وأهلها.

الإغارة، فإمّا أن يكون جاهلاً لا يعرف جذور المسائل التأريخية في الإسلام أو أنّه مغرض يريد تحوير الواقعيات والثوابت التاريخية.

ولما كان أكثر أهل مكّة شركاء في هذه القافلة فقد تعبئوا بسرعة وتحركوا نحو القافلة بحوالي ٩٥٠ مقاتلاً و ٧٠٠ بعير ومئة فرس، وكان أبوجهل يقود هذا الجيش. ومن جهة أُخرىٰ ولكي يسلم أبو سفيان من تعرض النّبي وأصحابه لقافلته، فقد غير مسيره واتجه نحو مكّة بسرعةٍ.

٣١٣ صحابي وفي

وكان النّبيﷺ قد قارب بدراً في نحوٍ من ثلاثمائة وثلاث عشر رجلاًكانوا يمثلون رجال الإسلام آنئذٍ «وبدر منطقة ما بين مكّة والمدينة» وقد بلغه خبر تهيؤ أبي جهل ومن معه لمواجهتِه.

فتشاور النّبيﷺ مع أصحابه: هل يلحقون القافلة ويصادرون أموالها، أو أن عليهم أن يتهيأوا لمواجهة جيش العدوّ؟ فقالت طائفة من أصحابه: نقاتل عدوّنا، وكرهت طائفة أُخرىٰ ذلك وقالت: إنّما خرجنا لمصادرة أموال القافلة.

ودليلها معها، إذ أنّها لم تخرج إلّا لهذا السبب (من المدينة) ولم يكن النّبي وأصحابه عازمين على مواجهة جيش أبي جهل ولم يتعبأوا لذلك، في حين أن أبا جهل قد تعبأ لهم ويريد قتالهم.

وقد ازداد هذا التردد بين الطائفتين، خاصّة بعد أن عرف أصحاب النّبي أنّ جيش العدوّ ثلاثة أضعافهم وتجهيزاته أضعاف تجهيزاتهم، إلّا أنّ النّبي بالرغم من كل ذلك قبل بالقول الأوّل «أي قتال العدوّ» فلما التقى الجيشان لم يصدق العدوّ أن المسلمين قد وردوا الميدان بهذه القلّة، بل ظن العدوّ أنّهم مختبئون وأنّهم سيحدقون به عند المواجهة، لذلك فقد أرسل شخصاً ليرصد الأُمور فرجع وأخبرهم بأنّ المسلمين ليسوا أكثر ممّا رأوهم.

ومن جهة أُخرىٰ فإنّ طائفة من المسلمين كانت في قلق وإضطراب وكانت تصرّ على عدم مواجهة هذا الجيش اللجب، إذ لا موازنة بين أصحاب النّبي وأصحاب أبي جهل! لكن النّبيﷺ طمأنهم بوعد الله وقال: «**إنّ اللّه وعدني إحدىٰ الطائفتين ولن يخلف اللّه الميعاد**» قافلة قريش أو جيش قريش، ولن يخلف الله وعده، فوالله لكأنّي أرى مصرع أبي جهل وجماعة من أصحابه بعينيّ.

ثمّ أمر النّبي أن ينزل أصحابه إلى بئر بدر.

وكان النّبيﷺ قد رأى في منامه من قبل أن قلّة المشركين تقاتل المسلمين، وكانت هذه الرؤيا إشارة إلى النصر وبشارة به، فقد رواهﷺ للمسلمين فازدادت العزائم في الزحف نحو معركة بدر.

وبالطبع فإنّ رؤيا النّبيﷺ في منامه كانت صحيحة، لأنّ قوّة الأعداء وعددهم بالرغم من كثرتهم الظاهرية، إلّا أنّهم كانوا قلّة في الباطن ضعفاء غير قادرين على مواجهة المسلمين، ونحن نعرف أنّ الرؤيا ذات تعبير وإشارة، وأن الرؤيا الصحيحة هي التي تكشف الوجه الباطني للأمور.

١٠٠٠ مقاتل في جيش قريش

وفي هذه الأثناء استطاع أبو سفيان أن يفرّ بقافلته من الخطر المحدق به، واتّجه نحو مكّة عن طريق ساحل البحر الأحمر غير المطروق، وأرسل رسولاً إلى قريش: إنّ الله نجيّ قافلتكم، ولا أظن أنّ مواجهة محمّد في هذا الظرف مناسبة، لأنّ له أعداءً يكفونكم أمره. إلّا أنّ أبا جهل لم يرض باقتراح أبي سفيان وأقسم باللات والعزّى أنّه سيواجه محمّداً، بل سيدخل المدينة لتعقيب أصحابه أو سيأسرهم جميعاً ويمضي بهم لمكّة، حتى يبلغ خبر هذا الإنتصار آذان العرب.

وأخيراً ورد جيش قريش أرض بدر وأرسلوا غلمانهم للإستقاء من ماء بدر، فأسرهم أصحاب النّبي وأخذوهم للتحقيق إلى النّبيﷺ فسألهم النّبي: من أنتم؟ فقالوا: يا محمّد نحن عبيد قريش، قال: كم القوم ؟! فقالوا: لا علم لنا بعددهم، قال: كم ينحرون في كل يوم جزوراً؟ فقالوا: تسعة إلى عشرة.

فقال النّبيﷺ: القوم تسعمائة الى ألف (كل مئة يأكلون بعيراً واحداً).

كان الجوّ مكفهراً بالرعب والوحشة، إذ كان جيش قريش معبّأ مدججاً بالسلاح، ولديه المؤونة والعُدّدِ، حتى النساء اللائي ينشدن الأشعار والمغنيات اللائي يثرن الحماسة. وكان جيش أبي جهل يرى نفسه أمام طائفة صغيرة أو قليلة من الناس، ولا يصدّق أنّهم سينزلون الميدان.

إنّ الله سيمدّكم بالملائكة

فلمّا رأي النّبيﷺ أن أصحابه قلقون وربّما لا ينامون الليل من الخوف فيواجهون العدو غداً بمعنويات مهزورة قال لهم كما وعده الله: لا تحزنوا فإنّ كان عددكم قليلاً فإنّ الله سيمدكم بالملائكة، وسرّى عن قلوبهم حتى ناموا ليلتهم مطمئنين راجين النصر على عدوّهم.

المشكلة الأُخرىٰ التي كان أصحاب النّبي يواجهونها، هي أن أرض بدر كانت غير صالحة للنزال لما فيها من الرمال، فنزل المطر تلك الليلة، فأفاد منه أصحاب النّبي فاغتسلوا منه وتوضأوا وأصبحت الأرض صُلبة صالحة للنزال، العجيب في ذلك أنّ المطر كان في جهة العدوّ شديداً بحيث أربكهم وأزعجهم.

والخبر الجديد الذي حصل عليه أصحاب النّبي من جواسيسهم الذين تحسسوا ليلاً حالة العدو أنّ جيش قريش مع كل تلك الإمكانات العسكرية في حالة من الرعب بمكانة لا توصف، فكأنّ الله أنزل عليها جيشاً من الرعب والوحشة.

وعند الصباح اصطفّ جيش المسلمين الصغير بمعنويات عالية ليواجهوا عدوّهم، ولكن النّبيﷺ ـ إتماماً للحجّة ولئلا يبقى مجال للتذرع بالذرائع الواهية ـ أرسل إلى قريش ممثلاً عنه ليقول لهم: إنّ النّبي لا يرغب في قتالكم لا يحبّ أن تكونوا أوّل جماعة تحاربه. فوافق بعض قادة قريش على هذا الإقتراح ورغبوا في الصلح، إلّا أنّ أبا جهل امتنع وأبىٰ بشدّة.

سبعون قتيلاً و سبعون اسيراً

وأخيراً اشتعلت نار الحرب، فالتقى أبطال الإسلام بجيش الشرك والكفر، ووقف حمزة عمّ النّبي وعلي ابن عمّ النّبي الذي كان أصغر المقاتلين سنّاً وجها لوجه مع صناديد قريش وقتلوا من بارزهم فإنهار ما تبقىٰ من معنويات العدوّ، فأصدر أبو جهل أمراً عاماً بالحملة، وكان قد أمر بقتل أصحاب النّبي من أهل المدينة «الأنصار» وأن يؤسر المهاجرون من أهل مكّة. فقال النّبي لأصحابه: **«غضّوا أبصاركم وعضو على نواجذكم ولا تستلوا سيفاً حتى آذن لكم».**

ثمّ مدّ النّبيﷺ يديه إلى الدعاء، ورفع بهما نحو السماء فقال: **«يا ربّ إن تهلك هذه العصابة لم تعبد وإن شئت أن لا تعبد لاتعبد...»**

فهبت ريح عاصف على العدوّ، وكان المسلمون يحملون على عدوّهم والرياح تهب من خلفهم بوجه العدو، وأثبت المسلمون جدارة فائقة وصمدوا للقتال حتى قتلوا منهم سبعين «وأبوجهل من القتلى» وأسروا سبعين، وانهزم الجمع وولّوا الدبُر، ولم يُقتل من المسلمين إلّا نفر قليل، وكانت هذه المعركة أوّل مواجهة مسلحة بين المسلمين وعدوّهم من قريش، وإنتهت بالنصر الساحق للمسلمين على عدوّهم.

إنّ عدد المسلمين يوم بدر كان ٣١٣ شخصاً، منهم ٧٧ من المهاجرين و ٢٣٦ من الأنصار. كان لواء المهاجرين بيد عليّ عليه السلام، وكان سعد بن عبادة صاحب لواء الأنصار. وكانت عُدّتهم لا تتجاوز ٧٠ بعيراً، وفرسين، وستة دروع، وثمانية سيوف، خاضوا بها تلك الحرب الكبيرة، في وجه عدوّ يزيد عدده على الألف، مع الكثير من السلاح ومائة فرس. ومع ذلك فقد انتصر المسلمون بتقديم ٢٢ شهيداً «١٤ من المهاجرين و ٨ من الأنصار»، في مقابل ٧٠ قتيلاً و ٧٠ أسيراً من الأعداء، وعادوا إلى المدينة تزيّنهم أكاليل النصر.

وإنّه لمن العجب والغرابة أن ينهار جيش قريش القوي أمام جيش المسلمين القليل، وأن تذهب معنوياتهم ـ كما ينقل التاريخ ـ بصورة يخاف معها الكثير منهم من منازلة المسلمين، وحتى أنّهم كانوا يفكرون بأنّ المسلمين ليسوا أشخاصاً مألوفين، وكانوا يقولون بأنّ المسلمين قد جاؤوكم من قرب يثرب (المدينة) بهدايا يحملونها على إبلهم هي الموت.

خطب سعد بن معاذ نيابة عن الأنصار أمام النّبي صلى الله عليه وآله قائلاً:

«بأبي أنت وأمّي، يا رسول الله صلى الله عليه وآله إنّنا قد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أنّ ما جئت به حق من عندالله فمرنا بما شئت وخذ من أموالنا ما شئت، واترك منه ما شئت والذي أخذت منه أحبّ اليّ من الذي تركت منه، والله لو أمرتنا أن نخوض هذا البحر لنحضنا معك .... إنّنا لنرجوا أن يقرّ الله عزّوجلّ عينيك بنا....».

ترغيب المقاتلين

إنّ النّبي صلى الله عليه وآله عيّن في يوم معركة بدر جوائز للمقاتلين المسلمين ترغيباً، كأن يقول صلى الله عليه وآله مثلاً: **من جاءني بفلانٍ من الأعداء أسيراً فله عندي كذا «جائزة».**

وكان هذا الترغيب ـ إضافة إلى إيقاده روح الإيمان والجهاد في وجودهم ـ مدعاة أن يثب المقاتلون الفتية في تسابق «افتخاري» نحو الهدف.

إلّا أنّ الكهول والشيوخ ظلّوا ثابتين تحت ظلال الرايات، فلمّا إنتهت معركة بدر أسرع المقاتلون الفتيان لأخذ الجوائز من النّبي، إلّا أنّ الشيوخ وكبار السنّ قالوا: إنّ لنا نصيباً أيضاً، لأنّنا كنّا سنداً وظهيراً لكم، ولو اشتدّ بكم الأمر لرجعتم إلينا حتماً. واحتدم النقاش حينئذٍ بين رجلين من الأنصار في شأن غنائم المعركة.

فنزلت الآية (١)، من سورة الانفال وقالت بصراحة: إنّ الغنائم هي للنبيّ ﷺ، فله أن يتصرّف فيها ما يشاء. فقسّمها النّبي ﷺ بين المسلمين بالتساوي، وأمر أن يصطلح الإخوة المسلمون فيما بينهم.

نهاية المعركة وقصّة الاسرىٰ

بعد إنتهاء معركة بدر وأخذ الأسرى، وبعدما أمر النّبي أن تضرب عنقا الأسيرين الخطرين «عقبة بن أبي معيط» و«النضر بن الحارث» خافت الأنصار أن ينفذ هذا الحكم في بقية الأسرىٰ فُيحرموا من أخذ الفداء، فقالوا: يا رسول الله إنّا قتلنا سبعين رجلاً وأسرنا سبعين، وكلّهم من قبيلتك فهب لنا هؤلاء الأسرى لنأخذ الفداء منهم. وكان النّبي يترقب نزول الوحي، فنزلت هذه الآيات فأجازت أخذ الفداء في قبال إطلاق سراح الأسرىٰ.

وروي أنّ أكثر ما عُين فداءً على الأسرى من المال هو أربعة آلاف درهم، وأقلّه ألف درهم، فلمّا سمعت قريش أرسلت فداء الواحد تلو الآخر حتى حررت أسراها.

والعجيب أن صهر النّبي على إبنته زينب «أبا العاص» كان من بين أسرى معركة بدر، فأرسلت زوجته زينب قلادتها التي أهدتها أُمّها خديجة عليها‌السلام إليها في زفافها، لتفتدي بها زوجها، فلمّا وقعت عينا النّبي على تلك القلادة وتذكر تضحية خديجة وجهادها، وتجسّدت مواقفها أمام عينيه، قال ﷺ: «رحم الله خديجة، فهذه قلادة جعلتها خديجة في جهاز بنتي زينب».

ووفقاً لبعض الرّوايات فإنّه امتنع عن قبول القلادة احتراماً لخديجة وإكراماً، واستجاز المسلمين في إرجاع القلادة، فأذنوا له أن يرجع القلادة إلى زينب، ثمّ أطلق النّبي ﷺ سراح أبي العاص، شريطة أن يرسل ابنته زينب ـ التي كانت قد تزوجت من أبي العاص قبل الإسلام ـ إلى المدينة، فوافق أبو العاص على هذا الشرط ووفىٰ به بعدئذٍ.

إسلام العبّاس عمّ النّبيﷺ

إنّ العباس عم النّبي كان بين أسرى بدر، فطلبت جماعة من الأنصار أن لا يؤخذ عنه فداء إكراماً لرسول الله، فقالﷺ: «والله لا تذرون منه درهماً»، (أي إذا كان الفداء قانوناً إسلامياً عامّاً، فلا ينبغي أن يفرق بين عمي وبين أي أسير آخر).

وقال لعمّه العباس: «إدفع عنك وعن ابن أخيك ـ عقيل ـ الفداء».

فقال له العباس «وكان شغوفاً بالمال». يا محمّد أتريد أن تجعلني فقيراً حتى أمد يدي إلى قريش؟!

فقال له النّبي: إعط فداءك من المال الذي أودعته عند أم الفضل ـ زوجتك ـ وقلت لها: إذا قتلت في ساحة المعركة فأنفقيه على نفسك وعلى أبنائك.

فتعجب العباس من هذا الإمر وقال: من أخبرك بهذا؟ «ولم يطلع عليه أحد أبداً» فقال رسول الله: أخبرني بذلك جبرائيل.

فقال العباس: أحلف بمن يحلف به محمّدﷺ لم يعلم بذلك إلّا أنا وزوجتي، ثمّ قال: أشهد أنك رسول الله، وأعلن إسلامه.

وعاد جميع أسرىٰ بدر إلى مكّة إلّا العباس وعقيلاً ونوفلاً، إذ أسلموا وبقوا في المدينة، والآيات محل البحث تشير إلى حال أُولئك.

وجاء في شأن إسلام العباس في بعض التواريخ أنّه عاد إلى مكّة بعد إسلامه، وكان يكتب إلى النّبي عن مؤامرات المشركين ثمّ هاجر إلى المدينة قبل السنة الثّامنة من الهجرة «عام فتح مكّة».

غزوة أحد[1]

سبب هذه الغزوة

إن قريشاً لما رجعت من بدر إلى مكة وقد أصابهم ما أصابهم من القتل والأسر، لأنه قتل منهم سبعون شخصاً وأسر سبعون شخصاً، وقال أبو سفيان يا معشر قريش لا تدعوا نساءكم يبكين على قتلاكم فإن الدمعة إذا خرجت أذهبت الحزن والعداوة لمحمّد ﷺ وأخذ أبو سفيان على نفسه العهد على أن لا يقرب فراش زوجته ما لم ينتقم لقتلى بدر.

وهكذا ألبت قريش الناس على المسلمين وحركتهم لمقاتلتهم وسرت نداءات «الإنتقام الإنتقام» في كلّ نواحي مكّة.

وفي السنة الثالثة للهجرة عزمت قريش على غزو النبي، وخرجوا من مكّة في ثلاث آلاف فارس وألفي راجل، مجهزين بكلّ ما يحتاجه القتال الحاسم، وأخرجوا معهم النساء والأطفال والأصنام، ليثبتوا في ساحات القتال.

العباس يرفع تقريراً إلى النبي ﷺ

لم يكن العباس عمّ النبي قد أسلم إلى تلك الساعة، بل كان باقياً على دين قريش، ولكنه كان يحب ابن أخيه غاية الحب، ولهذا فإنه عندما عرف بتعبئة قريش وعزمهم الأكيد على غزو المدينة ومقاتلة النبي، بادر إلى إخبار النبي، محمّلاً غفارياً (من بني غفار) رسالة عاجلة

---

١ ـ جاءت قصّة أُحد في سورة آل‌عمران، الآية ١٢٠.

يذكر فيها الموقف في مكّة وعزم قريش. وكان الغفاري يسرع نحو المدينة، حتّى أبلغ النبي رسالة عمه العباس، ولما عرف ﷺ بالخبر إلتقى سعد بن أبي وأخبره بما ذكره له عمه، وطلب منه أن يكتم ذلك بعض الوقت.

النبي يشاور المسلمين

عمد النبي ـ بعد أن بلغته رسالة عمه العباس ـ إلى بعث رجلين من المسلمين إلى طرق مكّة والمدينة للتجسس على قريش، وتحصيل المعلومات الممكنة عن تحركاتها.

ولم يمض وقت طويل حتّى عاد الرجلان وأخبرا النبي بما حصلا عليه حول قوات قريش وأن هذه القوات الكبيرة يقودها أبو سفيان.

وبعد أيّام استدعى النبي ﷺ جميع أصحابه وأهل المدينة لدراسة الموقف، وما يمكن أو يجب إتخاذه للدفاع، وبحث معهم في أمر البقاء في المدينة ومحاربة الأعداء الغزاة في داخلها، أو الخروج منها ومقاتلتهم خارجها. فاقترح جماعة قائلين «لا نخرج من المدينة حتّى نقاتل في أزقتها فيقاتل الرجل الضعيف والمرأة والعبد والأمة على أفواه السكك وعلى السطوح، فما أرادنا قوم قط فظفروا بنا ونحن في حصوننا ودروبنا وما خرجنا إلى عدو لنا قط إلّا كان الظفر لهم علينا، وكان هذا هو ما قاله «عبدالله بن أبي».

وقد كان النبي ﷺ يميل إلى هذا الرأي نظراً لوضع المدينة يومذاك، فهو كان ﷺ يرغب في البقاء في المدينة ومقاتلة العدو في داخلها، إلّا أن فريقاً من الشباب الأحداث الذين رغبوا في الشهادة وأحبوا لقاء العدو، خالفوا هذا الرأي الذي كان عليه الأكابر من أصحاب رسول‌الله ﷺ فقالوا: اخرج بنا إلى عدونا، وقام سعد بن معاذ وغيره من الأوس فقالوا: يا رسول الله ما طمع فينا أحد من العرب ونحن مشركون نعبد الأصنام فكيف يطمعون فينا وأنت فينا، لا حتى نخرج إليهم فنقاتلهم فمن قتل منا كان شهيداً، ومن نجا منا كان قد جاهد في سبيل الله، وقال مثلها الآخرون.

وهكذا تزايدت الطلبات بالخروج من المدينة ومقابلة العدو خارجها حتّى أصبح المقترحون بالبقاء أقلية.

فوافقهم النبي ـ رغم أنه كان يمل إلى البقاء في المدينة ـ احتراماً لمشورتهم، ثمّ خرج مع أحد أصحابه ليرتب مواضع استقرار المقاتلين المسلمين خارج المدينة وإختار الشعب من «أُحد» لاستقرار الجيش الإسلامي بإعتباره أفضل مكان من الناحية العسكرية والدفاعية.

المسلمون يتهيئون للدفاع

لقد استشار النبي أصحابه في هذه المسألة يوم الجمعة، ولذلك فإنه بعد إنتهاء المشاورة قام يخطب لصلاة الجمعة وقال بعد حمد الله والثناء عليه:

«انظروا ما أمرتكم به فاتبعوه، امضوا على اسم الله فلكم النصر ما صبرتم».

ثمّ تولى ﷺ بنفسه قيادة المقاتلين وقد أمر بأن تعقد ثلاث ألوية، دفع واحد منها للمهاجرين، واثنين منها للأنصار، ثمّ إن النبي قطع المسافة بين المدينة و «أُحد» مشياً على الأقدام، وكان يستعرض جيشه طوال الطريق، ويرتب صفوفهم.

وسار إلى أن وصل «رأس الثنية» وعندها وجد كتيبه كبيره فقال ﷺ ما هذا؟ قالوا: هؤلاء خلفاء عبدالله بن أبي اليهودي فقال ﷺ: أسلموا؟ فقيل: لا، فقال ﷺ: «انا لا ننتصر بأهل الكفر على أهل الشرك» فردهم، ورجع عبدالله بن أبي اليهودي ومن معه من أهل النفاق وهم ثلاثةمائة رجل.

وعلى أي حال فإن النبي ﷺ بعد أن أجرى التصفية اللازمة في صفوف جيشه واستغنى عن بعض أهل الريب والشكّ والنفاق استقر عند الشعب من «أُحد» في عدوة الوادي إلى الجبل وجعل «أحداً» خلف ظهره واستقبل المدينة.

وبعد أن صلّى بالمسلمين الصبح صف صفوفهم وتعبأ للقتال.

فأمّر على الرمّاة «**عبدالله بن جبير**» والرماة خمسون رجلاً جعلهم ﷺ على الجبل خلف المسلمين وأوعز إليهم قائلاً:

«إن رأيتمونا قد هزمناهم حتّى أدخلناهم مكّة فلا تبرحوا من هذا المكان، وإن رأيتموهم قد هزمونا حتّى أدخلونا المدينة فلا تبرحوا وألزموا مراكزكم».

ومن جانب آخر، وضع أبو سفيان «**خالد بن الوليد**» في مأتي فارس كميناً يتحينون الفرصة للتسلل من ذلك الشعب ومباغتة المسلمين من ورائهم وقالوا: «إذا رأيتمونا قد اختلطنا فاخرجوا عليهم من هذا الشعب حتّى تكونوا وراءهم».

بدء القتال

ثمّ اصطف الجيشان للحرب، وراح كلّ واحد منهما يشجع رجاله على القتال بشكل من

الأشكال ويحرضهم على الجلاد بما لديه من وسيلة.

وقد كان أبو سفيان يحرض رجاله باسم الأصنام ويغريهم بالنساء الجميلات.

وأمّا النبي ﷺ فقد كان يحث المسلمين على الصمود والإستقامة، مذكراً إياهم بالنصر الإلهي والتأييدات الربانية.

ها هي تكبيرات المسلمين ونداءات «الله أكبر، الله أكبر» تدوي في جنبات ذلك المكان، وتملأ شعاب «أُحد» وسهولها، بينما تحرض هند والنسوة اللاتي معها من نساء قريش وبناتها الرجال ويضربن بالدفوف ويقرأن الأشعار المثيرة.

وبدأ القتال وحمل المسلمون على المشركين حملة شديدة هزمتهم شر هزيمة، وألجأتهم إلى الفرار وراح المسلمون يتعقبونهم ويلاحقون فلولهم.

ولما علم «خالد» بهزيمة المشركين وأراد أن يتسلل من خلف الجبل ليهجم على المسلمين من الخلف شقه الرماة بنبالهم، وحالوا بينه وبين نيته.

هذه الهزيمة القبيحة التي لحقت بالمشركين دفعت ببعض المسلمين الجديدي العهد بالإسلام إلى التفكر في جمع الغنائم والإنصراف عن الحرب، بظن أن المشركين هزموا هزيمة كاملة، حتّى أن بعض الرماة تركوا مواقعهم في الجبل متجاهلين تذكير قائدهم «عبدالله بن جبير» إياهم بما أوصاهم به النبي ﷺ ولم يبق معه إلّا قليل ظلوا يحافظون على تلك الثغرة الخطرة في الجبل محافظة على المسلمين.

فتنبه «خالد بن الوليد» إلى قلة الرماة في ذلك المكان، فكر راجعاً بالخيل (وعددهم مائتا رجل كانوا معه في الكمين) فحملوا على «عبدالله بن جبير» ومن بقي معه من الرماة وقتلوهم بأجمعهم، ثمّ هجموا على المسلمين من خلفهم.

وفجأة وجد المسلمون أنفسهم وقد أحاط بهم العدو بسيوفهم، وداخلهم الرعب، فإختل نظامهم، وأكثر المشركون من قتل المسلمين فاستشهد ـ في هذه الكرة ـ «حمزة» سيد الشهداء وطائفة من أصحاب النبي الشجعان، وفر بعضهم خوفاً، ولم يبق حول النبي سوى نفر قليل جداً يدافعون عنه ويردون عنه عادية الأعداء، وكان أكثرهم دفاعاً عن النبي ﷺ ورداً لهجمات العدو، وفداء بنفسه هو «الإمام علي بن أبي طالب» عليه السلام الذي كان يذب عن النبي الطاهر ببسالة منقطعة النظير، حتّى أنه تكسر سيفه فأعطاه رسول الله ﷺ سيفه المسمى بذي الفقار، ثمّ تترس النبي بمكان، وبقي علي عليه السلام يدفع عنه حتّى لحقه ـ حسب ما ذكره المؤرّخون

ـ ما يزيد عن ستين جراحة في رأسه ووجهه، ويديه وكلّ جسمه المبارك، وفي هذه اللحظة قال جبرائيل «إن هذه لهي المواساة يا محمّد» فقال النبي ﷺ «إنه مني وأنا منه» فقال جبرائيل: «وأنا منكما».

قال الإمام الصادق عليه السلام: نظر رسول الله ﷺ إلى جبرائيل بين السماء والأرض وهو يقول: «لاسيف إلاّ ذو الفقار ولا فتى إلّا علي».

وفي هذه اللحظة صاح صائح: قتل محمّد.

وقد كان لإنتشار هذا الخبر أثره الإيجابي في معنويات الوثنيين بقدر ما ترك من الأثر السيء في نفوس المسلمين حيث تزعزعت روحيتهم وزلزلوا زلزالاً شديداً، فاضطرب جمع كبير منهم كانوا يشكلون أغلبية الجيش الإسلامي، وأسرعوا في الخروج من ميدان القتال، بل وفكر بعضهم أن يرتد عن الإسلام بمقتل النبي ويطلب الأمان من أقطاب المشركين، بينما كان هناك أقلية من المسلمين مثل الإمام علي عليه السلام وأبو دجانة وطلحة وآخرون، يصرون على الثبات والمقاومة ويدعون الناس إليه.

فقد جاء أنس بن النضر إلى ذلك الفريق الذي كان يفكر في الفرار وقال لهم: «يا قوم إن كان قد قتل محمّد فربّ محمّد لم يقتل فقاتلوا على ما قاتل عليه رسول الله ﷺ وموتوا على ما مات عليه» ثمّ شد بسيفه وحمل على الكفّار وقاتل حتّى قتل، ثمّ لم يمض وقت طويل حتّى تبين أن النبي ﷺ على قيد الحياة، وتبين على أثره خطأ ذلك الخبر أو كذبه.

من الصائح قتل محمّد؟

«ابن قمئة» الذي قتل الجندي الإسلامي البطل «مصعب بن عمير» وهو يظن أنه النبي، هو الذي صاح «واللات والعزى: لقد قتل محمّد».

وسواء كانت هذه الشائعة من جانب المسلمين،أو العدو فإنها ـ ولاريب ـ كانت في صالح الإسلام والمسلمين لأنها جعلت العدو يترك ساحة القتال ويتجه إلى مكّة بظنّه أن النبي قد قتل وانتهى الأمر، ولولا ذلك لكان جيش قريش الفاتح الغالب لا يترك المسلمين حتّى يأتي على آخرهم لما كانوا يحملونه من غيظ وحنق على النبي، بل ولما كانوا يتركون ساحة القتال حتّى يقتلوا رسول الله ﷺ لأنهم لم يجيئوا إلى «أُحد» إلّا لهذه الغاية.

لم يرد ذلك الجيش الذي كان قوامه ما يقارب خمسة آلاف ـ وبعد تلك الإنتصارات ـ أن

يبقى ولو لحظة واحدة في ساحة القتال، ولذلك غادرها في نفس الليلة إلى مكّة، وقبل أن يندلع لسان الصباح.

إلّا أن شائعة مقتل النبي ﷺ أوجدت زلزالاً كبيراً في نفوس بعض المسلمين، ولذلك فر هؤلاء من ساحة المعركة.

وأما من بقي من المسلمين في الساحة فقد عمدوا ـ بهدف الحفاظ على البقية من التفرق وإزالة الخوف والرعب عنهم ـ إلى أخذ النبي ﷺ إلى الشعب من «أُحد» ليطلع المسلمون على وجوده الشريف ويطمئنّوا إلى حياته، وهكذا كان، فإنهم لما عرفوا رسول الله عاد الفارون وآب المنهزمون واجتمعوا حول الرسول ولامهم النبيﷺ على فرارهم في تلك الساعة الخطيرة، فقالوا يا رسول الله أتانا الخبر بأنك قتلت فرعبت قلوبنا فولينا مدبرين.

وقد نقل العلّامة الطبرسي عن أبي القاسم البلخي أنه لم يبق مع النبيﷺ يوم «أُحد» إلّا ثلاث عشرة نفساً (فيكون عددهم مع النبي ١٤) خمسة من المهاجرين وثمانية من الأنصار وقد إختلف في الجميع إلّا في علي وطلحة فانهما ثبتا ولم يفرا بإتفاق الجميع.

وهكذا لحقت بالمسلمين ـ في معركة أحد ـ خسائر كبيرة في الأموال والنفوس، فقد قتل منهم في هذه الموقعة اثنان وسبعون من المسلمين في ميدان القتال، كما جرح جماعة كبيرة، ولكنهم أخذوا من هذه الهزيمة والنكسة درساً كبيراً ضمن إنتصاراتهم في المعارك القادمة.

المرحلة الخطيرة من الحرب

بعد إنتهاء معركة «أُحد» عاد المشركون المنتصرون إلى مكّة بسرعة، ولكنّهم بدالهم في أثناء الطريق أن لا يتركوا هذا الإنتصار دون أن يكملوه ويجعلوه ساحقاً، أليس من الأحسن أن يعودوا إلى المدينة، وينهبوها ويلحقوا بالمسلمين مزيداً من الضربات القاضية وأن يقتلوا محمّداًﷺ إذا كان لايزال حيّاً ليتخلصوا من الإسلام والمسلمين ويطمئن بالهم من ناحيتهم بالمرّة.

لهذا صدر قرار بالعودة إلى المدينة، ولا ريب أنه كان أخطر مراحل معركة «أُحد» بالنظر إلى ما كان قد لحق بالمسلمين من القتل والجراحة والخسائر، الذي كان قد سلب منهم كلّ طاقة للدخول في معركة جديدة أو لإستئناف القتال، فيما كان العدو في ذروة القوّة والروحية العسكرية التي كانت تمكن العدو من تحقيق إنتصارات جديدة، وإحراز النتيجة لصالحه،

فنهاية هذه العودة ونتيجتها كانت معروفة سلفاً.

وقد بلغ خبر العودة هذه إلى النبيﷺ، أمر مقاتلي أُحد أن يستعدوا للخروج إلى معركة أُخرىٰ مع المشركين، وخص بأمره هذا الجرحى والمصابين حيث أمرهم بأن ينضموا إلى الجيش.

يقول رجل من اصحاب النّبيﷺ كان قد شهد أُحداً: شهدت أُحداً وأخ لي فرجعنا جريحين، فلما أذن مؤذن رسول اللهﷺ بالخروج في طلب العدو قلنا: لا تفوتنا غزوة مع رسول اللهﷺ، فوالله مالنا دابة نركبها وما منّا إلا جريح ثقيل، فخرجنا مع رسول اللهﷺ وكنت أيسر جرحاً من أخي، فكنت إذا غلب حملته عقبة ومشى عقبة حتى انتهينا مع رسول اللهﷺ إلى «حمراء الأسد».

فلما بلغ هذا الخبر أبا سفيان وأدرك صمود المسلمين، والذي تجلّىٰ في اشتراك الجرحى والمصابين خاف وأُرعب، ولعله ظن أنه أدركت المسلمين قوّة جديدة من المقاتلين وأتاهم المدد.

هذا وقد حدثت في هذا الموضع حادثة زادت من إضعاف معنوية المشركين، وألقت مزيداً من الوهن في عزائمهم، وهي أنه: مرّ برسول الله «معبد الخزاعي» وهو يومئذ مشرك، فلما شاهد النّبي وما عليه هو وأصحابه من الحالة تحركت عواطفه وجاشت، فقال للنبيﷺ: يا محمّد والله لقد عزّ علينا ما أصابك في قومك وأصحابك، ولوددنا أن الله كان أعفاك فيهم، ثمّ خرج من عند رسول اللهﷺ حتى لقى أبا سفيان ومن معه بالرّوحاء وقد أجمعوا الرّجعة إلى رسول اللهﷺ، فلمّا رأى أبو سفيان معبداً قال: ما وراك يا معبد؟ قال: محمّدﷺ قد خرج في أصحابه يطلبكم في جمع لم أر قط مثله يتحرقون عليكم تحرقاً، وقد اجتمع عليه من كان تخلف عنه في يومكم، وندموا علىٰ صنيعهم، وفيه من الحنق عليكم ما لم أر مثله قط.

قال أبو سفيان: ويلك ما تقول؟ قال معبد: «فأنا والله ما أراك ترتحل حتى ترى نواصي الخيل».

قال أبو سفيان: فوالله لقد أجمعنا الكرّة عليهم لنستأصلهم.

قال معبد: فأنا والله أنهاك عن ذلك.

فثنى ذلك أبا سفيان ومن معه وقفل راجعاً ومنسحباً إلى مكّة بسرعة، وحتى يتوقف المسلمون عن طلبه وملاحقته ويجد فرصة كافية للإنسحاب قال لجماعة من بني عبد قيس

كانوا يمرون من هناك قاصدين المدينة لشراء القمح: «اخبروا محمّداً إنا قد أجمعنا الكرّة عليه وعلى أصحابه لنستأصل بقيتهم» ثمّ انصرف إلى مكّة.

ولما مرّت هذه الجماعة برسول الله ﷺ وهو بحمراء الأسد أخبره بقول أبي سفيان، فقال رسول الله ﷺ: «حسبنا الله ونعم الوكيل» وبقي هناك ينتظر المشركين ثلاثة أيّام، فلم ير لهم أثراً فانصرف إلى المدينة بعد الثالثة[1].

مزاعم جوفاء

ثمّ إنه كان هناك جماعة من المسلمين ـ بعد معركة «بدر» واستشهاد فريق من أبطال الإسلام ـ يتمنون الموت في أحاديثهم ومجالسهم ويقولون: ليتنا نلنا الشهادة في «بدر»، ومن الطبيعي أن يكون بعض تلك الجماعة صادقين في تمنيهم والبعض الآخرون كاذبين يتظاهرون بهذه الأمنية، أو يجهلون حقيقة أنفسهم، ولكن لم يلبث هذا الوضع طويلاً، فسرعان ما وقعت معركة أُحد الرهيبة المؤلمة، فقاتل المجاهدون الصادقون بشهامة وبسالة وصدق وكرعوا كؤوس الشهادة، وحققوا أمانيهم، ولكن الذين كانوا يتمنونها كذباً وتظاهراً ما إن رأوا علائم الهزيمة التي لحقت بالجيش الإسلامي في تلك الواقعة حتّى فروا خوفاً وجبناً، وظنا بنفوسهم وأرواحهم، تاركين الساحة للعدو الغاشم، فنزلت هذه الآية توبخهم وتعاتبهم إذ تقول: ﴿ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه، فقد رأيتموه وأنتم تنظرون﴾[2] فلماذا فررتم وهربتم من الشيء الذي كنتم تتمنونه طويلاً وكيف يفر المرء من محبوبه، وهو يراه وينظر إليه؟

جراح علي عليه السلام

عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: إنه أصاب علياً عليه السلام يوم «أُحد» إحدى وستون جراحة، وأن النبي ﷺ أمر أم سليم وأم عطية أن تداوياه، فقالتا إنا لا نعالج منه مكاناً إلّا انفتق مكان آخر، وقد خفنا عليه، فدخل رسول الله ﷺ والمسلمون يعودونه وهو قرحة واحدة فجعل يمسحه

---

١ ـ تشير الآيات، ١٧٢ إلىٰ ١٧٤ من سورة آل‌عمران، إلىٰ هذه القصّة.

٢ ـ آل‌عمران، ١٤٣.

بيده، ويقول: «إن رجلاً لقي هذا في الله فقد أبلى وأعذر» وكان القرح الذي يمسحه رسول الله ﷺ يلتئم، وقال علي عليه السلام: «الحمد الله إذ لم أفر ولم أُوَلِ الدبر» فشكر الله له ذلك في موضعين من القرآن وهو قوله تعالى: ﴿وسيجزي الله الشاكرين﴾ وقوله تعالى: ﴿وسنجزي الشاكرين﴾.

لماذا هزمنا؟

وعندما عاد المسلمون بعد تحمل خسائر عظيمة إلى المدينة كان يسأل أحدهم رفيقه: ألم يعدنا الله سبحانه بالفتح والنصر، فلماذا هزمنا في هذه المعركة؟

فالقرآن يجيب عن هذا السؤال، ويوضّح العلل الحقيقية التي سببت تلك الهزيمة[1].

القرآن الكريم يصرح بأن الله قد صدق وعده وأنزل النصر على المسلمين في بداية تلك المعركة، فقتلوا العدو، وفرقوا جمعهم ومزقوا شملهم ما داموا كانوا يتبعون تعاليم النبي ﷺ ويتقيدون بأوامره، وما داموا كانوا يتحلون بالثبات والإستقامة، فلم تلحق بهم الهزيمة إلّا عندما وهنوا وتجاهلوا أوامر القيادة النبوية الدقيقة. وهذا يعنى أن عليهم أن لا يتوهموا بأن الوعد بالتأييد والنصر مطلق لا قيد له ولا شرط، بل كل الوعود الإلهية بالنصر مقيدة باتباع تعاليم الله بحذافيرها، والتمسك بأهدافها.

الأمر بالعفو العام

بعد رجوع المسلمين من «أُحد» أحاط الأشخاص الذين فروا من المعركة برسول الله ﷺ وأظهروا له الندامة من فعلتهم وموقفهم، وطلبوا منه العفو.

فأصدر الله سبحانه إلى نبيه ﷺ أمره بأن يعفو عنهم، ويتجاوز عن سيئهم ويستقبل المخطئين التائبين منهم بصدر رحب.

إذ قال تعالى: ﴿فبما رحمة من الله لنت لهم، ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك﴾ ولقد أشار القرآن الكريم ـ قبل أي شيء ـ إلى واحدة من المزايا الأخلاقية لرسول الله ﷺ، ألا وهي اللين مع الناس والرحمة بهم، وخلوه من الفظاظة والخشونة.

---

١ ـ سورة آل‌عمران، الآية ١٥٢.

ثمّ إنه سبحانه يأمر نبيه بأن يعفو عنهم إذ يقول: ﴿فاعف عنهم واستغفر لهم﴾[١].

وهذا الكلام يعني أنه سبحانه يطلب منه ﷺ أن يتنازل عن حقه لهم إذ تفرقوا عنه في أحلك الظروف، وسببوا له تلك المصائب والمتاعب في تلك المعركة، وأنه يشفع لهم لدى نبيه بأن يتجاوز عنهم، وأن يشفع هو بدوره لهم عند الله ويطلب المغفرة لهم منه سبحانه.

وبتعبير آخر أنه سبحانه يطلب من نبيه أن يعفو عنهم فيما بينه وبينهم، وأما ما بين الله وبينهم فهو سبحانه يغفر لهم ذلك. وقد فعل الرسول الكريم ما أمره به ربه وعفى عنهم جميعاً.[٢]

كلام النّبي مع الشهداء

وقد روى ابن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال اطلع إليهم (أي أرواح شهداء أُحد وهي في الجنة) ربهم اطلاعة فقال: هل تشتهون شيئاً؟ قالوا: أي شيء نشتهي ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا. ففعل ذلك بهم ثلاث مرات، فلما رأوا أنهم لم يتركوا من أين يسألوا قالوا: يا رب نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا حتّى نقتل في سبيلك مرّة أُخرى فقال تعالى: قد سبق مني أنهم لا يرجعون قالوا: فتقرىء نبينا السلام وتبلغهم ما نحن فيه من كرامة فلا يحزنوا[٣].

حنظلة غسيل الملائكة

«حنظلة بن أبي عياش» الذي صادف زواجه ليلة معركة أُحد، وكان الرّسول ﷺ يشاور أصحابه حول هذه المعركة، فجاءه حنظلة يستأذنه المبيت عند زوجته، فأجازه ﷺ.

وقد بكّر حنظلة للإلتحاق بصفوف المسلمين، وكان على عجل من أمره بحيث لم يتمكن

---

١ ـ آل‌عمران، ١٥٩.

٢ ـ ومن الواضح أن هذا المقام كان من الموارد التي تتطلب حتماً العفو والمغفرة، واللطف واللين، ولو أن النبي ﷺ فعل غير ذلك لكان يؤدي ذلك إلى إنفضاض الناس من حوله، وتفرقهم عنه، إذ أن الجماعة رغم أنها أُصيبت بالهزيمة النكراء، وتحملت ما تحملت من القتلى والجرحى، وكانوا هم السبب في ذلك، إلّا أنهم أحوج ما يكونون إلى العطف واللطف وإلى اللين والعفو، وإلى البلاسم التي تبل جراحاتهم، وإلى المراهم التي تهدىء خواطرهم، حتّى يتهيأوا بعد شفائها واستعادة معنوياتهم إلى مواجهة أحداث المستقبل، وتحمل المسؤوليات القادمة.

٣ ـ فنزلت الآية ١٦٩ من سورة آل‌عمران.

من الاغتسال. ودخل المعركة على هذه الحال، وقاتل حتى قتل في سبيل الله.

قال رسول الله ﷺ فيه **«رأيت الملائكة تغسل حنظلة بماء المزن في صحائف فضة بين السماء والأرض»**.

لهذا سمي حنظلة بعدها بـ**«غسيل الملائكة»**. فنزلت الآية ٦٣ من سورة النور.

مؤامرة بني النضير

كان في المدينة ثلاث قبائل من اليهود وهم: «بنو النضير»، و «بنو قريظة»، و «بنو قينقاع»، ويذكر أنّهم لم يكونوا من أهل الحجاز أصلاً، وإنّما قدموا إليها واستقرّوا فيها، وذلك لما قرأوه في كتبهم العقائدية من قرب ظهور نبي في أرض المدينة، حيث كانوا بإنتظار هذا الظهور العظيم.

وعندما هاجر الرّسول الأكرم ﷺ إلى المدينة عقد معهم حلفاً بعدم تعرّض كلّ منهما للآخر، إلّا أنّهم كلّما وجدوا فرصة مناسبة لم يألوا جهداً في نقض العهد.

ومن جملة ذلك أنّهم نقضوا العهد بعد غزوة أُحد، التي وقعت في السنة الثالثة للهجرة.

فقد ذهب «كعب بن الأشرف» زعيم قبيلة «بني النضير» مع أربعين فارساً إلى مكّة، وهنالك عقد مع قريش حلفاً لقتال محمّد ﷺ، وجاء أبو سفيان مع أربعين شخصاً، وكعب بن الأشرف مع أربعين نفراً من اليهود، ودخلا معاً إلى المسجد الحرام ووثقوا العهد في حرم الكعبة، فعلم النبي ﷺ بذلك عن طريق الوحي.

والمؤامرة الأُخرى هي أنّ رسول الله ﷺ دخل يوماً مع شيوخ الصحابة وكبارهم إلى حي بني النضير، وذلك بحجّة إستقراض مبلغ من المال منهم كديّة لقتيلين من طائفة بني عامر، قتلهما (عمرو بن أُميّة) أحد المسلمين، وربّما كان الهدف من ذلك هو معرفة أخبار اليهود عن قرب حتّى لا يباغت المسلمون بذلك.

فبينما كان رسول الله ﷺ يتحدّث مع كعب بن الأشرف إذ حيكت مؤامرة يهودية لإغتيال رسول الله ﷺ وتنادى القوم: إنّكم لا تحصلون على هذا الرجل بمثل هذه الحالة وهاهو قد

جلس بالقرب من حائطكم، فليذهب أحدكم إلى السطح ويرميه بحجر عظيم ويريحنا منه، فقام «عمرو بن جحاش» وأبدى إستعداده لتنفيذ الأمر، وذهب إلى السطح لتنفيذ عمله الإجرامي، إلّا أنّ رسول الله ﷺ علم عن طريق الوحي بذلك، فقفل راجعاً إلى المدينة دون أن يتحدّث بحديث مع أصحابه، إلّا أنّ الصحابة تصوّروا أنّ الرّسول سيعود مرّة أُخرى، ولمّا عرفوا فيما بعد أنّ الرّسول في المدينة عاد الصحابة إليها أيضاً.

وهنا أصبح من المسلّم لدى رسول الله ﷺ نقض اليهود للعهد، فأعطى أمراً للإستعداد والتهيّؤ لقتالهم.

إنّ أحد شعراء بنو النضير هجا رسول الله ﷺ بشعر يتضمّن مسّاً بكرامة الرّسول وهذا دليل آخر لنقضهم العهد.

وبدأت خطّة المسلمين في مواجهة اليهود وكانت الخطوة الأُولى أن أمر رسول الله (محمّد بن سلمة) أن يقتل كعب بن الأشرف زعيم اليهود، إذ كانت له به معرفة، وقد نفّذ هذا العمل بعد مقدّمات وقتله.

إنّ قتل كعب بن الأشرف أوجد هزّة وتخلخلاً في صفوف اليهود، عند ذلك أعطى رسول الله ﷺ أمراً للمسلمين أن يتحرّكوا لقتال هذه الفئة الباغية الناقضة للعهد.

وعندما علم اليهود بهذا لجأوا إلى قلاعهم المحكمة وحصونهم القويّة، وأحكموا الأبواب، إلّا أنّ الرّسول ﷺ أمر أن تقلع أشجار النخيل القريبة من القلاع.

لقد أُنجز هذا العمل لأسباب عدّة: منها أنّ حبّ اليهود لأموالهم قد يخرجهم من قلاعهم بعد رؤية تلف ممتلكاتهم، وبالتالي يكون إشتباك المسلمين معهم مباشرةً، كما يوجد إحتمال آخر، وهو أنّ هذه الأشجار كانت تضايق المسلمين في مناوراتهم مع اليهود قرب قلاعهم وكان لابدّ من أن تقلع.

وعلى كلّ حال، فقد إرتفع صوت اليهود عندما شعروا بالضيق، وهم محاصرون في حصونهم .. فقالوا: يامحمّد، لقد كنت تنهى عن هذا، فما الذي حدا بك لتأمر قومك بقطع نخيلنا؟

فنزلت الآية (٥) من سورة الحشر وبيّنت بأنّ هذا العمل هو أمر من الله عزّوجلّ.

واستمرّت المحاصرة لعدّة أيّام، ومنعاً لسفك الدماء إقترح رسول الله ﷺ عليهم أن يتركوا ديارهم وأراضيهم ويرحلوا من المدينة، فوافقوا على هذا وحملوا مقداراً من أموالهم تاركين

القسم الآخر .. واستقرّ قسم منهم في «أذرعات الشام»، وقليل منهم في «خيبر»، وجـماعة ثالثة في «الحيرة»، وتركوا بقيّة أموالهم وأراضيهم وبساتينهم وبيوتهم بيد المسلمين بعد أن قاموا بتخريب ما يمكن لدى خروجهم منها.

وقد حدثت هذه الحادثة بعد غزوة (أُحد) بستّة أشهر، إلّا أنّ آخرين قالوا: إنّها وقعت بعد غزوة بدر بستّة أشهر.

معركة الاحزاب

إنّ أحد أهمّ حوادث تاريخ الإسلام، هي «معركة الأحزاب»، تلك المعركة التي كانت في الواقع نقطة إنعطاف في تأريخ الإسلام، وقلبت موازين القوى بين الإسلام والكفر لصالح المسلمين، وكان ذلك النصر مفتاحاً للإنتصارات المستقبلية العظيمة، فقد إنقصم ظهر الأعداء في هذه الغزوة، ولم يقدروا بعد ذلك على القيام بأيّ عمل مهمّ.

إنّ حرب الأحزاب ـ وكما يدلّ عليها إسمها ـ كانت مجابهة شاملة من قبل عامّة أعداء الإسلام والفئات المختلفة التي تعرّضت مصالحها ومنافعها اللامشروعة للخطر نتيجة توسّع وإنتشار هذا الدين.

لقد أُشعلت أوّل شرارة للحرب من قبل يهود «بني النظير» الذين جاؤوا إلى مكّة وأغروا «قريش» بحرب النّبي صلى الله عليه وآله، ووعدوهم بأن يساندوهم ويقفوا إلى جانبهم حتّى النفس الأخير، ثمّ أتوا قبيلة «غطفان» وهيّئوهم لهذا الأمر أيضاً.

ثمّ دعت هذه القبائل حلفاءها كقبيلة «بني أسد» و «بني سليم»، ولمّا كان الجميع قد أحسّ بالخطر فإنّهم اتّحدوا واتّفقوا على أن يقضوا على الإسلام إلى الأبد، ويقتلوا النّبي صلى الله عليه وآله، ويقضوا على المسلمين، ويغيروا على المدينة ويطفئوا مشعل الإسلام ونوره.

برز الايمان كلّه الىٰ الشرك كلّه

لقد كانت «حرب الأحزاب» آخر سعي للكفر، وآخر سهم في كنانته، وآخر إستعراض لقوى الشرك، ولهذا قال النّبي صلى الله عليه وآله: «برز الإيمان كلّه إلى الشرك كلّه» عندما تقابل أعظم أبطال

العدوّ، وهو عمرو بن عبد ودّ، وبطل الإسلام الأوحد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، لأنّ إنتصار أحدهما على الآخر كان يعني إنتصار الكفر على الإيمان، أو الإيمان على الكفر، وبتعبير آخر: كان عملاً مصيرياً يحدّد مستقبل الإسلام والشرك، ولذلك فإنّ المشركين لم تقم لهم قائمة بعد إنهزامهم في هذه المواجهة العظيمة، وكانت المبادرة وزمامها بيد المسلمين بعدها دائماً.

لقد أفل نجم الأعداء، وإنهدمت قواعد قوّتهم، ولذلك نقرأ في حديث أنّ النّبي صلى الله عليه وآله قال بعد نهاية غزوة الأحزاب: «الآن تغزوهم ولا يغزوننا».

عدد جيش الاسلام وجيش الكفر

ذكر بعض المؤرّخين أنّ عدد أفراد جيوش الكفر كان أكثر من عشرة آلاف محارب، ويقول «المقريزي» في «الإمتاع»: إنّ قريشاً أتت لوحدها بأربعة آلاف رجل، وألف وثلاثمائة فرس، وألف وخمسمائة من الإبل، ونزلت عند حافّة الخندق، وجاءت قبيلة بني سليم بسبعمائة رجل والتقوا بهم في مرّ الظهران، وجاء «بنو فزارة» بألف، وكلّ من «بني أشجع» و «بني مرّة» بأربعمائة، والقبائل الأُخرى أرسلت عدداً من الرجال، فتجاوز مجموع كلّ من حضر عشرة آلاف رجل.

في حين أنّ عدد المسلمين لم يكن يتجاوز الثلاثة آلاف رجل، وكانوا قد جعلوا مخيّمهم الأصلي أسفل جبل سلع، وكانت نقطة مرتفعة جنب المدينة مشرفة على الخندق، وكانوا يستطيعون عن طريق رماتهم السيطرة على حركة المرور من الخندق.

على كلّ حال، فإنّ جيش الكفّار قد حاصر المسلمين من جميع الجهات، وطالت هذه المحاصرة عشرين يوماً، وقيل خمسة وعشرين يوماً، وعلى بعض الرّوايات شهراً.

ومع أنّ العدوّ كان متفوقاً على المسلمين من جهات مختلفة، إلّا أنّه خاب في النهاية كما قلنا، ورجع إلى دياره خالي الوفاض.

حفر الخندق

حفر الخندق قد تمّت ـ كما نعلم ـ بمشورة «سلمان الفارسي»، وكانت هذه المسألة أُسلوباً دفاعياً معتاداً في بلاد فارس آنذاك، ولم يكن معروفاً في جزيرة العرب إلى ذلك اليوم، وكان

يعتبر ظاهرة جديدة، وكانت لإقامته في أطراف المدينة أهميّة عظيمة، سواء من الناحية العسكرية، أم من جهة إضعاف معنويات العدوّ ورفع معنويات المسلمين.

ولا توجد لدينا معلومات دقيقة عن صفات الخندق ودقائقه، فقد ذكر المؤرّخون أنّه كان من العرض بحيث لا يستطيع فرسان العدو عبوره بالقفز، ومن المحتّم أنّ عمقه أيضاً كان بالقدر الذي إذا سقط فيه أحد لم يكن يستطيع أن يخرج من الطرف المقابل بسهولة.

إضافةً إلى أنّ سيطرة رماة المسلمين على منطقة الخندق كان يمكّنهم من جعل كلّ من يحاول العبور هدفاً وغرضاً لسهامهم في وسط الخندق وقبل عبوره.

وأمّا من ناحية الطول فإنّ البعض قد قدّره بإثني عشر ألف ذراع (ستّة آلاف متر) إستناداً إلى الرواية المعروفة التي تقول بأنّ النّبي ﷺ كان قد أمر أن يحفر كلّ عشرة رجال أربعين ذراعاً من الخندق، وبملاحظة أنّ عدد جنود المسلمين ـ طبقاً للمشهور ـ بلغ ثلاثة آلاف رجل.

ولابدّ من الإعتراف بأنّ حفر مثل هذا الخندق، وبالآلات البدائية المستعملة في ذلك اليوم كان أمراً مضنياً وجهداً، خاصّة وأنّ المسلمين كانوا في ضيق شديد وحاجة ملحّة من ناحية الزاد والوسائل الأُخرى.

ومن المسلّم أنّ حفر الخندق قد إستغرق مدّة لا يستهان بها، وهذا يوحي بأنّ جيش المسلمين كان قد قدّر وخمّن وتوقّع التوقّعات اللازمة بدقّة كاملة قبل أن يهجم العدوّ بحيث أنّ حفر الخندق كان قد تمّ قبل ثلاثة أيّام من وصول جيش الكفّار.

نزال علي عليه السلام التاريخي لعمرو بن عبد ودّ

من المواقف الحسّاسة والتاريخية لهذه الحرب مبارزة علي عليه السلام لبطل معسكر العدوّ العظيم «عمرو بن عبد ودّ».

إنّ جيش الأحزاب كان قد دعا أشدّاء شجعان العرب للإشتراك والمساهمة في هذه الحرب، وكان الأشهر من بين هؤلاء خمسة: عمرو بن عبد ودّ، وعكرمة بن أبي جهل، وهبيرة، ونوفل، وضرار.

لقد إستعدّ هؤلاء في أحد أيّام الحرب للمبارزة الفردية، ولبسوا عدّة الحرب، وإستطاعوا إختراق الخندق والعبور بخيولهم إلى الجانب الآخر من خلال نقطة ضيّقة فيه، كانت بعيدة

نسبياً عن مرمى الرماة المسلمين، وأن يقفوا أمام جيش المسلمين، وكان أشهرهم «عمرو بن عبد ودّ».

فتقدّم وقد ركبه الغرور والإعتداد بالنفس، وكانت له خبرة طويلة في الحرب، ورفع صوته طالباً من يبارزه.

لقد دوّى نداؤه (هل من مبارز) في ميدان الأحزاب، ولمّا لم يجرؤا أحد من المسلمين على قتاله إشتدّت جرأته وبدأ يسخر من معتقدات المسلمين، فقال: أين جنّتكم التي تزعمون أنّ من قتل منكم دخلها؟ هل فيكم من أرسله إلى الجنّة، أو يدفعني إلى النار؟

وهنا أنشد أبياته المعروفة:

ولقد بححت من النداء بجمعكم هل من مبارز

ووقفت إذ جبن المشجّع موقف البطل المناجز

إنّ السماحة والشجاعة في الفتى خير الغرائز

فأمر النّبي ﷺ عند ذاك أن يخرج إليه رجل ويبعد شرّه عن المسلمين، إلّا أنّ أحداً لم يجب رسول الله ﷺ إلّا علي بن أبي طالب عليه السلام، فقال النّبي ﷺ: «إنّه عمرو» فقال علي عليه السلام: «وإن كان عمرواً» فدعاه النّبي ﷺ وعمّمه، وقلّده سيفه الخاصّ ذا الفقار، ثمّ دعا له فقال: **«اللهمّ احفظه من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله ومن فوقه ومن تحته»**.

فمشى علي عليه السلام إلى الحرب وهو يرتجز:

لا تعجلنّ فقد أتاك مجيب صوتك غير عاجز

ذو نيّة وبصيرة والصدق منجي كلّ فائز

إنّي لأرجو أن أُقيم عليك نائحة الجنائز

من ضربة نجلاء يبقى صوتها بعد الهزاهز

وهنا قال النّبي ﷺ كلمته المعروفة: **«برز الإيمان كلّه إلى الشرك كلّه»**.

ضربة افضل من عبادة الثقلين

فلمّا التقيا دعاه أمير المؤمنين علي عليه السلام إلى الإسلام أوّلاً، فأبى، ثمّ دعاه إلى إعتزال الحرب، فرفض ذلك، وإعتبره عاراً عليه، وفي الثالثة دعاه إلى أن ينزل عن ظهر جواده ويقاتله راجلاً، فغضب عمرو وقال: ما كنت أحسب أحداً من العرب يدعوني إلى مثل ذلك،

فنزل من على ظهر فرسه وضرب علياًعليه السلام على رأسه، فتلقّاها عليعليه السلام بمهارة خاصّة بدرعه، إلّا أنّ السيف قدّه وشجّ رأس عليعليه السلام.

هنا إستعمل عليعليه السلام أُسلوباً خاصّاً، فقال لعمرو: أنت بطل العرب، وأنا أُقاتلك، فعلام حضر من خلفك؟ فلمّا التفت عمرو، ضربه عليعليه السلام على ساقه بالسيف، فسقط عمرو إلى الأرض، فثارت غبرة ظنّ معها المنافقون أنّ علياً عليه السلام قد قتل بسيف عمرو، غير أنّهم لمّا سمعوا التكبير قد علا علموا بإنتصار علي، ورأوا فجأةً علياًعليه السلام يرجع إلى معسكره رويداً رويداً والدم ينزم من رأسه، وعلى شفتيه إبتسامة النصر، وكانت جثّة عمرو قد سقطت في جانب من الميدان.

لقد أنزل مقتل بطل العرب المعروف ضربة قاصمة بجيش الأحزاب بدّدت آمالهم وحطّمت معنوياتهم، وهزمتهم نفسياً هزيمة منكرة، وخابت آمالهم في النصر والظفر، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وآله في حقّها: **«لو وزن اليوم عملك بعمل جميع أُمّة محمّد لرجح عملك على عملهم، وذاك أنّه لم يبق بيت من المشركين إلّا وقد دخله ذلّ بقتل عمرو، ولم يبق بيت من المسلمين، إلّا وقد دخله عزّ يقتل عمرو»**.

وقد أورد العالم السنّي المعروف «الحاكم النيسابوري» هذا القول، لكن بتعبير آخر: **«لمبارزة علي بن أبي طالب لعمرو بن عبد ودّ يوم الخندق أفضل من أعمال أُمّتي إلى يوم القيامة»**[1].

والغاية من هذا الكلام واضحة، لأنّ كلّاً من الإسلام والقرآن كان على حافّة الهاوية ظاهراً، وكان يمرّ بأحرج لحظاته وأصعبها، ولذلك كانت التضحية في هذه الحرب أعظم التضحيات بعد تضحيات النّبي صلى الله عليه وآله، حيث حفظت الإسلام من السقوط ودرأت عنه الخطر، وضمنت بقاءه إلى يوم القيامة، وببركة تضحية الإمامعليه السلام تجذّر الإسلام وتأصّل وشملت غصونه وأوراقه العالمين، وبناءً على هذا فإنّ عبادة الجميع مرهونة بعمله.

المشركون أرسلوا رسولاً منهم ليشتري جثّة عمرو بعشرة آلاف درهم ـ وربّما كانوا يتصوّرون أنّ المسلمين سيفعلون بجثّة عمرو ما فعله قساة القلوب بجسد حمزة يوم أُحد ـ فقال النّبي صلى الله عليه وآله: **«هو لكم، لا نأكل ثمن الموتى»**!

---

١ ـ مستدرك الحاكم، الجزء ٣، صفحة ٣٢.

وهناك موقف يستحقّ الذكر والإنتباه، وهو: أنّ أُخت عمرو لمّا وصلت إلى جسد أخيها، ورأت أنّ علياً عليه السلام لم يسلبه درعه الثمينة قالت: **ما قتله إلّا كفؤ كريم**.

نعيم بن مسعود وبثّ الفُرقة في جيش العدوّ!

جاء «نعيم» إلى النّبي صلى الله عليه وآله وكان قد أسلم لتوّه، ولم تعلم قبيلته (غطفان) بإسلامه، فقال: أسلمت ولم يعلم بي أحد من قومي فمرني بأمرك، فقال له النّبي صلى الله عليه وآله: «**إنّما أنت فينا رجل واحد، فخذل عنّا ما إستطعت، فإنّما الحرب خدعة**».

فإنطلق نعيم بخطّة رائعة، وأتى يهود بني قريظة، وكانت له معهم صداقة في الجاهلية، فقال لهم: إنّي لكم صديق، وأنتم تعلمون ذلك، فقالوا: صدقت، ونحن لا نتّهمك أبداً، فقال: إنّ البلد بلدكم وبه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم، وإنّما قريش وغطفان بلادهم غيرها، وإنّما جاءوا حتّى نزلوا معكم فإن رأوا فرصة إنتهزوها، وإن رأوا غير ذلك رجعوا إلى بلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل، ولا طاقة لكم به، فلا تقاتلوا حتّى تأخذوا رهناً من أشرافهم تستوثقون به أن لا يبرحوا حتّى يناجزوا محمّداً، فقالوا: قد أشرت برأي، فقبل بنو قريظة قوله.

ثمّ أتى أبا سفيان وأشراف قريش متخفّياً، فقال: يامعشر قريش، إنّكم قد عرفتم ودّي إيّاكم وفراقي محمّداً ودينه، وإنّي قد جئتكم بنصيحة فاكتموا عليّ، فقالوا: نفعل، قال: تعلمون أنّ بني قريظة قد ندموا على ما صنعوا بينهم وبين محمّد فبعثوا إليه: أنّه لا يرضيك عنّا إلّا أن نأخذ من القوم رهناً من أشرافهم وندفعهم إليك فتضرب أعناقهم، ثمّ نكون معك عليهم حتّى نخرجهم من بلادك، فقالوا: بلى، فإن بعثوا إليكم يسألونكم نفراً من رجالكم فلا تعطوهم رجلاً واحداً واحذروا.

ثمّ جاء إلى غطفان قبيلته، فقال: تعلمون حسبي ونسبي، وأنا أودّكم، ولا أظنّكم تشكّون في صدقي، فقالوا: نعلم ذلك، فقال: لكم عندي خبر فاكتموه عليّ، فقالوا: نفعل، فقال لهم ما قال لقريش. وكان ذلك ليلة السبت من شوّال سنة خمس من الهجرة.

فأرسل أبو سفيان ورؤساء غطفان جماعة إلى بني قريظة فقالوا: إنّ الكراع والخفّ قد هلكا، وإنّا لسنا بدار مقام، فاخرجوا إلى محمّد حتّى نناجزه.

فأجابهم اليهود: إنّ غداً السبت، وهو يوم لا نعمل فيه، ولسنا مع ذلك بالذين نقاتل معكم حتّى تعطونا رهناً من رجالكم نستوثق بهم لا تذهبوا وتدعونا حتّى نناجز محمّداً.

فلمّا بلغ ذلك قريشاً وغطفان قالوا: والله لقد حذّرنا هذا نعيم، فبعث إليهم أبو سفيان: إنّا لا نعطيكم رجلاً واحداً فإن شئتم أن تخرجوا وتقاتلوا، وإن شئتم فاقعدوا.

ولمّا علمت اليهود بذلك قالوا: هذا والله الذي قال لنا نعيم. فإنّ في الأمر حيلة، وهؤلاء لا يريدون القتال، ويريدون أن يغيروا ويرجعوا إلى ديارهم ويذروكم ومحمّداً.

فأرسلوا إلى قريش وغطفان: إنّا والله لا نقاتل حتّى تعطونا رهناً، فأصرّت قريش وغطفان على قولهما فوقع الإختلاف بينهم، وبعث الله سبحانه عليهم الريح في ليال شاتية قارصة البرد، قلعت خيامهم، وكفأت قدورهم.

لقد اتّحدت هذه العوامل، فحزم الجميع أمتعتهم ورجّحوا الفرار على القرار، ولم يبق منهم رجل في ساحة الحرب.

قصّة حذيفة

جاء في كثير من التواريخ أنّ «حذيفة اليماني» قال: والله، لقد رأيتنا يوم الخندق وبنا من الجهد والجوع والخوف ما لا يعلمه إلّا الله، وفي ليلة من الليالي ـ بعد أن وقع الإختلاف بين جيش الأحزاب ـ قال رسول الله ﷺ: «**ألا رجل يأتينا بخبر القوم يجعله الله رفيقي في الجنّة**».

قال حذيفة: فوالله ما قام منّا أحد ممّا بنا من الخوف والجوع، فلمّا رأى النّبيﷺ ذلك دعاني، فقلت: لبّيك، قال: «**إذهب فجيء بخبر القوم ولا تحدثنّ شيئاً حتّى ترجع**»، فأتيت القوم فإذا ريح الله وجنوده تفعل بهم ما تفعل، ما يستمسك لهم بناء، ولا تثبت لهم نار، ولا يطمئن لهم قدر، فإنّي لكذلك إذ خرج أبو سفيان من رحله، ثمّ قال: يامعشر قريش، لينظر أحدكم من جليسه لئلّا يكون هنا غريب، فبدأت بالذي عن يميني، فقلت: من أنت؟ قال: أنا فلان، فقلت: حسناً.

ثمّ عاد أبو سفيان براحلته، فقال: يامعشر قريش ـ والله ـ ما أنتم بدار مقام، هلك الخفّ والحافر، وأخلفتنا بنو قريظة، وهذه الريح لا يستمسك لنا معها شيء، ثمّ عجّل فركب راحلته وإنّها لمعقولة ما حلّ عقالها إلّا بعد ما ركبها.

فقلت في نفسي: لو رميت عدوّ الله وقتلته كنت قد صنعت شيئاً، فوترت قوسي ثمّ وضعت السهم في كبد القوس، فلمّا أردت أن أطلقه ذكرت قول رسول الله ﷺ: «**لا تحدثنّ شيئاً حتّى**

ترجع» وإنّه طلب منّي أن آتيه بالخبر وحسب، حططت القوس ثمّ رجعت إلى رسول الله فأخبرته الخبر، فقال النّبي ﷺ: «**اللهمّ أنت منزل الكتاب، سريع الحساب، أهزم الأحزاب، اللهمّ أهزمهم وزلزلهم**».

معركة الاحزاب في القرآن الكريم

يقول القرآن الكريم في هذه الحادثة: **﴿ياأيّها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود** (كثيرة جدّاً) **فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيراً﴾** ويعلم أعمال كلّ جماعة وما قامت به في هذا الميدان الكبير.

إنّ المراد من **﴿جنوداً لم تروها﴾** والتي نزلت لنصرة المسلمين، هو «الملائكة» التي ورد نصرها للمؤمنين في غزوة بدر في القرآن المجيد بصراحة. ولكن إنّا لا نمتلك الدليل على أنّ هذه الجنود الإلهية اللامرئية نزلت إلى الميدان وحاربت، بل إنّ القرائن الموجودة تبيّن أنّ الملائكة نزلت لرفع معنويات المؤمنين وشدّ عزيمتهم وإثارة حماسهم.

ويقول القرآن الكريم تجسيداً للوضع المضطرب في تلك المعركة، وقوّة الأعداء الحربية الرهيبة، والقلق الشديد لكثير من المسلمين: **﴿إذ جاؤوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنّون بالله الظنونا﴾**.

وإنّ بعض المسلمين كانوا قد خطرت على أفكارهم ظنون خاطئة، لأنّهم لم يكونوا قد وصلوا بعد إلى مرحلة الكمال في الإيمان.

ربّما كان بعضهم يفكّر ويظنّ بأنّنا سننهزم في نهاية المطاف، وينتصر جيش العدوّ بهذه القوّة والعظمة، وقد حانت نهاية عمر الإسلام، وأنّ وعود النّبيﷺ بالنصر سوف لا تتحقّق مطلقاً.

من الطبيعي أنّ هذه الأفكار لم تكن عقيدة راسخة، بل كانت وساوس حدثت في أعماق قلوب البعض.

هنا كان الإمتحان الإلهي قد بلغ أشدّه كما يقول سبحانه: **﴿هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً﴾**[1].

---

١ ـ الاحزاب، ١١ ـ ٩.

من الطبيعي أنّ الإنسان إذا أُحيط بالعواصف الفكرية، فإنّ جسمه لا يبقى بمعزل عن هذا الإبتلاء، بل ستظهر عليه آثار الإضطراب والتزلزل، وكثيراً ما نرى أنّ الأشخاص المضطربين فكرياً لا يستطيعون الإستقرار في مجلسهم وتنعكس وبشكل واضح إضطراباتهم الفكرية من خلال حركاتهم وصفقهم يداً بيد.

وأحد شواهد هذا القلق والإضطراب الشديد ما نقلوه من أنّ خمسة من أبطال العرب المعروفين ـ وكان على رأسهم «عمرو بن عبد ودّ» ـ نزلوا إلى الميدان بغطرسة متميّزة وإعتداد بالنفس كبير، فقالوا: هل من مبارز؟ سيّما عمرو بن عبد ودّ الذي كان يرتجز ويسخر من المسلمين ويستهزىء بالجنّة والآخرة، وكان يقول: أيّها المسلمون ألم تزعموا أنّ قتلاكم في الجنّة؟ فهل فيكم من يشتاق إلى الجنّة؟ إلّا أنّ السكوت ساد على معسكر المسلمين أمام سخريته وإستهزائه ودعوته للبراز، ولم يجرؤ أحد على مناجزته، إلّا علي بن أبي طالب عليه السلام الذي هبّ لمبارزته، وحقّق نصراً كبيراً للمسلمين.

نعم .. إنّ الحديد يزداد صلابة وجودة إذا عرض على النار، والمسلمون الأوائل كان يجب أن يوضعوا في بوتقة الحوادث الصعبة المرّة، وخاصّة في غزوات كغزوة الأحزاب، ليصبحوا أشدّ مقاومة وصلابة.

المنافقون في عرصة الأحزاب

فار تنوّر إمتحان حرب الأحزاب، وابتلي الجميع بهذا الإمتحان الكبير العسير، ومن الواضح أنّ الناس الذين يقفون ظاهراً في صفّ واحد في الظروف العادية، ينقسمون إلى صفوف مختلفة في مثل هذه الموارد المضطربة الصعبة، وهنا أيضاً إنقسم المسلمون إلى فئات مختلفة: فمنهم المؤمنون الحقيقيون، وفئة خواصّ المؤمنين، وجماعة ضعاف الإيمان، وفرقة المنافقين، وجمع المنافقين العنودين المتعصّبين، وبعضهم كان يفكّر في بيته وحياته والفرار، وجماعة كانوا يسعون إلى صرف الآخرين عن الجهاد، والبعض الآخر كان يسعى إلى تحكيم أواصر الودّ مع المنافقين.

والخلاصة: فإنّ كلّ واحد قد أظهر أسراره الباطنية وما ينطوي عليه في هذه القيامة العجيبة، وفي يوم البروز هذا.

رأيت قصور ايران والروم واليمن

إنّ خلال حفر الخندق، وبينما كان المسلمون مشغولين بحفر من الخندق، إصطدموا بقطعة حجر كبيرة صلدة لم يؤثّر فيها أي معول، فأخبروا النّبي ﷺ بذلك، فأتى بنفسه إلى الخندق ووقف إلى جنب الصخرة، وأخذ المعول، فضرب الحجر أوّل ضربة قويّة فانصدع قسم منه وسطع منه برق، فكبّر النّبي ﷺ وكبّر المسلمون.

ثمّ ضرب الحجر ضربة أُخرى فتهشّم قسم آخر وظهر منها برق، فكبّر النّبي وكبّر المسلمون، وأخيراً ضرب النّبي ضربته الثالثة، فتحطّم الباقي من الحجر وسطع برق، فكبّر النّبي ﷺ ورفع المسلمون أصواتهم بالتكبير، فسأل سلمان النّبي عن ذلك فقال ﷺ **«أضاءت الحيرة وقصور كسرى في البرقة الأولى، وأخبرني جبرئيل أنّ أُمّتي ظاهرة عليها، وأضاء لي في الثّانية القصور الحمر من أرض الشام والروم، وأخبرني أنّ أُمّتي ظاهرة عليها، وأضاء لي في الثالثة قصور صنعاء، وأخبرني أنّ أُمّتي ظاهرة عليها، فأبشروا»** فاستبشر المسلمون.

فنظر المنافقون إلى بعضهم وقالوا: ألا تعجبون؟ يعدكم الباطل ويخبركم أنّه ينظر من يثرب إلى الحيرة ومدائن كسرى وأنّها تفتح لكم، وأنتم لا تستطيعون أن تبرزوا؟ فأنزل الله: **﴿وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلّا غروراً﴾**[1].

والحقّ أنّ مثل هذه الأخبار والبشارات إعتبرها المنافقون في ذلك اليوم خدعة وغروراً، إلّا أنّ عين النّبي ﷺ الملكوتية كانت قادرة على رؤية فتح أبواب قصور ملوك ايران والروم واليمن من خلال الشرر المتطاير من ذلك الحجر، ويبشّر هذه الأُمّة المضحيّة التي حملت القلوب على الأكفّ، ويزيح الستار عن أسرار المستقبل.

أعذار المنافقين

ثمّ يتطرّق القرآن الكريم إلى بيان حال طائفة أُخرى من هؤلاء المنافقين مرضى القلوب، والذين كانوا أخبث وأفسق من الباقين، فمن جانب يقول عنهم: واذكر إذ قالت مجموعة منهم للأنصار: ياأهل المدينة (يثرب) ليس لكم في هذا المكان موقع فلا تتوقّفوا هنا وارجعوا إلى

---

١ ـ الاحزاب، ١٢.

بيوتكم: ﴿وإذ قالت طائفة منهم ياأهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا﴾.

وخلاصة الأمر أنّكم لا تقدرون على عمل أيّ شيء في مقابل جحفل الأعداء اللجب، فانسحبوا من المعركة ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة وبنسائكم وأطفالكم إلى ذلّ الأسر، وبذلك كانوا يريدون أن يعزلوا الأنصار عن جيش الإسلام.

ومن جانب آخر: ﴿ويستأذن فريق منهم النّبي يقولون إنّ بيوتنا عورة وما هي بعورة إن يريدون إلّا فراراً﴾.

والمنافقين بتقديمهم هذه الأعذار كانوا يريدون الفرار من ساحة الحرب وإعتزال القتال، واللجوء إلى بيوتهم.

وجاء في رواية: أنّ طائفة «بني حارثة» أرسلوا رسولاً منهم إلى النّبي ﷺ وقالوا: إنّ بيوتنا غير مأمونة، وليس هناك بيت من بيوت الأنصار يشبه بيوتنا، ولا مانع بيننا وبين «غطفان» الذين هجموا من شرق المدينة، فائذن لنا أن نرجع إلى بيوتنا وندافع عن نسائنا وأولادنا، فأذن لهم النّبي.

فبلغ ذلك «سعد بن معاذ» كبير الأنصار، فقال للنبي ﷺ: لا تأذن لهم، فإنّي أُقسم بالله أنّ هؤلاء القوم تعذّروا بذلك كلّما عرضت لنا مشكلة، إنّهم يكذبون، فأمر رسول الله ﷺ أن يرجعوا.[1]

---

١ ـ «يثرب» هو الإسم القديم للمدينة قبل أن يهاجر إليها النّبي ﷺ، وبعد هجرته أصبح إسمها تدريجياً «مدينة الرّسول»، ومخفّفها المدينة.

ولهذه المدينة أسماء عديدة، ذكر لها الشريف المرتضى (رحمة الله عليه) أحد عشر إسماً آخر إضافةً إلى هذين الإسمين، ومن جملتها: طيبة، وطابة، وسكينة، والمحبوبة، والمرحومة، والقاصمة. ويعتقد البعض أنّ «يثرب» اسم لأرض هذه المدينة.

وجاء في بعض الروايات أنّ النّبي ﷺ قال: «لا تسمّوا هذه المدينة يثرب» وربّما كان ذلك بسبب أنّ يثرب في الأصل من مادّة «ثرب» (على وزن حرب) أي اللوم، ولم يكن النّبي ﷺ ليرضى مثل هذا الإسم لهذه المدينة المباركة.

وعلى كلّ حال فإنّ خطاب المنافقين لأهل المدينة بـ (ياأهل يثرب) لم يكن خطاباً عشوائياً، وربّما كان الباعث لخطابهم بهذا الإسم أنّهم كانوا يعلمون أنّ النّبي ﷺ يشمئز من هذا الإسم، أو أنّهم كانوا يريدون إعلان عدم إعترافهم بالإسلام واسم مدينة الرّسول، أو أن يعودوا بأهلها إلى مرحلة الجاهلية!

ويشير القرآن إلى ضعف إيمان هذه الفئة، فتقول: إنّ هؤلاء بلغ بهم ضعف الإيمان إلى درجة أنّ جيش الكفر لو دخل المدينة من كلّ جانب وصوب، واستولى عليها، ثمّ دعاهم إلى الشرك والكفر فسوف يقبلون ذلك ويسارعون إليه: **﴿ولو دخلت علهيم من أقطارها ثمّ سئلوا الفتنة لأتوها وما تلبّثوا بها إلّا يسيراً﴾**.

من المعلوم أنّ أُناساً بهذا الضعف والتزلزل وعدم الثبات غير مستعدّين للقاء العدوّ ومحاربته، ولا هم متأهّبون لتقبّل الشهادة في سبيل الله، بل يستسلمون بسرعة ويغيّرون مسيرهم.

ثمّ يستدعي القرآن الكريم فئة المنافقين إلى المحاكمة، فيقول: **﴿ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار وكان عهد الله مسؤولاً﴾** وعليه فإنّهم مسؤولون أمام تعهّدهم.

وبعد أن أفشى الله سبحانه نيّة المنافقين وبيّن أنّ مرادهم لم يكن حفظ بيوتهم، بل الفرار من ميدان الحرب، يجيبهم بأمرين:

الأوّل: أنّه يقول للنّبي ﷺ: **﴿قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل وإذاً لا تمتّعون إلّا قليلاً﴾**[1].

ألم تعلموا أنّ كلّ مصائركم بيد الله، ولن تقدروا أن تفرّوا من حدود حكومة الله وقدرته ومشيئته: **﴿قل من ذا الذي يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءاً أو أراد بكم رحمة ولا يجدون لهم من دون الله وليّاً ولا نصيراً﴾**.

فئة المعوّقين

أشار القرآن إلى وضع فئة أُخرى من المنافقين الذين إعتزلوا حرب الأحزاب، وكانوا يدعون الآخرين أيضاً إلى إعتزال القتال، فقالت: **﴿قد يعلم الله المعوّقين منكم والقائلين لإخوانهم هلمّ إلينا ولا يأتون البأس إلّا قليلاً﴾**[2].

ونقرأ في رواية: أنّ أحد أصحاب النّبي ﷺ جاء من ميدان حرب الأحزاب إلى داخل المدينة لحاجة، فرأى أخاه قد وضع أمامه الخبز واللحم المشوي والشراب، فقال له: أنت في

---

١ ـ الاحزاب، ١٧ ـ ١٣.

٢ ـ الاحزاب، ١٨ .

هذه الحال تلتذّ ورسول الله مشغول بالحرب، وهو بين الأسنّة والسيوف؟! فقال أخوه: ياأحمق! ابق معنا وشاركنا مجلسنا، فوالذي يحلف به محمّد إنّه لن يرجع من هذه المعركة! وسوف لن يدع هذا الجيش العظيم الذي إجتمع عليه محمّداً وأصحابه أحياء!

فقال له الأوّل: أنت تكذب، وأُقسم بالله لأذهبنّ إلى رسول الله ﷺ وأخبره بما قلت، فجاء إلى النّبي ﷺ وأخبره بما جرى.

إنّهم لن يؤمنوا

ويضيف القرآن الكريم إنّ الدافع لكلّ تلك العراقيل التي وضعوها أمامكم هو أنّهم بخلاء: ﴿أشحّة عليكم﴾ لا في بذل الأرواح في ساحة الحرب، بل هم بخلاء حتّى في المعونات الماديّة لتهيئة مستلزمات الحرب، وفي المعونة البدنية في حفر الخندق، بل ويبخلون حتّى في المساعدة الفكرية، بخلاً يقترن بالحرص المتزايد يومياً!

وبعد تبيان بخل هؤلاء وإمتناعهم عن أيّ نوع من المساعدة والإيثار، تتطرّق الآية إلى بيان صفات أُخرى لهم، والتي لها صفة العموم في كلّ المنافقين، وفي كلّ العصور والقرون، فيقول: ﴿فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت﴾.

فلأنّهم لما لم يذوقوا طعم الإيمان الحقيقي، ولم يستندوا إلى عماد قويّ في الحياة، فإنّهم يفقدون السيطرة على أنفسهم تماماً عندما يواجهون حادثاً صعباً ومأزقاً حرجاً، وكأنّهم يواجهون الموت.

ثمّ يضيف: ﴿فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد أشحّة على الخير﴾ فيأتون إليكم كأنّهم هم الفاتحون الأصليون والمتحمّلون أعباء الحرب، فيعربدون ويطلبون سهمهم من الغنائم، وهم كانوا أبخل من الجميع في المشاركة في الحرب والثبات فيها.

ويشير في النهاية إلى آخر صفة لهؤلاء، والتي هي في الواقع أساس كلّ شقائهم وتعاستهم، فقال: ﴿أُولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم﴾ لأنّها لم تكن منبعثة عن الإخلاص والدافع الديني الإلهي.

﴿يحسبون الأحزاب لم يذهبوا﴾ من شدّة خوفهم ورعبهم، فقد خيّم عليهم كابوس مخيف، فكأنّ جنود الكفر يمرّون دائماً أمام أعينهم وقد سلّوا السيوف ومالوا عليهم بالرماح!

إنّ هؤلاء المحاربين الجبناء، والمنافقين خائري القلوب والقوى يخافون حتّى من

ظلالهم، وينطوون على أنفسهم من الخوف لدى سماع صهيل الخيل ورغاء البعير، ظنّاً أنّ جيوش الأحزاب قد عادت!

ثمّ يضيف: ﴿وإن يأت الأحزاب يودّون لو أنّهم بادون في الأعراب﴾ أي منتشرون في الصحراء بين أعراب البادية، فيختفون هناك ويتتبّعون أخباركم و ﴿يسألون عن أنبائكم﴾ فيسألون لحظة بلحظة من كلّ مسافر آخر الأخبار لئلّا تكون الأحزاب قد إقتربت منهم، وهم مع ذلك يمنّون عليكم بأنّهم كانوا يتابعون أخباركم دائماً!!

ويضيف في آخر جملة: وعلى فرض أنّهم لم ينهزموا ويفرّوا من الميدان، بل بقوا معكم: ﴿ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلّا قليلاً﴾[1].

فلا تحزنوا وتقلقوا لذهابهم، ولا تفرحوا بوجودهم بينكم، فإنّهم أُناس لا قيمة لهم ولا صفة تحمد، وعدمهم أفضل من وجودهم!

وحتّى هذا القدر المختصر من العمل لم يكن لله أيضاً، بل هو نتيجة الخوف من ملامة وتقريع الناس، وللتظاهر والرياء، لأنّه لو كان لله لكانوا يقفون ويثبتون في ساحة الحرب ما دام فيهم عرق ينبض.

دور المؤمنين المخلصين في معركة الأحزاب

يستمرّ الكلام إلى الآن عن الفئات المختلفة ومخطّطاتهم وأدوارهم في غزوة الأحزاب، وقد تقدّم الكلام عن ضعفاء الإيمان والمنافقين ورؤوس الكفر والنفاق والمعوّقين عن الجهاد.

ويتحدّث القرآن المجيد في نهاية المطاف عن المؤمنين الحقيقيين، ومعنوياتهم العالية ورجولتهم وثباتهم وسائر خصائصهم في الجهاد الكبير.

ويبدأ مقدّمة هذا البحث بالحديث عن النّبي الأكرمﷺ، حيث كان إمامهم وقدوتهم، فيقول: ﴿لقد كان لكم في رسول الله أُسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً﴾[2].

---

١ ـ الاحزاب، ٢٠ ـ ١٩.

٢ ـ الاحزاب، ٢١.

فإنّ النّبيﷺ خير نموذج لكم، لا في هذا المجال وحسب، بل وفي كلّ مجالات الحياة، فإنّ كلاًّ من معنوياته العالية، وصبره وإستقامته وصموده، وذكائه ودرايته، وإخلاصه وتوجّهه إلى الله، وتسلّطه وسيطرته على الحوادث، وعدم خضوعه وركوعه أمام الصعاب والمشاكل، نموذج يحتذي به كلّ المسلمين.

إنّ هذا القائد العظيم لا يدع للضعف والعجلة إلى نفسه سبيلاً عندما تحيط بسفينته أشدّ العواصف، وتعصف بها الأمواج المتلاطمة، فهو ربّان السفينة، ومرساها المطمئن الثابت، وهو مصباح الهداية، ومبعث الراحة والهدوء والإطمئنان الروحي لركابها.

إنّه يأخذ المعول بيده ليحفر الخندق مع بقيّة المؤمنين، فيجمع ترابه بمسحاة ويخرجه بوعاء معه، ويمزح مع أصحابه لحفظ معنوياتهم والتخفيف عنهم، ويرغّبهم في إنشاد الشعر الحماسي لإلهاب مشاعرهم وتقوية قلوبهم، ويدفعهم دائماً نحو ذكر الله تعالى ويبشّرهم بالمستقبل الزاهر والفتوحات العظيمة.

يحذّرهم من مؤامرات المنافقين، ويمنحهم الوعي والإستعداد اللازم.

ولا يغفل لحظة عن التجهيز والتسلّح الحربي الصحيح، وإنتخاب أفضل الأساليب العسكرية، ولا يتوانى في الوقت نفسه عن إكتشاف الطرق المختلفة التي تؤدّي إلى بثّ التفرقة وإيجاد التصدّع في صفوف الأعداء.

نعم .. إنّه أسمى مقتدى، وأحسن أُسوة للمؤمنين في هذا الميدان، وفي كلّ الميادين.

وصف المؤمنين

ويشير القرآن إلى فئة خاصّة من المؤمنين، وهم الذين كانوا أكثر تأسّياً بالنّبيﷺ من الجميع، وثبتوا على عهدهم الذي عاهدوا الله به، وهو التضحية في سبيل دينه حتّى النفس الأخير، وإلى آخر قطرة دم، فيقول: **﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر﴾** من دون أن يتزلزل أو ينحرف ويبدّل العهد ويغيّر الميثاق الذي قطعه على نفسه **﴿وما بدّلوا تبديلاً﴾**[1].

---

١ ـ الاحزاب، ٢٣.

وهناك إختلاف بين المفسّرين في المعنيّ بهذه الآية.

يروي العالم المعروف (الحاكم أبو القاسم الحسكاني) ـ وهو من علماء السنّة ـ بسند عن علي عليه السلام أنّه قال: «فينا نزلت ﴿رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه﴾ فأنا ـ والله ـ المنتظر وما بدّلت تبديلاً، ومنّا رجال قد إستشهدوا من قبل كحمزة سيّد الشهداء».

معركة بني‌قريظه

كان في المدينة ثلاث طوائف معروفة من اليهود، وهم: بنو قريظة، وبنو النضير، وبنو قينقاع، وكانت هذه الطوائف قد عاهدت النّبيﷺ على أن لا تعين عدوّاً له ولا يتجسّسوا لذلك العدوّ، وأن يعيشوا مع المسلمين بسلام، إلّا أنّ «بني قينقاع» قد نقضوا عهدهم في السنة الثّانية للهجرة، و «بنو النضير» في السنة الرّابعة للهجرة بأعذار شتّى، وصمّموا على مواجهة النّبيﷺ وإنهارت مقاومتهم في النهاية، وطردوا إلى خارج المدينة، فذهب «بنو قينقاع» إلى أذرعات الشام، وذهب بعض «بني النضير» إلى خيبر، وبعضهم الآخر إلى الشام.

بناءً على هذا فإنّ «بني قريظة» كانوا آخر من بقي في المدينة إلى السنة الخامسة للهجرة حيث وقعت غزوة الأحزاب، وكما قلنا في تفسير الآيات السبع عشرة المتعلّقة بمعركة الأحزاب، فإنّهم نقضوا عهدهم في هذه المعركة، واتّصلوا بمشركي العرب، وشهروا السيوف بوجه المسلمين.

بعد إنتهاء غزوة الأحزاب والتراجع المشين والمخزي لقريش وغطفان وسائر قبائل العرب عن المدينة، فإنّ النّبيﷺ ـ طبقاً للرّوايات الإسلامية ـ عاد إلى منزله وخلع لامة الحرب وذهب يغتسل، فنزل عليه جبرئيل بأمر الله وقال: لماذا ألقيت سلاحك وهذه الملائكة قد إستعدّت للحرب؟ عليك أن تسير الآن نحو بني قريظة وتنهي أمرهم.

لم تكن هناك فرصة لتصفية الحساب مع بني قريظة أفضل من هذه الفرصة، حيث كان المسلمون في حرارة الإنتصار، وبنو قريظة يعيشون لوعة الهزيمة المرّة، وقد سيطر عليهم

الرعب الشديد، وكان حلفاؤهم من قبائل العرب متعبين منهكي القوى خائري العزائم، وهم في طريقهم إلى ديارهم يجرّون أذيال الخيبة، ولم يكن هناك من يحميهم ويدافع عنهم.

هنا نادى منادٍ من قبل رسول الله ﷺ بأن توجّهوا إلى بني قريظة قبل أن تصلّوا العصر، فاستعدّ المسلمون بسرعة وتهيّئوا للمسير إلى الحرب، وما كادت الشمس تغرب إلّا وكانت حصون بني قريظة المحكمة محاصرة تماماً.

لقد إستمرت هذه المحاصرة خمسة وعشرين يوماً.

ويقال: إنّ المسلمين قد تعجّلوا الوصول إلى حصون بني قريظة بحيث إنّ البعض قد غفل عن صلاة العصر فاضطرّوا إلى قضائها فيما بعد، فقد أمر النّبي ﷺ أن تحاصر حصونهم، ودام الحصار خمسة وعشرين يوماً، وقد ألقى الله عزّوجلّ الرعب الشديد في قلوب اليهود.

مقترحات ثلاثة

قال «كعب بن أسد» ـ وكان من زعماء اليهود ـ: إنّي على يقين من أنّ محمّداً لن يتركنا حتّى يقاتلنا، وأنا أقترح عليكم ثلاثة أُمور إختاروا أحدها:

إمّا أن نبايع هذا الرجل ونؤمن به ونتّبعه، فإنّه قد ثبت لكم أنّه نبي الله، وأنتم تجدون علاماته في كتبكم، وعند ذلك ستُصان أرواحكم وأموالكم وأبناؤكم ونساؤكم، فقالوا: لا نرجع عن حكم التوراة أبداً، ولا نقبل بدلها شيئاً.

قال: فإذا رفضتم ذلك، فتعالوا نقتل نساءنا وأبناءنا بأيدينا حتّى يطمئن بالنا من قبلهم، ثمّ نسلّ السيوف ونقاتل محمّداً وأصحابه ونرى ما يريده الله، فإن قُتلنا لم نقلق على أبنائنا ونسائنا، وإن إنتصرنا فما أكثر النساء والأولاد. فقالوا: أنقتل هؤلاء المساكين بأيدينا؟! إذن لا خير في حياتنا بعدهم.

قال كعب بن أسد: فإن أبيتم هذا أيضاً فإنّ الليلة ليلة السبت، وأنّ محمّداً وأصحابه يظنون أنّنا لا نهجم عليهم الليلة، فهلمّوا نبيّتهم ونباغتهم ونحمل عليهم لعلّنا ننتصر عليهم. فقالوا: ولا نفعل ذلك، لأنّا لا نهتك حرمة السبت أبداً.

فقال كعب: ليس فيكم رجل يعقل ليلة واحدة منذ ولدته أُمّه.

بعد هذه الحادثة طلبوا من النّبي ﷺ أن يرسل إليهم «أبا لبابة» ليتشاوروا معه.

خيانة أبي‌لبابة

فلمّا أتاهم ابولبابة ورأى أطفال اليهود يبكون أمامه رقّ قلبه، فقال الرجال: أترى لنا أن نخضع لحكم محمّدﷺ؟ فقال أبو لبابة: نعم، وأشار إلى نحره، أي إنّه سيقتلكم جميعاً!

يقول أبو لبابة: ما إن تركتهم حتّى إنتبهت لخيانتي، فلم آت النّبيﷺ مباشرةً، بل ذهبت إلى المسجد وأوثقت نفسي بعمود فيه وقلت: لن أبرح مكاني حتّى يقبل الله توبتي.

واستمر على هذه الحال دون أكل وشرب إلى سبعة أيّام، حتى فقد وعيه وسقط على الأرض مغشياً عليه، فقبل الله توبته، وقام المؤمنون بإبلاغة الخبر، لكنّه أقسم أن لا يفكّ نفسه من العمد حتى يأتيه النّبيﷺ ويفك عنه الحبل، فجاءه النّبيﷺ وفكّ حبله، وقال (أبولبابة): إنّ من تمام توبتي أن أهجر دار قومي التي اصبت فيها بالذنب وأن انخلع من مالي، فقال النّبيﷺ له: «**يجزيك الثلث أن تصدّق به**».

فقبل الله توبته لصدقه وغفر ذنبه[1].

وأخيراً اضطرّ بنو قريظة إلى أن يستسلموا بدون قيد أو شرط، فقال النّبي ﷺ: «**ألا ترضون أن يحكم فيكم سعد بن معاذ**»؟ قالوا: بلى، فقال سعد: قد آن لسعد أن لا تأخذه في الله لومة لائم.

ثمّ أخذ سعد الإقرار من اليهود مجدّداً بأنّهم يقبلون بما يحكم، وبعدها التفت إلى حيث كان النّبيﷺ واقفاً فقال: حكمي فيهم نافذ؟ قال: نعم، فقال: انّني أحكم بقتل رجالهم المحاربين، وسبي نسائهم وذراريهم، وتقسيم أموالهم.

وقد أسلم جمع من هؤلاء فنجوا. وتطهّرت أرض المدينة من دنس هؤلاء المنافقين والأعداء اللدودين إلى الأبد.

وقد أشار القرآن إشارة مختصرة ودقيقة إلى هذه الحادثة، وأوضح أنّ هذه الحادثة كانت نعمة وموهبة إلهيّة عظيمة، فيقول أوّلاً: ﴿**وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم**﴾.

ويتّضح هنا أنّ اليهود كانوا قد بنوا قلاعهم وحصونهم إلى جانب المدينة في نقطة مرتفعة،

---

١ ـ ونزلت الآية ١٠٢ من سورة آل‌عمران.

والتعبير بـ(أنزل) يدلّ على هذا المعنى.

ثمّ يضيف: ﴿وقذف في قلوبهم الرعب﴾ وأخيراً بلغ أمرهم أنّكم ﴿فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً وأورثكم أرضهم وديارهم﴾[1].

إنّ هذه الجمل تمثّل مختصراً وجانباً من نتائج غزوة بني قريظة، حيث قتل جمع من أُولئك الخائنين على يد المسلمين، وأُسر آخرون، وغنم المسلمون منهم غنائم كثيرة من جملتها أراضيهم وديارهم وأموالهم.

---

١ ـ الاحزاب، ٢٧ ـ ٢٦.

قصّة «صلح الحديبية»

في السنة السادسة للهجرة وفي شهر ذي القعدة منها تحرّك النّبي نحو مكّة لأداء مناسك العُمرة ورغب المسلمين جميعاً في هذا الأمر.. غير أنّ قسماً منهم امتنع عن ذلك، في حين أنّ معظم المهاجرين والأنصار وجماعة من أهل البادية عزموا علىٰ الاعتمار مع النّبي فساروا نحو مكّة!...

فأحرم هؤلاء المسلمون الذين كانوا مع النّبي وكان عددهم في حدود «الألف والأربعمائة» ولم يحملوا من أسلحة الحرب شيئاً سوىٰ السيوف التي كانت تعدّ أسلحةً للسفر فحسب!.

فعقد المسلمون إحرامهم عند «ذي الحليفة» «المنطقة التي تقرب من المدينة المنوّرة» وتحرّكوا نحو مكّة المكرّمة في إبل كثيرة لتُنحر «يوم الهدي» هناك.

وكانت الحالة التي يتحرك النّبي ﷺ عليها توحي بصورة جيدة أنّه لا هدف لديه سوىٰ هذه العبادة الكبرىٰ.. إلىٰ أن وصل النّبي منطقة الحديبيّة «وهي قرية علىٰ مقربة من مكّة ولا تبعد عنها أكثر من عشرين كيلو متراً».

إلّا أنّ قريشاً علمت بوصول النّبي إلىٰ الحديبيّة فأوصدت بوجهه الطريق ومنعته من الدخول إلىٰ مكّة المكرمة.

وبهذا ألغت قريش جميع السنن التي ترتبط بأمن المسجد الحرام وضيوف الله والشهر الحرام ووضعتها تحت أقدامها.. إذ كانت تعتقد بحرمة الأشهر الحرام «ومن ضمنها شهر ذي القعدة الذي عزم النّبي ﷺ فيه علىٰ العمرة» وخاصّةً إذا كان الناس حال الإحرام فلا ينبغي التعرّض لهم حتىٰ لو كان المحرم قاتل واحد من رجالهم، ورُئي محرماً في مناسكه فلا يُمس

بسوءٍ أبداً».

وأخيراً جاء عروة بن مسعود الثقفي الذي كان رجلاً حازماً عند النّبي فقال له النبي: «**إنّا لم نجيء لقتال أحد ولكن جئنا معتمرين...**». وهذا وقد لاحظ عروة الثقفي، ضمناً حالة الأصحاب وهم يكتنفون نبيّهم عند وضوئه فلا يَدَعُون قطرةً تهوي إلىٰ الأرض منه.

وحين رجع عروة إلىٰ قريش قال: لقد ذهبت إلىٰ قصور كسرىٰ وقيصر والنجاشي فلم أرَ قائداً في قومه في عظمته كعظمة محمّد بين أصحابه.. وقال عروة لرجال قريش أيضاً إذا كُنتم تتصورون أنّ أصحاب محمّد يتركونه فأنتم في خطأ كبير.. فأنتم في مواجهة أمثال هؤلاء الرجال الذين يؤثرون علىٰ أنفسهم فاعرفوا كيف تواجهونهم!؟

بيعة الرضوان

ثمّ إنّ النّبي أمرَ عمرَ أن يمضي إلىٰ مكّة ليطلع أشراف قريش علىٰ الهدف من سفر النّبي فاعتذر عمر وقال إنّ بينه وبين قريش عداوة شديدة وهو منها علىٰ حذر فالأفضل أن يرسل عثمان بن عفان ليبادر إلىٰ هذا العمل، فمضىٰ عثمان إلىٰ مكّة ولم تمضِ فترة حتىٰ شاع بين المسلمين خبر مفاده أنّ عثمان قُتل، فاستعد النّبي لأن يواجه قريشاً بشدّة! فطلب بتجديد البيعة من أصحابه فبايعوه تحت الشجرة بيعةَ سُمّيت «**بيعة الرضوان**» وتعاهدوا علىٰ مواصلة الجهاد حتىٰ آخر نفس؛ إلّا أنّه لم يمضِ زمن يسير حتىٰ عاد عثمان سالماً وأرسلت قريش على أثره سهيل بن عمرو للمصالحة مع النّبي غير أنّها أكّدت علىٰ النّبي أنّه لا يدخل مكّة في عامه هذا أبداً.

وبعد كلام طويل تمّ عقد الصلح بين الطرفين وكان من موادّه ما بيّناه آنفاً وهو أن يغض المسلمون النظر عن موضوع العمرة لذلك العام وأن يأتوا في العام القابل الىٰ مكّة شريطة أن لا يمكثوا في مكّة أكثر من ثلاثة أيّام وأن لا يحملوا سلاحاً غير سلاح السفر كما كان من مواد العقد أُمور أُخرىٰ تدور حول سلامة الأرواح والأموال التي تعود للمسلمين والذين يأتون مكّة منهم [من قِبَل المدينة] ومن مواد العقد أيضاً إيقاف القتال بين المسلمين والمشركين لعشر سنين وأن يكون مسلمو مكّة أحراراً في أداء مناسكهم وفرائضهم الإسلامية.

وكان هذا العقد [أو هذه المعاهدة] بمثابة عدم التعرض لكلا الجانبين ولحسم المعارك المستمرّة بين المسلمين والمشركين بصورة مؤقتة.

نصّ معاهدة الصلح

وكان مؤدّىٰ هذه المعاهدة وما يتضمّنه عقد الصلح بالنحو التالي:

«قال النّبي لعلي اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم: فقال سهيل بن عمرو الذي كان سفير المشركين لا أعرف هذه العبارة بل ليُكتبْ بسمِكَ اللّهمّ! فقال النّبي لعلي اكتب: بسمك اللّهمّ: ثمّ قال النّبي لعلي أُكتبْ: هذا ما صالح عليه محمّد رسول الله سهيل بن عمرو، فقال سهيل: لو كنّا نعرفك رسول الله لما حاربناك فاكتب اسمك واسم أبيك فحسب. فقال النبيّ: لا مانع من ذلك أُكتب هذا ما صالح عليه محمّد بن عبد الله سهيل بن عمرو أن يترك القتال عشر سنين ليجد الناس مأمنهم ثانية، وإضافة إلىٰ ذلك من يأتِ محمّداً من قريس مسلماً دون إذن وليّه فيجب إعادته الىٰ أهله ومن جاء قريشاً من أصحاب محمّد فلا يجب إعادته إلىٰ محمّد!

والجميع أحرار فمن شاء دخل في عهد محمّد ومن شاء دخل في عهد قريش!

ويتعهّد الطرفان أن لا يخون كلّ منهما [صاحبه] الآخرَ وأن يحترم ماله ونفسه!

ثمّ بعد هذا ليس لمحمّد هذا العام أن يدخل مكّة، لكن في العام المُقبل تخرج قريش من مكّة لثلاثة أيّام ويأتي محمّد وأصحابه إلىٰ مكّة علىٰ أن لا يمكثوا فيها أكثر من ثلاثة أيّام ويؤدّوامناسك العمرة ثمّ يعودوا إلىٰ أهلهم شريطة أن لا يحملوا معهم سلاحاً سوىٰ السيف الذي هو من عُدة السفر وأن يكون في الغمد وشهد علىٰ هذه المعاهدة جماعة من المسلمين وجماعة من المشركين وأملىٰ المعاهدة علي بن أبي طالب عليه السلام».

وذكر العلّامة المجلسي في «بحار الأنوار» مواد أُخرىٰ منها:

«ينبغي أن يكون الإسلام في مكّة غير خفي وأن لا يُجبر أحد في اختيار مذهبه وأن لا ينالَ المسلمين أذىٰ من المشركين».

وهذا المضمون كان موجوداً في التعبير السابق بصورة إجمالية.

وهنا أمر النّبي صلى الله عليه وآله أن تنحر الإبل التي جيء بها مع المسلمين وأن يحلق المسلمون رؤوسهم وأن يتحلّلوا من احرامهم!..

لكن هذا الأمر كان علىٰ بعض المسلمين عسيرة للغاية وغير مستساغ أيضاً.. لأنّ التحلل من الإحرام في نظرهم دون أداء العمرة غير ممكن!! لكنّ النّبي تقدّم بنفسه ونحر «هديه» وتحلّل من إحرامه وأشعرَ المسلمين أنّ هذا «استثناءٌ» في قانون الإحرام أمر به الله سبحانه نبيّه!

ولمّا رأىٰ المسلمون ذلك من نبيّهم اذعنوا للأمر الواقع ونفذوا أمر النّبي بدقة وعزموا علىٰ التوجّه نحو المدينة من هناك، غير أنّه كان بعضهم يحسّ كأنّ جبلاً من الهم والحزن يجثم علىٰ صدره لأنّ ظاهر القضية أنّ هذا السفر كان غير موفّق بل مجموعة من الهزائم! لكنّ مثل هذا وأضرابه لم يعلموا ما ينطوي وراء صلح الحديبية من انتصارات للمسلمين ولمستقبل الإسلام. وفي ذلك الحين نزلت سورة الفتح وأعطت للنبي الكريم بشرىٰ كبرىٰ بالفتح المبين.

الآثار السياسية والاجتماعية والمذهبية لصلح الحديبية

يتّضح بمقايسة إجمالية بين حال المسلمين في السنة السادسة للهجرة «أي عند صلح الحديبية» وحالهم بعدها بسنتين حيث تحرّك المسلمون لفتح مكّة بعشرة آلاف مقاتل ليردّوا علىٰ نقض العهد بشدّة، وقد فتحوا مكّة دون أية مواجهة عسكرية لأنّ قريشاً لم تجد في نفسها القدرة علىٰ المقاومة أبداً.

يتّضح بهذه المقايسة الإجمالية ـ سعة ردّ الفعل ـ التي أحدثتها معاهدة صلح الحديبية!..

وباختصار فإنّ المسلمين حصلوا علىٰ إمتيازات عديدة من وراء هذا الصلح وفتحاً كبيراً نذكرها علىٰ النحو التالي:

١ ـ بيّنوا عملياً للمضللين من أهل مكّة أنّهم ليس لديهم نيّة للحرب وسفك الدماء وأنّهم يحترمون مكّة وكعبتها المقدسة وكان هذا الأمر سبباً لاكتساب قلوب الكثيرين نحو الإسلام.

٢ ـ اعترفت قريش لأوّل مرّة بالإسلام والمسلمين «بصورة رسمية» وكان ذلك سبباً لتثبيت موقعهم في جزيرة العرب!..

٣ ـ استطاع المسلمون بعد صلح الحديبيّة أن يمضوا حيث يشاؤون وأن تبقىٰ أرواحهم وأموالهم في مأمن من الخطر واتصلوا بالمشركين من قريب اتصالاً أثمر نتيجته، فكان أن عرف المشركون الإسلام بصورة أكثر واسترعىٰ أنظارهم نحوه!.

٤ ـ انفتح الطريق بعد صلح الحديبيّة لنشر الإسلام في الجزيرة العربية. وأثار موقف النّبي الإيجابي من الصلح القبائل العربية وأصلح نظرتها إلىٰ الإسلام ورسوله الكريم. وحصل المسلمون علىٰ مجال إعلامي واسع في هذا الصدد.

٥ ـ هيّأ صلح الحديبيّة الطريق لفتح «خيبر» واستئصال هذه الغدة السرطانية «المتمثلة باليهود» والتي كانت تشكل خطراً مهمّاً «بالفعل والقوّة» علىٰ الإسلام والمسلمين!

٦ ـ وأساساً فإنّ استيحاش قريش من مواجهة الجيش الذي كان يتألّف من ألف وأربعمائة مسلم فحسب ولا يحمل أي منهم سلاحاً سوىٰ سلاح السفر وقبول قريش بمعاهدة الصلح كان بنفسه أيضاً عاملاً مهماً علىٰ تقوية المعنويات عند المسلمين وهزيمة أعداء الإسلام إلىٰ درجة أنّهم كانوا يتهيّبون من مواجهة المسلمين!.

٧ ـ وبعد صلح الحديبيّة كتب النّبي ﷺ كتباً و(رسائل) متعددة إلىٰ رؤساء الدول الكبرىٰ (إيران والروم والحبشة) وملوك العالم البارزين يدعوهم فيها إلىٰ الإسلام، وهذا بنفسه يدل علىٰ أن صلح الحديبيّة أعطىٰ المسلمين الثقة بأنفسهم وأن ينفتحوا لا علىٰ الجزيرة العربية فحسب بل علىٰ آفاق العالم قاطبة!

ونستطيع أن ندرك ممّا ذكر آنفاً ـ بشكل جيد ـ أنّ صلح الحديبيّة كان بحق انتصاراً للإسلام وفتحاً للإسلام والمسلمين فلا غرابة أن يعبِّر عنه القرآن **بالفتح المبين**!.

هناك روايات كثيرة تعبّر عن صلح الحديبيّة بأنّه **«الفتح المبين»**!

صلح الحديبيّة أو الفتح الأكبر

حين كان النّبي راجعاً من الحديبيّة ونزلت عليه سورة الفتح.. قال أحد أصحابه: ما هذا الفتح؟! لقد صُددنا عن البيت وصُدّ هديُنا!.

فقال النّبي ﷺ: «**بئس الكلام «هذا» بل هو أعظم الفتوح قد رضي المشركون أن يدفعوكم عن بلادهم بالراع ويسألوكم القضيّة! ورغبوا إليكم في الأمان وقد رأوا منكم ما كرهوا..**».

ثمّ ذكّرهم النّبي ﷺ ما تحمل المشركون من مساءة يوم بدر ويوم الأحزاب فصدّق المسلمون رسولهم علىٰ أنّ هذا أعظم الفتوح وأنّهم قضوا عن عدم إطلاعهم بما قالوا.

يقول «الزهري» وهو من التابعين: **لم يكن فتح أعظم من الحديبيّة وذلك أن المشركين اختلطوا بالمسلمين فسمعوا كلامهم فتمكّن الإسلام في قلوبهم وأسلم في ثلاث سنين خلق كثيرٌ كثر بهم سواد الإسلام.**

رؤيا النّبي الصادقة

رأىٰ النّبي ﷺ في المدينة رؤيا أنّه يدخل مكّة مع أصحابه لأداء مناسك العمرة، فحدّث أصحابه عن رؤياه فسُرّوا جميعاً، غير أنّه لمّا كان جماعة من أصحابه يتصوّرون أنّ تعبير

الرؤيا سيتحقق في تلك السنة ذاتها ومنعهم المشركون من الدخول إلىٰ مكّة أصابهم الشك والتردّد... ترىٰ هل من الممكن أن تكون رؤيا النّبي غير صادقة؟ ألم يكن البناء أن نعتمر هذا العام؟! فأين هذا الوعد؟ وأين صارت هذه الرؤيا الرحمانية؟!

فكان جواب النّبي لهم: هل قلت لكم أنّ هذه الرؤيا ستتحقق هذا العام؟!

فنزل الوحي في هذا الصدد والنّبي عائد من الحديبية إلىٰ المدينة وأكّد أنّ هذه الرؤيا كانت صادقة ولابدّ أنّها كائنة... يقول القرآن الكريم: **﴿لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق﴾** فما رآه النّبي في المنام كان حقّاً وصدقاً.

ثمّ يضيف: **﴿لتدخلنّ المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلّقين رؤوسكم ومقصّرين لا تخافون فعلم ما لم تعلموا﴾**[1].

نزول السكينة علىٰ قلوب المؤمنين

الكلام عن الموهبة العظيمة التي تلطف الله بها علىٰ جميع المؤمنين إذ يقول: **﴿هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم﴾**.

ولمَ لا تنزل السكينة والإطمئنان علىٰ قلوب المؤمنين؟ **﴿ولله جنود السماوات والأرض وكان الله عليماً حكيماً﴾**[2].

ماذا كانت هذه السكينة؟!

من الضروري هنا أن نعود إلىٰ قصة «صلح الحديبيّة» وأن نتصوّر أنفسنا في فضاء الحديبيّة وفي جوّها لنطّلع علىٰ عمق هذه الآية.

لقد كان النّبيﷺ قد رأىٰ رؤيا «رحمانية وإلهية» أنّه دخل المسجد الحرام مع أصحابه، وعلىٰ أثر رؤياه تحرّك نحو زيارة بيت الله مع أصحابه وكان أغلب أصحابه يتوقّعون أنّ هذه الرؤيا الصالحة سيتحقّق تعبيرها في هذا السفر نفسه، لكنّ الذي قدّره الله كان شيئاً آخر! هذا كلّه من جانب.

---

١ ـ الفتح، ٢٧.

٢ ـ الفتح، ٤.

ومن جانب آخر كان المسلمون قد أحرموا وجاءوا بالإبل ليهدوها أو ينحروها، ولكنّهم وعلىٰ خلاف ما توقّعوا لم يوفّقوا لزيارة بيت الله، وأمر النّبي أن ينحروا الإبل في الحديبيّة التي توقّفوا فيها هناك. وأن يحلّوا من إحرامهم، وكان ذلك أمراً صعباً عليهم ولا يمكن تصديقُه، لأنّ آدابهم وسننهم وتعليمات الإسلام أيضاً تنصّ علىٰ عدم الخروج والإحلال من الإحرام ما لم يتمّ أداء المنَاسك الخاصة بالعمرة.

ومن جانب ثالث كان من مواد معاهدة الصلح في الحديبية، مادة تقضي بإعادة المسلمين من يلجأ إليهم من قريش ويعلن إسلامه ويدخل المدينة! ولا يلزم العكس، وكان هذا الموضوع صعباً علىٰ المسلمين للغاية.

ومن جانب رابع، فإنّ قريشاً لم ترغبْ أن تكتب كلمة «رسول الله» التي كان يدعىٰ بها النّبي محمّد وأصرّ ممثلها سهيل بن عمرو علىٰ حذف الكلمة من معاهدة الصلح، ولم يوافق حتىٰ علىٰ كتابة بسم الله الرحمٰن الرحيم، وأصرّ أن يكتب مكانها «بسمك اللّهمّ»، التي كانت تنسجم مع سنّة أهل مكّة، فهذه الأُمور كلّ واحد منها كان غير مرغوب فيه، فكيف بجميعها؟ ولذلك تزلزلت قلوب بعض ضعاف الإيمان من أصحاب النّبي إلىٰ درجة أنّه حين نزلت سورة ﴿إنّا فتحنا﴾ قالوا أي فتح هذا؟!

هنا ينبغي أن يشمل لطف الله حال المسلمين وأن يُنزل عليهم السكينة والإطمئنان وأن لا يوجد في قلوبهم الضعف والفتور فحسب، بل ﴿ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم﴾

وهذه السكينة يمكن أن يكون لها جانب عقائدي فيزيلُ ضعف تزلزل العقيدة أو يكون لها جانب عملي بحيث يهب الإنسان ثبات القدم والمقاومة والاستقامة والصبر.

اعتذار المخلفين

ذكرنا أنّ النّبي ﷺ توجّه من المدينة إلىٰ مكّة مع ألف وأربعمائة من صحابته «للعُمرة»!.

وقد أُبلغ عن النّبي جميع من في البادية من القبائل أن يحضروا معه في سفره هذا، إلّا أنّ قسماً من ضعيفي الإيمان لووا رؤوسهم عن هذا الأمر وأعرضوا عنه وكان تحليلهم هو أنّ المسلمين لا يستطيعون الحفاظ علىٰ أرواحهم في هذا السفر في حين أنّ كفار قريش كانوا في حالة حرب مع المسلمين وقاتلوهم في أُحد والأحزاب علىٰ مقربة من المدينة، فإذا توجّهت هذه الجماعة القليلة العزلاء من كلّ سلاح نحو مكّة وعرّضت نفسها إلىٰ العدو

المدجّج بالسلاح. فكيف ستعود إلىٰ بيوتها بعدئذٍ؟!

إلّا أنّهم حين رأوا المسلمين وقد عادوا إلىٰ المدينة ملاءَ الأيدي وافرين قد حصلوا علىٰ إمتيازات تستلفت النظر من صلح الحديبيّة دون أن تراق من أحدهم قطرة دم، عرفوا حينئذٍ خطأهم الكبير وجاؤوا إلىٰ النّبيﷺ ليعتذروا إليه، ويبرّروا تخلّفهم عنه ويطلبوا منه أن يستغفر لهم!

غير أنّ الوحي نزل ففضحهم وأماط عنهم اللثام.

وعلىٰ هذا، فالقرآن يبيّن حالة المخلّفين ضعاف الإيمان بعد أن بيّن حال المنافقين والمشركين لتتمّ حلقات البحث ويرتبط بعضها ببعض!

يقول سبحانه: **﴿سيقول المخلّفون من الأعراب شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم﴾**.

إنّهم لم يكونوا صادقين حتى في توبتهم!

فأبلغهم يا رسول و**﴿قلْ فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضرّاً أو أراد بكم نفعاً﴾**؟!

فليس علىٰ الله بعزيز ولا عسير أن يحفكم بأنواع البلاء والمصائب وأنتم في دار أمنكم وبين أهليكم وأبنائكم كما لا يعزّ عليه أن يجعلكم في حصن حصين من بأس الأعداء ولو كنتم في مركزهم!

إنّما هو جهلكم الذي دعاكم إلىٰ هذا التصور والاعتقاد!

أجلْ **﴿بل كان الله بما تعملون خبيراً﴾**.

وأقصىٰ من هذا فهو خبير بأسراركم ونيّاتكم وهو يعلم جيداً أنّ هذه الحيل والحجج الواهية لا صحة لها ولا واقعيّة.. والواقع هو أنّكم متردّدون ضعيفو الإيمان. وهذه الأعذار لا تخفىٰ علىٰ الله ولا تحول دون عقابكم أبداً!

الطريف هنا أنّه يستفاد من لحن القرآن ومن التواريخ أيضاً أنّ هذه الآيات نزلت عند عودة النّبيﷺ إلىٰ المدينة، أي أنّها قبل مجيء المخلّفين للإعتذار إليه ـ أماطت اللثام عنهم وكشفت الستار وفضحتهم!.

ومن أجل أن ينجلي الأمر ويتّضح الواقع أكثر يميط القرآن جميع الأستار فيقول: **﴿بل ظننتم أن لن ينقلب الرّسول والمؤمنون إلىٰ أهليهم أبداً﴾**.

أجلْ، إنّ السبب في عدم مشاركتكم النّبي وأصحابه في هذا السَفَر التاريخي لم يكن هو

كما زعمتم ـ انشغالكم بأموالكم وأهليكم ـ بل العامل الأساس هو سوء ظنّكم بالله، وكنتم تتصوّرون خطأً أنّ هذا السفر هو السفر الأخير للنبي وأصحابه وينبغي الاجتناب عنه!

وما ذلك إلّا ما وسوست به أنفسكم ﴿وزُيّن ذلك في قلوبكم وظننتم ظنّ السوء﴾.

لأنّكم تخيّلتم أنّ الله أرسل نبيّه في هذا السفر وأودعه في قبضة أعدائه ولن يخلصه ويحميه عنهم! ﴿وكنتم قوماً بوراً﴾ [١] ـ أي هالكين ـ في نهاية الأمر!.

وأي هلاك أشدّ وأسوأ من عدم مشاركتهم في هذا السفر التأريخي وبيعة الرضوان وحرمانهم من المفاخر الأُخَر.. ثمّ الفضيحة الكبرىٰ.. وبعد هذا كله ينتظرهم العذاب الشديد في الآخرة، أجل لقد كان لكم قلوب ميتة فابتليتم بمثل هذه العاقبة!.

لو حَدَثتِ الحرب في الحديبيّة!؟

القرآن الكريم يتحدّث أيضاً عن أبعادٍ أُخر لما جرىٰ في الحديبيّة ويشير إلىٰ «لطيفتين» مهمّتين في هذا الشأن!

الأولىٰ: هي أنّه لا تتصوّروا أنّه لو وقعت الحرب بينكم وبين مشركي مكّة في الحديبيّة لانتصر المشركون والكفرة! ﴿ولو قاتلكم الذين كفروا لولّوا الأدبار ثمّ لا يجدون وليّاً ولا نصيراً﴾.

وليس هذا منحصراً بكم بل: ﴿سنّة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنّة الله تبديلاً﴾.

اللطيفة المهمّة التي يبيّنها القرآن هي أن لا تجلس قريش فتقول: مع الأسف إنّنا لم نقاتل هذه الطائفة القليلة العدد، أسفاً إذ بلغ «الصيد» مكّة فغفلنا عنه.. أبداً ليس الأمر كذلك.. فبالرغم من أنّ المسلمين كانوا قلّة وبعيدين عن الوطن والمأمن وفاقدين للأعتدة والمؤن. ولكن مع هذه الحال لو وقع قتال بين المشركين والمؤمنين لانتصر المؤمنون ببركة قوىٰ الإيمان ونصر الله أيضاً.. ألم يكونوا في بدر أو الأحزاب قلة وأعداؤهم كثرة، فكيف انهزم الجمع وولّوا الدبر في المعركتين؟!

وعلىٰ كلّ حال فإنّ بيان هذه الحقيقة كان سبباً لتقوية روحية المؤمنين وتضعيف روحية الأعداء وإنهاء القيل والقال من قبل المنافقين، ودلّ علىٰ أنّه حتىٰ لو حدثت حرب في هذه

---

١ ـ الفتح، ١٢ ـ ١١.

الظروف غير الملائمة بحسب الظاهر فإنّ النصر سيكون حليف المؤمنين الخُلّص!.

واللطيفة الأُخرىٰ التي بيّنها القرآن أنّه قال: ﴿وهو الذي كفّ أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكّة من بعد أن أظفركم عليهم وكان الله بما تعملون بصيراً﴾[1].

حقاً.. كان ما حدث مصداقاً جليّاً «للفتح المبين» ونعمَ ما اختاره القرآن له من وصف، فالعدوّ الذي زحف بجيشه مراراً نحو المدينة وسعىٰ سعياً عجيباً لإيقاع الهزيمة بالمسلمين، إلّا أنّه الآن حيث حطّوا أقدامهم في حريمه ودياره يمتلكه الرعب منهم حتىٰ أنّه يقترح الصلح معهم، فأيّ فتح مبين أكبر من هذا الفتح إذ ينال المسلمون هذا التفوّق علىٰ العدو دون أن تسفك قطرة دم واحدة من المسلمين!؟

ولا شكّ أنّ ما جرىٰ في الحديبيّة كان يعدّ في جزيرة العرب عامة نصراً للمسلمين وهزيمة لقريش.

هذا وقد ذكر جماعة من المفسّرين في نزول هذه الآية أنّ مشركي مكّة عبّؤوا أربعين رجلاً للهجوم علىٰ المسلمين (بصورة خفية) في الحديبيّة، غير أنّ المسلمين أفشلوا مؤامرتهم وأجهضوا مكيدتهم ـ بفطنتهم ـ فأسر المسلمون هؤلاء الأربعين جميعاً وجاءوا بهم إلىٰ النّبي ﷺ فخلّىٰ عنهم سبيلهم.

وقال بعضهم: أنّهم كانوا ثمانين أرادوا أن يهجموا علىٰ المسلمين من جبل التنعيم عند صلاة الغداة وبالاستفادة من العتمة، وقال بعضهم: كان النّبي ﷺ يستظلّ تحت الشجرة ليكتب معاهدة الصلح مع ممثل قريش وعلي مشغول بالإملاء، فحمل عليه ثلاثون شابّاً من أهل مكّة بأسلحتهم ولكن بمعجزة مذهلة فشلت خطتهم وأُسر جميعهم وخلّىٰ النّبي ﷺ عنهم سبيلهم.

---

١ ـ الفتح، ٢٤ ـ ٢٢.

عمرة القضاء

عمرة القضاء هى العمرة التي أدّاها النّبيﷺ مع أصحابه بعد صلح الحديبيّة بعام، أي في ذي القعدة من السنة السابعة للهجرة (علىٰ وجه الدقّة بعد عام من منع المشركين أن يدخل الرّسول وأصحابه مكّة).

وتسمية «عمرة القضاء» بهذا الأسم لأنّها في الحقيقة تعد قضاءً عن السنة السابقة...

وتوضيح ذلك: أنّه طبقاً لإحدىٰ مواد معاهدة الحديبيّة أصبح من المقرر أن يؤدّي المسلمون العمرة وزيارة بيت الله في العام المقبل علىٰ أن لا يمكثوا في مكّة أكثر من ثلاثة أيام، وفي الوقت ذاته يخرج المشركون من مكّة ورؤساء قريش أيضاً،لئلا يقع نزاع محتمل بين الطرفين ولئلا يروا المسلمين يؤدّون المناسك فيثيرهم منظر العبادة «التوحيدية».

إنّ النّبي ﷺ أحرم في السنة المقبلة مع أصحابه والجمال المساقة للهدي وتحرّكوا جميعاً حتىٰ بلغوا أطراف «الظهران» وضواحيه فأرسل النّبي ﷺ ما كان عنده من أسلحة وخيول تستلفت النظر مع أحد أصحابه واسمه «محمّد بن مسلمة» فلمّا رأىٰ المشركون هذه الخطة فزعوا وخافوا خوفاً شديداً وظنّوا أنّ النّبيﷺ يريد أن يقاتلهم وينقض المعاهدة الممضاة لعشر سنين واخبروا أهل مكّة بذلك.

غير أنّ النّبيﷺ حين وصل منطقة قريبة من مكّة أمر أن توضع الأسلحة من السهام والرماح وغيرها من الأسلحة في منطقة تدعىٰ «ياجج»، ودخل هو وأصحابه مكّة بالسيوف المغمدة.

فلمّا رأىٰ أهل مكّة من النّبي ما رأوا فرحوا إذ وفىٰ النّبي بوعده [فكأنّ النبي باقدامه هذا

أنذر المشركين أن لو نقضوا العهد وأرادوا أن ينازلوا المسلمين فهم علىٰ أتم الإستعداد].

فخرج رؤوساء مكّة منها لئلّا تتأثر عواطفهم وقلوبهم بهذه «المناظر» ولا تثيرهم مناسك العمرة من قبل المسلمين.

غير أنّ بقية أهل مكّة من الرجال والنساء والأطفال اجتمعوا في السطوح وحول الكعبة وخلال الطريق ليروا كيف يؤدّي المسلمون مناسكهم...

فدخل النّبي مكّة بهذه الأُبّهة الخاصة وكانت معه جمال كثيرة مسوقة للهدي فعامل أهل مكّة بمنتهىٰ اللطف والمحبّة وأمر المسلمين أن يسرعوا أثناء الطواف وأن يزيحوا الإحرام عن اكتافهم قليلاً لتبدو علائم القدرة والقوّة فيهم وأن تترك هذه الحالة في أفكار أهل مكّة وأنفسهم تأثيراً كبيراً ودليلاً حيّاً علىٰ قوة المسلمين وحكمتهم!

وعلىٰ كلّ حال فإنّ «عمرة القضاء» كانت عبارة كما كانت في الوقت ذاته عَرضاً «للعضلات المفتولة» وينبغي القول أنّ «فتح مكّة» الذي تحقّق بعد سنة أُخرىٰ كان قد نثر بذره في هذه السنة وهيّأ الأرضية لإستسلام أهل مكّة للفاتحين (المسلمين).

وكان هذا الأمر مدعاةً لقلق رؤساء قريش إلىٰ درجة أنّهم بعثوا رجلاً بعد مضي ثلاثة أيّام إلىٰ النّبي يطلب منه أن يغادر بسرعة هو وأصحابه مكّة طبقاً للمعاهدة...

الطريف هنا أنّ النّبي تزوّج أرملة من نساء قريش وكانت من أقرباء بعض رؤسائهم المعروفين وذلك ليشدّ أواصره بهم ويخفّف من غلوائهم وبغضائهم.

وحين سمع النّبي اقتراحهم بالمغادرة قال: «**ما عليكم لو تركتموني فأعرست بين أظهركم فصنعنا لكم طعاماً فحضرتموه**». قالوا: لا حاجة لنا في طعامك فاخرج عنّا.

ولو كان تمّ ذلك لكان له أثره في نفوذ أمر النّبي في قلوبهم غير أنّهم لم يقبلوا ذلك منه.

فتح خيبر

لمّا عاد النّبي ﷺ من الحديبيّة نحو المدينة أمضىٰ شهر ذي الحجة كلّه وأياماً من شهر محرم الحرام من السنة السابعة للهجرة في المدينة، ثمّ تحرّك بألف وأربعمائة نفر من المسلمين الذين كانوا حضروا الحديبيّة نحو «خيبر» [حيث كان مركزاً للتحرّكات المناوئة للإسلام وكان النّبي ﷺ يتحيّن الفرص لتدمير ذلك المركز للفساد].

وصرّح أن يشترك في هذه الحرب من كان في الحديبيّة من المسلمين فحسب، وأنّ الغنائم لهم وحدهم ولن ينال المخلّفين منها شيء أبداً.

إلّا أنّ عبيد الدنيا الجبناء لمّا فهموا من القرائن أنّ النّبي سينتصر في المعركة المقبلة قطعاً ـ وأنّه ستقع غنائم كثيرة في أيدي جنود الإسلام ـ أفادوا من الفرصة، فجاؤوا الىٰ النّبي ﷺ وطلبوا منه أن يأذن لهم بالاشتراك في حرب خيبر، وربّما توسّلوا بهذا العذر، وهو أنّهم يريدون التكفير عن خطئهم السابق والتوبة من الذنب وأن يتحمّلوا عبءَ المسؤولية، والخدمة الخالصة للإسلام والقرآن ويريدون الجهاد مع رسول الله في هذا الميدان، وقد غفلوا عن نزول الآيات آنفاً وأنّها كشفت حقيقتهم من قبلُ، ﴿**سيقول المخلّفون إذا انطلقتم إلىٰ مغانم لتأخذوها ذرونا نتّبعكم..**﴾.

ورداً علىٰ كلام هؤلاء الانتهازيين وطالبي الفُرص يقول القرآن الكريم: ﴿**يريدون أن يبدلوا كلام الله**﴾ ثمّ يضيف قائلاً للنبي: ﴿**قل لن تتبعونا**﴾.

وليس هذا هو كلامي بل ﴿**كذلكم قال الله من قبل**﴾ وأخبرنا عن مستقبلكم أيضاً.

إنّ أمر الله أن تكون غنائم خيبر خاصّة بأهل الحديبيّة ولن يشاركهم في ذلك أحد. لكنّ

هؤلاء المخلّفين الصلفين استمروا في تبجّحهم واتهموا النبيّ ومن معه بالحسد كما صرّح القرآن بذلك: ﴿فسيقولون بل تحسدوننا﴾[1].

وهكذا فإنّهم بهذا القول يكذّبون حتىٰ النّبي ﷺ ويعدّون أساس منعهم من الاشتراك في معركة خيبر الحسد فحسب.

دعاء النّبي ﷺ

وقد صمّمت قبيلة غطفان في البداية أن تحمي يهود خيبر غير أنّها خافت بعدئذٍ عواقب أمرها (فاجتنبت حمايتها لهم).

فلمّا وصل النّبي ﷺ قريباً من قلاع خيبر أمر أصحابه أن يقفوا ثمّ رفع رأسه الشريف للسماء ودعا بهذا الدعاء:

«اللّهمَّ ربّ السماوات وما أظللن وربّ الأرضين وما أقللن، نسألك خير هذه القرية وخير أهلها ونعوذ بك من شرّها وشرّ أهلها وشرّ ما فيها».

ثمّ قال ﷺ: «أقدموا بسم الله»، وهكذا وصلوا خيبر ليلاً وعند الصباح ـ حيث علم أهل خيبر بالخبر ـ وجدوا أنفسهم محاصرين من قبل جنود الإسلام، ثمّ فتح النّبي ﷺ القلاع قلعة بعد أُخرىٰ حتىٰ بلغ أقوىٰ القلاع وأمنعها وآخرها وكان فيها «مرحب» قائد اليهود المعروف.

وفي هذه الأيّام أصاب رأس النّبي ﷺ وجع شديد كان ينتابه أحياناً حتىٰ أنّه لم يستطع الخروج من خيمته ـ يوماً أو يومين.. وفي هذه الأثناء وطبقاً لما ورد في التاريخ الإسلامي، حمل أبو بكر الراية في يده وتوجّه بالمسلمين نحو معسكر اليهود غير أنّه سرعان ما عاد وهو صفر اليدين دون نتيجة، ومرّة أُخرىٰ أخذ عمر الراية وحمل بالمسلمين بصورة أشد فما أسرع ما عاد دون جدوىٰ...

علي عليه السلام فاتح خيبر

فلمّا بلغ الخبر مسمع النّبي ﷺ قال: **«والله لأعطينها غداً رجلاً يحبّ الله ورسوله ويحبّه الله ورسوله يأخذها عنوة!»**.

---

[1] ـ الفتح، ١٥.

فاشرأبت الأعناق من كلّ جانب تُرىٰ من هو المقصود، وقد حدس جماعة منهم أنّ مقصوده (علي)عليه السلام، إلّا أنّ علياً كان مصاباً بوجع في عينه فلم يكن حاضراً حينئذٍ، ولمّا كان الغد أمر النّبي بأن يدعو له علياً، فجاء راكباً علىٰ بعير له حتىٰ أناخ قريباً من خباء رسول الله صلى الله عليه وآله وهو أرمد قد عصّب عينيه.

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: ما لك؟

قال علي عليه السلام: رمدت بعدك.

فقال له: أدنُ مني، فدنا منه، فتفل في عينيه، فما شكا وجعاً حتىٰ مضىٰ بسبيله. ثمّ أعطاه الراية.

فتوجّه علي عليه السلام بجيش الإسلام نحو القلعة الكبرىٰ (من خيبر) فرآه رجل يهودي من أعلىٰ الجدار فسأله من أنت؟ فقال: أنا علي بن أبي طالب. فنادىٰ اليهودي: أيّتها الجماعة حان اندحاركم، فجاء «مرحب» آمر الحصن ونازل علياً فما كان إلّا أن هوىٰ إلىٰ الأرض صريعاً بضربة علي عليه السلام، فالتحمت الحرب بين المسلمين واليهود بشدّة فاقترب علي عليه السلام من باب الحصن فقَلَعه فدحاه فرماه بقوّة خارقة إلىٰ مكان آخر، وهكذا فُتحت القلعة ودخلها المسلمون فاتحين.

واستسلم اليهود وطلبوا من النّبي أن يحقن دماءهم لاستسلامهم، فقبل النّبي صلى الله عليه وآله وغنم الجيش الإسلامي الغنائم المنقولة، وأودع النّبي صلى الله عليه وآله الأرض والأشجار بأيدي اليهود علىٰ أن يعطوا المسلمين نصف حاصلها.

وأخيراً وطبقاً لما نقلته التواريخ فإنّ النّبي الأكرم وزّع غنائم خيبر علىٰ أهل الحديبيّة فحسب، حتىٰ الذين لم يشتركوا في خيبر وكانوا في الحديبيّة جعل لهم النّبي سهماً من غنائم خيبر، وبالطبع لم يكن لهذا المورد أكثر من مصداق واحد وهو «**جابر بن عبد الله الأنصاري**».

فتح مكّة

فتح مكّة فتح صفحة جديدة في تاريخ الإسلام، ودحر الأعداء بعد عشرين عاماً من المقاومة. وتطهرت أرض الجزيرة العربية من الشرك والأوثان، والإسلام تأهب لدعوة بقية أصقاع العالم.

ملخص الواقعة على النحو التالي:

بعد صلح الحديبية، عمد المشركون إلى نقض العهد، وإلى خرق بنود وثيقة الصلح، واعتدوا على المتحالفين مع رسول الله ﷺ. فشكى المتحالفون ذلك إلى الرسول، فقرر النّبي أن يهب لحمايتهم.

من جهة أُخرىٰ، الظروف في مكّة ـ حيث مركز الوثنية والإصنام والشرك والنفاق ـ توفرت لتطهيرها. وهذه مهمّة كان لابدّ من أدائها في وقت من الأوقات. لذلك استعد النّبي للحركة بأمر الله سبحانه صوب مكّة.

فتح مكّة تمّ في ثلاث مراحل. المرحلة التمهيدية وفيها تمّ تعبئة القوى اللازمة واختيار الظروف الزمانية المساعدة، وجمع المعلومات الكافية عن العدوّ، والمرحلة الثّانية كانت فتح مكّة باسلوب ماهر خال من التلفات. والمرحلة الأخيرة هي مرحلة عطاء الفتح وآثاره.

١ ـ هذه المرحلة اتصفت بالدقّة المتناهية. ورسول الله ﷺ سيطر على الطريق بين مكّة والمدينة سيطرة تامّة حتى لا يسرب خبر هذا الإستعداد الإسلامي إلى مكّة، ولكي يتمّ الفتح بشكل مباغت. وهذا أدى إلى فتح مكّة دون إراقة دماء تقريباً.

انقطاع اخبار المدينة عن مكّة كان متقناً، حتى أن نفراً من ضعاف الإيمان اسمه «حاطب

بن أبي بلتعة» كتب رسالة إلى قريش يخبر هم بأمر المسلمين في المدينة، وبعثها بيد امرأة من قبيلة «مزينة» اسمها «كفود»، أو«سارة». فعلم بها النّبي ﷺ بطريق إعجازي، وبعث عليّاً عليه السلام إلى المرأة، فوجدها في منزل بينن مكّة والمدينة. أخذ منها الرسالة وأعادها إلى المدينة.

الحركة نحو مكّة

النّبي ﷺ استخلف أحد المسلمين على المدينة، وتوجه في العاشر من رمضان سنة ثمان للهجرة إلى مكّة، ووصلها بعد عشرة أيّام.

في الطريق التقىٰ الرسول ﷺ بعمّه العباس وهو يهاجر من مكّة إلى المدينة. فطلب منه النّبي ﷺ أن يرسل متاعه إلى المدينة ويلتحق بالمسلمين، وأخبره بأنّه آخر مهاجر.

٢ ـ وصل المسلمون إلى مشارف مكّة وعسكروا عند **«مرّ الظهران»** على بعد عدّة كيلومترات من مكّة. وفي الليل أشعلوا نيران كثيرة لإعداد الطعام (ولعلهم فعلوا ذلك لإثبات تواجدهم الواسع). رأى جمع من أهل مكّة هذا المنظر فتحيروا.

أخبار الزحف الإسلامي كانت لا تزال خافية على قريش في تلك الليلة خرج «أبو سفيان» ومعه عدد من سراة قريش للإستطلاع خارج مكّة. وفي نفس الليلة قال العباس عم النّبي ﷺ: يا سوء صباح قريش. والله لئن باغتها رسول الله في ديارها فدخل مكّة عنوة إنّه لهلاك قريش إلى آخر الدهر. فاستأذن رسول الله وخرج على بغلته لعله يرى أحداً متجهاً إلى مكّة فيخبرهم بمكان رسول الله فيأتونه فيستأمنونه.

وبينما العباس يطوف بأطراف مكّة إذ سمع صوت أبي سفيان ومعه القرشيون الذين خرجوا يتجسّسون. فقال: أبوسفيان: ما رأيت نيراناً أكثر من هذه! فقال له أحد مرافقيه: هذه نيران خزاعة. فقال أبوسفيان: خزاعة أذلّ من ذلك. نادى العباس أبا سفيان، فسأله أبوسفيان على الفور: ما وراءك؟ قال العباس: هذا رسول الله ﷺ في المسلمين أتاكم في عشرة آلاف.

قال أبوسفيان: ما تأمرني؟

أجابه العباس: تركب معي فأستأمن لك رسول الله ﷺ فوالله لئن ظفر بك ليضربنّ عنقك.

فخرجا يركضان نحو رسول الله ﷺ، فكلما مرّا بنار من نيران المسلمين يقولون: عم رسول الله على بغلة رسول الله. (أي إن المارّ ليس بغريب). حتى مرّا بنار عمر بن الخطاب. فما

أن أبصر به عمر حتى قال له: أبوسفيان! الحمد لله الذي أمكن منك بغير عقد ولا عهد!

دخل العباس وأبوسفيان على رسول الله وتبعهما عمر فدخل أيضاً وقال للرسول: يا رسول الله هذا أبوسفيان عدوّ الله قد أمكن الله منه بغير عهد ولا عقد فدعني اضرب عنقه.

فقال العباس: يا رسول الله إني قد أجرته.

وكثر الكلام بين العباس وعمر فقال رسول الله للعباس:

إذهب فقد أمنّاه حتى تغدو علّي به بالغداة.

فلما كان من الغدِ جاء العباس بأبي سفيان إلى رسول الله ﷺ فلما رآه قال: ويحك يا أباسفيان! «**ألم يأنِ لك أن تعلم أن لا إله إلا الله؟**».

قال: بلى، بأبي أنت وأمي لو كان مع الله غيره لقد أغنى عنّي شيئاً.

فقال النّبي: «**ويحك ألم يأن لك أن تعلم أنّي رسول الله؟**» فقال: بأبي أنت وأمي، أما هذه ففي النفس منها شيء. فقال: له العباس: ويحك تشهّد شهادة الحق قبل أن تضرب عنقك! فتشهّد.

فقال رسول الله ﷺ للعباس : «**إذهب فاحبس أباسفيان عند خطم الجبل بمضيق الوادي حتى تمرّ عليه جنود الله**».

قال العباس: يا رسول الله إن أباسفيان يحب الفخر فاجعل له شيئاً يكون في قومه.

فقال ﷺ: «**من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ... و.من دخل المسجد فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن**».

خرج العباس وأجلس أبا سفيان عند خطم الجبل فمرّت عليه القبائل، فيقول له العباس: هذه أسلم ... هذه جهينة ... حتى مرّ رسول الله ﷺ في كتيبته الخضراء مع المهاجرين والأنصار متسربلين بالحديد لا يُرى منهم إلا حدق عيونهم.

فقال: ومن هؤلاء؟

قال العباس: هذا رسول الله ﷺ في المهاجرين والإنصار.

فقال أبوسفيان: لقد أصبح مُلك ابن أخيك عظيماً.

قال العباس: ويحك إنّها النبوة.

فقال: نعم إذن.

ثمّ قال له العباس: الحق بقومك سريعاً فحذّرهم.

ابو سفيان يدعو النّاس الىٰ التسليم

فخرج ابو سفيان حتى أتى مكّة فصرخ في المسجد:

يامعشر قريش هذا محمّد قد جاءكم بما لا قِبَل لكم به. ثمّ قال: مَن دخل داري فهو آمن. ومن دخل المسجد فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن ...

وقال: يا معشر قريش اسلموا تسلموا.

فاقبلت امرأته هند فأخذت بلحيته وقالت: يا آل غالب اقتلوا هذا الشيخ الأحمق. فقال: أرسلي لحيتي واقسم لئن أنت لم تُسلمي لتُضربن عنقك، ادخلي بيتك! فتركته.

علي علىٰ اكتاف النّبي

ثمّ بلغ رسول الله ﷺ مع جيش المسلمين منطقة «ذي طوى» وهي مرتفع يشرف على بيوت مكّة. فتذكر الرسول ذلك اليوم الذي خرج فيه مضطراً متخفياً من مكّة. وها هو يعود إليها منتصراً،فوضع رأسه تواضعاً لله وسجد على رحل ناقته شكراً له سبحانه.

ثمّ ترجّل النّبي الأكرم ﷺ في «الحجون» إحدى محلات مكّة، وفيها قبر خديجة عليها السلام، واغتسل، ثمّ ركب ثانية بجهاز الحرب ودخل المسجد الحرام وهو يتلو سورة الفتح. ثمّ كبر وكبر جند الإسلام معه، فدوى صوت التكبير في أرجاء مكّة.

ثمّ نزل من ناقته، واقترب من الكعبة، وجعل يُسقط الأصنام واحداً بعد الآخر وهو يقول: ﴿جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً﴾.

وكان عدد من الأصنام قد نصب فوق الكعبة، ولم تصل إليها يد الرسول ﷺ فأمر عليّاً أن يصعد على كتفه المباركة ويرمي بالأصنام فامتثل علي أمر الرسول.

ثمّ أخذ مفاتيح الكعبة، وفتحها ومحا ما كان على جدرانها من صور الأنبياء.

بعد الإنتصار الرائع السريع أخذ رسول الله حلقة باب الكعبة، وتوجّه إلى أهل مكّة وقال لهم:

يا معشر قريش ما ترون أني فاعل بكم؟ قالوا: خيراً، أخ كريم، و ابن أخ كريم. قال: اذهبوا فانتم الطلقاء.

اليوم يوم المرحمة

وأمر رسول الله ﷺ جيشه أن لا يتعرضوا لأحد، وأن لا يريقوا دم أحد. وأمر فقط بقتل ستة أفراد ـ حسب الرّوايات ـ ممن كانوا خطرين ومتوغلين في عدائهم للإسلام. وحين بلغه أن سعد بن عبادة ـ وهو أحد حملة الوية الجيش الإسلامي ـ يصيح: اليوم يوم الملحمة، اليوم تسبى الحرمة. أمر عليّاً عليه السلام أن يأخذ منه الرّاية ويدخل بها مكّة دخولاً رقيقاً ويقول: **اليوم يوم المرحمة!!**

وبهذا الشكل فتحت مكّة دون إراقة دماء وكان لعفو الرسول ورحمته الأثر الكبير في القلوب، فدخل النّاس في دين الله أفواجاً. ودوّى خبر الفتح في أرجاء الجزيرة العربية وذاع صيت الإسلام، وتعززت مكانة المسلمين.

إن رسول الله ﷺ عندما وصل الكعبة قال: **لا إله إلا الله وحده وحده، انجز وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، ألا إن كل مال أو مأثرة أو دم تدعى فهو تحت قدمي هاتين!...** (وبذلك الغى كل مخلفات الجاهلية وطوى جميع ملفاتها).

هذا المشروع الإسلامي الجبار اقترن بالعفو العام، لينقل قبائل الجزيرة العربية من ماضيهم المظلم إلى نور الإسلام بعيداًعن كل ألوان الصراع والتخبط الجاهلي.

وهذا ساعد كثيراً على انتشار الإسلام واصبح قدوة لحاضرنا ومستقبلنا.

شروط بيعة النساء

كان رسول الله ﷺ على جبل (الصفا) يأخذ البيعة من الرجال، وكانت نساء مكّة قد أتين إلى رسول الله من أجل البيعة فنزلت الآية أعلاه، وبيّنت كيفية البيعة معهنّ، ويختّص خطاب الآية برسول الله ﷺ حيث يقول تعالى: **﴿ياأيّها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله ... إلى قوله:... إنّ الله غفور رحيم﴾**[1].

وبعد هذه الآية أخذ رسول الله البيعة من النساء المؤمنات.

وكتب البعض حول كيفية البيعة أنّ رسول الله ﷺ أمر بإناء فيه ماء، ووضع يده المباركة

---

١ ـ الممتحنة، ١٢.

فيه، ووضع النسوة أيديهنّ في الجهة الأُخرى من الإناء. وقيل إنّ رسول الله بايع النساء من فوق الملابس.

قصّة بيعة (هند) زوجة أبي سفيان

عندما منّ الله على المسلمين بفتح مكّة، وجاءت النساء لبيعة الرّسول الأعظمﷺ وكانت «هند» زوجة أبي سفيان من ضمن النساء اللواتي جئن لبيعة الرّسول أيضاً. هذه المرأة التي ينقل عنها التاريخ قصصاً مثيرة في ممارساتها الإجرامية، وما قصّة فعلها بحمزة سيّد الشهداء في غزوة أُحد، ذلك العمل الإجرامي القبيح، إلّا مفردة واحدة من الصور السوداء لهذه المرأة المشينة.

وبالرغم من أنّ الظروف قد إضطّرتها إلى الإنحناء أمام عظمة الإسلام فأعلنت إسلامها ظاهرياً، إلّا أنّ قصّة بيعتها تعكس أنّها في الواقع كانت وفّية لما إرتبطت به من عقائد جاهلية سابقة، لذا فليس عجباً ما إرتكبه آل أُميّة وأبناؤهم بحقّ آل الرّسول، بصورة لم يكن لها مثيل.

وعلى كلّ حال، فقد كتب المفسّرون في قصّة بيعة هند:

«روي أنّ النبي بايعهنّ وكان على الصفا، وهند بنت عتبة متنقّبة متنكّرة خوفاً من أن يعرفها رسول الله، فقال أُبايعكن على أن لا تشركن بالله شيئاً، فقالت هند: انّك لتأخذ علينا أمراً ما أخذته على الرجال.

وذلك انّه بايع الرجال يومئذ على الإسلام والجهاد فقط، فقال رسول الله: ولا تسرقن. فقالت هند: إنّ أبا سفيان ممسك وانّي أصبت من ماله هنات فلا أدري أيحلّ لي أمّ لا؟ فقال أبو سفيان: ما أصبت من مالي فيما مضى وفيما غبر فهو لك حلال .. فضحك رسول الله وعرفها فقال لها: وانّك هند بنت عتبة، فقالت: نعم فاعف عمّا سلف يانبي الله عفا الله عنك. فقال: ولا تزنين. فقالت هند: أو تزني الحرّة، فتبسّم عمر بن الخطاب لما جرى بينه وبينها في الجاهلية، فقالﷺ: «ولا تقتلن أولادكن، فقالت هند: ربّيناهم صغاراً وقتلتموهم كباراً وأنتم وهم أعلم. وكان إبنها حنظلة بن أبي سفيان قتله علي بن أبي طالبعليه السلام يوم بدر. وقال النبي: ولا تأتين ببهتان قالت هند: والله إنّ البهتان قبيح وما تأمرنا إلّا بالرشد ومكارم الأخلاق، ولمّا قال: ولا يعصينك في معروف قالت هند: ما جلسنا مجلسنا هذا وفي أنفسنا أن نعصيك في شيء».

رسائل النبيّ إلى رؤساء العالم

عندما استقرّ الإسلام نسبيّاً في الحجاز، أرسل رسول الله ﷺ رسائل إلى عدد من كبار رؤساء العالم في ذلك العصر. في بعض هذه الرسائل اعتمد علىٰ الدعوة إلى التوحيد ـ المبدأ المشترك بين الأديان السماوية ـ. ولأهميّة الموضوع ندرج بعضاً من تلك الرسائل:

رسالة إلى المقوقس[1]

«بسم الله الرحمن الرحيم، من محمّد بن عبدالله إلى المقوقس عظيم القبط، سلام على من اتّبع الهدىٰ. أمّا بعد فإنّي أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، يؤتك الله أجرك مرّتين، فإن تولّيت فإنّما عليك إثم القبط[2]. **يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلّا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتّخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولّوا فقولوا اشهدوا بأنّا مسلمون**»[3].

حمل «حاطب بن أبي بلتعة» رسالة النبيّ ﷺ إلى المقوقس حاكم مصر، فوجده قد رحل إلى الإسكندرية، فركب إليه، وسلّمه الرسالة، ثمّ قال لحاطب: ما منعه إن كان نبيّاً أن يدعو على من خالفه وأخرجه من بلده إلى غيرها أن يسلّط عليهم؟

فقال له حاطب: ألست تشهد أنّ عيسى بن مريم رسول الله؟ فماله حيث أخذه قومه، فأرادوا أن يقتلوه، أن لا يكون دعا عليهم، أن يهلكهم الله تعالى، حتّى رفعه الله إليه؟

---

١ ـ المقوقس: حاكم مصر من قبل هرقل ملك الروم، وكان نصرانياً.

٢ ـ الأقباط: أقوام كانت تقطن مصر.

٣ ـ سورة آل عمران، الآية ٦٤.

قال: أحسنت أنت حكيمٌ من عند حكيم.

ثمّ قال له حاطب: إنّه كان قبلك من يزعم أنّه الربّ الأعلى ـ يعني فرعون ـ فأخذه الله نكال الآخرة والأُولىٰ فانتقم به، ثمّ انتقم منه، فاعتبر بغيرك،ولا يعتبر غيرُك بك.

إنّ هذا النبيّ دعا الناس، فكان أشدّهم عليه قريش، وأعداهم له اليهود، وأقربهم منه النصارى، ولعمرى، ما بشارة موسىٰ بعيسىٰ عليهما الصلاة والسلام، إلّا كبشارة عيسىٰ بمحمّد ﷺ، وما دعاؤنا إيّاك إلى القرآن، إلّا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل، وكلّ نبيّ أدرك قوماً فهم أُمته، فالحقّ عليهم أن يطيعوه، فأنت ممّن أدرك هذا النبيّ، ولسنا ننهاك عن دين المسيح بل نأمرك به.

بقي حاطب بن أبي بلتعة أيّاماً ينتظر جواب المقوقس على رسالة رسول الله ﷺ، وبعدها استدعاه المقوقس إلى قصره واستزاده معرفة بالإسلام وقال له: إلى ما يدعو محمّد؟

قال حاطب: إلى أن نعبد الله وحده، ويأمر بالصلاة، خمس صلوات في اليوم والليلة، ويأمر بصيام رمضان، وحجّ البيت، والوفاء بالعهد، وينهي عن أكل الميتّه، والدم... ثمّ شرح له بعض جوانب حياة النبيّ ﷺ.

فقال المقوقس: هذه صفته، وكنت أعلم أن نبيّاً قد بقي، وكنت أظنّ أنّ مخرجه بالشام، وهناك كانت تخرج الأنبياء من قبله، فأراه قدخرج من أرض العرب.

ثمّ دعا كاتبه الذي يكتب له بالعربية فكتب إلى النبيّ ﷺ:

«بسم الله الرحمن الرحيم، لمحمّد بن عبدالله من المقوقس عظيم القبط، سلام عليك. أمّا بعد، فقد قرأت كتابك،وفهمت ما ذكرت فيه وما تدعو إليه، وقد علمت أنّ نبيّاً قد بقي، وقد كنت أظنّ أنّه يخرج بالشام وقد أكرمت رسولك...»

ثمّ عدّد له الهدايا التي بعثها إليه وختم رسالته بعبارة «والسلام عليك».

أرسل المقوقس نحو أحد عشر نوعاً من الهدايا وبينها طبيب أرسله لمعالجة مرضى المسلمين. فقبل رسول الله ﷺ الهدايا، لكنّه أرجع الطبيب قائلاً: «إنّا قوم لا نأكل حتّى نجوع، وإذا أكلنا لا نشبع» مشيراً بذلك إلى أنّ هذه القاعدة في تناول الطعام كافية لحفظ صحّة المسلمين (ولعلّه ـ إضافة إلى هذه القاعدة الصحّية العظيمة ـ لم يكن يأمن جانب الطبيب الذي كان مسيحياً وربما كان الطبيب متعصّباً أيضاً، فلم يشأ أن يترك أرواح المسلمين بين يديه).

إن إكرام المقوقس سفير النبيّ ﷺ، والهدايا التي أرسلها إليه، وتقديم اسم محمّد ﷺ على اسمه، تدلّ كلّها على أنّه كان قد قبل دعوة رسول الله ﷺ في قرارة نفسه، أو أنّه ـ على الأقل ـ مالَ إلى الإسلام. ولكنّه لكيّ لا يهتزّ مركزه امتنع عن إظهار ذلك علناً.

رسالة إلى قيصر الروم

«بسم الله الرحمن الرحيم. من محمّد بن عبدالله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتّبع الهدىٰ. أمّا بعد، فإنّي أدعوك بدعاية الإسلام. أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرّتين فإن تولّيت فإنّما عليك إثم الأريسيّين [1]. **يا اهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألّا نعبد إلّا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذّ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولّوا فقولوا اشهدوا بأنّا مسلمون**» [2].

كان حامل رسالة رسول الله ﷺ إلى القيصر رجل اسمه «دحية الكلبي». وتهيّأ السفير للإنطلاق نحو أرض الروم. ولكنّه قبل أن يصل القسطنطنية، عاصمة القيصر، علم أنّ القيصر قد يمّم شطر بيت المقدس للزيارة. فاتّصل بحاكم «بصرى» الحارث بن أبي شمر وكشف له عن مهمّته. ويبدو أنّ رسول الله ﷺ كان قد أجاز دفع الرسالة إلى حاكم (بصرى) ليوصلها هذا إلى القيصر.

بعد أن اطّلع الحاكم على الأمر، استدعىٰ عدي بن حاتم وكلّفه أن يسافر مع دحية إلى بيت المقدس ليوصل الرسالة إلى القيصر. إلتقى السفيرُ قيصرَ في حمص. وكانت الحاشية قبل ذلك قد أفهموا دحية أنّ عليه أن يسجد أمام القيصر، وأن لا يرفع رأسه أبداً حتّى يأذن له. فقال دحية: لا أفعل هذا أبداً، ولا أسجد لغير الله. فأعجبوا بمنطقه المتين. وقال له أحد رجال البلاط: إذاً لك أن تضع الرسالة تجاه منبر قيصر وتنصرف، إنّ أحداً غير القيصر لا يمسّها. فشكره دحية على ذلك، وترك الرسالة في ذلك المكان، وانصرف.

فتح قيصر الرسالة، وجلب إنتباهه افتتاحها باسم الله، وقال: أنا لم أرَ رسالة مثل هذه غير رسالة سليمان. ثمّ طلب مترجمه ليقرأ له الرسالة ويترجمها. احتمل قيصر أن يكون كاتب

---

١ ـ الأريسيون: هم العنصر الرومي والعمال.

٢ ـ سورة آل‌عمران، الآية ٦٤.

الرسالة هو النبيّ الموعود في التوراة والإنجيل. فعزم على معرفة دقائق حياة هذا النبيّ. فأمر بالبحث في الشام لعلّهم يعثرون على من يعرف شيئاً عن محمّد ﷺ. واتّفق أن كان أبو سفيان وجمع من قريش قد قدموا إلى الشام ـ التي كانت الجناح الشرقي للروم ـ للتجارة، فاتّصل بهم رجال القيصر وأخذوهم إلى بيت المقدس، فسألهم القيصر: أيّكم أقرب نسباً من هذا الرجل الذي يزعم أنّه نبيّ؟ فقال أبو سفيان: أنا.

ثمّ قال القيصر للقريشيين ـ على طريق ترجمانه ـ: إني سائل (أبا سفيان) عن هذا الرجل الذي يزعم أنّه نبيّ. فإن كذبني فكذّبوه. فقال أبو سفيان: وايم الله لولا مخافة أن يؤثّر عليّ الكذب لكذبت.

ثمّ قال لترجمانه: سله

كيف حسبه فيكم؟

أبو سفيان: هو فينا ذو حسب.

القيصر: هل كان من آبائه ملك؟

أبو سفيان: لا.

القيصر: هل كنتم تتّهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟

أبو سفيان: لا.

القيصر: من يتّبعه أشراف الناس أم ضعفاؤهم؟

أبو سفيان: بل ضعفاؤهم.

القيصر: أيزيدون أم ينقصون؟

أبو سفيان: بل يزيدون.

القيصر: هل يرتدّ أحد منهم عن دينه بعد أن يدخل فيه سخطة له؟

أبو سفيان: لا.

ثمّ استمرّ الحوار بين الاثنين عن موقف قريش من النبيّ ﷺ وعن سجاياه ثمّ قال القيصر: إن يكن ما تقول حقّاً فإنّه نبيّ، وقد كنت أعلم أنّه خارج، ولم أكن أظنّه منكم، ولو أعلم أنّي أخلص إليه لأحببت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت قدميه ـ حسب تقاليد الاحترام يومئذٍ ـ وليبلغن ملكه ما تحت قدميّ، ثمّ دعا بكتاب رسول الله فقرأه ودعا دحية واحترمه وكتب جواب الرسالة وضمّنها بهدية وارسلها الى الرسول ﷺ وأظهر في جواب الرسالة ولاءه

ومحبته إلى رسول الله صلى الله عليه وآله.

ومن تاريخ الإسلام نطالع ما حصل لقيصر الروم عندما وصله رسول النّبي صلى الله عليه وآله، ويذكر بأنّ القيصر قد أظهر الإيمان سرّاً للرسول حتىٰ أنّه رغب في دعوة قومه لدين التوحيد إلاّ أنّه خاف قومه وفكر بامتحانهم فـ (أمر منادياً ينادي: ألا إنّ هرقل قد ترك النصرانية واتبع دين محمّد صلى الله عليه وآله، فأقبل جنده بأسلحتهم حتىٰ طافوا بقصره، فأمر مناديه فنادىٰ: ألا إنّ قيصر إنّما أراد أن يجرّبكم كيف صبركم علىٰ دينكم؛ فارجعوا فقد رضي عنكم. ثمّ قال للرسول: إنّي أخاف علىٰ ملكي. و إنّي لأعلم أنّ صاحبك نبيّ مرسل، والذي كنّا ننتظره ونجده في كتابنا، ولكنّي أخاف الروم علىٰ نفسي، ولولا ذلك لاتبعته).

واقعة ذات السلاسل

في السنة الثامنة للهجرة بلغ الرسول ﷺ نبأ تجمّع اثني عشر ألف راكب في أرض «يابس» تعاهدوا على أن لا يقرّ لهم قرار حتى يقتلوا الرسول ﷺ وعليّاً عليه السلام ويبيدوا الجماعة المسلمة.

وبعث النبيّ ﷺ جمعاً من أصحابه إليهم فكلّموهم، ولكن دون جدوى.

فأرسل النّبي ﷺ عليّاً عليه السلام مع جمع غفير من المهاجرين والأنصار لمحاربتهم. فحثوا الخطىٰ إلى منطقة العدو وطووا الطريق في الليل، فحاصروا العدوّ، وعرضوا عليهم الإسلام أوّلاً، وحين أبوا شنوا هجومهم والجوّ لمّا يزل في ظلام، ودحروهم، فقتلوا جماعة وأسروا النساء والأطفال وغنموا أموالاً كثيرة.

ونزلت سورة «والعاديات»، وجيوش الإسلام لم تصل إلى المدينة بعد، وفي ذات اليوم صلى رسول اللّه ﷺ بالنّاس الغداة وقرأ «والعاديات»، فلما فرغ من صلاته قال أصحابه هذه سورة لم نعرفها، فقال رسول اللّه ﷺ: «**نعم إن عليّاً ظفر بأعداء الله وبشرني بذلك جبرائيل عليه السلام في هذه الليلة**. فقدم علي بعد أيّام بالغنائم والأسارى.

معركة حنين[١]

كيف حدثت هذه الغزوة؟

إن هوازن لمّا علمت بفتح مكّة، جمع القبيلة رئيسها مالك بن عوف وقال لمن حوله: من الممكن أن يغزونا محمّد بعد فتح مكّة، فقالوا: من الأحسن أن نبدأه قبل أن يغزونا.

فلما بلغ ذلك النّبي ﷺ أمر المسلمين أن يتوجهوا إلى أرض هوازن.

إنّ رؤساء طائفة هوازن جاءوا إلى مالك بن عوف واجتمعوا عنده في أُخريات شهر رمضان أو شوال في السنة الثامنة للهجرة، وكانوا قد جاءوا بأموالهم وأبنائهم وأزواجهم لئلا يفكر أحدهم بالفرار حال المعركة، وهكذا فقد وردوا منطقة أوطاس.

فعقد النّبي ﷺ لواءه، وسلمّه عليّاً عليه السلام وأمر حَمَلة الرايات الذين ساهموا في فتح مكّة أن يتوجهوا براياتهم ذاتها مع علي بن أبي طالب إلى حُنين، واطّلع النّبي أن صفوانَ بن أمية لديه دروع كثيرة، فأرسلَ النّبي إليه أن أعرنا مئة درع، فقال صفوان: أتريدونها عاريةً أم غصباً؟ فقال النّبي: بل عارية نضمنها ونعيدها سالمه إليك، فأعطى صفوان النّبي مئة درع على أنّها عارية، وتحرك مع النّبي بنفسه إلى حُنين.

وكان ألفا شخص قد أسلم في فتح مكّة، فأضيف عددهم إلى العشرة آلاف الذين ساهموا في فتح مكّة، وصاروا حوالي اثني عشر ألفاً، وتحركوا نحو حنين.

---

١ ـ جاءت قصّة حنين في سورة التوبة، الآيات ٢٥ إلىٰ ٢٧ .

كمين جيش العدو

فقال مالك بن عوف ـ وكان رجلاً جريئاً شهماً ـ لقبيلته: اكسروا أغماد سيوفكم، واختبئوا في كهوف الجبال والوديان وبين الأشجار، واكمنوا لجيش الإسلام، فإذا جاءوكم الغداة «عتمةً» فاحملوا عليهم وأبيدوهم.

ثمّ أضاف مالك بن عوف قائلاً: إن محمّداً لم يواجه حتى الآن رجال حرب شجعاناً، ليذوق مرارة الهزيمة!!

فلما صلّى النّبي صلاة الغداة «الصبح» بأصحابه أمر أن ينزلوا إلى حنين، ففوجئوا بهجوم هوازن عليهم من كل جانب وصوب، وأصبح المسلمون مرمى لسهامهم، ففرّت طائفة من المقاتلين جديدي الإسلام (بمكّة) من مقدمة الجيش، فكان أن ذُهل المسلمون واضطروا وفرّ الكثير منهم.

فخلّى الله بين جيش المسلمين وجيش العدو، وترك الجيشين على حالهما، ولم يحمِ المسلمين لغرورهم ـ مؤقتاً ـ حتى ظهرت آثار الهزيمة فيهم.

إلّا أنّ عليّاً حامل لواء النّبي بقي يقاتل في عدّة قليلة معه، وكان النّبيﷺ في (قلب) الجيش وحوله بنو هاشم، وفيهم عمه العباس، وكانوا لا يتجاوزون تسعة أشخاص عاشرهم أيمن ابن أم أيمن.

فمرّت مقدمة الجيش في فرارها من المعركة على النّبي فأمر النّبي عمّه العباس ـ وكان جهير الصوت ـ أن يصعد على تل قريب وينادي فوراً: **يا معشر المهاجرين والأنصار، يا أصحاب سورة البقرة، يا أهل بيعة الشجرة، إلى أين تفرّون؟ هذا رسول اللّهﷺ**.

فلّما سمع المسلمون صوت العباس رجعوا وقالوا: **لبيّك لبيّك**، ولا سيما الأنصار إذ عادوا مسرعين وحملوا على العدوّ من كل جانب حملة شديدة، وتقدّموا بأذن الله ونصره، بحيث تفرقت هوازن شذر مذر مذعورة، والمسلمون ما زالوا يحملون عليها. فقتل حوالي مئة شخص من هوازن، وغنم المسلمون أموالهم كما أسروا عدّة منهم.

ونقرأ في نهاية هذه الحادثة التأريخية أن ممثلي هوازن جاءوا النّبي وأعلنوا إسلامهم، وأبدى لهم النّبي صفحه وحُبّه، كما أسلم مالك بن عوف رئيس القبيلة، فردّ النّبي عليه أموال قبيلته وأسراه، وصيره رئيس المسلمين في قبيلته أيضاً.

والحقيقة أنّ السبب المهم في هزيمة المسلمين باديء الأمر ـ بالإضافة إلى غرورهم لكثرتهم ـ هو وجود ألفي شخص ممن أسلم حديثاً وكان فيهم جماعة من المنافقين طبعاً، وآخرون كانوا قد جاءوا مع النّبي لأخذ الغنائم، وجماعة منهم كانوا بلا هدف، فأثر فرار هولاء في بقية الجيش.

أمّا السرّ في إنتصارهم النهائي فهو وقوف النّبيﷺ وعليعليه السلام وجماعة قليلة من الأصحاب، وتذكرهم عهودهم السابقة وإيمانهم بالله والركون إلى لطفه الخاص ونصره.

من الفارّون؟

ممّا لا شك فيه أنّ الأكثرية الساحقة فرّت باديء الأمر من ساحة المعركة، وما تبقى منهم كانوا عشرةً فحسب، وقيل أربعة عشر شخصاً، وأقصى ما أوصل عددُهم المؤرّخون لم يتجاوزوا مئة شخص.

ولما كانت الرّوايات المشهورة تصّرح بأن من بين الفارين الخلفاء الثلاثة، فإنّ بعض المفسّرين سعى لأن يعدّ هذا الفرار أمراً طبيعياً.

يقول صاحب تفسير المنار ما ملَخصُه: لما رشق العدوّ المسلمين بسهامه، كان جماعة قد التحقوا بالمسلمين من مكّة، وفيهم المنافقون وضعاف الإيمان والطامعون «للغنائم» ففرّ هؤلاء جميعاً وتقهقروا إلى الخلف، فاضطرب باقي الجيش طبعاً، وحسب العادة ـ لا خوفاً ـ فقد فرّوا أيضاً، وهذا أمر طبيعي عند فرار طائفة فإنّه يتزلزل الباقي منهم فيفر أيضاً ـ ففرارهم لا يعني ترك النّبي وعدم نصرته أو تسليمه بيد عدوه، حتى يستحقوا غضب الله!!

ونحن لا نعلّق على هذا الكلام، لكن نتركه للقراء ليحكموا فيه حكمهم.

غزوة تبوك[١]

منطقة «تبوك» هي أبعد نقطة وصل إليها النّبيﷺ في غزواته، وهذه الكلمة في الأصل اسم قلعة محكمة وعالية كانت في الشريط الحدودي بين الحجاز والشام، ولذلك سمّيت تلك المنطقة بأرض تبوك.

إنّ انتشار الإسلام السريع في جزيرة العرب كان سبباً في أن يدوي صوت الرّسولﷺ ونداؤه في جميع الدول المجاورة للجزيرة العربية، ولم يكن أحد يعير للحجاز أهمية لغاية ذلك اليوم، فلما بزغ فجر الإسلام، وظهرت قوّة جيش النّبيﷺ الذي وحّد الحجاز تحت راية واحدة، خاف هؤلاء من عاقبة الأمر.

إنّ دولة الروم الشرقية المتاخمة للحجاز، كانت تحتمل أن تكون من أوائل ضحايا تقدم الإسلام السريع، لذلك فقد جهزت جيشاً قوامه أربعون ألف مقاتل، وكان مجهزاً بالأسلحة الكافية التي كانت تمتلكها قوّة عظمى كإمبراطورية الروم، واستقر الجيش في حدود الحجاز، فوصل الخبر إلى مسامع النّبيﷺ عن طريق المسافرين، فأراد النّبيﷺ أن يلقن الروم وباقي جيرانه درساً يكون لهم عبرة. فلم يتأخر عن إصدار أمره بالتهيؤ والإستعداد للجهاد، وبعث الرسل الى المناطق الأُخرىٰ يبلّغون المسلمين بأمر النّبيﷺ فلم يمض زمن حتى اجتمع لديه ثلاثون ألفاً لقتال الروميين، وكان من بينهم عشرة آلاف راكب وعشرون ألف راجل.

كان الهواء شديد الحرّ، وقد فرغت المخازن من المواد الغذائية، والمحصولات الزراعية لتلك السنة لم تحصد وتجمع بعدُ، فكانت الحركة في مثل هذه الأوضاع بالنسبة للمسلمين

---

١ ـ جاءت قصّة تبوك في سورة التوبة، الآية ١١٧.

صعبة جدّاً، إلّا أنّ أمر الله ورسوله يقضي بالمسير في ظل أصعب الظروف وطي الصحاري الواسعة والمليئة بالمخاطر بين المدينة وتبوك.

جيش العسرة

إنّ هذا الجيش نتيجة للمشاكل الكثيرة التي واجهها من الناحية الإقتصادية، والمسير الطويل، والرياح السَموم المحرقة، وعواصف الرمال الكاسحة، وعدم امتلاك الوسائل الكافية للنقل، قد عرف بـ(جيش العسرة).

إن تاريخ الاسلام يُبيّن أنّ المسلمين لم يعانوامثل ماعانوه في غزوة تبوك من الضغوط والمشقة، لأنّ المسير إلى تبوك كان في وقت اشتداد حر الصيف من جهة.

ومن جهة أُخرىٰ فإنّ القحط قد أثّر في الناس وأنهك قواهم.

وكذلك فإنّ الفصل كان فصل اقتطاف الثمار، ولابدّ من جمع ما على الاشجار والنخيل لتأمين قوت سنتهم.

وإذا تجاوزنا جميع ذلك، فإنّ المسافة بين المدينة وتبوك طويلة جداً.

والعدو الذي كانوا يريدون مواجهته هو إمبراطورية الروم الشرقية، التي كانت يومها من أقوى الامبراطوريات العالمية.

إضافةً إلى ما مرّ، فإنّ وسائل النقل بين المسلمين كانت قليلة إلى الحد الذي قد يضطر أحياناً عشرة أشخاص إلى أن يتناوبوا ركوب وسيلة واحدة، وبعض المشاة لم يكونوا يمتلكون حتى النعل، وكانوا مضطرين إلى العبور على رمال الصحراء الحارقة بأقدام عارية ...

أمّا من ناحية الطعام والشراب، فإنّهم كانوا يعانون من قلّة المواد الغذائية. بحيث أنّ عدّة أشخاص يشتركون في تمرة واحدة أحياناً، فيمص كل منهم التمرة ويعطيها لصاحبه حتى لا يبقى منها إلى النواة ... وكان عدّة أفراد يشتركون في جرعة ماء !!

وقد حدثت هذه الواقعة في السنة التاسعة للهجرة، أي بعد سنة من فتح مكّة تقريباً.

وبما أن المواجهة في هذا الميدان كانت مواجهةً لإحدى الدول الكبرى في ذلك العصر، لا مواجهة لإحدى القبائل العربية، فقد كان جماعة من المسلمين قلقين مشفقين من المساهمة والحضور في هذه المواجهة، ولذلك فقد كانت الأرضية مهيأة لوساوس المنافقين وبذر السموم، فلم يألوا جهداً في إضعاف المعنويات وإحباط المؤمنين أبداً. فقد كان الموسم موسم

اقتطاف الثمار وجمع المحاصيل الزراعية، وكان هذا الموسم للمزارعين يعدّ فصلاً مصيرياً، إذ فيه رفاه سنتهم هذا من جهة.

ومن جهة أُخرىٰ، فإنّ بعد المسافة وحرارة الجوّ ـ كما أشرنا آنفاً ـ كلّ ذلك كان من العوامل المثبطة للمسلمين في حركتهم نحو مواجهة الأعداء.

فنزل الوحي ليشدَّ من أزر الناس، والآيات تترى الواحدة بعد الأُخرىٰ لإزالة الموانع والأسباب المثبطة.

لغة الترغيب، لغت العتاب، لغة التهديد

يدعو القرآن المسلمين الى الجهاد بلسان الترغيب تارةً وبالعتاب تارةً أُخرىٰ وبالتهديد ثالثة فهو يدعوهم ويهيؤهم الى الجهاد، ويدخل إليهم من كل باب.

يقول أوّلاً: ﴿يا أيّها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله أثّاقلتم الى الارض﴾.

القرآن يخاطب من كان كذلك من المسلمين ـ ضعاف الإيمان ـ لا جميعهم، ولا المسلمين الصادقين وعاشقي الجهاد في سبيل الله.

ثمّ يقول القرآن مخاطباً إيّاهم بلهجة الملامة: ﴿أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلّا قليل﴾.

فكيف يتسنى للإنسان العاقل أن يساوم مساومة الخُسران، وكيف يعوّض متاعاً غالياً لا يزول بمتاع زائل لا يعد شيئاً؟!

ثمّ يتجاوز القرآن مرحلة الملامة والعتاب الى لهجة أشدّ وأسلوب تهديديّ جديد، فيقول: ﴿إلّا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً﴾.

فإذا كنتم تتصورون أنّكم إذا توليتم وأعرضتم عن الذهاب الى سوح الجهاد، فإنّ عجلة الإسلام ستتوقف وينطفىء نور الإسلام، فأنتم في غاية الخطأ والله غني عنكم ﴿ويستبدل قوماً غيركم﴾ قوماً أفضل منكم من كل جهة، لا من حيث الشخصيّة فحسب، بل من حيث الإيمان والإرادة والشهامة والإستجابة والطاعة ﴿ولا تضرّوه شيئاً﴾[١].

---

١ ـ التوبة، ٣٩ ـ ٣٧.

غزوة وحيدة لم يشارك فيها علي عليه السلام

ولكنّه تحمل الجيش جميع هذه المشاكل، ووصل إلى أرض تبوك في غرة شعبان من السنة التاسعة للهجرة، وكان النّبي صلى الله عليه وآله قد خلف علياً عليه السلام مكانه، وهي الغزوة الوحيدة التي لم يشارك فيها أميرالمؤمنين عليه السلام.

إن قيام النّبي صلى الله عليه وآله بإقامة علي عليه السلام مكانه كان عملاً ضرورياً وفي محله، فإنّه كان من المحتمل جداً أن يستفيد المتخلفون من المشركين أو المنافقين ـ الذي امتنعوا بحجج مختلفة عن الإشتراك في الجهاد ـ من غيبة النّبي صلى الله عليه وآله الطويلة، ويجمعوا أفرادهم ويحملوا على المدينة ويقتلوا النساء والأطفال ويهدموا المدينة، إلّا أنّ وجود علي عليه السلام كان سدّاً منيعاً في وجه مؤامراتهم وخططهم.

وعلى كل حال، فإنّ النّبي صلى الله عليه وآله حينما وصل إلى تبوك لم ير أثراً لجيوش الروم، وربّما كان ذلك لأنّهم سمعوا بخبر توجه هذا الجيش الإسلامي العظيم، وقد سمعوا من قبل بشجاعة واستبسال المسلمين العجيبة، وما أبدوه من بلاء حسن في الحروب، فرأوا أنّ الأصلح سحب قواتهم إلى داخل بلادهم، وليبيّنوا أنّ خبر تجمع جيش الروم على الحدود، ونيّته بالقيام بهجوم على المدينة، شائعة لا أساس لها، لأنّهم خافوا من التورط بمثل هذه الحرب الطاحنة دون مبررات منطقية، فخافوا من ذلك.

إلّا أنّ حضور جنود الإسلام إلى ساحة تبوك بهذه السرعة قد أعطى لأعدائه عدة دروس:

أولاً: إنّ هذا الموضوع أثبت أنّ المعنويات العالية والروح الجهادية لجنود الإسلام، كانت قوية إلى الدرجة التي لا يخافون معها من الإشتباك مع أقوى جيش في ذلك الزمان.

ثانياً: إنّ الكثير من القبائل وأمراء أطراف تبوك أتوا إلى النّبي صلى الله عليه وآله وأمضوا عهوداً بعدم التعرض للنبي صلى الله عليه وآله ومحاربته، وبذلك فقد اطمأن المسلمون من هذه الناحية، وأمنوا خطرهم.

ثالثاً: إنّ إشعاع الإسلام وأمواجه قد نفذت إلى داخل حدود إمبراطورية الروم، ودوّى صدى الإسلام في كل الأرجاء باعتباره أهم حوادث ذلك اليوم، وهذا قد هيأ الأرضية الجيدة لتوجه الروميين نحو الإسلام والإيمان به.

رابعاً: إنّ المسلمين بقطعهم هذا الطريق، وتحملهم لهذه الصعاب، قد عبّدوا الطريق لفتح الشام في المستقبل، وقد اتضح للجميع بأن هذا الطريق سيقطع في النهاية.

وهكذا، فانّ هذه المعطيات الكبيرة تستحق كل هذه المشاق والتعبئة والزحف.

وعلى كل حال، فإنّ النّبي على عادته ـ قد استشار جيشه في الإستمرار في التقدم أو الرجوع، وكان رأي الأكثر بأنّ الرجوع هو الأفضل والأنسب لروح التعليمات الإسلامية، خاصّة وأن جيوش المسلمين كانت قد تعبت نتيجة المعاناة الكبيرة في الطريق، وضعفت مقاومتهم الجسمية، فأقر النّبيﷺ هذا الرأي ورد جيوش المسلمين إلى المدينة.

درس كبير!

أبوخيثمة[1]، كان من أصحاب النّبيﷺ، لا من المنافقين، إلّا أنّه لضعفه امتنع عن التوجه إلى معركة تبوك مع النّبيﷺ.

مرّت عشرة أيّام على هذه الواقعة، وكان الهواء حاراً محرقاً، فحضر يوماً عند زوجتيه، وكنّ قد هيأن خيمته، وأحضرن الطعام اللذيذ والماء البارد، فتذكر فجأة النّبيﷺ، وغاص في تفكير عميق، وقال في نفسه: إنّ رسول اللهﷺ الذي غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وضمن له آخرته، قد حمل سلاحه على عاتقه وسار في الصحاري المحرقة، وتحمل مشقّة هذا السفر، أمّا أبو خيثمة ـ يعني نفسه ـ فهو في ظل بارد، يتمتع بأنواع الأطعمة، والنساء الجميلات!! إنّ هذا ليس من الإنصاف.

فالتفت إلى زوجاته وقال: أقسم بالله أن لا أكلم إحداكن كلمة، ولا أستظل بهذه الخيمة حتى ألتحق بالنّبيﷺ. قال ذلك وحمل زاده وجرابه وركب بعيره وسار، وجهدت زوجتاه أن يكلمنه فلم يعبأ بهما ولم ينبس بنبت شفة، وواصل سيره حتى اقترب من تبوك.

فقال المسلمون بعضهم لبعض: من هذا الراكب على الطريق؟، فقال النّبيﷺ: «كن أبا خيثمة» فلمّا اقترب وعرفه الناس، قالوا: نعم، هو أبو خيثمة، فأناخ راحلته وسلّم على النّبيﷺ، وحدثه بما جرى له، فرحبّ به النّبيﷺ، ودعا له.

وبذلك فإنّه كان من جملة الذين مال قلبهم إلى الباطل، إلّا أنّ الله سبحانه وتعالى لما رأى استعداده الروحي أرجعه إلى الحق وثبّت قدمه.

---

١ ـ قيل إنّه الآية ١١٧، من سورة التوبة نزلت في شأنه.

متخلفون ثلاثة

إنّ ثلاثة من المسلمين وهم: «**كعب بن مالك**» و«**مرارة بن ربيع**»و «**وهلال بن أمـية**»، امتنعوا من المسير مع النّبيﷺ والإشتراك في غزوة تبوك، إلّا أن ذلك ليس لكونهم جزءاً من المنافقين، بل لكسلهم وتثاقلهم، فلم يمض زمان حتى ندموا.

فلمّا رجع النّبيﷺ من غزوة تبوك حضروا عنده وطلبوا منه العفو عن تقصيرهم، إلّا أن النّبيﷺ لم يكلمهم حتى بكلمة واحدة، وأمر المسلمين أيضاً أن لا يكلموهم.

لقد عاش هؤلاء محاصرة اجتماعية عجيبة وشديدة، حتى أنّ أطفالهم ونساءهم أتوا إلى النّبيﷺ، وطلبوا الإذن منه في أن يفارقوا هؤلاء إلّا أنّ النّبيﷺ لم يأذن لهم بالمفارقة، لكنّه أمرهم أن لا يقتربوا منهم.

إنّ فضاء المدينة بوسعته قد ضاق على هؤلاء النفر، واضطروا للتخلص مـن هـذا الذل والفضيحة الكبيرة إلى ترك المدينة والإلتجاء إلى قمم الجبال.

ومن المسائل التي أثرت تأثيراً روحياً شديداً، وأوجدت صدمة نفسية عنيفة لدى هؤلاء ما رواه **كعب بن مالك** قال: كنت يوماً جالساً في سوق المدينة وأنا مغموم، فتوجه نحوي رجل مسيحي شامي، فلمّا عرفني سلمني رسالة من ملك الغساسنة كتب فيها: إذا كان صاحبك قد طردك وأبعدك فالتحق بنا، فتغير حالي وقلت: الويل لي، لقد وصل أمري إلى أن يطمع بـي العدو!

خلاصة الأمر: إنّ عوائل هؤلاء وأصدقاءهم كانوا يأتونهم بالطعام، إلّا أنّهم لا يكلمونهم قط، ومضت مدّة على هذه الحال وهم يتجرعون ألم الإنتظار والترقب فـي أن تـنزل آيـة تبشرهم بقبول توبتهم، لكن دون جدوىٰ

في هذه الأثناء خطرت على ذهن أحدهم فكرة وقال: إذا كان الناس قد قطعوا علاقتهم بنا واعتزلونا، فلماذا لا يعتزل كل منا صاحبه، صحيح أنّنا مذنبون جميعاً، لكن يحب أن لا يفرح أحدنا لذنب الآخر. وبالفعل اعتزل بعضهم بعضاً، ولم بتكلموا بكلمة واحدة، ولم يجتمع اثنان منهم في مكان. وأخيراً ... وبعد خمسين يوماً من التوبة والتضرع إلى الله سبحانه وتعالى قبلت توبتهم[1].

---

١ ـ فنزلت الآية ١١٨ من سورة التوبة.

مسجد ضرار[١]

إنّ جماعة من المنافقين أتوا إلى النّبيﷺ وطلبوا منه أن يسمح لهم ببناء مسجد في حي بني سليم ـ قرب مسجد قبا ـ حتى يصلي فيه العاجزون والمرضى والشيوخ، وكذلك ليصلي فيه جماعة من الناس الذين لا يستطيعون أن يحضروا مسجد قبا في الأيّام الممطرة، ويؤدوا فرائضهم الإسلامية، وكان ذلك في الوقت الذي كان فيه النّبيﷺ عازماً على التوجه إلى تبوك.

فأذن لهم النّبيﷺ، إلّا أنّهم لم يكتفوا بذلك، بل طلبوا منه أن يصلي فيه، فأخبرهم بأنّه عازم على السفر الآن، وعند عودته بإذن الله فسوف يأتي مسجدهم ويصلي فيه.

فلمّا رجع النّبيﷺ من تبوك حضروا عنده وطلبوا منه الحضور في مسجدهم والصلاة فيه، وأن يدعوا الله لهم بالبركة، وكان النّبيﷺ لم يدخل بعد أبواب المدينة، فنزل الوحي وتلا عليه هذه الآيات، وكشف الستار عن الأعمال هؤلاء، فأمر النّبي بحرق المسجد المذكور، وبهدم بقاياه، وأن يُجعل مكانه محلاً لرمي القاذورات والأوساخ.

إذا نظرنا إلى الوجه الظاهري لهذا العمل، فسوف نتحير في البداية، فهل أن بناء مسجد لحماية المرضى والطاعنين في السنن من الظروف الطارئة، والذي هو في حقيقته عمل ديني وخدمة إنسانية، يعدّ عملاً مضراً وسيئاً حتى يصدر في حقّه هذا الحكم؟ إلّا أنّنا إذا دققنا النظر في الواقع الباطني وحققناه رأينا أنّ هذا الأمر بهدمه في منتهى الدقة.

---

١ ـ جاءت قصّة مسجد ضرار في سورة التوبة، الآيات ١٠٧ إلىٰ ١١٠.

وتوضيح ذلك، أنّ رجلاً في زمن الجاهلية يقال له: أبو عامر، كان قد اعتنق النصرانية، وسلك مسلك الرهبانية، وكان يعد من الزهاد والعباد وله نفوذ واسع في طائفة الخزرج.

وعندما هاجر النّبي ﷺ إلى المدينة واحتضنه المسلمون ونصروه وبعد انتصار المسلمين على المشركين في معركة بدر، رأى أبو عامر ـ الذي كان يوماً من المبشرين بظهور النّبي ﷺ ـ أنّ الناس قد انفضوا من حوله، وبقي وحيداً، وعند ذلك قرر محاربة الإسلام، فهرب من المدينة إلى كفار مكّة، واستمد منهم القوّة لمحاربة النّبي ﷺ، ودعا قبائل العرب لذلك فكان ينفذ ويقود جزءاً من مخططات معركة أحد، وهو الذي أمر بحفر الحفر بين الصفين والتي سقط النّبي ﷺ في أحدها فجرحت جبهته وكُسرت رباعيته.

فلمّا إنتهت غزوة أحد بكل ما واجه المسلمون فيها من مشاكل ونوائب، دوى صوت الإسلام أكثر من ذي قبل، وعمّ كل الأرجاء، فهرب أبو عامر من المدينة وذهب إلى هرقل ملك الروم ليستعين به قتال النّبي ﷺ، وليرجع إلى المسلمين ويقاتلهم في جحفل لجب وجيش عظيم.

ويلزم هنا أن نذكر هذه النقطة، وهي أنّ النّبي ﷺ لما رأى صدر منه من التحريض والدعوة لقتال المسلمين ونبيّهم سمّاه (فاسقاً).

يقول البعض: إنّ الموت لم يمهله حتى يُطلع هرقل على نواياه ومشاريعه، إلّا أنّ البعض الآخر يقول: إنّه اتصل بهرقل وتحمس لوعوده!

على كل حال، فإنّه قبل أن يموت أرسل رسالة إلى منافقي المدينة يبشرهم فيها بالجيش الذي سيصل لمساعدتهم، وأكّد عليهم بالخصوص على أن يبنوا له مركزاً ومقرّاً في المدينة ليكون منطلقاً لنشاطات المستقبل.

ولما كان بناء مثل هذا المقر، وباسم أعداء الإسلام غير ممكن عملياً، رأى المنافقون أن يبنوا هذا المقر تحت غطاء المسجد، وبعنوان مساعدة المرضى والعاجزين.

وأخيراً تمّ بناء المسجد، ويقال أنّهم اختاروا شاباً عارفاً بالقرآن من بين المسلمين يقال له: «مجمع بن حارثة» أو «مجمع بن جارية» وأوكلوا له إمامة المسجد.

إلّا أنّ الوحي الإلهي أزاح الستار عن عمل هؤلاء، وربّما لم يأمر النّبي ﷺ بشيء قبل ذهابه إلى تبوك ليواجه هؤلاء بكل شدّة، من أجل أن يتّضح أمرهم أكثر من جهة، ولئلا ينشغل فكرياً وهو في مسيرة إلى تبوك بما يمكن أن يحدث فيما لو أصدر الأمر.

وكيف كان، فإنّ النّبيﷺ لم يكتف بعدم الصلاة في المسجد وحسب، بل إنّه ـ كما قلنا ـ أمر بعض المسلمين ـ وهم مالك بن دخشم، ومعنى بن عدي، وعامر بن سكر أو عاصم بن عدي ـ أن يحرقوا المسجد ويهدموه، فنفذ هؤلاء ما أُمروا به، فعمدوا إلى سقف المسجد فحرّقوه، ثمّ هدموا الجدران، وأخيراً حولوه إلى محل لجمع الفضلات والقاذورات.

مسجد قبا

يؤكّد الله سبحانه وتعالى تأكيداً شديداً على مسألة حياتية مهمّة، ويأمر نبيّه بصراحة أن **﴿لا تقم فيه أبداً﴾** بل **﴿لمسجد أُسس على التقوى من أوّل يوم أحق أن تقوم فيه﴾** لا المسجد الذي أسس من أوّل يوم على الكفر والنفاق وتقويض أركان الدين.

وقال المفسّرون: إنّ المسجد الذي أشار القرآن إلى أنّه يستحق أن يصلي فيه النّبيﷺ هو **«مسجد قبا»** حيث بنى المنافقون مسجد ضرار على مقربة منه.

ثمّ يضيف القرآن الكريم أنّه بالإضافة إلى أنّ هذا المسجد قد أسس على أساس التقوى، فإنّ **﴿فيه رجال يحبّون أن يتطهروا والله يحبّ المطهرين﴾**[1].

أوّل صلاة جمعة في الإسلام

إنّ أوّل جمعة أقامها الرّسولﷺ مع أصحابه فكانت بعد وصوله إلى المدينة بأربعة أيّام، وكان وصوله يوم الإثنين الثاني عشر من ربيع الأوّل، بقي بعدها أربعة أيّام في قبا فبنوا (مسجد قبا) وتحرّكوا بعدها إلى المدينة، وكان ذلك يوم الجمعة، ولم تكن المسافة بين قبا والمدينة طويلة (وتعتبر قبا اليوم من ضواحي المدينة). وكان الرّسول قد وصل ضاحية (بني سالم) عند أذان الجمعة فأُقيمت صلاة الجمعة هناك. وهذه هي أوّل جمعة أقامها الرّسولﷺ في الإسلام، وقد ألقى فيها خطبة كانت هي بدورها أوّل خطبة لرسول الله في المدينة المنوّرة).

---

١ ـ التوبة، ١٠٨.

حادثة الغدير

في السنة الأخيرة من حياة النّبيﷺ أدّىٰ المسلمون مع رسول اللهﷺ حجّة الوداع في عظمة وجلال، وكان لهذه الحجة أثر كبير في النفوس، وبعد إنتهائها أحاطت بالقلوب هالة من السموّ الروحي، وتشرّبت في الأعماق لذّة هذة العبادة الكبرىٰ.

وكانت الجموع الغفيرة من المسلمين المشاركين في تلك الحجّة يكادون يطيرون فرحاً لهذه السعادة الكبرى التي شرفهم الله بها.

لم يكن أهل المدينة وحدهم قد رافقوا النّبيﷺ في هذه الحجة، بل التحق بركبه مسلمون توافدوا من سائر أنحاء الجزيرة العربية لينالوا شرف الصحبة في هذه الحجّة.

كانت الشمس ترسل أشعتها اللافحة المحرقة علىٰ الوديان والسهول لكن لذّة هذا السفر الروحي يسّرت كل شيء. اقترب وقت الظهيرة، واقترب الركب الكبير من أرض الجحفة، وظهرت من بعيد أرض «غديرخم» القاحلة الجافة المحرقة.

كانت المنطقة، في الحقيقة، تقع على مفترق طرق أربع حيث كان على الحجيج أن يتفرقوا إلى الوجهة التي يقصدونها فطريق يتجه إلى المدينة نحو الشمال، وآخر يوصل إلى العراق شرقاً، وطريق الغرب يتجه إلى مصر، وطريق الجنوب يصل إلى اليمن. ها هنا كان لابدّ أن يتحقق أهم فصل من فصول هذه الرحلة وآخر ذكرياتها. وكان على المسلمين أن يتلقوا آخر تكليف لهم، أو المرحلة النهائية من المهمات الناجحة التي اضطلع بها رسول اللهﷺ، قبل أن يتفرقوا إلى حال سبيلهم.

كان يوم الخميس من السنة العاشرة للهجرة، وقد مضت ثمانية أيّام على عيد الأضحىٰ،

وإذا برسول الله ﷺ يصدّر أمره للحجيج بالتوقف، فراح المسلمون يتنادون الذين في مقدمة الركب أن يعودوا، وانتظروا حتى يلتحق بهم من كان في المؤخرة أيضاً. كان الشمس قد تخطت نقطة الزوال، وصعد مؤذن النّبي ﷺ ينادي في الناس لصلاة الظهر، وأخذ الناس يستعدون ـ مسرعين ـ لأداء الصّلاة. كانت الرياح لافحة محرقة، حتىٰ اضطر بعضهم إلى أن يضع قسماً من عباءته تحت قدميه وقسماً منها فوق رأسه كي يتقي حرارة الحصىٰ وأشعة الشمس.

ما كان في تلك الصحراء ما يستظل به، ولا ما تستريح إليه العين من خضرة الأعشاب، اللّهم إلّا بضع شجيرات عجاف عارية تصارع حرارة الجو صراعاً مريراً.

كان جمع قد لجأ إلى هذه الشجيرات ونشر رداءه عليها ليستظل به رسول الله ﷺ، إلّا أنّ الرياح الساخنة كانت تعصف بتلك المظلة فتنتشر تحتها حرارة الشمس الحارقة.

إنتهت صلاة الظهر.

خطبة الغدير

هرع الحجيج يريدون نصب خيامهم الصغيرة التي كانوا يحملونها معهم يلوذون بها من حر الهاجرة. إلّا أنّ رسول الله ﷺ أخبرهم أنّ عليهم أن يستعدوا لسماع رسالة إلهية، جديدة في خطبته، وكان الذين يقفون على مسافة من رسول الله ﷺ لا يستطيعون رؤيته، لذلك صنعوا له منبراً من أحداج الإبل ارتقاه رسول الله ﷺ فقال:

«الحمد لله ونستعينه ونؤمن به، ونتوكل عليه، ونعوذ به من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا الذي لا هادي لمن ضلّ، ولا مضلّ لمن هدىٰ، وأشهد أن لا إله إلّا الله، و أنّ محمّداً عبده ورسوله.

أمّا بعد: أيّها الناس قد نبّأني اللطيف الخبير أنّه لم يعمر نبيّ إلّا مثل نصف عمر الذي قبله، وإنّي أوشك أن أُدعىٰ فأجيب، وإني مسؤول وأنتم مسؤولون، فماذا أنتم قائلون؟

قالوا: نشهد أنك بلّغت ونصحت وجهدت فجزاك الله خيراً.

قال: ألستم تشهدون أن لا إله إلّا الله، وأن محمّداً عبده ورسوله، وأن جنّته حقّ، وناره حقّ، وأن الموت حقّ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأنّ الله يبعث من في القبور؟

قالوا: بلىٰ نشهد بذلك.

قال: اللّهم اشهد، ثمّ قال: أيّها الناس ألا تسمعون؟ قالوا: نعم.

ثمّ ساد الجوّ صمت عميق، ولم يُسمع فيه سوىٰ أزيز الرياح ... قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «... **فانظروا كيف تخلفوني في الثقلين**».

فنادىٰ مناد: وما الثقلان، يا رسول الله؟

قال: الثقل الأكبر كتاب الله طرفٌ بيد الله عزّ وجلّ، وطرف بأيديكم فتمسكوا به لا تضلّوا، والآخر الأصغر عترتي، وإنّ اللطيف الخبير نبّأني أنّهما لن يتفرّقا حتىٰ يردا عليَّ الحوض، فسألت ذلك لهما ربّي، فلا تقدّموهما فتهلكوا، ولا تقصروا عنهما فتهلكوا.

ثمّ أخذ بيد علي فرفعها حتى رؤي بياض إباطهما، وعرفه القوم أجمعون، فقال:

أيّها الناس: من أولى الناس بالمؤمنين من أنفسهم؟

قالوا: الله ورسوله أعلم.

قال: **إنّ الله مولاي، وأنا مولىٰ المؤمنين، وأنا أولىٰ بهم من أنفسهم فمن كنت مولاه فعليٌّ مولاه**» «يقولها ثلاث مرات»، وفي لفظ الإمام أحمد إمام الحنابلة: «أربع مرات». ثمّ قال: «**اللّهم وال من والاه، وعاد من عاداه، وأحبَّ من أحبّه، وأبغض من أبغضه، وانصر من نصره، واخذل من خذله، وأدر الحقّ معه حيث دار، ألا فليبلغ الشاهد الغائب**».

يوم إكمال الدين

ثمّ لم يتفرقوا حتىٰ نزل أمين وحي الله بقوله: ﴿**اليوم أكملت لكم دينكم، وأتممت عليكم نعمتي ...**﴾[1] فقال رسول الله صلى الله عليه وآله:

«**الله أكبر على إكمال الدين، وإتمام النعمة، ورضىٰ الرّب برسالتي والولاية لعلي من بعدي**».

ثمّ طفق القوم يهنئون أميرالمؤمنين عليه السلام وممن هنّأه أبوبكر وعمر كلّ يقول: **بخّ. بخّ لك يا ابن أبي طالب، أصبحت وأمسيت مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة.**

وقال ابن عباس: وجبت والله في أعناق القوم[2].

---

١ ـ المائدة، ٣.

٢ ـ راجع الغدير و احقاق الحقّ والمراجعات ودلائل الصدق.

فدک

القصّة المؤلمة لـ (فدك)

«فدك»: إحدى القرى المثمرة في أطراف المدينة، وتبعد ١٤٠كم عن خيبر تقريباً، ولمّا سقطت قلاع «خيبر» في السنة السابعة للهجرة، الواحدة تلو الأُخرى أمام قوّة المسلمين، واندحر اليهود .. جاء ساكنو فدك يطلبون الصلح مع رسول الله صلى الله عليه وآله وأعطوا نصف أراضيهم وبساتينهم لرسول الله واحتفظوا بالقسم الآخر لأنفسهم، وتعهّدوا للرسول بزراعة أراضيه وأخذ الأُجرة عوض الجهد الذي يبذلونه.

ومن خلال ملاحظة الآية ٦ من سورة الحشر فإنّ هذه الأرض كانت من مختّصات الرّسول صلى الله عليه وآله ومن صلاحيته أن يصرفها في شؤونه الشخصية، أو ما يراه من المصارف الأُخرى التي أُشير إليها في الآية السابعة من نفس هذه السورة، لذلك فإنّ الرّسول صلى الله عليه وآله وهبها لإبنته فاطمة عليها السلام.

وهذا الحديث صرّح به الكثيرون من المؤرّخين والمفسّرين من أهل السنّة والشيعة، ومن جملة ما ورد في تفسير الدرّ المنثور، نقلاً عن ابن عبّاس في تفسير قوله تعالى: **﴿فآت ذا القربى حقّه﴾**[1] أنّه صلى الله عليه وآله عندما نزلت هذه الآية عليه أعطى فدكاً لفاطمة. **(أقطع رسول الله فاطمة فدكاً)**.

وجاء في كتاب كنز العرفان، أنّه جاء في حاشية مسند (أحمد) حول مسألة صلة الرحم أنّه نقل عن أبي سعيد الخدري أنّ الآية أعلاه عندما نزلت على الرّسول صلى الله عليه وآله دعا الرّسول فاطمة،

---

١ ـ الروم، الآية ٣٨.

وقال: «يافاطمة لك فدك»[١]. وقد أورد الحاكم النيسابوري هذا المعنى في تأريخه.

وقد ذكر ابن أبي الحديد قصّة فدك بصورة مفصّلة في شرح نهج البلاغة، كما ذكرت كذلك في كتب أُخرى كثيرة.

إلّا أنّ بعض أصحاب رسول الله ﷺ كان يعتقد أنّ وجود (فدك) بيد زوجة الإمام علي عليه السلام تمثّل قدرة إقتصادية يمكن أن تستخدم في مجال التحرّك السياسي الخاصّ بالإمام علي عليه السلام. ومن جهة أُخرى كان هنالك موقف وتصميم على تحجيم حركة الإمام عليه السلام وأصحابه في المجالات المختلفة، لذا تمّت مصادرة تلك الأرض بذريعة الحديث الموضوع: (نحن معاشر الأنبياء لا نورث). مع أنّ (فدك) كانت بيد فاطمة عليها السلام، وذو اليد لا يطالب بشهادة أو بيّنة. والجدير بالذكر أنّ الإمام علي عليه السلام قد أقام الشهادة على أنّ رسول الله ﷺ قد منح فدكاً إلى فاطمة. إلّا أنّهم مع كلّ هذا لم يرتّبوا أثراً على هذه الشهادة.

وقد إستعملت قضيّة فدك عبر العصور التأريخية المختلفة كموضوع يراد التظاهر من خلاله بالودّ لأهل البيت عليهم السلام من قبل بعض الخلفاء وذلك لمآرب سياسيّة، فكانوا يرجعون فدكاً لآل الرّسول تارةً، ويصادرونها ثانية، وقد تكرّر هذا الفعل عدّة مرّات في فترات حكم خلفاء بني أُميّة وبني العبّاس.

وقصّة فدك وما رافقها من أحداث مؤلمة وقعت في صدر الإسلام هي من أكثر القصص ألماً وحزناً، وفي نفس الوقت تكاد أن تكون من أكثر حوادث التاريخ عبرةً، ولابدّ من التوقّف عندها والتأمّل في أحداثها المختلفة ضمن بحث محايد دقيق.

والجدير بالملاحظة أنّه روى مسلم في صحيحه عن عائشة: إنّ فاطمة بنت رسول الله أرسلت إلى أبي بكر الصدّيق تسأله ميراثها من رسول الله ممّا أفاء الله عليه بالمدينة وفدك وما بقي من خمس خيبر، فقال أبو بكر: إنّ رسول الله قال: «لا نورّث ما تركناه صدقة إنّما يأكل آل محمّد في هذا المال» وانّي والله لا أُغيّر شيئاً من صدقة رسول الله عن حالها التي كانت عليها في عهد رسول الله ... فأبى أبو بكر أن يدفع إلى فاطمة شيئاً، فوجدت فاطمة على أبي بكر في ذلك. قال: فهجرته فلم تكلّمه حتّى توفّيت)[٢].

---

١ ـ كنز العمّال، ج ٢، ص ١٥٨.

٢ ـ صحيح مسلم، ج ٣ ص ١٣٨٠، حديث ٥٢ عن كتاب الجهاد.

رواية «نحن معاشر الأنبياء لا نورّث»..

نقل أهل السنة في كتبهم المختلفة حديثاً عن النّبي ﷺ مضمونه أنّه قال: «**نحن معاشر الأنبياء لا نورّث، ما تركناه صدقة**».. وربّما نقل الحديث في بعض الكتب بحذف الجملة الاُولى والاكتفاء بعبارة: «**ما تركناه صدقة**».

وسند هذا الحديث ينتهي في كتب أهل السنة المشهورة إلى «أبي‌بكر» ـ غالباً ـ إذ تولّى بعد النّبي ﷺ زمام أُمور المسلمين، وحين طلبت منه سيدة النساء فاطمة عليها السلام أو بعض أزواج النّبيّ ميراثها منه امتنع عن دفع ميراث النّبي ﷺ إليها استناداً إلى الحديث آنف الذكر.

وقد نقل هذا الحديث «مسلم» في صحيحه «الجزء ٣ ـ كتاب الجهاد والسير ص ١٣٧٩» و«البخارى» في الجزء الثامن من كتاب الفرائض ص ١٨٥، وجماعة آخرون في كتبهم.

إنّ هذا الحديث فيه مجال للنقد والطعن من جهات متعددة، إلّا أنّنا نقتصر على ذكر مايلي:

١ ـ إنّ هذا الحديث لا ينسجم مع نصّ القرآن... ووفقاً للقواعد الأصولية التي عندنا، أن كلّ حديث لا يوافق كتاب الله ساقط عن الإعتبار، ولا يمكن التعويل على أنّه حديث شريف من أحاديث النبي أو المعصومين عليهم السلام.

ففي القرآن الكريم، ورد «وورث سليمان داود» وظاهر الآية مطلق يشمل حتى الأموال.. ونقرأ في شأن يحيى وزكريا ﴿**يرثني ويرث من آل يعقوب**﴾ «مريم الآية ٦». ولا سيما في ما يخصّ زكريا، فإن كثيراً من المفسّرين أكّدوا على الاُمور المالية!.

إضافة إلى ذلك فإنّ ظاهر آيات الإرث في القرآن المجيد عام ويشمل جميع الموارد.

٢ ـ إنّ الرّواية المتقدمة تعارض رواية أُخرىٰ تدلّ على أن أبابكر صمّم على إعادة فدك إلى فاطمة عليها السلام، إلّا أن الآخرين ما نعوه، كما نقرأ في سيرة الحلبي: إن فاطمة قالت له: من يرثُك؟! قال أهلي وولدي! فقالت: فما لي لا أرث أبي؟. وفي كلام سبط بن الجوزي: إنّه كتب لها بفدك ودخل عليه عمر فقال: ما هذا؟ فقال: كتاب كتبته لفاطمة بميراثها من أبيها. فقال: فماذا تنفق على المسلمين، وقد حاربتك العرب كما ترى؟ ثمّ أخذ عمر الكتاب فشقّه[1].

ترى كيف يمنع النّبي ﷺ موضوع الإرث وينهى عنه بصراحة، ويجرؤ أبوبكر على

---

١ ـ سيرة الحلبي، ج ٣، ص ٤٨٨.

مخالفته؟! ولم استند عمر إلى المسائل العسكرية وحاجة المعارك، ولم يستند إلى الرواية؟!

إن التحقيق الدقيق ـ في الروايات الآنفة ـ يدل على أن الموضوع لم يكن موضوع نهي النّبي عن الإرث، كما أثاره أبوبكر، بل المهم هنا المسائل السياسية آنئذٍ، وهذه المسائل هي ما تدعونا إلى أن نتذكر مقالة ابن أبي الحديد المعتزلي إذ يقول: سألت أستاذي «علي بن الفارقي»: أكانت فاطمة، صادقةً؟ فقال: نعم. قلتُ: فلم لم يدفع اليها أبوبكر فدك وهي عنده صادقة؟ يقول: المعتزلى: فتبسم أستاذي، ثمّ قال كلاماً لطيفاً مستحسناً مع ناموسه وحرمته وقلّة دعابته، قال: لو أعطاها اليوم فدكاً بمجرّد دعواها، لجاءت إليه غداً وادعت لزوجه الخلافة ولم يمكنه الإعتذار بشيء لأنّه يكون قد أسجل على نفسه أنّها صادقة فيما تدعى كائناً ما كان من غير حاجة الى بيّنة ولا شهود[1].

٣ ـ الرواية المعروفة عن النّبي الواردة في كثير من كتب أهل السنّة والشيعة **«العلماء ورثة الأنبياء»**.

وما نقل عنه صلى الله عليه وآله أيضاً **«إن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً»**.

يُستفاد من مجموع هذين الحديثين أن الهدف الأساس للأنبياء نشر العلم، وهم يفخرون به، وأهم ما يتركونه هو الهداية. ومن يحصل على الحظ الكبير من العلم والمعرفة فهو وارثهم الأصيل... بصرف النظر عن الأموال التي يرثها عنهم، ثمّ إن هذا الحديث منقول في المعنى، وعُبّر عنه تعبيراً سيئاً ويحتمل أن يكون (ما تركناه صدقة) المستنبط من بعض الرّوايات مضاف عليه.

---

١ ـ شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد، ج١٦، ص ٢٨٤.

المباهلة

أمر الله نبيّه بالمباهلة إذا جاءه من يجادله من بعد ما جاء من العلم والمعرفة. وأمره ان يقول لهم: إنّي سأدعو أبنائي، وأنتم ادعوا أبناءكم، وأدعو نسائي، وأنتم ادعوا نساءكم، وأدعو نفسي، وتدعون أنتم أنفسكم، وعندئذٍ ندعو الله أن ينزل لعنته على الكاذب منّا **﴿فمن حاجّك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثمّ نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين﴾**[1].

ولا حاجة للقول بأنّ القصد من المباهلة لم يكن إحضار جمع من الناس للّعن، ثمّ ليتفرّقوا كلٌ إلى سبيله، لأنّ عملاً كهذا لن يكون له أيّ تأثير، بل كان المنتظر أن يكون لهذا الدعاء واللعن أثر مشهود عياناً فيحيق بالكاذب عذاب فوري.

وبعبارة أُخرىٰ: فإنّ المباهلة ـ وإن لم يكن في القرآن ما يشير إلى تأثيرها ـ كانت بمثابة «السهم الأخير» بعد أن لم ينفع المنطق والاستدلال، فإنّ الدعاء وحده لم يكن المقصود بها، بل كان المقصود منها هو «أثرها الخارجي».

لعلّ قضية المباهلة بهذا الشكل لم تكن معروفة عند العرب، بل كانت أُسلوباً يبيّن صدق النبيّ وإيمانه بشكل قاطع. إذ كيف يمكن لمن لا يؤمن كلّ الايمان بعلاقته بالله أن يدخل هذا الميدان، فيطلب من معارضيه ان يتقدّموا معه إلى الله يدعونه أن ينزل لعناته على الكاذب، وأن يروا سرعة ما يحلّ بالكاذب من عقاب؟! لاشكّ أنّ دخول هذا الميدان خطر جدّاً، لأن

---

١ ـ آل‌عمران، ٦١.

المبتهل إذا لم يجد استجابة لدعائه ولم يظهر أيّ أثر لعقاب الله على معارضيه، فلن تكون النتيجة سوىٰ فضيحة المبتهل. فكيف يمكن لإنسان عاقل ومدرك أن يخطو مثل هذه الخطوة دون أن يكون مطمئناً إلى أنّ النتيجة في صالحه؟ لهذا قيل إنّ دعوة رسول الله ﷺ إلى المباهلة تعتبر واحداً من الأدلّة على صدق دعوته وإيمانه الراسخ بها، بصرف النظر عن النتائج التي كانت ستكشف عنها المباهلة.

عند عرض هذا الإقتراح للمباهلة، طلب ممثّلو مسيحيّي نجران من رسول الله أن يمهلهم بعض الوقت ليتبادلوا الرأي مع شيوخهم. فكان لهم ما أرادوا. وكانت نتيجة مشاورتهم ـ التي تعتمد على ناحية نفسية ـ هي أنّهم أمروا رجالهم بالدخول في المباهلة دون خوف إذا رأوا محمّداً قد حضر في كثير من الناس ووسط جلبة وضوضاء، إذ أنّ هذا يعني أنّه بهذا يريد بثّ الرعب والخوف في النفوس وليس في أمره حقيقة. أمّا إذا رأوه قادماً في بضعة أنفار من أهله وصغار أطفاله إلى الموعد، فليعلموا أنّه نبيّ الله حقّاً، وليتجنّبوا مباهلته.

وقد حضر المسيحيّون إلى المكان المعيّن، ثمّ رأوا أنّ رسول الله ﷺ أقبل يحمل الحسين على يد ويمسك الحسن باليد الأُخرىٰ ومن خلفه علي وفاطمة، وهو يطلب منهم أن يؤمّنوا على دعائه عند المباهلة. وإذ رأىٰ المسيحيّون هذا المشهد استولى عليهم الفزع، ورفضوا الدخول في المباهلة، وقبلوا التعامل معه بشروط أهل الذمّة.

أحد أدلّة عظمة أهل البيت

يصرّح المفسّرون من الشيعة والسنّة أنّ آية المباهلة قد نزلت بحقّ أهل بيت النبيّ ﷺ، وأنّ الذين اصطحبهم النبيّ ﷺ معه للمباهلة بهم هم: الحسن والحسين وفاطمة وعلي عليهم السلام. وعليه، فإنّ «أبناءنا» الواردة في الآية ينحصر مفهومها في الحسن والحسين عليهما السلام، ومفهوم «نساءنا» ينحصر في فاطمة عليها السلام، ومفهوم «أنفسنا» ينحصر في علي عليه السلام. وهناك أحاديث كثيرة بهذا الخصوص.

حاول بعض أهل السنّة أن ينكر وجود أحاديث في هذا الموضوع، فصاحب تفسير المنار يقول في تفسير الآية:

الروايات متّفقة على أنّ النبيّ ﷺ إختار للمباهلة عليّاً وفاطمة وولديهما ويحملون كلمة «نساءنا» على فاطمة وكلمة «أنفسنا» على عليّ فقط، ومصادر هذه الروايات شيعية،

ومقصدهم منها معروف، وقد اجتهدوا في ترويجها ما استطاعوا حتّى راجت على كثير من أهل السنّة. ولكن بالرجوع إلى مصادر أهل السنّه الأصلية يتّضح أنّ الكثير من تلك الطرق لا تنتهي بالشيعة وبكتب الشيعة، وإنكار هذه الأحاديث الواردة بطريق أهل السنّة، يسقط سائر أحاديثهم وكتبهم من الإعتبار.

لكي نلقي الضوء على هذه الحقيقة، نورد هنا بعضاً من رواياتهم ومصادرها:

القاضي نور الله الشوشتري في كتابه النفيس «إحقاق الحقّ»،[1] يتحدّث عن إتّفاق المفسّرين في أنّ «أبناءنا» في هذه الآية إشارة إلى الحسن والحسين، و«نساءنا» إشارة إلى فاطمة، و«أنفسنا» إشارة إلى عليّ عليه السلام.

ثمّ يشير في هامش الكتاب إلى نحو ستّين من كبار أهل السنّة من الذين قالوا إنّ آية المباهلة نزلت في أهل البيت، ويذكر أسماء هؤلاء العلماء بالتفصيل[2].

---

١ ـ المجلّد الثالث، الطبعة الجديدة، ص ٤٦.

٢ ـ ومن المشاهير الذين نقل عنهم هذا التصريح:

١ ـ مسلم بن الحجاج النيسابوري، صاحب أحد الصحاح الستة المعروفة التي يعتمدها أهل السنّة. المجلّد ٧ ص ١٢٠ (طبعة محمّد علي صبيح ـ مصر).

٢ ـ أحمد بن حنبل في كتابه «المسند» ج ١ ص ١٨٥ (طبعة مصر).

٣ ـ الطبري في تفسيره المعروف: ج ٣ ص ١٩٢ (المطبعة الميمنية ـ مصر).

٤ ـ الحاكم في كتابه «المستدرك» ج ٣ ص ١٥٠ (طبعة حيدر آباد الدكن).

٥ ـ الحافظ أبو نعيم الأصفهاني في كتابه «دلائل النبوة» ص ٢٩٧ (طبعة حيدر آباد).

٦ ـ الواحديّ النيسابوري في كتابه «أسباب النزول» ص ٧٤ (المطبعة الهندية ـ مصر).

٧ ـ الفخر الرازي في تفسيره المعروف، ج ٨ ص ٨٥ (المطبعة البهية ـ مصر).

٨ ـ ابن الأثير في كتابه «جامع الأُصول» ج ٩ ص ٤٧٠ (مطبعة السنّة المحمدية ـ مصر).

٩ ـ ابن الجوزي في كتابه «تذكرة الخواص» ص ١٧ (طبعة النجف).

١٠ ـ القاضي البيضاوي في تفسيره ج ٢ ص ٢٢ (مطبعة مصطفى محمّد ـ مصر).

١١ ـ الآلوسي في تفسيره «روح المعاني» ج ٣ ص ١٦٧ (المطبعة المنيرية ـ مصر).

١٢ ـ الطنطاوي في تفسيره المعروف «الجواهر» ج ٢ ص ١٢٠ (مطبعة مصطفى البابي الحلبي ـ مصر).

١٣ ـ الزمخشري في تفسيره «الكشّاف» ج ١ ص ١٩٣ (مطبعة مصطفى محمّد).

١٤ ـ الحافظ أحمد بن حجر العسقلاني في كتابه «الإصابة» ج ٢ ص ٥٠٣ (مطبعة مصطفى محمّد).

جاء في كتاب «غاية المرام» عن صحيح مسلم في باب (فضائل علي بن أبي طالب) أنّ معاوية قال يوماً لسعد بن أبي وقاص: لِمَ لا تسبّ أبا تراب (علي عليه السلام)!؟ فقال: «تركت سبّه منذ أن تذكرت الأشياء الثلاثة التي قالها رسول الله صلى الله عليه وآله في حقّ علي عليه السلام (وأحدها) عندما نزلت آية المباهلة لم يدع النبيّ صلى الله عليه وآله سوىٰ فاطمة والحسن والحسين وعلي، وقال: اللهمّ هؤلاء أهلي.

صاحب «الكشّاف» وهو من كبار علماء أهل السنّة، يذهب إلى أنّ هذه الآية أقوىٰ دليل على فضيلة أهل الكساء.

يتّفق المفسّرون والمحدّثون والمؤرّخون الشيعة أيضاً أنّ هذه الآية قد نزلت في أهل البيت، وقد أورد صاحب تفسير «نور الثقلين» روايات كثيرة بهذا الشأن.

من ذلك أيضاً ما جاء في كتاب «عيون أخبار الرضا» عن المجلس الذي عقده المأمون في قصره للبحث العلمي. وجاء فيه عن الإمام الرضا عليه السلام قوله: ... **ميّز الله الطاهرين من خلقه، فأمر نبيّه صلى الله عليه وآله بالمباهلة بهم في آية الإبتهال. فقال عزّوجلّ: يا محمّد (فمنّ حاجّك فيه...) الآية. فأبرز النبيّ صلى الله عليه وآله عليّاً والحسن والحسين وفاطمة صلوات الله عليهم...**

وقال عليه السلام: فهذه خصوصية لا يتقدّمهم فيها أحد، وفضل لايلحقهم فيه بشر، وشرف لا يسبقهم إليه خلق.

كذلك وردت روايات بهذا المضمون في تفسير البرهان وبحار الأنوار وتفسير العيّاشي، وكلّها تقول إنّ الآية قد نزلت في أهل البيت.

---

١٥ ـ ابن الصبّاغ في كتابه «الفصول المهمّة» ص ١٠٨ (طبعة النجف).

١٦ ـ العلّامة القرطبي في كتابه «الجامع لأحكام القرآن» ج ٣ ص ١٠٤ (طبعة مصر سنة ١٩٣٦).

زواج النّبي ﷺ بزينب[1]

كانت خديجة قد إشترت قبل البعثة وبعد زواجها بالنّبي ﷺ عبداً إسمه زيد، ثمّ وهبته للنبي ﷺ فأعتقه رسول الله ﷺ، فلمّا طردته عشيرته وتبرّأت منه تبنّاه النّبي ﷺ.

وبعد ظهور الإسلام أصبح زيد مسلماً مخلصاً متفانياً، وأصبح له موقع ممتاز في الإسلام، وكما نعلم فإنّه أصبح في النهاية أحد قوّاد جيش الإسلام في معركة مؤتة وإستشهد فيها.

وعندما صمّم النّبي ﷺ على أن ينتخب زوجة لزيد، خطب له «زينب بنت جحش» ـ والتي كانت بنت «أُميّة بنت عبدالمطلّب»، أي بنت عمّته ـ فكانت زينب تظنّ أنّ النّبي ﷺ يريد أن يخطبها لنفسه، فسرّت ورضيت، ولكنّها لمّا علمت فيما بعد أن خطبته كانت لزيد تأثّرت تأثّراً شديداً وإمتنعت، وكذلك خالف أخوها عبدالله هذه الخطبة أشدّ مخالفة.

هنا نزل الوحي وحذّر زينب وعبدالله وأمثالهما بأنّهم لا يقدرون على مخالفة أمر يراه الله ورسوله ضرورياً، فلمّا سمعا ذلك سلّما لأمر الله.

إنّ هذا الزواج لم يكن زواجاً بسيطاً ـ كما سنرى ذلك ـ بل كان مقدّمة لتحطيم سنّة جاهلية مغلوطة، حيث لم تكن أيّة امرأة لها مكانتها وشخصيتها في المجتمع مستعدّة للإقتران بعبد في زمن الجاهلية، حتّى وإن كان متمتّعاً بقيم إنسانية عالية.

غير أنّ هذا الزواج لم يدم طويلاً، بل إنتهى إلى الطلاق نتيجة عدم الإنسجام وإختلاف أخلاق الزوجين، بالرغم من أنّ النّبي الأكرم ﷺ كان مصرّاً على أن لا يتمّ هذا الطلاق.

بعد ذلك اتّخذ النّبي ﷺ بأمر الله «زينب» زوجةً له لتعوّض بذلك فشلها في زواجها،

---

١ ـ علي رأي اكثر المفسرين والمؤرخين إنّ الآيات ٣٦ إلىٰ ٣٨ من سورة الاحزاب نزلت في هذه القصّة.

فإنتهت المسألة هنا، إلّا أنّ همهمات وأقاويل قد ظهرت بين الناس، وقد إقتلعها القرآن و عالجها في هذه الآيات التي نبحثها، وسيأتي تفصيل ذلك، إن شاءالله تعالى.

ثمّ تناول القرآن الكريم قصّة «زيد» وزوجته «زينب» المعروفة، والتي هي إحدى المسائل الحسّاسة في حياة النّبي ﷺ، ولها إرتباط بمسألة أزواج النّبي ﷺ فيقول: **﴿وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتّق الله﴾** [1].

والمراد من نعمة الله تعالى هي نعمة الهداية والإيمان التي منحها لزيد بن حارثة، ومن نعمة النّبي ﷺ أنّه كان قد أعتقه وكان يعامله كولده الحبيب العزيز.

ويستفاد من هذه الآية أنّ شجاراً قد وقع بين زيد وزينب، وقد استمرّ هذا الشجار حتّى بلغ أعتاب الطلاق، وبملاحظة جملة **﴿تقول﴾** حيث إنّ فعلها مضارع، يتسفاد أنّ النّبي كان ينصحه دائماً ويمنعه من الطلاق.

هل أنّ هذا الشجار كان نتيجة عدم تكافؤ الحالة الإجتماعية بين زينب وزيد، حيث كانت من قبيلة معروفة، وكان هو عبداً معتق؟ أم كان ناتجاً عن بعض الخشونة في أخلاق زيد؟

أو لا هذا ولا ذاك، بل لعدم وجود إنسجام روحي وأخلاقي بينهما، فإنّ من الممكن أن يكون شخصان جيدين، إلّا أنّهما يختلفان من ناحية السلوك والفكر والطباع بحيث لا يستطيعان أن يستمرا في حياة مشتركة؟ [2]

إنّ النّبي ﷺ كان قد قرّر أن يتّخذ «زينب» زوجة له إذا ما فشل الصلح بين الزوجين ووصل أمرهم إلى الطلاق لجبران هذه النكسة الروحية التي نزلت بابنة عمّته زينب من جرّاء طلاقها من عبده المعتق، إلّا أنّه كان قلقاً وخائفاً من أن يعيبه الناس ويثير مخالفيه ضجّة وضوضاء، من جهتين:

الأُولى: أنّ زيداً كان ابن رسول الله ﷺ بالتبنّي، وكان الابن المتبنّى ـ طبقاً لسنّة جاهلية ـ يتمتّع بكلّ أحكام الابن الحقيقي، ومن جملتها أنّهم كانوا يعتقدون حرمة الزواج من زوجة الابن المتبنّى المطلّقة.

والأُخرى: هي كيف يمكن للنبي ﷺ أن يتزوّج مطلّقة عبده المعتق وهو في تلك المنزلة الرفيعة والمكانة السامية؟

---

١ ـ الاحزاب، ٣٧.

٢ ـ ثمّ تضيف الآية: **﴿وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحقّ أن تخشاه﴾**.

ويظهر من بعض الروايات أنّ النّبيﷺ قد صمّم على أن يقدم على هذا الأمر بأمر الله سبحانه رغم كلّ الملابسات والظروف، وفي الجزء التالي من الآية قرينة على هذا المعنى.

بناءً على هذا، فإنّ هذه المسألة كانت مسألة أخلاقية وإنسانية، وكذلك كانت وسيلة مؤثّرة لكسر سنّتين جاهليتين خاطئتين، وهما: الإقتران بمطلّقة الابن المتبنّىٰ، والزواج من مطلّقة عبد معتق.

من المسلّم أنّ النّبيﷺ لا ينبغي أن يخاف الناس في مثل هذه المسائل، ولا يدع للضعف والتزلزل والخشية من تأليب الأعداء وشايعاتهم إلى نفسه سبيلاً، إلّا أنّ من الطبيعي أن يبتلى الإنسان بالخوف والتردّد في مثل هذه المواقف، خاصّة وأنّ أساس هذه المسائل كان إختيار الزوجة، وأنّه كان من الممكن أن تؤثّر هذه الأقاويل والضجيج على إنتشار أهدافه المقدّسة وتوسّع الإسلام، وبالتالي ستؤثّر على ضعفاء الإيمان، وتغرس في قلوبهم الشكّ والتردّد.

يقول سبحانه في متابعة المسألة: إنّ زيد لمّا أنهى حاجته منها وطلّقها زوجناها لك: **﴿فلمّا قضى زيد منها وطراً زوّجناكها لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهنّ وطراً﴾** وكان لابدّ أن يتمّ هذا الأمر **﴿وكان أمر الله مفعولاً﴾**[1].

وممّا يستحقّ الإنتباه أنّ القرآن الكريم يبيّن بمنتهى الصراحة الهدف الأصلي من هذا الزواج، وهو إلغاء سنّة جاهلية كانت تقضي بمنع الزواج من مطلّقات الأدعياء، وهذا بنفسه إشارة إلى مسألة كلّية، وهي أنّ تعدّد زواج النّبيﷺ لم يكن أمراً عادياً بسيطاً، بل كان يرمي إلى أهداف كان لها أثرها في مصير دينه.[2]

---

١ ـ الاحزاب، ٣٧.

٢ ـ **أساطير كاذبة**

مع أنّ القرآن الكريم كان غاية في الصراحة في قصّة زواج النّبي الأكرمﷺ من زينب، وفي تبيان هذه المسألة، والهدف من هذا الزواج، وأعلن أنّ الهدف هو محاربة سنّة جاهلية فيما يتعلّق بالزواج من مطلّقة الإبن المدّعى، إلّا أنّها ظلّت مورد إستغلال جمع من أعداء الإسلام، فحاولوا إختلاق قصّة غرامية منها ليشوّهوا بها صورة النّبي المقدّسة، واتّخذوا من الأحاديث المشكوك فيها أو الموضوعة في هذا الباب آلة وحربة يلوّحون بها. ومن جملة ذلك ما كتبوه من أنّ النّبيﷺ جاء إلى دار زيد ليسأل عن حاله، فما إن فتح الباب حتّى وقعت عينه على جمال زينب، فقال: «سبحان الله خالق النور! تبارك الله أحسن الخالقين» واتّخذوا هذه الجملة دليلاً على تعلّق النّبيﷺ بزينب.

في حين أنّ هناك دلائل واضحة ـ بغضّ النظر عن مسألة العصمة والنبوّة ـ تكذّب هذه الأساطير:

الأُولى: أنّ زينب كانت بنت عمّة النّبي ﷺ، وقد تربيّا وكبرا معاً في محيط عائلي تقريباً، والنّبي ﷺ هو الذي خطبها بنفسه لزيد، وإذا كان لزينب ذلك الجمال الخارق، وعلى فرض أنّه استرعى إنتباهه، فلم يكن جمالها أمراً خافياً عليه، ولم يكن زواجه منها قبل هذه الحادثة أمراً عسيراً، بل إنّ زينب لم تبد أي رغبة في الإقتران بزيد، بل أعلنت مخالفتها صراحةً، وكانت ترجّح تماماً أن تكون زوجة للنبي ﷺ، بحيث أنّها سرّت وفرحت عندما ذهب النّبي ﷺ لخطبتها ظنّاً منها بأنّ النّبي ﷺ يخطبها لنفسه، إلّا أنّها رضخت لأمر الله ورسوله بعد نزول هذه الآية القرآنية وتزوّجت زيداً.

مع هذه المقدّمات هل يبقى مجال لهذا الوهم بأنّ النّبي ﷺ لم يكن عالماً بحال زينب وجمالها؟ وأيّ مجال لهذا الظنّ الخاطيء بأن يكون راغباً في الزواج منها ولا يستطيع الإقدام عليه؟

والثّانية: أنّ زيداً عندما كان يراجع النّبي ﷺ لطلاق زوجته زينب، كان النّبي ينصحه مراراً بصرف النظر عن هذا الأمر، وهذا بنفسه شاهد آخر على بطلان هذه الإدّعاءات والأساطير.

ومن جهة أُخرى فإنّ القرآن الكريم قد أوضح الهدف من هذا الزواج بصراحة لئلّا يبقى مجال لأقاويل أُخرى.

ومن جهة رابعة قرأنا في الآيات المذكورة أعلاه أنّ الله تعالى يقول: قد كان في حادثة زواج النّبي بمطلّقة زيد أمر كان النّبي يخشى الناس فيه، في حين أنّ خشيته من الله أحقّ من الخشية من الناس. إنّ مسألة خشية الله سبحانه توحي بأنّ هذا الزواج قد تمّ كتنفيذ لواجب شرعي، يجب عنده طرح كلّ الإعتبارات الشخصية جانباً من أجل الله تعالى ليتحقّق هدف مقدّس من أهداف الرسالة، حتّى وإن كان ثمن ذلك جراحات اللسان التي يلقيها جماعة المنافقين في اتّهاماتهم للنبي، وكان هذا هو الثمن الباهض الذي دفعه النّبي ﷺ ـ ولا زال يدفعه إلى الآن ـ في مقابل طاعة أمر الله سبحانه، وإلغاء عرف خاطيء وسنّة مبتدعة.

إلّا أنّ هناك لحظات حرجة في حياة القادة المخلصين تحتّم عليهم أن يضحّوا ويعرّضوا أنفسهم فيها لاتّهام أمثال هؤلاء الأفراد ليتحقّق هدفهم!

أجل .. لو كان النّبي ﷺ لم ير زينب من قبل مطلقاً، ولم يكن يعرفها، ولم يكن لدى زينب الرغبة في الإقتران به، ولم يكن زيد مستعدّاً لطلاقها ـ وبغضّ النظر عن مسألة النبوّة والعصمة ـ لكان هناك مجال لمثل هذه الأقاويل والتخرّصات، لكن بملاحظة إنتفاء كلّ هذه الظروف يتّضح كون هذه الأكاذيب مختلفة.

إضافةً إلى أنّ تاريخ النّبي ﷺ لم يعكس أي دليل أو صورة تدلّ على وجود رغبة خاصّة لديه ﷺ في الزواج من زينب، بل هي كسائر الزوجات، بل ربّما كانت أقل من بعض الزوجات من بعض الجهات، وهذا شاهد تأريخي آخر على نفي هذه الأساطير.

ثعلبة

إنّ رجلاً من الأنصار يدعىٰ ثعلبة بن حاطب، وكان رجلاً فقيراً يختلف إلى المسجد دائماً، وكان يصر على النّبيﷺ أن يدعو له بأن يرزقه الله مالاً وفيراً، فقال له النّبيﷺ: «قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه» أو ليس الأُولىٰ لك أن تتأسى بنبيّ اللّهﷺ، وتحيا حياة بسيطة وتقنع بها؟ لكن ثعلبة لم يكف ولم يصرف النظر عن أمله، وأخيراً قال للنّبيﷺ: والّذي بعثك بالحق نبيّاً، لئن رزقني الله لأعطين كل الحقوق وأؤدي كل الواجبات، فدعا له النّبيﷺ.

فلم يمض زمان ـ وعلى رواية ـ حتى توفي ابن عم له، وكان غنيّاً جدّاً، فوصلت إليه ثروة عظيمة، وعلى رواية أُخرىٰ أنّه اشترى غنماً، فلم تزل تتوالد حتى أصبح حفظها ورعايتها في المدينة أمراً غير ممكن، فاضطر أن يخرج إلى أطراف المدينة، فألهته أمواله عن حضور الجماعة، بل وحتى الجمعة.

وبعد مدّة أرسل النّبيﷺ عاملاً إلىٰ ثعلبة ليأخذ الزكاة منه، غير أن هذا الرجل البخيل الذي عاش لتوّه حياة الرفاه امتنع من أداء حقوق اللّه تعالىٰ، ولم يكتف بذلك، بل اعترض على حكم الزّكاة وقال: إنّ حكم الزكاة كالجزية، أي أنّنا أسلمنا حتى لا نؤدي الجزية، فإذا وجبت علينا الزكاة فأي فرق بيننا وبين غير المسلمين؟

قال هذا في الوقت الذي لم يفهم معنى الجزية ولا معنى الزكاة، أو أنّه فهمه، إلّا أن حبّ الدنيا وتعلقه بها لم يسمح له ببيان الحقيقة وإظهار الحق، فلمّا بلغ النّبيﷺ ما قاله قال: «يا ويح ثعلبة! يا ويح ثعلبة»[1].

---

١ ـ المشهور بين المفسرين أنّ الآيات ٧٥ إلىٰ ٧٨ من سورة التوبة نزلت في هذه القصّة.



الفهرس

و من اصداراتنا الاخرى

سلسلة لقاء مع الابرار

١ــ الوحيد البهبهاني (رجل العقل)	تأليف: عباس العبيري
٢ــ الميرزا القمي (باعث علم الاصول)	تأليف: محمد حسين العرفاني
٣ــ الشهيد الاول (فقيه السربداران)	تأليف: محمد حسين الاماني
٤ــ الشهيد الثاني (زين الدين الجبعي العاملي)	تأليف: علي صادقي (غلامي)
٥ــ الزعيم الاكبر آية الله البروجردي	تأليف: عباس العبيري
٦ــ السيد بحر العلوم	تأليف: نور الدين علي
٧ــ السيد محمد تقي الخونساري (على ينابيع الشهود)	تأليف: حسن ايدرم
٨ــ الآخوند الخراساني (شمس في منتصف الليل)	تأليف: محمد رضا السمّاك
٩ــ الطوسي (شيخ الطائفة)	تأليف: علي رضا شهروي
١٠ــ السيد حسين القمي (رجل الثورة)	تأليف: محمد باقر پور أميني
١١ــ المقدس الأردبيلي (أضواء على حياته وشخصيته)	تأليف: آية الله الكريمي الجهرمي

تم نقلها الى العربية على يد الاستاذ كمال السيد

▪حوارات حول المنقذ

من هو منقذ البشرية و ماهي صفاته و متى يظهر
الى الذين ينتظرون المهدي عج بحق و العدالة ان ترفع رايتها في العالم
و يجاهدون من اجل اعلاء كلمة الاسلام تمهيداً لظهوره

▪نافذة على قضايا الاسلام

من مواضيع الكتاب:

رسول الاسلام ودلائل نبوّته/ سيدنا محمد خاتم الانبياء/ بعثة سيدنا محمد و نزول القرآن/ الإسلام والإيمان/ الإنسان و مسؤولياته/ الواجبات و الاحكام و مصادرهما/ اصول و فروع الدين/ حقوق المرأة في الاسلام/ المرأة والحرية/ المرأة والحجاب.

▪دراسة عامة في الإمامة

من مواضيع الكتاب:

الامامة/ الامامة في ضوء العقل/ الادلة العقلية على الإمامة/ العصمة/ العصمة في ضوء العقل و العلم/ علم الامام في ضوء الأحاديث/ مصادر علوم الامام/ الاعجاز/ هل المعجزة أمر ممكن/ من الذي يقوم بالمعجزة/ الفرق بين المعجزة و السحر/ أفضلية الإمام/ طريقة الانتخاب/ الشورى.

▪نحو حياة دافئة

من مواضيع الكتاب:

الحياة.. هواجس و أحلام/ الأمن العائلي.. المهمة الصعبة/ أهداف الزواج/ واجبات الحياة الزوجية/ الرجل ينشد الحب/المرأة ايضاً تنشد الحب/ المرأة و الخروج من البيت/ عندما يغضب الرجل/ عندما تغضب المرأة/ الحياة في الغربة/ ماذا لو كان عمل الرجل في البيت/ ارضاء الأم ام الزوج/ مشاركة الرجل في الاعمال المنزلية/ الانانية اكبر العوامل في اثارة النزاع العائلي/ هموم الاسرة العربية/ تحقيقات اجتماعية/ الوفاق الزوجي اساس التماسك الاجتماعي.

مجموعة من مؤلفات العلامة إبراهيم الأميني
قام بترجمتها الى العربية الاستاذ كمال السيد

الطريق
الى غدير خم

«دليل سياحي و مشاهد في طريق الهجرة التاريخية و حجة الوداع»

الى شعب ابي طالب و الى دار الارقم و الى.. و الى غار في جبل ثور.. و الى عيون "بـدر" و جبل "احد" و شجرة "الرضوان" الى "الحديبية" و الى "فدك" و الى.. "غدير خم" في ذلـك الوادي حيث تفور عين الغدير و حيث توقف النبي(ص) يؤدي رسالة ربّه في آخر بلاغ سماوي. أجل في تلك البقعة المقدسة حيث هبط جبرئيل يحمل آيات السماء: {يا ايّها الرسول بلّغ ما انزل اليك من ربك و إن لم تفعل فما بلّغت رسالته}.

اعداد

كمال السيد

نهج الفصاحة

١ـ٢

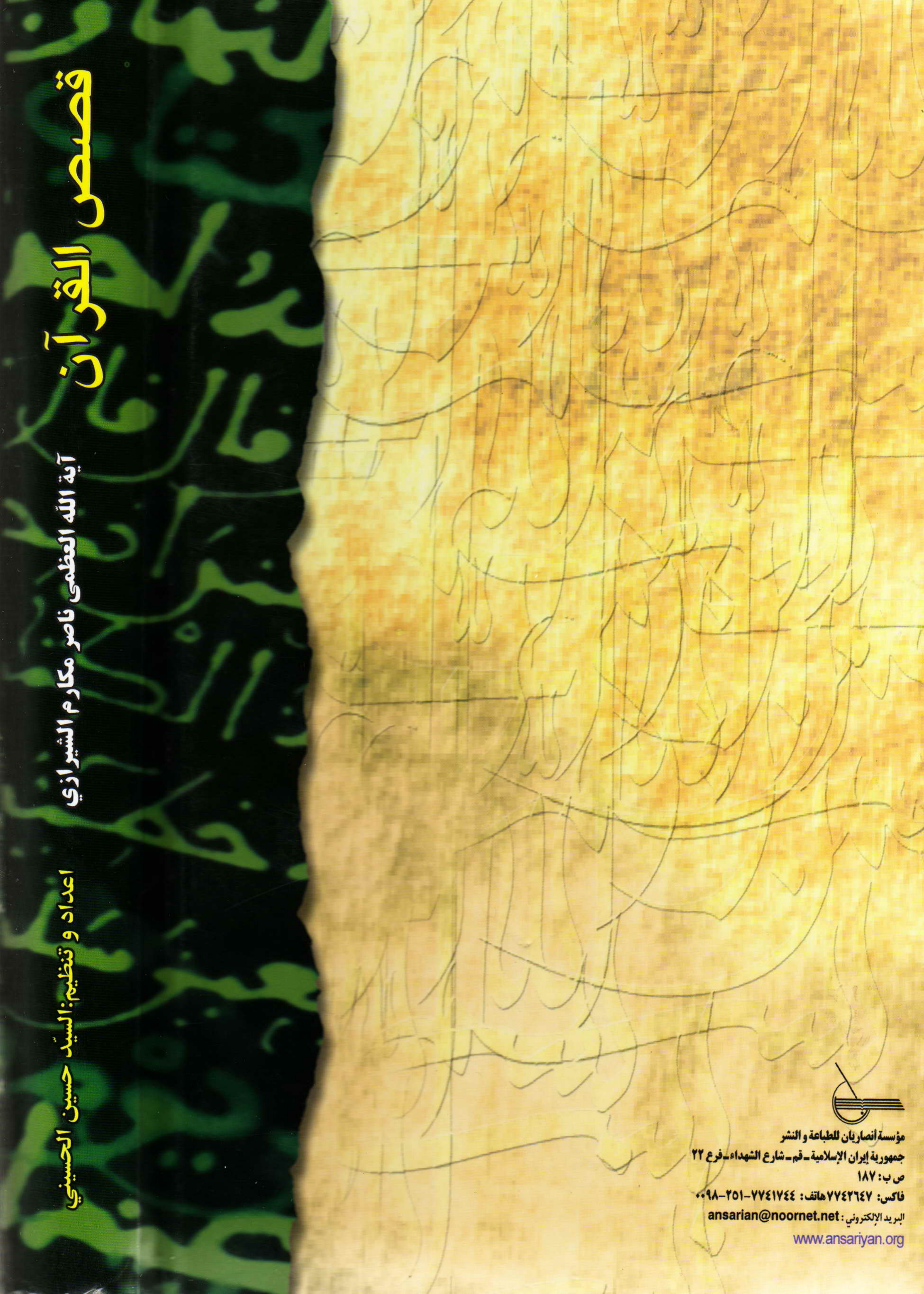
الحاوي لقصار كلمات الرسول الاكرم(ص)

حققه و رتبه وفق المنهج الموضوعي

الشيخ غلام حسين المجيدي

من مواضيع الكتاب:

الاحتكار/ آخر الزمان/ الإخلاص/ الأرواح/ الاستخارة/ الاستغفار/ الإسلام/ الاقتصاد/ الأكل/ الأمانة/ الأمن/ الأمّة/ الانتظار/ الانتقام/ التجسس/ التجمّل/ التشييع/ التعليم و التعلم/ التقوى/ الثواب/ الحافظة/ الحب و البغض/ الجهاد/ الحسرة/ الحق/ الحكومة/ الخمر/ الخيانة/ الدعاء/ الرزق/ الرشوة/ الزاني ـ الزانية/ الزكاة/ الرياسة/ الرؤيا/ الزواج/ السارق/ السعادة/ الشبهة/ الشهوة/ صلة الرحم/ العفيف ـ العفّة/ الغصب/ الفاجر/ الفحشاء/ الغِناء/ الفُرقة/ الفضولي/ الفضيحة/ القتل/ الكذب/ اللّذة/ اللّواط/ اللهو ـ اللعب/ المنافق/ النفاق/ النمّام/ الهجرة/ اليتيم/ الوسواس/ الوطء/ الهلاك/ الهوى/ اليهود، ومئات المواضيع الاخرى الشيقة و المفيدة لكل طالب للمعرفة .



قصص القرآن
آية الله العظمى ناصر مكارم الشيرازي
اعداد و تنظيم: السيّد حسين الحسيني
مؤسسة أنصاريان للطباعة و النشر
جمهورية إيران الإسلامية ـ قم ـ شارع الشهداء ـ فرع ٢٢
ص ب: ١٨٧
فاكس: ٧٧٤٢٦٤٧ هاتف: ٧٧٤١٧٤٤-٢٥١-٠٠٩٨
البريد الإلكتروني: ansarian@noornet.net
www.ansariyan.org